ميشا سليموفيتش

الدرويش والموت

رواية

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة

منشورات وسم

الدرويش
والمـوت

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

الترقيم الدولي (ISBN): 978-1-953680-79-2
جميع الحقوق محفوظة ©

منشورات وسم

الكويت - العاصمة - القبلة - شارع فهد السالم
عمارة أسامة - الدور الأول س- مكتب رقم 26
إيميل wasm_publishing@hotmail.com
تصميم الغلاف: محمد إسلام @Medislamm
التنسيق الداخلي: ضياء فريد

الدرويش والموت

ميشا سليموفيتش

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة

الحارث النبهان

منشورات وسم

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة المترجم

رواية فلسفية غنية بتأملات مسهبة في النفس البشرية تستمد مادتها من مجريات الحياة في بقعة في أقصى الغرب من الدولة العثمانية. تدور الوقائع في واحدة من حواضر البوسنة المهمة يطلق عليها الكاتب «القصبة» في زمن مضطربٍ لعله واقعٌ في القرن السابع عشر، أو نحو ذلك.

يعتبر هذا العمل أهم ما كتبه ميشا (محمد) سليموفيتش الذي كان واحداً من أبرز الأدباء في يوغوسلافيا. على أن الكاتب وصف روايته اللاحقة التي حملت اسم «الحصن»، وكانت الحلقة الثانية من مشروع ثلاثية روائية لم يتسنّ له إكمالها، بأنها تتمة لهذه الرواية مشدداً بهذا على مركزية الدور الذي لعبه السجن في عالمه البوسني، ومشدداً بالتالي على استنكار الظلم وعلى الدفاع عن قيمة حرية الإنسان. وبطبيعة الحال، لا تخفى صلة هذا كله بما عاشه الكاتب ومعاصروه في يوغوسلافيا القرن العشرين.

خَوَرُ القلب وقلة العزم من أبرز صفاتِ الشخصية الأولى في هذه الرواية: أحمد نور الدين، شيخ التكية المولوية الذي تتنزل به مصائب لا يد له فيها فتُحدِث في نفسه تحولات كبيرةً كاشفةً.

حبكة الرواية بسيطة، وحوادثها تكاد تكون عاديةً، لكن معالجتها هي ما تميز العمل وتجعله دراسةً في الضعف البشري تتجاوز كثيراً إطار زمانها ومكانها.

ولد ميشا سليموفيتش (اسمه الأصلي محمد) سنة 1910 في مدينة توزلا الواقعة شمال غرب البوسنة، وتوفي سنة 1982. كانت أسرته ميسورة الحال، وكان مع أخويه من الناشطين في الحزب الشيوعي اليوغوسلافي قبل الحرب العالمية الثانية، ثم من المساهمين في حركة المقاومة ضد الاحتلال النازي (حركة الأنصار التي نظمها وقادها الحزب الشيوعي بزعامة تيتو) إلى أن انتهت الحرب. لكن شقيقه الأكبر لم يلبث أن أُعدم بتهمة «إساءة التصرف بمال الشعب» كي يكون عبرة لغيره مع أنه كان عضواً في الحِزب. لم يستطع شقيقاه ميشا وتيفيك

إنقاذه؛ وقال البعض إنهما توانيا عن بذل الجهد في ذلك. من هنا، قد يجوز اعتبار الرواية نوعاً من محاكمة الذات.

بعد ذلك، طُرد سليموفيتش من الحزب لأنه ترك زوجته وابنته من أجل امرأة «برجوازية» هي ابنة حاكم سراييفو في عهد الملكية، أي عندما كانت المنطقة جزءاً من امبراطورية النمسا ـ المجر. كان اسمها «دوركا» وإليها أهدى كتابه هذا. عاش بعد ذلك عيشةً صعبةً (مع أنهم أعادوه إلى الحزب الحاكم)؛ وكان يكسب عيشه من كتابات وأعمال متفرقة إلى أن جاء عقد الستينيات فصار محرراً في مؤسسة نشر مرموقة وبدأت كتاباته تلقى نجاحاً متزايداً، كانت هذه الرواية تتويجاً له، ثم أعقبها ترشيحه لجائزة نوبل التي لم يفز بها.

عمل محاضراً في جامعة بلغراد. وكان عضواً في الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون وفي رابطة كتاب صربيا. وكان يتكلم البوسنية والصربية والكرواتية.

لا بد من الإشارة إلى كثرة الآيات القرآنية في هذا العمل، وكذلك إلى عدم دقة الكاتب في إيراد عدد منها: يُستهلّ كل فصل بآية من القرآن الكريم أو بجزء من آية، وترد في المتن آيات كثيرة، فضلاً عن مواضع قليلة أخرى فيها مقاطع تكاد تحاكي بعض الآيات لكنها غير مطابقة لها. (قد يجوز رد الأغلاط، أو قلة الدقة، إلى أن الكاتب لا يتكلم العربية. لكن «المحاكاة» في بعض المواضع مقصودة إذ لا يزعم المؤلف أبداً أن تلك المواضع مأخوذة من القرآن). من هنا، عمدت إلى تصحيح ما وقع من أغلاط، وأبقيت المحاكاة على حالها: مقاطع يستعين الكاتب فيها بكلمات كثيرة مستعارة من آيات قرآنية وبمعانٍ مستوحاة منها لكنه يظل واضحاً في أنه ينشئها على هذا النحو بنفسه. (من أبرز الأمثلة على ذلك محاولة بطل الرواية الشيخ أحمد نور الدين شرح آيات كثيرة من سورة الواقعة في حديثه مع واحد من الحراس بعد أن زجّوا به في السجن).

القسم الأول

-١-

بسم الله الرحمن الرحيم

أنادي كي أُشهد الحبرَ، الريشةَ، الكلماتِ المنسابة من يَراعي،
أنادي كي أُشهد الظلال المترنحة، ظلالَ المساء الغارق، الليلَ وكل ما يُحْيِيه،
أنادي كي أُشهد القمر عند تمامه، كي أُشهد الشمس عند مغربها،
أنادي كي أُشهد يوم القيامة، كي أُشهد الروح التي تتهم نفسها بنفسها،
أنادي كي أُشهد الزمان، بداية كل شيء ونهاية كل شيء، كي يشهد على أن الإنسان لَفي خُسر.

سأكتب. لا بسبب علّةٍ، لا لطلب منفعة لي ولا لغيري.. سأكتب لحاجة أبلغ من المنفعة، وأقوى من العلة. فعليّ أن أترك أثراً من نفسي، تأريخاً لعذابِ أجدالٍ في داخلي، آملاً ـ من غير كبير رجاء ـ عندما أترك مداد قلمي على هذه الورقة الجاثمة أمامي كأنها تحدٍّ لي، أن يظهر لي حل قبل أن تسوّى الحسابات.

لست أدري بعد ما سوف يصير مكتوباً هنا. على أن بعضاً مما في نفسي، على الأقل، سيظل في رسوم هذه الحروف، ولن يتبدّد بعد اليوم، كتلافيف ضباب رقيق، كأنه ما كان قط، أو كأنني ما علمت أبداً ما كان وما صار. هكذا أصير مبصراً كيف قد صرت ما أنا عليه.

مشوشة هذه السطور ومضطربة، فيدي ترتعش أمام المهمة المنتصبة أمامي، مهمة نقض ما انفتل في داخلي، محاولة أن أكون القاضي والشاهد والمتهم. أن أكون صادقاً إلى أقصى ما أستطيع، صادقاً إلى أقصى ما بلغته قدرة الإنسان؛ هذا لأني بدأت أشك في أن الصدق والإخلاص واحد، في أنهما صنوان. فالإخلاص يقينٌ من أننا ننطق الحق (ومن عساه يكون موقناً من هذا؟)، لكن للصدق ضروبٌ كثيرة لا يحدث أن يتفق الواحد منها مع غيره.

اسمي أحمد نور الدين. أعطيت هذا الاسم فتلقيته معتزاً. لكن الآن، بعد مرور سنين كثيرة تنامت علي مثلما يتنامى الجلد. أفكر في اسمي فيستبد العجب بي، بل يمكن أن أرى في الأمر هزءاً ـ بعض الأحيان ـ فأن يدعو المرء نفسه «نور الدين» لأمر ناطق بغرور ما عرفته نفسي يوماً، غرور صار الآن يخجلني. فكيف أكون نوراً؟ وكيف استنرت؟ أبالعلم؟ أبسعة تحصيلي؟ أبنقاء قلبي؟ أبصواب دربي؟ أبخلاصي من الشكوك؟ صار كل شيء ملفّعاً بالشكوك، وما عدت الآن إلا أحمد.. لا الشيخ أحمد، ولا أحمد نور الدين. سقط عني كل شيء مثلما يسقط ثوب، أو مثلما تسقط درع، وما عاد لي غير ما كان لي أول الأمر: جلدٌ عارٍ، واسم عارٍ.

أنا الآن في الأربعين، في هذه السن المواربة: لم يكبر المرء على الأحلام وحسب، بل صار أكبر سناً من أن يستطيع تحقيقها. إنها السن التي يهدأ فيها قلق كل إنسان وتململُه فيستطيع أن يصير جريئًا بفعل العادة وبدافع ما استقر في نفسه من يقين بأن السقم آتٍ إليه لا محالة. لكني لست أفعل غيرَ ما كان واجباً فعله منذ أمد بعيد، إبان تفتح شبابي العاصف حين كانت الدروب لا تعدّ، وتبدو حسنة كلها، عندما كانت الأخطاء كلها مفيدة مثلها مثل الصواب. ليتني كنت أكبر بعشر سنين؛ ليقيني تقدم السن من الوقوع في العصيان، أو ليتني كنت أصغر بعشر سنين، حين لا يكون لشيء أهمية أبداً. الثلاثون شباب لا يهاب شيئاً، لا يهاب حتى نفسه. على الأقل، هذا ما أراه الآن بعد أن ولّت الثلاثون من غير رجعة، بعد أن طواها الماضي.

كتبتُ قبل ثلاثة أسطر كلمةً غريبة: عصيان! يتردد قلمي فوق هذا السطر المستقيم الذي فُرضت عليه معضلة «عصيان»، كان أسهل على اللسان النطق بها. هذه أول مرة أسمّي فيها عذابي هكذا؛ فأنا لم أفكر فيه هكذا يوماً. عصيان! من أين أتتني هذه الكلمة الخطيرة؟ وهل هي كلمة فحسب؟ أسأل نفسي إن كان من الأفضل أن أكف عن الكتابة حتى لا أجعل الأشياء تزداد صعوبة، أو حتى لا تكون أصعب مما هي عليه الآن، فكيف الصنيع إن كانت الكتابة تستدرُّ مني ـ بطريقة لا سبيل إلى شرحها ـ أموراً لا أريد قولها، أموراً لا أقصدها، وأخرى

متخفيّةً في أكثر أعماقي ظلمة تنتظر أن يثيرها ما بي الآن من هياج. إحساسٌ أستبعد كثيراً أن يناولني حقيقته. إن وقع هذا، فسوف تكون الكتابة استجواباً لا رحمة فيه، سوف تكون أمراً من الجحيم. لعل من الأفضل لي أن أكسر ريشتي التي عنيت كثيراً بشحذ سنانها، وأن ألقي بالحبر على البلاطات الحجرية أمام التكيّة. سوف تذكّرني اللطخة السوداء بألا أعود أبداً إلى هذا التعويذة التي توقظ الأرواح الشريرة! عصيان! أهذه كلمة فحسب؟ أم هي فكرة؟ إن كانت فكرة، فهي فكرتي، أو لعلها تكون ضلالي. إن كانت ضلالاً، فيا ويلي، وإن كانت حقاً، فيا ويلي ويا ويلي!

مع هذا، ما من سبيل أمامي، فأنا لا أستطيع أن أبوح بهذا لأحد غير نفسي، وغير الورق؛ لذا، سأواصل كتابة هذه السطور التي لا أستطيع لها رداً، سأكتبها من اليمين إلى اليسار، من الهامش إلى الهامش، من فكرة إلى فكرة كأنني أسير من هوّة إلى أخرى. وسوف تظل صفوف هذه السطور الطويلة شهادة، أو اتهاماً. لكنه اتهام في حق من، يا ربي القادر على كل شيء، أنا فريسة أعظم رزايا بني البشر كلها، رزية مواجهة المرء نفسه؟ من الذي يتهم؟ ومن المتهم؟ أهو اتهام في حقي، أم في حق غيري؟ لا فرق.. فما عاد أمامي من سبيل للخلاص، ولا مفر لي من هذه الكتابة مثلما لا مفر لي من الحياة، أو من الموت.

سيكون ما ينبغي أن يكون، وخطيئتي هي أنني ما كنته.. إن كان هذا خطيئة.

الظاهر أن كل شيء يتغير تغيراً تاماً، فكلّ ما في ذاتي مرتعش. العالم يتأرجح معي لأنه لا يمكن أن يَقر إن لم تَقر نفسي. مع هذا كله، فلكل ما يقع ولكل ما وقع سبب واحد أوحد: ما أنا راغب فيه، وما ينبغي أن أفعله، هو أن أحترم نفسي. فمن غير هذا لا أستطيع العثور على قوة كي أعيش كما يعيش الرجال. لعلي أبدو سخيفاً، لكني عشت أمسي مثلما يعيش الرجال. أريد العيش مثلما يعيش الرجال في يومي هذا أيضاً، وهو يوم آخر، مختلف، لعله نقيض اليوم الذي مضى. هذا لا يقلقني لأن الرجل يتغير دائماً، ولأنه من الإثم أن تتجاهل ضميرك عندما يتكلم.

أنا شيخ تكية الطريقة المولوية، الطريقة الأوسع انتشاراً، الأكثر نقاءً. والتكية ـ حيث أعيش ـ واقعة عند أطراف القصبة[1]* بين جروف سوداء متجهمة تحجب الشطر الأكبر من السماء فلا تترك غير فرجة زرقاء من فوقي، فرجة كأنها رحمة شحيحة أو كأنها تذكرة بما كان لي في طفولتي من سماء لا حد لامتدادها. لست ممن يحبون الذكريات القديمة ـ تعذبني الذكرى أكثر فأكثر كأنها فرصة ضيعتها ولا أعرف أية فرصة هي. أقيم مقارنات غامضة بين الغابات الوارفة من فوق بيت أبي والحقول والكروم الممتدة من حول البحيرة هناك وبين الفجّ الصخري حيث تقبع التكية محصورة، وأنا فيها محصوراً.. ثمة تشابهات كثيرة بين الحدود الضيقة في نفسي وبين التي من حولي.

على أن التكية فسيحة، بهيجة، مشرفة على نهر يجري نازلاً من الجبال فيعبر صخور الفجّ. فيها حديقة، ومسكبة ورد، وشرفة من فوقها أشجار تظللها. وفي الطابق العلوي رواق طويل يسوده صمت ناعم كالقطن، بل إن خرير النهر في الأسفل يجعله يبدو أكثر صمتاً. كان هذا المكان في ما مضى موضع إقامة حريم أسلاف الثري علي آغا جانيتش الذي جعله بعد ذلك وقفاً للطريقة المولوية حتى يكون ملتقى الدراويش ومأوى المعوزين «لأن قلوبهم كسيرة». طهرنا المكان من خطاياه بالصلاة والبخور فصارت التكية موضعاً مقدساً عند الناس مع أننا لم نستطع تخليصها من كل ما كان فيها من ظلال نسائها الشابات. تمر أوقات يبدو لي فيها أنهن تعبرن هذه الغرف تاركاتٍ فيها عطرهن.

التكية موضع شهرة وقدسية ـ إنها أنا. لقد كنت أساسها وسقفها. يعرف الكل هذا، وما من داعٍ يدعوني إلى الحرص على إخفائه. لو كان الأمر غير هذا لما ضمت هذه السطور سوى كذبة مقصودة (لا يلام المرء إن كذب من غير قصد فضلل نفسه دون أن يريد تضليلها). لولاي لكانت التكية مجرد بيت فيه خمس غرف. لكنها صارت في وجودي معقلاً من معاقل الإيمان. ولما كانت آخر بيت

(1) يستخدم سليموفيتش كلمة «القصبة» اسماً للبلدة التي تجري فيها وقائع روايته. ثمة إشارات واضحة كثيرة موحية بأنها مدينة سراييفو التي هي الآن عاصمة البوسنة والهرسك، لكنها ما كانت في ذلك الوقت عاصمة (قرابة القرن السابع عشر) لأن عاصمة تلك الولاية العثمانية كانت في ترافنيك.

في القصبة، وما من بيت بعده، فقد بدت التكية كأنها دفاع عن القصبة كلها في مواجهة الشر، ما ظهر منه وما خفي. شعريات ثخينة القضبان على النوافذ وسور ضخم من حول الحديقة يجعل عزلتنا أكثر مناعة، أكثر أماناً؛ على أن البوابة مفتوحة دائماً كي يستطيع دخولها كل من يلتمس راحة أو تطهراً من إثمه. كنا نستقبلهم بكلمات رقيقة مع أن كلماتنا تظل أقل مما يرهقهم، بل حتى أقل من خطاياهم. لست أتيه زهواً بما قدمته من خدمة، فهكذا يخدم المرء إيمانه حقاً ـ يخدمه مخلصاً له بقلبه كله. كنت أعتبر هذا واجباً، وأرى بركته في وقاية نفسي وغيري من الإثم. نعم، نفسي أيضاً، فلا معنى لإخفائي هذا. الأفكار الخاطئة أشبه بالريح.. فمن ذا الذي يستطيع ردها عنه. ثم إنني لا أرى في هذا شراً عظيماً. فما غاية التقى إن لم تكن أمامنا فتنٌ نقاومها؟ الإنسان ليس ملاكًا، فقوته هي في قدرته على كبح طبائعه ـ هذا ما كنت أفكر فيه ـ وإن لم يكن لديه ما يقاومه أو يكبحه، ففيم يحب له الفضل فيه؟ صرت الآن أفكر في هذا تفكيراً مختلفاً قليلاً، لكن عليّ ألا أخوض في أي أمر قبل أن يصير الخوض فيه لزاماً عليّ. ثمة وقت لكل شيء. الورق راقد في حجري منتظراً صابراً أن يستقبل ما أنوء به من ثقل، لكن من غير أن يستطيع تخليصي منه ومن غير أن يحس فداحته. في انتظاري ليلة طويلة لا نوم فيها، بل ليال طويلة كثيرة.. وسوف أصل إلى هذا كله. سأفعل كل ما ينبغي فعله. سأتهم نفسي، وأدافع عن نفسي. ما من حاجة بي إلى أن أستعجل شيئاً مع علمي أن ثمة أموراً أستطيع الكتابة عنها الآن، وقد لا أستطيع ذلك أبداً من جديد. عندما يحين الوقت وأجد نفسي راغباً في الخوض في أمور أخرى فسوف يكون لها وقتها أيضاً. أستطيع أن أحسها متكومة في مخازن دماغي، متصلة كلها، متزاحمة هناك. لا وجود لأي منها مستقلة عن غيرها، إلا أن في تلك الفوضى نظاماً لأن الفكرة الواحدة من أفكاري الحبيسة تعرف دائماً كيف تقفز من بين رفيقاتها ـ لست أدري كيف ـ وتخرج إلى النور فتجرحني أو تواسيني. أراها أحياناً تتزاحم ويهاجم بعضها بعضاً من غير صبر كأنها تخشى أن تظل حبيسة فلا تقال. لست مستعجلاً، فثمة وقت لكل شيء. هذا ما قطعته على نفسي. ففي كل محاكمة مواجهاتٌ وشهادات، وأنا لن أُبطل شيئاً من هذا. في آخر المطاف، سوف أكون قادراً على إصدار حكم على نفسي فالأمر متصل

بي، لا بأحد غيري. على غير انتظار، صار العالم سراً مستغلقاً علي، وصرت عصيًا عليه. تواجهنا معاً وصار كل منا ينظر إلى الآخر عجِباً. ما عاد الواحد منا يعرف الآخر، وما عاد يفهمه.

فلأعد من جديد إلى نفسي، وإلى الكلام عن التكية.

كنت أحبها، وما أزال أحبها. إنها هادئة، نظيفة.. هي مكاني. لها في الصيف رائحة الأقحوان، وفي الشتاء رائحة ثلج وريح شديدة. فوق هذا، أحبها لأنني من جعلها كما هي، ولأنها تعلم أسراراً ما أفصحتُ أبداً عنها أمام أي إنسان. كنت فيها خبيئاً، حتى عن نفسي. كانت التكية دافئة آمنة تهدل حمائمها على السطح في الصباح الباكر وتنقر قطرات المطر على حجارتها نقراً هيناً. السماء ماطرة، الآن أيضاً، ماطرة من غير انقطاع مع أننا في فصل الصيف. ينساب ماء المطر جارياً عبر مزاريب خشبية مرتحلاً في ليل خيّم على العالم بنذر بالشؤم. إن بي خوفاً من أن هذا الليل لن ينجلي، لكن بي أَملاً في أن الشمس ستشرق عما قريب.

أحب التكية لأنها تحميني في هدأة غرفتيّ حيث أستطيع أن أخلو إلى نفسي وقت أراني راغباً في استراحة من الناس.

النهر يشبهني: مزبد بعض الأحيان، هادئ لا حسّ له في أحيانٍ كثيرة. حزنت عندما أقاموا عليه سداً تحت التكية فحولوه إلى خندق حتى يجعلوه طيّعاً، حتى يجعلوه مفيداً ويجري عبر قناة فيدير طاحوناً. وكنت سعيداً عندما فاض فحطم السد وجرى حراً. كنت أعلم طيلة الوقت أن المياه المروّضة وحدها قادرة على طحن القمح.

على أن المطر ما يزال منهمراً، كحاله منذ أأيا، وما تزال الحمائم تهدل في العليّة، غير قادرة على الخروج من تحت إفريز السطح؛ تعلن قدوم نهار لما يأت بعد. تيبست يدي لطول إمساكها هذا القلم، وراحت الشمعة تذوب وترسل ما يشبه شرراً كأنها تحاول أن تدرأ موتها. أنظر إلى صفوف الكلمات الطويلة هذه، إلى شواهد قبور أفكاري، فلا أدري إن كنت قتلتها أم وهبتها الحياة.

-٢-

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ - قرآن كريم

بدأ كل شيء يصير معقداً منذ شهرين وثلاثة أيام. يبدو لي أن علي أن أبدأ إحصاء الأيام منذ الليلة التي سبقت عيد القديس جورج، لأن هذا كان زمني.. الزمن الوحيد الذي له أهمية عندي. كان شقيقي محبوساً في الحصن منذ عشرة أيام.

سرت في الشوارع قبيل غسق ليلة عيد القديس جورج، ينوء بي حزن ومرارة لا تحيطهما الكلمات. بالرغم من ذلك بدوت هادئاً، إذ لم تعكس هيأتي ما في داخلي من اضطراب؛ وهذا شيء يسطيع الإنسان فعله بالتعوّد عليه. كان يسعدني أن أترك القصبة في تلك الساعة الهادئة المتأخرة بعد المغرب حتى يأتي الليل فيجدني وحيداً. لكن واجبي قادني في الاتجاه المعاكس. قادني إلى حيث لقاء الناس. حللت محل الحافظ محمد الذي كان مريضاً فاستدعاه راعينا المحسن علي يانيتش. كنت على علم أن يانيتش مريض منذ شهور، وقد يطلب ذهاب واحد منا إليه قبل أن يدركه الموت. وكنت على علم أيضاً أن صهره القاضي عيني أفندي هو من أمر بزجّ أخي في السجن. لهذا السببً، كنت مسروراً بالموافقة على الذهاب مع إحساسي بأمل غامض.

عندما أدخلوني عبرنا الساحة والبيت، سرت كعهدي دائماً بألا أرى ما لا يعنيني - يبقيني هذا أكثر قرباً من نفسي. ثم تركوني وحدي في ممر طويل حيث انتظرت أن يبلغ نبأ وصولي إلى من ينبغي أن يبلغه، ورحت أصغي إلى الصمت. كان صمتاً مطبقاً كأن ما من أحد يعيش في ذلك الصرح الكبير، كأن ما من أحد يتحرك في ممراته وفي غرفه. في هدأة تلك الحياة المكتومة، إلى جوار رجل محتضر ما يزال يتنفس هناك، في مكان لا أعرفه، في صمت خطوات تخبو على السجاد، في كلام مهموس خافت، كان الخشب القديم في السقوف وفي إطارات

النوافذ يتشقق مطلقاً صوت فرقعة واهنة. بينما كنت أرقب كيف أحاط المساء البيت بظلال حريرية وكيف ارتعشت آخر انعكاسات ضوء النهار على زجاج النوافذ، فكرت في الرجل العجوز وفيما سأقوله له في هذا اللقاء الأخير. تحدثت مع مرضى مرات كثيرة، وأرسلت محتضرين في تلك الرحلة الطويلة أكثر من مرة. علمتني الخبرة إن كان ثمة ضرورة للخبرة أن كل إنسان يحس خوفاً مما ينتظره، من المجهول الذي بدأ يقرع بابه من غير أن يكشف عن نفسه للقلب الذي استبد به الذعر.

كثيراً ما كنت أحاول أن أريحهم بالقول:

الموت يقين لا مهرب منه. هو الأمر الوحيد الذي نعلم علم اليقين أنه سيحل بنا. لا مفاجآت هنا، ولا استثناءات. تقود إليه الدروب كلها. كل ما نفعله هو الاقتراب من الموت، استعداد يبدأ لحظة ولادتنا عندما نبكي واضعين جباهنا على الأرض. لا نبتعد يوماً عن نهايتنا، بل نقترب. لكن، إن كان الموت يقيناً، فلماذا يفاجئنا عندما يأتينا. إن كانت هذه الحياة معبراً قصيراً لا يستمر أكثر من ساعة أو أكثر من يوم، فلماذا نكافح حتى نطيلها ساعة أخرى، أو يوماً آخر؟ الحياة الدنيا غادرة، والحياة الآخرة خير وأبقى.

وكثيراً ما كنت أقول:

لماذا ترتعد قلوبكم خوفاً عندما تلتف الساق بالساق في سكرة الموت؟ ʼموت انتقال من دار إلى دار. هو ليس اختفاء، بل ولادة جديدة. فكما تتكسر قشرة البيضة عندما يكتمل نمو الطائر فيها، يأتي وقت لا بد فيه أن تفارق الروح الجسد. الموت ضرورة في هذا المعبر المحتوم إلى العالم الآخر عندما يبلغ الإنسان أوج صعوده.

وكثيراً ما كنت أقول:

الموت هو فساد المادة، لا فساد الروح.

وكثيراً ما كنت أقول:

الموت تغير في الكينونة. تبدأ الروح العيش وحدها. فإلى أن تفارق الجسد، تظل تمسك بيديه، وترى بعينه، وتسمع بأذنيه، لكنها تدرك بنفسها لب الأمر.

وكثيراً ما كنت أقول:

في يوم موتي، عندما يحملون نعشي،
لا تحسبوا أنني سأكون آسفاً على هذه الدنيا.
لا تبكوا، ولا تقولوا: ما أكبر الخسارة!
الخسارة أكبر عندما يفسد الحليب.
لن أتلاشى عندما تروني راقداً في قبري.
فهل يتلاشى الشمس والقمر عندما يغربان؟
قد يبدو لكم هذا موتاً، لكنه ولادة.
يبدو القبر لكم مثل سجن، لكن الروح فيه تصير حرة.
أية حبّة لا تتبرعم عندما توضع في التراب؟
إذاً، لماذا لا تؤمنون بحبّة الإنسان؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

وكثيراً ما كنت أقول:

يا قوم داوود، احمدوا الله وقولوا: لقد جاء الحق، جاءت الساعة، فكل إنسان مرتحل إلى سبيله إلى أن يأتي الأجل. يخلقكم الله في أرحام أمهاتكم ويغيركم من صورة إلى صورة في تلك العتمة المثلثة الدامسة. لا تحزنوا بل ابتهجوا بالجنة التي أنتم بها موعودون. لا تجزعوا على أنفسكم اليوم، فلن تكونوا آسفين. أيتها الروح المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية. ادخلي في عبادي، وادخلي في جنتي.

قلت هذه الأمور مرات لا عد لها.

لكني ما كنت واثقاً من أن علي أن أقولها للعجوز الذي كان في انتظاري. لا من أجله، بل من أجلي. فلأول مرة (كم مرة سأقول هذا اليوم: لأول مرة؟) لا يبدو لي الموت الآن بسيطاً مثلما ظننت من قبل أو مثلما جعلت الآخرين يظنون. جاءني في ليلتي حلم مخيف. كنت واقفاً في مكان خالٍ فوق جثة أخي، وعند قدميّ نعشه الطويل مغطى بقطعة قماش زرقاء. وعلى مسافة مني، وقف أشخاص في دائرة من حولي. ما رأيت منهم أحداً، وما عرفت منهم أحداً، وما عرفت سوى أنهم واقفون في دائرة من حولنا وأنهم تركوني وحدي، فوق الجثة، في صمت أليم. تركوني واقفاً فوق الجثة التي ما كنت قادراً على القول لها: لماذا يرتعش

القلب؟ ما كنت قادراً على هذا لأن قلبي كان مرتعشاً، ولأني خفت الصمت الميت. آلمني سرٌّ، سرٌّ لم أر له سبباً. أردت الاحتماء من الخوف فقلت إن له سبباً، لكني لم أعثر على سبب. انهض، قلت له، انهض! لكن أخي كان غارقاً في ظلمة، مختفياً في ضباب، في عتمة مخضرّة كأنه تحت الماء، كأنه رجل غارق في فراغ مجهول.

كيف لي الآن أن أقول لهذا الرجل المحتضر: «اتبع سبيل ربك طائعاً» عندما أكون مرتعداً على تلك السبيل التي لا يملك علمي الضئيل أدنى فكرة عنها؟

كنت مؤمناً بالحساب وبالحياة الأبدية بعده، لكني صرت مصابًا بالذعر من هول الموت، ومرعوباً من ظلمته الحالكة.

أدخلوني تلك الغرفة قبل أن أفلح في الوصول إلى قرار. خادمة في مقتبل العمر أدخلتني. سرت خافضاً بصري حتى لا أرى وجهها فأفكر في أمر ما، في أي أمر. سأكذب عليك أيها العجوز، وسوف يصفح الرب عني. سوف أقول لك ما تنتظر سماعه، لا هذه الأفكار المضطربة في رأسي.

ما كان هناك. لاحظت من غير أن أرفع عيني أن الغرفة خالية من رائحة المرض الثقيلة التي لا سبيل إلى التخلص منها بعد مرض طويل، لا بتنظيفها ولا بتهويتها ولا بإشعال البخور فيها.

عندما رفعت رأسي ونظرت باحثاً عن هذا الرجل الذي مرض مرضاً طويلاً دون أن يشم رائحة الموت، أبصرت امرأة جميلة جالسة على أريكة: تذكرة بالحياة أكثر قوة مما قد يكون حسناً لي.

قد يكون غريباً أن يبدر هذا القول عني، لكنه حقيقة: أحسست نفسي غير مرتاح. لعل لهذا أسباب كثيرة! أعددت نفسي كي ألتقي رجلاً عجوزاً محتضراً وغزتني أفكار مرهقة، لكني مثلت أمام ابنته (صحيح أنني لم أرها من قبل، لكني كنت عارفاً أنها ابنته). لست بارعاً في الحديث مع النساء، مع نساء في مثل سنها وجمالها خصوصاً. بدت لي في الثلاثين، أو نحو ذلك. تتخيل الشاباتُ الحياة تخيلاً، لا أكثر، وتؤمنّ بالكلمات. تخشى العجائز الموت، وتطلقن الزفرات عندما تصغين إلى قصص عن الفردوس. وأما النساء اللواتي مثل هذه فتعرفن

قيمة كل شيء تكسبنه أو تخسرنه، ولديهن دائماً أسباب لكل ما تفعلن، أسباب قد تكون غريبة لكنها نادراً ما تكون ساذجة. عيونهن الناضجة حرة حتى عندما تخفينها، مفتوحة (ليس هذا مما يسر المرء) حتى عندما تختبئ خلف أهدابها. أسوأ ما في الأمر إدراكنا أنهن تعرفن أكثر مما تُبدين، وأنهن تقسننا بمقاييس غريبة خاصة بهن، مقاييس لا تطالها أفهامنا. لا نستطيع مخادعة فضولهن الذي يظل متفجراً حتى عندما تخفينه. فضول مُحتم ببحرمتهن.. فقط، إن أردن ذلك. لا يحمينا شيء عندما نقف أمامهن. إنهن واثقّات من قوتهن التي لا تستخدمها، بل تبقينها مثل سيف في غمده، وتبقين أيديهن عليها، وترَين فينا عبيداً محتملين أو مخلوقات جديرة بالازدراء، مخلوقات معتزة من غير سبب بقوتها التي لا نفع فيها. ثقتهن الغبية بأنفسهن مقنعة جداً، مقنعة إلى حد يؤثر فينا حتى إذا كرهناها. نظل متوجسين على الرغم من إيماننا بشيء من احتمال مجهول، بشيء من سحر، بشيء من قوة الشيطان السرية.

فوق هذا، كانت في هذه المرأة أيضاً قوة خاصة غير منتمية إليها، بل إلى من تحدرت منهم. هيأتها، وحركاتها، واثقة، مطمئنة، آمرة. (هكذا أشارت لي بأن أجلس).. قوة بدت كأنها مخففة، كأنما لطَفها شيء لم أستطع تحديده، شيء لعله الاعتياد، شيء بانَ لي التماعاً ناعماً في عينيها اللتين كانتا مظللتين بالكحل، ظاهرتين من شق في حجابها.. بان في ذراعها المنحنية كمثل عنق بجعة، في كفها الممسكة حافة القماش.. بانَ لي في الألق المنبعث منها كأنه سحر خفي.

ابنة الشيطان.. هكذا شتمها الدرويش الذي فيّ، وهكذا فكر الفلاح الذي فيّ، لقد استبدت الدهشة بهذا وذاك.

انداحت في الغرفة ظلمة وما عاد فيها من بياض غير حجابها ويدها. كنا جالسين في ناحيتين متقابلتين من الغرفة، التي ما كان عرضها كافياً أبداً، وبيننا ترقب قلق.

قالت آمنةً في شبه الظلمة، «لقد أرسلت في طلب الحافظ محمد».

كانت غير راضية أو أن هذا ما بدا لي.

«طلب أن آتي بدلاً منه. إنه مريض».

«غير مهم. أنت أيضاً صديق لهذا البيت».

«صحيح، أنا صديق البيت».

أردت قول المزيد. أردت أن يكون قولي أكثر إتقاناً: من غير ذلك، لن أفوز بهذه الكلمات الدافئة الودود، ولن أكون مستحقاً اهتمام راعينا المحسن الذي لبيته مكانة خاصة في قلوبنا.. أردت أن أقول هذه الكلمات كأنها كلمات أغنية. لكنها خرجت من فمي مختلطة، مضطربة.

أتت بضع خادمات بشموع وشراب.

انتظرت.

شموع متقدة بيني وبينها على طاولة مزاحة جانباً. بدت المرأة أكثر قرباً، أشد خطورة. لم أدر ما يجول في خاطرها.

ظننت أنني استدعيت من أجل أبيها. وكنت سآتي حتى إن لم يخامرني أي أمل في حدوث معجزة، في فرصة خبيئة، في بارقة حظ قد تكون معينة لي في محاولة إنقاذ أخي. حسبت أنني قد أستطيع دس كلمة تطلب الرحمة له، قد أستطيع دسها بين طيات كلامي على الموت وعلى الفردوس. قد تكون تلك الكلمة مفيدة، وقد يرغب العجوز في أن يقوم بعمل صالح قبل رحلته الكبرى، الرحلة التي لا نعلم عنها شيئاً. ولعله يظن أن عملاً صالحاً يمكن أن يظل حاملاً ذكراه. قد يكون هذا.. لأننا قبيل موتنا، نتذكر ملاكين يقفان عند كتفينا ويسجلان صنيعنا كله، خيره وشره، ولأننا نكون في لهفة إلى إصلاح موازيننا. يصعب أن يموت المرء ميتة أوفر ربحاً من تلك التي يرافقها صنيعٌ خيّر يظل من بعدنا نضراً لا تشوبه شائبة. لقد كان سهلاً عليه أن يساعدني مثلما يساعد نفسه. سيكون عيني أفندي حريصاً أشد الحرص على ألا يغضب حماه الثري بأن يبقي مسكيناً في غياهب السجن إذا قرر علي آغا أن إطلاق سراحه دون أن يخسر شيئاً أو يزعج نفسه بأي شيء ـ يمكن أن يخدمه فيصير مثل درجة ترقى به في سبيله إلى السماء. لا يمكن أن يجد علي آغا كسباً أكثر سهولة من هذا الكسب. لم يساورني أي شك في قبوله رجائي.

إلا أني لا أعلم عنها شيئاً. لن تكون قادرة على الكلام معي في أي أمر، ولا أستطيع أن أكون مفيداً لها من أية ناحية. عجزت عن رؤية أية صلة رابطة بيني وبينها.

كنا متواجهين كأننا محاربين يخفي كل منهما أسلحته خلف ظهره، كأننا خصمين يدفن كل منهما نواياه في دخيلة نفسه. سوف نفصح عن نفسينا عندما تبدأ المنازلة بيننا. انتظرت كي أرى ما تريد الاستيلاء عليه، ما تريد أخذه، لكن الأمل ظل حياً في نفسي مع أنه ما عاد قوياً مثلما كان قبل هنيهات فقط. هذه المرأة أصغر سناً وأكثر جمالاً من أن تستطيع التفكير في الملائكة وفي ميزان الحسنات والسيئات. هذا العالم هو العالم الوحيد الموجود بالنسبة إليها.

لم تُمض وقتاً طويلاً في التردد أو في البحث عن الكلمات. حقاً، كانت مثل محارب سائر إلى المعركة من غير وجل ومن غير أية نية في أن يعود منثنياً على أعقابه. هذا عائد إلى مكانتها، وإلى مكانتي أيضاً. إن كان لها أن تتردد أو تنثني، فلن يكون ذلك في مواجهتي. أول الأمر، تابعت صوتها الذي حرصتْ على إبقائه خفيضاً، صوتها الذي له وقع مثل وقع الناي. أصغيت إلى كلامها الذي كان أشبه بالتطريز، أو بلآلئ منظومة ـ كلمات وعبارات مختلفة أشد الاختلاف عما في كلام أهل البلدة ـ كلامها واهنٌ، لكنه حافل بالزينة، عليه هالة مستمدة من تلك الغرف العتيقة، مما هو ثابت مستقر.

«لا يسهل علي أن أقول هذا ـ لا يمكن أن أبوح به لأي شخص. لكنك درويش. وأنا واثقة من أنك رأيت وسمعت كل شيء، من أنك أعنت كل ما استطعت إعانته من الناس. وأنت عارف أن أموراً تحدث في كل أسرة لا تُسرّ أحداً. هل تعرف أخي حسن؟»

«أعرفه».

«أود أن أكلمك عنه».

هكذا، منذ بداية كلامها، قالت كل ما كان قوله لازماً. أثنت علي، وأظهرت لي أنها واثقة بي، وذكرت لقبي، وأعدتني لسماع ما ستقوله من أمور غير باعثة على السرور فشملت بكلامها كل الناس حتى لا أنسى أن أموراً مزعجة تصيب كل أسرة.. لا أسرتها وحدها. صحيح أن الشر يصير أكبر، لكن خزيه يصغر لأنه يعم الجميع فيصير الخوض فيه ممكناً من غير خجل.

أتبعتْ هذه المقدمة اللطيفة لطفاً لا فائدة منه بشكوى يعرفها الجميع، شكوى من أن في كل أسرة «خروفاً أسود»، ومن أن أعمالاً كبيرة قد انتهت إلى خيبة مخجلة. خروف الأسرة الضال لا يزعجه سواد لونه مع أنه مبعث أسف وألم عند الآخرين، مبعث خزي أمام الناس وخوف من غضب الرب. يأتي الناس على ذكر هذه الحسرة أمامنا، يذكرونها مخلصين، آملين في عوننا، فنعدهم بالعون لكننا نادراً ما نفلح في تقديمه، على أننا لا نتأخر أبداً عن الشهادة للآخرين بأنهم فعلوا كل ما يستطيعوا فعله وأن الذنب ليس ذنبهم في أن الشر يظل باقياً، يظل لا سبيل إلى اجتثاثه.

أعرف هذه الحكاية عن ظهر قلب؛ فنحن نسمعها منذ أمد بعيد. تضاءل اهتمامي بها فور سماعي إياها. أصغيت إليها متظاهراً بالانتباه إلى كلامها، وموّهت ذلك بأن اكتسى وجهي تعبيراً كاذباً عن اليقظة والمتابعة. من غير سبب. توقعت أن أسمع منها ما قد يثير دهشتي. لكن، لا شيء يثير دهشتي. لن تقول إلا ما يصح قوله: ستشكو لي أخاها وتطلب مني أن أكلمه، أن أحاول إعادته إلى جادة الصواب. وسوف أصغي إلى اعترافها المتظاهر بالحزن مبدياً تعاطفي فأعدها بفعل كل ما تستطيعه قدراتي الواهية متكلاً على عون الرب. لن يتغير شيء، لكنها ستكون مطمئنة لأنها أدت واجبها، ولأن الجميع سيعرف هذا. سوف أكلم حسناً وأحاول ألا أبدو سخيفاً. وسوف يواصل حسن العيش على هواه سعيداً بأن أسرته غاضبة منه. لن يصيب هذا أحداً بأي سوء.. ولن تكون له أية فائدة. لن يستفيد أخي السجين؛ ولن أستفيد. هذا لأنها تكلمني من غير أية حاجة حقيقية، من غير أي أمل من منفعة أو نجاح.. تكلمني منطلقة من إحساس واهٍ بواجب اجتماعي مرادٍ منه أن يبلغ مسامع من هم خارج الأسرة. وقد كان منتظراً مني أن أؤدي هذه المهمة. على أن هذا ليس أكثر من مسلك مهذب، من موقف يلائم سمعة الأسرة، ليس أكثر من إبراء ذمة أمام الآخرين، أمام أسر لا علاقة لها بالأمر. إنه انفكاك عن ذلك الآثم، إقصاء له. وهي لن تكسب من هذا الأمر إلا أقل القليل. لن تكسب ما قد يكون كافياً لأن أطلب الرحمة لأخي. صار المارقون على عائلاتهم مثل حسن، يظهرون أكثر فأكثر. وأحسب أنهم يجدون في سمعة آبائهم، وفي

مراتبهم، ما يدفعهم إلى هذا. حسن ليس إلا واحد من بين كثيرين. يعني هذا أن ما يلحقه بأسرته من خزي ليس أمراً فريداً؛ لأنه حالة من بين حالات كثيرة أخرى.. حالات لا يستطيع البشر ضبطها، لا يستطيعون الحيلولة دون ظهورها.

ما كان في قصتها ما يثير اهتمامي لأنني علمت نهايتها فور سماعي بدايتها، ولم أتأثر بشكواها قط لأنني كنت عالماً أنها شكوى غير صادقة. لكنها كانت مدركة أيضاً كيف تظهر قدراً من التحفظ: ما أرادت أن تبالغ في الأمر. ففي نظرها، كان كافياً أن تأتي على ذكره. إن في هذا الوفاء بواجبٍ لا يحدوها قلبُها إليه قدرٌ مقبول مما قد أستطيع تسميته تبلّد الحس!

ولما ما عاد لدي أي سبب يدعوني إلى الانتباه إلى كلامها، أو حتى إلى الإصغاء إلى ما تقول، انصب تركيزي على النظر إليها، على ملاحظتها. هذا ما فعلته بكل اهتمام؛ ولعلها ظنت أنه كان نتيجة كلماتها. من هنا، بدا كل منا مهذباً.

في حقيقة الأمر، كنت أرقبها منذ أول لحظة من لقائنا. فاجأتني بجمال وجهها الناعم الذي كان متألقاً من تحت نسيج حجابها الرقيق. فاجأني ذلك الضياء الخافت في عينيها الكبيرتين ـ كأنه ضياء مكبوت ـ ضياء يكشف اندفاعاً حماسياً وظلالاً عميقة فيها. على أن تلك كانت نظرة متعجّلة، قلقة، غير آمنة، لأنني أترقب ما سوف تقول.. نظرة تفصح عني أكثر مما تفصح عنها. وعندما انزاح ذلك السحر، عندما عرفت كيف أضع نفسي في أمان انتباهي الظاهري إلى كلامها، أغوتني بأن أنظر إليها بعينيّ، لكن ليس بدون قدر من الاضطراب.

ما كان هذا فضولاً عادياً من أجل إلقاء نظرة أفضل على واحدة من تلك المخلوقات الغريبة، تلك المخلوقات البعيدة جداً عن عالمنا، فضولاً لا نستطيع إرضاءه إلا في أحوال نادرة. بل إن من الممكن ألا نحسه عندما نلتقيهن، وذلك نتيجة اعتبارات يستطيع المرء فهمها. على غير انتظار، وجدت نفسي في موقع يسمح لي بمراقبتها سراً من غير إقلاق أي شيء في علاقتنا، فقد بقيت أمامها درويشاً يحترم مشيئتها ومكانتها. أتاني إحساس بأنني متفوق عليها لأنني عارف ما تفكر فيه، فصرت أنظر إليها من غير حرج، لكنها ظلت غير قادرة على رؤيتي. ما كانت مبصرة مني شيئاً، وما كانت عارفة عني شيئاً؛ كانت هذه مزية لعلنا

نتمناها في أحوال كثيرة، لكننا لا نحظى بها إلا في أحوال نادرة. إنها رغبة الإنسان في أن يكون غير مرئي. إلا أنني لم آت بأي تصرف غير لائق، فقد كنت أراقبها هادئاً، متمالكاً نفسي؛ وكنت مدركاً أنني أفكر في أمر قد يخجلني تذكره.

نظرت إلى يديها أول الأمر. عندما تمسك خمارها بحركات ثابتة محسوبة تحدّ من إمكانيات تلك اليدين، أراهما منفصلتين وأراهما من غير تعبير، بل لا أكاد ألحظهما. وأما عندما تترك الخمار وتضم يديها معاً، فإن الحياة تدب فيهما على غير انتظار فتصيران كياناً واحداً. لا تتحركان حركات سريعة، ولا تندفعان، لكن استقرارهما الصامت وتجولهما البطيء فيهما معنى غريب وقوة فائقة شدت انتباهي مرة بعد مرة. بدا لي أنهما قد تأتيان بأمر مهم، في أية لحظة، بأمر ذي أهمية حاسمة. نشأ جو من الترقب الدائم، المثير. استقرت يداها معاً في حجرها، استقرتا متعانقتين كأن كل واحدة منهما تغمر أختها بتوق هادئ، أو كأنها تمنعها من الابتعاد عنها، من الإقدام على فعل مسرف أو غير عقلاني. ظلت يداها ساكنتين، وظل فيهما تموّج لا ينقطع، تموّج لا تكاد العين تلحظه كأنه ارتعاشة مديدة أو كأنه اختلاج خفيف ناجم عن طاقة مفرطة خبيئة. ثم تباعدت اليدان من غيرما استعجال كأنهما اتفقتا على ذلك التباعد. حامتا لحظة كأن كل واحدة منهما تبحث عن رفيقتها، ثم استقرتا استقراراً لطيفاً على ركبة حريرية، استقرتا مثلما يستقر طائران عاشقان فتعانقتا من جديد، اتحدتا من غير انفصال، وسكنتا سعيدتين معاً بصمتهما. استمر هذا زمناً طويلاً، ثم تحركت واحدة من اليدين وراحت تداعب الحرير من تحتها، وتداعب الجلد من تحت الحرير. مداعبةٌ بأصابع تنقبض وتنبسط بحركة بطيئة لكنها مفعمة عاطفةً. استقرت اليد الأخرى فوقها، صامتة، مصغية إلى حفيف الحرير الصقيل على الركبة المرمرية المدورة. ما كانت اليدان تتباعدان إلا تباعداً عارضاً فتنطلق واحدة منهما في رحلة خاصة بها وحدها كي تداعب، مداعبة رقيقة، قرطاً متدلياً من أذن اختبأت خجلى تحت شعر أسود فيه نفحة من حمرة، أو تسكن لحظة في الهواء كأنها تريد سماع كلمة أو اثنتين من غير كبير اهتمام، ثم تنسحب من الحديث فتلاقي أختها الصامتة التي ساءها غياب الاهتمام، وإن يكن غياباً وجيزاً.

تابعت تلك اليدين وقد فاجأني ما لوجودهما المستقل من قدرة على التعبير. كانتا أشبه بمخلوقين صغيرين يعيشان في عالم خاص يضم احتياجاتهما وحبهما وغيرتهما وتوقهما وشهوانيتهما. في لحظة، وجدت نفسي محبوراً، ثم وجدت نفسي في اللحظة التالية وقد أفزعتني تلك الفكرة المجنونة، فكرة عزلتهما وانعدام المعنى في تلك الحياة البسيطة الضيقة الشبيهة جداً بكل حياة أخرى. على أن تلك كانت فكرة سريعة لا ضرر فيها؛ كانت نبضة لحظية واحدة من حياة أخرى في داخلي، من حياة ما أردت إيقاظها من سباتها.

وأيضاً، راقبت تلك اليدين لجمالهما. تبدأ يداها عن معصميها المكتسيين أساوراً، المتدثرين بردني قميصها الحريري المطرزين. مفاصل اليدين رقيقة الاستدارة، فيها رشاقة لا سبيل إلى فهمها والأصابع كأنها شفافة. أصابعها أجمل ما في يديها: أصابع طويلة، رشيقة، جلدها الأبيض ناعم عليه ظلال عند المفاصل. بدت لي الأصابع حية، تنبسط وتنقبض بطيئاً في كأس شفافة مثلما تنفتح بتلات الزهرة في كأسها.

صحيح أن انتباهي اتجه أول الأمر إلى تلك اليدين، إلى المخلوقين الصغيرين، الحيوانين الصغيرين، الأخطبوطين، الزهرتين، لكن ملاحظتي لم تقف عند حدود يديها، ولا حتى في البداية عندما كنت أنظر إليهما أكثر الوقت، ولا بعد ذلك عندما رحت أستكشفها كلها مثلما يستكشف المرء أرضاً مجهولة. كان كل ما فيها متناغماً، متحداً لا انفصال فيه: نظرة عينيها المظللتين بكحل خفيف، تلك النظرة الممتزجة بحركات ذراعها التي لا يكاد نسيج قميصها الرقيق يخفيها.. رأسها المائلة قليلاً، وتألق زمرد مرصع بالذهب على حاجبها، وارتعاشة غير واعية في قدمها المستقرة في شبشب مطرز بخيوط من فضة.. وجهها الناعم المتناسق، وذلك الضياء الرقيق المنبعث من مكان داخله، المنبعث من دمها الذي لم يلبث أن صار تدفقاً دافئاً.. التماعة أسنانها الندية من خلف شفتين ممتلئتين يُخيّل للناظر أنهما كسولتان.

ما كانت إلا جسداً.. أزاح جسدها كل ما عداه. لم توقظ فيّ رغبة؛ وما كنت لأسمح بهذا لنفسي. لو جاءت الرغبة لخنقتها في مهدها، لخنقتها خجِلاً مفكراً في سني وفي موقعي، مدركاً الخطر الذي أضع نفسي فيه، مذعوراً من الاضطراب الذي يمكن أن يكون حتى أسوأ من المرض. لو أتت الرغبة لاستعنت عليها بما اعتدته من ضبط النفس. لكني ما كنت قادراً على أن أخفي عن نفسي حقيقة أنني كنت أنظر إليها مسروراً وفي داخلي إحساس بلذة عميقة مطمئنة مثلما يكون عندما يرقب المرء نهراً هادئاً، أو عندما كنت أرقب سماء المساء أو القمر عندما ينتصف الليل أو شجرة مزهرة أو بحيرة طفولتي وقت الفجر. من غير رغبة في امتلاكها، من غير فرصة لمعرفتها كلها، من غير قدرة على مغادرتها. كانت ممتعةً متابعةُ يديها الحيتين تطارد واحدتهما الأخرى فتنسيان نفسيهما في تلك اللعبة. وكان ممتعاً أن أسمع كلامها. لا، ما كان عليها قول أي شيء. كان كافياً أنها موجودة.

ثم تبادر إلى ذهني أن هذه المراقبة الماتعة نفسها قد تكون خطيرة؛ فأنا ما عدت قادراً على الإحساس بأنني متفوق، أو بأنني خفي. انبعث حياً في داخلي شيء لم أرده. ما كان عاطفة بل أمراً أسوأ من ذلك: ذكرى. كانت ذكرى المرأة الوحيدة في حياتي، المرأة التي لن تتكرر. لست أدري كيف انبعثت من تحت رواسب السنين. ما كانت في مثل جمال هذه المرأة، ولا حتى قريبة منها، فلماذا ذكرتني الواحدة بالأخرى؟ كنت أكثر اهتماماً بتلك المرأة البعيدة، المرأة التي ما عادت موجودة، المرأة التي ظللت أنساها وأتذكرها عشرين عاماً. علت إلى سطح ذاكرتي عندما كنت غير محتاج إليها وغير راغب فيها؛ أتتني مُرَّة كأنها شراب مسكر. لم تتراءى لي منذ زمن بعيد، فلماذا أتتني الآن؟ هل كانت هذه المرأة سبباً في ظهور وجهها آتياً من أحلام كلها خطايا؟ أم كان السبب أخي: كي تجعلني أنساه؟ هل كان بسبب كل ما حدث من قبل حتى ألوم نفسي؟ هل أتتني حتى ألوم نفسي على الفرص الضائعة كلها، على الفرص التي ما عدت قادراً على استعادتها؟

خفضت عيني. لا يجوز للرجل أبداً أن يحسب نفسه في أمان، ولا أن يظن ماضيه ميتاً. لكن، لماذا استيقظتْ تلك الصورة عندما كنت في أدنى حاجة إليها؟ تلك المرأة البعيدة ما كانت مهمة. لقد حلت ذكراها محل الفكرة الخبيثة القائلة

إن كل شيء كان من الممكن أن يكون مختلفاً، حتى الأشياء التي آلمتني. اذهب عني أيها الخيال! ما كان لشيء أن يكون مختلفاً. وعلى الدوام، ستكون موجودة أمورٌ أخرى تؤلمني. لن يتحسن شيء لو كان مجرى حياتنا مختلفاً.

أعادتني إليها تلك المرأة التي جعلتني أبحر إلى غيرها، «هل أنت مصغٍ إلي؟»

«أنا مصغٍ». هل لاحظتْ أن بالي غدا منشغلاً عنها؟

«أنا مصغٍ إليك، تابعي!»

صرت الآن مصغياً إليها حقاً. وكان هذا أكثر أماناً. وعندما صرت مصغياً، فاجأني سماع أنها ما كانت تروي قصة عادية تماماً. حقيقة الأمر أنها لم تكن غير عادية كثيراً، لكنها لم تكن مضجرة؛ ثم إن الإصغاء إليها كان أكبر قيمة من مراقبتها. على غير انتظار، استيقظ أملي ورفع رأسه.

أخبرتني بما كنت أعرفه من قبل عن قسمة أخيها الغريبة: قالت إنه أنهى دراسته في استانبول وتقلّد منصباً يوافق كلاً من معارفه ومركز عائلته (بالغت في التشديد على الأولى ولم تشدد على الثانية إلا قليلاً لأن منصبه ما كان رفيعاً. إلا أنها حققت، بهذه الطريقة، توازناً بين الأمور كلها)، كانوا فخورين به، والده خصوصاً. ثم حدث أمر غير متوقع، أمر ما كان أحد قادراً على تفسيره وما عرف أحد سببه الحقيقي، ولا حتى حسن نفسه: تغير حسن تغيراً تاماً. قالت لي إن ذلك الشاب الرائع صار كأنه لم يوجد أبداً. تساءل الجميع في حيرة تامة أين اختفت معارفه كلها، تلك المعارف التي أشاد بها المدرسون أنفسهم. عجبوا كيف اختفت تلك السنين من غير أن تترك أثراً، وتساءلوا أين عساها تكون جذور الشر. ترك عمله من غير أن يخبر أحداً، وعاد إلى البيت، وتزوج زواجاً غير مناسب. وبدأ يخالط عامة الناس. راح يشرب ويبعثر ثروته؛ وراح يقدم على فعل أمور في القصبة لم يسمع بها أحد من قبل، يفعلها مع رفاقه ومع راقصات الحانة (انخفض صوتها، لكنه لم ينقطع)؛ وصار يذهب إلى أماكن لا يصح حتى أن تذكرها لي. بعد ذلك، صار يخرج في قوافل التجارة (الآن، صار في صوتها تقزز يكاد يكون ذعراً)، يأتي بالماشية من والاشيا ومن صربيا فيأخذها إلى كرواتيا والنمسا. بهذا، كان يعمل وسيطاً لدى تجار آخرين كأنه خادم لهم. خسر مالاً

كثيراً، ودمر نفسه. كانت الأرض التي يملكها في تضاؤل. باع نصف ما تركته له أمه. غضب والد حسن غضباً شديداً، بل إنه سقط فريسة المرض بسببه. توسل إليه وهدده، لكن من غير جدوى: ما كان لأحد أن يستطيع جعله يترك تلك الدرب. الآن، صار والده لا يقبل أن يسمع عنه شيئاً، بل لا يقبل حتى أن يُذكر اسم حسن في حضوره وكأن ابنه غير موجود، كأنه مات. بكت أمام أبيها حتى جفت عيناها، لكن ذلك لم يفدها. ثم قالت لي شيئاً أثار انتباهي، بدأ الناي يعزف لحناً جديداً! لقد قرر أبوها حرمان حسن من إرثه، واعتزم أن يكتب وصية في حضور أشخاص محترمين كي يتبرأ منه على الملأ. حتى تمنع حدوث هذا، وحتى تحول دون تدهور الأمر أكثر مما تدهور، كانت تسألني أن أكلم أخاها حتى يتخلى بنفسه عن نصيبه من الإرث، حتى يتخلى عنه طوعاً. بهذه الطريقة، لن يحل عليه غضب والده ولن تلحق به لعنته. سيكون العار اللاحق بالأسرة أقل فداحة. أضافت قائلة إن زوجها، عيني أفندي، لا يعلم أي شيء عن هذا وأنه غير راغب في إقحام نفسه بين الأب والابن. كل ما تفعله من أجل تخفيف الضرر ليس إلا مبادرة منها؛ وفي وسعنا أن نقدم إليها عوناً عظيماً، الحافظ محمد، وأنا، لأنها سمعت أن أخاها يزور تكيتنا، فأسعدها أنه على الأقل ظل يتحدث بعض الأحيان مع أشخاص من أهل الخير والعقل.

كنت شاكراً لأنها كشفت نفسها أمامي. في واقع الأمر، جعلتني أرى أنها لا تحترمني كثيراً جداً: لولا ذلك لترددت في قول أي شيء مما قالته. لكن هذا لا أهمية له لأن أموراً أهم منه صارت الآن على المحك.

بارك الله في مرض الحافظ محمد المزعوم، هذا ما قلته في نفسي. لقد أتاح لي فرصة ما كان لي أن أحلم بها. أبوها المحتضر نفسه ما كان لديه سبب يحمله على مساعدتي أكثر وجاهة من السبب الذي سيجعلها تلبي طلبي. كان واضحاً لي أن عيني أفندي عالمٌ بهذا كله؛ بل لعله فكر راضياً في هذه الكلمات التي أسمعها الآن من زوجته. من الطبيعي أن يعرف أنه ليس سهلاً حرمان المرء ابنه الوحيد من إرثه من غير أسباب وجيهة. لو كانا واثقين من نفسيهما، لما قلقا كثيراً على سمعة العائلة ولما طلبا عوننا. نعم، لا بأس!.. هذا ما قلته في نفسي وأنا أرقبها بالانتباه

نفسه الذي محضتها إياه منذ البداية محاولاً منع تعبير وجهي من أن يبدو مبتهجاً أكثر مما ينبغي: كل منا واقع في مشكلة بسبب شقيقه، أنت وأنا. أنا تريدين دمار أخيك، وأنا أريد إنقاذ أخي. تلك هي أكبر أمانينا؛ إلا أن رغبتي شريفة، ورغبتك قذرة. لكن، فلتكن رغبتك كذلك. هذا لا يهمني. لست أعلم عنك شيئاً مع أنه يبدو لي واضحاً تمام الوضوح كم أنت قادرة على التحكم بقاضيك الذي لا حياة فيه، قاضيك الذي يحترم قوتك وثراءك لأنه لا يمتلك هذا ولا ذاك. تكفي ليلةٌ مذلة تفرضينها عليه، أو طلبٌ قاطع تقدمينه إليه، لأن يغير مصير أخي. نحن لا نستثمر في الأمر إلا قليلاً؛ لكننا نكسب الكثير، الكثير جداً.

كنت شبه مستعد لأن أقول لها صراحة، حسنٌ جداً، ما عاد لدينا سبب لإخفاء نفسينا. سوف أسلمك أخاك، وسوف تعطيني أخي. أنت غير مبالية بأخيك؛ وأنا مستعد لفعل الكثير الكثير من أجل أخي.

بطبيعة الحال، لم أقل شيئاً. لو قلت، لساءتها صراحتي. هم صريحون لكن صراحة الآخرين لا تعجبهم!

استجبت لطلبها وقلت لها إن حسناً يزور التكية حقاً وإنه صديق الحافظ محمد (هذا صحيح) وصديقي أيضاً (هذا غير صحيح) وإننا سنحاول إقناعه بأن يفعل ما تريد منه فعله، وذلك أن أساها على أخيها أثَّر في نفسي، وكذلك قلقها على سمعة أسرتها. قلت لها أن العار سيلحق بنا كلنا إن لحق بهم، وهذا يعني أن علينا مد يد العون للحيلولة دون لحاق العيب بأفضل الناس بيننا، وللحيلولة دون السخرية الحقود التي تظهر عندما يصادف أن يصيب سوء الطالع أشخاصاً من ذوي السمعة العطرة. فضلاً عن هذا، كنت مديناً بالفضل إلى والدها المحسن إلى تكيتنا (ذكرت أباها متعمداً ذكره لأنه وهي ابنته لم تذكر إحسانه قط). قلت أيضاً إنني أرى خطتها حسنة، لا مقاصدها وحدها، لأن من شأن أي سلوك آخر أن يأتي بنتائج غير مضمونة: يصعب كثيراً حرمان الابن الأكبر من الإرث من غير أسباب متينة.

«ثمة أسباب متينة».

«أنا أتكلم على المحاكم». صحيح أن أخاها يتاجر بالماشية، لكن هذه ليست مهنة غير شريفة. إنه ينفق المال، لكنه المال الذي كسبه. لم يبع حسن نصف أرضه بل قدمها هبة إلى زوجته السابقة. يصعب العثور على سبب يبرر هذا ناهيك عن أن يكون سبباً وجيهاً.

أحسست نفسي آمناً، بل أكثر أماناً منها. لقد غيّرتُ العلاقة بيننا، غيرتها في نفسي. لم نعد مثلما كنا في البداية: هي امرأة من الطبقة العليا، لها عينان جميلتان، وأنا درويش بسيط، فلاح أزلي. صرنا الآن متكافئين نناقش مسألة عملية. وفي هذا الأمر، كنت أقوى منها. كانت تنظر إلي نظرة تحبيذ عندما وافقتُ على ما قالته؛ لأن ذلك بدا لها منطقياً تماماً. وأما عندما قلت شيئاً لم يسرها، فقد بدأت انحناءة حاجبيها تختلج وازدادت نظرتها حدة. بدت لها ممانعتي غريبة، بدت كأنها شر خالص.

قالت لي متوعدة، «لا شك في أن أبي سيحرمه الميراث».

ما كنت مهتماً كثيراً بأن يحرم الوالد ابنه من ميراثه أو ألا يحرمه. وما كاد غضبها يفلح في إرباكي. أردت أن أحوز ثقتها وأن أنجز ما يهمني إنجازه.

قلت لها بنبرة هادئة، «قد يحرمه ميراثه. لكن والدك عجوز. وقد كان مريضاً منذ أمد بعيد. قد يذهب حسن إلى القضاء معترضاً على الوصية ويبرهن على أن أباه كان ضعيفاً خائراً وعلى أنه لم يكن في كامل قواه العقلية عندما اتخذ ذلك القرار، أو يبرهن أن أحداً قد أقنعه بفعل ذلك».

«من يمكن أن يقنعه؟»

«أنا أتكلم على دعوى أمام القضاء. ليس مهماً من يقنعه. أخشى أن يصدر الحكم لصالح حسن. وهذا لأن القضية لن تكون منظورة أمام المحكمة هنا، لن تكون منظورة أمام عيني أفندي. وليس علينا نسيان أن أخاك لديه علاقاتٌ بدوره».

كانت ترقبني صامتة. مر الآن زمن طويل منذ أن أرخت اللثام على وجهها، منذ أن أتوا بالشموع، منذ أن بدأت تروي قصتها البشعة. في وجهها الجميل المصنوع من ضوء القمر، راحت انعكاسات الشموع تتلألأ عند زاويتي عينيها

كأنها شرارات راجفة لا تستطيع سكوناً. هي نفسها لم ترتعش، لكنها بدت لي مرتعشة. أحسست نفسي حقوداً، بعض الشيء. أدركت أنني ضايقتها: لم تصدق أنني يمكن أن أثقل خطتها بهذه العقبات كلها مع أنني كنت واثقاً من أنها مدركة قسماً منها.

حدقت عيناها فيّ كأنهما تحاولان العثور في وجهي على أثر من نكتة، على أثر من قلة اقتناع، على معضلة قد تكون موجودة. لكنها لم تر شيئاً غير اليقين ومعه أسف لأنه كذلك. الآن، بدا لي أن غضبها في ازدياد كأن نهراً تحت الأرض يغذيه. غضبٌ يتنامى عنيفاً لأنه غير قادر على إبداء أية مقاومة فعلية لما سمعته مني. انتظرت إلى أن يغمرها فيض غضبها، تعمدت الانتظار، لكني منعته من التفجر. وافقتها على كل ما أرادته، لكن اعتراضاتي ذات الأساس المتين ظلت على حالها.

«ينبغي إقناعه حتى يتم كل شيء من غير أن يُعرض على القضاء».

ظننت أنها ستظل مصرة على عنادها، وأنها ستنكر أي احتمال لوجود دعوى قضائية أو لأن يغير والدها قراره، وأنها ستمضي معي بعد ذلك في أي حديث أقترحه عليها.

لكنها تخلت عن مقاومتها على الفور. كانت في عجلة من أمرها.

كشفتْ عن شكوكها بأن طرحت سؤالاً: «هل سيقبل بالأمر؟»

«ينبغي العثور على أسباب معقولة متينة حتى لا يستبد به الغضب أو يشعر بإساءة. لن يكون العناد ناجحاً في التعامل مع حسن».

«آمل أن تستطيع العثور على أسباب معقولة وجيهة».

كان هذا ازدراءً أو قلة صبر. لقد ظنت أن كل شيء سيكون سهلاً.

وأنا ظننت ذلك أيضاً.

أجبتها، «سوف أحاول».

لست أدري إن كانت قد أحست في صوتي شكاً أو تردداً أو عدم يقين. لست أدري. إلا أن حماستي خبت حقاً.

«ألا تظنه يقبل؟»

«لست أدري».

لو أنني احتملت الأمر لحظة أخرى، ولو أن حبي لشقيقي كان أكبر قليلاً من اعتباراتي الأخلاقية، فلعل الأمر كان سيصل إلى نهاية أفضل. أو إلى نهاية أسوأ. لكنني سأكون قد أنقذت أخي.

لم أستسلم بتلك السهولة التي لعل كلامي يوحى بها. في لحظة واحدة، رأيت ما لا يحصى عدداً من الأسباب، في صالح خطتها وضد خطتها، في صالح قبولها وفي رفض قبولها. وفي أكثر الأحيان، كانت الأسباب هي نفسها في الحالتين. خلال الوقت القصير الذي ظلت فيه منتظرة، الوقت الذي لم يطل إلا بالقدر الكافي لأن يلتقط المرء أنفاسه، ثارت في نفسي عاصفة. كنت أتخذ قراراً في شأن حياتي وحياة أخي. كان ممكناً أن أسلمها أخاها الطائش؛ وسوف توقعُ به نصيحة من صديق. وكنت سأقبض ثمن جهدي وخيانتي، خيانتي التي ما كانت خيانة كبيرة جداً لأنهم سيفعلون ما أرادوا فعله، حتى من غيري. كان ممكناً أن أساعدهم في جعل كل شيء يبدو أكثر لياقة. فلماذا يكون علي أن أخجل من نفسي؟ لماذا علي أن ألوم نفسي؟ كنت أحاول إنقاذ أخي!

ولكن.. كان علي أن أصرخ بصوت أعلى، وأن أكون أكثر إقناعاً. كان علي أن أُسكت صوتاً آخر، صوتاً يحذرني. لم أدر ما فعله أخي. ولم أدر كم كان مذنباً، لم أصدق أنه أتى أمراً خطيراً فهو أكثر شباباً وأكثر صدقاً من أن يرتكب إثماً كبيراً. لعلهم يخلون سبيله عما قريب! وحتى لو لم يخلوا سبيله عما قريب، حتى لو لم أكن واثقاً من أنهم سيفعلون هذا، فهل أستطيع الموافقة على هذه الخطة، على الاحتيال على رجل لم يقل في حقي كلمة واحدة؟ الأمر لا علاقة له بالثروة، فلا ثروة عندي، ولست ممن يحترمون ما لدى الآخرين من ثروة. إنه أمر آخر ـ إنه الظلم، الخداع، الإساءة، الاعتداء الفاضح على حقوق واحد من الناس. ما كان لدي ريبٌ في شقيقها: شخص سطحي، متهور، غريب. لكن، حتى إن كان أسوأ مما هو عليه، فكيف لي أن أبرر لنفسي إقدامي على مساعدة هذه المرأة القاسية في تنفيذ ما أرادته من سرقة فاضحة؟

ما الذي كنت أقوله منذ سنين كثيرة جداً؟ وماذا أقول لنفسي بعد هذا كله؟ إن ظل أخي حياً سوف يظل تذكرة دائمة لي بأنني أقدمت على هذه الفعلة البشعة التي لن أعود قادراً على التبرؤ منها. ما كنت أملك شيئاً غير اطمئناني إلى أنني شخص شريف. إن خسرت هذا أيضاً، فقد هلكت.

هذا ما كنت أفكر فيه. قد تبدو غريبة إمكانية تقلبي بين هذين الأمرين غير المتساويين.. أليس غريباً أن أتردد أمام ارتكاب هذه الخيانة الصغيرة كي أستطيع تحرير أخي؟ لكن المرء يعتاد قياس أفعاله مستخدماً معايير الضمير الصارمة، ويخاف الإثم مثلما يخاف الموت، أو ربما أكثر، فلا يبدو هذا التردد شديد الغرابة.

بعيداً عن هذا كله، كنت عارفاً، بل كنت واثقاً ثقة تامة، من أنني أستطيع الذهاب إلى حسن، أستطيع أن أطلب منه التخلي عن نصيبه من الإرث من أجل أخي. لن يتأخر أبداً عن فعل ذلك.

لكني لم أستطع، ولم أرد أن أقول لها أي شيء قبل أن أراه وأتحدث إليه.

تستحثني، وتخرجني من ترددي: «لن أنسى جميلك هذا. يهمني كثيراً جداً ألا يحدث ما يشوب سمعة عائلتنا».

يا إلهي!.. كيف سترد جميلي؟

انهض، انهض يا أحمد نور الدين! انهض وانصرف!

«سوف أوافيك بنبأ ما يحدث». قلت هذا مفسحاً سبيلاً إلى لقاء آخر بيننا.

«متى؟»

«فور عودة حسن».

«سيعود بعد يوم، أو بعد يومين».

«إذاً، بعد يوم أو يومين».

نهضنا واقفين في اللحظة نفسها.

لم تعل يدها الحلوة كي تستر وجهها: ألسنا نتآمر معاً؟

لقد وقع بيننا أمر معيب؛ وما عدت شديد الثقة من أنني ظللت نظيفاً تماماً.

-٣-

﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ - قرآن كريم

كان القلق ينتظرني متأهبًا كأني تركته أمام ذلك البيت حتى ألتقطه من جديد لحظة خروجي.

على أن الأمر بات الآن أكثر تعقيداً من ذي قبل؛ صار أكثر تشابكاً، وأفدح ثقلاً وأشد غموضاً. لم أحمل وزراً، لكن أفكاري صارت مثقلة بذكريات الصمت الميت، بالظلمة الدامسة، بالأضواء الغريبة المجهرة، بالتوتر البشع وبالزمن الذي أمضيته في انتظار قلق، بأسرارنا الشائنة وأفكارنا التي تختبئ خلف ابتساماتنا. أحسست كأنني أغفلت أمراً، كما لو أنني ارتكبت غلطة في مكان ما، إلا أنني لم أعرف أين ارتكبتها، وأجهل كيف ارتكبتها. لكني ما كنت في سلام. كنت شبه عاجز عن احتمال هذا الإحساس بالضيق، هذا القلق الذي لم أستطع أن أعلم له سبباً أو مصدراً. لعل ذلك لأني لم آتِ على ذكر أخي، لأني لم أصرّ على أن نتحدث عنه! لكني فعلت هذا لغاية في نفسي، فعلته كي لا أضيّع فرصتي. أو.. لعل ما يثقل نفسي هو مشاركتي في حديث معيب وسماعي بتلك المرامي الشائنة من غير أن أعترض عليها، من غير أن أحمي رجلاً بريئاً! كان لدي أسبابي التي حملتني على فعل هذا، وكانت أسباباً أكثر أهمية من ذلك كله؛ ولن يكون من حقي أن أبالغ في لوم نفسي. وجدت عذراً لكل فعل من أفعالي، لكن ضيقي ظل على حاله.

كان ضوء القمر واهياً، حريرياً، وكانت شواهد القبور متألقة بلون دافئ أبيض. همسات الليل المتكسرة بين البيوت مع حركة الشباب النشطة في الشوارع والساحات. قهقهة، وأغنية بعيدة، وتمتمات مسموعة. بدا أن القصبة كلها مرتعشة في حُمّى هذه الليلة، ليلة القديس جورج. على غير انتظار، ومن غير سبب، أحسست نفسي منفصلاً عن هذا كله. زحف الذعر في داخلي من غير أن ألحظه، وراح كل شيء حولي يكتسب أبعاداً غريبة. الناس وحركاتهم، والقصبة نفسها،

ما عاد شيء من هذا يبدو مألوفاً لي. لم أرهم هكذا من قبل، أبداً؛ ولم أدر أن العالم يمكن أن يصير مشوهاً هكذا في يوم واحد، في ساعة واحدة، في لحظة واحدة ـ كان ذلك كأن دم شيطان من الشياطين قد بدأ يغلي فما عاد أحدٌ قادراً على تهدئته. رأيت أهل البلدة سائرين أزواجاً؛ سمعتهم، كانوا من خلف كل سياج وكل بوابة وكل جدار، ضحكهم، وكلامهم، ولفتاتهم، ما كانت مثلما عرفتها في أي يوم آخر. كانت أصواتهم مكتومة، ثقيلة. شقت صرخة ظلمة الليل مثلما يفعل البرق قبيل عاصفة وشيكة. كان الهواء مشبعاً بالخطيئة، وكان الليل مليئاً بها. سوف تطير الساحرات في هذه الليلة ضاحكات فوق سطوح البيوت وقد بللهنّ حليبُ ضوء القمر، ولن يظل أحد محتفظاً برشده. سيتلظّى الناس حماقة وحنقاً، سيتلظون جنوناً ورغبة في تدمير أنفسهم؛ سيصيبهم هذا كله في لحظة واحدة.. فأين أذهب عندئذ؟ سيكون عليّ أن أصلي وأن أتضرع إلى الله أن يرحم أولئك العصاة الخاطئين جميعاً، أو أن يعاقبهم وأن يعيدهم إلى صوابهم. اجتاحني الغضب كأنه نوبة حمى. أيعقل أن يكون كل ما نفعل من غير جدوى؟ أتكون كلمة الله التي نعظُ الناس بها مصنوعة من صلصال أبكم، أم أن آذانهم صُمّت عنها فحسب؟ أيكون الإيمان الحقيقي فيهم ضعيفاً إلى هذا الحد فيغدو كأنه سياج قديم يتهاوى أمام اندفاعة حماستهم العنيفة؟

من خلف الأسيجة، كان ممكناً سماع أصوات الفتيات المتقدة وهن تضعن أعشاباً برية وبيضاً ملوناً بالأحمر في قدور كبيرة ممتلئة ماء حتى يغتسلن عند الفجر بمائها. كنّ مؤمنات بسحر الزهور وبسحر الليل.. كأنهن من البرابرة.

هذا معيب، قلتها لأولئك الذين من خلف الأسيجة الخشبية، هذا معيب! ما إيمانكم؟ إيمان من هو؟ وأية شياطين تلك التي تسلمون لها أنفسكم؟

لا جدوى من قول أي شيء في تلك الليلة، تلك الليلة الأشد سُعاراً من كل ليلة أخرى. عند منتصف الليل، ستذهب تلك الفتيات إلى الطواحين المائية كي تغتسلن عاريات في ضباب رذاذ الماء المنبعث من عجلاتها الدوارة. في ذلك الوقت، ستصعد الشياطين خارجة من مكامنها وتصفع الفتيات بأيديها المشعرة، تصفعهن على أفخاذهن اللامعة في ضوء القمر.

اذهبوا إلى بيوتكم!.. قلتها للشباب الصاخبين المقتربين مني. غداً يوم القديس جورج، عيد الكفار. هو ليس عيدنا. لا تقارفوا هذا الإثم!

لكنهم ما كانوا مبالين بهذا؛ ما كانت القصبة مبالية بهذا؛ وما كان لأحد أن يسلبهم تلك الليلة.

ثمة حق عتيق في ارتكاب الخطيئة ليلة عيد القديس جورج. وهم متمسكون بهذا من غير اهتمام بدينهم، بل حتى على الرغم من دينهم. ينفلتون في هذه الساعات الأربع والعشرين، هذه الساعات الممتلئة عبقاً شهوانياً، عبق الأعشاب والحب، عبقُ الأعشاب الفائحُ من النساء خطيئةً، وعبق الحب الفائحُ أعشاباً في أفخاذ النساء. في هذه الفترة الممتدة يوماً وليلة، تنبعث الخطيئة من جوف الرغبة المقفل، تنبعث باذخة كأنها منسكبة من دلو عملاق. زمن غريب، عتيق، يتحرك من خلفنا، زمن أغرب منا، زمن يستعرض نفسه في تمرد الجسد.. صحيح أنه تمرد لا يستمر طويلاً، لكنه يظل باقياً في الذاكرة حتى التمرد التالي، كأنه يؤيّد نفسه. كل شيء آخر وهمٌ، كل شيء يمكن أن يحدث بين انتصارات الخطيئة الكبيرة هذه. على أن المشكلة ليست في الشهوة المتفجرة بقدر ما هي في هذا الشر، في هذا الإثم الأجنبي الذي هو مستمر منذ عصور.. أقوى حتى من الإيمان الحق. ماذا فعلنا، وماذا حققنا؟ ماذا بنينا، وماذا هدمنا؟ ألسنا نصارع هذه الغرائز من غير جدوى؟ غرائز أقوى من كل ما يستطيع العقل تقديمه! أيكون ما نعدُ به عوضاً عن هذا الاهتياج البدائي الدنيوي غير جذاب أو هو باهتٌ أكثر مما ينبغي؟ كيف لنا أن نقاوم إغراءات هذه النداءات العتيقة؟ أيقدر أسلافنا البعيدون، البرابرة، على هزيمتنا، على إعادتنا إلى زمانهم؟ ما أردت أبداً أن تكون مخاوفي أسوأ من الحقيقة، لكني خشيت أن يكون ما تراه روحي المعذبة أكثر وضوحاً مما تراه أرواح إخوتي المهتمين بهذا العالم اهتماماً يفوق اهتمامهم بالعالم الآخر. يا ربي، لست أتهم أحداً، فأنت عالم كل شيء. ارحمني، وارحمهم، وارحم الآثمين جميعاً.

تذكرت تلك الليلة.. حتى لو لم يحدث أي شيء آخر، كنت سأتذكرها لما كان فيها من حرارة خنقتني ومن خواءٍ حفرهُ اندفاع هؤلاء الناس في داخلي. لكن مشيئة الله قضت أن تكون هذه الليلة مختلفة عن غيرها، أن يحدث فيها ما يشق

حياتي نصفين، أن يكون فيها ذلك اللقاء الذي سبقه إعداد متقن كي تفصلني هذه الليلة عن كل ما كنته طيلة أربعين عاماً من سكينة الروح.

مضيت في الطريق عائداً إلى التكية، ضائعاً في أفكاري، واهن العزم. أظنني كنت التعس الوحيد في القصبة تلك الليلة؛ إذ استنفدني ما شهدت من هياج في تلك الشوارع التي تغيرت، استنفدني ضياء القمر الواهي، استنفدتني مخاوفي التي انبعثت حية من غير سبب وذلك الشك الذي رماه العالم في قلبي. كنت كأنني أسير بين بيوت مشتعلة ناراً فبدت لي التكية النعسة الهادئة كأنها ملجأ ومستقر، لأن جدرانها الثخينة ستعيدني إلى الصمت الذي أنا في حاجة إليه، وإلى سلام النفس الذي لن يتركني أمتلئ تقززاً. سأتلو ربع ياسين، وستهدّئ الصلاة روحي المرتعشة، روحي التي تعذبها معاناة أشد مما يرتضيه الرب لها. وذلك أنه ليس للمؤمن الحق، بل ليس له أبداً، أن يسقط في لجّة القنوط وخوار القلب. لكني كنت، أنا الخاطئ، خائر القلب إلى حد جعلني أنسى سبب كربي الذي اكتشفته في طريق العودة، وصار علي أن أبذل جهداً واعياً كي أستحضره، حتى يكون لقلقي شيء يتمسك به. أردت أن تكون الخطيئة الوثنية العنيدة سبباً وحيداً لكربي فأصير قادراً على ترك أسبابه الأخرى وشأنها، قادراً على تركها قابعة في الظلمة.

ما كنت في حاجة إلى مطاردة الساحرات في الشوارع تلك الليلة؛ وما كنت مبالياً بآثام الآخرين. ما أردت إلا أن أحول أفكاري بعيداً عن أخي وعن الإغواء الذي وُضع أمامي. لكني لم أستطع فعل شيء غير أن أعود قلقاً وفي نفسي مرارة.

في ليالٍ أخرى، كان ممكناً أن أقف في ضياء القمر مشرفاً على النهر فأترك الرغبات الغامضة والتماعات هادئة في ذاكرتي تغمرني وتأخذني معها. كنت عارفاً متى يكون هذا جائزاً لي. كلما أحسست سكينة هادئة غير منبئة بالعاصفة. وأما عندما أحس اضطراباً، حتى لو كان أثراً من اضطراب، فأنا أحبس نفسي بين جدران غرفتي الأربعة وأرغمها على سلوك درب الصلاة الصعب الذي أَلِفته تماماً. إن فيه حماية دافئة كتلك التي تكون في مواريثنا العتيقة التي تصير جزءاً بريئاً من أجزاء ذوات نفوسنا. هذه الصلوات سلوى معروفة مجرّبة، وهي تهدئ النفس وتميت كل فكرة خطيرة قد تنبعث في دواخلنا رغماً عن إرادتنا. إننا

واثقون بها ثقة لا تعرف تردداً، ثقة تجعلنا نستأمنها على ضعفنا راجين أن تحميه بقوتها العتيقة. إذاً، فنحن نهوّن من أمر كوابيسنا ومخاوفنا البشرية عبر اعتياد قياسها بالأبدية؛ فنحن نقلصها إلى أبعاد لا شأن لها عندما نخفضها إلى تلك المرتبة الواطئة.

لم أطق بقاءً في الحديقة تلك الليلة. كنت في حاجة إلى أن أعزل نفسي، إلى أن أنسى، لكن كل شيء انبعث أمامي هناك.. انبعث كأنه تحدٍّ لي. كان ضياء القمر لاسعَ البرودة، وبدا كأنه فائح برائحة كريهة، رائحة الكبريت. كان أريج الزهور أشد مما ينبغي، وكان مزعجاً لي. ينبغي اجتثاث هذه الزهور، ينبغي الدوس عليها حتى لا يبقى في الحديقة غير الأشواك وأرضٍ جرداء، حتى تصير مقبرة من غير شواهد، فلا تذكّر أحداً بشيء حتى لا يبقى غير تفكير الإنسان المجرد من غير صور ولا روائح، من غير أية صلة تربطه بما هو من حولنا. حتى النهر نفسه ينبغي إيقافه كي يكف عن خريره الناضح بازدرائي. والطيور في أعالي الأشجار وتحت أفاريز البيوت ينبغي أن تُكسر أعناقها حتى تنتهي زقزقاتها التي من غير معنى. والطواحين كلها.. تلك التي تستحم الفتيات العاريات في مياهها، ينبغي تحطيمها. ينبغي إغلاق الشوارع كلها وإقفال الأبواب بالمسامير. ينبغي إسكات الحياة كلها بالقوة بغية منع الشر من النمو.

آه، يا ربي! أعدني إلى رشدي!

لم يحدث في حياتي، لم يحدث قط أن فكرت في الحياة والناس بهذا القدر من الغضب الذي لا معنى له. صرت مذعوراً. من أين أتتني هذه الرغبة في إفناء كل شيء؟

وددت دخول غرفتي. كان علي أن أدخلها، لكن العزيمة أعوزتني فلم أفعل. كان الليل، الليل الذي أكرهه، أشد مني عزماً فمنعني من الدخول بقوته الغريبة. لكني أحسست أنه هدّأني عندما استسلمت له. غلبني بعنفه اللطيف، عنف أصواته الرقيقة، أصواته الناعسة التي لا أهمية لها إلا عندها، غلبني بالعتمة المتلألئة المرتعشة ارتعاشاً لا يكاد يبين، وبما في تلك العتمة من ظلال وأشكال غريبة، بما فيها من عبير اخترقني عميقاً حتى دمي وصار جزءاً من نفسي. فاح كل

شيء برائحة حياة منسوجة من أصوات وحركات صغيرة صارت شيئاً بالغ القوة، صارت شيئاً أشد بأساً من كل ما تمنيت. كان هذا كله غير منفصل عني، غير قابل للفصل عني. كان كأنه هو نفسي التي ما تزال غير مكتشفة، نفسي الممتلئة رغبة في الاكتشاف. نسيت أن ضوء القمر كان لاسع البرودة منذ هنيهة فقط؛ ونسيت كيف كان فائحاً برائحة الكبريت الكريهة. ما كان ذلك إلا خوفي منه. والآن، ذهب الخوف عني، وصار من فوقي ومن فوق العالم ضياءٌ، ضياء أبيض، ضياءٌ هو أثرٌ من شيء في ذاتي، من شيء لعله يكون، لعله كان، من شيء سوف يكون إن واصلت بقائي في هذه الحالة الخاوية من غير دفاعٍ ولا حماية لأن بوابات وعيي وإرادتي وعاداتي القديمة باتت مفتوحة كلها. لولا هذا، لتفجرّتْ فيَّ رغبة مجهولة منبعثة من حجرات مظلمة في دمي. سيكون الأوان قد فات عندما تتفجر خارجة؛ ولن أعود قادراً على الإيمان بأنها ماتت، أو بأنها صارت مروّضة، ولن أعود أبداً مثلما كنت، لن أعود أبداً. بدا لي أن ما قدرةً بي على إمساك تلك الرغبات، على عقلها، على إرجاعها إلى حبسها المظلم. بل إنني ما كنت حتى راغباً في ذلك. طبيعتها الحقيقية كانت غير واضحة لي؛ وما علمت غير أنها شديدة القوة. من المؤكد أنها ما كانت رغبات بريئة، وإلا فلماذا آثرت أن تختبئ؟

في لحظة الضعف والترقب تلك، اللحظة التي تمنيت أن تطول أكثر مما طالت، أنقذني اللهُ من هلاك وشيك. أقول إن الله أنقذني لأن المصادفة ما كان لها أن تكون دقيقة هذه الدقة كلها، ما كان لها أن تكون محسوبة حساباً حانياً حتى تأتي في تلك الوهلة الصغيرة الخداعة، في تلك الوهلة تماماً عندما بدأت تنمو هذه القوى المجهولة، قوى مجهولة ما تزال غير واقعة تحت النور الذي داخلي، لكنها بدأت تتجمع وكادت تنفلت. بعد ذلك، عندما تحدثت إلى الملا يوسف، كنت سعيداً بأنها لم تنفلت مع أنني أسفت لعدم قدرتي على رؤية طبيعتها. هذا ما جعلني مهزوزاً في داخلي. لكني تعلمت كيف أخفي نفسي في حضرة الآخرين.

كان هادئاً في اقترابه مني فلم أسمعه عندما صرّ الحصى تحت قدميه الحذرتين وصافحتْ أنفاسه المكتومة جلدي. عرفته على الفور من غير حتى أن ألتفت إليه فما من أحد غيره يستطيع أن يخطو هذا الخطو الهادئ. لقد تعلم مشيته الحذرة هذه في وقت مبكر من حياته.

«هل قطعت عليك تأملاتك؟»

«لا».

صوته نفسه كان هادئاً كأنه مُتخفٍّ خلف قناع، مع أن ذاك التخفي لم يخلو من خراقة.. فما تزال العصافير تزقزق فيه! خانته عيناه أيضاً، عيناه اللامعتان النشطتان كعهدهما دائماً.

لم أسأله شيئاً. كان عليه أن يقول ما لديه بنفسه. لقد وافق من قبل على ألا يخفي عني أية أسرار إلا تلك التي لا يجوز أن يعرفها إنسان. كان نظام التكية صارماً: لو لم يقل أين غاب هذا الغياب كله، لتذكرت ذلك.

«كنت في تكية الحاج سنان. وكان عبد الله أفندي يتحدث في العرفان».

«عبد الله أفندي متصوف. إنه من أتباع الطريقة البيرمية».

«أعرف هذا».

«وماذا قال؟»

«تحدث في العرفان».

«أهذا كل ما لديك؟ ألا تذكر شيئاً مما قال؟»

«أذكر أبيات شعر ترجمها لنا».

«شعر من؟»

«لست أدري».

«أسمعنيها».

«لا يدرك أهريمان أسرار وحدة الخالق.
اسألوا آصف، فهو يعرفها.
أيقدر الدوري على ابتلاع لقمة طائر العنقاء؟
أيتسع إبريق واحد لماء البحر العظيم؟»

«هذه أبيات لابن عربي. هي تقول إن الحكمة الربانية لا يستطيع فهمها غير المختارين، وهم قلة».

«وماذا يبقى لنا إذن؟»

«يبقى لنا أن نفهم ما نستطيع فهمه. حتى إن كان الدوري غير قادر على ابتلاع لقمة العنقاء، فهو يظل قادراً على أن يأكل ما يستطيع أكله. لا سبيل إلى وضع البحر كله في إبريق، لكن ما تستطيعُ اغترافه يظل ماءً من البحر».

رحت أدحض صوفية ابن عربي دحضاً مرتبكاً، عجولاً، حماسياً؛ وكنت مبتهجاً إذ أدركت، وأظنها أول مرة أدرك هذا، أن السموات وأسرار الوجود، أن أسرار الموت والحياة، كانت الموضع الأمثل لأن يستطيع المرء فراراً من مشاغل هذه الدنيا. لو لم تكن موجودة، لكان علينا اختراعها حتى تصير مأوى لنا.

لكن هذا الشاب ما كان محاوراً مناسباً. حقيقة الأمر أن الناس يتكلمون أكثر الأحيان من أجل أنفسهم لأنهم في حاجة إلى سماع أصداء كلماتهم. كان واقفاً أمامي وقد أنار ضوء القمر وجهه فجعله واضحاً كل الوضوح، جعل قسماته مرئية كلها. وقف أمامي طائعاً لأنه لا يستطيع الانصراف قبل أن آذن له؛ لكن أفكاره تركته وسبحت بعيداً عنه. الرب وحده يعرف أين ذهبت أو كم ابتعدت. وما كنت بقادر على إمساكها بعد أن تركت جسده هناك كي يعبّر عن الطاعة الواجبة بحضوره الذي صار فارغاً. كانت أبيات الشعر، والصوفية، والعرفان، أموراً بعيدة عن أفكاره أشد البعد، أبعد من قدرته على الفهم، فظل مصغياً بعينيه فقط، ناظراً إلى شفتيّ المتحركتين. كان أجدر بي أن أخاطب بكلماتي جداراً خالياً من أي شيء. لو خاطبت جداراً لعاد إلي صدى كلماتي، على الأقل. لم يحاول حتى أن يفهمها. لم يصغ زمناً طويلاً إلى تلك الأبيات في تكية سنان.

كان من غير تجربة. كشف نفسه أمام ضوء القمر: ما يزال غير عارف كيف يخفي نفسه في الظلمة وكيف تُختلق تعابير الوجه. كانت عيناه مفتوحتين إلى أقصاهما كأنه مصغٍ إلي، لكن لمحة لامعة من أمر رآه قبل قليل كانت شاهداً عليه، شاهدٌ يقول إنه غيرُ مصغٍ إلي. كانت شاهداً فضح أمره. ماذا كان في تلك العينين؟ أية صورة أو ذكرى؟ أيةُ كلمة ما تزال تتردد، وأي تذكر ناعس، أي إثم؟ لم يكن شحوب ضوء القمر قد أطفأ التورد المعافى في وجنتيه اللتين ما تزالا حاملتين ظلال قسمات رجولية في وجه فلاح شاب صار جاهزاً للزواج، ما يزال يظللهما ذلك العزم في دمه القوي. ماذا أتى ملتمساً في صمت هذا المكان القدسي،

في القيود القاسية في عيشة الدراويش؟ كان واحداً من أهل هذا العالم، من ليلة القديس جورج هذه، من الظلمة الفاترة المنارة هذه، من الظلمة التي تنادينا إلى ارتكاب الإثم. كان شذى الأعشاب المسحورة عليه، أتى به على يديه، في أنفاسه. وكان سحر الشوارع السكرى قد تخلله كله فأفعمه. لقد سمع نداء طائر الكابركيلي، نداء التزاوج، وقد أصمّ ذلك النداء أذنيه. لعل نبض الدم في جسدٍ شابٍّ آخر ما يزال نابضاً في كفيه الخدرتين. انبعثت من محجري عينيه شعلة لهب لا يكاد يستطيع ضبطها. لقد دنّسته هذه الليلة الوثنية، لوثته، لطخته، أنارته، طعنته. في هذا المساء، كان من الواجب وضعه خلف سبعة أقفال حتى لا تحرقه شعلةُ لهيبهِ نفسها، أو لهيب غيره. سوف يخنقه صمت التكية، وتخنقه عزلتها، فلماذا لم يعد إلى الليل، ولماذا لم يبق كما كان؟ سيكون انتظار الفجر البعيد صعباً عليه فهذه الأمسية مفعمة بعبق الأعشاب المسكر. ثمة أمر يحدث.. ثمة أمر مخيف. لن يغيب القمر عما قريب. وتحت الطواحين المائية وأشجار الطقسوس ستطير قطيرات ماء متلألئة عابرة الضياء الكثيف الممتلئ ظلالاً مُسكِرة. سوف يظل القمر مشعاً طيلة هذه الليلة، وسوف يظل القمر مُغوياً طيلة هذه الليلة. كان علي أن أخرج معه، أو أخرج وحدي.. أن أخرج وأتجول.. أن أخرج فلا أعود أبداً. كان علي أن أخرج وأموت، أن أخرج وأُحيى في هذه الليلة التي ظلت حتى بعد أن غاب عني كل شيء غيرها.

إذاً تفجّر كل شيء!

لا شك عندي في أن هذا لم يطل أكثر من لحظة، لم يطل إلا رمشة عين. أعرف هذا لأن الشاب ظل واقفاً أمامي وقد تجمدت على وجهه ابتسامة غائبة. لم يكن يسمع شيئاً ولا يحس شيئاً من ذلك الهرج والمرج في داخلي. لم يتأثر بالجنون الذي حل علي حلولاً مفاجئاً. جنون جاءني أشبه بتمرد عقِبَ عذابي وخوفي على أخي، عقب شكوكي التي هزتني حتى جذوري. قوة الحياة كانت في انتظار انهيار الأسس التي أرسيناها فانطلقت متفجرة حاملة معها محاصيل رعيناها زمناً طويلاً جداً، حملتها كأنها طوفان لا يترك من خلفه شيئاً غير الحطام وغير أرض يباب. في لحظة الدهشة هذه، ما كنت قادراً على إصدار حكم على

نفسي، ولا على أن أحس أسفاً، ولا على أن أصلي. كان كل شيء حديث العهد، طازجاً. شيء كأنه صاعقة ضربتني وأحرقتني فجردتني من قوتي كلها.

اذهب!.. قلتها بصوت خافت. قلت له: اذهب! قد لا أكون قلتها، لكنه فهمها، فهمها من حركة شفتي، من إيماءة رأسي، فهمها لأنه أراد أن يذهب. لقد ذهب. ذهب من غيرما استعجال حتى لا يكشف ما به من فراغ صبر يجعله، من غير شك، راغباً في أن يُترك وحده من جديد، أن يترك مع ما جلبه في عينيه. اذهب! قلتها له، لأنه كان شاهداً على ضعفي؛ كان شاهداً غير واعٍ، شاهداً أصابه العمى وأصابه الصمم، لكني علمت أنه كان معي فلم أُرد أن أجِد نفسي خجلاً أمامه، خجلاً من نفسي. أردت أن أظل وحيداً معها، مع نفسي.

اتفق لي في ما مضى أن أحسست قلقاً واضطراباً داخلي، لكن ذلك كان يأتي ويذهب كأنه غفلات وعي لحظية، كأنه تمرد في نظامي الداخلي، تمرد لا سبيل إلى شرحه. كانت تلك عثرات سريعة لا تترك خلفها أثراً. وأما في تلك الليلة فقد بدا أن اضطراباً تاماً قد حل بي وكأن كل رابطة في داخلي قد تقطعت أو كأنني ما كنت ما كنته دائماً. صرت مدركاً واحداً من إمكاناتي.. إمكانٌ قد يصير هداماً إن هو استمر.

كان الخوف أول ما أحسست. خوفٌ ما يزال بعيداً، على أنه عميق، على أنه لا ريب فيه، كأنه إدراك لحقيقة أنني سأدفع ثمن تلك اللحظة. سوف يعاقبني الله بوخزات الضمير، ولن تكون بي حاجة إلى الانتظار طويلاً قبل أن تظهر تلك الوخزات. قد تأتي هذه الليلة، وقد تأتي بعد لحظة واحدة فقط.

لكن، لم يحدث شيء. كنت واقفاً في المكان نفسه، قدماي مزروعتان على حصى ممر الحديقة، راسختان. كنت حائراً، متعباً؛ والنار التي كانت في داخلي لم تهدأ أبداً. سامحني، يا ربي! همست بهذا غير واعٍ، همست به من تلقاء نفسي ومن غير تذكّر الدعاء الذي يمكن أن يسعفني في تلك اللحظة.

ابتعدت عن تلك البقعة. ابتعدت كأني هارب منها، ثم توقفت عند السياج، عند النهر.

أحسست أن ما من فكرة واحدة في داخلي، كأن أحاسيسي قد خدّرتها صدمة. لكن المفاجئ أني كنت مدركاً كل شيء. كنت مستقبلاً ومستجيباً لكل شيء من حولي أكثر مما كنت قبل لحظة واحدة فقط. التقطت أذني الأصوات التي رددها الليل. كانت واضحة نقية مثل أصداء مرتدة عن زجاج. كنت قادراً على سماع كل صوت منفصلاً عن غيره. لكن الأصوات كلها اندغمت في هدير أكبر، الماء، والطيور، والنسيم اللطيف، وأصوات ضاعت من بعيد، وهمهمات الليل الناعمة متهادية بطيئاً تحت إيقاع خفق أجنحة مجهولة، أجنحة لا أراها. ما كان لشيء من هذا كله أن يزعجني أو أن يقلقني لأني تمنيت مزيداً من تلك الأصوات، من أصوات البشر، ومن طنين رتيبٍ وخفقات أجنحة. تمنيت مزيداً من كل شيء واقعٍ خارج ذاتي؛ فلعلي أسمع ذلك كله بوضوح كافٍ يحول بيني وبين إصغائي إلىَ نفسي!

قد تكون تلك المرة الوحيدة في حياتي التي بدت لي فيها أصوات الناس وأصوات الطبيعة والضوء والظلال مثلما هي على حقيقتها، تبدّت لي الأصوات والروائح والأشكال. كانت كأنها علامة أو تجلٍّ لأمور تتجاوزني لأني أصغيت ونظرت مثلما ينظر ويصغي شخص منفصل عن ذلك كله، شخص لا علاقة له به. أصغيت من غير ألم ولا بهجة، أصغيت من غير أن أوقع الأذى بشيء من ذلك ومن غير أن أُصلح منه شيئاً. إن لهذا كله حياته الخاصة به من غير تدخلي، من غير مشاركتي، من غير أن يكون لمشاعري أي أثر. هكذا كانت أصواتاً مستقلة، صادقة، غير مُعادٍ صنعها من خلال فهمي لها. وقد تركت في نفسي شيئاً كأنه لا انطباع، شيئاً غريباً عني، شيئاً لا أعرفه، شيئاً يحدث ويوجد على الرغم من كل شيء، شيئاً عقيماً لا نفع فيه. لقد انسحبت، وسُحبت، وصرت منفصلاً عن كل شيء من حولي. بدا لي العالم كأنه شبحيٌّ: حيٌّ لكنه غير مبالٍ. وأنا صرت مستقلاً، وصرت منيعاً.

كانت السماء خالية، وكانت مهجورة. ما كان فيها وعيد ولا سلوى: رأيتها هكذا، مشوهة، مقلوبة رأساً على عقب، متشظية في الماء كأنها انعكاس قريب لا خواءٌ غامض. كان تلامعُ الحصى مرئياً عبر الماء النقي كأنه بطون أسماك نائمة، أو ميتة عند قعر الماء الضحل. أسماك مختبئة من غير حركة، مثل خواطري. لكن

خواطري كانت ستطفو إلى السطح؛ ما كانت لتبقى عميقاً في داخلي. إذاً، فلتكن، فلتعلَ، فلتعلَ عندما تدب الحياة فيها، عندما أستطيع قبول معناها واعتباره أكثر من إلماحة فحسب. هي الآن هادئة، ولعل أحاسيسي هادئة أيضاً، مستقلة، حرة، لعلها تحتفل احتفالاً لطيفاً في هذا الهدوء، في هذا الهدوء الذي لست موقناً من أنه سيطول. فاجأني أن أحاسيسي بدت نقية، بريئة، طالما لا أثقلها بعنف أفكاري وبعنف رغباتي. لقد حررتني أيضاً وأعادتني إلى السلام، إلى زمان بعيد لعله ما وجد أبداً، إلى زمان جميل جداً، إلى زمان نقيٍّ إلى حد جعلني غير مؤمن بأنه كان موجوداً على الرغم من كونه ما يزال باقياً في ذاكرتي. أجمل الأشياء هو المستحيل ـ العودة إلى ذلك الحلم، إلى الطفولة البريئة الساذجة، إلى النعيم الآمن في ذلك الربيع الأول، ذلك الربيع الدافئ المعتم. لم يجعلني هذا التوق أستشعر حزناً أو حماقة لأنه ما كان رغبة ولأنه لا سبيل إليه، حتى من حيث هو فكرة. كان مُحوّماً في داخلي كأنه ضوء خافت مردود صوب أمر مستحيل، صوب أمر ليس في عالم الوجود. النهر نفسه كان يجري خلفاً، وتموجات الماء الصغيرة حاملة فضة ضوء القمر ما كانت تجري مع التيار: كان الماء عائداً، جارياً صوب منبعه. الأسماك الحجرية ذات البطون البيضاء سبحت صاعدة إلى السطح؛ وكان النهر عائداً إلى أصله من جديد.

عندها، تبادر إلى ذهني أن الحياة قد بدأت تعود إلى أفكاري وبدأت تحيل كل شيء أراه ألماً، ذكريات، رغبات غير مستطاع تحقيقها. راحت إسفنجة عقلي الجافة تمتص ما حولها إلى أن امتلأت. وكان وقت الفراق قصيراً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-٤-

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ - قرآن كريم

صوت خطوات في الشارع، على مقربة من سور التكية الذي كسته أوراق اللبلاب. ما ألقيت إليها بالاً، بل ما كدت ألحظها. ما انتبهت إليها إلا لأن فيها ما بدا لي أنه قد يكون غريباً. على أن ذلك الانطباع ظل على السطح تماماً، ظل من غير تحقق، ولم تدعني حالة شرود الذهن أقيم صلة بين ذلك وبين سببه المحتمل. لم أهتم بمن قد يكون ماراً بالتكية في هذا الهزيع المتأخر من الليل مع أن التكية آخر بناء عند أطراف القصبة. لم يتحرك شيء في داخلي، لا إحساس بالشؤم ولا إنذار بقرب الشر. ما كان لوقع الخطوات معنى يتجاوز ما قد يكون لطيران فراشة، ولم ينبهني شيء إلى أنه قد يكون حاسماً في حياتي. ما أعجب أن يكون الإنسان غير قادر حتى على الإحساس بالخطر الوشيك المحدق به! لو علمت لأغلقت البوابة بالمزلاج الثقيل ودخلت التكية حتى تتقرر مصائر الآخرين من غير مشاركتي. لكني لم أعلم فواصلت النظر إلى النهر محاولاً رؤيته مثلما كنت أراه قبل لحظة مضت، رؤيته وحده بمعزل عن نفسي. لم أنجح في هذا فقد قاربت الساعة منتصف الليل، الساعة التي أستقبلها متطيراً قليلاً لأنها موعد استيقاظ الأرواح المظلمة من كل نوع. توقعت ظهور شيء، سواء أكان خيراً أو شراً، توقعت ظهوره من صمتي هذا.

عاد وقع الخطوات، عاد صامتاً، بل عاد أكثر صمتاً من ذي قبل. ما كانت لدي أية فكرة عما قد تكونه تلك الخطوات. لكني كنت واثقاً من أنها الخطوات نفسها. علمَ جزء مني هذا؛ التقطت أذناي أمراً غير مألوف، أمراً لم ينشغل ذهني به، لكنه سجله لديه: قدمٌ حذرة والأخرى من غير صوت. أظنني لم أسمع هذا إلا لأن من المستحيل تخيل شخص سائر على ساق واحدة. من هنا، خلقت بنفسي

ذلك الانطباع بوجود قدم أخرى، قدم غير موجودة. لم أستطع سماع صوت الحارس الليلي. أتكون روحٌ لها ساق واحدة قد بكّرت في الوصول؟

توقف وقع الأقدام عند البوابة. قدم حقيقية، هادئة، حذرة؛ والأخرى متخيلة، غير مسموعة.

استدرت وانتظرت. بدأ الأمر يشغل بالي. جعل هذا التطفل رعشةً تسري في جسدي. كنت ما أزال قادراً على الذهاب إلى البوابة وإغلاقها بالمزلاج، لكني لم أفعل هذا. كان في مقدوري أن أميل صوب خشب البوابة الذي أكلته الديدان كي أنصت لأرى إن كان ثمة من يتنفس من خلفه، أو طار مبتعداً، أو تحول إلى ظلمة. انتظرت فكان إحجامي عن الفعل عوناً للمصادفة.

وقع خطوات جديد في الشارع.. جريٌ وتعجل وأنفاس مبهورة. أينضم صاحب الساق الواحدة إليها أم أنه اختفى؟

انفتحت البوابة. دخلها أحدهم.

خطا على بلاطات العتبة الحجرية واستند إلى الباب العريض بظهره كأنه تهاوى عليه، أو كأنه يحاول إغلاقه. كان ذلك فعلاً غريزياً، وكان فعلاً عقيماً؛ لا يستطيع جسده الصغير المتداعي أن يمنع أحداً من دخول الباب.

شجرتان ألقَيتا على البوابة ظلهما؛ وكان الرجل واقفاً في فرجة ضوء بين الظلين كأن لعنة أصابته.. هدف معزول، مكشوف. لا شك عندي في أنه كان راغباً في الاختباء في الظلمة الدامسة، لكنه لم يجرؤ على الإتيان بأية حركة. جرت الخطوات متجاوزةً البوابة المغلقة، مقعقعةً على بلاط الشارع، ثم خبا صوتها وتلاشى عند منعطف الطريق في الوادي الضيق حيث موقع الحراس الألبانيين. كان واضحاً أن المطاردين يسألون الحراس عن هذا الرجل الواقف هنا كأنه مصلوب على الباب. كان عارفاً، وكنت عارفاً، أنهم سيعودون.

نظر كل منا إلى الآخر. لم يتحرك أي منا، ولم يبارح موقعه. لم نقلْ شيئاً. من مكاني في آخر الحديقة، رأيت قدمه العارية على بلاط العتبة، ورأيت وجهه الذي شحب حتى صار أكثر بياضاً من جدار التكية. في ذلك الوجه الأبيض، وفي تلك الذراعين الممتدتين امتداداً واهياً، وفي الصمت نفسه، كان رعب الانتظار ماثلاً.

لم أتحرك ولم أتكلم حتى لا أشوش هذه اللعبة المثيرة، لعبة المطاردة والفرار. صار الانتظار أكثر توتراً مع تزايد صعوبة وضعنا. أحسست أنني اجتُذبت إلى شيء غير معتاد، إلى شيء خطير، قاسٍ. لم أدر أي من الجانبين كان أكثر قسوة ـ الهارب أم مطاردوه، وما كان هذا مهماً عندي في تلك اللحظة. فاحت المطاردة برائحة الدم والموت؛ وكان كل شيء جارياً أمام عيني. أدركت ساعتها أن الحياة نفسها أشبه بعقدة دامية لعلها متداخلة ومحكمة أكثر مما ينبغي، لعلها وثيقة أكثر مما ينبغي، لعلها مُعبّر عنها تعبيراً قاسياً أكثر مما ينبغي.. لكنها هي نفسها في مطارداتها التي لا آخر لها، صغيرها وكبيرها. ما كنت في هذا الجانب، ولا ذاك، لكن موقفي كان ذا أهمية بالغة. أثارتني فكرة أنني قادر على أن أصير حكماً فأقرر كل شيء بكلمة واحدة أنطقها. كان مصير هذا الرجل بين يدي. كنت قدره. في حياتي كلها، لم أحس يوماً أن لدي هذه القدرة كلها. قد تنهي أمره تحيةٌ بريئة أو ينهيه سعال خفيض. لكني ما أسلمته إليهم، لا لأن عينيه كانتا تتوسلان الرحمة ـ كنت شبه عاجز عن رؤيتهما من مكان وقوفي ـ ولا حتى لأن إقدامي على ذلك قد يكون غير منصف، بل لأني أردت استمرار تلك اللعبة: أردت أن أكون مراقباً، وأن أكون شاهداً. أردت أن أكون مُروَّعاً، وأن أكون مستثاراً.

عاد المطاردون. لقد كفوا عن الجري. عادوا سائرين، حائرين، حانقين لأن مسعاهم قد خاب. الآن، ما عادوا مطارِدين بل مطارَدين أيضاً: فرارُه يعني إدانة لهم. لا شيء ينتهي بسلام هنا؛ وسوف تكون النتيجة بشعة كيفما كانت.

ظل كل مشارك في هذه اللعبة ملتزماً صمتاً تاماً، أنا والمطارَد ومطاردوه. وحدهم الحراس الألبانيون عند السد في الوادي كانوا يغنون أغنية بطيئة من أغاني ديارهم. تلك الأغنية الأجنبية النائحة، التي هي أشبه بنشيج منفلت، جعلت صمتنا أفدح ثقلاً.

اقترب صوت الخطوات وكان مكتوماً، غير واثق. بدأت أتابعهم مستنفراً حواسي إلى أقصاها، أتابع المطاردين والهارب لأنني غيرهم وغيره. تمنيت كثيراً أن يمسكوا به، وتمنيت أن يفر منهم، وامتزج خوفي على الهارب امتزاجاً غريباً برغبتي في أن أصيح وأدلهم على مكانه. استحال هذا كله إلى مسرّة تعذبني.

توقف المطاردون أمام باب التكية. حبست أنفاسي، وعشت تلك اللحظة بقلب امتلأ خفقانه نفاد صبر، فسوف تقرر هذه اللحظة مصيري أيضاً.

بكل تأكيد، كان الهارب قد كف عن التنفس أيضاً. لا فاصل بينه وبينهم غير ألواح خشب الباب الرقيقة. كانوا واقفين على مقربة شديدة منه، لكن البعد بين الطرفين كان كبيراً أيضاً. رجاؤه وجهلُهم كانا فاصلاً مثل جبل بين الطرفين. ما تزال ذراعاه ممدودتين ووجهه لامع كالفسفور. كانت الإثارة كبيرة إلى حد جعل ذراعيه وساقيه غائمة في عيني، لكن بقعة بياض الوجه ظلت على حالها كأنها رمزٌ شاهدٌ على ذعره.

هل يفتح مطاردوه الباب ويدخلون؟ هل تنزلق قدمه على الحجر الصقيل فتستلفت انتباههم؟ هل أتنحنح محرراً حنجرتي من التوتر فأستدعيهم؟ سوف يتصارع شكلان اثنان من اليأس والقنوط، لكن المطاردين أكثر عدداً، ولن يستطيع منع دخولهم إلا لحظة. عندها، سوف يتقابلون وجهاً لوجه، وسوف تكون تلك نهايته. سينقضون عليه انقضاضاً شرساً لشدة خوفهم وحنقهم عندما أضاعوا أثره، ولشدة سرورهم بالعثور عليه من جديد. وأنا سأكتفي بالمراقبة. ستُغثيني العاقبة. وسأدعو أن يخرجوا من حديقة التكية. لكن إحساسي في تلك اللحظة كان مثل إحساس المطارَد.. إحساس عارض أو مصادِف، لأنه كان ممكناً أيضاً أن أحس مثلما أحس المطاردون. لكن، لعل ذلك ما كان إحساساً عارضاً، ولا مصادفاً. أنا قادر على رؤيته؛ وأنا راغب في أن ينصرف أولئك الرجال غير المرئيين الواقفين خلف البوابة حتى لا أكون مضطراً إلى رؤية النهاية البشعة، نهايته. الظاهر أن أمنياتي أعانت هذا الرجل الذي يكافح من أجل حياته يائساً ومنحته ما يشبه أملاً في البقاء.

هذا ما جرى.. كأن إرادتي المركزة كان لها بعض الأثر: ابتعدت خطواتهم عن البوابة. ثم توقفوا من جديد، توقفوا حائرين. كان واحدٌ منهم غير واثق من أن عليهم محاولة البحث هنا. كان في وسعهم أن يعودوا. لكنهم لم يفعلوا، بل مضوا في الطريق صوب القصبة.

ما يزال الرجل واقفاً مثلما كان، لكن تيبس عضلاته صار أقل من ذي قبل. كلما ازداد صوت الخطوات ابتعاداً نضبت قواه.

كان انتهاء كل شيء على هذا النحو أمراً حسناً. لو أمسكوا به أو ضربوه أمامي لظلت تلك الصورة القاسية العنيفة باقية في ذاكرتي زمناً طويلاً. ولربما ينتابني ندم لأنني كنت مستعداً ـ لو لحظة واحدة ـ لأن أسلمه إليهم، ولأنني استمتعت (متعة مؤلمة، لكنها تظل متعة) بالإيقاع بإنسان. وأما هكذا، فسوف يكون أي ندم أُحسه أخف وطأة.

لم أفكر في من قد يكون محقاً أو مصيباً.

بل إني ما كنت مبالياً: عندما يسوّي الناس حساباتهم، يكون العثور على الذنوب سهلاً وتكون العدالة هي الحق في أن نفعل ما نرى أن فعله واجب. إذاً، يمكن أن تكون العدالة أي شيء. يصح الأمر نفسه على الذنوب. كنت غير قادر على اتخاذ هذا الجانب أو ذاك، وما كانت لي علاقة بالأمر كله لأني لا أعرف شيئاً. حقيقة الأمر أني صرت على علاقة بهذا كله من خلال صمتي، لكن هذه العلاقة لا تخالف معتقداتي، وأنا قادر دائماً على تبريرها بما أجده ملائماً لي.. إن عرفت الحقيقة يوماً.

سرت صوب التكية تاركاً الرجل وحيداً. في وسعه الآن أن يفعل ما يريد. انتهت الملاحقة؛ وفي مقدوره أن يذهب في سبيله. نظرت أمامي، نظرت إلى حصى الممر وإلى العشب الأخضر على الجانبين.. نظرت حتى أبقيه بعيداً عن عيني، حتى أقطع الروابط التي كانت بيننا قبل لحظة واحدة فقط، مهما تكن تلك الروابط بسيطة. أردت له أن يبقى ما كانه، أن يبقى غريباً فلا تلتقي عيناي عينيه بعد الآن، ولا تتقاطع دربانا. لكن، وحتى من غير أن أنظر، رأيت بياض قميصه وشحوب وجهه. لعلي لم أر ذلك إلا في خيالي، في صورة تذكرتها لاحقاً. رأيت أنه قد خفض ذراعيه وقارب بين ساقيه. ما عاد متوتراً؛ وما عاد متكوراً على نفسه في عقدة كبيرة من أعصاب مرتعشة، ما عاد عيشه منحصراً في تلك اللحظة التي تقرر حياته أو موته. صار رجلاً متحرراً من قلق اللحظة، وصار حراً في التفكير فيما ينتظره. أقول هذا لمعرفتي أن ما كان بينه وبين مطارديه لم يصل إلى حل:

استطال الزمن فحسب، وتأجل الأمر حيناً غير معلوم. لعله لم يتأجل إلا حتى اللحظة التالية لأن عليه أن يفر، ولأنهم عائدون إلى مطاردته. عندها، ظننت أنه رفع ذراعاً، ظننته رفع ذراعاً مترددة لم تبتعد عن جسده كثيراً كأنه أراد استيقافي، كأنه أراد أن يقول لي شيئاً، أن يدعوني إلى أن أكون شريكاً في تقرير أقداره. لست أدري إن كنت رأيت هذا حقاً، إن كان قد رفع يده حقاً، أو أني تخيلت الحركة التي لعله أتى بها، الحركة التي لا بد أنه أتى بها. لم أتوقف. كنت غير راغب في تركه يشغل بالي أكثر من ذلك. دخلت التكية وأدرت المفتاح في القفل الصدئ.

عندما بلغت غرفتي، كنت ما أزال قادراً على سماع صوت الصرير الذي باعد بيننا. بالنسبة إليه، يعني هذا حرية، أو لعله يعني خوفاً أكبر: وحدة تامة.

أحسست حاجة إلى أن أتناول كتاباً، القرآن أو أي كتاب آخر فيه كلام عن الخلود وعن رجال عظماء وأيام مقدسة. سوف تهدئني موسيقى الجمل المألوفة التي أثق بها، الجمل التي لا أفكر فيها بل أحملها داخل ذاتي كأنها سريان الدم في جسدي. نحن لا نلقي بالاً إلى هذا، لكنه كل شيء بالنسبة إلينا: هو ما يُمكّننا من العيش والتنفس، ويحفظنا منتصبين، ويضفي معناه على كل أمر من أمور حياتنا. تلك المواكب من كلمات جميلة عن أمور أعرفها تهدئ نفسي دائماً، تهدئها على نحو غريب. ضمن هذه الدائرة المألوفة، الدائرة التي فيها أتحرك، أحس نفسي آمناً، محمياً من أية شراك قد ينصبها لي الناس، أو العالم.

لكن رغبتي في تناول كتاب ما كانت أمراً حسناً، مهما يكن الكتاب، ما كان أمراً حسناً لي أن ألتمس الأمان في الجمل المألوفة. ما سبب خوفي وقتها؟ وما الذي أردت منه فراراً؟

كنت عالماً أن الرجل ما يزال هناك، في الحديقة. لو فتح البوابة لسمعت الصوت. لم أوقد مصباحاً، بل بقيت واقفاً في الظلمة الصفراء في غرفتي، قدماي في ضوء القمر، وبقيت منتظراً. فماذا انتظرت؟

ما يزال الرجل هناك. هذا كل ما له أهمية. كان كافياً أن التكية قد حمته. صار عليه الآن أن ينصرف. فلماذا لم ينصرف؟

الغرفة عابقة برائحة جلد وخشب عتيق، رائحة حياة منسية. وحدها ظلال نساء شابّات مُتن منذ أمد بعيد تعبر الغرفة أحياناً: لقد اعتدت حضورهن؛ عشن هنا قبلي. وأما أن يكون رجلٌ لا أعرفه، غريبٌ وجهُه رقعة بيضاء، وذراعاه وساقاه متباعدة كلها، قد اتخذ له مقاماً في هذا المعبد القديم وصلب نفسه على بابه لشدة كربه! أدركت أنه غيّر وقفته، رأيت كيف تراخى جسده كأن عظامه كلها تكسرت فجأة. كان هذا أمراً جديداً، أمراً أكبر أهمية وأشد ألماً، لكني تذكرت تيبسه السابق وما كان فيه من عناء. تذكرت توتره الذي كان حياً يقاتل ولا يستسلم لأحد. تذكرت عضلاته كأنها نوابض مشدودة، عضلات قادرة على اجتراح المعجزات. وجدت نفسي أفضّل تلك الصورة على صورته الجديدة المتكسرة لأنها كانت تتيح لي أملاً أكبر وتحررني من أية مسؤولية، وتعدني بأنه سيعتمد على قواه الخاصة. وكانت الصورة الأخرى اتكالاً وضعفاً وحاجة إلى العون. تذكرت حركته التي رأيتها، أو التي لم أرها، حركته التي أراد منها اجتذاب عينيّ إلى عينيه. لقد ناداني ورجاني ألا أمر عابراً إياه، عابراً خوفه، كأني غير مهتم. لو لم يأت بتلك الحركة، لو أني تخيلت حركته المحتومة تخيلاً، حركةَ حياة تكافح وتصرخ طالبة عوناً، لخسر الصراع كله، لخسر أمله أيضاً. مؤسف أنني لا أعرف عن هذا الرجل شيئاً. إن كان آثماً، فلن أفكر فيه أبداً.

مضيت إلى النافذة فأفزعني ضوء القمر عندما صافح وجهي. كان كأنه يشي بي. نظرت من النافذة متردداً، مرتاباً، لم أجده عند البوابة. لقد ذهب. نظرت في أرجاء الحديقة من غير تردد آملاً أن أجدها خالية. لكنه لم يرحل. كان واقفاً تحت شجرة، في ظلها، مستنداً إلى جذعها. رأيته عندما تحرك: كانت قدماه في ضوء القمر مثلي، وكانت حافة الظل عند ساقيه، فوق الركبتين.

لم يكن ينظر إلى التكية ولا إلى نافذتي. ولم يكن يتوقع مني أي مزيد. كان مصغياً إلى الشارع بكل انتباه؛ وكنت واثقاً من أنه قادر حتى على سماع خطوات القطط، حركات الطيور، أنفاسه الصامتة. تابعت عينيه عندما رفعهما صوب قمة الشجرة: كانت تتمايل قليلاً مع نسيم الليل. أتراه يرجوها الصمت أم يلعن حفيفها الذي جعله غير قادر على تمييز الأصوات من خلف جدران التكية، تلك الأصوات التي يمكن أن تكون لها قيمة كبيرة بالنسبة إليه، كقيمة حياته نفسها؟

دار حول الشجرة من غير أن يفارق ظهره جذعها. تحركت قدماه الفضيتان في دائرة، ثم ابتعدتا عن الشجرة وتقدمتا من البوابة بخطوات صامتة لا وزن لها. أغلق المزلاج بكل حرص. وعندما عاد وتسلل صوب السياج من غير أن يخرج من الظلال، انحنى فوق النهر ونظر إلى الأعلى، صوب الوادي الضيق، ثم صوب القصبة في الأسفل. عاد واختفى بين الأجمات الكثيفة. أتراه سمع شيئاً أو رأى شيئاً؟ أتراه لم يجرؤ على الخروج؟ أم أنّه ما من مكان يذهب إليه؟

تمنيت معرفة إن كان هذا الرجل قد ارتكب إثماً.

إذاً، فقد سرت تاركاً إياه، خافضاً عيني إلى الأرض. لقد أغلقت باب التكية وحبست نفسي في غرفتي، لكني لم أفلح بعد في فصل نفسي عن الرجل الذي اقتحم هذا السلام وأرغمني على التفكير فيه، على الوقوف عند نافذتي أرقب خوفه المتنامي. جعلني أنسى خطايا الآخرين في ليلة القديس جورج هذه، أنسى بداية خطاياي نفسها، أنسى اليدين الرائعتين عند الغسق، أنسى مخاوفي كلها. لكن، لعل هذا حدث نتيجة تلك المخاوف، لا نتيجة أي أمر آخر!

كان علي أن أبتعد عن النافذة، وأشعل شمعة، وأذهب إلى غرفة أخرى إن أردت ألا تعذبه نافذتي المنارة عذاباً لا طائل منه. كان علي أن أفعل أي شيء عدا ما فعلت. لأن معنى ذلك قلقٌ واهتمامٌ مريض، معناه قلةُ عزم عندي. كان ذلك كأني ما عدت واثقاً بنفسي وما عدت واثقاً بضميري.

كان هذا الاختباء طفولياً، بل حتى أسوأ من ذلك: كان اختباءً جباناً. ما كان لدي ما أخشاه، ولا حتى نفسي، فلماذا تصرفت كأني لا أرى ذلك الرجل؟ ولماذا منحته فرصة الانصراف حين كان غير راغب في الانصراف؟ لماذا كنت أتظاهر بأنني غير واثق إن كان في حديقة التكية، إن كان يخفي جريمة أو يفر من جريمة؟ أمرٌ كان جارياً؛ وما كان ذلك الأمر بريئاً أبداً. أعلم أن أموراً خطيرة قاسية تحدث طيلة الوقت، لكن هذا الأمر كان جارياً أمام عيني، أمام عيني أنا، وما كنت قادراً على إزاحته عني وقذفه صوب كل ما لم أعرفه أو ما لم أره مثلما أفعل بأي أمر آخر. لم أرد أن أكون خارجاً عن القانون، ولا متواطئاً من غير قصد. أردت أن أكون حراً في اتخاذ قراري بنفسي.

خرجت إلى الحديقة. كان القمر المضيء قد اقترب من الأفق، ولسوف يغيب عما قريب. الزيتون البري في أول إزهاره. ملأ عبقه الثقيل الهواء. كان عبقاً بالغ القوة، مُلحاً. كان علينا أن نقطع هذه الشجرة. أحياناً، أكون شديد الحساسية إزاء الروائح؛ تفوح رائحة الأرض كلها فلا أحتملها.. تخنقني. يحدث هذا على حين غرة، يحدث عندما أكون مستثاراً، هذا ما يبدو لي، لكني لا أدرك طبيعة الصلة بين الأمرين.

كان واقفاً بين الأجمات الكثيفة. لولا معرفتي أنه هناك لما استطعت العثور عليه. وجهه من غير ملامح، تحجبه أنصاف الظلال. كان قادراً على رؤيتي بأفضل مما أراه. وجدت نفسي مكشوفاً في الضياء، فأحسست نفسي عارياً، لكني ما كنت قادراً على ستر نفسي. تحول الرجل إلى أجمة ونمت له أغصان. سرعان ما يبدأ التمايل في نسيم الليل النازل من الجبال عبر الوادي.

قلت له بصوت هامس، «عليك أن تذهب».

«أين».

كان صوته حازماً، عميقاً، كأنه ليس هذا الرجل القصير القامة الواقف أمامي.

«اذهب من هنا، لا يهمني أين تذهب».

«أشكرك لأنك لم تش بي».

«لا أريد أن أكون متورطاً في شؤون الآخرين. لهذا أريدك أن تذهب».

«إذا جعلتني أذهب، فأنت تصير متورطاً».

«قد يكون هذا أفضل شيء».

«لقد ساعدتني مرة. فلماذا تضيّع ذلك الآن؟ قد تكون في حاجة إلى ذكرى لطيفة، بعض الأحيان».

«لست أعلم عنك شيئاً».

«تعلم عني كل شيء. إنهم يبحثون عني».

«لا بد أنك فعلت لهم شيئاً».

«لم أفعل لهم شيئاً خاطئاً».

«وماذا ستفعل الآن؟ لا تستطيع البقاء هنا».

«ألقِ نظرة صوب الجسر. هل ترى حراساً هناك؟»

«نعم».

«إنهم في انتظاري. إنهم محيطون بالمكان من كل ناحية. أأنت راغب حقاً في إرسالي كي ألقى حتفي».

«يستيقظ الدراويش في وقت مبكر. سوف يرونك هناك».

«خبئني حتى مساء الغد». مكتبة سُر مَن قرأ

«قد يعرّج علينا مسافرون.. ضيوف غير منتظرين».

«وأنا أيضاً ضيف غير منتظر».

«لا أستطيع فعل هذا».

«إذاً، استدع الحراس، إنهم خلف الجسر».

«لا أريد استدعاءهم، ولا أريد أن أخبئك. ما الذي يوجب علي مساعدتك؟»

«لا سبب على الإطلاق. اذهب الآن، فهذا الأمر لا يعنيك».

«كنت قادراً على تدميرك».

«ما كانت لديك قوة، حتى لفعل ذلك».

فاجأتني إجابته. ما كنت مستعداً لهذا الحديث. انتابتني دهشة عندما سمعت كلماته. أغلب الظن أنني دهشت لتوقعي ملاقاة رجل من نوع مختلف تماماً. لقد خدعتني تلك الصورة، صورة الذراعين الممدودتين عند البوابة. وجهه الذي كان بقعة من بياض، وحماية ألواح الخشب الرقيقة التي ما كانت إلا حماية واهية، والشفقة التي أحسستها.. كان ذلك كله ما كوّن انطباعي عنه. تخيلته رجلاً مذعوراً ضائعاً مسكيناً، بل حسبت أيضاً أنني عرفت كيف سيكون صوته: مرتجفاً، غير آمن. لكن كل شيء صار الآن مختلفاً. حسبت أن كلمة واحدة مني سوف تجعله يرق وأنه سينظر إلي متواضعاً، كان في وضع لا أمل فيه، وضع معتمد كله على مشيئتي، بخيرها أو شرها. لكن صوته كان هادئاً، بل حتى كان غير حانق علي. أظنه بدا لي كأنه صوت مبتهج، ساخر، متحدٍّ.. فهو لم يجبني متجهماً، ولا متواضعاً، بل كان كأنه غير مبالٍ، كأنه فوق كل ما كان جارياً، كأنه علم أمراً جعله يستشعر ثقة. لقد خيب توقعاتي إلى حد لا بد معه أن أكون قد بالغت في تقييم

هيأته الأولى. أدهشتني أيضاً طريقة مطالبته إياي بأن أخبئه وكأن ذلك أمرٌ طبيعي إلى أقصى الحدود، معروفٌ سوف يقدّره لكنه ليس بالغ الأهمية بالنسبة إليه. لم يكرر طلبه، ولم يلح، كان تخليه عن الأمر سهلاً. لم يغضبه أنني رفضت طلبه. بل إنه لم ينظر إلي! أصغى إلى ما قلت منتبهاً وقد رفع رأسه قليلاً من غير أن يبدو عليه أي انتظار لمساعدتي. ما عاد متوقعاً مساعدة أي إنسان. كان مدركاً أن ما من أحد يجرؤ الآن على مد يد العون إليه، وأنه بات من غير عائلة أو أصدقاء أو معارف، وأنه صار محكوماً بأن يظل وحيداً في محنته. حيِّزٌ فارغ صار متروكاً من حوله ومن حول مطارديه.

قلت: «لا بد أنك تظنني رجلاً طالحاً».

«لا، لست أظنك كذلك».

«أنا لست كذلك. لكني لا أستطيع مساعدتك».

«يعرف كل امرئ نفسه».

ما كان هذا لوماً لما أصابه من سوء طالع، ولا مصالحة معه. ما كان أكثر من قبول بما هو واقع الحال.. كان إقراراً مرّاً عتيقاً بأن الناس، الناس جميعاً، يرفضون مساعدة شخص مدان. حسبني من بين أولئك الناس فلم يفاجئه مسلكي أبداً. لم يحطمه هذا الإدراك، ولم يسلبه قوته. ما كان في نظرِه من حوله قنوط، بل هدوء وعزم وتصميم على أن يقاتل وحيداً.

سألته عما جعلهم يطاردونه. لم أتلق منه إجابة.

«كيف هربت؟»

«قفزت من فوق الجرف».

«هل قتلت أحداً؟»

«لا».

«هل سرقت شيئاً؟ أو سلبت أحداً؟ هل آذيت أحداً؟»

«لا».

لم يتعجل تبرير وضعه، ولم يحاول إقناعي، بل أجاب عن أسئلتي كأنها أسئلة فائضة عن الحاجة أو مزعجة. ما عاد حكمه علي منطلقاً من الخير والشر، وما

عاد يعتبرني شيئاً خطيراً أو مصدر عون: لم أش به، لكني لن أساعده. ما فاجأني هو أن ذلك الإهمال، ذلك التجاهل، قد جرح كبريائي، بدا كأنني شجرة أو أجمة أو طفل. لست أدري كيف جردني من شخصيتي، كيف انتقص مني، كيف جردني من القيمة لا في عينه وحده، بل في عيني أيضاً. ما كنت مبالياً بأمره؛ وما كنت عالماً عنه شيئاً؛ ولن أره بعد ذلك أبداً.. لكن رأيه صار مهماً في نظري، وساءني أنه صار يتصرف كأنني غير موجود. لو كان حانقاً عليّ لسرّني هذا.

كنت أنا الذي يهجره، يبعده، لكن استقلاليته أزعجتني.

كنت واقفاً هناك، وبقيت واقفاً في عبق الزيتون البري الخانق ليلة القديس جورج التي كانت لها حياتها الخاصة بها، كنت واقفاً في الحديقة التي أضحت عالماً بذاتها. كنا واقفين هناك وجهاً لوجه، غير مسرورين بأننا التقينا، وغير قادرين على أن يمضي كل منا في طريقه كأننا لم نلتق قط. كنت أعذب نفسي محاولاً تقرير ما أفعله بهذا الرجل الذي تحول إلى أغصان من غير أن آتي شراً ومن غير أن أعاقبه على إثمه.. فأنا لم أدر شيئاً عما هو إثمه. لم أرد أن أكون آثماً في حق ضميري؛ لكني ما استطعت الاهتداء إلى حل.

كانت تلك الليلة غريبة، لا نتيجة ما حدث فحسب، بل أيضاً نتيجة فهمي إياها. قال لي عقلي ألا أتورط في أمر لا شأن لي به، لكني تورطت بالفعل، تورطت إلى حد ما عدت معه قادراً على إبصار سبيل الخروج منه. لقد قادني اعتيادي السيطرة على نفسي إلى دخول غرفتي، لكني عدت، عدت مدفوعاً بحاجة جديدة. لقد علمني نظام الدراويش ونظام التكية أن أكون حازماً، لكني وقفت أمام ذلك الفارّ غير عارف ما ينبغي فعله. كان معنى هذا أنني أفعل شيئاً لا ينبغي أن أفعله. كان لدي كل سبب لترك هذا الرجل يلقى مصيره، لكني بتّ سائراً خلفه في دربه الخطيرة الزلقة، في درب ليست دربي.

بينما كنت مستمراً في التفكير هكذا، باحثاً عن كلمة أستطيع بها إخراج نفسي من هذه المعضلة، وجدتني أقول له على غير انتظار: «لا أستطيع إدخالك إلى التكية. سيكون هذا خطيراً عليّ وعليك».

لم يجب بشيء. بل حتى لم ينظر إلي. ما كان في كلامي شيء جديد. ما يزال لدي متسع من الوقت كي أعود أدراجي، لكني بدأت الانزلاق؛ وكان التوقف صعباً.

همست: «ثمة سقيفة في آخر الحديقة لا يذهب أحد إليها أبداً. نحتفظ فيها بسقط المتاع».

عندها، نظر إلي. كانت عيناه حيّتين، غير واثقتين، لكنهما لم تفصحا عن أي قدر من الخوف.

«اختبئ هناك إلى أن يذهبوا. إذا أمسكوا بك، فلا تقل لهم أنني ساعدتك».

«لن يمسكوا بي».

أغثتني تلك الثقة التي قال بها ذلك. ومن جديد، أزعجني فرط ثقته بنفسه وأسفت لأنني عرضت عليه مكاناً يختبئ فيه. كان مكتفياً بنفسه، مكتفياً تمام الاكتفاء. كان شخصاً يزيح كل من عداه جانباً: أحسست كأنه ضربني، كأنه دفع اليد التي مددتها إليه، دفعها واثقاً بنفسه إلى حد باعث على التقزز. في وقت لاحق، خجلت من نفسي لسرعة انزعاجي. (ماذا لديه غير أن يكون واثقاً بنفسه؟!). ضبطت نفسي شاعراً بتلك الحاجة الدنيئة إلى أن يكون الآخرون شاكرين لنا، إلى أن يظهروا أمامنا صغاراً محتاجين، لأن هذا ما يخلق فضلنا، لأن هذا ما يغذيه، لأن هذا ما يُعلي من شأن أهمية أفعالنا وإحساننا. لكن مسلكه جعل إحساني إليه يبدو أمراً تافهاً لا ضرورة له. على أنني ما كنت خجلاً من نفسي في تلك اللحظة، بل كنت حانقاً. بدا لي أنني صرت متورطاً في أمر لا معنى له أبداً، لكنني سرت عابراً الحديقة في اتجاه السقيفة المتداعية المختفية بين الأجمات وأشجار صفصاف المياه. سرت من غير بهجة، من غير تبرير، من غير حاجة داخلية واضحة.. لكنني ما كنت قادراً على فعل أي شيء آخر.

كان باب السقيفة مفتوحاً. تعيش فيها خفافيش وحمائم.

توقف الرجل.

سألني، «لماذا تفعل هذا؟»

«لست أدري».

«أنت نادم على فعلك منذ الآن».

«وأنت مفرط في اعتزازك بنفسك».

«ما كان عليك أن تقول هذا. ثم إن الإنسان لا يمكن أن يكون مفرطاً مهما اعتز بنفسه».

«لا أريد أن أعرف من أنت، ولا ما فعلت. هذا شأنك وحدك. ابق هنا. هذا كل ما أستطيعه من أجلك. وليكن كل شيء كأننا ما التقينا قط، كأننا لم ير واحدنا الآخر».

«هذا أفضل. اذهب الآن إلى غرفتك».

«أتريد أن آتيك بشيء من الطعام؟»

«لا. أنت منذ الآن نادم حتى على أنك فعلت هذا».

«لماذا تظنني نادماً على ما فعلت؟»

«أنت تتردد كثيراً جداً، وتفكر كثيراً جداً. مهما يكن ما تفعله الآن، فسوف تندم عليه. اذهب إلى التكية ولا تفكر في أمري بعد الآن. إذا تابعت التفكير، فسوف تسلمني إليهم».

أكان هذا سخرية، هزءاً، ازدراءً؟ من أين له القوة حتى يتصرف هكذا؟

«أنت لست ممن يثقون بالناس كثيراً».

«سوف ينبلج الفجر عما قريب. ولن يكون أمراً حسناً إن وجدونا معاً».

لقد أراد التخلص مني! ألقى نظرة فارغة الصبر صوب السماء التي بدأت تشحب قليلاً أمام الصبح الآتي. مع هذا، كنت راغباً في طرح أسئلة كثيرة عليه.. لن أراه من جديد. وما من أحد غيره يستطيع الإجابة عن أسئلتي.

«أمر واحد فقط: أنت وحيد. ألست خائفاً؟ سوف يمسكون بك ويقتلونك. ليست لديك أية فرصة».

«دعني وشأني!».

كان صوته خشناً جعله الغضب مكتوماً. ما من ضرورة حقيقية لأن أقول له ما يعرفه أصلاً. لعله ظنني رجلاً سيئاً حقاً، رجلاً يستمد من محنته متعة متشفية! وقد أجابني بما يكافئ هذا.

«ثمة ما يقلقك». قال هذا بحكمته المفاجئة فأدهشني قوله إذ أمسك بي في حيّزي الخفي نفسه.. «سآتي في وقت من الأوقات كي نتكلم. سآتي عندما يزول الخطر. اذهب الآن».

لم يخبرني ما أردت معرفته، بل تركني أواجه نفسي. أي نوع من الإجابة كان ممكناً أن يعطيني؟ ماذا كان يمكن أن نجد من مشتركات بيننا؟ ماذا كان يمكن أن يعلمني؟

فتحت النافذة. جو الغرفة خانق. لو لم يكن في الحديقة، لنزلت إليها كي أنتظر الفجر من غير نوم، تماماً مثلما سأنتظره هنا. ما عاد الفجر بعيداً: بدأت أولى الطيور تعلن مقدمه بغناء لا ينفك يزداد صخباً، في حين فتحت السماء فوق التلال السوداء أجفانها فظهرت زرقة عينيها. الأشجار في الحديقة ما تزال غافية، ما تزال تغطيها ظلمة ضبابية رقيقة. عما قريب، مع أول أشعة الشمس، ستبدأ الأسماك الصعود إلى سطح الماء. كنت أحب ساعة اليقظة الصباحية تلك، كأن الحياة نفسها تبدأ عندها.

انتظرت وسط غرفتي وقد تلبسني ضيق لم أستطع تحديد سببه. كانت في نفسي مرارة نتيجة ما فعلت، ونتيجة ما لم أفعل. لقد فشلتُ في هذه الليلة الممتلئة خطراً وخوفاً، فشلت من غير سبب معلوم.

أصخت السمع كي ألتقط حفيف أوراق الأشجار واصطفاق أجنحة الطيور. أصغيت حتى إلى جريان النهر، لكني كنت مترقباً سماعه، أو سماعهم آتين إليه. هل يهرب؟ هل يبقى؟ هل يمسكون به؟ هل كانت غلطة ألا أسلمه إليهم؟ ألا أخبئه في غرفتي؟ لقد قال لي: مهما فعلت فسوف تندم. كيف حزر ما لم يكن واضحاً أبداً؟ حتى بالنسبة إلي؟ ما كنت معه، ولا ضده. وجدت لنفسي موقعاً وسطاً، لكنه ما كان موقعاً أبداً لأنه لم يحل شيئاً ولم يفعل غير إطالة المعاناة. سيكون علي أن أتخذ هذا الجانب أو ذاك.

كانت لدي أسباب لا حصر لعددها، أسباب لفعل هذا وذاك.. أسباب لتدميره، وأسباب لإنقاذه. كنت درويشاً؛ وكنت مدافعاً عن الإيمان، وعن طريقتي الصوفية. وكان معنى مساعدتي إياه أن أخون قناعاتي، أن أخون ما كان حتى الآن

جزءاً من حياتي لم تشبه شائبة على مر سنين كثيرة جداً. إن أمسكوا به، فسوف يكون هذا سيئاً بالنسبة للتكية أيضاً، ويصير الأمر أكثر سوءاً إن عُرف عني أنني مددت إليه يد العون. لن يصفح عني أحد؛ وكان شبه مؤكد أن بعضهم سيعلم بالأمر. وهو سوف يخبرهم لغلٍ في نفسه، أو لخوف. سيكون هذا سيئاً بالنسبة إلى أخي أيضاً، سيكون سيئاً بالنسبة إليه وبالنسبة إلي. سأكون قد أضعفت موقفي وموقفه. بفعل من هذا النوع، ستُكتشف صلةٌ، أو اتساق بين الأمرين. سيبدو ذلك كأني أنتقم لأخي، أو كأني أساعد رجلاً آخر لأنني لم أستطع مساعدة أخي. فوق هذا، كان ثمة أسباب كثيرة تجعلني أسلمه إلى السلطات: فليُسَوِّ نزاعه مع العدالة على أفضل نحو يقدر عليه!

لكني كنت إنساناً! لم أدر ما فعل ذلك الرجل. وما كان لي أن أحكم عليه. حتى العدالة نفسها يمكن أن تخطئ. فلماذا أتحمل مسؤوليته وأثقل نفسي بندم محتمل؟ أيضاً، كان ثمة أسباب كثيرة تدعوني إلى مساعدته. لكنها كانت أسباباً شاحبة بعض الشيء، غير مقنعة تماماً. كانت أسباباً اخترعتها ومنحتها أهمية حتى تستطيع وقايتي من السبب الحقيقي، من السبب الوحيد الذي كانت له أهمية: لقد حاولت أن أعتق نفسي من خلاله. ظهر في اللحظة عينها التي كان فيها قادراً على ترجيح الميزان، مع عدم قدرتي على اتخاذ قرار. لو حكمت عليه وأسلمته إلى السلطات لتخطيت المعضلة وبقيتُ مثلما كنت على الرغم من كل ما حدث، وكأن شيئاً لم يحدث، على الرغم من حبس أخي ومن حزن نفسي عليه. لو فعلت هذا، لضحيت بهذا الهارب، لجعلته ضحية عاثرة الحظ ونسيت جرح نفسي وواصلت سيري على درب الطاعة المطروق، غير مخلص لمعاناتي. وأما إن أنقذته، فسوف يكون هذا قراري الأخير: سأكون قد اجتزت الجسر إلى الجهة الأخرى ووقفت في مواجهة أحدهم، في مواجهة ذاتي السابقة، غير مخلص للسلم داخل نفسي. لكني ما كنت قادراً على فعل هذا ولا ذاك لأن ثقتي المحطمة منعتني من الأول، ومنعتني من الثاني قوة الاعتياد والخوف من العودة إلى المجهول. قبل عشرة أيام، عندما كان أخي طليقاً لم يُحبس بعد، كان الأمران سيان عندي. وقتها، سأكون هادئاً بصرف النظر عما أفعل. وأما الآن، فقد علمتُ

أني أتخذ جانباً؛ وهذا ما جعلني أتوقف وسط الطريق غير قادر على اتخاذ قرار. كان كل شيء ممكناً، لكن شيئاً لم يحدث.

وقد كان في الحديقة، في السقيفة القديمة المختبئة بين الأجمات. لم أستطع الكف عن النظر في ذلك الاتجاه، لكن شيئاً لم يتحرك هناك، وما استطعت سماع شيء. أسفت لأنه لم يذهب. لو ذهب، لحلّ بنفسه كل شيء. ما عاد الآن قادراً على الهرب؛ وسوف يظل هنا طيلة النهار. وطيلة النهار، سأظل مفكراً فيه، منتظراً حلول الليل، كي أنقذه، أو كي أنقذ نفسي. أعرف كيف تستيقظ التكية. يكون مصطفى أول من ينهض، إن لم يكن قد أمضى الليلة في بيته. صوت قرع حذائه الثقيل على الأرض الحجرية في الطابق السفلي وصفق الأبواب. سوف يخرج إلى الحديقة كي يتوضأ. يتمخط بصوت مرتفع، ويسعل، ويدعك صدره العريض، ثم يصلي في عجالة، ثم يوقد ناراً، ثم يخرج الأطباق ويعيدها إلى أماكنها. يفعل هذا كله بجلبة كفيلة بايقاظ من لم يألف الاستيقاظ في ساعة مبكرة. إنه أصم؛ وفي عالمه المحروم من الأصوات والأصداء، يصير الضجيج رغبة عصية. عندما ننجح أحياناً في إفهامه أنه يحدث ضجيجاً شديداً ويصفق الأبواب ويقعقع بهذا الأمر أو ذاك، يفاجئه أن يكون هذا كله قادراً على إزعاج أحد.

في الوقت نفسه تقريباً، أستطيع سماع سعال الحافظ محمد الخفيض. يسعل أحياناً طيلة الليل. وفي فصلي الربيع والخريف، يصير سعاله ثقيلاً كأنه يخنقه. كنا عالمين أنه يبصق دماً؛ لكنه كان يتخلص من تلك اللطخات الحمراء ويخرج إلينا مبتسماً وقد اكتست وجنتاه بقعاً محمرّة. يكلمنا في أمور عادية ولا يقول شيئاً عن نفسه ولا عن مرضه. كان يبدو لي أحياناً أن لديه غروراً من صنف خاص، وأنه يبذل الجهد كي يعلو فوقنا وفوق العالم. يعكف على وضوئه بعناية خاصة فيدعك جلده الرقيق الذي يكاد يكون شفافاً، ويمضي في ذلك زمناً طويلاً. سعاله أقل هذا الصباح. ليس شديداً كعادته. يحدث أحياناً أن يكون لهواء الربيع اللطيف أثر مهدئ عليه، ذلك الهواء نفسه الذي يجعل حالته تتردى كثيراً في أوقات أخرى. أعلم أنه سيكون اليوم لطيفاً، هادئاً، بعيداً عنا. هذه هي طريقته في الانتقام من العالم: امتناعه عن إظهار ما بنفسه من مرارة.

ثم ينزل الملا يوسف. تفصح قعقعة شبشبه الخشبي عن تحفظه فهي تبدو محسوبة جداً بالقياس إلى صحته الممتازة. يظل منتبهاً إلى مسلكه أكثر مما يفعل أي واحد منا لأن لديه المزيد مما يخفيه. لست أثق بمظهره فهو يبدو كأنه كذبة عندما يرى المرء وجهه الضارب إلى الحمرة وشبابه الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين. على أن ظني هذا ما كان اعتقاداً جازماً، بل شكاً فحسب.. انطباعاً يتغير بحسب تغير أمزجتي.

صحيح أننا نعيش معاً، لكن الواحد منا لا يعرف عن الآخر إلا القليل لأننا لا نتكلم عن أنفسنا، ولا نفصح عما بنا إلا في أحوال نادرة. لا نتكلم إلا في ما هو مشترك بيننا. وقد كان هذا حسناً لأن الأمور الشخصية شديدة الرهافة، غائمة، لا طائل منها. إن لم نستطع كبتها كلها، فعلينا أن نظل محتفظين بها لأنفسنا. كان القسم الأكبر من أحاديثنا مقتصراً على عبارات من أحاديث سابقة بيننا، أو على عبارات مألوفة استخدمها أشخاص آخرون؛ وذلك لأنها عبارات مجرّبة آمنة، ولأنها تقينا المفاجآت وتقينا سوء الفهم. النبرة الشخصية شرّ، فرصة للتشوه، أو للتعسف؛ ثم إن الابتعاد عن دائرة الأفكار العامة ليس إلا شكاً في تلك الأفكار. من هنا، كان الواحد منا لا يعرف الآخر إلا من نواحي لا أهمية لها، أو إلا من النواحي المشتركة المتماثلة بيننا جميعاً. بكلمات أخرى، ما كان الواحد منا يعرف الآخر أبداً، وما كان لذلك أية ضرورة. أن يعرف واحدنا الآخر يعني أن يعرف ما لا تنبغي له معرفته.

على أن تلك الأفكار العامة ما كانت آمنة أبداً لأنني كنت أحاول بها تحصين نفسي في شيء متين آمن، حتى لا يستطيع أي اضطراب انتزاعي من دائرتنا المشتركة. كنت سائراً على الحافة، على الحافة نفسها، وأردت أن أعود إلى حيث لا يراني أحد. حسدت الجميع هذا الصباح لأن صباحهم سيكون صباح يوم عادي.

ثمة طريقة بسيطة مضمونة أستطيع بها تخفيف كربي، أو حتى إزالته كله: أن أحوله إلى مشكلة عامة. فالآن، صارت للهارب أهمية بالنسبة إلى التكية كلها، وليس من حقي أن أتخذ القرار بنفسي. هل يجوز لي أن أخفي عنهم ما صار

يخصهم أيضاً؟ أستطيع التعبير عن رأيي، وأن أقول كلاماً في صالحه، لكن من غير الجائز لي أن أخبئه هنا. إنه القرار عينه الذي أحاول تفاديه. ينبغي أن يكون هذا قرارنا، لا قراري وحدي. سيكون الأمر بتلك الطريقة أكثر سهولة، وأكثر استقامة. وأما أي مسلك آخر فسوف يكون اعوجاجاً وكذباً، وسأعرف أني أفعل أمراً غير جائز لي فعله مع أنه ما من سبب يدعوني إلى فعله. ما من سبب يدعوني إلى فعله.. حتى ثقتي التامة في أن هذا ما ينبغي علي فعله.

ولكن، مع من أستطيع الكلام؟ إذا اتخذنا القرار معاً، فسوف يعني هذا أنني ضحيت بالهارب مسبقاً! سيخاف كل من الآخر فيتكلم باسم من هم غائبون. في تلك الحالة، يصير القرار الأكثر شدة هو القرار الأكثر قبولاً. سوف يكون من الأسهل علينا، والأكثر صدقاً، أن أكلم رجلاً واحداً: لن يكون للآخرين أي أثر عليه فمن شأن الحجج المنطقية أن تلقى اهتماماً أكبر إن سمعتها آذان أقل عدداً. فمن أختار؟ أعرف أن مصطفى الأصم لا محل له هنا. نحن متساوون أمام الله، لكن أي واحد سيجد كلامي معه في هذا الأمر غريباً، بل مضحكاً.. لا لأنه أصم فحسب! لقد كان ذهن مصطفى شديد الانشغال بأفكار عن زوجته التي يكثر أن يهرب منها وينام في التكية ليالٍ كثيرة. ذهنه منشغل أيضاً بأطفاله الخمسة الذين أنجب بعضهم وتبنى البعض الآخر. سوف يَعجب، هو نفسه، عن كلامي معه في أمر لا يعرف عنه شيئاً. فهناك أمور كثيرة جداً لا يكاد ينتبه إلى وجودها على الإطلاق. من هذه الناحية، مصطفى ليس مختلفاً عن أطفاله الكثر.

سوف يصغي إليّ الحافظ محمد شارد الذهن وعلى وجهه ابتسامة لا تقول شيئاً. إنه يعيش منكباً على كتب التاريخ الصفراء التي لا تقول شيئاً. ففي نظر ذلك الرجل الغريب ـ وأنا أحسده على هذا ـ يبدو كأن الزمن الموجود الوحيد هو الزمن الذي انقضى.. الحاضر نفسه ليس إلا زمناً سوف ينقضي أيضاً. يندر أن يصادف المرء رجلاً يسعده إقصاؤه عن الحياة بقدر ما هو سعيد بذلك. لقد تجول سنوات كثيرة مرتحلاً في الشرق، باحثاً عن كتب التاريخ في مكتبات شهيرة، وعندما عاد بحزمة كتب كبيرة، كان قد صار فقيراً ثرياً ممتلئاً معارفاً لا حاجة إليها إلا عنده. تتدفق المعرفة منه مثلما يتدفق نهر، أو مثلما يتدفق طوفان،

فيغمرك بالأسماء والحوادث. ينتابك خوف من الحشود الكبيرة العائشة داخل ذلك الرجل كأنها حشود بشر ما يزالون موجودين، كأنها ليست حشوداً من أرواح أو ظلال، بل من بشر أحياء لا يكفون عن الحركة والفعل في أبدية وجودهم المخيفة. لقد صادف في القسطنطينية ضابطاً عسكرياً ظل يعلمه الفلك ثلاث سنوات. نتيجة هذين العلمين ـ التاريخ والفلك ـ صار يقيس كل شيء بمسافات شاسعة من السماوات ومن الزمان. أظنه أيضاً يكتب تاريخاً لزماننا هذا؛ لكني لست واثقاً من هذا الظن لأن البشر والحوادث لا يكتسبون أهمية عنده إلا بعد انقضاء زمانهم، إلا بعد موتهم. لا يستطيع أن يكتب إلا في فلسفة التاريخ، في تاريخ لا رجاء منه لأنه ذو أبعاد فوق بشرية لا تهمه الحياة العادية التي ما تزال جارية. لو سألته رأيه في هذا الفارّ، فأنا واثق من أن سؤالي سيقضّ مضجعه لأنني أشغله بأمر مزعج في هذا الصباح الجميل الذي لم يأته بألم أو حمى، ولأنني أطلب منه التفكير في أمر تافه جداً لا يتجاوز مصير رجل واحد مختبئ في حديقة التكية. سوف تكون إجابته غامضة إلى حد يظل معه كل شيء معتمداً على قراري.

قررت أن أتكلم مع الملا يوسف.

انتهى من الوضوء قبل لحظة واحدة. ألقى علي تحية الصباح، ثم همّ بالانصراف هادئاً. استوقفته وقلت له إنني أريد أن أكلمه في أمر من الأمور.

ألقى علي نظرة سريعة، ثم خفض رأسه على الفور. كان خائفاً من أمر لا أعلمه. لكني لم أرد أن أكسب أية مزية بأن أجعله ينتظر، فسارعت إلى إخباره بكل شيء عن الهارب: كيف سمعته ورأيته من غرفتي عندما دخل الحديقة واختبأ بين الأجمات. من المؤكد أنه ما يزال هناك، في مكان من الأماكن. وأنا واثق أيضاً من أنه كان هارباً فلولا ذلك لما اختبأ. قلت له الحقيقة، حقيقة أنني كنت وما زلت حائراً فيما ينبغي فعله. قلت له إنني لا أعلم إن كان علي إبلاغ السلطات عنه أو ترك كل شيء للحظ. لعله كان آثماً؛ فالأبرياء لا يطاردهم أحد في الليل. قلت له إنني أيضاً أنني كنت مدركاً أنني لا أعرف عنه أي شيء؛ وهذا ما قد يجعل أي تصرف من جانبي غير منصف، لا سمح الله. علينا الآن أن نقرر إن كان تدخلنا في الأمر صائباً أو غير صائب. أيهما أسوأ: أن نغطي على جريمة، إن كانت هناك جريمة، أو أن تكون الرحمة منطلق تصرفنا؟

نظر إلي منتبهاً، محاولاً إخفاء ما أثارته قصتي المضطربة في نفسه من اهتمام. لكن وجهه الصقيل المحمر، المنتعش بفعل الماء والصبح المبكر، صار يقظاً، متحفزاً.

سألني بصوت خافت، «أما يزال في الحديقة؟»

«لم يرحل حتى الفجر. ولن يجرؤ على الخروج نهاراً».

«ما الذي تظن أن علينا فعله؟»

«لست أدري. أنا خائف من الإثم. إن كان مذنباً، فسوف يلومنا الناس آخر الأمر. ولن يكون هذا حسناً من أجل التكية. وأما إذا لم يكن مذنباً في شيء، فسوف يصيب الإثم أرواحنا. يعلم الله وحده أين يكون إثم الإنسان. هذا ما لا يعلمه البشر».

كانت تلك الساعة التي تصير عندها الألوان كلها أكثر تألقاً، ويصير أي صوت أكثر علواً، الساعة التي يكون فيها نصف الضياء الوردي مثقلاً بظلال الليل.. ساعة اتضاح معالم النهار الوليد. وأما في هذا النهار، فأنا لم أحس شيئاً من فرحة الصبح النضر لأنني وصلت يوم أمس بيوم جديد من غير أن يريحني النوم من مخاوفي.

عندما عدت من المسجد وكنت ما أزال مضطرباً على الرغم من صلاة الفجر، وجدت الحراس في الحديقة مع الملا يوسف. لقد فتشوا كل ركن فيها ونظروا في السقيفة؛ لكنهم لم يعثروا على الهارب.

قلت للحراس الذين خاب مسعاهم، «لعلي كنت مخطئاً».

«لم تكن مخطئاً. لقد فر يوم أمس، واختبأ في مكان ما».

سألت الملا يوسف بعد انصراف الحراس، «هل أنت من استدعاهم؟»

«ظننت أن هذا ما أردته مني. لولا ذلك، لما أخبرتني بالأمر».

على أية حال، لا أهمية للأمر. هذا أفضل شيء. لقد حررت نفسي من المسؤولية ومن الذنب، ولم يُصب أحد بأي أذى. ينبغي لي الآن أن أكون مرتاحاً وأن أكف عن التفكير في الليلة الماضية.

لكني واصلت التفكير فيها، بل فكرت فيها أكثر مما أستطيع تبريره بأية صورة من الصور. مضيت متجولاً في الحديقة. كانت آثار الأقدام مرئية على رمل الممر. قدمان اثنتان، واحدة منهما حافية. كان هذا كل ما بقي منه، هذا وبضعة أغصان متكسرة في شجرة التوت، وصورة ذراعيه وقدميه المتباعدة عند الباب، وحضور شيء غير معتاد كان محوماً تحت أغصان الأشجار العتيقة، لذعة جديدة، وغياب الخواء والكآبة.. إحساس بالنضارة بعد مرور العاصفة.

الآن، بعد أن غاب عن الأنظار وما عاد ثمة خطر علي منه ولا خطر عليه مني، صرت أفكر في ذلك الغريب بطريقة عجيبة جداً.. كأنه كان شلالاً، هبة ريح نشطة.. كأنه قد جاءني في المنام. بدأ يتلاشى، وبدأت معاناتي تنكره: لا يمكن أن يكون هناك إنسان حي قد رحل عن هذا المكان من غير أن يلحظه أحد! آثار الخطوات تؤكد وجوده، لكن تلك الآثار الملموسة لم تفلح في إزالة إحساس غريب أتاني لكن لم أفهمه تمام الفهم. لقد فر من الحراس عبر نافذة في بيته عندما جاؤوا إليه؛ وأحدث ثغرة في جدار السجن وقفز من فوق الجرف ودخل بوابة لا يعرفها من غير أن يحترم حرمة أملاك الآخرين. لقد اختفى، لكن صوت خطواته لم يسمعه الخفراء المنتظرين من حول المكان.. كأنه كان روحاً، أو شبحاً. ما كان واثقاً بي، وما عاد واثقاً بأي إنسان. كان هارباً من خوف الآخرين بقدر ما كان هارباً من قسوة الحراس، فلم يثق بأحد غير نفسه. أسفت لأنه فقد إيمانه بالناس، فسوف يكون تعساً في داخله، سوف يكون فارغاً. هذا ما جعله يظل حياً حتى الآن، ما جعله يظل حراً حتى الآن، أنا واثق من الأمر، لكني لا أود أبداً أن يعرف يوماً أنه كان ممكناً أن أكون ملوماً فيما حل به. ما كان أمر هذا الرجل مهماً عندي، وما كان أحد منا مديناً للآخر بشيء، وما كان قادراً على نفعي ولا أذيّتي؛ لكني سأكون سعيداً إذا استطاع أن يحمل في عزلته فكرة لطيفة عني. سأكون سعيداً إذا تذكرني في غمرة انعدام ثقته بالناس جميعاً، إذا تذكر مني غير ما يتذكره من غيري.

بعد ذلك، وقفت أنظر إلى الملا يوسف جالساً ينسخ القرآن، أمام التكية، في ظل كثيف تحت شجرة تفاح كثيرة الأغصان. كان في حاجة إلى ضوء معتدل من غير ظلال أو وميض. وقفت أنظر إلى يده الممتلئة الوردية ترسم منحنيات

الحروف المعقدة: صف لا نهاية له من سطور ستجول أعين الآخرين فوقها من غير حتى أن تفكر في الزمن الطويل الذي استغرقه أداء هذه المهمة الصعبة، أو من غير حتى أن تنتبه إلى جمال ما تراه. فوجئت عندما رأيت أول مرة مهارة هذا الشاب التي قلّ نظيرها؛ وما زلت حائراً فيها حتى بعد مرور هذا الزمن الطويل. الانحناءات الرشيقة، والخطوط المدورة المزينة، وموجة السطور المتوازنة، واللونان الأحمر والذهبي في أوائل الآيات، والزينات النباتية في الهوامش ـ كان كل شيء يستحيل إلى جمالٍ يحيّر عين الناظر، بل كان ذلك كله آثماً، قليلاً، قليلاً جداً، كأنه ليس وسيلة بل غاية في حد ذاته، كأنه مهم في حد ذاته، مهم لذاته، لعبة مدوّخة من الأشكال والألوان تحرف الانتباه عما كان منتظراً منها أن تكون في خدمته. كان في هذا شيء معيب أيضاً، وكأن متعة حسية كانت منبعثة من هذه الصفحات المزينة؛ ربما لأن الجمال في حد ذاته متعة حسية، لأنه آثم، أو ربما لأنني ما كنت أرى الأشياء مثلما ينبغي لي أن أراها.

شممت رائحة الزيتون البري. إنها الشجرة نفسها التي شممت رائحتها الليلة الماضية فخنقني عبيرها الثقيل. صدى أغنية أتى من حي من الأحياء؛ الأغنية نفسها التي كانت ليلة أمس فأدهشتني وفاجأتني بما فيها من قلة حياء عارية. اجتاحني خَنق أسود كالذي اجتاحني ليلة أمس فملأني الذعر. لقد تركتُ القطيع، سقطت من الحلقة، فما عاد لي من شيء يسندني وما عاد لي من شيء يقيني نفسي ويقيني العالم. ضوء النهار نفسه ما عاد يحميني. ما عدت سيد أفكاري أو أفعالي. صرت شريكاً في جريمة. كان علي أن أخرج، أن أذهب إلى أي مكان؛ وكان علي أن أبتعد عن هذا الشاب الذي ضايقتني لفتاته المتسائلة. كان لا بد لي من قول شيء يمنعني من كشف ما بنفسي، فقد علم الكثير عن الشخص الذي كنته هذا الصباح. كان فيه شيء قاتم، مظلم، شيء قاسٍ لكنه مسالم. لم أر في حياتي كلها عينين مثل عينيه، عينين ناطقتين بالانفعال، لكنهما واثقتان كثيراً.

أشحت بوجهي عنه، عن الصورة القبيحة التي رأيتها فيه، وعن الكره الغريب الذي اتقد في نفسي فخنقني كأنه دخان، كأنه شيء عفن. كم كان هادئاً في ذهابه كي يأتي بالحراس حتى يمسكوا بهذا الهارب! لم يتأمل في مصيره لحظة واحدة،

ولا في حياته، ولا في احتمال براءته من الإثم. لقد عذبت نفسي طيلة الليل. لكنه اتخذ قراره في لحظة. كيف كان يكتب حروفه الخاطئة، الرائعة، بكل هدوء! وكيف كان يحيك ذلك النسيج العجائبي بتلك البراعة كلها متأنياً من غير أي إحساس كأنه عنكبوت ينسج شباكه.

مضيت إلى آثار الأقدام التي في الرمل ومحوت معالمها.

قال يوسف، «كانت إحدى قدميه حافية».

كان ينظر إلي ويتابع حركاتي وأفكاري. اجتاحتني رغبة في أن أكون منفتحاً معه حتى لا يتساءل ولا يخمّن شيئاً من عنده. وددت أن أقول له كل شيء عن الهارب، وكل ما كان في رأسي من أفكار عنه.. لن يكون أمراً لطيفاً أبداً أن أخبره شيئاً عن أفكاري، وأن أخبره حتى بما لم أفكر فيه.. سيكون هذا بشعاً.

دوار كاد يفقدني وعيي. قلت، «لعلهم قبضوا عليه»

لحظة واحدة كانت كافية لأن ينبهني حذري فيجعلني أغير كلماتي. أخافني هذا الشاب نتيجة ما أردت قوله له، نتيجة ما كان يمكن أن أصيره، نتيجة ما كان ممكناً أن يفعله.

ما قلته كان غير متوقع، بل كان نقيض حماسة قراري الغاضب الذي كدت لا أستطيع إخفاءه. نبرة صوتي كانت أكثر ملاءمة لمن يريد التلفظ بإساءة! نظر إلي وقد فوجئ.. نظر كأن أمله قد خاب.

عندها، صار واضحاً لي أنني عرفت من اللحظة الأولى ما سيفعله يوسف. عندما قررت إخبار أحدهم في التكية بكل شيء، عندما استبعدت الآخرين مسبقاً واخترته دون غيره، عندما قلت إن من الأفضل لنا ألا نتورط في الأمر، كنت واثقاً من أنه سوف يستدعي الحراس. كنت واثقاً من ذلك إلى حد جعلني أذهب في نزهة بعد الصلاة في المسجد وأنجول في الشوارع القريبة حتى لا أراهم يلقون القبض على الهارب ويذهبون به. كنت متكلاً على قسوة قلب يوسف. علمت أنه سيفعلها، لكن هذا لم يمنعني من ازدرائه والتقزز منه عندما فعلها. لقد كان مُنفّذَ رغبتي الخبيئة التي ما كانت قراراً: هو من اتخذ القرار. حتى إن كنت أنا من اتخذ القرار، فالفعلة فعلته.

لكن، لعلي كنت أظلمه! لو أنه ظنني راغباً في تسليم الهارب إلى الحراس لكان ذنبه كامناً في طاعته؛ حتى في اليوم الماضي، كان ممكناً أن أتمنى أن يكون استعداده تصميماً قاسياً. وأنا ألومه اليوم. ليس هو من تغير، بل أنا؛ وتغير معي كل أمر آخر.

وددت أن أعوضه لطفاً عن ذلك الظلم المحتمل، الظلم الذي ما كان منتبهاً إلى وجوده، لكنه أزعجني.. مع ذلك. صحيح أن رأيي فيه تغير قليلاً، لكني كرهي لم يقلّ؛ وأظنني لم أستطع إخفاءه جيداً.

قلت له إن نسخته من القرآن ستكون عملاً فنياً حقيقياً فنظر إلي وقد فاجأه كلامي، نظر إلي كأنه خاف، كأنه سمع تهديداً. لعل هذا لأن اللطف الحقيقي نادر الوجود بيننا؛ وإذا وُجد اللطف، فقد يوجد لغاية.

«عليك أن تذهب إلى كونستانزا كي تتقن فن الخط».

الآن، بان في وجهه ذعر حقيقي كاد لا يستطيع إخفاءه.

سألني بصوت خفيض، «لماذا أذهب؟»

«إن لك يدان من ذهب. وسيكون من المؤسف ألا تتعلم كل ما تستطيع تعلمه هناك».

خفض يوسف رأسه. ما كان واثقاً بي. ظن أنني أبحث عن ذريعة لإبعاده عن التكية. هدأت من روعه بقدر ما هي مستطاعة تهدئة قلة الثقة في لحظة واحدة؛ لكن إحساساً غريباً بالارتباك ظل مهيمناً عليّ. هل كانت قلة الثقة هذه منذ يوم فقط، منذ سنة، على الدوام؟ أأنا الذي لم أكتشفها إلا الآن؟ هل هو خائف مني أيضاً.. مثلما أنا خائف منه؟

ما كنت أفكر هكذا في ما مضى: يتغير كل شيء عندما يفقد الإنسان صوابه. على وجه التحديد، هذا ما أردت تفاديه. ما كنت راغباً في أن أفقد صوابي، ولا في أن أغير رأيي، لأن هذا سيجعلني أكف عن كون ما كنته من قبل.. وليس في مستطاع أحد أن يعرف ما أكونه عندها. قد أكون شخصاً جديداً، غير معروف، شخصاً لا أستطيع تقرير أفعاله ولا توقعها. يشبه السخط حيواناً متوحشاً: عديم الحول عند الولادة، مرعبٌ عندما يكبر ويزداد قوة.

كان ذلك صحيحاً.. أردت أن أسلم الهارب إلى الحراس؛ وما كان هذا مزعجاً لي. لقد كان الهارب تحدياً، استفزازاً، استدراجاً إلى المجهول. أفعاله كانت بطولة تشبه ما نراه في القصص الخيالية، كانت حلماً عن الشجاعة وعن العصيان والتمرد الأحمق. بل إنه يصير أشد خطراً إن كان هذا كله صحيحاً في عقلي وحده. كان علي أن أقتل هذه الفكرة غير المسؤولة، أن أثبّت نفسي، أن أثبتها بدمه، أن أثبتها في مكان هو مكاني.. مكاني وفق ما يمليه العقل والضمير.

كانت التكية هاجعة في ضوء الشمس، خضراء بما فيها من لبلاب ونباتات يانعة. إحساس بالأمان منبعث من جدرانها القديمة الثخينة، وسطحها ذي الحمرة الداكنة؛ وهديل الحمائم الخفيض مسموعاً من تحت الأفاريز.. أفلح هذا في مساعدتي في العودة إلى أحاسيسي المغلقة التي كانت لي. كانت تلك عودة الصفاء والهدوء: فاحت الحديقة برائحة الشمس والأعشاب الدافئة. إن الإنسان لفي حاجة إلى مكان عزيز عليه لأنه مكانه ولأنه محميّ آمن؛ فالعالم كله شِراك عندما لا يكون لديك ما يقيك. بخطوات بطيئة، سرت بين سوق الدّخن الطويلة، مسست بيدي ثمار التوت البري المكورة كالإجاص، وأصغيت إلى خرير الماء الجاري. كنت أعود إلى سلامي القديم، أعود من جديد، أعود مثلما يعود ناقهٌ، مثلما يعود مسافر. لقد تجولت طيلة الليل في أفكاري، لكن النهار قد أتى الآن، أتى ضياء الشمس. وقد عدت، فكان كل شيء لطيفاً من جديد، وكنت كأنني كسبته من جديد.

لكني بلغت المكان الذي افترقنا عنده قبيل الفجر فرأيت الهارب مرة أخرى: ابتسامة غامضة وتعبير سخرية حائم أمامي في الحَرّ الذي كان في ازدياد.

نظر إلي بعينين هادئتين وسألني، «هل أنت راضٍ؟»

«أنا راضٍ. لا أريد التفكير فيك. وددت أن أقتلك».

«أنت غير قادر على قتلي. لا أحد قادر على قتلي».

«أنت تبالغ في تقدير قواك».

«بل أنت من تبالغ في تقديرها، لا أنا».

«أعرف. فأنت غير قادر حتى على الكلام. لعلك ما عدت موجوداً. أنا من يفكر ويتكلم بدلاً منك»

«إذاً، فأنا موجود. وهذا أسوأ كثيراً بالنسبة إليك».

حاولت الابتسام لنفسي.. وكنت ضعيفاً، شبه مهزوم. قبل لحظات فقط، كنت مبتهجاً بانتصاري عليه وعلى كل ما كان يمكن أن يعنيه، لكنه عاد الآن حياً في ذاكرتي، عاد أكثر خطورة مما كان.

-٥-

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ - قرآن كريم

الممر الطويل المحيط بالمنجم القديم كأنه إطار مربع كان مزدحماً بشراً لا يستطيع المرء تجاوزهم. كانوا منتظرين أمام بابٍ، مستثارين، مجتمعين معاً في دائرة غير منتظمة وقف حارس في وسطها الخالي. تواصل قدوم أشخاص آخرين فغصّ الممر بهم وصار كأنه معبر مسدود. أصوات همس كثير، همس فيه غضب ودهشة. كانت للجمع لغته الخاصة به المختلفة عن لغة كل واحد من أولئك الناس. كانت لغته أشبه بطنين النحل، أو بزمجرة هادرة. ضاعت الكلمات وتركت محلها صوتاً جمعياً واحداً. ضاعت الأمزجة الفردية وحل محلها مزاج جمعي واحد خطير.

قُتل مسافر ليلة أمس. كان تاجراً. والآن، يُنتظر أن يأتوا بقاتله. لقد أمسكوا به ذلك الصباح بينما كان جالساً يشرب خاليَ البال كأنه لم يقتل أحداً.

لم أجرؤ على سؤالهم عن هوية القاتل مع أن اسمه ما كان ليعني لي شيئاً على الإطلاق. خشيت أن أعرفه ـ مهما يكن الاسم الذي أسمعه منهم ـ لأن ذهني كان خالياً إلا من رجل واحد. نسبت جريمة القتل إلى «هارِبي» من غير أن أفكر في الأمر. لقد فعلها الليلة الماضية. طاردوه بعد ذلك فاختبأ في التكية. وفي الصباح، خرج كي يشرب ظاناً أنه قد بات في مأمن. أدهشتني رؤية كم هي صغيرة تلك الدائرة المرسومة من حول البشر، وكم هي متداخلة تلك السبل التي نسير فيها. قاده الحظ إليّ ليلة أمس؛ وها هو الآن يقوده كي يرى نهايته. لعل من الأفضل أن أنصرف حاملاً معي هذا الاكتشاف، بل هذا البرهان على سرعة عقاب الله كي يكون علامة، كي يريح نفسي. لكني لم أستطع الذهاب، بل انتظرت حتى أرى وجهه، ذلك الوجه الذي حيرني الليلة الماضية. أردت أن أرى كيف ضاعت ثقته بنفسه، أو كيف اختفت صفاقته المجرمة.. انتظرت كي أستطيع نبذه والتخلص

منه. وقفت مصغياً إلى الأصوات الخفيضة من حولي تروي كيف تم ارتكاب الجريمة: سكين على الرقبة، وفي القلب، وفكرت في كيفية تورطي في أمر شائن، وكيف أمضيت ليلة مضطربة عذبني فيها ضميري، ولم أشك لحظة واحدة في أن ذلك الهارب هو القاتل. لقد دنّستني تلك المواجهة، وانتقصت كلماتُه من شأني؛ وكنت مذنباً في تمكنه من الفرار وفي احتمال أنه كان ممكناً ألا يتخذ ذلك القرار الغبي بأن يعرّج على المقهى.

لكني حاولت عبثاً تخيل أن كل شيء كان أكثر خطورة من حقيقته، واتهمت نفسي، وتظاهرت بأنني أحس تقززاً. حقيقة الأمر أنني صرت أحسن حالاً: أزيح عني ذلك الثقل المؤلم، ولم يلبث الكابوس الذي عذبني من غير انقطاع أن تبدد شيئاً بعد شيء. لقد كان قاتلاً، رجلاً قاسياً آثماً أتى بالموت إلى غيره حاملاً إياه على نصل سكينه، من غير سبب، أو من أجل كلمة قيلت، أو من أجل شيء من الذهب. تمنيت من كل قلبي أن يكون ذلك صحيحاً، فعلى هذا النحو، أستطيع تخليص نفسي منه. كان هذا مبعث ما أحسسته من راحة وانفراج: أستطيع الآن طرده من أفكاري ونسيان الجنون الذي كان ليلة أمس، الجنون الذي أحرق داخلي كل ما أراه مقدساً. لكن القاتل ما كان أكثر من وغد؛ وما من أهمية أبداً لأن أبصق عليه أو أن أحزن عليه لأنه لا يستطيع أن يثير في نفسي أكثر من شعور بالأسف، أو بتقزز من البشر جميعاً.

أدركت أنهم آتون به. أدركت هذا من أصوات الناس الخفيضة المستثارة التي صارت مثل حفيف أوراق الأشجار في الريح (ريح من الممكن أن تأتي بأي شيء، بالعواصف أو بالطقس الهادئ). كانت أصواتهم ممتلئة كرهاً، وإثارة، أصوات تتلوى فضولاً وتفوح منها رائحة الدم. بان في أصواتهم إعجاب خفي واستعداد للعنف والانتقام. أعلنتْ عن وصوله حركات أكثر نشاطاً دبت في الحشد، وتململُ أقدام قلقة تحركت من غير أن تترك أماكنها، والتفاتات متسائلة صوب أولئك الأشخاص المقتربين. كأن تشنجاً قد أصاب الجمع فاختفت الأصوات. لعل الناس حبسوا أنفاسهم! تردد وقع الخطوات في الصمت المطبق الذي ران على الممر المبلّط. ومن غير أن أرفع رأسي، حاولت تبين إن كان بين

السائرين شخص أعرج. ثم رأيت قدميه سائرتين بين اثنين من حراسه. كانت في كل قدم فردة حذاء. رفعت عيني قليلاً غير قادر على تذكر أي شيء من ليلة أمس غير قميصه الأبيض ووجه الحاد. كانت ذراعاه مقيدتين معاً وقد ازرق لونهما ونتأت عروقهما. ما كنت قادراً على تذكر شيء عن ذراعيه. توقفت نظرتي عند رقبته النحيلة؛ كان عليّ أن أنصرف. من غير استعجال، ومن غير مبالاة، انتقلت نظرتي إلى وجهه. ليس هو الرجل الذي رأيته ليلة أمس!

كنت عارفاً هذا حتى قبل أن أراه.

كان واقفاً وسط حراسه، شاحباً، هادئاً. بدا لي كأنني أرى ابتسامة صغيرة عند نهايتي شفتيه، ليس مبالياً بما يحدث له، أو أنه راضٍ بأن الناس يرقبونه. شق الحراس طريقاً عبر الحشد وقادوا الرجل إلى الغرفة التي يرقد فيها التاجر القتيل.

مضيت سائراً في الممر؛ هذا لا يعنيني في شيء. لم يفاجئني أنه لم يكن الرجل نفسه فذلك أمر لا يمكن تصديقه. لكني أردت أن يكون هو القاتل؛ وانتظرت معجزة. لقد قرّبت بين المظاهر الخارجية في هذا وذاك، لكني نسيت كل ما جال في رأسي من أفكار عنه ذلك الصباح وفي الليلة الماضية. لا أدري إن كنت بهذا قد أنصفته، أو لم أنصفه. لكنه ما كان هو الشخص المهم: أنا من كان مهماً! أردت أن أحرر نفسي منه مثلما فعلت ذلك الصباح. كانت هذه محاولتي الثانية لتدميره، لمعاقبة نفسي ومحو الأثر الذي خلّفه فيها. كنت بالغ الانشغال به فقد أوقع عليّ سحراً شديداً جعلني أضطرب وأتردد داخل نفسي؛ بل كنت أيضاً متمنياً فراره وبقاءه حراً مثل نهر غير مروّض. لقد أتاح لي حضوره فرصة نادرة، غير مألوفة، فرصة ينبغي اغتنامها وتنبغي المحافظة عليها. هذا ما دار في ذهني فندمت عليه فوراً. لقد اندفع إلى حياتي في لحظة ضعف وكان سبباً في وقوع خيانة، وشاهداً عليها.. خيانة قصيرة العمر، لكنها حقيقية. لهذا السبب، أردته أن يكون القاتل لأن من شأن هذا أن يجعل كل شيء أكثر يسراً. القتل أقل خطورة من التمرد. لا يستطيع القاتل أن يصير مثالاً أو تحريضاً، فهو يستدعي النفور والإدانة. ثم إن وقوع القتل يكون مفاجئاً.. عندما يُنسى الخوف ويُنسى الضمير. القتل كريه كأنه تذكرة بشعة بدوام غرائزنا الأساسية الأولى، تلك الغرائز التي تخجلنا مثلما

تخجلنا ذكرى أسلاف دنيئين أو أقارب مجرمين. لكن التمرد معدٍ فهو قادر على استدعاء السخط الذي هو موجود دائماً. يشبه التمرد البطولة، بل لعله بطولة لأنه مقاومة ولأنه بُعدٌ عن الانصياع. يبدو التمرد جميلاً لأنه مولود من متحمسين متعصبين يموتون من أجل كلمات جميلة، من أشخاص يخاطرون بكل شيء لأن ما من شيء لديهم. من هنا يكون التمرد جذاباً مثلما يمكن أحياناً أن يبدو أي أمر خطير جذاباً أو جميلاً.

كان أبي واقفاً وسط الغرفة، لقد فتح الباب وانتظر.

علمت ما كان ينبغي لي فعله. كان علي أن أمضي إليه وأعانقه من غير تردد ومن غير التوقف لحظة واحدة كي أنظر إليه. لو فعلت ذلك لكان حلاً لكل شيء بيننا، لكان أبسط حل وأفضل حل. لو فعلت هذا، لأزلت ما بيننا من حواجز ولاستطعنا التصرف مثلما يتصرف أب وابن. لكني وجدت صعوبة في الاقتراب ومعانقة ذلك الرجل الذي بات شعره رمادي اللون، ذلك الرجل الذي ما كان وقوفه وسط الغرفة من غير سبب: كان في خشية من لقائنا. أحس كل منا ارتباكاً. لم ندر كيف نتصرف ولا ما ينبغي أن يقوله الواحد منا للآخر. انقضت سنين كثيرة منذ آخر لقاء بيننا؛ وكنا راغبين في شيء يخفي حقيقة أن الحياة قد باعدت بيننا. نظر كل منا إلى الآخر بضع لحظات. كان العمر قد غضّن وجهه؛ وكانت عيناه مستقرتين عليّ. ما عاد مثلما عرفته في وقت من الأوقات. وكان علي أن أعيد بناء كل شيء ـ قسمات وجهه الحادة المشدودة، وصوته الجبار، وبساطة الرجل القوي الذي يعرف كيف يعمل بيديه ـ ولسبب من الأسباب، وجدت نفسي محتاجاً إلى تخيله أصغر سناً وأكثر عافية، أي مثلما كنت محتفظاً به زمناً طويلاً في ذكرياتي. لا يعلم غير الله كيف رآني، وما بحث عنه، وما وجده. كنا غريبين غير راغبين في التصرف مثلما يتصرف غريبان. وكان أكثر إيلاماً من ذلك كله التفكير في كيف كان حرياً بالأمور بيننا أن تجري، فيما كنا قادرين على فعله، وفيما كنا غير قادرين على فعله.

انحنيت كي أقبله مثلما يفعل الأبناء جميعاً، لكنه لم يتركني أقبله. أمسك كل منا بيدي الآخر، كأننا اثنان من المعارف، وكان هذا أفضل شيء. بدا لقاء حميماً، لكن من غير مبالغة. مع هذا، عندما أحسست ذراعيه على ذراعي (ذراعين ما تزالا قويتين)، وعندما أبصرت عن قرب عينيه الرماديتين النديتين، عندما شممت عبقه المعافى، عبقه العزيز عليه منذ طفولتي، نسيت ارتباكنا وخفضت رأسي إلى صدره العريض بحركة طفولية إذ أثار مشاعري أمرٌ ظننته اختفى منذ أمد بعيد. لعل هذه الحركة نفسها هي ما أثارني، أو لعلها مشاعر دفينة استيقظت عندما صرت قريباً من أبي العجوز (شممت رائحة البحيرة وحقول القمح)، أو لعل السبب كان كامناً في إثارته هو نفسه؛ لكني أحسست عظم ترقوته يرتعش عندما أسندت جبهتي إليه. لعل طبيعتي قد سيطرت علي، أو لعلها بقايا ما قد يكون طبيعتي تلك وقد استيقظت من سباتها بأعجوبة فأدهشتُ نفسي بفيض من دموع. لم يدم هذا أكثر من لحظة؛ بل إنني خجلت من هذه الفعلة الطفولية السخيفة حتى قبل أن يبدأ جفاف دموعي وذلك أنها دموع غير متناسبة مع سنيّ عمري ولا مع الثوب الذي على جسدي. لكن المفاجئ أنني ظللت بعد ذلك زمناً طويلاً أتذكر ذلك الضعف المخجل، أتذكره راحة وانفراجاً لا حدود لهما: لحظة قصيرة انفصلتُ فيها عن كل شيء وعدت إلى زمن طفولتي، عدت طفلاً تحت حماية شخص آخر، عدت متحرراً من السنين والحوادث والقرارات المؤلمة. صار كل شيء موضوعاً بين يدين أقوى مني؛ وصرت ضعيفاً ضعفاً رائعاً، صرت من غير حاجة إلى قوة، صرت في حماية حب قادر على كل شيء. وددت أن أحكي له كيف سرت الليلة الماضية مسرعاً بين الأحياء، مذعوراً لما رأيت عند الناس من إثارة آثمة، كيف سرت وأفكارٌ غريبة تسمم نفسي. هكذا أحس دائماً كلما انزعجت وكلما كنت تعساً وكأن جسدي يبحث عن سبيل للخروج من عذابي.. وكان ذلك كله بسبب أخي. وهو، أبي، قد جاء من أجله. أدركت ذلك وأردت إخباره كيف اختبأ الهارب في التكية، وكيف حرت في أمري ولم أدر ما أصنع، وكيف تقطّع كل شيء في داخلي فأردت معاقبة الهارب ومعاقبة نفسي، أردت هذا في الصباح، وأردته قبل لحظات، مع أنه ما من أهمية لشيء، مع أنه ما من

شيء عاد مستقراً في مكانه. هذا ما جعلني ألتمس الملجأ في صدره مثلما يفعل الطفل الصغير الذي كنته ذات يوم.

على أن هذا الإحساس الرقيق زال سريعاً، زال كأنه التماعة برق. ثم رأيت أمامي رجلاً عجوزاً، رجلاً مرتبكاً مذعوراً لرؤية دموعي، فعلمت أنها كانت دموعاً غبية لا لزوم لها. سوف تقتل دموعي أية آمال قد تكون لديه لأن ذهنه الآن خالٍ إلا من أمر واحد؛ أو لعل دموعي تقنعه بأنني فشلت في الحياة.. مع أن هذا غير صحيح. وأيضاً، كان واضحاً لي أنه لن يفهم شيئاً مما أردت قوله.. أمور ما كنت راغباً قولها فحسب، بل مشتهياً قولها، مشتهياً كثيراً مثلما يشتهي طفل أو شخص عنيد: كانت عيناه المذعورتين ومعهما حراس عقلي اليقظون كفيلتين بإيقاظي على الفور. أراد كل منا الشيء نفسه من الآخر؛ ووضع كل منا ثقته في قوة الآخر. كان كل منا ضعيفاً، خائراً؛ وكان هذا أشد ما يبعث الحزن في لقائنا الذي لا فائدة منه.

سألته لماذا لم يأت إلى التكية. حتى الغرباء ينزلون فيها؛ وهو يعلم كم يسعدني مجيئه. سوف يتساءل الناس عما جعله راغباً في إمضاء ليلته في مكان آخر، فما من خصام بيننا، ولم ينس أي منا الآخر. الخان مكان غير حسن، فكل امرئ ينزل فيه. ليس الخان ملائماً إلا لمن لا مكان لديه يقصده؛ وأنت لا تعرف من يأتي ومن يذهب.. ثمة ضروب كثيرة من البشر هذه الأيام.

كانت استجابته هي نفسها إلى توسلاتي كلها. (توسلاتي التي حاولت بها إرجاء ما قد يأتي بعد ذلك): وصل في وقت متأخر ليلة أمس ولم يشأ إزعاجي.

لوح بيده عندما سألته إن سمع في النزل شيئاً عن جريمة القتل. لقد سمع بها.

رفض أن يأتي معي إلى التكية. سوف يرحل بعد الظهر؛ وسوف يمضي الليل عند أصدقائه في بعض القرى.

«ابق هنا يوماً أو يومين. ارتح قليلاً». لوح بيه من جديد، ثم هز رأسه رافضاً. فيما مضى كان كلامه حسناً، بطيئاً، وكان لديه وقت لكل شيء.. يرتب الكلمات ويصوغها جملاً متناسقة. كان في أسلوب كلامه الهيّن المتمهل ثقةٌ وسلام واضحين. كان يبدو كأنه أعلى من الأمور كلها وكأنه مسيطر عليها. كان مؤمناً بمعنى الكلمات وبصوتها. وأما الآن، فقد كانت تلويحة يده الواهية استسلاماً في

مواجهة الحياة، هجراناً للكلمات.. ما كان قادراً على الحيلولة دون ما أصابه من حظ عاثر، وما كان قادراً على تفسيره. كان يغلق على نفسه بتلويحة يده ويخبئ اضطرابه أمام ابنه الذي ما عاد عارفاً كيف يكلمه. كان يحاول إخفاء ذعره في تلك البلدة التي لاقته بجريمة قتل، وبظلمةٍ؛ يحاول إخفاء عجزه أمام الرزايا التي دمرت شيخوخته. ما أراد شيئاً غير إنجاز الأمر الذي جعله يأتي إلى هذا المكان كي يفر من القصبة من غير تأخير، القصبة التي سلبته كل ما كان لديه، سلبته ولديه وثقته وإيمانه بالحياة. نظر من حوله، ثم نظر إلى الأرض وضم معاً أصابعه ذات العقد، وخبّأ عينيه.

أحزنني هذا وأحبطني.

قال لي، «نحن مشتتون في كل مكان. المتاعب وحدها تجمعنا معاً».

«متى سمعت؟»

«منذ أيام. أتانا بعض من يمرون مع قوافلهم».

«ثم جئت سريعاً! هل أنت خائف؟»

«أتيت لأرى ما الأمر».

تحدثنا عن الرجل السجين الذي هو أخي، الذي هو ابنه، تحدثنا عنه كأنه قد مات.. من غير أن نأتي على ذكر اسمه. ذلك الذي اختفى هو من جمعنا معاً. نفكر فيه حتى عندما نتكلم في أي أمر آخر.

الآن، صار أبي ينظر إليّ آملاً، خائفاً، وصار كل شيء أقوله حاسماً بالنسبة إليه. ما قال لي شيئاً عن مخاوفه، ولا عن توقعاته. تجنب قول أي شيء واضح ـ وكأن ذلك كان نطيراً ـ وخشي ما للكلمات من سحر شرير. اكتفى بأن أضاف سبباً أخيراً، السبب الذي أتى به، في واقع الأمر:

«أنت محل احترام هنا. وأنت تعرف كل من له نفوذ».

«ما من شيء خطير. أظنه قال شيئاً ما كان ينبغي قوله».

«ماذا قال؟ هل من الممكن حقاً أن يُحبس إنسان لشيء قاله؟»

«سأذهب اليوم إلى المُتَسلم. سأذهب كي أعلم السبب وكي أطلب له الرحمة».

«ألا أذهب معك أيضاً؟ سوف أقول لهم إنهم مخطئون وإنهم حبسوا إنساناً شريفاً جداً. سأقول إنه لا يمكن أن يكون قد أتى أمراً سيئاً. أو.. سأركع على ركبتي حتى يروا حزني الأبوي عليه. سأعطيهم مالاً إن اقتضى الأمر. سأبيع كل ما أملك وأعطيهم المال. لا أريد غير أن يخلوا سبيله».

«سوف يخلون سبيله. لست في حاجة إلى الذهاب إلى أي مكان».

«إذاً، سوف أظل هنا. لن أترك النزل حتى تعود. قل لهم إنه كل ما لدي. قل لهم إني أرجو عودته إلى البيت حتى لا تنطفئ نار موقدي. لكني ما أزال مستعداً لبيع كل شيء. لست في حاجة إلى شيء».

«لا تقلق! سينتهي كل شيء على ما يرام، بعون الله».

كان كل شيء قلته مختلقاً عدا آخر كلمتين، «بعون الله». لم يطاوعني قلبي على تركه من غير أمل؛ وما كنت قادراً على إخباره أني لا أعلم عن أخي شيئاً. كان أبي يعيش ذلك الإيمان الساذج بأن حضوري وسمعتي من الممكن أن يكونا حماية له. ولم أرد ذكر أن حضوري لم يفشل في مساعدة أخي فحسب، بل إن سمعتي صارت موضع شك أيضاً. كيف له أن يفهم حقيقة أن جزءاً من إثم أخي كان واقعاً علي أيضاً؟

غادرت النزل رازحاً تحت عبء الواجب الذي ما كنت عارفاً كيف أقوم به لكني قبلته احتراماً لأبي. كانت قاسيةً كلماته الطائشة التي جعله حزنه يتفوه بها. لو كان مسيطراً على نفسه لما قالها أبداً؛ وهذا ما جعلني أرى كم كان حزيناً. رأيت أيضاً أنه قد أسقطني من حسابه. ما عدت موجوداً بالنسبة إليه. كان ذلك كأنني قد مت، وكأنه ما عاد باقياً لديه غير أخي. هذا ما كان عليّ قوله للناس: أنا ميت في نظر أبي، وأخي وحده باقٍ لديه. أعيدوه إليه! أنا ما عدت موجوداً. رحمة الله على روح الدرويش الخاطئ أحمد، فقد مات. قد يبدو لكم حياً، لكنه غير حي. لولا غرقُ أبي عميقاً في حزنه لما علمت أبداً كيف يفكر فيّ. لكني علمت الآن فرأيت نفسي بطريقة مختلفة؛ رأيت نفسي بعينيّ شخص آخر. هل كانت الدرب التي اخترتها قليلة القيمة إلى هذا الحد في نظر أبي فآثر أن يدفنني حياً بسببها؟ أصحيح أن ما ذهبت إليه لا يعني عنده شيئاً؟ وهل نحن مختلفان إلى هذا الحد،

مختلفان كثيراً؟ وهل نحن سائران في دربين متناقضتين تناقضاً تاماً فصار غير قادر حتى على الاعتراف بأنني موجود؟ بل إنه حتى لم يأسف على فقدي. كان ذلك منذ زمن بعيد فشُفي من وقع تلك الخسارة. لكن، لعلي أبالغ في هذا، ولعله كان ممكناً أن يأتي أبي من أجلي أيضاً، إن وقع لي مكروه! لو حدث ذلك، فلعله كان لا يفكر إلا فيّ لأن المرء يجد نفسه أكثر قرباً إلى من يجور عليه الزمان أكثر.

ما الذي حدث فجأة، وما الحجر الذي انزلق من تحت أساساتنا فتداعى كل شيء بعده وانهار؟ كانت الحياة تبدو صرحاً صلباً لا شقوق فيه؛ لكن هزة غير متوقعة، هزة لا معنى ولا مبرر لها، قوضت ذلك الصرح الشامخ كأنه مبنيّ من رمل.

من التلال، من محلة الغجر المرتفعة عند أطراف البلدة، جاء قرع طبل مُصمّ وعويل مزامير. انسكبت احتفالات يوم القديس جورج على القصبة مثلما ينسكب المطر، من غير انقطاع، وما كان لأحد مكان يفر منها إليه.

حمقى.. قلت هذا في نفسي، قلته حانقاً، غاضباً، مثلما كنت يوم أمس. هم لا يعلمون أن في العالم أموراً أكبر أهمية.

على أن غضبي ما كان نارياً مثلما عرفته الليلة الماضية. بل حتى ما كان غضباً.. كان استياء فحسب. كان ذلك الاحتفال الغبي إزعاجاً، وكان غُبناً لي. لقد زاد قلقي عمقاً، ذلك القلق الذي اكتنفني كلي وصار حياتي وعالمي وما عاد أي شيء موجوداً خارجه.

ما كان ممكناً لي فعله كان صعباً كله.. صعوبة لا سبيل إلى تخطيها؛ وكان أشبه بالإثم، أو بأول خطوات الطفل في الحياة. لكن عليّ أن أفعل شيئاً.. من أجل نفسي: أنا شقيقه! كان علي أن أفعل شيئاً من أجله: إنه شقيقي! لولا هذا الاضطراب في نفسي لكانت هذه المناقشة التقليدية مرضية لي فهي واضحة، جذابة. لكن اضطرابي ممتلئ نذرَ شؤم مظلمة تجعلني أفكر في أخي السجين بغضب مر: لماذا فعل هذا بي؟ حاولت أول الأمر أن أدفع هذه الفكرة الأنانية بعيداً عني. قلت لنفسي: هذا غير صائب! أنت لا تنظر ما أصابه من حظ عاثر إلا من زاويتك أنت. أخوك من دمك وعليك أن تساعده من غير أن تفكر في نفسك.

كان ينبغي أن تكون الأمور في ذلك اليوم أحسن حالاً. كان ينبغي أن أجد نفسي قادراً على الاعتزاز بهذه الأفكار النبيلة، لكني لم أفلح إلا في التحرر من قلقي على نفسي وقد تخلصتُ من تلك الأفكار الواهية بقولي: نعم، هو أخي. لكن هذا هو عينه مكمن الصعوبة؛ لقد أصابني شيءٌ مما فعله أخي. صار الناس ينظرون إلي نظرة شك أو ازدراء أو شفقة. صار بعضهم يدير رأسه كي لا تتلاقى أعيننا. حاولت تهدئة نفسي. قلت لها: هذا غير ممكن. إنه ما يبدو لك فحسب. يعرف الجميع أن ما فعله أخي ـ مهما يكن ما فعله ـ ليس من فعلي أنا.

لكن ذلك كان عبثاً، فالناس ما عادوا ينظرون إلي مثلما كانوا ينظرون إلي قبل الآن. كان احتمال تلك النظرات صعباً؛ وكانت تذكّرني دائماً بما أتمنى ألا يعرفه أحد. لا طائل من محاولة المرء أن يبقى نقياً حراً: على الدوام، سيأتي شخص قريب منك فيجعل حياتك بائسة.

تركت البازار وسرت في درب ماضية مع النهر، سرت مع تياره، بين الحدائق والضفاف الضحلة. لا يتوقف الناس في هذه الدرب، يعبرونها فحسب. كان من الأفضل أن أتبع ماء النهر مبتعداً عن القصبة ماضياً إلى السهل الواقع بين الجبال. أعرف أن الأمر يكون سيئاً عندما يود المرء أن يفر؛ لكن أفكاره تحرر نفسها كلما لمست ضيقاً. أسماك فضية صغيرة سابحة في الماء الضحل. بدا لي أنها لا تكبر أبداً؛ وكان هذا حسناً. تابعت السير، وتابعت النظر إليها. أحببت أن أظل قريباً منها لأني ما كنت مرتاحاً في تلك الدرب. كان منتظراً مني أن أمضي في اتجاه آخر، لكني لم أستدر ولم أعد أدراجي. ثمة دائماً وقت للأمور التي لا تسر النفس.

لطيف أن يكون المرء متشرداً. في وسعه دائماً أن يبحث عن أشخاص جيدين وأماكن حلوة وأن يحمل روحاً حلوة منفتحة على السماء الواسعة، وأن تكون له طرق حرة تؤدي به إلى لا مكان، وإلى كل مكان. ليت البشر ما كانت لهم جذور تربطهم إلى بقعة صغيرة.

ابتعد عني، أيها الضعف الوضيع.. فأنت تخدعني بصور راحةٍ زائفة هي ليست حتى رغبتي الحقيقية.

سمعت في الدرب من خلفي هديراً مكتوماً بدا كأنه آتٍ من جوف الأرض. كان قطيع ماشية ضخم سائراً مع النهر في غمامة من غبار.

تنحيت ووقفت عند بوابة حقل من الحقول حتى يمر القطيع، حتى يمر ذلك الوحش المكون من مئة رأس لها قرون، الوحش الأعمى المجنون المندفع قدماً تحت وقع سياط رعاته.

كان حسن ممتطياً حصانه أمام القطيع. كانت على رأسه قبعة حمراء. رأيته منتصب القامة، مبتهجاً. كان الشخص الوحيد الهادئ المبتسم في تلك الدرب بين صيحات الغضب والشتائم واللعنات المترددة بين جنبات وادي النهر.

لا يتغير الإنسان أبداً.

عرفني بدوره فانفصل عن القطيع، وعن رعاة القطيع، وعن الغبار المتجمع، فأتى على حصانه صوب البوابة التي وقفت عندها.

قال لي ضاحكاً، «لست راغباً في دهسك. لو كان مكانك شخص آخر لما باليت بالأمر».

ترجل عن حصانه بخفة كأنه لم يبدأ رحلته إلا قبل قليل. تقدم واحتضنني. كان أمراً غريباً، مربكاً، أن أحس إطباقة كفيه على كتفي. يعبر دائماً عن فرحته من غير حرج. تلك الفرحة نفسها هي ما فاجأني. أهو فرح برؤيتي، أم هو سخاء مسرف يسكبه على الجميع؟ أتكون الحيوية الفارغة الفياضة كالنهر، لا قيمة لها لأنها تخص الجميع؟

كان حسن عائداً من «الاشيا» وهو مرتحل منذ شهور. سألته مع أنني أعرف الإجابة، سألته حتى أقول شيئاً. كنت مستعداً الليلة الماضية لأن أسلمه إلى أخته.

«لا تبدو في أحسن حال».

«أنا مضطرب».

«أعرف هذا».

كيف له أن يعرف. كان متجولاً في أرض غريبة قرابة ثلاثة شهور كاملة. اجتاز في تجارته آلاف الأميال. وفور عودته، سمع كل شيء. وأما أنا، فلم أحسب أن كل من في القصبة قد علم بأمري. يسمع الناس دائماً الأنباء السيئة، لكن ما هو جيد يظل طي الكتمان.

«لماذا هو في السجن؟»

«لست أدري. ولست أصدق أنه فعل أمراً خاطئاً».

«لو فعل لعلمت».

لم أفهم عبارته. قلت: «كان هادئاً».

«الناس هنا يعيشون هادئين ويموتون موتاً مفاجئاً. أنا آسف، آسف عليه وعليك. أين هو الآن؟»

«في الحصن».

«ألقيت عليها التحية من بعيد؛ نسيت ما هو موجود فيها. سوف آتي إلى التكية هذا المساء إذا كان حضوري لا يزعجك».

«وكيف تكون مزعجاً لي؟!»

«كيف حال الحافظ محمد؟»

«إنه بخير».

«سوف يدفننا جميعاً!». قال هذا، وضحك من جديد.

«سنكون في انتظارك هذا المساء».

ما كان لطفه العقيم الفارغ بقادر على مساعدتي، ولا على تعطيلي. كان كل ما فيه فارغاً، عديم النفع، طبعه المسالم، وسلوكه البهيج، وذهنه المتقد، كان كل شيء فارغاً، كان سطحياً. مع هذا، كان حسن الرجل الوحيد في القصبة الذي أسمعني كلمة تعاطف صدّقتها مع أنها من غير نفع. مع هذا، يخجلني القول إنها كانت مثل صدقة يتلقاها فقير من فقير: لم تدفئني، ولم تؤثر في نفسي.

انطلق متقدماً قرون الثيران التي كانت مخفوضة كأنها في هجوم، متقدمة في غمامة من غبار ارتفعت فوق القطيع كله مثل فقاعات رمادية أخفته عن الأعين.

لقد حافظت على مسافة بيني وبينه نتيجة ما جرى الليلة الماضية ونتيجة ما توقعته.

في أفكاري، عبرت الجسر الخشبي إلى الضفة الأخرى، إلى حيث الصمت والشوارع الوادعة، إلى حيث تتجول الخطوات وحدها وتختفي البيوت بين أغصان أشجار من خلف أسوار مرتفعة.. وكأن كل شيء هناك يتجنب الآخرين منسحباً إلى عزلته وسكينته. ما كان لي عمل هناك، لكني رغبت في الذهاب كي أرجئ كل شيء، وقبل أن أحاول أي شيء. كان ممكناً أن أعبر إلى الناحية الأخرى، إلى تلك الشوارع الخبيئة الميتة حيث سيكون كل شيء أكثر سهولة. لكني سمعت في تلك اللحظة قرع طبول مخيفاً آتياً من صوب البازار. كان مختلفاً عن طبول الغجر. أتى صوت البوق الحاد من برج الساعة، لكنه في غير وقته. أصوات مشوشة، غير واضحة، تصيح في غمرة كرَبٍ عام؛ كان مشهداً يشبه خلية نحل مهتاجة. بشرٌ محتشدون كأنهم نحلات؛ بشر يطيرون بعيداً هاربين، ويعودون للدفاع عن الخلية، يعودون مطلقين الشتائم، منادين في طلب العون. خيط دخان رمادي ارتفع بطيئاً فوق القصبة. بدا لي كأن صيحات البشر قد حاكت من أنفسها تلك الخصلة من الدخان فصارت مرئية. أسراب حمائم تطير من حولها وقد أفزعتها الصيحات وأفزعتها حرارة النار.

سرعان ما اكتسب عمود الدخان قوة جديدة وراح ينتشر مخيماً فوق البيوت، كثيفاً، أسود اللون. خرجت ألسنة اللهب عن السيطرة، وانتشرت نشطة، عنيفة، منطلقة من غير قيد. راحت تقفز من سقف إلى سقف غير مخفية فرحتها؛ راحت تتقد من فوق الصراخ ومن فوق خوف الناس.

ارتعدت غريزياً أمام هذه المأساة. نحن واقعون دائماً في هذا الخطر أو ذاك، فثمة دائماً أمر بشع يحدث في مكان من الأماكن. بعد ذلك، ألهتني مشكلاتي عن هذا كله: هي أكثر خطورة منه، وأهم منه. بل إني بدأت أرقب النار راضياً، آملاً أن تجعل الناس ضعافاً مغلوبين.. فهكذا، بهذه الطريقة، ستكون رزايانا كلنا، ومنها رزاياي، قد وجدت حلاً لها. لكن تلك ما كانت أكثر من نوبة جنون لحظية نسيتها كلها بعد ذلك.

وهكذا، بعد أن صارت لدي أسباب كافية لأن أبتعد عن تلك الدرب ولا أفعل ما اعتزمت فعله، قررت ألا أؤجل الأمر أكثر مما فعلت. لم أفكر فيه كثيراً، لكني أظن أن روحاً دبت في الأمل الذي عندي: أملت أن يصير طلب الرحمة أكثر سهولة في غمرة هذه المأساة التي تذكر الناس بضعفهم وانعدام حولهم أمام إرادة الله.

لقد كان من حقي أن أعلم الكثير عن أخي بقدر ما كان من واجبهم أن يخبروني، أو يخبروا أي شخص غيري. كنت ملزماً بأن أساعده.. إن كانت المساعدة ممكنة. سيكون تنكبي عن الأمر سلوكاً غير لائق؛ وسوف يلومني الجميع. من لي غيره؟ ومن له غيري؟

حاولت تشجيع نفسي؛ وحاولت أن أؤكد على حقي، أن أبرره. أعددت أيضاً طريق الانسحاب. لم أنس ما فكرت فيه من قبل من أني خائف على نفسي ومن أني آسف عليه. بل إني لم أدر أيهما أكثر أهمية، ولا وجدت سبيلاً إلى الفصل بين هذا وذاك.

رأيت أمام باب مقر المتسلم حارساً واقفاً وقد علق في وسطه سيفاً ودس بندقية صغيرة تحت حزامه الجلدي العريض. لم آت إلى هذا المكان من قبل؛ ولم أفكر في أن حراساً مسلحين قد يعترضون طريقي.

سألته: «هل المتسلم في مكتبه؟»

«لماذا؟»

لقد أملت في سري ألا يكون المتسلم موجوداً، ففي البلدة حريق، ولديه مشاغل كثيرة أخرى يهتم بها. سيكون غريباً وجوده هنا لحظة قدومي لرؤيته. لعل تلك الفكرة الخبيئة، فكرة أنني لن أجده هنا هي ما حملني على المجيء. لو كان الأمر كذلك، لانصرفت مرجئاً زيارتي إلى يوم آخر. لكن الغضب اشتعل في نفسي عندما تواقح الحارس وسألني واضعاً يده على مقبض بندقيته عن أمر ليس من شأنه. كان غضبي كأنه تنفيس عن قلقي واضطرابي وعن حقيقة أني لا أكاد أستطيع انتظار فرصة كي أفر، مهما يكن من أمر. لقد كنت درويشاً، شيخ التكية، ولا يجوز لجندي أن يخاطبني بهذه الطريقة، واضعاً يده على سلاحه..

على الأقل، لا يجوز له فعل ذلك مع شخص في ثوب مثل ثوبي. أحسست إهانة حقيقية؛ لكني فكرت فيما بعد في أننا نحاول الانتقام من خوفنا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. كان سؤاله جلفاً: كان تأكيداً على سلطانه وعلى أهميته؛ وكان إشارة إلى قلة قيمتي إذ بيّن لي أن الطريقة الصوفية التي أنا مُنتمٍ إليها ليست جديرة بأن تلقى أي احترام. لكن هذا كل ما كان عذراً كافياً للانصرّاف. لو قال لي إن المتسلم قد انصرف، أو إنه لن يستقبل أحداً اليوم، لشكرته وانصرفت، ولفرّج ذلك عن نفسي.

غالبت غضبي وقلت له بصوت خافت، «أنا شيخ التكية المولوية. أريد أن أرى المتسلم».

ألقى علي الحارس نظرة هادئة من غير أن يظهر عليه أي تأثر بكلماتي. بدا عليه شك، ولا مبالاة مؤذية، لا مبالاة بما سمعه مني. ذعرت لرباطة جأشه الشرسة، وبدا لي أنه قد لا يتردد في رفع زناد سلاحه وإطلاق النار علي وقتلي من غير بهجة أو غضب. أو.. من الممكن أن يتركني أدخل كي أرى المتسلم. هو من لاحق الهارب الليلة الماضية؛ وهو من أخذ أخي إلى الحصن.. كان آثماً معهما. وكانا آثمين معي. فبسببهما جئت إلى هذا المكان.

دخل من غيرما تعجل، وكأنه توقع أن يسمع مني المزيد. ما كان يهمه في شيء أن يسمح لي بالدخول، أو لا يسمح. كان وجهه الأسمر النحيل مشعاً بغطرسة هادئة ربّاها هذا المكان في نفسه.

أثناء انتظاري، بدأت أندم على إصراري العنيد على التغلب على هذه العقبة ظناً مني أنها أمر بسيط لا أهمية له. بدلاً من ذلك، بدا لي أن هذا الرجل مثله مثل المتسلم، أو أنه امتداد ليده. ما عدت قادراً على الانصراف، لقد سمّرت نفسي في هذه البقعة. جعلت نفسي في وضع قد ينتهي بأن يسمحوا لي بالدخول أو بأن يرفضوا إدخالي. لم أدر أيهما أسوأ لي. لقد اعتزمت أن أزور المتسلم لأن ثمة معرفة بيننا، وأن أبدأ حديثي عن أخي بأسلوب غير متكلف. الآن، صار هذا مستحيلاً. لقد أشغلت بقدومي سلسلة من الأشخاص وطلبت أن يراني المتسلم. ما عاد من الممكن أن يكون حديثنا عادياً لأنه اكتسب الآن صفة رسمية. إذا

تكلمت بصوت خفيض، بطريقة موحية بالتواضع، فسوف يكون هذا إقراراً مني بجبني. أردت أن أحافظ على كرامتي وحذري معاً. لن تفيدني الوقاحة شيئاً، ثم إنها ليست من خصالي، لكن التواضع سوف يقلل من شأني مع أنني أحسسته في كل خلية من خلايا وجودي.

سيكون من الأفضل لي أن يرفض لقائي، فأنا الآن مضطرب، غير مستعد. حاولت عبثاً أن أفكر في شيء أقوله، وحاولت عبثاً أن أتخيل التعبير الذي ينبغي أن يكون بائناً على وجهي عند دخولي مكتبه. رأيت القسمات المشوهة في وجه رجل مضطرب لا يعرف حتى ما حمله على القيام بهذه الخطوة. ألأنه يحب شقيقة، أم يخشى نفسه، أم يحترم والده. رأيت ذلك الرجل جزعاً، كأنه يأتي أمراً محرّماً، أو كأنه يخاطر بكل شيء. فهل كنت مخاطراً؟ لم أدر.. ولهذا قلت كل شيء.

أدخلوني إلى مقر المتسلم.

رأيت المتسلم واقفاً عند النافذة. كان يرقب الحريق. وعندما استدار، رأيت وجهه الخالي من كل تعبير ولم ألمح فيه ما يشير إلى أنه عرفني. لم يبدر عن ذلك الوجه الساكن شيء يشجعني.

خلال لحظة قصيرة نظرت فيها إلى عينيه غير المرحبتين، العينين المنتظرتين إصدار حكمهما علي، أحسست أنني شخص آثم. كنت واقفاً بينه وبين جريمة مجهولة ارتكبتها؛ وكانت عيناه تبعداني عنهما، تدفعان بي صوب الجريمة. كان ممكناً أن أبدأ الحديث بعدة طرق، لكني كنت في توتر شديد. الطريقة الهادئة: لست آتياً للدفاع عن أخي، بل كي أستعلم عنه. الطريقة الكريمة: إنه مذنب لمجرد أنه موجود في السجن؛ فهل لي أن أعلم ما ارتكبه؟. الطريقة الموحية بقدر من الشعور بالإهانة: إنه في السجن؛ لا بأس، كان مناسباً أكثر أن تعلموني بالأمر!. كان علي أن أبدأ وفي ذهني شيء، وفي ذهني هدف واضح كي أستطيع إظهار قدر أكبر من الثبات في هذا الأمر. لكني اخترت أسوأ الطرق كلها. بل إني لم أخترها، فرضت نفسها علي فرضاً.

قلت مرتبكاً، «أردت سؤالك عن أخي». ما كان لي أن أبدأ هكذا، لأن هذه بداية موحية بقلة الثقة. أسرعت في الكشف عن نقطة ضعفي من غير أن أنجح في إعداد كلمات أكثر نفعاً من هذه، كلمات تخلق انطباعاً حسناً. أرغمني ذلك الوجه الذي ما تزال ملامح النعاس ظاهرة فيه على أن أقول شيئاً، أي شيء، على أن أقول شيئاً من غير تأخير.. كي يعرفني، كي يلحظ وجودي.

«أخوك؟ أي أخٍ؟»

في ذلك السؤالِ الأصم، وفي سؤاله الميت، في دهشته إزاء افتراضي أنه ينبغي أن يكون على علم بأمر تافه إلى هذا الحد، أحسست أن أخي، وأنا معه، قد صرنا عديمي القيمة كأننا ذرتي غبار.

فليصفح عني الناس الموقرون جميعاً ممن هم أكثر شجاعة مني، الناس الصالحون جميعاً ممن لم يطلهم إغراء نسيان كرامتهم! لكن علي قول هذا لأن إخفاء حقيقة نفسي غير مجد لي: لم أر إساءة في ما تعمده المتسلم من فظاظة، ولا في المسافة الفظيعة التي أبقى عليها بيننا.

أثار ذلك ذعري لأنه كان غير منتظر: أحسست نفسي مضطرباً، واقعاً في الخطر. لم يفدني أخي شيئاً في أن أكون جسراً محتملاً يربط بيننا: كان لا بد من إحيائه، من ذكره أمام المتسلم أول مرة. يعني هذا أن ذنبه سوف يتقرر الآن أول مرة. لكن، ما الذي أستطيع قوله من غير أن أُلحق بأخي أذية ومن غير أن أهين المتسلم؟

قلت إنني آسف لما جرى. لقد نزلت بي هذه المصيبة كأنها موت واحد من أقاربي لأن القدر لم يشأ حمايتي من ألم رؤية أخي نفسه مأخوذاً إلى حيث يؤخذ الآثمون والمجرمون، ولا من ألم أن ينظر إلي الناس مذهولين كأنني أحمل بدوري نصيباً من ذلك الإثم.. أنا الذي أمضيت سنيناً في خدمة الله وفي خدمة الإيمان من غير أي تقصير. قلت هذا كله وكنت عالماً أنه كريه. كنت أقترف خيانة، لكن هذه الكلمات انسابت مني انسياباً سهلاً صادقاً، وظلت هذه الحسرة، حسرتي على قدري، ملتفة على نفسها إلى أن نطق ضميري بقوة جعلتني متقززاً من تلك الدموع الحلوة التي ذرفتها من أجل نفسي، من أجل جبني الذي ما استطعت أن أرى له

سبباً حقيقياً، من أجل أنانيتي التي كتمت كل فكرة أخرى عندي. لا! صاح صوت في داخلي قائلاً إن هذا مخزٍ.. فمن ذا الذي أتيت مدافعاً عنه؟ أهو أنت؟ لماذا تدافع عن نفسك؟ أخوك هو الواقع في الخطر! سوف تحس خزياً في ما بعد لأنك تضعف موقفه. حافظ على هدوئك وانصرف. تكلم وانصرف. تكلم وابق. انظر في عينيه. وجهه الشبحي هو ما يخيفك، لا أكثر. أسكتْ خوفك الذي لا مبرر له. ليس لديك ما تخشاه. لا تُلحق العار بنفسك بأن تشتكي له ولنفسك: لا تقل إلا ما ينبغي قوله!

لقد قلتها.. قلت إن أخي ـ هكذا سمعت ـ فعل شيئاً ما كان ينبغي له فعله، لست أدري، لكنني لست مقتنعاً بأن ما فعله خطير. من هنا، أناشد المتسلم أن ينظر في الأمر حتى لا يتهم السجين بأمر لم يفعله.

ما قلته كان غير كافٍ لأنه مفتقر إلى الشجاعة وإلى الصدق. لكنه كان كل ما استطعت قوله. حلّ علي تعب ثقيل.

لم يفصح وجه المتسلم عن شيء. لم يفصح عن غضب ولا عن فهم. وكان ممكناً أن تنطق شفتاه بإدانة أو بقول لطيف. تذكرت في وقت لاحق، وكنت غير موقن مما تذكرت، كيف تبادر إلى ذهني وقتها أن كل من يتوسل أو يناشد يجد نفسه في وضع عصيب بالضرورة يكون صغيراً، قليل القيمة، متلوياً تحت حذاء واحد من الناس، مداناً، مهاناً، واقعاً في خطر من نزوات الآخرين، هشاً أمام قوتهم، راجياً نية حسنة قد تأتي مصادفة. لا شيء معتمد عليه، ولا حتى تعبير عن خوف أو كره، تعبير يمكن أن يدمره. تحت تلك النظرة البليدة التي لا تكاد تراني. كففت عن توقع رحمة أو كلمات لطيفة وما عدت راغباً في شيء غير الانصراف، في أن أترك كل شيء لمشيئة الله.

تكلم المتسلم أخيراً؛ تكلم بصوت ميت مثله مثل صمته، لكني ما عدت مبالياً. فعلى مر السنين، اعتاد هذا الرجل اتخاذ موقف المنعة وازدراء الناس. لكني ما كنت مبالياً بهذا أيضاً. أحسست دواراً خفيفاً.

«هل تقول لي إن أخاك في السجن؟»

نظرت من النافذة، لقد خمدت النار. ما عاد مرئياً غير دخان أسود باقٍ هناك تسوقه الريح فوق البازار. مؤسف أن النار لم تأت على كل شيء.

«أتعلم سبب وجوده في السجن؟»

«هذا ما جئت أسأل عنه».

«إذاً، أنت لا تعرف حتى سبب وجوده في السجن. وقد جئت متوسلاً من أجله بصرف النظر عما جناه».

«لم آت متوسلاً».

«فهل أنت راغب في اتهامه؟»

«لا».

«هل أنت قادر على الإتيان بشهود معه أو ضده؟ وهل في وسعك أن تدلنا على آثمٍ غيره؟.. أو على متعاون معه؟»

«لا».

«فماذا تريد إذاً؟»

كان يتكلم بنبرة كسلى ويقاطع نفسه ويميل برأسه جانباً كأن إهانة لحقت به، أو كأنه مستاء من اضطراره إلى شرح هذه الأمور الواضحة وإهدار وقته مع رجل غير منطقي مثلي.

حلّ علي إحساس بالعار: نتيجة خوفي وجبن أنانيتي، نتيجة ازدرائه، نتيجة أن من حقه أن يكون فظاً، نتيجة الضجر الذي لم يحاول إخفاءه، نتيجة إذلاله إياي وكلامه معي كأنه يكلم خادماً أو تلميذاً أو مجرماً. لقد اعتدت الإصغاء من غير اعتراض، واعتدت أن أخفض رأسي. بل إن هذا الاستعلام عن أمر أخي بدا لي كأنه اعتداء على ذاتي؛ إلا أن غطرسة هذا الرجل الفظ خنقت عادتي القديمة، أو أن ما أبداه من قلة أدب سوقية كان له أثر أكبر علي. أحسست أنني شحبت لشدة غضبي، لكني كنت مدركاً أن الغضب لا يفيدني شيئاً. ما كان الأمر مهماً عنده، لكنه كان مهماً عندي. هذا ما أراده على وجه التحديد، هذا ما كان يحاول فعله. لا، بل إنه لم يحاول ذلك.. كل ما في الأمر أنه كان ناضحاً بازدراء البشر جميعاً. لم أدر ما جعله مصراً على خلق الأعداء، وما كان هذا يهمني في شيء. لكن،

كيف يجرؤ على التصرف هكذا معي؟ كنت ما أزال مخدوعاً بأفكاري عن مكانة دعوتي وعن أهمية الطريقة الصوفية التي التحقت بها.

يعيش الناس هادئين، ويموتون موتاً مفاجئاً.. هذا ما قاله حسن، تاجر الماشية الغريب الذي لا يتسرع أبداً في تصرفاته ولا يعاني نتائج طيشه. لقد كنت مؤمناً أيضاً بأنني حصين أمام المفاجئات التي قد تأتي من داخلي.

فاجأت نفسي عندما قلت: «ماذا أريد؟». كنت مدركاً أن ما أقوله غير ملائم.. «ما كان ينبغي لك قول هذا! أهي جريمة أن أستعلم عن أخي وعما جناه؟ هذا واجبي، وهذا ما تفرضه عليه شريعة الله وشريعة البشر. سيبصق الناس علي إذا أسقطت حقي في هذا. بل إننا نستحق جميعاً أن يُبصق علينا إن شككنا لحظة في هذا الحق. هل صرنا بهائم، أو أسوأ من البهائم؟»

قال بأسلوبه الهادئ نفسه، لكن عينيه ضاقتا قليلاً، «كلماتك خطيرة. فمن المُحق في هذا الأمر؟ أنت تدافع عن أخيك، وأنا أدافع عن القانون. القانون صارم، وأنا خادم له».

«إن كان القانون صارماً، فهل يعني هذا أن على تصرفاتنا أن تكون شرسة؟»

«أيكون الدفاع عن القانون شراسة، أم مهاجمته مثلما تفعل أنت؟»

وددت القول له إن من الشراسة أن يكون المرء فظاً في أي ظرف من الظروف. يموت الناس موتاً مفاجئاً! أمرٌ حسنٌ أنني لم أستجب إلى التحدي الذي قذفني به. إن به حاجة إلى دفع الناس إلى الجنون.. هذا ما يسره!

انتابني غم بعد ذلك. انقضى حنقي سريعاً وحل محله ندم لأنني تسرعت ليس هذا من مألوف طبعي. كانت استجابتي حادة لأنني كنت في توتر شديد، كنت غير قادر على ضبط اندفاعي. عادة ما يكون كل ما يفعله المرء في لحظات من هذا النوع ضاراً. هذا نوع من بطولة حمقاء، من دفاع انتحاري لا غاية له، دفاع لا يقدر على الدوام إلا أمداً قصيراً ولا يترك خلفه غير استياء من نفسه. لكن هذا الإدراك المتأخر لا يفيد أحداً.

وقع ما خشيت وقوعه. لقد قيل لي إن دفاعي عن أخي اعتراض على القانون. كان هذا صحيحاً حقاً، أو (كنت عارفاً أنه غير صحيح) لو أنه بدا هكذا في

عين أحدهم، ولو حسب الناس أني أرى في الخسارة الشخصية أمراً أهم من كل شيء آخر من حولي، إذاً، فقد انتهى الأمر كله أسوأ نهاية ممكنة وصارت مخاوفي الغامضة مبررة. أسوأ من أي أمر آخر حقيقةُ أنني لم أدافع حقاً عن أخي بل كان ما فعلته ثورة في لحظة جنون، ثورة على قسوة فظيعة. ما كنت في هذا الجانب، ولا في ذاك، لا مع أخي ولا مع المتسلم. ما كنت في أي مكان.

أسعدني أن الوقت قد قارب الظهر وأنني سأكون وحدي. سوف تعزلني الصلاة عن هذا اليوم؛ وسوف أترك أفكاري المؤلمة عند باب المسجد. أنا واثق من أنها ستظل في انتظاري إلى أن أخرج، لكني - على الأقل - سأكون بعيداً عنها حيناً من الزمن.

عندما اتخذت موضعي أمام رهط قليل من المؤمنين المجتمعين هناك، وبدأت الصلاة، أحسست إحساساً أقوى من أي وقت آخر ذلك السلام الذي يغمرني به هذا المكان المألوف، السلام الذي يقيني به، سلام منبعث من رائحة الشمع المنصهر الثقيلة الدافئة، وصفاء شافٍ منبعث من جدران المسجد البيضاء وسقفه الذي كساه السخام.. الرقة الأمومية في ضياء الشمس المتألق على شذرات من غبار ذهبي. ذلك كان ميداني: الحُصر البالية، والشمعدانات النحاسية، وموضع الصلاة حيث ركعت على ركبتي أمام المصلين خاشعاً أمام الله، ذلك هو صمتي وأماني. أنا منتمٍ إلى هذا المكان منذ سنين: أعرف البقعة على الحصير حيث وضعت قدمي: بَليت رسومها وحال لونها. ففي أدائي واجبي المقدس هنا يوماً بعد يوم، تركتُ أثري على شيء يبقى أكثر مما نبقى. صار هذا المكان مكاني، مكاننا، مكان الله.. مع أني كنت منكراً - حتى أمام نفسي - أنه مكاني أولاً. وأما في ذلك اليوم، في ذلك العصر، فقد كنت متحرراً من كابوسي. عدت إلى ذلك الصمت المطمئن، عدت من عالم غريب لم آلفه، فلم أكن مؤدياً فريضة الصلاة أداء حقيقياً. كنت واثقاً من أنني لا أخدم أحداً، ومن أن كل شيء يخدمني، ومن أن كل شيء يقيني ويعيدني من حيث أتيت ويمسح عني أحلامي المظلمة القبيحة. غصت في مسرة تلك الصلاة المألوفة وأعانني في ذلك كل ما كان لي منذ سنين:

الروائح المألوفة، وهمهمات المصلين غير الواضحة، وصوت اصطدام مكتوم عند نزولهم إلى الأرض لحظة الركوع، وتلك الصلاة التي لا تتغير، وتلك الدائرة التي انغلقت من حولي كأنها خط دفاع، أو كأنها حصن، دائرة تبررني وتؤكد وجودي.. أحسست أن توازني المفقود قد استعيد. أديت صلاتي بفعل العادة من غير أن أحاول تفسيراً لها، ورحت أنظر إلى شعاع شمس أطل عبر زجاج النافذة وأتى صوب يدي كأنه يلاعبني، كأنه يتحداني. كنت أسمع زقزقة عصافير الدوري الفرحة خارج المسجد، ونغمات أصواتها التي لا تهدأ، بدت لي صفراء متألقة كالقمح، أو كالشمس. حام من حولي شيء دافئ، صافٍ، فعزلني وأيقظ في نفسي ذكريات عن شيء كان ذات يوم موجوداً، لست أدري متى ولست أدري أين، لكنه كان موجوداً، وما كانت بي حاجة إلى إحيائه. كان قوياً، نشطاً، ثميناً مثلما كان في يوم من الأيام، مثلما لم يكن أبداً، من غير شكل.. أي أنه يستوعب كل شيء. علمت أنه كان موجوداً، ربما في طفولتي التي ما عادت باقية في ذاكرتي، بل في أساي؛ ربما كان موجوداً في رغبتي في أن يصير وأن يكون، شفافاً، من غير وزن، كأنه حركة ناعمة، كأنه انسياب ماء صامت، كأنه اندفاع دم صامت، كأنه فرحة مشمسة للا شيء. كنت مدركاً أن هذا إثم، هذا الضياع في الصلاة، هذه المتعة التي هي متعة الجسد والعقل، لكني ما استطعت انتزاع نفسي منها وما كانت راغباً في إنهاء هذا السلوان العجيب.

لكنه انتهى من تلقاء نفسه.

بدا لي أن الهارب الذي رأيته ليلة أمس واقفٌ خلفي بين المصلين المنتظمين صفوفاً من أجل الصلاة. لم أجرؤ على الالتفات، لكني كنت واثقاً من أنه موجود في المسجد. لعله يلاحقني؛ لعله آتٍ من أجلي؛ أو لعلي لم أره أبداً! بدا صوته مختلفاً عن أصوات الآخرين، بدا أكثر عمقاً، أكثر رجولية. ما كانت صلاته تضرعاً، بل مطالبةً. عيناه حادتان، وحركاته ليّنة، رشيقة. كان اسمه إسحاق. على الأقل، هذا هو الاسم الذي دعوته به لأنه كان هناك ولأني لم أعلم له اسماً. لكن، كان حريّاً بي أن أعلم هذا. لقد جاء من أجلي، جاء كي يشكرني. أو أنه جاء من أجل نفسه، كي يختبئ! سوف نبقى وحيدين هنا بعد انتهاء الصلاة. إذاً، أستطيع

سؤاله عما لم تسنح لي فرصة سؤاله عنه الليلة الماضية. قررت في سري أن اسمه إسحاق، إسحاق. كان ذلك اسم عمي، عمي الذي أحببته كثيراً عندما كنت طفلاً. إسحاق ـ لست أدري ما جعلني أقيم صلة بينهما. لست أدري كيف صار عندي هذا الحنين الملح إلى طفولتي. لست أدري سبباً لذلك. لا بد أنه كان هروباً. هو هروب من كل شيء كان، محاولة لإنقاذ نفسي من خلال ذكرى غير واعية، ومن خلال رغبة مستحيلة في إنكار الواقع. لو أني آمنت بالأمر حقاً، لساقني هذا إلى القنوط. وأما على هذا النحو، فقد صار حقيقة واقعة في لحظات نشوة معوجّة كسول، عندما راح جسدي وقوى داخلية مجهولة يبحثون عن سلامي الضائع. كنت في تلك اللحظة غير مدرك أن النسيان لا يدوم إلا زمناً قصيراً، لكن فكرة إسحاق ظهرت لي فعلمت أن سلامي قد تعكّر. وذلك أن إسحاق منتمٍ إلى العالم الذي ما أردت التفكير فيه؛ ولعل هذا السبب عينه الذي جعلني راغباً في نسبته إلى عالم الأحلام البعيد، راغباً في ألا أفكر فيه عندما لا نكون واقفين وجهاً لوجه. وددت أن أستدير: بسببه، كانت صلاتي فارغة وارتدّت كلماتي إلى كلمات من غير معنى، كلمات طالت أكثر من أي وقت مضى.

فما الذي أحدثه به؟ ما كان راغباً في قول شيء عن نفسه. هذا ما صرت مقتنعاً به منذ ليلة أمس. سوف نتحدث عني. سوف نجلس هناك، في صحن المسجد الخالي، في العالم، لكن خارج العالم.. سنجلس وحيدين. سيبتسم لي ابتسامته النائية الواثقة التي ما كانت ابتسامة بل برودة متبصرة، نظرة ترى كل شيء لكنها لا تَعجب لشيء. سوف يصغي إلي منتبهاً، غارقاً في تأمل رسوم البساط أمامه أو في تأمل شعاع من أشعة الشمس أصر على اختراق الظلمة المغبرة المتلألئة. وسوف يقول لي الحقيقة، الحقيقة التي تريحني من أثقالي.

تخيلت ذلك الحديث فاستعدت وجهه ولم يفاجئني أني تذكرت منه الكثير. انتظرت إلى أن نصير وحدنا مثلما كنا الليلة الماضية، أن نواصل ذلك الحديث غير المعتاد، أن نواصله من غير تحفظ. في لحظة تناقض مطلق، بدا لي ذلك الرجل المتمرد الذي لا يهدأ، الرجل الذي تناقض أفكاره كل ما أستطيع الإيمان به، كأنه شخص أستطيع الاتكال عليه. كان كل ما يفعله جنوناً وكل ما يقوله غير

مقبول، لكني ما كنت قادراً على أن أُسرّ بما في نفسي إلا إليه لأنه شقيّ، لكنه صادق. لم يدر ما أراد، لكنه كان عارفاً ما يفعل. كان قادراً على القتل، لكنه لا يغش. بينما رحت أعدد في نفسي الخصال الحسنة لدى ذلك المارق الذي أجهل كل شيء عنه، غفلت عن ملاحظة المسافة التي اجتزتها منذ الليلة الماضية. أردت في الصباح أن أسلمه إلى الحراس، لكني صرت متخذاً صفه عند الظهر. على أني ما كنت ضده حتى في الصباح. صحيح أنه كان ممكناً أن أسلمه في تلك اللحظة، لكن هذين الأمرين لا صلة بينهما أبداً. أو.. لعل بينهما صلة. لكنها صلة شديدة التعقيد، صلة معقدة على نحو غريب. في واقع الأمر، ما كنت واثقاً إلا من أمر واحد هو أن إسحاق المتمرد قادر على أن يوضح لي أموراً باتت عقدة متشابكة في داخلي. وحده قادر على ذلك. لست أدري لهذا سبباً.. لعل السبب أنه عانى واكتسب من محنته خبرة، لعل السبب أن تمرده قد حرره من الطرق المستقرة في التفكير، من الطرق التي تقيدنا، فما عادت لديه أفكار مسبقة لأنه طهّر نفسه من الخوف واتخذ سبيلاً غير مفضية إلى شيء لأنه بات محكوماً عليه ألا يستطيع شيئاً غير محاولة إرجاء موته إرجاءً كله بطولة. البشر من أمثاله يعرفون الكثير، يعرفون أكثر منا، أكثر ممن يسيرون مترنحين من القواعد المعلومة إلى الخوف من الخطيئة، من عادات مستقرة إلى قلق من إثم محتمل. مع أني لا يمكن أبداً أن أسلك درب المروق، ولا حتى في أحلامي، فقد كان مما يسعدني أن أصغي إلى صوت حقيقته. لكن، ما هي حقيقته؟

لم أدر.

سأقول له هذا:

ذهبت إلى المدرسة عندما كنت طفلاً صغيراً. وأنا درويش منذ عشرين عاماً. لكني لا أعلم أكثر مما أرادوا لي أن أعلم. علموني أن أكون مطيعاً، أن أحتمل المشقة، وأن أعيش من أجل الإيمان. كان بعضهم أفضل مني، لكن من فاقوني إيماناً كانوا قلة. ودائماً، علمت ما ينبغي لي فعله. مع أن فكر طريقتنا الصوفية ملائم لي، فإن مبادئ الإيمان فيها صلبة، راسخة؛ وما كان في أفكاري شيء غير قادر على الانسجام معها. كانت لي أسرة تعيش حياتها؛ كانت أسرتي بحسب

رابطة الدم والذكريات البعيدة، بحسب ذكريات طفولتي التي ما فتئت أحاول دفنها منذ ذلك الوقت معتقداً اعتقاداً خاطئاً أنها ماتت. هي لي لأن هذا ما ينبغي أن يكون. ذلك الحب عن بُعد كان غالياً علي، حب من غير مكسب؛ لكنه كان بعيداً، بارداً، لهذا السبب عينه أسرتي موجودة.. هي أسرتي.. وهذا يكفيني. وأظنه كان يكفيهم. ثلاث زيارات في غضون هذه الأعوام العشرين لم تفد في شيء ولم تضر في شيء. كنت أخدم الدين؛ ما كان لتلك الزيارات أثر مفيد أو ضار مع أني كنت معتزاً بعثوري على أسرة اعتزازاً أكبر من حزني لأنني تركت أسرتي الأصلية. ما حدث الآن هو أن أخي قد ألمّت به مصيبة. أستخدم هذه الكلمة لأني لا أعلم الكلمة الصائبة، لأني لا أستطيع القول إن كانت كلمة منصفة أم غير منصفة.. هذا هو أصل المشكلة. لست أحب العنف فهو علامة على الضعف وعلى سوء التقدير، وسيلة يُدفع الناس بها إلى فعل الشر. مع هذا، أظل صامتاً عندما يُمارس العنف على الآخرين وأرفض أن أدينه. فإما أن أحوّل المسؤولية عنه إلى شخص آخر أو أن أرفض التفكير في أمر لست مذنباً فيه، بل أرفض حتى الإقرار بأنه قد يكون من الضروري أحياناً ارتكاب الشر من أجل غاية أعظم، أو أكثر سمواً. ولكن، عندما وقع سوط الحكام على أخي، كان الدم الذي انبجس دمي أيضاً. أظن، بعض الظن، أن هذا فعل قاس: أعرف ذلك الصبي؛ وهو غير قادر على ارتكاب جريمة. من هنا، أرى أني لا أقوم بما فيه الكفاية للدفاع عنه، لكني لا أبرر لهم فعلتهم. لا يبدو لي إلا أنهم، جميعاً، قد ارتكبوا إثماً في حقي. يكادون يكونون متساوين في هذا. لقد أشاعوا في نفسي اضطراباً وأرغموني على مواجهة حياة تتجاوز حياتي. أرغموني على اتخاذ هذا الجانب أو ذاك. فما أنا الآن؟ أنا أخ من نوع معوجّ، أو درويش غير مستقر على حال! هل ضيعت حب بني البشر، أو أضعفت إيماني فخسرت كل شيء؟ أود أن أذرف الدمع على أخي مهما تكن حقيقة أخي، أو أن أكون مدافعاً صلباً عن القانون حتى إن كان الأمر متصلاً بأخي، حتى وإن أسفت لذلك. لكني غير قادر على فعل هذا ولا ذاك. ما الأمر، يا إسحاق، أيها الشهيد المتمرد الذي اتخذ جانباً، المتمرد الذي لا يعرف التردد؟ هل فقدتُ وجهي البشري، أم ضيّعت إيماني؟ أم تراني فعلت هذا وذاك؟ إذاً، ماذا بقي لي.. قوقعة؟، قبر؟، شاهدة قبر من غير كتابة عليها؟ استقر الخوف

عميقاً في داخلي، يا إسحاق، خوف واضطراب! ما عدت أجرؤ على فعل شيء، لا من أجل هذا الجانب ولا من أجل ذاك. سوف أضل طريقي، وسوف أهلك.

لم أستدرك كي أنظر إليه، ولم أصدق أنه ما يزال هناك. لم أعلم أيضاً ما أستطيع قوله له من هذا الألم كله، من هذا الألم الذي لا اسم له. ثم إن تلك الفكرة، فكرة أنني سأأتمنه على ما لا أستطيع البوح به لأي شخص آخر، فكرة خطيرة. لم أختر لذلك درويشاً، أو أي واحد ممن أعرفهم، بل اخترت مارقاً، هارباً، رجلاً خارجاً عن القانون. فهل كنت مؤمناً بأنه وحده من لن يفاجئه سماع كلامي؟ هل آمنت بأنه وحده لن ينظر إلي نظرة لوم؟ أعنّي يا ربي! أعنّي على أن أخرج من هذه المحنة فأكون الرجل نفسه الذي كنته من قبل! ما رأيت سبيلاً إلى ذلك غير سبيل واحد: ألا يحدث شيء مما قد حدث.

سلام على إبراهيم

سلام على موسى وهارون

سلام على إلياس

سلام على إسحاق

سلام على التعس أحمد نور الدين

بدأ الناس يخرجون من المسجد. ساعلين، متهامسين بصوت خفيض. تركوني فبقيت وحدي راكعاً على ركبتي، راكعاً أمام ألمي. من حسن حظي ومن سوئه أني كنت وحدي خائفاً من مفارقة هذا المكان حيث أستطيع تعذيب نفسي بالتردد والحيرة.

دبت في الخارج حركة؛ أحدهم يصيح؛ أحدهم يطلق وعيداً ـ لم أرد سماع تلك الكلمات؛ لم أرد معرفة من يصيح ومن يطلق الوعيد. كل ما يجري في العالم بشع. يا إلهي، اقبل صلاة ضعفي وخذ مني قوتي ورغبتي في ترك هذا الصمت والعودة إلى السلام، إلى السلام الأول أو الآخر. كنت أظن أن بينهما شيئاً، أن بينهما نهراً جرى ذات يوم، سطحه مكسو بانعكاسات نور الشمس، مكلل بالضباب وقت الغسق. ما يزال النهر موجوداً فيّ. ظننت أني نسيته، لكن الظاهر أن ما من شيء يُنسى أبداً. يعود كل شيء من الخزائن التي حبسناه فيها، من ظلمة

ما يبدو من سلوان، ويكون لنا كل ما ظننا أنه ليس لأحد. لسنا في حاجة إليه، لكنه ماثل أمامنا، متلألئ في وجوده السابق يذكرنا ويعذبنا. ننتقم لخيانتنا. فات الأوان، أيتها الذكريات، إن عودتك عبث، وسلوانك عديم الحول لا نفع منه، فأنت بقايا ما لعله قد كان، لأن الذي لم يحدث أبداً ما كان حدوثه ممكناً أبداً. ودائماً يبدو جميلاً ذلك الذي لم يحدث قط. أنت خداع يولّد السخط، خداع لا أُبعده عني، لا أستطيع إبعاده عني، لأنه يجعلني أعزل ولأنه يقيني معاناة الأسى الصامت.

كان أبي في انتظاري، وكان قانطاً على ابنه الذي هو كل من بقي له. لا وجود لي، ولا وجود لابنه: كان العجوز وحيداً؛ انتظرني في الخان، انتظرني وحيداً. لم نحسب أننا صرنا واحداً حتى بتنا الآن لا نحسب شيئاً أبداً. سوف تسألني عيناه أولاً، فأجيبه بابتسامة. سيكون هذا القدر من العزم باقياً عندي.. بسبب منه: لقد قيل لي إنهم سيخلون سبيل أخي عما قريب. سوف أجعله يرتحل حاملاً أملاً: لماذا يرتحل كسير القلب؟ لن تفده الحقيقة شيئاً. وأنا سأعود محزوناً.

تنفست الهواء النقي، هواء شهر أيار. كان فتياً، وكان فائراً. قلت في نفسي، أحب الربيع، أحب وقت الربيع، إنه غير متعَب وغير مثقل بشيء. يوقظنا بنداء مرح خلي البال كي نبدأ من جديد. إنه ما تأتي به كل سنة جديدة من خداع ومن أمل. براعم جديدة تتفتح على أشجار عتيقة. صحت في نفسي معانداً: أحب وقت الربيع! أرغمت نفسي على تصديق هذا فأنا أخفي وقت الربيع عن نفسي منذ سنين طويلة؛ لكني الآن صرت أناديه، صرت أقدم نفسي إليه راجياً أن يقبلني. مسست الزهور المتفتحة على أغصان جديدة صقيلة في شجرة تفاح إلى جوار الدرب. النسغ سارٍ في عروقها التي لا سبيل إلى إحصائها عدداً. أحسست نبضها وتمنيت أن يدخلني عبر أطراف أصابعي، فقد تتفتح أزهار التفاح على أصابعي وتنبت في كفيّ أوراق خضراء كأنها شفافة، فأصير عبير الثمار اللطيف، أصير صمته اللا مبالي. سأرفع يدي المزهرتين أمام عيني المذهولتين وأمدّهما إلى المطر يروبهما. سأصير ضارباً جذوري في الأرض، تغذيني السماء، يجددني الربيع، ويجعلني الخريف أرتاح. كم يكون حسناً أن يبدأ كل شيء من جديد!

لكن، لا يمكن أن توجد بداية جديدة، ولن تكون للمرء أهمية. نحن لا ندرك متى تصل البدايات الجديدة؛ ونحن لا نكتشفها إلا بعد ذلك، إلا عندما تكون قد ابتلعتنا، إلا عندما يصير كل شيء سائراً في تواصل واستمرار، لا أكثر. نؤمن عندها بأن كل شيء كان ممكناً أن يكون مختلفاً، لكن ذلك ما كان ممكناً، فنندفع وقت الربيع كي لا نفكر في بدايات لا وجود لها أو في تواصل لا بهجة فيه.

سرت في الشوارع على غير هدى، سرت محاولاً قضاء الوقت، الوقت الذي لا ينقضي. كان حسن في انتظاري، في التكية. هذا الصباح، انتظرني أبي في الخان؛ والآن ينتظرني حسن في التكية عند المساء. كانا كامنين لي في الدروب كلها، وعند كل زاوية؛ لم يتيحا لي أن أترك همومي خلفي. قال أبي عند رحيله، «أعلمني فور إخلاء سبيله. لن أرتاح حتى أسمع النبأ. وسيكون من الأفضل أن يأتي إلى البيت».

كان من الأفضل لو أنه لم يترك البيت قط.

ذكرني أبي، ذكرني كي لا أنسى، «اذهب إلى المتسلم غداً، اذهب إليه واشكره، اشكره باسمي».

أسعدني رحيله لأن النظر في وجهه كان صعباً علي. كان يلتمس سلوى لا أستطيع تقديمها إليه إلا بأن أكذب. رحل حاملاً معه السلوى، حاملاً الكذب، وما بقي هنا شيء غير ذكرى بشعة. توقفنا عند آخر الحقل. قبلت يده فقبل جبهتي. كان أبي من جديد. نظرت إليه مبتعداً، محني الظهر، قائداً جواده كأنه متكئ عليه. ظل يلتفت خلفه من غير انقطاع. ارتحت عندما ذهب، لكني كنت حزيناً، وكنت وحيداً. لقد كان فراقاً إلى الأبد؛ ما عاد ممكناً أن يكون في هذا الأمر أي ريب. دفن واحدنا الآخر لحظة أبصر واحدنا الآخر على حقيقته ـ ما كانت آخر نتفة من دفء عقيم بيننا قادرة على إسعافنا بعد الآن.

كنت واقفاً وسط الحقل الواسع عندما اعتلى أبي جواده واختفى خلف الجرف. اختفى كأن الصخرة الرمادية قد ابتلعته.

ظِلٌّ متطاول وقت العصر، ظلٌّ هو روح التلال الكئيبة، زحف على الحقل، حمل الظلمة إليه. مر الظل فوقي وأحاط بي من كل ناحية. هرب ضياء الشمس

منه وتراجع صوب التلة المقابلة. ما يزال الليل بعيداً: ما كان هذا غير علاماته المبكرة، لكني رأيت شؤماً في تلك النذر المظلمة. ما من أحد في هذا الحقل الذي شقه الظل نصفين: كلا النصفين خالٍ، وأنا واقف وحدي في ذلك المكان المنقسم الذي يزداد إعتاماً. كنت صغيراً في الفضاء الذي ينطبق من حولي، وكنت منشغل البال بقلق ضبابي حملته في روحي العتيقة، في روحي الغريبة، لكنها روحي. وحيدٌ في الحقل، وحيد في العالم، عاجز أمام أسرار الأرض وأمام اتساع السماء. لكن.. عند ذلك، من مكان بين التلال، من بيوت على السفوح، انبعثت أغنية. اخترقت الأغنية نصف الحقل الواقع تحت ضياء الشمس وأتت صوب ظلي كأنها هبت إلى نجدتي. الواقع أنها حررتني من ذلك السحر الوجيز، الغريب.

لم أستطع فراراً من اهتمام حسن الذي ما كنت ساعياً إليه. كان جالساً مع الحافظ محمد على الشرفة في الأعلى، فوق النهر. لحيته الناعمة مقصوصة قصاً أنيقاً، وهو مرتد ثوباً طويلاً أزرق اللون، وعبق زيوت عطرية فائحٌ منه. كان نضراً، مبتسماً؛ وكان قد نظف نفسه من آثار ارتحال دام ثلاثة شهور، من روائح الماشية والعرق والخانات والغبار والطين. نسي أمر الشتائم، والمعابر الجبلية، والمخّاضات الخطيرة في الأنهار؛ وصار الآن كأنه آغا شاب أفسدته الحياة، أفسده دلال حياة لا تستلزم منه جهداً ولا جرأة.

أتيتهما وسط حديث جارٍ بينهما. كان تاجر المواشي هذا، المدرس السابق، يستفز الحافظ محمد إلى الاستفاضة في بسط معارفه كي يستطيع معارضته مازحاً من غير أن يحاول إضفاء أية أهمية على ما يسمعه أو ما يجيب به. عجبت دائماً لقدرته على الوصول إلى أفكار ذكية من أحاديث عادية، أفكار يخفيها من خلف عبارات حمقاء.

سألني بعد أن تبادلنا التحية: «هل علمت عن أخيك شيئاً؟»

«لا. سوف أذهب مجدداً يوم غد. وماذا عنك؟ كيف كانت رحلتك؟»

نعم.. هذا أفضل شيء! ينبغي ترك ذكرياتي لي وحدي.

ذكر بضعة أمور عادية عن رحلته، وقال مازحاً إن الأمر معتمد دائماً على مشيئة الله وعلى أمزجة المواشي. قال إنه يغير مشيئته ومزاجه بحسب تغيرات مشيئتها ومزاجها. ثم طلب من الحافظ محمد أن يواصل عرضه الذي كان ماتعاً جداً، ملتبساً جداً، كان كلاماً في أصل الحياة وتطورها، مسألة ستبقى مهمة طالما بقيت في الأرض مخلوقات حية؛ وهي أيضاً مسألة صالحة للمجادلة خصوصاً في أوقات لا مجادلات فيها، في أوقات يقتلنا الضجر فيها فيوافق الواحد منا الآخر في كل شيء.

واصل الحافظ محمد عرضه عن أصل العالم.. هو الذي ظل صامتاً ثلاثة شهور كاملة، أو كان لا يتكلم إلا في أمور عادية جداً، واصل ذلك العرض الذي كان غريباً، وكان غير دقيق، فضلاً عن كونه من غير سند من القرآن. على أن تلك الصورة التي رسمها أثارت اهتمامي. صورة مأخوذة من واحد من الكتب الكثيرة التي قرأها (يعلم الرب وحده أية كتب هي) جعلتها مخيلته أكثر حيوية فتألقت بنار حمى وحدته، إذ أبصر في رؤاه الهاذية بداية العالم ونهايته. بدا ذلك كأنه تجديف، لكنا كنا قد ألفنا كلامه. لا نكاد نعتبره درويشاً حقيقياً. لقد فاز بحقه في أن يكون غير مسؤول، ذلك الحق الأكثر جمالاً وندرة في طريقتنا الصوفية. وكانت الأمور التي يقولها أحياناً غير معتبرة ضارة لأن أكثرها غير قابل للفهم.

بدا لي أمراً غير معتاد أبداً، بل أمراً لا سبيل إلى تخيله أن يناقش هذا العالِم الساذج أصول العالَم مع مهرج ذكي، مع شخص مازح ذي روح حلوة، مع عالم سابق صار تاجر ماشية وصار يرافق القوافل. كان ذلك كأن الشيطان نفسه قد عمل على أن يجمع معاً هذين الرجلين المختلفين إلى أقصى حد كي يجعلهما ينخرطان في حديث ما كان أحد قادراً على توقعه.

يفاجئني هذا الشاب مرة بعد مرة بأمر غير متوقع، بأمر لا يسهل شرحه ولا تبريره. فمع أنه ذكي متعلم، كان كل ما يفعله غريباً، وما كان شيء مما يفعله قابلاً لأن يتوقعه أحد. لقد أنهى دراسته في القسطنطينية، وتجول في بلاد الشرق، وصار معلماً في مدرسة دينية، وصار موظفاً في ديوان السلطنة، ثم صار ضابطاً في

الجيش. لكنه ترك ذلك كله خلفه. ذهب إلى دوبروفنيك[1] لأمر من الأمور، ثم عاد إلى القصبة مع تاجر من دبروفنيك تصحبه زوجته. قال الناس إنه عشق تلك المرأة الكاثوليكية ذات الجلد الأشقر ولشعر الأسود والعينين الرماديتين. تلك المرأة التي كانت تعيش مع زوجها في الحي اللاتيني. أقام دعوى قضائية في حق واحد من أقاربه استولى على أرضه، ثم لم يلبث أن أسقط دعواه عندما رأى كثرة ما لذلك الرجل من أطفال، عندما رأى كم كان رجلاً بائساً. تزوج واحدة من بنات ذلك الرجل ألقاها إليه تعويضاً عن الأرض التي أخذها، لكنه لم يلبث أن أدرك ما ألقوا به إليه ففر من غير أن يلقي خلفه نظرة واحدة. تركهم جميعاً في بيته، وصار تاجر ماشية، وارتحل في بلاد الشرق والغرب فهال أسرته أمره. كان صعباً أن يعرف المرء كيف جمع تلك الكثرة الكبيرة من المهن، أو أية واحدة منها كانت اتجاهه الحقيقي العمل. لكنه كان يقول ضاحكاً إن ما من واحدة منها هي اتجاهه: على الإنسان أن يجد ما يعتاش منه. وفي آخر المطاف، لا فرق بين مهنة وأخرى. كان كثير الكلام إلى حد يجعله غير صالح للعمل في الديوان؛ وكان حارّ الطبع لا يصلح لأن يعمل مدرساً؛ وكان أوفر تعليماً من أن يصير تاجر ماشية. قال الناس إنه ترك القسطنطينية مطروداً؛ لكن هذه ما كانت إلا قصة من بين قصص كثيرة تداولها الناس عن صدقه واستقامته مثلما تداولوا قصصاً أخرى عن عدم استقامته وعن قدراته الاستثنائية وعن عجزه التام. وكذلك عن أنه غير صالح لأي شيء. قال الناس إنه قاسي الفؤاد عندما ذهب إلى القضاء شاكياً قريبه الذي استولى على أرضه، ثم قالوا إنه غبي عندما أسقط تلك الدعوى. قال بعضهم إنه عديم الحياء لأنه يعيش مع السيدة الآتية من دبروفنيك ومع زوجها الأحمق. وقال آخرون أنه هو الأحمق لأن المرأة وزوجها يستغلانه. مرروه عبر مصفاة دقيقة، مصفاة نمائم القصبة، فكان موضوعاً مناسباً لمئات الشائعات الفضولية، في البداية خاصة قبل أن يعتاده الناس وينسوا أمره. لكنه كان يصرف عنه كل شيء بتلويحة من يده فكل شيء عنده سواء مثل كل شيء آخر في الحياة. كان يعاشر الجميع: يتكلم

(1) دوبروفنيك: مدينة على ساحل بحر الأدرياتيك جنوب كرواتيا كانت جمهورية مستقلة غير واقعة ضمن الدولة العثمانية.

مع المدرسين، ويتاجر مع التجار، ويشرب مع الأوغاد، ويرتحل مع المرتحلين. كان نداً لأي شخص آخر في أي شيء يفعله، لكنه ظل فاشلاً في كل شيء.

ما كنت راغباً في الكلام مع حسن عن أخي. سوف يحزنه الكلام، لكن ليس لزمن طويل؛ وسوف يثير في نفسه مرارة، لكن ليس لزمن طويل. ثم إني كنت مضطرباً بعد كلامي مع أخته ليلة أمس. وكنت أفضّل ألا يأتينا هذا المساء.

لكن الحظ أسعفني فكان حسن غير ملح. من حسن حظي أيضاً أنه كان مهتماً بالحديث الجاري بينهما. لهذا السبب، كنت قادراً على تأجيل كل شيء.. حيناً من الوقت.

قال الحافظ محمد إن الرطوبة والدفء هما منبعا الحياة. نشأت الكائنات الحية الأولى في ظلمة عفنة حيث ظلت تتطور زمناً طويلاً من غير أن يكون لها شكل حقيقي، من غير أطراف.. كانت أجساماً ضئيلة مدورة ومتطاولة، أشكالاً متوجهة بقوة الحياة. كانت تسبح في عماها المظلم، وتجول من غير هدف؛ تعيش في الماء، وتزحف إلى اليابسة، وتحفر في الرمل. وعلى هذا النحو، انقضت آلاف السنين.

سأله حسن، «وماذا عن الله؟»

كان هذا مزاحاً، لكنه كان سؤالاً جاداً. تجاهل الحافظ محمد سؤاله.

«إذاً، انقضت آلاف السنين فتغيرت تلك المخلوقات الصغيرة العاجزة. تكيّف بعضها للعيش على اليابسة، وتكيف بعضها للعيش في الماء. لقد ولدت صماء عمياء من غير أذرع أو سيقان، من غير أي شيء، ثم تطور كل شيء تطوراً بطيئاً بحسب الضرورة وبعد محاولات فاشلة كثيرة».

«وماذا عن الله؟»

«هو من شاء هذا».

كان عليه أن يقول هذا مع أن قوله لم يبد مقنعاً. إلا أن الحافظ محمد كان بهذا التأكيد العام الذي لا سبيل إلى إنكاره يزيح من طريقه عقبة مزعجة أكثر مما كان يستجيب إلى التحدي.

أدهشني سلوكهما، كليهما. كان ما قاله الحافظ محمد إنكاراً حقيقياً لدور الله في خلق العالم. ولم يشر حسن إلى الله إلا مازحاً من غير أية رغبة في المضي في الأمر أو في استغلال ثغرة كان قادراً على استغلالها من غير مشقة.

كنت عارفاً أن ما قاله الحافظ محمد ليس إلا تحويراً بسيطاً لتعاليم فلاسفة يونانيين تبناها ابن سينا في أعماله المكتوبة بالعربية. وبحسب تلك التعاليم، كانت صيرورة الإنسان إلى ما هو عليه الآن صيرورة متدرجةً إذ تكيف مع الطبيعة تكيفاً بطيئاً ثم أخضعها لأنه المخلوق الوحيد المتمتع بالذكاء. لهذا السبب، ما عادت الطبيعة سراً مستغلقاً عليه، وما عاد الفضاء من حوله غامضاً. لقد قهر الطبيعة وتغلب عليها بعد ارتقائه المديد منذ أن كان دودة إلى أصار سيد الأرض.

قال حسن ضاحكاً، «سيد الأرض!».

كانت هذه بداية الجدل بينهما التي انطلق الحديث منها: كان حسن مصراً على أن الإنسان نظّم العالم تنظيماً رديئاً، لكنه ما كان غاضباً لهذا الأمر. إلا أن الحافظ محمد لم يوافقه وسعى إلى إثبات رأيه بأن عاد إلى بداية العالم.

من الممكن إقامة مئة اعتراض في وجه ما يقوله الحافظ محمد، من رأيه في أصل الحياة، ذلك الرأي القائل إنها كانت بداية عفوية، إلى تأكيده على أن الإنسان سيد الأرض، على أن سيادته عليها تكاد تكون مستقلة عن مشيئة الله. لكني انضممت إلى الحديث فلم أُلمه على هذه التجاوزات. بدا لي سخفاً أن أجادله في هذه الأمور المألوفة. أمر آخر كان أكثر أهمية في نظري: أوليس من السذاجة ظننا أن الإنسان مستقر على الأرض وأن الأرض موطنه الحقيقي؟

قلت إن المكان سجن، قلتها مصغياً إلى أصداء أفكار لم آلفها، فأدخلت إلى حديثهما الميت، الذي لا ضرورة له، حيوية ما كانت متوقعة. نحن مُلك المكان. نحن لا نملكه إلا بقدر ما تستطيع عيوننا اجتيازه. وهو يقلقنا، يخيفنا، يتحدانا، يلاحقنا. نحسب أنه يرانا، لكنه غير مهتم بنا. نقول إننا قهرناه، لكننا لا نفعل شيئاً غير الاستفادة من لا مبالاته بنا. ليست الأرض ودوداً معنا؛ وليس البرق وأمواج البحر هنا من أجلنا، بل نحن موجودون من أجل ذلك كله. ليس للإنسان موطن حقيقي؛ وهو غير قادر على انتزاع موطن له من بين براثن تلك القوى العمياء.

والأرض ميدانٌ غريب، أجنبي؛ ولا يمكن أن تكون مستقراً إلا لوحوش قد تقدر على مصارعة رزاياها الوفيرة. وإلا، فهي ليست لأحد. من المؤكد أنها ليست لنا.

ما قهرنا الأرض، لكنا استطعنا إحراز بقعة صغيرة منها كي تستقر عليها أقدامنا. ما قهرنا الجبال، ما قهرنا غير صورتها في عيوننا. ما قهرنا البحر، ما قهرنا غير صلابته المطواعة وانعكاسات سطحه. لا شيء لنا غير الوهم، وهذا ما يجعل تمسكنا به شديداً.

نحن لسنا شيئاً في العالم، بل نحن اللا شيء فيه. لسنا صنواً لما هو حولنا، بل نحن مختلفون عنه، غير متوافقين معه. كان على الإنسان في تطوره أن يسعى إلى فقدان إدراكه نفسَه. الأرض غير صالحة للسكنى، مثلها مثل القمر؛ ونحن لا نفعل شيئاً غير أن نخادع أنفسنا عندما نحسبها موطناً حقيقياً لنا.. لأن ما من مكان آخر نستطيع الذهاب إليه. الأرض حسنة من أجل من لا عقل لهم، أو من أجل من لا يقدر عليهم شيء. قد يعثر بنو البشر على مخرج بأن يعودوا أدراجهم، بأن يصيروا قوةً محضةً.

لكني قلت هذه الغرائب كلها فانتابني جزع من أني كشفت كل ما أردت إخفاءه. لقد استجبت إلى ما كان في هذا اليوم وإلى ما بنفسي من مرارة. وقد جعلت نفسي، وجعلتهما معي، في وضع غريب خطير.

نظر الحافظ محمد إلي دهشاً، شبه مذعور، لكن حسن ابتسم ابتسامة شاردة. في عينيهما فقط كنت قادراً على رؤية الوزن الحقيقي لكلماتي التي لم أفكر فيها من قبل. لكن ضميري لم يؤنبني.. بل إني أحسست قدراً من الراحة.

اكتسب تعبير وجه حسن هدوءاً غير متوقع. قال لي لا! هز رأسه بطيئاً كأنه يلتمس العذر لنفسه كي يكون كلامه جاداً. ليس للإنسان أن يصير نقيضه. كل ما له قيمة فيه سريع العطب. قد لا يسهل العيش في هذا العالم؛ لكن من الأسوأ كثيراً بالنسبة إلينا أن نرى نفسنا غير منتمين إليه. إنْ تمنينا القوة وتبلد الحس، فهذا يعني أننا نحاول الانتقام لأن خيبة أملنا تخلق عندنا رغبة في الانتقام. من هنا، هذا ليس مَخرجاً لنا، بل هو تخلٍّ عن كل شيء قد يستطيع الإنسان إنجازه. إنكارُ كل مسؤولية هو خوفنا الأول، هو جوهر الإنسان العتيق الذي يتمنى القوة لأنه خائف.

قال الحافظ محمد متوتراً، «إنكار أن هذا موطننا ليس إلا إنكاراً للحياة. وذلك لأن..» بدأ يسعل، ثم راح يلوح بيده كي يبين أنه غير متفق معي. لكنه لم يفلح في تهدئة سعاله.

قال له حسن، «عليك أن تذهب إلى غرفتك. الجو بارد، رطب. أتحب أن أساعدك».

رفض المساعدة بتلويحة من يده. كانت من غير ضرورة. ثم انصرف مواصلاً سعاله. لا يحب أن يكون الناس شهوداً على علّته.

بقينا وحدنا، حسن وأنا.

ما أسوأ أن نصير غير قادرين على الفراق من غير توضيح، أو من غير مزيد من الكلمات! كان من الأفضل أن أنهض وأنصرف. لقد كان قطع الحديث بيننا صعباً؛ وكان استمراره صعباً. ما عاد الحافظ محمد هنا حتى يكون صلة بيننا ويكون مبرراً لأحاديث عمومية. تنتظرنا أمور لا تهم أحداً غيرنا، أنا وحسن.

لم يحس حسن أي قدر من الانزعاج فهو قادر دائماً على العثور على طريقة لجعل كل شيء طبيعياً. انتقلت عيناه إليّ مع ابتعاد الحافظ محمد، ثم ضحك. كانت الضحك سبيله إلى الناس: تعبيرٌ عن الفهم يجعلهم أكثر ارتياحاً.

«لقد أخفتَ الحافظ محمد. بدت عليه الدهشة».

«يؤسفني هذا».

«أتعلم ما كنت أفكر فيه أثناء كلامك؟.. يستطيع بعض الناس قول ما يريدون، مهما يكن ذلك؛ لكن هذا لا يزعجك سواءً أكنت متفقاً مع قولهم أم غير متفق. وثمة من ينطقون كلمة واحدة فيلتهب كل شيء على غير انتظار ولا يعود أحد قادر على المحافظة على هدوئه. نحس كأن أمراً مهماً يحدث. لا يعود الأمر كلاماً فحسب».

«فما هو إذاً؟»

«هو استعداد لإضرام كل شيء ناراً. إن لما أصاب أخاك أثر شديد عليك».

في الأحوال العادية، ما كنت لأترك أحداً يحدثني هكذا: أرفض الأمر غاضباً. لكنه أدهشني بقدرته على تخمين جوهر تمردي؛ وأدهشني أكثر أنه فعل هذا انطلاقاً من نية طيبة. ما كانت تلك النية الطيبة مُعبراً عنها بالكلمات بقدر ما كانت ظاهرة في عينيه، في إخلاصه العميق وفهمه واهتمامه، في هيأته كلها.. كأنه لم يرني إلا تلك الساعة، لم ير ذلك الجانب مني الذي أخفيه عادة. لكني ما اعترضت عليه لأني ما أزال راغباً في تحويل كلامنا إلى أمور أخرى. لا أحب أن يتطفل أحد على حياتي!

«ماذا عنيت عندما تكلمت على الخوف الأول الذي نحمله معنا منذ قديم الزمان؟»

«أهذا حقاً أول لقاء بيننا. أود أن أكلمك عن أخيك.. إن كان هذا لا يزعجك».

كان في وسعي أن أقول له: هذا ليس من شأنك. دعني وحدي. لا تقترب من أماكني السرية. سئمتُ أن يسدي إلي الناس نصحاً. لو قلت هذا لكان أكثر صدقاً. لكني لا أطيق الفظاظة، لا فظاظتي ولا فظاظة غيري. يخجلني أن أصير فظاً؛ وتظل الفظاظة باقية في نفسي زمناً طويلاً عندما أصادفها لدى الآخرين. أردت الاعتذار فقلت إن أبي قد جاء اليوم كي يراني، وإني لست في مزاج حسن.

أجابني ضاحكاً: «هذه ثاني مرة ترفضني».

«ماذا أستطيع أن أقول لك؟ لم أتوصل إلى شيء حتى الآن».

«أما علمت سبب وجوده في السجن؟»

«ما علمت عنه شيئاً.. حتى هذا ما علمته».

«يعني كلامك أنني أعرف أكثر مما تعرف».

آه.. ما كان رفض هذا سهلاً!

حكى لي قصة غريبة، قصة جعلني ضيق تجاربي المحدودة شبه عاجز عن استيعابها.. كنت كالأطفال نتيجة قلة ألفتي هذا العالم الذي فيه أعيش.

قال حسن إن واحداً من صغار الملاكين يعيش على مقربة من البلدة.. كان يعيش، لكنه الآن ميت. يصعب القول إنْ كان لديه سبب حقيقي، إن كان ثمة ما أوقع به أذية، أو إن كان الرجل ساذجاً، أو صادقاً، إن كان نكد الطبع أو شريراً أو

مثالياً، إن كان لديه دليل أو إن كان لديه من يؤازره، إن كان مجنوناً، أو إن كان شخصاً لا يبالي بما يصيبه. تصعب معرفة هذا، ثم إنه صار الآن غير مهم. لكن ذلك الرجل بدأ يقول أموراً قبيحة عن أشخاص بعينهم في مواقع السلطة ويتهمهم جهاراً بما يعرفه الناس جميعاً لكن أحداً لا يأتي على ذكره. أبلغوه بطريقة لطيفة أن عليه أن يستقيم، لكنه ظنهم خائفين منه فواصل فعل أمور ما كان فيها خير لأحد. ثم أرسلوا الجنود إليه فقيدوه وأتوا به إلى القصبة. حبسوه في القصبة وكتبوا استجوابات أقر بها هذا الرجل العاثر الحظ بذنوب كثيرة وأتى بنفسه على ذكر كلمات فيها إساءة إلى الدين والدولة والسلطان والوالي، ثم فسرت ذلك بأنه قال ما قاله نتيجة الغضب والحنق. بل اعترف أيضاً بأن له صلات مع المتمردين في كراايينا، وبأنه ساعدهم، وبأن بيته كان نقطة لقاء لرسلهم وأنصارهم. أرسلوه مع اعترافاته المكتوبة كلها إلى حيث الوزير في ترافنيك[1]*، لكنهم طعنوه بسيوفهم في الطريق حتى مات.. لأنه حاول الفرار! إن في وسع الناس أن يظنوا ما يريدون في محاولة الفرار تلك؛ فلعله حاول الفرار، ولعله لم يحاول الفرار!

على أية حال، كان الأمران سواء بالنسبة إليه، فلو لم يقتله الجنود لقتله الوزير. ما كان حسن ليخبرني بشيء عن هذا الرجل لولا تورط أخي في الأمر، فهو ليس أول من يصيبه هذا، ولن يكون الأخير. ما كان أخي على معرفة به؛ ومن المحتمل أنه لم يره أبداً وأن ذلك الرجل لم يسمع بوجود أخي. ما كان لمصيره أن يتغير أبداً حتى لو لم يتورط أخي في الأمر. ما من معرفة بينهما، فهما مختلفان، لكنهما متشابهان: ثمة شيء انتحاري في كل واحد منهما. ومن سوء حظ أخي أنه كان موظفاً لدى القاضي. من سوء حظه لأن القرب من أصحاب النفوذ خطير، ولأنه صعب. فبما أنه موظف موثوق هناك، كان أخي قادراً على الاطلاع على الوثائق السرية. لن يعرف أحد أبداً كيف صادف تلك الوثائق، فمن المؤكد أنهم لم يضعوها بين يديه. لا بد أنه وجدها مصادفة فكان ذلك أسوأ ما يمكن أن يصادفه.

«ماذا وجد؟»

---

(1) ترافنيك: بلدة واقعة وسط البوسنة على مسافة نحو تسعين كيلومتراً من سراييفو.

«وجد نصوص اعترافات الرجل مكتوبة قبل استجوابه، قبل حبسه، بل حتى قبل أن يأتوا به إلى القصبة. هنا مكمن الخطر والشؤم في ذلك الاكتشاف. هل تفهم ما أقول؟ لقد علموا مسبقاً ما سيقوله الرجل، وما سيعترف به، وما سيؤدي إلى مقتله. لا بأس.. ليس هذا أمراً غير مألوف. كانوا في عجلة من أمرهم وأرادوا إنهاء كل شيء سريعاً من غير أية مخاطرة. لو ترك ذلك الموظف الشاب الاستجواب المُعدّ مسبقاً حيث وجده لظل كل شيء على حاله. لو نسي ما رآه. لكنه لم يفعل ذلك. لست أدري ما فعله، فلعله عرض ما وجده على أحدهم، أو لعله قال شيئاً عنه. لعلهم أمسكوا به عندما كانت تلك الوثائق معه. على أية حال، فقد حبسوه. عرف أكثر مما ينبغي له أن يعرف».

أصغيت غير مصدق. ما هذا؟ أهو جنون؟ أهو الرعب الذي يطبق علينا في أسوأ أحلامنا؟ أهو الجانب المظلم في الحياة، الجانب الذي لا يحظى أكثر الناس أبداً حتى بلمحة منه؟ بدا أمراً غير قابل للتصديق أن يكون إنسانٌ قادراً على إدراك هذا كله. هل ظل الناس صامتين أمامي؟ هل همسوا به همساً خفيضاً لا أستطيع سماعه؟ هل كنت على استعداد مسبق لعدم تصديقه لأن من شأن هذا الاكتشاف أن يقتلعني من السكينة التي توصلت إليها وأن يدمر الصورة التي صنعتها، صورة عالَم ذي تناسب تام، عالم لي مكان فيه؟ حتى إن ظننت أنه ليس كاملاً، فقد آمنت أنَه عالم يمكن احتماله؛ فكيف لي الآن قبول أنه عالم ظالم؟ قد يشك أحد في صدق كلماتي فيسألني: كيف لرجل ناضج عاش بين الناس تلك السنين كلها معتقداً أنه قريب منهم، قادر على رؤية ما يخبئونه عن الآخرين، رجل ليس غبياً، ألا يعلم شيئاً عما هو جارٍ من حوله؟ كيف له ألا يعلم أمراً ليس قليل الأهمية أبداً؟ أهذا نفاق؟ أم هو العمى؟ أن يحلف المرء بالله كثيراً إثم؛ لولا هذا لأقسمت أني لم أعلم. لقد اعتبرت العدل ضرورة، والإثم احتمالاً. وكان هذا كله أكثر تعقيداً مما تحتمله أفكاري الساذجة عن الحياة، أفكاري التي تشكلت في العزلة والطاعة. لا بد من وفرة من مخيلة مظلمة كي أستطيع الدخول إلى هذه العلاقات المتشابكة التي قبِلتها من حيث هي صراع شاق مُشرِّف من أجل المعرفة المقدسة، مع أنه صراع غامض بعض الشيء. أم أن الناس قد أخفوا هذا

عني محاذرين التطرق إلى ذكر ما لا أحب سماعه؟ كان تصديق هذا صعباً. حتى في تلك الحالة كنت مستعداً لألا أصدق الأمر عندما أسمعه؛ على الأقل، مستعداً لألا أصدقه كله: أن أصدق هذا يعني أن أخاف حد الموت، أو أن أتصرف.. لست أملك حتى الكلمات اللازمة للتعبير عن الواجب المجهول الذي قد يلقيه ضميري على كاهلي. أعترف، وأنا لست خجلاً من هذا لأن صدق أفكاري يبرئني، بأن شخصية حسن نفسه قد هوّنت من أهمية الخبر الذي نقله إلي. لقد كان سليم النية، لكنه سطحي؛ صادقاً، لكنه أرعن؛ ثم إن مخيلته اللا مسؤولة قادرة على اختراع ما لا يعلمه إلا الله من حكايات، قادرة على إضافة كومة من ظنونه إلى حَبّة من الحقيقة. لم يعد من رحلته إلا منذ آونة قصيرة، فكيف استطاع أن يعلم هذا؟

سألته باحثاً عن أرض صلبة أقف عليها، «كيف علمت بالأمر؟»

قال بصوت هادئ كأنه توقع هذا السؤال، «علمت مصادفة».

«لعل هذا كله تخمين في تخمين.. كلام فارغ!»

«ليس تخميناً ولا كلاماً فارغاً».

«الرجل الذي قال لك هذا.. أهو في موقع يسمح له بأن يعلم».

«لا يعلم شيئاً غير ما سمعته مني».

«من هو؟»

«لا أستطيع إخبارك؛ وليس هذا مهماً. لن يخبرك شيئاً أكثر من هذا. فماذا تريد أن تسمع منه أيضاً».

«لا شيء».

«كان مذعوراً إلى حد جعلني حزيناً عليه».

«فلماذا أخبرك؟»

«لست متأكداً من السبب. لعله أراد تخليص نفسه من العبء. حتى لا يخنقه ما علمه».

كنت شديد الاضطراب لِما سمعت فما استطعت استجماع أفكاري، ما استطعت استجماعها أبداً. كانت أفكاري طائرةً مثلما تطير العصافير هاربة من حريق. اختبأتْ في جحور مظلمة مثلما تختبئ طيور الحجل. ظهرت أمام عيني صورة مرعبة، صورة شر قادر على كل شيء.

قلت، «هذا مخيف. هذا مخيف إلى حد لا أكاد معه تصديقه. ليتك ما أخبرتني».

«ليتني ما أخبرتك! لا بأس، فليكن الأمر كأني لم أقل لك شيئاً، إن كان ما قلته غير نافع لك».

«هذا غير ممكن. لا يوجد الشيء إلى أن يقال».

«لا يمكن أن يقال شيء قبل أن يوجد. السؤال الوحيد هو إن كان من الواجب قول أي شيء. لو علمت كم سيكون هذا محزناً لك للزمت الصمت. لماذا أنت خائف من الحقيقة؟»

«ما نفعها لي؟»

قال: «لست أدري. ثم.. لعل هذا ليس هو الحقيقة».

«فات أوان تراجعك. لا نستطيع استرجاع ما قيل. هل أعرف الرجل الذي قال لك هذا؟»

نظر إلي دهشاً.

«وددت مساعدتك. توقعت أن تفكر في طريقة تنقذ بها أخاك عندما يصير ذلك ممكناً، فور أن يصير ذلك ممكناً. لكن الظاهر أنك غير قادر إلا على التفكير في ذلك التعس. بكل تأكيد، لا يستطيع النوم ليلاً لشدة خوفه. تبدو كأنك غير مبالٍ بأن تعرف شيئاً عن أي أمر آخر».

لعل ذلك كان صحيحاً. ولعله كان محقاً! لعلي كنت أحاول تهوين العبء المخيف بأن أفكر في أمر ثانوي. لكن، ما كان ينبغي أن نتحدث هكذا.. بدا لي أنني عارف كيف كان ينبغي أن نتحدث. سؤال طفولي سخيف كان على رأس لساني: ما الذي عليّ فعله، أيها الرجل الطيب؟ أنت يا من تجاهلت تحذيرات عقلك ومضيت لرؤية رجل آخر، قل لي، ماذا ينبغي أن أفعل؟ أدهشني ما قلته لي

فصرت كأني دُفعت إلى حافة هاوية لا أريد النظر إليها. أريد أن أعود إلى ما كنته، أو ألا أعود؛ أريد أن أنقذ إيماني بالعالم، لكن هذا مستحيل إلى أن يزول سوء الفهم هذا، سوء الفهم الذي هو مخيف، الذي هو قاتل. قل لي.. من أين أبدأ؟

في ذلك الوقت، كنت غير مدرك أني غير موافق على حدوث هذا التمزق، وأني حاولت ملحاً أن أبقي على صلات مستقرة منذ عهد بعيد غير عارف أن هذا ليس إلا إلقائي اللوم على أخي.. فلا بد أن يكون هناك شخص مذنب. لو بدأت أتكلم لكففت عن الاختباء عن حسن، وعن نفسي. لم أدر ما سيقع؛ لعله كان غير قادر على إخباري بكل شيء. ولعله ما كان قادراً على مساعدتي أبداً. لكن ذلك التشنج في روحي كان يمكن أن يتوقف؛ وكان يمكن ألا أظل وحيداً. لعله كان ممكناً أن أتجنب الاتجاه الذي اتخذته حياته بعد ذلك لو أني قبلت هذه التجربة الأكثر كبراً، الأشد مرارة، لو أني لم أحبس نفسي داخل ألمي. لكن ذلك، حتى ذلك نفسه، ما كان أكيداً لأن مقاصدنا كانت متعارضة تعارضاً تاماً: أراد أن ينقذ رجلاً، في حين حاولت أن أنقذ فكرة. على أقل تقدير، ذلك ما ظننته في ما بعد. وأما في تلك اللحظة، فقد كنت مشلولاً، وكنت في مرارة. استأت منه في لا وعيي لأنه كان عليه أن يخبرني ما لا أريد معرفته. كنت مدركاً أن علي أن أفعل كل ما يلزم فعله حتى تظهر الحقيقة. الآن، صار عليّ فعل هذا. لو لم أعرف، لاستطعت الانتظار. لو لم أعرف، لكان جهلي حماية لي. وأما الآن، فما عاد لي من خيار.. صرت محكوماً بالحقيقة.

منشغل الذهن بقلقي مما سيأتي، مما سيأتي غداً، مما سيأتي بعد يومين، مما سيأتي في المستقبل القريب، فكرت في أن افتراقنا سيكون مؤلماً. أيذهب من غير أية كلمة؟ أم أن علينا أن نتحدث في أمر عادي جداً؟ أعلينا أن نفترق فراقاً بارداً، غاضباً؟ عجزت عن الاهتداء إلى كلمات مناسبة وإلى موقف مناسب لأن المشكلة مشكلتي: حتى تلك اللحظة، كنت على الدوام عارفاً ما أقول، وكيف أتصرف. وأما بعد هذا الحديث، فقد أحسست قدراً من القلق والاضطراب، أحسست نذر شؤم وعدم رضا لأننا لم نقل كل شيء. لكني تمالكت نفسي عن غير قصد مني، تمالكت نفسي فلم أُبد له حنقاً ولا برودة لأني لم أدرِ إن كنت سأجد

نفسي في حاجة إلى هذا الرجل من جديد. أقول: «عن غير قصد مني» لأن تلك ما كانت مناورة واعية من جانبي. ما كانت لدي أية فكرة عما يمكن أن ينفعني به حسن لأني لا أعلم ما ينفعني؛ لكن احتراسي حذرني من تضييعه. ثم إني قد أكون في حاجة إلى حسن نواياه من أجل الترتيب الذي اتفقت عليه مع أخته. من هنا، أنهيت حديثنا على نحو يسمح باستئنافه مرة أخرى، أو لا يسمح باستئنافه، فهذا ما تقرره مشيئة الله.

تكلمت محاولاً جعل صوتي يبدو لطيفاً:

«تأخر الوقت. لا بد أنك مرهق».

فاجأني بإجابة وفعلٍ كانا غير منتظرين، لكنهما طبيعيان.. بسيطان إلى حد جعلهما يبدوان غريبين.

وضع أصابعه الطويلة القوية على يدي المستقرة على ظهر المقعد. مسني مساً فحسب، مسني بما يكفي لأن أحس النضارة البهيجة في جلده وفي رؤوس أصابعه. قال لي بصوت هادئ خفيض عميق، ذلك الصوت الذي يستخدمه الناس عادة ـ على حد علمي ـ عندما يعلنون حبهم، «الظاهر أنني جرحتك، ليس هذا ما أردت فعله. ظننتك تعلم المزيد عن الناس، وعن العالم، ظننتك تعلم أكثر كثيراً. كان علي أن أكلمك بطريقة مختلفة».

«كيف تستطيع أن تكلمني بطريقة مختلفة؟»

«لست أدري.. مثلما يكلم المرء طفلاً».

لعل هذه الكلمات ما كانت تعني شيئاً، لكن طريقة نطقه إياها صدمتني. كان صوته مثل نغمات عميقة منبعثة من ناي من صلصال، واضحة، من غير نغمات زائدة ومن غير أنفاس متقطعة. ابتسم لي آسفاً، ابتسم بسبب شيء كان ينبغي أن يحدث، لكنه لم يحدث. كانت ابتسامته رقيقة، ذكية، مهدئة. ولأول مرة، جالت في ذهني ـ وكان ذلك مفاجئاً ـ فكرة أن أمراً شديد النضج والامتلاء يحيى فيه، أمراً لا يكشف عن نفسه إلا لِماماً، إلا عندما يقلّ احتراسه. في ضياء القمر الذي يفيض علينا قلقاً، في لحظات صعبة، تذكرت صوته الموحي بالثقة، وابتسامته الهادئة، وتلك الساعة قبل منتصف الليل، حين تُكشف الأسرار. ظل هذا كله في

ذاكرتي نتيجة أمر بالغ القوة لكنه غير ملموس كله. لعل ذلك لأنه بدا لي فجأة على نحو غير متوقع أبداً، أنني رأيت رجلاً يبدي جانباً من نفسه لم يره قبلي أحد أبداً. لم أدر إن كان هذا وليد ساعته أم أمراً ظهر وقتها وطرح عنه جلده مثلما تطرح الأفعى جلدها. لم أدر حتى ما كشفه لي، لكنني كنت مقتنعاً بأن اللحظة استثنائية. فكرت أيضاً في إمكانية أن يكون اضطرابي قد شوّه كل كلمة وكل حركة وكل إحساس؛ لكن الذكرى ظلت باقية.

ثم نهض واقفاً بعد أن عرف كيف يحل العقد الغريبة بيننا بطريقة بارعة. لقد عثر على الكلمة الصحيحة التي كان لها صوت سارٌّ، صوت باقٍ، فصار الآن قادراً على الذهاب. مشاعري الغريبة قبل لحظات معدودة من انصرافه حلت محلها نوايا مخجلة، نوايا من نوع عجيب، لا لأنها ظهرت بل لأنها أتت على الفور عقب ذلك القدر من الحماسة.

لحظة انصرافه، أخرج من جيبه حزمة صغيرة ووضعها على المقعد. قال لي، «هذا من أجلك».

ثم ذهب.

رافقته حتى الباب. ثم سرت خلفه عندما اختفى في المنعطف. سرت بخطوات هادئة، سرت قريباً من الجدران والأسيجة، متأهباً للتوقف إن هو استدار، لن يحسبني إلا ظلاً. اختفى في ظلمة الشوارع. تبعته مستهدياً بصوت خطواته. خطواتي كانت صامتة، لينة، سرية. لم أسر هكذا من قبل. عند كل زاوية أنارها ضوء القمر، كنت ألمح ثوبه الأزرق وقامته الطويلة. تبعته فبدا لي أننا سائران في دوائر. بعد ذلك، وبقدر من الخيبة، أدركت أن تلك الدوائر الخداعة كانت تضيق وتضيق من حول مكان مألوف. توقفت عند المسجد. نقر بأصابعه على باب فناء بيته ففتح له أحدهم كأنه كان في انتظاره. لو دخل بيتاً آخر لظننت أنه يزور الرجل الذي رفض الكشف لي عن اسمه. وأما هكذا، فهو لا يعلم شيئاً.

عدت إلى التكية متعباً، لكن ذلك ما كان تعب الجسد. وجدت هدية حسن على المقعد: كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني في غلاف مراكشي ثمين عند زواياه أربعة طيور. فوجئت عندما وجدت أربعة طيور أخرى مطرزة على منديل الحرير الذي كان الكتاب فيه. ما كان هذا مجرد شيء التقطه من أجلي في طريقه.

لقد ذكرت أبا الفرج الأصفهاني ذات مرة في حديث جرى بيننا؛ وكنت أتذكر شبابي. ذكرته، ثم نسيته. وهو لم ينس.

جلست على المقعد ووضعت الكتاب في حجري. داعبت أصابعي الجلد المراكشي الصقيل. نظرت إلى النهر الذي أماته ضوء القمر. أصغيت إلى دقات الساعة، إلى الدقات الآتية من برج الساعة، وحلت علي سكينة غريبة.. أردت أن أبكي. كانت تلك أول مرة منذ ذلك العيد البعيد في طفولتي، العيد الذي ضاع من الذاكرة، تأتيني هدية من واحد من الناس.. أول مرة يفكر فيّ واحد من الناس. لقد انتبه إلى أمر قلته فيما مضى، ثم تذكره في مكان من الأماكن في أرض نائية.

كان إحساساً غير معتاد أبداً: كأن ذلك صبحٌ مشمس نضر، كأنني عدت إلى دياري بعد رحيل طويل. كان ذلك كأن بهجة شديدة حلّت علي؛ كان ذلك كأن ظلمة قد انقشعت عني.

دقت الساعة معلنة انتصاف الليل، وكان ممكناً سماع الحراس الليليين يتصايحون في البعيد كأنهم من طيور الليل. كان الوقت يمضي، لكني جلست حائراً، دهشاً. حيرني كتاب أبي الفرج والطيور الأربعة. لقد رآها على منديل رقيق مصنوع من القطن كان كل ما بقي لي من بيتنا. منذ عهد بعيد، جلب لي أبي بضع كعكات قاسية في قطعة قماش قروية. كان منديلٌ أكثر جمالاً مفروداً فوق ذلك القماش الخشن. وقد تذكر حسن هذا.

أمر يصعب تصديقه، لكنه حقيقي: تأثرت نفسي، تأثرت عميقاً. تأثرت لأن أحدهم تذكرني. تذكرني من غير سبب، من غير أية حاجة، تذكر هذا لطيبة قلبه.. أو لعله أراده نكتة. هكذا ترون كيف يمكن شراء درويش تصلب منذ أمد بعيد وحسِب أنه تجاوز نقاط ضعفه الصغيرة، كيف يمكن شراؤه بقدر من الاهتمام. لكن الظاهر أن نقاط الضعف تلك ليس سهلاً أن تموت. ثم إنها ليست صغيرة!

انقضى الليل؛ وكنت جالساً في حبور، في حبور غبي -حتى في عيني- نتيجة إثارةِ ما كنت قادراً على تفسيرها. لكني لم أرد أن تذهب عني.

-٦-

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ - قرآن كريم

خرجت في الصباح إلى حقل وارتقيت تلاً مزهراً كله. وقفت عند شجرة فاكهة خفيضة. وجهي قريب من عناقيد زهورها وأوراقها وكؤوسها وبتلاتها - ألفُ عجيبة حية مستعدة للإلقاح. أحسست حلاوة ذلك النمو، حلاوته التي تغسل السموم وجريان النسغ في عروق خفية لا عد لها. وعلى غرار الليلة السابقة، تمنيت أن تستحيل ذراعي غصنين، وأن يجري في عروقي دم الأشجار الذي من غير لون، وأن أُزهر، وأن أذبل من غير ألم. كان تكرار رغبتي هذه هو ما أقنعني بفداحة عبثي.

ضجت الغابة بضربات فأس رنانة تأتي على فواصل منتظمة متزامنة مع حركة ذراعين قويتين. وبعد كل ضربة، يحل صمت قصير. على الرغم من بعد المسافة، كنت قادراً على الإحساس بأن الفأس مسنونة وبأن لها حد عريض. كانت تغوص في الخشب، تعضه غاضبة، وتقطع لب الشجرة من غير رحمة. أطلق طائر الوقوق أغنيته، مرثيته المكونة من مقطعين اثنين.. أغنية تبلغ لا مبالاتها حد الكآبة كأنها القدر. صوت ينادي ـ صوت امرأة ـ نداءً مرحاً، حاد النبرة، غير مفهوم. كانت صبيةً لوحتها شمس الربيع. كانت ضاحكة. ما استطعت رؤيتها. استدرت صوب الصوت الغض كمن يتخذ جهة القبلة. لكني كنت عارفاً كل شيء عنها. وحدها هذه الأصوات الثلاثة في صمت الصباح الربيعي، في الفضاء الشاسع في عالم غريب. أغمضت عيني مستمتعاً بحلاوة رائحة الطلع، مصغياً: ثلاثة أصوات بسيطة بساطة تامة. ثم عشت لحظة نسيان عجيبة. ما كانت ذكرى، بل وجوداً في زمان غير الزمان، في زمان انقضى منذ عهد بعيد؛ ما عرف شيء من ذاتي الحاضرة وجوداً آنذاك. كان إدراكاً خفيفاً ماتعاً للحياة، توافقاً راعشاً مع كل شيء من حولي. علمت أن الفأس فأس أبي، وأن الذراعين ذراعاه القويتان تهويان

في الغابة فوق البيت. عرفت صوت الوقوق أيضاً، ما أبصرته يوماً، لكن أصداء أغنيته تردد قادمة من المكان عينه، دائماً. وعرفت الفتاة. كانت في السادسة عشرة. رأيتها عبر زمان طويل لا آخر له وكأن قروناً قد انقضت، لكني لم أنس شيئاً، لم أنس الفجر الذهبي الرقيق في شفتيها الباسمتين، ولا خصرها الدقيق الذي تستطيع كفاك الإحاطة به. شذى الأعشاب البرية عليها لم يخبُ بعد هذه السنين كلها. فمن الذين تناديه الفتاة عبر الزمان؟ ما كنت بقادر على الاستجابة إلى ندائها؛ وما كنت بقادر على العودة إليها.

أيقظتني مقابلة حية من سحر الزمان البعيد هذا. صبي مقترب على الدرب، سائر في اتجاهي يقطف الأزهار ويرميها من فوق رأسه ويقذف الطيور بكتل من تراب ويصيح بكلمات غير مفهومة، كلمات بلغة من عنده. كان فرحاً، خليّ البال كأنه قط صغير. صمت لما رآني والتزم حافة الدرب البعيدة عني. صار وجهه جاداً. ما كنت منتمياً إلى عالمه.

قابلت صبياً مثله منذ سنين كثيرة، على درب غير هذه الدرب، في مكان غير هذا المكان. ما كان عندي سبب يدعوني إلى تذكر هذا أو إلى أية مقارنة بين الصبيين. لكني تذكرت ذلك الصبي، تذكرته على أية حال. أظنني تذكرت لأن ذلك اليوم كان منذوراً للذكرى، أو لأني كنت يومها عند مفترق طرق في حياتي، مثلما أنا الآن؛ أو لأن كلا الصبيين ممتلئ الجسم، سارحاً في عالمه، راضٍ عن نفسه في تلك البرّية الخالية.. ولأنهما، كليهما، مرا بي جادّين، حانقين، كأني خنقت سعادتهما. سألت الصبي، الذي كانت عيناه مثل زهرتين من أزهار البامبو، السؤال نفسه الذي طرحته على الصبي الآخر منذ زمن بعيد.. سؤالي كان قديماً، بدا كئيباً، مع أن الصبي ما كان مدركاً ذلك.

شاء الحظ الحسن أن يتخذ حديثنا مجرى مختلفاً جداً عن مجرى الحديث القديم. دوّنته كي ينعشني، لا لأية غاية أخرى، تماماً مثلما يقف مسافر متعب أمام نبع بارد.

«من أنت؟»

توقف ونظر إلي. ما كانت في نظرته أية مودة، «هذا ليس من شأنك».

«هل تذهب إلى المكتب؟»

«كففت عن الذهاب. ضربني الخوجة يوم أمس».

«ضربك لمصلحتك أنت».

«إن كان هذا صحيحاً، فعليّ إذاً ألا أتوقف عن ضرب الآخرين. يضربنا الخوجة على مؤخراتنا. تكون كلمة واحدة نقولها كافية لأن تصير مؤخراتنا زرقاء كالباذنجان».

«لا تستخدم كلمات غير مهذبة!».

«أترى حقاً أن كلمة باذنجان غير مهذبة».

«أنت شيطان صغير».

«لا تقل كلمات غير مهذبة، يا أفندي».

«هل تكلمت بهذه الحرية يوم أمس؟»

«كنت حتى الأمس طبل الخوجة. وأنا اليوم مثل عصفور. فليحاول أحد أن يضربني الآن!»

«وما رأي والدك؟»

«يقول أبي: على أية حال، لن تصير عالماً في يوم من الأيام. أنت قادر على الفلاحة سواء أأجدت القراءة والكتابة أم لم تُجدهما. الأرض في انتظارك. لن أتركها لأحد غيرك. وأما عن الضرب، فأنا قادر على ضربك أيضاً!»

«أتحب أن أكلم أباك؟ سوف آخذك إلى القصبة حيث تذهب إلى المدرسة وتصير عالماً».

قلت هذا للصبي الآخر، قلته منذ زمن بعيد. هو الآن درويش في التكية. لكن هذا الصبي كان مختلفاً. اختفت من وجهه معالم البهجة وحل محلها تعبير كره. نظر إلي نظرة عداء، نظر برهة، لاح عليه ارتباك غاضب، ثم لم يلبث أن انحنى صوب الأرض فالتقط حجراً كان في الطريق.

قال لي متوعداً، «أبي هناك، يحرث الأرض. اذهب وقل له هذا.. إن كنت تجرؤ».

لعله اعتزم حقاً أن يقذفني بذلك الحجر!.. أو لعله هم بالجري بين التلال باكياً. كان أكثر ذكاء من الصبي الآخر.

قلت محاولاً تهدئته، «لا! لا يستطيع أحد إرغامك على الذهاب. لعل من الأفضل أن تظل هنا».

ظل واقفاً في مكانه، حائراً، لكن يده لم تفلت الحجر.

مضيت في سبيلي وتجولت بضع دقائق. لم يتحرك الصبي من حيث كان واقفاً كأنه حاجز بين أبيه واقتراحي، كأنه مذعور، مرتاب. لم يرم الحجر بعيداً في حقل القمح ويجري صوب أبيه إلا بعد أن ابتعدت عنه كثيراً، بعد انتفاء أي سبب لخوفه.

عدت إلى مزاجي الكالح الكئيب.

فتحت لي البوابة امرأة قصيرة القامة. تظاهرت بأنها تحاول ستر وجهها بخمارها. أدخلتني فناء الدار. قالت لي إنهم هناك، ثلاثة حمقى يحاولون أن يمسكوا بهيمة أصابها الجنون. قالت لي إن في وسعي أن أذهب للفرجة عليهم، إن أردت، أو أنتظر هنا إلى أن تذهب إلى حسن فتخبره ثم تعود إليّ بما يقوله لها.. هذا إن قال لها شيئاً لأنه اليوم ليس شديد الميل إلى الكلام.

قلت لها إنني سأذهب إليهم، فأغلقت المرأة البوابة ودخلتْ البيت.

في ساحة كبيرة خلف البيت، ساحة معشبة مفتوحة من حولها أشجار نخيل، رأيت اثنين من معاوني حسن يحاولان أن يمسكا حصاناً فتياً. كان حسن واقفاً في تلك الساحة، عند السور، وكان يتابعهما بنظرة هادئة من غير أن يقول لهما شيئاً ومن غير أن يستحثهما بصرخات سريعة أو سباب.

لم أدخل الساحة المعشبة حيث كانت كتل من الطين تتطاير من تحت حوافر الحصان غير المروض.

كان المعاونان يتناوبان على الاقتراب من الحصان. أكبرهما سناً قصير القامة، متين البنية؛ وصغيرهما رشيق طويل القامة. كان غريباً أنهما لم يحاولا إمساك الحصان معاً. لو فعلا ذلك، لكان التمكن منه سهلاً. وكان أمراً غريباً أيضاً بقاء حسن صامتاً وتركه إياهما يستنفدان ما لديهما من قوة.

كان الحصان واقفاً وسط الساحة، أسود اللون، لامعاً، ممتلئ الجسم، رشيق القوائم، دقيق المفاصل.. كان واقفاً وسط الساحة غاضباً، منخراه الورديان مرتجفان، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، وجلده المشدود مرتعش كأن أمواجاً دقيقة تجري فيه.

اقترب المعاون الأكبر سناً من الحصان، اقترب حذراً كأنه يخفي رأسه بين كتفيه العريضتين وقد توتر جسده كله. لم يحاول أية كلمات أو حركات لتهدئة الحصان؛ لقد قبل أنهما سيكونان خصمين. قفز قفزة مفاجئة محاولاً إمساكه من رقبته ومن لبدته، واثقاً من قوته. بدا على الحصان أنه سيظل واقفاً في مكانه من غير حركة، لكنه استدار استدارة مفاجئة، استدار بسرعة البرق. انحرف الرجل كأنه كان متوقعاً ذلك، ثم اندفع منقضاً على الحصان من الجانب الآخر وأمسك بشعر لبدته الطويل. فوجئ الحصان فتوقف ثم بدأ يجر الرجل معه محاولا تحرير نفسه، لكن الرجل ظل قابضاً على لبدته، ولم تترك يداه القويتان رقبة الحصان الرشيقة. بدا أنه نجح في إخضاعه؛ وبدا أشبه بمعجزة أن تستطيع قوة الإنسان ترويض تلك الكتلة من العضلات المشدودة. وقفا معاً من غير حركة كأنهما مستنفدين، كأنهما صارا الآن وحدة لا انفصال فيها، أو كأن أياً منهما ما كان عارفاً ما ينبغي فعله بعد ذلك. وبعد ذلك، انتفض الحصان انتفاضة غير متوقعة فحرر نفسه من قبضة الرجل.

تكرر الأمر نفسه مع المعاون الأصغر. كان أكثر حذراً عند اقترابه من الحصان، أكثر خبثاً.. حاول خداعه بكفيه المفتوحتين، بل حتى بوجهه اللطيف وبابتسامة لا معنى لها. لكن الحصان انتظر إلى أن صار الرجل على مسافة منه فاستدار وأوقعه أرضاً عندما اصطدم جسده به.

أطلق حسن سباباً فاحشاً. ضحك المعاون الأصغر سناً، وشتم الكبير الحصان قائلاً إنه كافر متوحش. أجابه حسن: «بل أنت الكافر».

رحت أرقب كيف يتابع هذه المعركة هادئاً مثلما يتابع مباراة في المصارعة، أو مثلما يتابع مبارزة. ما كان مبالياً بأن يفلحا في الإمساك بالحصان مع أن البيطار كان منتظراً عند السور.. مثلما كنت منتظراً. لم يرد شيئاً غير رؤية كيف

يحاولان ويفشلان. لم يسد إليهما نصيحة، ولم يقاطع لعبتهما الخطيرة. لكن جديته غير المعتادة فاجأتني أكثر مما سبق. بل إنه كان متجهماً، غير راضٍ عن أمر من الأمور، عن أمر لم أعلمه. لا أستطيع الاقتناع بأنه متجهم نتيجة ما أظهره معاوناه من قلة حيلة. أمر غريب أن يترك هذا يجري أمامه تلك المدة كلها! بدا لي الأمر قسوة لا مبرر لها، قسوة لعلها شائعة بينهم. مع ذلك، بدت لي قسوة لا معنى لها. ثم إن ذلك السلوك غيّر انطباعي عنه. لم أر الرجل اللطيف المبتهج الذي عرفته! لعله لا يكون كذلك إلا عند وجوده مع من هم في مثل سويته، لكنه يصير مثل الآخرين عند تعامله مع خدمه. لم يتغير حتى عندما أبصرني وألقى علي تحية مقتضبة. لم ينه عذاب الرجلين، ولم يبد أي منهما احتجاجاً.

لحسن الحظ، أصاب الحصان فخذ الرجل الأكبر سناً فأجابه بلكمة شديدة على أضلاعه.

صاح حسن، «أنت لست أقل جنوناً من هذا الحصان! اخرجا! كلاكما!»

من غير أن ينطق كلمة واحدة، سار الرجل الأكبر سناً مبتعداً عن الحصان، كان يعرج في مشيته.

انتظرهما إلى بلغا السور، ثم تقدم من الحصان بطيئاً. راح يتحرك من حوله ويقترب من رأسه ويغير موضعه بكل حذر، من غير استعجال، من غير ما أية حركة مفاجئة، من غير ما أية محاولة لخداعه. ظل كذلك إلى أن توقف الحصان وقد هدّأه أمر لا أعلمه.. لعله هدأ عندما رأى حركات حسن الهادئة، أو لعل السبب في ذلك صوته وكلماته غير المفهومة التي ظلت متدفقة من فمه من غير انقطاع مثل خرير الماء في جدول. لعل نظرة حسن الثابتة هدأته، أو عدم إبدائه أي خوف أو غضب. وقف الحصان منتظراً، وتركه يقترب منه. ظلت قلة الثقة بادية عليه، وظل تنفسه ثقيلاً عبر منخريه المتسعين؛ إلا أن حسن صار إلى جواره. ظل يهدئه بهمسه الخفيض. مد يده وبدأ يداعب جبهته. من جديد، ومن غير تعجل أو فراغ صبر، كأنه لم يلاحظ كيف راح الحصان يهز رأسه، مر حسن بيده على خطمه بحركة متأنية، ثم عاد إلى جبته، ثم إلى رقبته. ثم أمسك بشعر لبدته وقاده إلى السياج. قال لمعاونيه، «ها هو. لعلكما تكونان الآن قادرين على إنهاء الأمر».

أتى إلي. «هل أنت منتظر منذ زمن طويل. يسعدني أنك أتيت. فلندخل البيت».

«لا أراك في مزاج رائق اليوم».

«ينتابني أحياناً مزاج أسوأ من هذا».

«أستطيع الذهاب إن كنت أزعجك».

«لماذا؟! لو لم تأت لذهبت باحثاً عنك».

«هل أنت غاضب من معاونيك؟»

«صحيح. رجوت أن يموت واحد منهما».

لم أجبه بشيء.

ضحك حسن وقال: «إجابة درويش حقيقية: الصمت! نعم، أنا في مزاج سيئ. وأنا أقول أموراً لا معنى لها. سامحني».

لقد عرضت عليه أن أذهب. لكني أردته أن يستبقيني: لو لم يستبقني، لما استطعت الذهاب، ولا جرؤت على العودة إلى الشوارع. أيضاً، ما خرجت هذا الصباح متجولاً من غير سبب. كنت راغباً في رؤيته؛ وكنت في حاجة إلى سماع كلماته المهدئة وإلى سماع ثقته اللطيفة، فهذا ما يلطِّف العواصف في داخلي.. تماماً مثلما تستولي على المرء، بعض الأحيان، رغبة في الجلوس على مقربة من نهر ضخم هادئ كي تهدِّئ نفسه تلك القوة المسالمة في جريانها المستقر المتواصل. لكني أتيت فوجدت رجلاً مختلفاً، رجلاً غريباً. أسفت لهذا، وأحسست نوعاً من الخيانة. ما كانت لدي أية فكرة عما يمكن لما يزعج الناس أن يكون قادراً عليه.

لكنه كان قادراً على ضبط نفسه، أو أن طبيعته المبتهجة كانت لا تطيق احتمال دوام الغضب زمناً طويلاً. شيئاً فشيئاً، صار الرجل الذي جئت آملاً أن أجده هنا. أدخلني غرفة فسيحة لها نوافذ على امتداد جدار كامل من جدرانها. كشفت لي تلك النوافذ عن نصف قبة السماء. فاجأني اتساع تلك الغرفة الصيفية وما فيها من أرائك ومن آيات قرآنية في لوحات مؤطرة على الجدران.. الحفر على الخشب في باب الخزانة، وكثرة السجاد: مجموعة كاملة من نفائس وأسباب راحة جللها الغبار لأن ما من أحد يعتني بها. مثل حاله.. هكذا قلت في نفسي. كنت أفضل نظام الدراويش الصارم: ينبغي أن يكون لكل شيء مكانه مثل كل شيء آخر في

العالم. وعلى الإنسان أن يخلق نظاماً حتى لا يصيبه الجنون. لكن ما فاجأني كان أن إهماله لم يزعجني البتة بل بدا لي كأنه رغبة جارفة في استخدام الأشياء من غير خدمتها، من غير المبالغة في احترامها. لكن ذلك كان أمراً لا أستطيعه.

ضحك، وخلع عنه دثاره وحذائه. وضع أسلحته. لقد اعتاد قلة النظام في الأماكن التي ينزل بها، وصار لا يلاحظ الأمر إلا عندما يراه أحدٌ غيره، عندما يأتيه زائر. لكني كنت واثقاً من أن حاله كانت كذلك طيلة الوقت. كنت واثقاً أن هذا جزء من طبيعته غير المسؤولة، من طبيعته الفوضوية. قلت له مازحاً إن هذا ما يعجبني فيه، وإن عليه أن يظل دائماً هكذا. أصغى إلى ما قلت، إلى نكتي: بالضبط، كان مهملاً طيلة حياته مع أنه يحس أحياناً شيئاً من الاحترام إزاء النظام الذي يقيمه الآخرون. وأما عن نفسه، فهو لا يحس أدنى حاجة إليه وما عاد يفكر فيه أبداً. لقد حاول الأمر في لحظة من لحظات حياته، أرغم نفسه على ذلك، لكن من غير فائدة. كانت الأشياء كأنها خصوم له، كأنها لا تحترمه، أو كأنها ترفض أن تخضع له: كان غير قادر على ممارسة سلطته على أي شيء. بل إنه، في حقيقة الأمر، كان لديه شيء من خشية النظام. النظام حالة منتهية، قانون صارم، إنقاص لعدد الطرق الممكنة في الحياة، قناعة زائفة بأننا قادرون على إبقاء الحياة تحت سيطرتنا. لكن الحياة لا تفتأ تنزلق من بين أيدينا. كلما ازدادت محاولاتنا الرامية إلى القبض على ناصيتها، كلما ازدادت مخاتلةً.

كان أمراً غير مألوف حقاً ما رأيته من قدرة تاجر الخيول الخشن الذي رأيته قبل لحظات فقط على القفز بهذه السهولة كلها إلى حديث بعيد عن عمله كل البعد. لكني شاركته ذلك الحديث مسروراً. سألته: «لكن، كيف ينبغي لنا أن نعيش؟ من غير نظام؟ من غير غاية، من غير أية أهداف واعية نحاول الوصول إليها؟»

«لست أدري. سيكون أمراً حسناً إن استطعنا أن نحدد لأنفسنا غاية وأهدافاً. إن استطعنا وضع قواعد تشمل أحوال الحياة كلها، إن استطعنا إنشاء نظامنا المتخيَّل. لا صعوبة في ابتكار قواعد عامة إذا نظر المرء من فوق رؤوس الناس صوب السماء وصوب الأبدية. لكن، حاول تطبيق تلك المبادئ على حياة الناس

الحقيقيين ممن تعرفهم، ممن قد تحبهم. حاول تطبيقها من غير أن توقع الأذى بهم. يصعب كثيراً أن تنجح في هذا».

«ألا يحدد القرآن العلاقات كلها بين بني البشر؟ في وسعنا تطبيق روح مبادئ القرآن على كل حالة من الحالات».

«أتظن هذا؟ إذاً، عليك أن تحل هذه المعضلة. ليست معضلة نادرة، ولا هي غير معتادة، ولا هي غريبة عنا. معضلة نواجهها أينما قررنا أن نفتح أعيننا. فلنقل إن رجلاً وزوجته يعيشان معاً، والظاهر لنا أن كلاً منهما يحب الآخر. لكن، انتظر، فلنتكلم على أشخاص نعرفهم! سيكون هذا أكثر سهولة. لنفترض أنهما الشخصان اللذين رأيتهما قبل قليل، المرأة التي فتحت لك الباب وزوجها فضلي الذي هو الأكبر سناً بين معاونيّ الاثنين. إنهما يعيشان هنا، في جناح الخدم. يعيشان عيشة مريحة. يسافر الرجل معي ويكسب مالاً أكثر من حاجتهما. يأتي إليها بالهدايا من رحلاتنا، ويفرحه أن يراها سعيدة. وهي تعرف كيف تكون سعيدة، كأنها طفلة صغيرة. هو رجل أخرق، سخيف، قوي كالثور، طفولي بعض الشيء، لكنه يراعيها ويهتم بها إلى حد غير مألوف. يحبها، ويضيع من غيرها. يسرق مني القليل من أجلها، لكنه يحبني أيضاً، بل هو مستعد للموت من أجلي. يسعدني أنهما منسجمان معاً فأنا لا أطيق الأزواج الذين يتشاجرون. يهمني أمرهما فقد ساعدتهما في أن يكونا معاً، بل أظنني صرت متعلقاً بهما. لكن الفكرة كالتالي: ماذا يحدث إذا وجدت المرأة رجلاً آخر وأعطته سراً ما يخص زوجها وحده.. ما يخصه بحسب شرائع الله والبشر؟ وما الذي ينبغي فعله إن حدث هذا؟»

«هل حدث؟»

«نعم. ولقد رأيته.. رأيت معاوني الأصغر سناً. لا علم لزوجها بالأمر. يقول لنا القرآن: ارجموا الزانية! لكن عليك أن تقر معي بأن هذا أمر فات عليه الزمن. فماذا أفعل؟ أأخبر زوجها؟ أأهددها؟ أم أتخلص من الشاب؟ لن يكون أي شيء من هذا مجدياً».

«لكنك غير قادر على الاكتفاء بالتنحي جانباً ورؤيتهما يرتكبان الإثم».

«الأمر الأكثر صعوبة هو منع وقوع الإثم. الرجلان يحبانها. وهي تخاف زوجها وتحب الشاب. هو يعمل هنا أيضاً. خبيث بعض الشيء، لكنه ذكي ولديه مهارة شديدة في شؤون العمل إلى حد يجعلني قلقاً على استقامته. لكني في حاجة إليه. وهو يعيش هنا، معهما. زوجها هو من أتى به، فهو يمتّ إليه بصلة قرابة بعيدة. زوجها رجل طيب القلب. لا يشك في شيء. إن لديه ثقة بالناس؛ وهو راضٍ بسعادته. لا تريد زوجته أن يتغير أي شيء. تخشى أن تتخذ الأمور وجهة سيئة. لا يفصح الشاب عن شيء مما يحدث، لكنه غير راغب في الرحيل. أستطيع إرساله إلى مكان آخر، لكنها ستذهب إليه أيضاً. قالت لي هذا بنفسها. عندها، ستزداد الأمور سوءاً. أستطيع إرساله إلى بلدة أخرى، لكنها ستتبعه حيث يذهب. لن يكون أمراً حسناً إذا تغير أي شيء مما هو قائم الآن. إذا اكتشف زوجها الأمر، فسوف يقتله ويقتلها لأن ذلك الأحمق بنى حياته كلها من حولها. هذان الاثنان يختلسان سعادتهما اختلاساً ظانين أن تلك السعادة من حقهما. لكنهما لا يجرؤان على المضي في الأمر إلى نهاياته. ثم إن هذا ليس سهلاً عليهما: ليس سهلاً عليها لأن من واجبها أن تكون زوجة رجل لا تحبه؛ وليس سهلاً على الشاب لأنه يتخلى عنها للرجل الآخر كل ليلة. وأما الزوج فهو من ينعم بالسهولة كلها لأنه لا يعلم شيئاً، ولأنه لا وجود لشيء بالنسبة إليه. لكننا نحسَب طيلة الوقت أنه الطرف الأكثر تضرراً. ما عاد له أي حق فيها، فهو لا يعيش إلا على خوفها. وأنا أنتظر وأترك كل شيء ماضياً في سبيله لأني لا أجرؤ على فعل شيء. الأمر كله في غاية الهشاشة. إن فعلت شيئاً فسوف أقطع الخيوط الرقيقة التي تبقيهم معاً، وسوف أعجل وقوع المأساة التي تنتظرهم. إذاً.. صرت الآن مدركاً الأمر كله. اعثر على أية قاعدة تعجبك، وحل هذه المشكلة من أجلي! أقم نظامك! لكن من غير أن تودي بهم جميعاً. ففي تلك الحالة، لا تكون قد حققت شيئاً».

«لا يمكن أن ينتهي هذا إلا بمأساة. ألم تقلها بنفسك؟»

«أخشى أن الأمر كذلك. لكني غير راغب في استعجال وقوع المأساة».

«أنت تتكلم على العواقب، لا على الأسباب.. على أهمية المبادئ عندما يحدث أمر من الأمور، لا على إثم الناس الذي لا يلتزمون تلك المبادئ».

«الحياة أكبر من أي مبدأ. الأخلاق فكرة، لكن الحياة هي ما نعيشه. فكيف نستطيع جعلها متسقة مع الفكرة من غير أن نضر بها؟ من دمرتْ حياتهم محاولات منع وقوع الإثم أكثر ممن دمرها الإثم نفسه».

«إذاً، أيكون علينا أن نعيش في الإثم؟»

«لا. لكن المنع لا يفيد شيئاً. إنه ينشر النفاق والعجز الروحي».

«فماذا نفعل إذاً؟»

«لست أدري».

ضحك كأن هذا جعله سعيداً.

أتت المرأة بالشربات.

خشيت أن يبدأ حسن حديثاً معها. كان أكثر انفتاحاً واندفاعاً من أن يعرف كيف يخفي ما يفكر فيه. لحسن الحظ، فاجأني أنه لم يقل شيئاً. نظر إليها بابتسامة لا تكاد تبين، بابتسامة لا خبث فيها أبداً، بل رأيت فيها قدراً من اللطف المتعالي الذي قد نراه في نظرة المرء إلى إنسان يحبه، أو إلى طفل.

سألته بعد خروجها، «رأيتك تنظر إليها كأنك منحاز إلى صفها».

«صحيح. أنا في صفها. النساء محيّرات دائماً عندما يكنّ عاشقات. عندها، تصير المرأة أكثر ذكاء وتصميماً وسحراً، أكثر من أي وقت آخر. الرجال شاردو الأذهان، قساة، انفعاليون؛ أو هم عاطفيون إلى حد يجعلك تذرف الدمع عليهم. لكني في صفه أيضاً، أو فلأقل إنني في صف الرجلين أيضاً. إلى الجحيم بهم جميعاً!»

أحسست أسفاً عليه في تلك اللحظة، وحسدته أيضاً. لكن أياً من هاتين العاطفتين ما كانت شديدة القوة. أسفت عليه لأنه يهدم، عامداً متعمداً، أسلوب تفكير شاملاً آمناً كان قادراً على خدمة الإيمان من خلاله. وحسدته على ما يمتلك من حرية غير واضحة لي تماماً، لكني قادر على أن ألمسها. هي ليست حريتي، بل نقيض حريتي. وأما جهة أخرى، فقد بدت لي أشبه بنسمة هواء منعشة. فكرت هكذا نتيجة أثره علي، وقبلت بهذه التنازلات لعدم قدرتي على أن أخفي عن نفسي مدى سعادتي برؤيته. أحببت ابتسامته الشفافة الخفيفة التي تفتحت من

تلقاء نفسها. أحببت وجهه الذي لوحته الريح. وأحببت عينيه، عينيه الزرقاوين. كنت مسروراً بالسكينة المحيطة به كأنها نور، بل ربما أيضاً بتهوره الذي لا ادعاء فيه. في ملابسه غير المألوفة، وبنطلونه ذي اللون الأزرق، وحذائه الأصفر المصنوع من جلد الماعز، في قميصه الأبيض واسع الكمين وقبعته المسيحية، في جلده النظيف الناعم مثل حجارة صغيرة في مجرى جدول، في منكبيه العريضين وصدره القوي البائنة سمرته المعافاة من تحت ياقة قميصه المثلثة، كان في نظري زعيماً خارجاً على القانون جالساً في استراحة مع عصبته، أو قاطع طريق مسروراً لا يهاب نفسه ولا الآخرين. كان مثل وعل، مثل شجرة مزهرة، مثل هبة ريح نشطة. حاولت عبثاً أن أراه في ضوء مختلف مثلما كنت أراه أول الأمر. هالني كبر التضاد بينه وبيني.

كان حسن مثلي، يوماً من الأيام؛ أو كان يشبهني. لكن أمراً أصابه في لحظة من اللحظات فغير مجرى حياته، بل غير ذاته نفسها. حاولت أن أتخيل تحول الشيخ أحمد نور الدين تحولاً مماثلاً.. يرتحل في الطرقات، ويسكر في الحانات، يطلق الشتائم في الخانات، ويروّض خيولاً برية، ويتكلم عن النساء.. لكني لم أستطع تخيل هذا لأنه كان أمراً غريباً، مضحكاً، مستحيلاً. ينبغي أن أولد مرة أخرى وأعيش من غير أن أتعلم شيئاً مما أعرفه الآن. وددت أن أسأله عن الأمر؛ ربما لأني أحسست تغيراً في نفسي، أحسست شيئاً مختلفاً. أحسست ذلك التغير، وكنت خائفاً، لكني لم أدر كيف أطرح السؤال. سيبدو ذلك أمراً في غاية الغرابة لأنه لا يستطيع متابعة تسلسل أفكاري ولا الأسباب التي تجعلني في عجب من أمري.

بدأت بداية خاطئة: «هل أنت راضٍ عن عملك؟»

«نعم».

ضحك ونظر في عيني نظرة مرحة. رفض أن يراوغ في الأمر: «اعترفْ بالأمر.. لم يكن هذا ما أردت سؤالي عنه».

«أنت تحزر أفكار الناس، كأنك ساحر».

ابتسم وظل منتظراً؛ حررني من قيودي بانفتاحه وهدوئه ونظرته المشجعة. استفدت من تلك الفرصة التي كانت فرصة لي: إنه لا يكف عن منح الآخرين

فرصاً! قلت له: «كنت تفكر مثلي فيما مضى، مثلما نفكر، أو ما يشبه هذا. ليس تغيير المرء نفسه أمراً سهلاً لأن عليه أن ينبذ كل ما كانه من قبل، كل ما تعلمه، وكل ما اعتاده. وقد غيرت نفسك تغييراً تاماً. كأنك تعلمت المشي مرة أخرى، ونطقت كلماتك الأولى من جديد، واكتسبت عادات حياتك. لا بد أن يكون السبب في ذلك مهماً، بل مهماً جداً».

نظر إلي برهة. كانت نظرة اهتمام وانتباه غريبين كأني حملته عائداً به إلى ماضيه، أو إلى ألم منسي لم أدر عنه شيئاً. لكن ذلك التعبير المتحفز لم يلبث أن اختفى.

أقرّ بما قلته إقراراً هادئاً، «صحيح. لقد تغيرت. كنت مؤمناً بكل ما أنت مؤمن به، بل أظنني كنت أشد إيماناً منك. ثم قال لي طالب أفندي في سميرنا[1]*: عندما ترى شاباً يحاول التماس السماء، اجذبه من ساقه، وأعده إلى الأرض! وقد جذبني فأعادني إلى الأرض. قال لي موبخاً: قدرُك أن تعيش هنا! إذاً، عش هنا! عش بأحسن ما تستطيع، لكن من غير إحساس بالعار. فأن يسألك الله: لماذا لم تفعل ذلك؟ أفضل من أن يسألك: لماذا فعلته؟»

«وما أنت الآن؟»

«أنا جوّال في الطرق الفسيحة حيث ألتقي بشراً خيّرين وبشراً سيئين، بشراً لديهم مخاوف ومشكلات مثلما نرى لدى الناس هنا، بشراً لهم متعهم الصغيرة نفسها مثلما يكون للناس في كل مكان».

«وماذا يحدث إن سلك الجميع طريقك؟»

«سيكون العالم أكثر سعادة.. ربما».

أدركت أنه يحاول إنهاء ذلك الحديث.

«والآن، أنت لا يهمك شيء. أهذا كل ما استطعت تحقيقه؟»

«ولا حتى هذا».

(1) الاسم القديم لمدينة أزمير في تركيا.

كنت جالساً أكلمه، لكن انتباهي تراجع، وخبا اهتمامي أيضاً: توقعت من هذا الاعتراف أموراً كثيرة، لكني ما ظفرت بشيء. حالته استثنائية. هو شخص غريب الأطوار، بعض الشيء، أو رجل ذكي يخفي أفكاره، أو وغد يدافع عن نفسه دفاعاً مستميتاً. حتى يفعل المرء هذا، لا بد أن يكون بالغ القوة أو بالغ الضعف. وأنا لست هذا ولا ذاك. العالم يقيّدنا بأغلاله.. فكيف نستطيع كسرها؟ ولأية غاية؟ كيف للإنسان أن يستطيع العيش من غير معتقدات تنمو عليه مثل جلده وتصير غير قابلة للفصل عنه؟ كيف نستطيع العيش من غير ذاتك؟

ثم تذكرت أخي. تذكرت أين كنت قد اعتزمت الذهاب ذلك اليوم. تذكرت شدة خوفي من بقائي وحيداً.

«أتيت كي أشكرك على هديتك».

«لو أتيت لسبب آخر لأعجبني ذلك أكثر.. كي نتكلم في لا شيء، لا من أجل شيء».

منذ زمن بعيد، لم أعش إثارة كالتي عشتها الليلة الماضية. الأخيار في هذا العالم قلة نادرة.

كانت هذه مجاملة لا تتطلب شيئاً، لا من الرجل الذي قالها ولا من الرجل الذي سمعها. لكني تذكرت الليلة السابقة فبدا لي أنني أفكر هكذا حقاً وأن ما قلته كان غير كافٍ. أحسست رغبة في قول المزيد، في إشباع حاجة متنامية في داخلي، في ملء نفسي رقة ودفئاً. عبثاً حاول حسن إيقافي بأن راح يضحك، لكن التوقف ما عاد ممكناً. تعلقت به مثل المتعلق بحبل نجاة. كنت في حاجة إليه وقتها، في تلك اللحظة؛ وكنت في حاجة إلى أن يكون عزيزاً علي، أن يكون أفضل صديق ممكن. قلت له إني اعتزمت فعل كل أمر أستطيعه من أجل أخي، قريباً جداً، إما في اليوم التالي أو في عصر ذلك اليوم نفسه. كنت مؤمناً بأنني محق، وبأنني سألتمس العدل إلى أقصى حد أستطيعه. قد لا يكون هذا سهلاً مثلما تخيلت؛ ومن الممكن أن تظهر لي صعوبات (بل إني أواجه الصعوبات منذ الآن: ذهبت إلى المتسلم ذلك الصباح، ذهبت مرة أخرى، فرفض رؤيتي. قالوا لي من غير خجل إنه غير موجود، لكن الحقيقة أنه دخل مقره قبيل وصولي).. من

الممكن أن أكون وحيداً، وأن أكون في خطر؛ لذا، كان هذا ما جعلني آتي إليه. أحسست أننا متقاربان؛ وما كنت أريد شيئاً غير كلمات رقيقة. أردت أن أقول له ذلك، أن أزيحه عن صدري.

كان ما قلته صادقاً. كان حقيقة داخلية، حقيقة غير معتادة؛ وكان هذا ما أتى بي مع أني ما قلت في نفسي شيئاً من ذلك الكلام إلا وقتها، إلا أمامه. أحسست كأني منطلق في رحلة خطيرة، أو كأني سائر إلى معركة مميتة. نظرت إلى صديقي القديم الذي ظهر لي مع ظهور حظي العاثر حتى لا يكون ذلك الحظ العاثر مطلقاً. صحيح أنه ما كان قادراً على مساعدتي، وما كنت في حاجة إلى مساعدته، لكن خوفاً غريزياً منعني من تركه يذهب. لعلي في تلك اللحظة فقط، أمام ذلك الرجل رابط الجأش، المصغي إلي بكل هدوء مشدوداً إلى ما أحسه في صوتي من جدية وقلق خبيء، لعلي في تلك اللحظة فقط صرت مدركاً تمام الإدراك حجم الوحدة التي أحسستها ذلك الصباح أمام مقر المتسلم عندما راح الجنود يكذبون علي من غيرما أي اضطراب. كان ذلك إذلالاً، لكني لم أمتلك قوة كافية لأن أحس إهانة. أدهشني إدراكي أنني صرت مرتبطاً بأخي المدان ارتباطاً لا أستطيع التخلص منه. صار إنقاذي أخي يعني إنقاذي نفسي أيضاً. لكني لم أستطع أن أخفي عن نفسي ذلك الخواء البارد الذي استولى علي. كنت عالماً أن باب المتسلم ليس بالباب الوحيد الذي سيكون علي أن أدقه؛ وما كان المتسلم الرجل الوحيد الذي سيتعين عليه سماع مطالبتي. ثمة آخرون.. وبعضهم أفضل وأقوى من هذا المتغطرس المفتون بسلطته. لكني بقيت مرتجفاً خوفاً، وأتاني إحساس بضعف مفاجئ؛ مثلما يحس من يضل السبيل في عتمة الليل. هذا هو السبب الذي جعلني أحاول في لحظة ثقة ورغبة في العون أن أربط نفسي بحسن، أربطها بوثاق المحبة والصداقة. فاجأتني نفسي بهذه الحاجة الجديدة التي كانت عديمة المعنى بقدر ما كانت قوية. نجحت، وفعلت ذلك بأفضل ما يمكن أن يقودني ما في العجز الحقيقي من دهاء غير واعٍ، رغبة محمومة في إطفاء بعض من الظمأ العظيم الذي أنا واثق من أنه كان موجوداً عندي منذ عهد بعيد، مختفياً، مكتوماً. تذكرت تلك اللحظة بعد زمن طويل، وتذكرت كيف كانت مشاعري ملتهبة آنذاك.

وقد أحزنته أيضاً. كانت عيناه الزرقاوان مفتوحتين على اتساعهما ترقبانني كأنهما عرفتاني، كأنهما أخرجتاني من الغفلة ومنحتاني وجهاً وقسمات. تبدل تعبير وجهه المعتاد، تعبير البهجة المترفعة، فصار توتراً عصبياً، لكنه لم يلبث أن عاد رجلاً هادئاً متمالكاً نفسه عندما بدأ يكلمني، عاد رجلاً يستطيع أن يضبط مشاعره ويحرص ألا يعبر عنها بقوة زائدة مثلما يحدث للناس الذين ينسون حماستهم بكل سهولة. كانت حميّته أطول عمراً، فهي ليست شعلة تحترق وتستنفد نفسها بكلام انفعالي. كانت صورته تلك جديدة أيضاً. في وقت سابق من ذلك اليوم، بل قبل لحظات فحسب، اعتبرته شخصاً سطحياً فارغاً مع أني لا بد أن أكون قد فكرت فيه تفكيراً مختلفاً في دخيلة نفسي.. وإلا فلماذا أتيت إليه عندما احتجت سماع كلمة لطيفة ولم أذهب إلى غيره؟ كان هذا حبي الجديد الذي أدافع عنه، حماستي التي قرنتها به في غمرة ذعري من الوحدة. على أية حال، ما كانت لهذا أية أهمية.. فليكن حسن سطحياً، وليكن طائشاً، وليهدر قدراته غير المعتادة كيفما أراد إهدارها.. ما يزال رجلاً خيّراً؛ وهو يعرف سر أن يكون صديقاً. ما كنت عارفاً ذلك السر؛ ولسوف يكشفه لي. لعل هذا كان دعاءً ناجماً عن خوف عميق! أو لعله كان تعويذة ضد القوى الشريرة، نبوءة قبل بدء رحلة معاناة طويلة.

لكنا لا نعرف أبداً ما قد تحدثه كلماتنا في غيرنا من البشر، كلماتنا التي ليس لها معنى محدد إلا عندنا؛ بمعنى أنها لا تلبي غير احتياجاتنا. الظاهر أني أيقظت فيه رغبة دفينة في التدخل في حياة الآخرين. كان ذلك كأنه لا يكاد يطيق انتظار تعبيري المتفجر عن الصداقة كي يمد يده إلي، كي يعرض مساعدتي. بالنسبة إليه، ما كانت الكلمات كافية.

قال لي من غير تردد، «يسعدني أنك وضعت ثقتك فيّ؛ وسوف أساعدك بكل ما أستطيع».

على نحو مفاجئ، دبت الحياة في كل تفصيل من تفاصيله وكأن تلك التفاصيل كلها قد تأهبت لأمر من الأمور، لفعل، أو لاتقاء خطر. كان لا بد من إيقافه.

«لست باحثاً عن مساعدة. ولست أظنني في حاجة إليها».

«لا يمكن أن تكون المساعدة زائدة عن الحاجة. وأنت الآن في حاجة إليها أكثر من أي وقت آخر. علينا أن نخرجه من الحصن بأسرع ما يمكن. وأن نبعده عن هذا المكان».

نهض واقفاً، نشطاً، واتقدت عيناه ناراً شريرة. أأكون قد أيقظت فيه أمراً لا أعرفه؟

ما توقعت هذا العرض، ولا هذه السرعة في اتخاذ قرار. سوف أظل ألتقي بشراً إلى أن أموت، لكني لن أعرفهم أبداً: يخدعونني دائماً بأفعالهم التي لا سبيل إلى شرحها! فكرت لحظة وقد أذهلني اندفاعه وأخافني. كنت معرضاً لخطر الانسياق إلى الإتيان بأمر يخجلني. رفضت من غير أن أقدم سبباً حقيقياً، بل حتى من غير أن أعلم سبب رفضي: «في هذه الحالة، سوف يظل مذنباً».

«سوف يظل حياً! لا أهمية إلا لإنقاذ حياته».

«لكني أحاول إنقاذ ما هو أكثر من ذلك: العدل».

«سوف تعانون جميعاً: أنت، وشقيقك، والعدل».

«إن كان مقدراً لهذا أن يحدث، فهي مشيئة الله».

لعل تلك الكلمات الهادئة التي قلتها كانت آسفة، مرة، أو عاجزة، لكنها كانت صادقة. لم يبق لدي غير هذا. لست أدري ما جعل كلماتي تستفزه ذلك الاستفزاز كله كأنها وحل قذفت به وجهه. لعلي أحبطت حماسته ومنعته من إظهار كياسته! اتّقد داخله ناراً، ناراً غير تلك التي كانت قبل لحظة واحدة: أكثر تحديداً، ووضوحاً، أكثر قرباً. توهجت عيناه حرارة، واكتسى وجهه حمرة قانية. أمسك يده اليمنى بيسراه كأنه يريد منعها من ضربي. لم يحدث إلا نادراً أن رأيت مثل هذه القوة المستثارة، مثل هذا الغضب. ظننته ماضٍ إلى فقدان سيطرته على نفسه؛ ظننته سينفجر ويشتمني. فاجأني أنه لم يصرخ. لو صرخ لكان صراخه أفضل مما حصل: كلمني بصوت منخفض، برقة غير طبيعية جعلته يجهد حباله الصوتية. فاجأتني رؤيته حزيناً إلى حد غَيّر مظهره كله. ولأول مرة، سمعته يتكلم انطلاقاً من عاطفته ويعبر عن أفكاره الغاضبة بصوت مسموع من غير أن يحاول تلطيف أية كلمة قاسية أو أية إهانة.

أصغيت إليه مشدوهاً:

«آه، أيها الدرويش البائس! ألن تكف أبداً عن التفكير مثلما يفكر الدراويش؟ كيف لك ألا تختنق بهذه الكلمات المغرورة؟ أما من سبيل لفعل شيء بإرادة الإنسان، من غير محاولة إنقاذ العالم؟ اترك العالم وشأنه، كرمى لله! سوف يكون في حال أفضل من غير اهتمامك به. افعل شيئاً لرجل تعرف اسمه، تعرف عائلته، لشخص شاءت المصادفة أن يكون شقيقك، وذلك حتى لا يموت بريئاً براءة تامة باسم العدل الذي تزعمه وتدافع عنه. إن كان موت شقيقك ضمانة لدخول بقيتنا الجنة في المستقبل، فلا بأس في هذا أبداً.. فليمت! ولسوف يفتدي بموته عذاباً كثيراً. لكن هذا لن يحدث، ولن يتغير شيء».

«إذاً، فهي مشيئة الله».

«ألست قادراً على العثور على أية كلمات أخرى، على أية كلمات بشرية؟»

«لا. وأنا لست في حاجة إليها».

مضى إلى النافذة ونظر إلى نصف السماء الظاهر من فوق القصبة، وإلى الجبال المحيطة بها، كأنه يلتمس في ذلك الفضاء الفسيح إجابة أو قدراً من السلوى. ثم بدأ يصيح مخاطباً شخصاً في الفناء سائلاً إياه إن كانوا قد فرغوا من وضع حدوات للحصان، ثم طالباً منه أن يسرع بإحضار الموسيقيين.

لا جدوى! لم أستطع فهمه. فور رؤيتي جانباً منه، ظهر لي جانب آخر لا أعرفه، ظهر فوراً فصرت غير قادر على معرفة أي الجانبين حقيقي وأيهما غير حقيقي.

عندما استدار صوبي، كان قد عاد هادئاً من جديد، لكن ابتسامته ما عادت صادقة مثلما كانت.

قال لي محاولاً أن يبدو مبتهجاً، «سامحني. لقد كان تصرفي فظاً، غبياً. هذه طباع تاجر المواشي. يسعدني أني لم أبدأ إطلاق الشتائم».

«لا أهمية للأمر. هذا غير مهم الآن».

«بل يمكن أيضاً أن تكون محقاً. قد تكون مقاربتك أفضل من مقاربتي. ولعل التزام قواعد السماء أفضل من التزام قواعد هذا العالم. الفشل لا يحزنك في شيء لأنك تستطيع دائماً الاتكال على الأبدية. أنت تجد مبرراتك في أسباب

تتجاوز ذاتك. الخسارة الشخصية أقل أهمية، والألم، والناس، واليوم الحاضر. كل شيء مستمر إلى الأبد، واسع، لا وجه له، خدر، ناعس، غير مبالٍ بشيء. إنه مثل البحر: ليس في وسعه أن يأسف لأن بشراً لا حصر لأعدادهم يهلكون فيه من غير انقطاع».

بقيت صامتاً. ماذا أستطيع القول؟ كشفت هذه الكلمات القلقة عن معضلات ومخاوف لا نهاية لها. فما الذي يمكن الاختلاف فيه، أو تمكن إدانته، عندما لا يكون هو نفسه عارفاً مكان وقوفه؟ هو لا يفعل شيئاً غير أن يشك في كل شيء. وأنا غير ذلك. كنت مقتنعاً حقاً بأن إرادة الله هي القانون الأعلى، وبأن الأبدية هي مقياس أعمالنا، وأن الإيمان أهم من البشر. نعم، البحر موجود منذ الأزل، موجود إلى الأبد، ولن يجزع لكل موت صغير يقع فيه. قال حسن ذلك بمرارة، وكان يعني أمراً آخر؛ قاله من غير إيمان به. وأنا أحب الارتقاء إلى تلك الفكرة حتى عندما تكون سعادتي في مهب الريح.

ما كانت عندي رغبة في شرح أني لن أوافق على تحرير أخي عن طريق وضع خطة لهربه، أو عن طريق الرشوة؛ وذلك لأني ما أزال مؤمناً بالعدل. ما كان قادراً على فهمي لأن طريقته في التفكير مختلفة عن طريقتي. لو اقتنعت يوماً بأن ما من عدل في عالمي، لما بقي أمامي ما أفعله غير أن أقتل نفسي، أو غير أن أنقلب على العالم كله لأني لن أظل قادراً على البقاء جزءاً منه. سيقول حسن من جديد إن هذا منطق الدرويش، إنه الطاعة العمياء، طاعة القواعد الراسخة. لذا، لم أقل شيئاً مع أني كنت غير قادر على فهم كيف يستطيع الناس العيش بطريقة مختلفة.

فهل يستطيعون العيش بطريقة مختلفة؟

نظرت إلى البراعم المتفتحة على غصن تحت النافذة المفتوحة. كان عي أن أنصرف.

قلت: «جاء الربيع».

قلتها كأنه لا يعلم. أنا واثق من أنه لا يعلم مثلما أعلم. لم يتبادر إلى ذهني أن ما قلته قد يبدو غريباً في نظري. بدا ذلك كأنه مقاطعة لحديثنا، لأفكارنا. لكنه ما كان كذلك حقاً.

تذكرت الفيض الأبيض والوردي الذي كان يكرر نفسه من غير انقطاع، ذلك الصباح، ومنذ أمد بعيد. ظلال خفيفة كثيرة كانت تحت الأشجار؛ وكان فوح شذا الأرض يوقظني. فكرت كم سيكون خروجي في العالم حاملاً قصعة الدرويش الخشبية غير مسترشد إلا بالشمس وبأي نهر أو بأية درب، غير راغب في شيء إلا في أن أكون في لا مكان، مقيداً بلا شيء، كي أرى مكاناً مختلفاً كل صباح، كي أستلقي وأرقد في مكان جديد كل ليلة، كي لا تكون عندي واجبات ولا ذكريات ولا ندم، كي لا أطلق عنان الكراهية إلا بعد أن أذهب وبعد أن تصير من غير معنى، كي أُبعد العالم عني وأنا ماضٍ فيه. لكن، لا! تلك الفكرة غير منتمية إليّ. لقد عزوت إلى نفسي الرغبة التي عبر عنها حسن قبل لحظة. بدت لي جميلة جداً، وبدت قادرة على تحريري فتبنيتها وظننت لحظات قصيرة أنها تخصني. بل إنني سمعتها في عقلي مثلما يمكن أن ينطقها لسانه. كانت أمراً يناسب ما أحسسته ذلك الصباح من أسى فاعتمدتها عندما استعدت ذلك الإحساس؛ استعدتها مع استعادته كأنها كانت موجودة آنذاك. لكنني كنت واثقاً من أنها لم توجد.

حدثته بأمر لقائي ذلك الصبي بعد ما لقيته من إذلال عند باب المتسلم.

سألني حسن ضاحكاً، «لماذا سألته إن كان راغباً في المجيء إلى التكية؟»

«بدا لي ذكياً».

«لقد كنت في حالٍ سيئة، وكنت هارباً من مشكلاتك، وأردت نسيان كيف رفض الحراس إدخالك إلى مقر المتسلم.. عندها، في لحظة كَرَب شخصي عظيم، كنت تلاحظ الأولاد الأذكياء وتفكر في جعلهم مدافعين عن الإيمان في المستقبل. أصحيح هذا أم غير صحيح؟»

«إن كنت في حالٍ سيئة، فهل يعني هذا أن أصير شخصاً مختلفاً؟»

هز رأسه فلم أدر إن كان يضحك مني أم يشفق عليّ.

«قل إن هذا غير صحيح، أرجوك! قل إن شقيقك أهم من أي شيء. قل إن في وسع كل أمر آخر أن يذهب إلى الجحيم إن استطعت إنقاذ شقيقك. تعلم أنه غير مذنب!».

«سوف أفعل كل ما أستطيع».

«هذا غير كافٍ. علينا فعل المزيد».

«كفانا كلاماً في هذا الأمر».

«ممتاز! كما تريد. آمل ألا تندم على هذا».

لقد كان شديد الإلحاح. لم أدر لماذا أراد التورط في هذا الأمر الخطير، أمر إنقاذ رجل لا يكاد يعرفه معرفة حقيقية. كان هذا غريباً لأنه نقيض لكل ما أعلمه عنه. لكنه ما كان كاذباً، وما كان يقول لي هذا الكلام ليقينه من أنني سأرفض عرضه: لو قبلت لفعل ذلك حقاً، لفعله من غير لحظة تردد واحدة.

قد يحسب البعض أني تأثرت باستعداده لأن يهبّ إلى معونتي، أو أني تلقيت تضحيته غير المألوفة بعينين دامعتين عرفاناً. لكن هذا لم يحصل. لم يحصل أبداً. أملت أول الأمر أن يكون عرضه كذباً، لا أكثر، وأن يكون كلاماً فارغاً لا يلزمه بأي فعل. لكني كنت غير قادر على اختزال الأمر وخفض عرضه إلى مرتبة الكذب لأن صدقه كان واضحاً، فانتابني حنق وسخط. بدا لي اهتمامه الشديد غير لائق، بدا لي تطفلاً، بدا لي سلوكاً غير طبيعي حمل في طياته خطر تجاوز جهودي نفسها وأوحى بأن اهتمامي غير كاف. كان يعرض علي أن يضحي بنفسه حتى يبين افتقاري إلى الحب، حتى يوبخني ويعاقبني! أضناني كلامه فتمنيت أن ينتهي لأنه ما من تفاهم ممكن بيننا. فاجأني عندما علّق على قصة الصبي التي سمعها مني، فاجأني لأنه كشف لي عن أمر لم أفكر فيه أبداً. كان ما قاله صحيحاً من غير أي شك. لكن العصيان والتمرد كانا كامنين في كل كلمة قالها. انغلقت على نفسي عندما توصلت إلى هذا الاستنتاج، انغلقت مثلما تغلق قلعة محاصرة أبوابها كي لا تنالها سهام مهاجميها. من يقطع جذوري أو يقوّض مرتكزاتي ليس صديقاً لي، أو هو صديق من نوع غريب جداً. لا سبيل إلى وجود صداقة حقيقية بين شخصين يفكران تفكيراً مختلفاً!

ساعدني هذا الإدراك المر (إدراك كنت في حاجة إليه مثل الحاجة إلى الهواء النقي، أو إلى دواء) في رفضه من غير صعوبة، وكذلك في بدء الحديث المزعج الذي أرجأته كثيراً مع أنه لم يغب في ذهني أبداً.

كنت قادراً على طلب ذلك منه لأني صديقه ـ من حقي أن أطلبه ـ لكن تفكيري اتخذ وجهة أخرى فمنعني من طلبه. كنت قادراً على نقل الأمر إليه على صورة رسالة من شخص آخر، بحيث أستطيع الزعم أن الأمر لا يهمني. لكن من شأن ذلك أن يجعلني أجد صعوبة في التعبير عن طلبي فيتخذ كل شيء وجهة خاطئة. هذه الطريقة هي الأفضل: هو ليس صديقي، أنا على يقين من ذلك، وسوف أعرض عليه طلباً مقدماً من أشخاص آخرين، من أشخاص أنتظر منهم منفعة. لعل هذا هو السبب في أني لم أظهر شيئاً من غضبي قبل لحظة: لو فعلت ذلك لجعلته ينقلب عليّ ولأنقصت فرصتي في النجاح.

هممت بالانصراف وقلت له كأني تذكرت الأمر في تلك اللحظة فقط إني زرت أخته، وإنها أرسلت في طلبي (قال لي: أعرف هذا! فكان ذلك إنذاراً لي بأني سأكون مضطراً إلى قول أكثر مما قد أكون راغباً في قوله). قلت إنها طلبت مني إبلاغه بأن أبيه سيحرمه من الإرث (قال حسن ضاحكاً، أعرف هذا أيضاً)، وإنه من الأفضل أن يرفض الإرث بنفسه أمام القاضي فمن شأن هذا أن يحول دون كلام الناس فلا يصير الأمر فضيحة.

«فضيحة لمن؟»

«لست أدري».

«لست راغباً في رفض ميراثي. فيفعلوا ما يحلو لهم فعله».

«قد يكون هذا أفضل».

لا معنى لإخفاء الأمر. كنت واثقاً من أن توسطي في هذه القضية المخجلة يمكن أن يساعدني ويساعد أخي. عندما رفض الفكرة، بدا كأنه يتصرف تصرفاً فظاً عنيداً، فكان لا بد لي من بذل جهد كبير حتى أؤيد قراره. كان ذلك شاقاً فأحرقت الكلمات حنجرتي كأنها سم، لكني لم أستطع أن أفعل غير ذلك: ما كنت قادراً على مسامحة نفسي إن ضبطني أغشه في تلك اللعبة. لقد بدأت بداية سيئة، فانتهيت إلى نتيجة سيئة. كان حرياً بي أن أقول ذلك كله بطريقة بسيطة من غير تحوير في الكلام. لو فعلت ذلك لرأى أنه من غير اللائق أن يرفض كلامي. لكني أفسدت كل شيء! ضاعت فرصة انتظرتها طويلاً؛ ضاعت ولن تعود. رأيت نفسي عاجزاً.

لكن، في تلك اللحظة فقط، عندما فقدت كل أمل لي، عندما بدأت أظن أن زيارتي كانت من غير طائل، سمعته يقول لي: «إذا رفضتُ ميراثي، فهل تتوقع أن يساعد زوج أختي القاضي شقيقك؟»

«لست أدري. لم أفكر في هذا من قبل».

«فلنفعلها إذاً! إن قبل تقديم المساعدة، فسوف أتخلى عن كل شيء. سأصيح بذلك من فوق مئذنة المسجد إن كان هذا ضرورياً. على أية حال، لا أهمية للأمر لأن أبي لن يترك لي شيئاً بصرف النظر عما أفعله».

«في وسعك الاعتراض أمام القضاء. أنت وريثه الأول. وأنت لم تسئ إلى عائلتك. والدك مريض، ومن السهل الادعاء بأنه يتصرف تحت ضغط من شخص آخر».

«أعلم هذا».

وجدت صعوبة في قول ما قلته، وبذلت جهداً حتى أرغم نفسي على أن يكون سلوكي صادقاً، مشرّفاً. هذه ثاني مرة أفعلها حتى الآن. وددت أن أكون نداً له؛ وأردت أن تكون لدي إجابة من أجل نفسي، فيما بعد، كلما تذكرت كرمه: لقد فعلت ما استطعت فعله؛ وكان ذلك في غير مصلحتي. لم أغشه بل تركته يتخذ قراره بنفسه.

قال لي: «أعلم هذا، فلنفعل الآن ما اتفقنا عليه. زوج أختي يخشى أن أقيم دعوى قضائية: هو ليس غبياً، بل غير شريف فحسب. ومن حسن حظنا أنه جشع. قد يساعدنا لأنه مهتم بالحصول على الأرض أكثر من اهتمامه بمصير موظف صغير لا يعرفه. فلنعتمد على رذائل البشر طالما لا نستطيع الاعتماد على أي أمر آخر».

«أنت بالغ الكرم. لا أستطيع رد جميلك إلا بعرفاني».

ضحك وسارع إلى إنكار قيمة ما قدمه: «أنا لست شديد الكرم، فسوف يأخذون تلك الأملاك بصرف النظر عما أفعله. لماذا أجرجر نفسي من محكمة إلى أخرى؟!»

الآن، ومهما قد أحاول ثنيه عما اعتزم فعله، فلن يترك الأمر أبداً. لكني ما عدت راغباً في اللعب مع القدر.

شكرته وهممت بالانصراف. عاد إلي مزاجي الحسن، عاد إليّ أملي. لقد فاقني كثيراً بكرمه الذي لا يبالي بشيء. من حسن حظي أنه رفض الإرث بنفسه فلم يطوق عنقي بتضحيته تلك ولم يثقلني بتوقع أن أرد له جميله.. ثم إنه ما عاد خصمي (كان من الممكن أن يصير أي شيء في تلك الأيام الأولى: لم يصبح بعد شيئاً واضح المعالم؛ وهذا ما جعلني أحاول التلاؤم معه من لحظة إلى أخرى مثلما يفعل المرء بحبه الأول، بحبه غير الموثوق بعد، بحبه الذي لا يصعب أن ينقلب إلى كره).

ضحك بصوت مرتفع وفاجأني بقوله: «مؤسف أن تكون درويشاً. ولو لم تكن كذلك لدعوتك إلى حفلة. سوف يكون أصدقائي هناك».

ثم أضاف بذكاء ماكر، لكنه غير متخف: «لن أحاول إخفاء الأمر لأنك ستكتشفه غداً».

«إذاً، أنت لا تحب النظام!»

«لا، لا أحبه! أعرف أنك ستلومني؛ ولكن، 'لي عملي ولكم عملكم'. ليس مهماً ألا نفعل الخير، فالمهم هو ألا يكون ما نفعه شراً. وهذا ليس شراً».

إذاً.. هو يمازحني في القرآن، لكن من غير سخرية أو ضغينة. لا يعجبه النظام، ولا أي أمر مقدس! هو غير مبالٍ بهذه الأفكار.

على غير انتظار، خلا صوته من البهجة. تقلصت شفتاه المبتسمتان فصارتا دائرة معوجّة وبان على جبهته التي لوّحتها الريح شحوب لا تكاد العين تميزه. نظرت من النافذة متابعاً نظرة عينيه: دخلت الفناء المرأة النحيلة من دوبروفنيك مع زوجها.

«هل هما أيضاً آتيان إلى حفلتك؟»

«ماذا؟ لا. ليسا آتيين إليها».

غلبته الإثارة وأضاع سيطرته على نفسه، لكن ذلك لم يطل. تجمدت عيناه المفتوحتين على اتساعهما بين أجفانه، وراحت كفاه تتحركان على غير هدى.

لكن الأمر كله استغرق لحظة لم يلبث بعدها أن زال عنه تماماً كأنه لم يحدث أبداً. عادت إليه ابتسامته، وعاد ثابتاً، واثقاً من نفسه، مسروراً سروراً هادئاً بوصول صديقيه. علمت أنه ما يزال مستثاراً على الرغم من هدوئه الظاهري. علمت هذا لأن عينيه ما عادتا تريانني.. كأني ما عدت موجوداً. لم يتغير لطفه، وظلت عيناه تنظران إلي. قال لي أن أعرّج عليه مرة أخرى، وذكرني بأن علي أن أذهب لرؤية أخته. على السطح، ظل كل شيء على حاله، لكن أفكاره ما كانت معي: كانت كله هناك، في فناء البيت، مع المرأة التي أتت كي تزوره.

خرجنا لمقابلة الزائرين. التقينا عند الباب وتبادلنا التحية. اختلست نظرة سريعة إلى وجه المرأة. من تلك المسافة القريبة، لم تبد لي ذات جمال خاص لأن وجنتيها كانتا نحيلتين، شاحبتين، وكان في عينيها أثر باقٍ من حمى أو من حزن. لكني رأيت في تعبير وجهها ما لا يسهل على المرء أن ينساه. مر بي عبيرها الرقيق، ثم انصرفت مفكراً في أن كل ما بينهما مستعصٍ على الحل. هذا ما جعله يحدثني بذلك الاهتمام كله عن تلك المرأة الخادمة ورجليها! أتكون لديه المشكلة نفسها؟ وهل هو سائر في درب مسدود؟ إن لم يكن واقعاً في هواها، فكل شيء يصير أكثر سهولة وبساطة. لكن شحوبه المفاجئ ما كان كاذباً. هل تعرف المرأة بالأمر؟ وهل يعرف به زوجها، ذلك الدلماسي ذو القلب الطيب الذي انحنى أمامي وعلى وجهه ابتسامة بهيجة، ابتسامة رجل لطيف متمهل في كل أمر؟ لا يمكن أن يكون عارفاً لأنه لم يبدُ لي كمن تمزقه عاطفته. ثم إنه لن يقتل أحداً، حتى إن علم بالأمر. زوجته عالمة به؛ فالنساء عالمات دائماً حتى إن لم يُقل أي شيء. وهن أكثر ميلاً إلى الظن بأن ثمة أمراً جارياً في الخفاء. ما الذي كان جارياً بينهما غير مفصح عنه، وغير واضح أمام زوجها الذي أبقاهما وجوده متباعدين. زوجها الذي كانت قلة شكه تشجيعاً لهما، زوجها المستعد دائماً لتذليل الصمت الخطير بحديث مرح عن.. عن لا شيء؟ أية رغبة عاصفة مضطرمة تذوقها هذان الشابان، أو لم يستطيعا إشباعها؟ وأية فتنة كانا يرعيانها في أفكارهما، فتنة قد تنمو وتكبر فتصير هوساً خطيراً؟ أيكون حسن واقعاً تحت تأثير سحر قامتها المتمايلة تمايل عود القصب، سحر الصفاء الهادئ في عينيها

اللامعتين البائنة عليهما أثر المرض؟ هل صار منبوذاً لهذا السبب.. كي يصير متورطاً تورطاً لا رجعة عنه في هوى لا سبيل إلى إشباعه، ولا سبيل إلى اختفائه؟ لا بد أنه كان يفكر فيها خلال شهور فراقهما، ثم يلقاها عند عودته. كان ما يحسه في أسفاره من توق إليها يعزز ذكرى جمالها في تلك البلاد البعيدة فتشربها عيناه الظمئتان إليها حتى يظل قادراً على تذكرها كلما انطلق في رحلة جديدة. كم يستطيعان المضي في هذه الدائرة؟ كم يستطيعان مواصلة تغذية هواهما من غير قدرة على إرضائه؟

إن كان لي مكان في أفكاره، فأنا واثق من أنه نسيني في تلك اللحظة. لقد احتلت هذه المرأة مكاني منذ أمد بعيد، احتلت مكاني ومكان كل ما ليس هي. إن كنت قد كرهتها في تلك اللحظة فهذا لأن فستانها المخملي الطويل، وشفتيها الطفوليتين الممتلئتين، وصوتها الناضج المغوي، كانت كلها في نظره أكثر أهمية مني ومن مشكلاتي. خفضتْني حتى صرت غير موجود، وأطاحت بسندي الوحيد - سندي الذي ما كان موجوداً بدوره مع أني تمنيت لذلك الوهم أن يدوم.

صرت وحيداً من جديد.

لعل هذا أفضل لي.. عندها، لا ينتظر المرء عوناً ولا يخشى خيانة. وحيداً صرت. سأفعل ما أستطيع فعله من غير اتكال على عون لا وجود له. عندها، سيكون كل ما أنجزه ليَ وحدي، بخيره وشره.

مررت بالمسجد عند زاوية شارع بيت حسن، وسرت على امتداد الجدار الذي يخفي المدرسة الدينية من خلفه. مضيت في الشارع حيث محلات الإسكافيين، ثم بلغت المصابغ. كان عبير المرأة الكاثوليكية قد تلاشى؛ وكانت أفكاري عن حسن قد خبت. سرت من أمام المشاغل والحرفيين المنكبين على أعمالهم من غير جلبة. كنت أدخل دائرة مشكلاتي مرة أخرى؛ وكنت أبدأ رحلة في المجهول. لكن، لماذا هي رحلة في المجهول؟ ما شككت لحظة في أني سأنجح؛ وما جرؤت على الشك في ذلك لأن من شأن الشك أن يحرمني القوة اللازمة حتى أسير خطوة أخرى. لكني كنت مضطراً إلى السير. إنها مسألة حياة أو موت، أو.. لعلها مسألة

أهم من الحياة ومن الموت. في تلك اللحظة، تقت إلى السلم والسكينة. سرت أمام المتاجر خافضاً رأسي، مستنفداً، وتنسّمت روائح الجلد ولحاء الأشجار. كنت متعباً، وكانت عيناي تتابعان أقدام المارة وحجارة الطريق المدورة أمامي. كنت متعباً وما عادت فيّ بقية من قوة. تمنيت أن أكون في غرفتي المغلقة وأن أنام نوماً طويلاً كالموت، كنوم رجل غريق، أن أستلقي من خلف بابي المغلق ونوافذي المغلقة مثلما يستلقي عاجز. لكن ذلك كان ضعفاً، خوفاً من مشقات تفوق الخيال، وكان رغبة في الاستلقاء وفي الموت، رغبة في الاستسلام وقبول القدر ـ لا أجرؤ على ترك ذلك يوقفني الآن. لا أستطيع السماح لأي ضعف أو إرهاق بأن يمنعني من أداء هذا الواجب. ما كان باقياً في نفسي من عناد الفلاح، ومعه إدراكي الواضح شدة حاجتي إلى الدفاع عن نفسي استحثاني كي أتابع السير. كان لا بد لي من ذلك. امض الآن، ومت فيما بعد!

ما الذي كان منبع خوفي وإحساسي بأن المشكلات صارت وشيكة عندما لم يكن في وجودي كله ما يمكن أن ينبئني بذلك؟

عندما سمعت قرع الحوافر في الشارع، رفعت عيني فرأيت جنديين على حصانيهما، مسلحين، متقدمين مني، غير آبهين بشيء أو بأحد. راح الناس في الشارع الضيق يلتصقون بالجدران ووجهات المتاجر كي لا تدهمهم الخيل، كي لا يجرحهم ركاب حاد. كان سير الجنديين بطيئاً فأفلح الناس في الابتعاد عن طريقهما، وانتظروا مرورهما من غير أن ينطقوا بكلمة. لم يتعمد الجنديان ضرب أحد، لكنهما لم يغيرا مسارهما. كان ذلك كأنهما لا يريان أمامهما أحد.

تساءلت في نفسي إن كان علي أن أدخل متجراً كي يمر الجنديان أو أن أقف ملتصقاً بجدار مثلما فعل غيري. قررت البقاء في الخارج مثل الآخرين جميعاً. سوف أتركهما يذلاني. كان الشارع ضيقاً؛ وما كان فيه متسع لأحد غيرهما. سوف يصيبني الركاب ويمزق ثوبي؛ ولن أرفع عيني إليهما. لهما أن يفعلا ما يشاءان. سأفعل مثلما يفعل الآخرون، الآخرون الذين انتظروا من غير أن يقولوا شيئاً. ماذا ينتظرون؟ ما الذي كان ينتظره أولئك الناس في الطريق بينما اتجه الجنديان صوبي؟ أتراهم ينتظرون رؤية إذلالي أو سماعي أصيح بهما (مرتبتي وعباءتي

يمنحاني الحق في فعل ذلك). في تلك اللحظة، وددت حدوث الأمرين معاً. بدا لي فجأة أن ما سأفعله أمر مهم، بل حاسم الأهمية أيضاً. أزعجني أن الناس كانوا ينظرون وينتظرون: أهم معي أم ضدي؟ أم هم غير مبالين؟ ما كنت أعلم عن هذا شيئاً. وما جرؤت على الصياح: سوف يسخر الجنديان مني، وسوف ينتهي الأمر بأن أبدو في أعين الناس سخيفاً. لن يأسفوا عليّ، ولن يأسفوا لهزيمتي. لا.. فليهيناني؛ سوف يرى الجميع أنني تنحيت عن الطريق، وأنني كنت مثلهم، كنت عاجزاً. بل تمنيت أيضاً أن يكون ما ينزل بي من خزي عظيماً إلى أقصى حد مستطاع، أن يكون أكبر من خزي الآخرين. وقفت مولياً الحائط ظهري أكاد أحس وخز حجارته غير المستوية. وقفت خافضاً عيني. لم يزعجني الخزي الذي ينتظرني، بل اخترت لوقوفي أضيق نقطة في الشارع، اخترتها عامداً. انتظرت وقوع الأمر، وكان انتظاري مسرة مؤلمة، سوف يسمع الناس بهذا، وسوف يشفقون علي. كنت أتحول إلى ضحية.

لكن ما حدث كان غير ما توقعت: تقدم واحد من الجنديين رفيقَه فمرا بي متتابعين. بل ألقيا التحية علي أيضاً! فوجئت أول الأمر لأن سلوكهما خالف توقعي، ولأن كل ما أجهدت نفسي مفكراً فيه كان من غير داعٍ، ولأن كل شيء بدا سخيفاً، لست أدري كيف: بطولتي الواهية، واقترابي من الجِدار، واستعدادي لقبول الإهانة. واصلت السير من غير أن أرفع عيني. سرت بين الناس الواقفين في الشارع يرقبونني صامتين. لقد أُوقع بي وهُزئ بي. كنت على شفير أن أصير واحداً منهم، لكن الجنديين أفرداني عن البقية.

عندما صرت بعيداً عن مجال رؤيتهم، ومن غير أن أجرؤ على النظر إليهم، دخلت شارعاً آخر حيث ما من شهود على تضحيتي الفاشلة، فهدأ توتري وأحسست قدراً من الارتياح. رفعت عيني إلى الناس ورحت أحييهم وأرد تحياتهم. صرت أكثر هدوءاً وبات واضحاً لي، بل أكثر وضوحاً، أن هذه النتيجة خير النتائج. لقد عرفني الجنديان واحترماني وامتنعا عن استخدام العنف ضدي. كان هذا ما أردت. بل إن الأفكار التي جالت في رأسي كانت متطيرة عندما وقفت ملتصقاً بالجدار: إن مرا بي تباعاً فسوف ينتهي كل شيء على خير ما يرام، وسوف يصل

كل ما أعزمت فعله إلى نهاية حسنة. أو.. لعلي لم أفكر هكذا، ولعل أن هذه الخواطر قد تواردت إلى ذهني في وقت لاحق بعد أن انتهى كل شيء. لو فكرت هكذا مسبقاً، لكنت مفرط التطير في ربطي النتيجة التي أردتها بالمعجزات، بشرط مستحيل إلى هذا الحد. على أية حال، حدثت معجزة، أو لعلها ما كانت معجزة، بل علامة وبرهاناً. كيف صدق قلبي الخائر أني صرت منبوذاً أو أني صرت مجرداً من حقوقي؟ فلماذا يحدث هذا؟ ومن عساه يستفيد منه؟ بقيت مثلما كنت، بقيت درويشاً من طريقة محترمة، بقيت شيخ التكية، بقيت مدافعاً موثوقاً عن الإيمان. كيف يمكن أن أُنبذ، ولماذا؟ ما كانت بي أية رغبة في أن أكون شيئاً آخر. ما كنت بقادر على ذلك، وما كنت راغباً فيه. يعرف الجميع هذا، فلماذا يمنعونني منه؟ لقد تخيلت كل شيء وخلطت كل شيء في نفسي خلطاً لا حاجة إليه. لم أدر أين كان منبع جبني كامناً. لقد وقفت في وجه الموت مئات المرات ولم أتزعزع، لكن قلبي الآن صار مثل حصاة، صار ميتاً، بارداً. فماذا حدث؟ ماذا حل بشجاعتنا؟ هل صارت الآن ارتعاداً جباناً لسماع نعيق البوم أو لسماع صوت أقوى من صوتنا؟ هل انقلبت الشجاعة جبناً في مواجهة إثم لا وجود له؟ هذه حياة لا قيمة لها. لقد اجتزت الأنهار سباحة حاملاً سيفي بين أسناني، وزحفت على بطني بين القصب مترصداً العدو. لقد اندفعت مهاجماً المَدافع من غير تردد، لكني صرت الآن أخاف جندياً بائساً. آه، يا لبؤس البؤس كله! أمرٌ ما أصابنا؛ أمر فظيع؛ وقد تقلصنا فصرنا لا شيء حتى من غير أن نلحظ ذلك. متى ضللنا سبيلنا؟ ومتى سمحنا بحدوث هذا؟

ما يزال الوقت نهاراً، لكنه نهار كامد، متعَب. بدأت الظلال تتنامى فيه، لكن عليه أن يدوم زمناً يكفيني لأن أقابل الليل من غير ألم أو خجل. لقد علمت أين تمضي بي خطواتي حتى قبل أن أتخذ قراري بالذهاب إلى ذلك المكان. كانت أفكاري متجهة إليه من غير وعي، وكنت راجياً أن تكون زوجته قد أخبرته بما دار بيني وبينها من حديث. يستطيع كل منا التظاهر بأنه لا يعلم شيئاً. نستطيع حفظ ذلك السر المكشوف. لن نتكلم في أمر حسن، لكن تعبير وجهي المبتهج كفيل

بأن يقول له كل شيء. وحتى إذا لم تكن قد أخبرته، فلا مبرر لأن أخشى شيئاً. لعل من الأفضل أن أذهب لرؤيتها أولاً، وأن أزفَّ نبأ موافقة حسن. أن أقدمه إليها كأنه هدية. عندها، يصير كلامي مع زوجها أكثر يسراً.

لكن هذا كان من غير طائل. الجبن متفشٍّ فينا؛ وهو يصوغ أفكارنا. اللعنة عليه لأن أفواهنا تنطق به حتى عندما نكون في خجل منه.

استفدت من لحظة التصميم تلك ومضيت من فوري كي لا أؤجل الأمر إلى الأبد.

فوجئت بأن عيني أفندي استقبلني من غير تأخير كأنه كان في انتظاري. لم يسبقني نبأ وصولي مع أن حضوراً خفياً، حضور أعينٍ، جعل نفسه محسوساً في الممرات.

استقبلني استقبالاً لطيفاً وحياني تحية لا حماسة فيها ولا قلة مبالاة. لم يتظاهر بأن رؤيتي قد أسعدته ولا بأنها فاجأته. كان كل ما يفعله بحساب. ابتسامة غامضة. لم يحاول تشجيعي ولا إخافتي. قلت في نفسي إن هذا سلوك صادق، لكني لم ألبث أن أحسست غثياناً.

تسللت قطة لم أدر من أين أتت. نظرت إلي بعينين صفراوين شريرتين، ثم مضت إليه وراحت تتشممه. من غير أن يزيح عني تلك النظرة اللطيفة لطفاً لا اهتمام فيه، بدأ يداعب القطة فتلوّت فرحة تحت كفه ودعكت رقبتها وجانبها بركبته، ثم قفزت إلى حضنه وجلست متكورة على نفسها وراحت تهرّ راضية وتحدّجني بنظرة متوعدة. الآن، صار زوجان من الأعين ينظران إلي، زوجان كل منهما مصفر اللون، حذر، بارد.

ما أردت التفكير في زوجته، لكنها ظهرت لي من العتمة، من مكان بعيد. ما أردت التفكير فيها بسبب منه، من تيبسه وحذره، من يديه اللتين كنت واثقاً من أنهما تختنقان داخل كميه الطويلين، من وجهه الشفاف وشفتيه الرقيقتين ومنكبيه الهزيلين. كان عليلاً، هشاً، كأن ماءً يجري في عروقه: كيف كانت لياليهما في هذا البيت الصامت الضخم؟

كان هادئاً هدوءاً يصعب تصديقه. وما كان يحس حاجة إلى الإتيان بأية حركة (ذكرني سكونه بتيبس الموتى أو بقدرة الفقير على ضبط نفسه). ظل على وجهه ذلك التعبير نفسه الذي لاقاني به عند دخولي مع تلك الابنسامة التي لا تقول شيئاً، الابتسامة الممتدة امتداداً كاذباً فوق فم من غير شفتين. أرهقتني تلك الابتسامة أكثر مما أرهقته.

من حين إلى حين ـ كان هذا يحدث دائماً على نحو غير متوقع ـ تخرج واحدة من يديه إلى الحياة، تخرج غادرة فتظهر من تحت كمه مثلما تظهر أفعى (كانت يداها مثل طائرين). تدب الحياة في عينيه أيضاً كلما نظرتا في عيني قطته اللتين كانتا مثل عينيه. لا ترقّ عيناه إلا وقتها.. لحظة واحدة فقط.

لم أدر كم بقيت جالساً جلستي تلك. حلّ الغسق، ثم جاءت الظلمة. توهجت العينان الفسفوريتان في حضنه. الغريب أن عينيه توهجتا مثلهما، أو هذا ما بدا لي. صارت له أربع عيون متقدة. ثم أتوا بالشموع (مثلما فعلوا تلك الليلة. لكني ما عدت مفكراً فيها. لم أجرؤ على ذلك) فكان هذا أسوأ من ذي قبل. وتّرتني ابتسامته الميتة، وأفزعني تعبير وجهه الميت مثلما أفزعتني الظلمة من ورائه والظلال على الجدار. أثار اضطرابي حفيف خافت، فكأن جرذاناً تجري من حولنا. لكن، لعل ما كان مزعجاً لي أكثر من أي وقت آخر هو أنه لم يرفع صوته مرة واحدة ولم يغير طريقة كلامه. لم يتحمس، ولم يغضب، ولم يضحك. سالت الكلمات من فمه بطيئة، صفراء، شمعية، غريبة. مرة بعد مرة، عجبت في نفسي من قدرته على ترتيب كلماته ترتيباً حسناً جداً ووضع كل واحدة منها في موضعها الصحيح. عجبت لأنها بدت لي مكومة في مكان داخل تجويف فمه، وبدت موشكة على أن تنسكب منه وتسيل من غير ترتيب. كان كلامه صبوراً، متواصلاً، واثقاً؛ وما شك في نفسه مرة واحدة. ما كان يرى أي احتمال آخر غير ما يقول. وفي المرات القليلة التي عارضته، بدا لي أنه فوجئ مفاجئة حقيقية كأن أذناه خانتاه، أو كأنه التقى مجنوناً. واصل سرد عبارات مأخوذة من الكتب مضيفاً فتوره البارد إلى قرون من حياتها. اضطربت، وسألت نفسي: لماذا يتكلم؟ أيظنني لا أعرف هذه الجمل المألوفة؟ أيظن أني نسيتها؟ أيكون المتكلم موقعه

الرفيع، وظيفته البارزة؟ هل يتكلم لأنه اعتاد الكلام أو كي لا يقول أي شيء؟ هل يسخر مني؟ أم لعله لا كلمات لديه غير هذه الكلمات التي حفظها عن ظهر قلب؟ أم.. لعله يحاول تعذيبي ودفعي إلى الجنون! أتكون القطة جالسة هناك كي تقتلع عيني في نهاية الأمر؟

عندها، خطر لي أنه قد نسي الكلمات العادية كلها، نسيها حقاً. كانت تلك الفكرة مخيفة: ألّا يعرف المرء قول كلمة واحدة من عنده، وألا تكون لديه فكرة واحدة من عنده، وأن يعجز عن قول أي شيء بشري فيتكلم من غير حاجة إلى الكلام أو من غير معنى، يتكلم أمامي كأني لست موجوداً.. شخص محكوم بأن يتكلم بفعل العادة فقط. وكان محكوماً علي أن أصغي إلى ما أعرفه من قبل.

أم.. لعله مجنون! أو لعله جثة! أو شبح!.. أو لعله شخص من أقسى القساة، شخص يهوى التعذيب! لم أستطع في البداية تصديق ما رأته عيناي وما سمعته أذناي؛ فقد بدا مستحيلاً أن يعجز رجل حي جالس أمامه ورجل حي محبوس في الحصن عن حثه على قول كلمة حقيقية واحدة، كلمة متصلة باللحظة الراهنة. حاولت شده إلى حديث بشري، إلى جعله يقول شيئاً، أي شيء مهما يكن، شيئاً عن نفسه، شيئاً عني، شيئاً عن أخي، لكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح. لم يتكلم إلا من خلال القرآن. يا للحسرة.. كان أيضاً يتكلم على نفسه، علي، وعلى أخي.

عندها لجأت إلى القرآن مثله، وغصت فيه. القرآن لي مثلما هو له، وأنا أعرفه معرفة جيدة مثلما يعرفه. بدأنا مبارزة بكلمات عمرها ألف سنة حلت محل الكلمات التي اعتدنا قولها ومحل الكلمات التي ابتُكرت من أجل أخي السجين. كنا أشبه بنافورتين معطوبتين تسكبان ماء راكداً.

عندما أفصحت عن سبب مجيئي، أجابني بهذه الآية من القرآن: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

صحت، «وماذا فعل؟ ألا يخبرني أحد بما فعله؟»

أجابني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

«سأبقى حاملاً جميلك ما عشت. أتيت كي تقال لي الحقيقة صراحة. وأنا مكروب قانط منذ الآن».

﴿ٱلَّذِينَ يُفسدون فِي الأرضِ ولا يُصلِحون﴾.

«مهما يكن ذلك الذي تكلمني عنه، فأنا لا أستطيع تصديق أنه أخي. الله يقول هذا الكلام على الكفار، أخي واحد من المؤمنين».

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

«سمعت أنه في السجن بسبب شيء قاله».

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

«أعرف أخي معرفة جيدة ـ لا يمكن أن يكون قد ارتكب إثماً».

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾.

«إنه أخي.. بحق الله».

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.. أنا من قال له هذا.

استجبت إليه بطريقته نفسها، بآيات من القرآن. ما عدت قادراً على البقاء على الكلمات المعتادة. يصير أقوى مني إذا كلمني بالقرآن وكلمته كلاماً عادياً. حججه من قول الله؛ وأما حججي فهي حجج البشر. ما كنا صنوين. كان أعلى من كل شيء؛ وكان ينطق بكلمات الخالق. حاولت وضع مشكلاتي التافهة في ميزان العدل البشري المعتاد. لكنه دفعني إلى اعتماد معايير الأبدية وتطبيقها على

قضيتي إن أردت ألا أجرّدها من كل قيمة لها. في تلك اللحظة، ما كنت مدركاً أنني أضعت أخي في أبعاد الأبدية تلك.

حتى في هذه الحالة، كان مدافعاً عن مبادئه، وكنت مدافعاً عن نفسي. كان هادئاً، وكان واثقاً، لكني كنت حزيناً، شبه حانق. كنا ننطق الكلمات نفسها، لكن كلاً منا يقول شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف.

قال لي: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ فقلت في نفسي: الويل لإنسان تكون معاييره السموات والأرض. قال: «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا». وقال أيضاً: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. فقلت: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقلت: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وقلت: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقلت: ﴿لاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقلت: ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد ذلك كله، ظل لحظة صامتاً، ثم قال بصوت هادئ وهو ما يزال مبتسماً: «الويل لك، والويل لك، والويل لك أيضاً».

قلت يائساً، «الله ملتجأ كل إنسان».

عندها، نظر كل منا إلى الآخر. كان ما قيل قد حطمني فصرت أقول في نفسي إني نسيت أخي وأدنت نفسي. كان هادئاً، وكان يداعب ذيل قطته البغيضة فيتلوى ذيلها. كان علي أن أذهب قبل ذلك؛ بل تمنيت لو أني لم آت. لا علمت شيئاً، ولا ساعدت أخي في شيء. قلت ما كان علي ألا أقوله. هذا لأن القرآن نفسه يصير خطيراً إذا استخدمتَ كلمات الله عن الآثمين في كلامك مع من يقررون من هم الآثمون. تندم ألف مرة على ما قلت، لكنك نادراً ما تندم على ما صمتَّ عنه. تعلمت هذه الحكمة عندما لم أكن في حاجة إليها. كان من الأفضل كثيراً أن أكتفي بالاستماع إليه وألا أقول إلا ما هو مفيد لي. نسيت هذا الأمر كله، وكنت عارفاً أنه مهم. كان مهماً في الليلة السابقة؛ وكان يهمه ويهمني. قالت زوجته إنه لا يعرف عن الأمر شيئاً. ثم تذكرتُ: لقد خنت صديقاً بسبب هذا.

قلت له سريعاً، محاولاً إخفاء الخجل الذي انتابني، قلت له إني تمكنت من إقناع حسن بالتنازل عن الإرث. هذا فقط، ولا مزيد. لم أقم أية صلة بين هذا الأمر وبيني، أو بينه وبين زيارتي، أو بينه وبين أخي. لكنه سيستنتج بنفسه، وسيكون عليه أن يستنتج؛ ولن يستطيع الإجابة بكلمات من القرآن. كان في هذا التحول المفاجئ في حديثنا قدر واضح من الغل ورغبة خبيثة في تلويثه بجشعه. لكني كنت مخطئاً.. من جديد. لم يظهر لي أنه فهمني. لم يفاجئه كلامي. لم أر في عينيه غضباً ولا سروراً؛ لكنه وجد في القرآن إجابة، وجدها في هذه المناسبة أيضاً. «ألاَ سَاء مَا يَزِرُونَ».

كان ممكناً أن يعني ما قاله كل شيء، وألا يعني شيئاً. نهاية الحديث. غضب خبيء. سخرية.

كنت من غير نفع؛ وكان أقوى مني. كان أشبه بجثة، لكنه ما كان جثة: المبادئ مضطرمة في داخله.

لمعت العينان في حضنه، تحت يده، عينا القطة. لم أجرؤ النظر في عينيه اللتين تحرقانني بلمعانهما الفوسفوري الجليدي.

خفضت ناظري ولم أقل شيئاً. أفزعتني شجاعتي التي لا حاجة إليها، وأفزعتني ردوده التي غلبت ردودي.

قال لي بنبرة تهذيب: «عد إلى زيارتي. نحن لا نلتقي إلا قليلاً».

-٧-

﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ - قرآن كريم

خرجت في الليل. أحسست ساقيّ متخشبتين من تحتي. ارتعاشة صقيعية سرت في عروقي، وتعب، وندم، وغضب، وخوف. اجتمع كل ما في نفسي من جنون وعجز فصار أشبه بكتلة طين دفنت شعوري كله. تأدب الرجل فرافقني إلى الممر. شموع مضطرب نورُها يحملها خادمان (كيف عرفا أنني منصرف؟) ظننت أن وهجهما سيعميني في تلك الظلمة المتطاولة. لقد دعاني إلى معاودة الزيارة متى شئت. لعله ما يزال منتظراً عودتي! لعله كان علي أن أعود، أن أقول له إني لم أقصد بما قلت أي سوء، وإني كنت مشوشاً، مضطرباً، قلقاً، وإن عليه أن ينسى كل ما سمعه مني. ربما كان علي أن أعود إليه كي أقتله، كي أمسكه من رقبته وأخنقه. حتى لو فعلت ذلك، فلن تترك تلك الابتسامة شفتيه الكابيتين، ولن تنطفئ عيناه الفسفوريتان.

دعكت يدي المتعرقتين كأن كفيّ حملتا رطوبته فيهما. بسطتهما أمامي كي يذهب الهواء بتلك اللمسة المتخيلة. حاولت تخليص نفسي منها.

سرت زمناً طويلاً على ضفة النهر ولم أصادف غير قلة من عابرين. أغلق الناس أبوابهم عليهم في ساعة مبكرة فتركوا الليل للحراس الليليين، للسكارى، لمن لا حظ لهم.

كان كل شيء يدعوني إلى العودة إلى التكية، إلى إغلاق باب غرفتي الثقيل من خلفي، إلى بقائي وحدي. كانت تلك الرغبة شديدة كأنها دافع يحدو بي إلى القرار. لكني ما سمحت لنفسي بهذا الضعف. رفضت تلك الرغبة مغالباً نفسي فقد كنت عالماً أن ذلك الانسحاب الذي رغبت فيه خطير جداً في هذه اللحظة. لو انسحبت لقلل انسحابي من شأني، لجردني من أية قيمة لي. لن يعود لي أي حق

في احترام ذاتي، ولن أعود مستعداً لفعل أي شيء أبداً. إن فعلت ذلك، فسوف أصير كمن ينتظر كل ضربة تأتيه خافضاً رأسه، أصير بائساً، أصير كأنني لا شيء. ما كنت قادراً على الاستسلام. لقد تحديتهم؛ وصار علي أن أظل واقفاً على قدمي. إذا انثنيت في أي وقت، فسوف أكون كمن يسدد ضربة قاضية إلى نفسه.

سرت على ضفة النهر الهادئ، مصغياً إلى الماء المتدفق، آملاً أن أحظى بقدر من السكينة: يهدئ صخب الطبيعة روح الإنسان؛ ولعله قادر على ذلك لأنه غير مكترث به. لكن النهر لم يستطع مساعدتي. كان ما في نفسي من ضجيج أعلى منه صوتاً.

لم أتوقع لقاء المارق إسحاق. لقد نضجتُ منذ تلك المرة في المسجد عندما ساورني أمل غامض في سماع كلماته. لو أسمعني اليوم آراءه ونصائحه لما اهتممت بها أبداً. إن له هدفاً يخصه وحده؛ وهو يعتبر الحظ العاثر أمراً عارضاً مثله مثل المطر أو مثل الغيوم. لكني ما كنت منشغل البال بأي حظ عاثر. كنت مدركاً أن كل ما في حياتي قد صار موضع تساؤل. كل شيء ـ كان هذا بعيداً عن الوضوح كل البعد، لكنه كان حقيقياً أيضاً، حقيقياً جداً. وهو يعني قوطاً وتقلباً، يعني ضلالاً في درب الحياة، لكني لم أعرف غيره.. كان إحساساً بذعر من غير إثم، ذعر أمام الخواء الصامت الذي يمكن أن ينشأ من حولك.

إن قرأ هذه العبارات غير المألوفة شخص لا يعرفني، فأنا أخشى ألا يفهم منها إلا القليل لأن الظاهر أن لدينا، نحن الدراويش، أسلوباً خاصاً في التفكير في ذواتنا وفي العالم، ذلك العالم الذي يكون كل ما يخصنا فيه معتمداً على الآخرين. ما من أحد منعدم الحول والمعنى إلى هذا الحد. ما من أحد يمكن أن يكون خرباً مهدماً في داخله مثلنا.. إن قرروا إلغاءنا أو نبذنا. ونحن لا ندرك هذا إلا بعد مشقة، إلا بعد أن يكون قد وقع فعلاً.

استوقفني حارس ليلي عند الجسر الخشبي حيث ينعطف النهر. كان مختبئاً، واقفاً في ظل شجرة، فهمس قائلاً لي أن أختبئ مثله. قال إلى أن يذهبوا. كان بضعة شباب يقذفون حجارة صوب مصباح عند الممر.

انكسر الزجاج وانطفأ الضوء فانصرفوا، ولم يتأخروا.

كان الحارس الليلي ينظر إليهم هادئاً. قال لي إنهم قد اعتادوا أن يخربوا شيئاً كل ليلة. لكنه يختبئ كي ينقذ جلده. في اليوم التالي، سوف يدفع أهل الحي قيمة الأضرار، فليس من الإنصاف في شيء أن يدفع الحارس المال من جيبه الخاص. سألته عما يجعله محجماً عن الإبلاغ عنهم فسألني كيف يمكنه الإبلاغ عنهم إن كان لا يعرف أسماءهم. الليل والظلمة والمسافة، قد يخطئ المرء! عندما قلت له إنني لن أتهاون معهم لو كنت في مكانه، قال إنه ـ بدوره ـ لن يتهاون معهم لو كان مكاني. وأما الآن، فهو غير قادر على سماعهم ولا رؤيتهم، فما الذي يستطيع فعله؟ في هذه الوظيفة، هو أشبه بزهرة برية صغيرة: يموت إن نفخت عليه. يعلم الله وحده من يكون أولئك الشباب المتخمين طعاماً وشراباً، حسنة ملابسهم، كثير مالهم، لا شيء يقلقهم. متبطلون يتجولون حتى مطلع الفجر، يتجولون باحثين عن نساء ـ ولأعذره إن هو قال هذا ـ باحثين عن المتاعب. يمضي الليل كله محاولاً تجنبهم ويختبئ كي لا يلتقيهم. إن عثروا عليه، فهو يقول لهم أن يذهبوا إلى ناحية أخرى من نواحي البلدة. يقولون له: لا؛ فيقول لهم، إذاً، لا تذهبوا. فيقولون له: أنت غبي جداً؛ يجيبهم: أعرف هذا. وأنا أزداد غباء كل يوم؛ يسألونه: أتحب أن نرميك في النهر؟؛ يقول لا. هكذا تكون أحاديثهم؛ وهكذا يحاول العثور على سبيل للفرار منهم. يقول إن عمله هكذا: أن يرى ويسمع كل شيء. لقد خُلق الليل من أجل الأمور التي يفعلها الناس سراً. وهو يسير حتى الفجر فيعلم أموراً لا يحب أن يعلمها، أموراً ليست من شأنه، لكنه ليس مولعاً بالكلام، الكلام من غير مقابل خاصة: لماذا تهدر وقتك على لا شيء؟ ثم إنه ليس في حاجة إلى ما يعرفه؛ لا يستطيع أن يأكله أو يشربه مع أنه قد يكون مفيداً عند بعض الناس. على أن الأمر يبدو له غريباً: هو يعلم ولا يبالي، في حين أن هناك من يبالي لكنه لا يعلم! عندما يقدّم إلى واحد من الناس معلومات يعرفها، يكون الحارس الليلي مهتماً بأمر واحد فقط: هل يستفيد منها هذا الشخص؟ يعطي كل شيء بدافع من صداقة ومحبة شريطة ألا يعود إلى أطفاله خالي الوفاض. يقول إن «الصداقة» هكذا، في حقيقة الأمر، لكنك لا تستطيع الزعم بأن ثمة الكثير منها. هو لا يصادفها في الليل؛ وأما في النهار فهو نائم. لذا، هو لا يعلم شيئاً. لكن ما يعلمه لا يجعله سعيداً. بل إنه بدأ ينظر إلى زوجته نظرة شك، فلعلها

متآمرة عليه! لكن لا.. إنه يبالغ في كلامه على زوجته، يرتكب غلطة: يسعدها أن تقتلع عينيها من أجله إن كان في حاجة إليهما (وسوف تقتلع عيناً أخرى، عينه، إن سمعت ما قاله عنها). لم يقل هذا إلا على سبيل المثال!

أصغيت إلى هذا الهذر المشوش، الذكي، إلى هذه الصراحة المازحة خارجة من فم جاسوس الحي الذي هو مستعد دائماً لأن يبيع الآخرين أسراراً يعرفها. ما كانت لأسراره أية أهمية عندي. لكني لم أستعجل الذهاب. بقيت واقفاً معه حيناً من الزمن كي أمضي الوقت، من أجلي ومن أجله. يحب أن يتكلم، وأحب أن أستمع؛ ولا أهمية لما يقال. بل إني صرت مهتماً بطريقته في إخفاء أفكاره ثم في الكشف عنها كلها، فهو غير قادر على الثبات على مُكره. لكنه راح يتصرف تصرفات غريبة، متقلبة. كانت السن قد تقدمت به؛ ولعله صار في الخمسين. يضجر من تتقدم بهم السن، أو يخشون أن يُتركوا وحيدين. دعاني إلى مرافقته في جولته فمن الممكن جداً ألا أكون قد رأيت القصبة في هذه الساعة المتأخرة من الليل: على الرجل أن يرى كل شيء. تصير القصبة جميلة جمالاً خاصاً قبيل الفجر عندما يبدأ الخبازون إخراج أرغفتهم الحارة من النار. إن أردت، ففي وسعنا الذهاب إلى الشارع الذي فيه بيت حسن. إنه لديه احتفالاً. أتى بالعازفين. علينا أن نقف في مكان قريب ونستمع إليهم. هذا ليس إثماً لأن الموسيقى قادرة على إسعاد روح أي إنسان حتى إن كانت روح درويش. أسفَ عندما رفضت اقتراحه. قال لي، افعل ما تريد، افعل ما تريد، ما يعجبك، لكن من المؤسف أنك غير راغب في الذهاب. عجبت لهذه الدعوة فقد بدت لي كأنها مزاح فظ، أو كأنها رغبة طفولية. الآن، لا بد له من انتظار شخص غيري.

قال لي عندما افترقنا، «نعم، لا بأس».

هل أثار ذعره أمر من الأمور؟

تركته في مدخل بيت منزوٍ، تركته مختفياً في الظلال.

سرت في الشوارع الخالية وقلت في نفسي إنه رجل غريب.

يتغير كل شيء عندما يخيم الظلام. ما من وقت من أوقات اليوم مخصص للإثم، لكن الليل هو الوقت الطبيعي لارتكابه (في هذا الوقت، يكون الأطفال جميعاً نائمين ـ الأطفال الصغار الأذكياء والأطفال الكبار الأغبياء ـ ومعهم من ارتكبوا آثامهم في النهار. ترتكب الآثام عندما لا نستطيع الرؤية جيداً.

إذاً، هذا ما أنجزناه: دفعنا بالإثم بعيداً عن الأنظار فجعلناه أكثر قوة.

سرت في البلدة الهادئة. وكان الصوت المسموع الوحيد صوت مزمار آت من بعيد. أحياناً، تمر أشباح بشرية كأنها تنزلق انزلاقاً، تمر قلقة مثل أرواح من حلت عليهم لعنة. كلاب تنبح في هذا الحي أو ذاك؛ وضياء القمر رصاصي ثقيل. حتى إن صرخت محتضراً فلن ينفتح أي باب. ما كنت قادراً على البقاء في اللحظة الراهنة: كل ما فيّ تواق إلى ما قد حصل أو إلى ما هو موشك على الحصول. لكنني لم أنجح في أن أخطو من فوق حدود الليل. رأيته كأني أنظر إليه من بعيد، كأني أنظر من أعلى جبل إلى مشهد كئيب: أنا خارجه، لكني فيه، منفصل عنه، لكنه محيط بي. بدا كل شيء في عالمي قليل الأهمية ـ الولادات الكثيرة التي تحدث في تلك اللحظة نفسها، والوفيات الكثيرة، وكثير من الحب، وكثير من الآثام. أقول إن هذا عالمي لأن ما من عالم غيره. من حوله أشباح وضوء قمر فارغ، ولا شيء غير ذلك. ومن حولنا يقطر الزمن هادئاً، ولا شيء غير ذلك. وفي داخلي لا مبالاة عاجزة وصمت من غير حياة، ولا شيء غير ذلك. كنت كأني كافر.. لا نور في داخلي.

يا إلهي، أي إثم مجهول تعاقبني عليه؟

أتوسل إليك أن تسمع دعائي.

سلام على إسحاق الذي ليس هنا الليلة.

سلام على أحمد نور الدين وعلى أخيه هارون اللذين يبحث كل منهما عن الآخر الليلة.

سلام على من ضاعوا في الصمت العظيم بين الأرض والسماء.

كان علي أن أبقى مع الحارس الليلي حتى لا أظل متروكاً وحدي مع نفسي، مع عجزي عن المقاومة وعجزي عن الخضوع.

فارغً، غير مبالٍ.. إلى حد محزن. لكني سررت عندما اقتربت من التكية. عندها، ما عدت فارغاً ولا غير مبالٍ لأن من الحسن أن يكون الإنسان سعيداً أو حزيناً، مهما يكن سبب سعادته أو حزنه. أحسست أنني صرت أكثر قوة لحظة أبصرت بصيص الفرحة الضئيل (نظرت في روحي وفي كل ما كان جارياً داخلي. نظرت مثلما يتفقد الفلاح السماء والسحاب والريح كي يعرف أحوال الطقس)، أحسست نفسي صرت أكثر قوة لرؤيتي تلك الفرجة الصافية بين الغيوم. هي موجودة حتى عندما لا نستطيع رؤيتها. إنها موجودة حتى عندما نظنها غير موجودة.

وعندما دخلت شارعي الضيق الذي استقبلني كأني من أقاربه، برز لي شخص خارجاً من ظل جدار التكية. ما كان مرئياً منه في ضوء القمر غير رأسه كأن تلك الرأس عائمة فوق الماء، وكأن صاحبها ترك جسده في مكان آخر. ألقى علي السلام محاولاً أن يكون مهذباً معي. أظنه حسبني أحسست خوفاً منه. قال لي، «أنت في الخارج منذ وقت طويل. وأنا في انتظارك هنا منذ وقت طويل».

ما أجبته بشئ. وما دريت إن كان علي أن أقول له شيئاً أو أسأله شيئاً. بدا لي وجهه مألوفاً لكني لم أتذكر رؤيته من قبل. كان وجهاً مألوفاً بطريقة خاصة مثلما يحدث عندما نكتشف في وجه من الوجوه ملمحاً أو تعبيراً أو خصلة من شخص رأيناه في وقت من الأوقات، في مكان من الأماكن، لكننا نسيناه لأن الأمر كله لم يبد لنا مهماً.

نظرت إلى التكية، هادئة ميتة في ضياء القمر. وعندما التفت إليه من جديد كنت قد نسيت ما ذكرني وجهه به. أشحت بوجهي من جديد محاولاً هذه المرة أن أتذكر شكل وجهه، لكن محاولتي كانت من غير جدوى لأنه اختفى من ذاكرتي لحظة ما عدت ناظراً إليه. فاجأني أنه من غير وجه.

لاحظ حركاتي فقال في عجالة، «أرسلني إليك أصدقاء».

«أي أصدقاء؟»

«أصدقاء. ظننتك لن تعود هذه الليلة. لم يقولوا لي شيئاً في التكية. أنت غائب منذ فترة طويلة».

«كنت أسير في الشوارع».

«وحدك؟»

«كنت وحدي، إلى هذه اللحظة، وكنت راضياً بذلك».

ضحك ضحكة لطيفة، مهذبة.

«بالطبع، أفهم هذا».

كان وجهه مسطحاً كأنه سعفتا نخل بينهما أنف. أفترت شفتاه العريضتان القويتان عن ابتسامة بهيجة؛ وكانت نظرة عينيه اليقظتين مستقرة علي، منتبهة. كان كأنه في غاية السعادة لأننا التقينا، كأنه سعيد بكل ما أقول وبكل ما أفعل. لو لم تكن من حولنا ظلمة، ولو لم نكن وحيدين، فلعل مظهره يمكن أن يكون ساراً. ما كنت خائفاً من هذا الرجل. ما كان فيّ أثر من خوف. وما كان في الأمر أي احتمال عنف. لكن إحساسي كان غريباً، وكان كل شيء من حولي ضاغطاً عليّ. كنت نافذ الصبر.

«لا بأس، يا صديقي! قل ما تريد أو اسمح لي بأن أمر».

«كنت تسير في الشوارع وتضيع وقتك. وفجأة، صرت في عجلة من أمرك».

حاولت المرور، لكنه تقدم خطوة فاعترض طريقي.

«انتظر لحظة. إليك ما أريد..»

بدا مرتبكاً كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة أو كأنه لم يحب أن يعترض طريقي مع أنه فعل ذلك من غير تردد.

«أنت تجعل مهمتي أكثر صعوبة. الآن، صرت غير عارف كيف أبدأ».

«أنت منتظر هنا منذ زمن طويل. كان في وسعك أن تقرر مسبقاً كيف تتصرف».

أطلق ضحكة مرحة، «أنت محق، التعامل معك ليس سهلاً. انظر.. لعل من الأفضل أن ندخل التكية».

«لا بأس. فلندخل».

«لكن لا أهمية للأمر. نستطيع فعل ذلك هنا. رسالتي قصيرة. ممن تظنني أتيت بها؟»

«لا يبعث إلي أحد بأية رسائل. أصدقائي يكلمونني بأنفسهم. إما أن تكون مازحاً، أو أنك تحاول إثارة غضبي».

«لا، أبداً! أنتم غريبون حقاً، معشر المتعلمين. ماذا لو كنت مازحاً؟ ألا نستطيع التكلم مثلما يتكلم العقلاء؟ لا بأس. يرى أصدقاؤك أن عليك أن تكون أكثر انتباهاً إلى ما تفعله».

«لا بد أنك مخطئ. واضح أنك لا تعرف مع من تتكلم الآن».

«لست مخطئاً. أعرف من أكلمه. إذاً، عليك أن تكون أكثر حذراً. أنت لا تفكر فيما تفعله. وقد يكون هذا خطيراً. أعني قد يكون خطيراً عليك. لماذا تعلق الإثم من عنقك مع أن ما من أحد يضايقك أو يزعجك؟ إن لم تكن لدى المرء أية مشكلات، فلأي شيء تلزمه المشكلات؟ أليس هذا صحيحاً؟»

إذاً.. كان ذلك تهديداً مراداً منه إهانتي. وقد وضعوه على لسان هذا الشرطي الجلف الذي راح يسخر مني كي يستمتع بذلك.. كأنه يسدي إلي نصيحة. صرت الآن محط اهتمامه كأنني حيوان نادر وقع في فخ. بل إنني أعجبه قليلاً: قد أكون مسلياً له. مكتبة سُر مَن قرأ

قلت متجاوزاً غضبي: «لا بأس». تجاوزت غضبي لأنني لم أشأ إظهاره له..

«قل لأصدقائك..»

«هم أصدقاؤك أيضاً..»

«انقل إلى أولئك الأصدقاء شكري على هذه الرسالة مع أنهم قادرين على إيصالها إلي بأنفسهم. أنا مسؤول أمام الله وأمام ضميري عن كل شيء أفعله. هل تستطيع تذكر هذا كله؟»

«أستطيع طبعاً. لكني أظن أن عليك أن تكون مسؤولاً أمام شخص آخر أيضاً. من السهل أن تكون مسؤولاً أمام الله لأنه سيغفر لك ـ في وسعك دائماً أن تأتي بألف عذر لنفسك. وأما عندما تجد نفسك في غرفة التعذيب، هناك، في الحصن، بعون الله، فسوف يكون الأمر أكثر صعوبة. يصير صعباً خاصة عندما تعلم أنك مذنب».

«لست مذنباً في أي شيء».

«لا بأس! ليس الأمر كذلك تماماً. إن شئنا الحق، من عساه لا يكون مذنباً في أمر من الأمور؟ ألا يأتي تاجر الماشية حسن إلى التكية؟ إنه يأتي. ألا تدور بينكما أحاديث في أمور كثيرة؟ يحدث هذا. وعند ذلك»

«عليك أن تخجل من نفسك!»

«لا، يا أفندي! وأيضاً، هل اختبأ في حديقة التكية شخص فار».

«نعم، لقد اختبأ».

«وهل هرب؟»

«نعم، لقد هرب».

«من ساعده في الهرب».

«أرسلتُ في طلب الحراس».

«أرسلتَ في طلب الحراس بعد أن فات الأوان. لن أقول لك ما أنت مذنب فيه أيضاً. أنت تقول:'لست مذنباً في شيء!' لكن، من جديد، هل سألك أحد عن شيء من هذا؟ لا. لذا أقول لك من الآن أن تبتعد عن المتاعب. إذا كنت غير مبالٍ بهذا، فالشأن شأنك. أليس كلامي صحيحاً؟ ومن شأني أنا أن أقول لك هذا».

«أهذا كل شيء؟»

«ماذا تريد أيضاً؟ هذا وحده سيكون أكثر من كافٍ لأي شخص عاقل. وأما إذا اقتضى الأمر، فمن الممكن العثور على أمور أخرى؛ فلا تقلق! هذا هو السؤال الذي يطرحه الجميع في البداية: أهذا كل شيء؟ يكفون عن السؤال بعد ذلك. يعجبني الرجل الشجاع. لكن أين تجده؟ لا بد من سنين كي يعثر المرء على شخص لديه شجاعة حقيقية. شخص واحد من بشر كثيرين جداً. هذا العالم كافٍ لأن يجعلك متقززاً. إذاً، صرتَ عالماً بالأمر. لا تقل بعد الآن: لم أعلم! الآن، أنت تعلم».

كان مستمراً في النظر إلي بذلك الاهتمام نفسه الذي كان لديه منذ البداية. لكنه أنجز الآن ما كان منتظراً منه أن ينجزه وأراد أن يرى ما حققه، أن يرى إن كان قد بثّ الخوف في قلبي.

لقد أزعجني، لكني لم أحس خوفاً. غضبي من هذا التصرف الشائن فاق خوفي؛ فاقته هذه الإهانة. بل إني أحسست نوعاً من التمرد، وكنت مصمماً على المواصلة. دفعتني إلى هذا فكرة آنيّة، فكرة أنهم أرادوا منعي من فعل شيء هو من حقي. إذاً، يعني هذا أنهم غير واثقين من أنفسهم، وأنهم خائفون. إن لم يكن هذا صحيحاً، فلماذا يحاولون تحذيري؟ سوف يفعلون ما يريدون فعله بصرف النظر عما أقول أو أفعل. عززت هذه الفكرة قناعتي الداخلية التي لازمتني منذ أمد بعيد، قناعتي بأنني أمثل شيئاً هنا، في هذا المكان، في طريقتنا الصوفية، وبأنني لم أعبر هذا العالم غير مرئي أو من غير أن تكون لي أهمية. ليسوا على ذلك القدر من الغباء. يعلمون أن ليس من المستحسن أن يهاجموني: إن هاجموني فسوف يظهرون للجميع أنهم لا يحترمون أحداً، ولا حتى أشرف الناس وأكثرهم إخلاصاً. لكنهم لن يفعلوا هذا. لا سبب لديهم لفعله.

هذا ما كنت أفكر فيه عندما اتجهت صوب التكية. ازدادت ثقتي بنفسي، بل فكرت أيضاً في أن إرسالهم هذا الرجل كان أمراً حسناً: لقد كشفوا لي أنهم خائفون، ولم تفلح إهاناتهم إلا في زيادة تصميمي. لكني كنت مدركاً أني غير قادر على منحهم وقتاً طويلاً لأن يتحركوا ضدي، فعليّ أن أصل إلى رجل واحد قادر على تقرير كل شيء قبل أن يصلوا إليه. لو لم يكن الوقت ليلاً عندها، لذهبت إليه في تلك اللحظة نفسها. أسعدني هذا التصميم على عدم الانتظار، على عدم استسلامي للحزن الفارغ والأمل الواهي.. كنت مصمماً على فعل كل ما أستطيع فعله. ما كنت قادراً على مواصلة السير في الشوارع مثل السائر في نومه، السير من غير إرادة والتقلب هنا وهناك كأني مُقعد. ليس الرجل ما يفكر فيه، بل ما يفعله.

عندما أغلقت من خلفي البوابة الثقيلة المصنوعة من خشب البلوط وأقفلتها بالمزلاج؛ عندما وجدت نفسي في أمان حديقة التكية، انتابني قلق مزعج خالف كل توقع وكل منطق ـ ألستُ الآن محمياً بكل ما هو لي! حدث الأمر فجأة، حدث من غير سابق إنذار فكأنما، عندما فتحت البوابة وأغلقتها ودفعت المزلاج وتحققت من أنه استقر في مكانه، تركتُ الفكرة التي عززت روحي المعنوية تنزلق مني وتتركني. اختفت الفكرة، اندفعت في الليل كأنها طائر بري، وظهر محلها

عدم ارتياح، حل محلها ما يشبه الخوف. لم يحدث هذا إلا وقتها، لم يأت إلا متأخراً، ولم أرد لذلك سبباً. لم أجرؤ على محاولة تفسيره أو اكتشاف منبعه. لعله المنبع نفسه الذي جعلني جازعاً! لذا، تركته في الظلمة، تركته من غير تفسير، مع أني كنت مدركاً وجوده. استولت علي فكرة كأنها موجة حر، فاجأتني كأنها ومضة نور خاطفة مؤلمة. حسبت أن ذلك يشبه ما تكونه بداية أزمة قلبية لأنها أعلنت عن نفسها بشيء أشبه برعد عميق مكتوم: إنهم يحاصرونني.

لم يتبادر إلى ذهني، ولا حتى بعد وقت طويل من ذلك، أن تفكير الإنسان موجةٌ غير مستقرة تثيرها وتهدئها ريح متقلبة بين الخوف والرغبة.

ما كنت عالماً إلا أمراً واحداً؛ نسيته، لكنه عاد إلى ذهني من جديد: الحدس الداخلي هو نذير الشؤم.

وأما في ذلك الوقت، فقد كان واضحاً لي أن علي ألا أستسلم أبداً. في صباح اليوم القادم، سأعزز حصوني في مواجهة التيار العاصف المندفع صوبي.

لن أستسلم.

فلتذبل ذراعاي، وليخرس فمي، ولتجف روحي إن لم أفعل ما ينبغي على الرجل فعله.

ولتكن مشيئة الله.

أديت واجباتي الدينية في الصباح، أديتها كلها. أظنني كنت أكثر نشاطاً مما اعتدت أن أكون فأضفى نشاطي إثارة على تلك الكلمات والحركات المألوفة إذ تذكرت انزعاجي في الليلة السابقة وفكرت في أهمية ما ينبغي أن أفعله.. تماماً مثلما يكون قبل معركة حاسمة.. ولم أشك أبداً في أن عليّ أن أنطلق. يُجرح الرجال في المعارك، ويُقتلون أيضاً؛ وهذا ما جعل صَلاتي أكثر حماسة من أي وقت مضى. لكن، ما من عودة أبداً. من هنا، ما كانت اللعنات والأيمان ضرورية، تلك اللعنات والأيمان التي أبطلتُ بها ترددي في الليلة السالفة. تذكرت أن كل شيء كان، في حقيقة الأمر، مثلما كان قبل زمن طويل من تلك المعركة. استحممت عندما عدت يوم أمس، وظننت أن الماء سوف يهدئني. استحممت

في الصباح التالي أيضاً. قميصي نظيف لأنني لبست قميص قميص جديداً أبيض كالثلج مثلما كان قميصي آنذاك. لكني ذهبت إلى تلك المعركة مع آخرين، ذهبت ضمن طابور أقوى من الصخر، ذهبت حاملاً سيفي بيدي من غير غمد، وفي عيني فرحة حماسية. أما الآن، فأنا ماضٍ إلى المعركة وحيداً. آه، أيها الزمن البعيد. أنا الآن ماضٍ مرتدياً عباءة سوداء تعترض سبيل قدميّ، ماضٍ من غير سلاح في يدي، ذراعاي متراخيتان، وروحي وجلة.

لكني مضيت. كان علي أن أمضي.

ذهبت لرؤية حسن. ما كان لدي متسع من الوقت، وكنت نافذ الصبر، لكني توقفت عنده. ما كنت قادراً على الذهاب من غير رؤيته. لو فعلت، لكان ذلك أشبه بتضييع أمر بالغ الأهمية. لكني لم أدر سبباً لحاجتي إلى فعل ذلك. لا يستطيع مساعدتي، ولا يستطيع نصحي. لعلي ذهبت إليه لأنه أقرب الناس إلي مع أنه ما كان قريباً جداً. كان في هذا قدر من التطير، أو نوع من دفاعٍ في مواجهة سحر: قد تجلب سكينته حظاً طيباً.

لم أجده في البيت. دققت الباب زمناً طويلاً ظناً مني أنه كان نائماً. وبعد أن توقفت وصرفت النظر عن الأمر، فتحت الباب المرأة القصيرة مخبئة وجهها من جديد، مصححة شعرها. كان بها اضطراب غريب. قالت لي متعجلة متأتئة إن حسن ليس في البيت. خرج الليلة الماضية ولم يعد بعد. خرج زوجها باحثاً عنه. وهما الآن في انتظارهما. كانا معاً في انتظار الرجلين، منتظرين خلف باب مقفل، متحمسين، راضيين بأن تكون مشكلات الآخرين قد أتاحت لهما قدراً من السعادة.

وأيضاً، أخبرت الحافظ محمد بالمكان الذي أنا ذاهب إليه. أخبرته حتى أسمع ما يقول. ما كنت لأغير رأيي مهما قال. لكني أملت في أن يشجعني قليلاً. كان لطيفاً معي كأني أنا المريض، لا هو! قال عليك أن تذهب. كان عليك أن تفعل هذا في وقت أبكر. من واجبك أن تساعد الغريب، فكيف وأنت ذاهب لمساعدة أخيك! وأيضاً، لا تتردد! أنت لا ترتكب إثماً. كان هذا ما قاله لي، ما قاله مخلصاً متحمساً، لكن ما قاله ما كان تشجيعاً كبيراً لأن هذا ما توقعت

سماعه منه. وقد أدرك هذا. صحيح أن الرجل الطيب يقول دائماً ما هو متوقع منه، لكن ذلك ليس صادقاً، ليس إلا تعاطفاً فارغاً.

لم أجد حسناً هناك. لا يكون الناس موجودين أبداً عندما تبحث عنهم!

مررت بمخبز واستنشقت رائحة الخبز الحار فتذكرت أنني لم آكل شيئاً منذ اليوم الماضي. في الليلة الماضية، حدثني الحارس الليلي عن أرغفة الخبز هذه. علي أيضاً أن أجده اليوم. كيف لم يستطع إدراك أنني راغب في أن أقول له شيئاً؟.. ليس فقط عن الرجل الذي كان في انتظاري كي يهددني. لقد حاول حسن استبقائي ـ بالقوة تقريباً ـ حتى أسأله؛ لكني كنت أصماً أعمى. بعد ذلك، أرغمت نفسي على التفكير في زوجة القاضي. سأذهب من جديد إلى بيتها الصامت. فكرت في حسن وفيما فعله الليلة الفائتة، وأين ذهب. فكرت في أبي الذي سأخبره على الفور بعد أن يسوّى هذا الأمر كله. فكرت في الليلة الماضية، ليلة طويلة أرقة. فكرت في توافه لا حصر لها: لم يشذّب أحد شجيرات الورد في حديقة التكية. ستكثر أشواكها. أطفال مصطفى الذين صاروا يكثرون من الجلوس أمام التكية، وزوجته التي تطردهم من البيت حتى لا يزعجونها. يغمغم مصطفى متذمراً ويخرج إليهم بالطعام ـ سوف يسخر الناس منّا. صاروا، منذ الآن، يدعونهم أبناء الدراويش؛ لكن قلبي لا يطاوعني على طردهم. فكرت أيضاً في أمور أخرى لا يعلمها إلا الله حتى لا اضطر إلى التفكير في الحديث الذي سيكون بيني وبين المفتي. لا أقصد القول إني ما كنت عارفاً ما أريد قوله، بل كانت تفكيري منصباً على أني لن أعود قادراً على فعل أي شيء آخر. قبل صدور الحكم، ثمة متسع للأمل بكل شيء؛ وبعده لا يعود موجوداً غير الحكم نفسه. إن كان جيداً، فهذا يعني أن الأمل ما كان ضرورياً، وإن كان سيئاً، فهذا يعني أن ما من جدوى حتى من التفكير فيه.

كان بيت المفتي قائماً على مرتفع من الأرض. بيت منعزل ضمن حديقة أسوارها عالية. ما دخلت ذلك البيت من قبل. بدا لي أني لن أدخله الآن أيضاً.

قال لي حارس أمام الباب إن المفتي ليس في البيت. لقد ذهب إلى القصبة.

«متى يعود؟»

«لا أدري».

«أين ذهب؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لا أدري».

«من يدري؟»

«لا أدري».

إذاً، كان خوفي كله من غير مبرر. طال عمر أملي، لكنه بدأ يضعف. عما قريب، قد لا أعود محتاجاً إليه أبداً.

لم أدر ما أفعل. إن انصرفت، فلن أرى المفتي أبداً؛ وإن رأيته، فسوف يكون الأوان قد فات. أين ذهب المفتي؟ إلى أي بيت من بيوته؟ إلى أية مزرعة من مزارعه؟ أوغوسكو؟ أوغليشتشي؟ غور؟ تيخوفيتشي؟ إلى السهل؟ إلى البحيرة؟ إلى النهر؟ إنه يفر دائماً، يفر من كل شيء، من الحر ومن البرد، من الضباب ومن الرطوبة، من الناس. أين هو الآن؟ وحدهم الذين هنا قادرون على إخباري.

قلت للحارس شاكياً، «لا أدري ما أفعل. قال لي المفتي أن آتي. ثمة أمر مهم نتكلم فيه. يجب أن أعثر عليه».

هز الحارس كتفيه وكرر قول الكلمات الوحيدة التي لا يعرف غيرها. لكني لم أستطع حمل نفسي على الانصراف.

قلت له، «لا بد أن يكون في البيت من يعلم».

انفتح الباب عند ذلك، وظهر لي رجل نحيل، جندي قديم إن احتكمت إلى الندوب التي في وجهه وإلى بعض الملابس التي ارتداها (لا بد أنه نادم على رمي ملابسه القديمة). نظر إلي نظرة صارمة. كنت مجرماً في نظره إلى أن بررت وجودي.

قلت له ما قلته للحارس قبل قليل.

تعبير الريبة في وجهه جعلني أظنه شك في صدق كلماتي. ساءتي قلة ثقته، لكن رغبتي في ألا يصدقني كانت أقوى من ذلك. صرت متورطاً في كذبة. أُرغمت على فعل هذا. إذا علم المفتي ـ وسوف يعلم ـ فلا بد لي من طلب المغفرة، والعدل.

قلت محاولاً التراجع، «غير مهم».

في تلك اللحظة لاحظت أن وجه الجندي الصارم بدأ يتغير، بدأ يصير أكثر رقة ويفصح عن ابتسامة. لماذا؟

عندها عرفته. لقد قاتلنا معاً بعض الوقت؛ لكنه كان في الحروب قبلي، وظل فيها بعدي.

كان كل منا سعيداً.

قال لي فرحاً، «لقد تغيرت. كيف أستطيع معرفتك في عباءة الدرويش هذه؟ لكنك ترى.. لقد عرفتك».

«وأنت أيضاً. صرت أكبر قليلاً، وأكثر نحولاً، لكنك ما تزال مثلما كنت».

«الحقيقة أنني لم أعد مثلما كنت تماماً. مر عشرون عاماً. ادخل».

بدا لي كأنه صار أقل ثقة بعد أن أغلق البوابة من خلفنا.

«إذاً، هل أرسل المفتي في طلبك؟»

«أنا في حاجة إلى أن أكلمه. لم يشأ الحارس إخباري أين أستطيع العثور عليه».

ممر نظيف مستقيم مبلط بحجارة نهرية صغيرة. ممر أبيض اللون في الحديقة. كان الممر محاطاً بسياج من شجيرات التوت البري أوراقها خضراء رقيقة. الحديقة كلها منظمة تنظيماً بارعاً. أشجار فاكهة وبتولا وعرعر وأجمات ورد. يرى المرء شجرة واقفة وحدها وسط مرج. ويرى في أماكن أخرى أشجاراً متجمعة معاً. لوحة ضاحكة تحاكي الطبيعة، تحاكي الطبيعة التي تشبه لوحة ضاحكة. كان للجمال المورق المزهر في ذلك الحيز الفسيح أثر كأثر أعجوبة. وكان أكثر ذلك ناتج عن فكرة أن هذا الجمال كله مصنوع كي تخطو قدما رجل واحد على العشب الأخضر الناعم وحتى ترتاح أنظاره عند قمم الأشجار الرشيقة. يبدو حقاً أن ذلك الجمال كله نافلٌ عن الحاجة.

خفض الجندي صوته، وخفضت صوتي. كنا نتكلم شبه هامسين في تلك الغابة النظيفة المعتنى بها عناية حسنة، تلك الغابة التي أزيل منها كل ما هو بري، لكنها ظلت محتفظة بنضارتها في ذلك المكان الهادئ المحاط بجدار مرتفع حيث تصير أجنحة العواصف نفسها مقصوصة.

نظر الجندي عبر الممر صوب البيت الأبيض المختبئ بين الأشجار. نظرت مثله. تلتقط العين لمحات حادة من انعكاس الشمس على زجاج النوافذ، لمحات تتغير مع تمايل قمم الأشجار الخضراء في النسيم الرخيّ.

كان اسم الجندي كارا زيم. صار الآن ظلاً لكارا زيم القديم، لا أكثر؛ صار بقية رثّة من ذلك الشاب الجريء الذي هجم حاملاً سيفه وانقض على سيوف الأعداء المشهرة إلى أن أفلح فارس في اختراق قفصه الصدري بسيفه. حتى ذلك الوقت، كان دائم الإصابة بطعنات وجروح وضربات وتشوهات. فقد نصف أذنه اليسرى، وفقد ثلاثاً من أصابع يده اليسرى. في وجهه أثلام من ندوب حمراء حيث لم يفلح الجلد الجديد في النمو. ندوب أخرى مختبئة تحت ملابسه. كان دائماً سريع التعافي؛ وكان دائماً يعود إلى المعارك. كان دمه قوياً، وكانت الجروح العميقة في لحمه الفتي سريعة الاندمال. وأما عندما اخترقه سيف الفارس الرهيب ففتح صدره حتى دخل ضوء الشمس جوفه أول مرة، عندما اخترق حد السيف ما لا يصح اختراقه فجرح رئتيه، أحس كارا زيم أنه مات وأنه ظل متروكاً في حين تراجع زملاؤه الجنود. مسّ ممرضٌ يده الباردة ثم جرى خلف بقية الجنود معتزماً الصلاة عليه عندما يصل إلى مكان آمن. استيقظ كارا زيم ليلاً، أيقظه البرد. وجد نفسه بين الجثث وكان مستنفداً، هادئاً مثلها. لقد نجا، لكنه ما عاد صالحاً للجيش. فقد قوته ونشاطه وفرحه. صار الآن قيّماً على الحديقة، أو على البيت، أو مجرد شخص بائس يتلقى الصدقات.

نظر إلي مبتهجاً وقال: «أنا بخير». أرغمت نفسي على إلقاء نظرة على وجهه الهادئ الذي شوهته الندوب.. «عملي ليس صعباً. والمفتي واثق بي. أنا بمثابة رئيس الحراس هنا. أعطيهم بعض الأوامر، وأشرف عليهم.. أمور من هذا القبيل».

«كان ممكناً أن تصير شيئاً آخر. آمر قلعة. معاون قائم مقام. وكان ممكناً أن تعطى أرضاً وبيتاً، مثلما أعطيَ الجميع، كي يكون لديك شيء لك وحدك».

سألني وقد بان عليه قدر من الاضطراب، «لماذا؟ عرضوا علي ذلك. لكني لم أرغب فيه. أنا راضٍ. لا يستطيع كثيرون أن يخدموا في هذا المكان».

ساءني، بل جرحني، أن ينظر على كارا زيم الذي كان بطلاً ذات يوم إلى هذا البيت تلك النظرة الوجلة. إذا دخلته، فهل يكون علي أن أنظر إليه بالطريقة نفسها؟ مم يخاف؟ مم يخاف هذا الرجل الذي ما كان يخشى شيئاً أبداً؟

لم أشأ أن أجرحه فقلت، «أي بطل كنت! يا إلهي، أي بطل كنت!»

قلت هذا ثم ندمت، ندمت على الفور. لماذا أذكره بماضيه؟ لماذا أوقظه من هذا السبات؟ لم ينسَ (مُحال أن ينسى)، لكنه هدأ الآن واستقر، تجاوز الأمر كله، لعله تجاوزه. ما كان ينبغي لي أن أفتح جروحه القديمة.

يا حسرتي! كنت أتحدث عن نفسي أيضاً.

الآن، فات الأوان. قلت ما لا ينبغي قوله.

نظر إلي مستغرباً. بالتأكيد، لم يأت أحد على ذكر ماضيه منذ سنين؛ لعله أتى على ذكره بنفسه، محاولاً جعل الآخرين يقولون شيئاً، محاولاً جعلهم يتذكرونه مثلما كان. أم لعله ذاكرته نفسها ماتت! أيمكن أن يكون قد صار غير موجود في ذاكرة أحد من الناس؟ لكن، لعله ما عاد يتكلم على ماضيه! فلأي شيء يتكلم عنه؟ أو.. لعله يزداد كلاماً على ماضيه كلما ازداد ذلك الماضي بعداً، كلما ضعف أمله في أن يتذكره أحد. ما يزال كل شيء حياً فيه، وأما عند الآخرين فقد مات.

وهكذا، جاء درويش وذكّره بما كان. وكيف ذكّره؟ كيف تكلم على الأمر؟ لعله كان يحلم بأن يأتي أحدهم ويقول له قولي الذي سمعه مني، مثلما قلته بالضبط: يا إلهي، أي بطل كنت! لا بد أن كلماتي أصابته في قلبه وسرت في دمه مثل ريح حارة فأصمّت أذنيه. أو لعله ظنها كلمات آتية من أحلامه، كلمات ما نطقها أحد، كلمات جعلته الرغبة في سماعها يسمعها. لكن، لا! هذا الدرويش المخبول هو من قالها. لقد تذكر فتكلم.

نظر إلي لحظة. كان حائراً، ضائعاً، كأن به صَرَع. لم أدر ماذا يمكن أن يفعل: قد يقفز فرحاً ويسقط على حجارة الممر، يسقط ضعيفاً هشاً، أو قد يحتضنني حتى يستطيع البقاء واقفاً على ساقيه الضعيفتين، أو يضحك، أو يبكي ثم يموت. لكني ما كنت على معرفة كافية بكارا زيم الشجاع. أتذكره بطلاً: كيف يمكن أن يكون الآن مختلفاً؟ لم يفضح عن سروره شيء غير ارتعاشة صوته وأزيز خافت من رئتيه المثقوبتين.

«أوتذكر؟ هل تذكر هذا حقاً؟»

«أذكره. أراك كلما فكرت في تلك الأيام».

«وكيف تراني؟» همس بهذا همساً كأنه يناديني من ظلمة الزمان.

«أرى النور محيطاً بك، يا كارا زيم. أراك في ميدان واسع، وحدك. تسير وئيداً من غير التفات، من غير أن تنتظر أحداً. ملابسك بيضاء كلها. ذراعاك عاريتان حتى المرفقين. سيف في يدك؛ ولعل ذلك البياض آتٍ من انعكاس نور الشمس على نصله. لا شيء يوقفك فأنت كالريح. أنت مثل شعاع من نور الشمس قادر على دخول كل مكان. توقف الجميع ناظرين إليك من بعيد. وأنت وحدك.

«ما كنت أسير هكذا».

«هكذا أتذكرك. ما لعله حدث حقاً قد مُحي وزال، ولم يبق شيء غير التذكر».

«هذا جميل. هذا أجمل مما كان في الواقع. أو، لعله ليس كذلك. تقول إني كنت محاطاً بالنور!.. في ميدان واسع!»

كانت كلماته همساً مخموراً. نظر إلي باحثاً عن صورته في كلماتي، باحثاً عن مجده الغابر على شفتي.

حسبني أُنشد أغنية عن شجاعته، لكني ما كنت أحس شيئاً غير أسف عليه.

صرت غير قادر على المواصلة.

هممت بالانصراف وقلت، «يسعدني أنني رأيتك».

«انتظر».

لم يرد أن يتركني أذهب، فأنا من كان في انتظاره منذ أمد بعيد، أنا من يعرفه. كنت شاهداً على أن الذكريات لا تموت؛ وكنت تأكيداً على أنه ما كان ظلاً فحسب. عوَّضتْه ذاكرتي عن نسيان طويل، عوَّضتْه عن انتظاره المديد الصبور.

الكلمات نفسها، وحالتان مزاجيتان مختلفتان. كلتاهما من مصدر واحد، لكن فرحته كانت حزني. لا أهمية للأمر لأن كل واحدة منهما عمرها ألف سنة، بل أكثر. لا يستحق شيء من هذا أي اهتمام.

«علي أن أذهب».

«انتظر. المفتي هنا، في البيت. تعال معي. تعال إن كان الأمر مهماً. قل له إنني من أدخلك. لا، لا تقل ذلك. قل له إنه أرسل في طلبك».

«لم يرسل في طلبي. جئت من تلقاء نفسي».

«أعرف هذا. لا تقل له إلا: لقد أرسلتَ في طلبي. مشاغله كثيرة، ولن يتذكر. وإذا سألك عني، إذا سنحت لك فرصة قول شيء عني، فقل له ما تعلمه.. عن الزمن الماضي».

قالوا لي إن المفتي قد ذهب. كنت آسفاً لذلك. لكني قبلته. وكان من الأسهل علي تقريباً أن أرجئ كل شيء. ثم تغيرت الأمور الآن تغيراً مفاجئاً، وما أردته سوف يحدث الآن. كنت مرتبكاً، غير مستعد. لم تفاجئني رغبة كارا زيم في أن أذكره أمام المفتي، لكني أسفت لتراجعه المفاجئ عن عرضه بأن يتركني أن أعتمد على مركزه عندما أرى المفتي. كان ما يزال مفكراً في صورته، صورته في النور، في ميدان المعركة البطولي، فعرض علي أن يحميني. عرض ورفض في اللحظة نفسها، لحظة تذكره كم كان ماضيه بعيداً. توهج ثم احترق وانطفأ في اللحظة نفسها. ما يزال وجهه ذو الندوب مشعاً سعادةً بما كانه؛ وما يزال ممتلئاً ألقاً جزعاً مما صارت عليه حاله الآن. تُرى، هل يتصادم الزمنان فيه دائماً؟ كانا زمنين مختلفين جداً، لكنهما غير قابلين للانفصال. لا يستطيع التخلي عن أي منهما.

راح يتهامس مع رجل عند مدخل البيت فحسبت مضطرباً، آسفاً على أن مساندته البائسة قد تفلّتت من بين يديّ، أن ما بي من قلة أمان يشبه ما لديه. محزن كيف ينتظر الواحد منا مساعدة الآخر ولا يعتمد على نفسه إلا قليلاً. كنا نحاول جمع ضَعفين اثنين في أمل واهٍ واحد. ثمة أمل باقٍ فيه، لكنه لا يساوي أكثر مما يساويه أملي الذي كان قد تحطم.

عندما خرج الرجل من البيت وقال لكارا زيم شيئاً أرفقه بإشارة، أو بكلمة هامسة، أومأ لي بيده كأنه يقول لي، لقد ساعدتك. ادخل! من غير أن يقول شيئاً، أرسلني صوب مدخل البيت. كان معنى هذا: اذهب فقد ينتهي كل شيء على خير. لكني لم أر الأمر كله إلا مروراً، إلا رؤية غير واثقة مثلها مثل رؤيتي شجرة الليمون الهزيلة أمام البيت وإلى جانبها نخلة أشد منها هزالاً بعد أن كاد الشتاء القاسي

يهلكها، نخلة نائمة في شمس الربيع مثلما ينام شخص مقعد. لست أذكر أين مضيت ولا عدد الأشخاص الذين تابعتني عيونهم. أمضيت الوقت كله مفكراً في الكلمة الأولى التي سأقولها. الكلمة الأولى! كانت كأنها سلاح أو كأنها درع. كل شيء معتمد عليها، لا لأنها ستشرح كل شيء، بل لأن من الممكن أن أفقد شجاعتي كلها إن كانت كلمتي الأولى في غير محلها. قد تجعلني تلك الكلمة أبدو سخيفاً، وقد تفرض نفسها كأنها حكم عليّ. جربت في ذهني كلمات كثيرة فكان كل استهلال تخيلته مدهشاً حقاً كأني أعاني انهياراً عقلياً، أو كأن بي ارتجاجاً دماغياً جعل كل شيء مهتزاً ولم يترك لي غير تشوش وكلام من غير معنى. عندما سرت في الممر الذي ظل في وعيي مظلماً غير واضح المعالم، راح كل شيء يتوارد إلى ذهني، من الأيمان المغلظة حتى اللعنات. أنا عاجز حتى عن تدوين كل ما أراد أن يخرج من فمي في ذلك اللقاء الأولى، في تلك المقابلة الأولى. كان كل ما أتاني، كل ما تبادر إلى ذهني، غير قابل للفهم أبداً. كان جنوناً يصعب تفسيره. كنت أغلي غضباً كأني أسخر من كل ما هو منطقي. كان ذلك كأن شيطاناً تملكني وراح يهمس لي بأبشع الكلمات وأشدها تنفيراً، بأغبى التصرفات وأبعدها عن اللياقة. كنت مصدوماً. كيف عثر ذلك الشيطان عليّ في تلك اللحظة نفسها عندما كنت في حاجة إلى أقصى حد من الاتزان؟ لكنه يأتيك عندما لا تتوقعه، يأتيك عندما تكون في أسوأ حال. فأن تفكر في الذهاب إلى المفتي وفي أن تدعوه «حمار أنطاكيا» مثلما فعلت، أنا الرجل الجاد المسالم، لا يمكن إلا أن يكون عملاً من عمل الشيطان. اذهب عني يا من خان ربه! صحت به مهدداً فازداد حماسة.

أحزنتني أيضاً تلك الشجرتان المداريتان في تابوتيهما الخشبيين، النخلة وشجرة الليمون أمام البيت. كنت عالماً أن المفتي من أنطاكيا، وأنه لا يتكلم لغتنا. لكني لم أستطع تذكر أين تقع أنطاكيا هذه، في أية أرض، وأية لغة يتكلم بها الناس هناك.

شاء حظي الحسن ألا يضطرني إلى قول الكلمة الأولى. لم يضطرني إلى قول أي شيء. لم يضطرني إلى فعل أي شيء.

في الغرفة التي أخذوني إليها، وجدت المفتي يلعب الشطرنج مع رجل لم أره قبل ذلك أبداً. كانت اللعبة قد انتهت، في واقع الأمر، أو توقفت. لم أدرك أول الأمر ما كان جارياً في تلك الغرفة، وما كنت مهتماً بمعرفته. لكن الرجل الآخر، الرجل الذي لا أعرفه، الرجل البدين بدانة غير معافاة، الرجل صاحب الابتسامة المتعبة المتواضعة الصبور، كان يوافق على كل ما يقوله المفتي له ويواصل الالتفات برأسه صوبي كي يحوّل انتباه المفتي إلي ويبعده عن نفسه. لا بد أنه كان يتمنى لي النجاح في كل ما سعيت إليه.. بعد أن يلاحظ المفتي وجودي.

لكن زمناً طويلاً انقضى قبل أن يرى المفتي أن في الغرفة رجلاً غيرهما (غريب! لا بد أن يكون هو من قال لهم أن يدخلوني عندما أخبروه أن هناك من يطلب الدخول عليه). لم يرد على تحيتي.

لقد أمضى الشتاء كله واهناً في بيته ذي التدفئة المبالغ فيها، مذعوراً لشدة البرد الذي جعل أصابع من جليد طولها قدمان تتدلى من الأفاريز. لا بد أنه نظر إليها حائراً، عجِباً، جَزِعاً، مصفرّ اللون، مثلما نظرتْ إليها شجرتاه اللتان كادتا تموتان قبل رؤية الربيع. كان يدفئ نفسه في الشمس مديراً ظهره صوب النافذة واضعاً معطف الفرو على كتفيه.. ذابلاً، نزقاً.

كان كل منهما بديناً؛ إلا أن توزع الشحم في جسديهما كان مختلفاً. بديا لي واهنين، من غير لون؛ وبدا لي أن الهواء داخل الغرفة جففهما كأنهما جالسان هنا منذ الخريف، منكبان على تلك الطاولة السوداء وعلى قطع الشطرنج المصنوعة من العاج.

كان المفتي يعترض حانقاً أول الأمر، ثم بقدر أكبر من الضعف واللا مبالاة؛ وكان الرجل الآخر يوافقه. بدا لي غريباً كيف يطرح المفتي أسئلته، وكيف يجادل، وكيف يجيب. لم أستطع فهم شيء من ذلك.

«ثمة أمر غير سليم».

«أستطيع رؤية هذا».

«أنت لا تستطيع رؤية أي شيء».

«ثمة أمر غير سليم».

«كنت في وضع أفضل، طيلة الوقت».

«أعرف».

«ماذا ترى؟»

«لقد قمت بنقلة خاطئة، لست أدري أين».

«إذاً، فلماذا أخسر الآن؟»

«ليس الأمر واضحاً أبداً».

«لا بد أنك قمت بنقلة سيئة».

«لا بد أني قمت بنقلة سيئة».

«كيف وصل حصانك إلى هناك؟»

«فعلاً.. هذا هو الخطأ. ما كنت قادراً على نقله من حيث كان إلى هذه النقطة».

«إذاً، كش ملك! ».

«تماماً. انظر! لقد جاء شيخ».

«لماذا لا تنتبه إلى ما تفعل؟ لا أستطيع متابعة كل شيء وحدي».

«لا يحدث لي هذا عادة».

«إن كان حصانك هناك، فسوف آخذه! صحيح؟ سوف آخذه! خذه!»

«والآن، كش مات».

«أيّ شيخ؟».

أشار الرجل إليّ سعيداً فالتفت المفتي صوبي. كان وجهه رمادياً مصفراً متهدلاً. جيوب ثقيلة تحت عينيه. سألني من غير أن ينهض.

«هل تلعب الشطرنج؟»

«لست ماهراً».

«ماذا تريد؟»

«أنت طلبت مجيئي. أردت أن أكلمك».

«هل أنا من قال هذا؟ نعم، نعم. لمن قلته؟ كيف الأحوال في الخارج؟»

«الطقس مشمس. دافئ».

«هذا ما قالوه في الشتاء الماضي. الطقس ليس بارد. هل يكون الشتاء هنا قاسياً طيلة الوقت؟»

«طيلة الوقت، تقريباً».

«بلاد فظيعة».

«يستطيع المرء أن يعتاد الطقس هنا».

«بلاد مضجرة. هل تلعب الشطرنج؟»

قاطعه الرجل البدين بكل لطف: «هو لا يلعب الشطرنج. قال لك هذا منذ لحظة؟»

«وماذا يريد؟»

«لديه طلب».

«من هو؟»

قلت له من أنا. قلت له إن عندي مشكلة، وإني ألتمس العدل. إن لم يستجب إلى طلبي، فلن يعطني العدل أحد غيره.

نظر المفتي إلى الرجل الجالس أمامه من غير أن يخفي ضجره.. كاد يبدو قانطاً.

أين أخطأت؟

نهض المفتي. التفت جهة اليمين وجهة اليسار كأنه يبحث عن مكان يفر إليه، ثم راح يسير في الغرفة بخطوات حذرة فوق بقع نور الشمس على الأرض. لكنه لم يلبث أن توقف وغرق في التفكير. نظر إلي نظرة كئيبة، «تكلمت في هذا الأمر مع ملا القسطنطينية. كنت أحب أن أكلمه من وقت إلى آخر، لا لأنه ذكي.. الناس الأذكياء يمكن أن يكونوا مضجرين جداً.. بل لأنه يعرف كيف يقول ما هو غير متوقع، يعرف كيف يقول ما يفاجئك ويوقظك. هل تفهمني، يا مالك؟ أنا واثق من أنك لا تفهمني! شيء جعل الإصغاء إليه والرد على ما يقول أمراً ذا قيمة. لقد قال: علمُ البشر قليل الشأن. لهذا السبب، لا يستطيع الإنسان الذكي أن يجني عيشه مما يعرف. لكني أردت قول أمر غير هذا.. في أي شيء كنت أكلمك؟»

أجابه مالك: «كنت تكلمني عن ملا القسطنطينية».

«لا. بل عن العدل. لقد قال لي مرة: العدل. نحسب أننا نعرف معناه. لكن ما من شيء يمكن أن يكون أكثر استعصاء على التعريف. قد يكون هو القانون، أو الانتقام، أو الجهل، أو الظلم. الأمر كله معتمد على وجهة نظر الشخص! وقد أجبته..»

بدأ السير من جديد. سار صامتاً، ثم بدا كأنه تعثر فجأة. بدا لي كأن فيه ساعة تجعله يواصل الحركة وتبث الحياة في كلامه وجسده. عندما تتوقف الساعة، يتوقف بدوره ويصيبه الوهن.

لم يعرض علي الجلوس؛ وما كان مهتماً بما أريد قوله. ما كان أمامي شيء أفعله غير أن أبدأ الكلام أو أنصرف. على هذا النحو، قد أصير مالك الثاني، ظلاً للمفتي، لا أكثر. أصير شخصاً لا نفع منه، مثل مالك الأول. قررت أن أتكلم.

«جئت بالتماس».

«أنا مرهق».

«قد يثير اهتمامك».

«أتظن هذا؟»

«دعني أحاول. تكلمتَ على العدل. العدل مثل العافية: لا تفكر فيه إلا عندما ينقصك. الحقيقة أنه عصيّ على التحديد؛ بل ربما هو ـ أكثر من أي شيء آخر ـ رغبة في محو الظلم الذي هو بدوره شديد الاستعصاء على التحديد. المظالم متساوية كلها، لكن المرء يحسب دائماً ما يقع عليه من ظلم أعظم المظالم على الإطلاق. إن فكر المرء هكذا، فلا بد أن يكون تفكيره صائباً لأن ما من أحد يستطيع التفكير بعقل إنسان غيره».

تحركت ساعة المفتي من جديد. نظر إلي كأنه فوجئ. توقفت عيناه الثقيلتان علي. رأيت فيهما موافقة على ما قلت. ليست قوية جداً، لكنها كافية لتشجيعي. لقد أثرت اهتمامه. كان هذا ما أردت: هو من علمني ما قلت. علمني إياه من خلال قصته عن ملا القسطنطينية. قصة لا معنى لها. لكني سرعان ما أدركت أن اللعب بالكلمات في شؤون عامة أسهل من التلاعب بها في شأن بعينه، شأن هو شأننا ولا أهمية له عند غيرنا.

قال المفتي منتظراً بقية كلامي، «جيد»؛ فرمقني مالك بنظرة احترام.. «كلامك أثار اهتمامي. لكن، هل يستطيع أشخاص آخرون كثيرون أن يفكروا في الفكرة نفسها؟ إن استطاعوا، فهل يعني هذا أن الواحد منهم يكون عندها مفكراً بعقل غيره؟»

«أفكار الإنسان الحقيقية مختلفة دائماً بين شخص وآخر، تماماً مثلما تختلف راحات الأيدي».

«فما هي أفكار الإنسان الحقيقية؟»

«الأفكار التي لا يفصح عنها عادة في الأحوال العادية».

«تعبير جيد. قد يكون غير صحيح، لكنه جيد. وبعد هذا؟»

«أريد الكلام عن مصيبتي. قلت إنها تبدو لي أكبر المصائب، لأنها مصيبتي. لكني أتمنى لو أنها كانت مصيبة غيري. لو كانت كذلك لما استعجلت معرفة شيء عنها مثلما أستعجل الآن الكلام عنها».

كنت أتعجل الانتقال من الأفكار العامة إلى ما يؤلمني قبل أن تتوقف ساعة المفتي عن الحركة، حين تظل عيناه حيتين، ولو قليلاً، فقد خشيت انهياره الوشيك. عندها، سترفرف كلماتي حوله من غير جدوى.

صار واضحاً لي، أكثر فأكثر، أن الضجر والسأم يعذبانه. كانا يجللانه مثل كفن، يخيمان عليه مثل الضباب، يغطيانه مثل راسب طيني ثقيل، يحيطان به مثل الهواء، يجريان في دمه، في أنفاسه، في دماغه. كانا ينسابان منه انسياباً، ومن كل شيء حوله، من الأشياء والفراغ والسماء. كانا يتطايران منه مثلما يتطاير دخان سام. وكان أمامي أمران لا ثالث لهما. إما أن أسقطَ في هذا القنوط كله، أو أقاومه.

لست أبالغ في شيء. لو خيل في ذهني أن هذا قادرٌ على تبديد الضباب المعتم داخله، لرفعت أطراف عباءتي وبدأت الرقص، أو لفعلت أمور أخرى لا يمكن أن تتبادر إلى ذهن إنسان عاقل. فلعل انتباهه ـ قبل أن يغيب ـ يجعل يده المصفرة، عديمة اللون، تكتب أربع كلمات فاصلة: أطلقوا سراح السجين هارون. لن يعرف ما كتبت يده؛ ولن يتذكر من الأمر شيئاً. أقول إني كنت مستعداً لفعل أي شيء،

للإقدام على أي شيء، على أي جنون، على أي فعل مقيت. وما كان هذا ليجعلني أخجل من نفسي بعد ذلك، بل سأتذكر معتزاً كيف نجحت في هزيمة اللا مبالاة الميتة عند رجل شبه ميت، كيف هزمتها من أجل رجل حي، من أجل أخي. لكني لم أجرؤ على تغيير اللعبة. رأيت أن شيئاً من البهلوانيات الروحانية استطاع إيقاظه لحظة وجيزة. كان هذا مثل الحشيش: عليّ أن أعطيه المزيد منه ثم المزيد حتى لا يهوي في حالة من السبات تكون أشد ثقلاً.

كان ذلك أغرب صراع أسمع به في حياتي كلها: صراعٌ ضد ما به من خمول، ضد شلل إرادته، ضد تقززه من الحياة. صراع صعب، معذِّب، لأنه لا بد من خوضه بوسائل غير طبيعية، بطرق معوجّة في التفكير، بجمع قبيح بين مشاعر لا اتفاق بينها، بعنف في حق الكلمات. لكني خشيت، خشيت حقاً أن يتضاءل انتباهه لحظة أتوقف عن تلك اللعبة وأتحول إلى هدفي الحقيقي، إلى السبب الذي جعلني أفعل هذا كله، أفعل كل شيء. كان لا بد لي من التحويم فوق غايتي الحقيقية، من الاقتراب منها مع مواصلتي إخفاءها لأن حواسه قد تنغلق على نفسها لحظة اكتشافه ذلك.

من حسن حظي أنه ما كان كاذباً، ولا غامضاً، وما كان يخفي شيئاً: كان كل شيء ظاهراً عليه، كل ما يعجبه، وكل ما لا يعجبه. من هنا، رحت أقود أفكاري المضطربة بحسب ما يبينُ على وجهه من تعابير غائمة أو صافية. أسعدني وجود هذه العلامات لأنه كان ممكناً أيضاً أن أجد نفسي من غيرها.

كان كل ما فيه يقول: فاجئني، أيقظني، أدفئني! وقد واصلت محاولة إدهاشه وإيقاظه وتدفئته، واصلت خوض معركتي اليائسة الرامية إلى إبقاء ذلك الرجل المحتضر على قيد الحياة. وكنت واقفاً على شفير البكاء خيفة ألا أنجح لأن أملي كله متعلق به. قلبت عقلي رأساً على عقب، وبحثت محموماً في زواياه كلها علّني أجد شيئاً من رَوث الشيطان محاولاً جهدي مع تلك الجثة حتى لا تكون هناك جثة أخرى. لم تأتني نفحة عابرة من ارتياح إلا عندما جلس وقد بان في وجهه المترهل شيء من الحيوية والاهتمام. لحظتها، فتح أملي جناحيه الصغيرين.

قلت: «إن لي شقيقاً..» قلتها مغمغماً، متسائلاً إن كان ارتفاع علو صوتي كافياً.. «لكن، إذا لم أخبرك بالأمر سريعاً، فقد أجد نفسي مضطراً إلى القول: كان لي شقيق. إن 'لي' و'كان لي' مثل 'عندي و'ليس عندي'. لحظة واحدة من مشيئة حسنة أو رديئة عند واحد من الناس يمكن أن تقرر هذا. هو أخي لا لأني أردته؛ فلو أردته لكنت أنا من خلقته. عندها لن يكون أخي. لست أدري إن كان أبي قد أراده. لكنه، عندما ضاجع أمي، عندما دخلت رحمها قطرةٌ من سائل عكر، من تلك المتعة بينهما، المتعة التي ما كنت عالماً بها، نشأتْ تلك الرابطة المُلزمة التي يدعونها ابناً وأخاً. كان أخي راحة مرغوبة، أو كان أحياناً مشكلة. ربطنا الله به من غير أن يسألنا فمنحه مسرّات لا نستطيع مشاطرته إياها، وأثقل علينا بمشكلاته كلها وبحظه العاثر كله. وكما يعلم عقلك السامي، الحظ العاثر أكثر من المسرات. إذاً، نستطيع القول إن الإخوّة حظ عاثر يرسله الله إلينا فنقبله لأن تلك هي مشيئته، لأن ذلك هو قدرنا، ونحمد الله على كل شيء. من هنا، أحمد الله على هذا الحظ العاثر، لكني أتمنى لو أنه كان شقيقك حتى أحمد الله على مسرّة الاستماع إليك مثلما تستمع إلي الآن. في تلك الحالة، لن يكون الأمر عندي بذي بال. لكن، بما أنه لا يستطيع أن يكون شقيقك ـ لأنه شقيقي ـ وبما أنني لا أستطيع أن أكون أنت لأن الله شاء ألا أكون أكثر من درويش قليل الشأن، فليكن كل منا على حاله: أنا أرجوك، وأنت تقرر. أو، من الأفضل القول: أنا أتكلم، وأنت تستمع. أعلم أن الأمر أكثر صعوبة عليك، فأنت لست مضطراً إلى هذا، وأنا مضطر إليه».

لقد أيقظته. دبت فيه الحياة، وكان مصغياً، ناظراً، فاهماً، مستوعباً! لم يقتضِ الأمر أن أرقص أمامه، فقد كلماتي الفارغة كافية. فلتطر كلماتي مثلما تطير الريح، ولتثب وتتقلب مثلما تفعل السعادين، وتندفع اندفاعاً كأن جنوناً قد مسها، ولتطر بين أشعة شمس الربيع وظلال تلك الغرفة. إذاً.. استقر جالساً على كرسيه، مصغياً، منتظراً.

سألني بقدر معقول من الحماسة: «وماذا أيضاً؟» كان ظله الأول، مالك، محدقاً فيّ، مستغرباً. لعله كان يتعلم مني. ما كنت قادراً على رؤيته جيداً؛ وما كنت مبالياً به. نظرت إلى وجه المفتي. ثمة أمل، يا أخي هارون! ثمة أمل!

«وهكذا، أقول إن لي أخاً، أو إني في منتصف الطريق إلى أن يكون لي أخ: أقول اسمه، لكنه حبيس في الحصن. نصف حياته هنا، ونصف حياته هناك. إذا فقد هذا النصف الذي هنا، فقد يفقد ذلك النصف أيضاً».

«أي نصف؟»

«النصف الذي ما يزال في يدي بينما أقول لك هذا».

«أي حصن؟»

«الحصن الواقع فوق البلدة».

«لا مشكلة.. تابع!»

«إنه الحصن الذي يأخذون إليه الأشرار ـ اللصوص والمجرمين والخارجين عن القانون وأعداء السلطان. يحدث هذا أحياناً. لكن أكثرهم ليسوا إلا حمقى. حمقى لأنهم يحسبون أنفسهم غير آثمين مع أن معرفة هذا أمر غير ممكن أبداً. يحاولون دائماً أن يجعلوا العالم مكاناً أفضل؛ لكن هذه ليست مهمتهم، ولم يطلب أحد منهم ذلك. إلقاء القبض عليهم سهل مثلما هم معتزون بحماقتهم. هذا ما يجعلهم أكثرية بين السجناء. من هنا، قد يخلص المرء إلى أن الأذكياء وحدهم من يظلون أحراراً؛ لكن الأمر ليس هكذا: الأغبياء أيضاً يبقون أحراراً إن عرفوا كيف يخفون غباءهم. يزج بالأذكياء في السجن إذا أظهروا ذكاءهم. وأما الآخرون الذي يبقون أحراراً فهم من لهم الحق في أن يكونوا ما يشاؤون. كان أخي لا أحد، وكان رجلاً سعيداً ليس لديه ذكاء كافٍ لأن يجعله مرهوب الجانب ولا غباء كافٍ لأن يجعل أي إنسان عارفاً ما قد يفعل. كان أكثر جبناً من أن يصير خارجاً عن القانون وأكثر سذاجة من أن يكون طالحاً، وأشد كسلاً من أن يكون عدو أحد من الناس. اختصاراً أقول إن مشيئة الله حكمت عليه بأن يحييّه الناس من غير احترام وبأن يعرفه الناس بقيمته من غير أن يطلبوا منه إظهارها.

«لماذا هو في السجن؟»

«لأنه لم يصغ إلى ما قاله والدنا».

«لقد أثرت اهتمامي».

«والدنا رجل بسيط يعمل قدر ما يستطيع أن يعمل ويعطينا قدر ما ينبغي أن يعطينا. ليس مهتماً بشيء غير المطر والغيوم والشمس والديدان وآفات البطاطس وأمراض القمح واسوداد حبات الذرة وبأن يسود السلام في أسرته. ولما كان بسيطاً هذه البساطة كلها، لما كان شخصاً من قطعة واحدة كأنه ملعقة من خشب أو قصعة أو مقبض محراث، فهو لا يترك أبداً عادته الأبوية التي لا جدوى منها، عادة القول إن الآباء يقولون دائماً، لكن الأبناء لا يصغون إليهم أبداً. نصح أخي بألا يترك البيت: سوف تغدو الأرض قاحلة وتزداد البلدة ازدحاماً. متّسعٌ أقل وأفواه كثيرة، إمكانات قليلة ورغبات كثيرة. سوف يبدأ الناس خنق واحدهم الآخر من أجل قطعة أكبر من الخبز. لم يعره أخي أذناً صاغية. قال له والدنا: تذكر هذا. مشكلتنا هي أن ما من أحد منا يرى نفسه في مكانه الصحيح، وأن كل واحد يرى إمكانياته في خصومة مع إمكانيات من عداه. يزدري الناس من لا ينجحون، لكنهم يكرهون من يرتفعون ويعلون أكثر منهم. إن أردت السلام فعليك أن تألف ذلك الازدراء أو أن تعتاد الكره إن قبلت النزال. لكن، لا تدخل معركة إلا إذا كنت واثقاً من أنك ستهزم خصمك. لا تشر بإصبعك إلى كذب الآخرين إذا لم تكن لديك قوة كافية تجعلك في غيرما حاجة إلى إثبات ما تقول. لكن أخي لم يصغ إلى هذا الكلام أيضاً. الآن، صار لدى والدنا الآن سبب لأن يفرح ويقول: هذا ما يصيب الأبناء إن لم يطيعوا آباءهم».

أثناء كلامي، لاحظت مذعوراً أن الضوء الواهن في عيني المفتي بدأ يخبو. صارت عيناه ثقيلتين، متعبتين، وبدا أن في تعبير وجهه شيء مفقود. سألني وهو لا يكاد يقوى على فتح فمه: «من الذي لم يطع ذلك؟»

آه، يا ربي! كنت ماضياً من غير انقطاع، لكن المسافة تصير أكبر فأكبر. أصابه الذعر لحظة اقتربت من هدفي الحقيقي. لحظة بدأت محاولة الاستفادة مما بنيت، هدمه كله. ما من آخر لهذه المهمة!

تابعت مسرعاً من غير تمييز. على الأقل، ما تزال فيه بارقة من حياة، وإلا لما طرح علي ذلك السؤال. بدأت أفقد اهتمامه فقد أتعبته بتفلسفي. لم أكن ألعب اللعبة، بل أسخر منه. لقد انسقت وراء مرارتي، وبدأ كل شيء يصير خطيراً. داهمني دوار: أرجوك، انتظر أكثر قليلاً ولا تفقد وعيك! لحظة واحدة فقط!

خبا آخر شعاع من ضياء الشمس وصرت واقفاً في هباء جليدي. أمامي ليلة طويلة ميتة. لكني غير قادر حتى على الصراخ.

أضعت ثقتي بنفسي. كان سهلاً علي أن أجمع الكلمات معاً، لكن تلك السهولة اختفت. أحسست أن كلماتي ما عادت تطير أو ترفرف بل صارت تزحف على الأرض مثلما تزحف الديدان.

حفنة واحدة فقط من كلمات مجنونة، يا ربي، امنحني إياها فأنا أقاتل من أجل حياة إنسان! دعوت الله يائساً، لكن الدعاء لم يجد فتيلاً. سحقني فشلي الذي كنت قادراً على رؤيته في وجهه.

أين تنزلق مبتعداً، يا أخي هارون؟

كان كل ما قلته بعد ذلك عقيماً لا فائدة منه. صرت مرغماً على الكشف عن غايتي.

كان المفتي يغرق في الضجر بسرعة متزايدة، يغرق أعمق فأعمق في بركة من لامبالاة ميتة. سوف يبدأ موت العالم بسببه.

أغفى مالك وتدلت رأسه على صدره.

قال لي المفتي وكان كأنه مذعور بقدر ما كنت، «أنا متعب. أنا متعب. اذهب الآن».

«لم أقل لك كل شيء بعد. «مرهم بإطلاق سراحه».

«إطلاق سراح من؟»

«أخي».

«تعال غداً. أو، قل لمالك. تعال غداً».

استيقظ مالك خائفاً، «ماذا حدث؟»

«يا إلهي، شيء مضجر كثيراً».

«هل تريد أن نلعب الشطرنج؟»

«لم يحدث شيء».

كان يجيبه بحكم العادة، ويغفَل عن الأسئلة، ثم يتذكر بأعجوبة كلمة من الكلمات فلا تلبث تلك الكلمة أن تحظى بإجابة. أبداً، ما كان شيء من ذلك كله يبدو ذا معنى.

خرج من الغرفة حتى من غير أن ينظر إلينا. خرج مغموماً. بل لعله نسي أننا كنا هناك. لكن، لعله كان هارباً منا!

لم أستطع أن أهزم ضجره. لقد غلبه وغلبني. صرت لا أكاد أطيق انتظار الانصراف. لو علمت ما ستكونه هذه المحاولة، لما جرؤت عليها!

رماني مالك بنظرة قاتلة، ثم سار بخطوات سريعة حاملاً جسده الرخو، مسرعاً في أثر المفتي.

«قال لي أن آتي غداً».

«لست أعلم شيئاً. أوف.. لقد دمرتني!»

إذاً.. انتهى الأمر الآن. لعله كان علي أن أمسك المفتي من أذنيه الاثنتين وأن أصفع جبهته الصفراء بيدي. ما زلت غير عالم أين تكون أنطاكيا ولا اللغة التي تكلمنا بها. بدا لي كأني كنت طيلة الوقت واقفاً على رأسي، وكأني كنت معلقاً بين الأرض والمصباح، وكأني كنت حاملاً سقف الغرفة بكتفي، ضائعاً، مدفوعاً إلى الجنون بفعل ضجره وبفعل لهفتي إلى التغلب على ذلك الضجر. لقد تكلمت حقاً تلك اللغة الغريبة، لكن من غير طائل. قد تكون المحاولة عقيماً في اليوم التالي أيضاً لأني سآتي محبطاً بعد فشلي اليوم. كان علي أن آتي من جديد، لكني لن آتي من غير تردد، ولن أظل جاهلاً أين تكون أنطاكيا هذه فحسب ـ اللعنة على تلك المدينة! ـ لن أكون عالماً حتى اسمي نفسه! سوف أعود إلى تعذيبه من جديد، ويعود إلى تعذيبي، مثلما يفعل زوجان عجوزان في ثاني ليلة بعد زفافهما بعد الليلة الأولى التي كانت فشلاً محزناً. على أن شيئاً من هذا لن يدوم طويلاً لأن أياً منا لن يكون آملاً في الكثير.

الآن، ليس لدي مكان أسرع في الذهاب إليه. لم تكتب يده البطيئة الصفراء ذلك الأمر، لم تكتبه في لحظة نشاط عابرة: أطلقوا سراح السجين هارون.

أهذا ما جعل هارون السجين يغرق في ظلمة أشد عمقاً؟

خرجت من البيت. قادوني إلى الخارج. دفعوني إلى الخارج. وهناك، أمام البيت، كان كارا زيم المنسي في انتظاري. لا يتذكره الناس بعد مرور عشرين سنة؛ وقد نسيته بعد ساعة واحدة! كان هو الشخص الوحيد الذي لم ينس ـ هكذا هي الحياة.

نظر إلي قلقاً وقال: «بقيت في الداخل وقتاً طويلاً».

«أتستمر مبارزة وقتاً أقصر من هذا؟»

«يخرج الناس في وقت أبكر. عادة ما يبدون مضطربين».

«هل أبدو لك مضطرباً؟»

«لا أستطيع قول هذا».

ما كانت عين كارا زيم دقيقة الملاحظة! فليبق الأمر مثلما قال.

«تكلمنا في كل شيء».

«وهل كلمته عني؟»

«قال لي أن آتي غداً».

«فهمت، إذاً، إلى الغد».

سرنا من جديد في الممر المرصوف بحجارة النهر. وسوف نسير في هذا الممر من جديد.. غداً.

حسبت أني لن تكون لي قوة كافية لأن أتكلم مع كارا زيم، وأني لن أستطيع حتى أن أستمع إلى ما يقوله لي. لكني استمعت، وأجبت، مع أن كل ما في داخلي كان مقلوباً رأساً على عقب، مع أني كنت ما أزال واقفاً على رأسي. بدأت أصحح نفسي بطيئاً، بطيئاً، واثقاً من أن كل شيء سيبدو لي أكثر غرابة عندما أعود إلى نفسي. سيبدو ذلك أمراً أشبه بالسُّكر، أو بحلم مزعج. سأكون مؤمناً بأن سحراً أصابني، وبأن ما من شيء قد حدث حقاً.

لم يدر زيم ما كان جارياً في داخلي. ظن أن مسعاي قد أصاب نجاحاً.

قال لي: «هذا أمر حسن! قال لك أن تأتي غداً. لا يقول هذا عادة. هذا يعني أنك أعجبته.. يعني أنك نلت حظوته».

أنت لست وافر الحكمة، ولست شديد الفصاحة، يا عزيزي كارا زيم! نعم.. إنه يحبني، يحبني إلى حد جعله يمضي معي متقطع الأنفاس، تقريباً. ولسوف نتابع التعذيب غداً!

نظر زيم إلي حائراً، مفتشاً عن الكلمات. قال: «انظر! أريد أن أطلب منك معروفاً».

أتراه نظر إلى وجهي ليرى إن كانت كلماته قد آلمتني؟ شجعته تشجيعاً فاتراً. شجعته كُرمى للأيام الخوالي: «قل لي، يا كارا زيم. قل، ولا تخف شيئاً. ثمة ما يقلقك». هذا ما كان على الآخر أن يقوله لي منذ قليل.

«حقيقة الأمر أن ما من شيء يقلقني حقاً. لكن الذين هنا لا يعرفون من أنا. يظنونني كنت مسكيناً بائساً طيلة حياتي. لست أعني المفتي، بل الآخرين الذين هنا».

«هل حدث لك شيء؟»

«لم يحدث شيء. يقولون إني ما عدت صالحاً لهذا العمل».

«وهل سيصرفونك؟»

«نعم. سوف يصرفونني. لذا، قلت في نفسي إنك قد تستطيع أن تطلب من المفتي استبقائي هنا. ما عدت صالحاً للجيش، لكني أكثر قدرة من معظم الناس على حراسة الأبواب. يعطونني مئة بياستر في السنة..»

«يتقاضى المفتي اثني عشر ألفاً».

«المفتي مختلف. إن كانت مئة بياستر مبلغاً كبيراً جداً، فليكن أجري أقل من ذلك، فليكن ثمانين. بل، فليكن سبعين. سبعين بياستر في السنة. أهذا كثير جداً؟ هذا ما أريده منك».

سبعون بياستر في السنة ليست بالمبلغ الكبير. لا يسمن المرء بسبعين بياستر، يا عزيزي كارا زيم. أنت يا من ارتكبت غلطة كبيرة عندما لم تمتْ في وقتك. لكن، سامحني إن كنت غير قادر على أن أشفق عليك، فأنا أصارع الشيطان منذ

أمد بعيد، وقد تضعضع جسدي كله وما عاد عظم واحد من عظامي في مكانه الصحيح.

قلت غير مفكر في شيء، «أنت غير صالح للجيش. لكنك قادر على حمل سلاح. أنت غير صالح لأن تحمل سيفاً ثقيلاً. كم تريد مقابل مساعدتي في تحرير رجل بريء؟ حبسوه من غيرما سبب. لم يأت شيئاً خاطئاً. هل تفعل هذا مقابل مئة بياستر؟».

بدا الرجل حائراً، «لست أدري إن كان هذا كلاماً فحسب، أم أنك تحدثني عن أمر يمكن حقاً أن يحصل».

«أعطني إجابة».

«هذا ليس سهلاً. لو أنني ما أزال كارا زيم الحقيقي، لفعلت ما تقول من غير مقابل. وأما الآن.. ليس هذا عملاً شريفاً.. ومئة بياستر!»

«مئتان».

«مئتا بياستر! يا لطف الله! أستطيع العيش ثلاث سنين بمئتي بياستر. تقول إنه رجل بريء. أين هو؟»

«في الحصن».

«إذاً.. مئتا بياستر. رجل بريء في الحصن. لا أستطيع فعل هذا».

«لو كان الأمر قبل عشرين سنة لفعلته، أليس هذا صحيحاً؟.. حتى إن كان في الحصن. فقط إن كان بريئاً، إن كان حبيساً من غير سبب».

«صحيح».

«لكنك لن تفعله الآن».

«لن أفعله الآن».

«انس الأمر».

«هل هذا مزاح أم أنك جادٌّ فيما تقول؟»

«هذا مزاح. أردت رؤية كم تغيرت».

«الحقيقة أنني تغيرت. إذا جعلوني أذهب، فهل أذهب إليك؟»

«إذا جعلوك تذهب، فسوف أعثر لك على عمل».

«أشكرك. سأتذكر هذا. مع ذلك، قل للمفتي شيئاً عني عندما تأتي غداً».

إنه راغب في البقاء على هذا الممر الأبيض الممتد من البوابة إلى البيت. راغب في البقاء بأي ثمن. لقد حل عليه أيضاً شيء من أهمية المفتي، هذا الرجل الذي لا أهمية له، ومن المؤكد أنه يرى في هذه الوظيفة عملاً يجعله أكثر قرباً من بطل المعارك القديم مما لو لكان يعجن العجين في مخبز أو يعتني بحديقة من الحدائق. ذلك البطل القديم يعني عنده أكثر مما يعنيه أي شيء آخر في العالم.

التقاني في وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه، قبيل المساء، في أحلك ساعاتي. كنت في سبيلي إلى بوابة الموت، فاندفع صوبي آتياً من الضباب، ساقط أمامي من السماء في مكان ما من سبب للقائنا فيه، مما سبب للقائنا، للقاء أعيننا، للقاء مزاجينا. لم أدر كيف كان مزاجي، لكن مزاجه كان ضاجاً بالبهجة. بدا أزيز صوته منتصراً.

كان كله حماسة. قال لي، «سوف يسمحون لي بالبقاء. لن أكون مضطراً إلى الرحيل. هكذا هو الأمر. قالوا لي أن أبقى. سألوني عما تحدثنا فيه، أنا وأنت. فقلت لهم. عندها، أخذوني إلى مالك. حدثته عن النور وعن ميدان المعركة؛ وحدثته عن عرضك أن تعطيني مئتي بياستر، وبقية الأمر كله.. إذا فقدت عملي. ضحك مالك. إنه رجل خيّر. سألني إن كان ما قلته صحيحاً. قلت له إنه صحيح. يا له من رجل طيب! وهكذا، لست في حاجة إلى قول شيء غداً».

«لا بأس».

آه.. لم يدرِ كارا زيم كيف ساعدته!

علينا أن نقتل ماضينا مع كل يوم يمر. علينا أن نحذفه حتى لا يعود قادراً على أذيّتنا. بهذا، يصير احتمال كل يوم يمر أمراً أكثر سهولة لأنه لن يقاس بما لم يعد موجوداً. تخالط الأشباح حياتنا فلا تبقى لدينا ذاكرة نقية ولا حياة نقية. يشترك الحاضر والماضي، ويحاول كل منهما أن يخنق الآخر.. دائماً.

-٨-

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي﴾ - قرآن كريم

ذهبت بعد ذلك مرات كثيرة إلى حسن كي أراه، لكني لم أجده. كان واحد من معاونيه ـ الرجل الأكبر سناً ـ يبحث عنه أيضاً، فاكتشف أنه في السجن مع أصدقائه. قال إنهم خرجوا الليلة الفائتة، منتصف الليل تقريباً، وضربوا بضعة شبان في المحلة اللاتينية، ضربوهم ضرباً شديداً فلم يكد أحد منهم ينجو من الأذى. كان الشبان هم المذنبون في ذلك لأنهم هم الذين بدؤوا. وهم الآن يداوون جراحهم بخرق رطبة في حين يقبع حسن مع أصدقائه في السجن. قال لي هكذا تنتهي حفلاتهم دائماً. يحبسونهم سواء أكانوا مذنبين أم غير مذنبين، ثم لا يخلون سبيلهم إلا بعد أن يدفعوا. لا يتذكر حسن وأصدقاؤه إن كانوا مذنبين في شيء. عادة ما يكونون مذنبين! سوف يخلون سبيلهم هذه المرة أيضاً لكنهم يطلبون منهم الكثير لأن إصابات الشبان بليغة، ولأنهم من عائلات مرموقة. حسن هو الوحيد الذي لن يدفع الكثير. إنه يصيح قائلاً إنه آسف لأنه لم يضربهم ضرباً أشد، وإنه سيفعل ذلك عندما يخرج من السجن. يقول إنه لم ير في حياته كلها أبناء حرام وقحين مثلهم. قال معاونه إنه سيأتي بالمال. قال إن حسناً لا يبالي بالمال، لا يبالي إلا بالنكاية.. لكن، أية نكاية عندما يكون المرء قابعاً في السجن؟ بطبيعة الحال، ليسوا خلف القضبان، ولا في زنزانة، بل في غرفة من الغرف. مع ذلك، الشمس مشرقة في الخارج، والغرفة مظلمة. قضاء ساعة واحدة هناك، ناهيك عن قضاء زمن أطول، صعب كثيراً إذا كان المرء غير مضطر إليه.

سوف يقول لحسن إنني أبحث عنه، وسيقول له أن يأتي كي يراني، أن يأتي من غير تأخير، أي فور أن يستحم ويبدل ملابسه لأن ثوبه يكون شديد الاتساخ، ممتلئ قملاً، فيصير عليه أن يخلعه في فناء البيت حتى لا تدخله تلك الحشرات البشعة. وإن كان الأمر مهماً، فسوف ألزم التكية حتى لا يذهب كل منا باحثاً عن

الآخر مثلما يفعل أحمقان. وأما إن لم يكن الأمر مهماً فلا مشكلة، فسنلتقي عما قريب. لعل من الأفضل أن يغفو حسن قليلاً لأنه لم ينم لحظة منذ صباح اليوم الماضي مع أنه قادر على البقاء ثلاثة أيام بلياليها من غير أن ينام. هو قادر أيضاً على أن ينام زمناً طويلاً. يكون نائماً بعض الأحيان فيوقظونه كي يأكل، ثم يعود إلى نومه مثلما يعود حيوان.. اعذروني على هذا التعبير. شخص عجيب!.. لقد كسروا القالب بعد مولده!

ما كنت أحاول العثور على حسن من غير سبب؛ وما كنت أريد منه أن يواجهني أو يشجعني. لست أدري ما جعل تلك الفكرة تعود إلى ذهني. حقيقة الأمر أنها ما كانت فكرتي، بل فكرة حسن، مع أني اعتبرتها فكرتي وأردت أن أكلمه في شأن تنفيذها. لقد أتيت على ذكر تلك الفكرة أمام كارا زيم ثم تراجعت عندما رفض. لكن، يبدو لي أنها تبادرت إلى ذهني في وقت سابق عندما رأيت النور يخبو في وجه المفتي، عندما رأيت كم كان كل شيء مما قلته وفعلته عقيماً. علينا أن نخرج هارون من السجن، أن نرشو حراسه حتى يستطيع الهرب، أن نرسله إلى بلد آخر حتى لا تقع عليه عين أحد بعد الآن. ما من سبيل آخر للخروج من زنزانات الحصن: لن يفلح أدائي المخجل في مساعدة أخي؛ لن يفلح أبداً. وأما في وجود حسن وإسحاق، فإن كل شيء يصير ممكناً. يصير كل شيء ممكناً إن وجد إسحاق. قد يكون حسن عالماً أين اختبأ إسحاق. ولا شك عندي في أن إسحاق سيوافق على هذا. هو ليس مثل كارا زيم، ليس يعاني الذكريات مثله، ليست الذكريات بقادرة على إيقافه.

شجعني التفكير في ذلك المتمرد، وطغت عليّ رغبة في أن أفعل شيئاً، رغبة لا سبيل إلى مقاومتها، رغبة في أن أفعل أي شيء. أحسست اضطراباً وحماسة: كان كل شيء ممكناً؛ وكان كل شيء في متناول اليد. ليس على المرء إلا أن يواصل، ولا يستسلم. يكون الأمر صعباً إلى أن تحزم أمرك. تبدو العقبات كلها سداً في وجهك، سداً لا تستطيع تجاوزه؛ وتبدو الصعوبات كلها عصيّة على التذليل. لكن، يكفي أن تنفض التردد عنك وأن تهزم ضعف قلبك حتى تنفتح أمامك دروب ما كنت قادراً حتى على تخيلها ولا يعود العالم ضيقاً ولا متوعداً. تخيلت مآثر

بطولية، واكتشفت فرصاً كثيرة أمام الشجاعة الحقيقية، وأعددت خططاً وحيلاً قادرة على خداع حتى من يتخذ أقصى درجات الحيطة والحذر. صرت أكثر إثارة وهياجاً عندما صرت أكثر ثقة. في أعماق قلبي، وفي أبعد تلافيف دماغي صرت واثقاً من أن هذا كله ليس إلا أحلاماً فارغة. لا، أنا ما فكرت في الأمر تفكيراً واعياً. ما كنت أخادع نفسي فأثير في قلبي رغبتين متضادتين. ما كانت أفكاري منقسمة، بل حاولت مخلصاً أن أعثر على أفضل السبل من أجل تحرير أخي. كلما مضيت في ذلك بقدر أكبر من الإخلاص والحمية، كلما احتل الاقتناع مكانه في داخلي كأنه همس غامض آتٍ من الظلام، كأنه يقين موجود لكنه غير منطوق ولا مفكّر فيه، يقين من أن تلك المحاولة لن تنجح. أنا ما أستنجدت بإسحاق إلا لأن الوصول إليه كان متعذراً. كنت قادراً على تمني مجيئه بقدر ما تستطيع روحي تمنيه لأن هذه الرغبة ـ ولأكن صادقاً ـ لا يمكن أن تتحقق. غرائزي الخفية التي كانت تحميني حتى من غير إرادة واعية مني، أغدقت علي تلك الأفكار الجميلة النبيلة من غير أن تقتطع منها شيئاً: كانت غرائزي عالمة أن هذه الأفكار غير خطيرة وأنها لا يمكن أن تتحول إلى أفعالٍ. لكن أفكاري تلك أعانتني على الانتقام من الخجل الذي أفعمني عندما كنت واقفاً أمام المفتي.

إن كان ثمة من يرى هذا غريباً، أو حتى بغيضاً، فلست قادراً على أن أقول له شيئاً غير أن الحقيقة تكون أحياناً شديدة الغرابة فنقنع أنفسنا بأنها غير موجودة لأنها تخجلنا كأن الواحد منا طفل مجذوم؛ على أن هذا ليس بقادر على جعل الحقيقة أقل حياة، أو أقل صدقاً. يقع لنا كثيراً أن نحاول تجميل أفكارنا وإخفاء الأفاعي السامة المختبئة فيها. أليست تظل موجودة حتى إن أخفيناها. لست أحاول الآن تجميل أي شيء، ولست أحاول إخفاء أي شيء. أتكلم مثلما سأتكلم أمام الله. وأنا أريد القول إني لست رجلاً طالحاً، ولا غريباً، بل رجلاً عادياً.. بل قد أكون رجلاً عادياً أكثر مما أحب أن أكون، مثلي مثل أكثر الناس.

قد يقول لي قارئ حسن النية: أنت تبالغ في الأمر كثيراً؛ وأنت تتفلسف كثيراً! وسوف أجيبه من غير تأخير: أعرف هذا. أُقلّب هذه الفكرة الصغيرة على وجوهها كلها، أقلّبها كثيراً جداً وأهزها مثلما تهز إبريقاً فارغاً حتى لا تبقى فيه

قطرة واحدة. لكني أفعل هذا لعلة؛ أفعله حتى أؤخر بوحي بما يزعجني، حتى في هذا اليوم بعد انقضاء شهور كثيرة على ذلك كله. على أن المراوغة ليست مفيدة في شيء. لا أستطيع تفادي الأمر. ولن أتوقف.

لا بد لي أيضاً من ذكر أمر آخر. وجدت الحارس الليلي في بيته. هو ساهر منذ وقت طويل، وقد عاد من البازار قبل قليل، لكنه استقبلني متجهماً عابساً كأنني أيقظته من نومه. لم أر أثراً مما كان فيه من حب الكلام ومن رغبة في استبقائي. لم أر أثراً باقياً من اهتمامه ولطفه. أراد التخلص مني في أسرع وقت ممكن. غضب عندما سألته عما أراد قوله لي في الليلة الماضية.

«قلت كل ما أردت قوله. لماذا أخفي أي شيء؟»

أمن الممكن أن أكون قد ارتكبت غلطة؟ لقد فكرت في حديثنا زمناً طويلاً، لا في ما قلناه، بل في معناه. يعرف عني شيئاً؛ وأنا واثق من هذا. ذكرت له الأمر فأقسم بكل شيء على أنني أسأت فهمه. الليل أمرٌ، لكن النهار أمرٌ آخر. يعلم الله ما قد جال في ذهنه عندما كنا في ذلك الحديث الفارغ من أي معنى، ويعلم الله ما فكرت فيه وأنا مصغٍ إليه. صرت الآن أهجس بأمور لا تبادرتْ إلى ذهنه ولا حلم بها. ماذا يعرف هذا الرجل؟ وماذا يمكن للإنسان أن يعرف؟ ـ قال هذا بصوت كالعويل، بصوت باكٍ ـ إنسان يمضي الليل كله متجولاً، متعباً مثل كلب، ولا يطيق انتظار العودة إلى كوخه البائس كي يزحف تحت بطانياته الممزقة؟ لديه أربعة أفواه يطعمها، غير فمه، في هذه الأزمان العصيبة. لديه ما يكفيه، بل أكثر مما يكفيه، من غير اضطراره إلى أن يشغل باله بشؤون غيره. لكن غضبه لم يلبث أن تراجع. قال لي بصوت هادئ لم أتوقعه، بل حتى بصوت لطيف، «إنه يحب أن يساعدني أكثر مما يحب مساعدة شخص آخر لأن من المؤكد أن ثمة ما يضايقني، وإلا لما أتيت إليه طالباً منه إخباري بما لا يعلم. بل إنه لا يعرف ما أريد؛ والظاهر له أنني لا أعرف ذلك بدوري.

أيعقل أن أكون قد سمعت الليلة الماضية شيئاً لا وجود له في كلماته، أو أن يكون قد وقع له أمر من الأمور؟

نعم، كان ذلك الرجل محقاً! وقد تركته من غير أن أكتشف شيئاً، من غير معرفة ما كنت في حاجة إلى معرفته.

وجدت نفسي مرهقاً عقب انتهاء صلاة العصر، متوتراً. عذبني تفكيري في تحرير أخي، في تلك المهمة التي صارت تبدو أبعد احتمالاً بعد العقبات الكثيرة التي ظهرت لي جماعات جماعات. استبعدت الفكرة، حتى في عقلي. صرت من غير أي أمل، حتى من غير أملي الكاذب، وبدأت محاولة توطين نفسي على احتمال عذابي الذي سيتكرر عندما أذهب إلى المفتي في اليوم التالي. كنت ضعيفاً، مستنفداً، بعد تلك الصعوبات التي أمضيت نهاري في تخيلها. بدا لي أني ما كنت لأصير مرهقاً هكذا لو كان علي أن أتعامل حقاً مع تلك الصعوبات، لو أني لم أزل منتظراً إياها.

أتى أطفال مصطفى إلى حديقة التكية. لعبوا أول الأمر على البلاطات الحجرية عند الباب. تناولوا أيضاً طعام الغداء هناك. ثم راحوا يجرون في المكان مثلما تجري الجراء. قفزوا من فوق الورود، ومزقوا شجيرات التوت البري، وكسروا أغصاناً من شجرة التفاح. كانوا يصيحون ويضحكون ويزعقون ويصرخون. خيّل إليّ أن علينا أن نترك الحديقة والتكية لهم وننتقل إلى أي مكان نجده. صحت بهم مرات كثيرة، ثم ناديت مصطفى عندما خرج من البيت وقلت له إن الأطفال يزعجونني. قلت إنهم يحدثون ضجيجاً شديداً.

قال كأنه لم يسمعني: «إنهم في انتظار العشاء».

قلت بصوت أعلى، «إنهم يزعجونني. قل لهم أن يذهبوا».

«اثنان منهم لي، وثلاثة لها، من قبل».

أشرت إليه بيدي: أخرجهم وإلا فسوف أجن.

فهم ما أردت وخرج غاضباً مدمدماً، «صار الأطفال الآن يزعجونهم».

عندما هدأ الضجيج، رحت أتفحص الأضرار آملاً أن تكون أكبر مما كانت. وودت أن أغضب لأن هذا سيحرر نفسي من أفكار لم تفارقها منذ أيام. جلست تحت كرمة العنب، فوق مياه النهر التي كان ضياء الشمس الغاربة ما يزال متلألئاً عليها.

لعلها رغبتي الجارفة في السكينة، أو لعله الهدوء الشافي الذي أعقب صراخ الأطفال، أو لعله جريان ماء النهر المتواصل الذي كان خريره لا يكاد يُسمع، لكن التوتر داخلي بدأ يهدأ. بل إني أحسست جوعاً. لم أدر متى أكلت آخر مرة. كنت في حاجة إلى أن آكل شيئاً فسوف يشد الطعام من عزيمتي ويلهيني عن توتري. لكني ضحكت عندما تذكرت أن الوقت غير مناسب. مصطفى غاضب. لقد طردت الأطفال؛ ولعل ذلك أمر ما كان يجدر بي فعله. صحيح أنني هدأت ـ كان الصمت مفيداً لي ـ لكني ظللت آسفاً. ما كان أسفي شديداً.. هذا أمر حسن. لكن من الحسن أيضاً أن أكون آسفاً: هذه عودة إلى أفكاري المعتادة، إلى الحياة المعتادة التي يكون الإنسان فيها جزئين: جزء خير وجزء شرير؛ وذلك بقدر معتدل يظل مقبولاً حتى عندما نرى أنه مضجر جداً. لعله أمر سيئ ألا يحس المرء أن الوقت يمر بطيئاً جداً! الحرب غير مضجرة، ولا المصائب، ولا المشكلات. ليست الحياة مملة عندما تكون شاقة.

إذاً فقد بلغت تلك الحالة البهيجة من التفكير السطحي الذي لا يتعقد ولا يصطدم بعضه ببعض، بل ينزلق على سطوح الأشياء انزلاقاً ويجد حلولاً سهلة لا تحل شيئاً. ذلك ليس تأملاً، بل هو أحلام يقظة، تفكير متساهل، كسل لذيذ في العقل. لكن ما من شيء كان أفضل من هذا عندي آنذاك. لا، لم أنس شيئاً من أعظم كرب في حياتي: كان ضاغطاً داخلي كأنه صخرة؛ وكان دمي منساباً في مجاريه الطويلة حاملاً إياه كأنه سم؛ كان جاثماً في تلافيف دماغي كأنه ورم. لكنه هدأ في تلك اللحظة مثلما يهدأ مرض خطير. بدأتْ فترة راحة بدا لي معها كأن الداء قد زال. ذلك الغياب الوجيز، غياب القهر، وذلك الخلاص المؤقت من المعاناة، وجيز لأنه لن يعيش إلا قليلاً (كان كل جزء مني مدركاً ذلك). سمح لي هذا بأن أرى كل شيء من حولي عزيزاً، جميلاً. أحسست أن حضوري في هذا التناغم العام يكاد يكون سعادة.

عاد الحافظ محمد من مكان ما. ألقى علي التحية، ثم ذهب إلى غرفته. قلت في نفسي، هذا رجل طيب ما يزال غارقاً في سعادة تناغمي الضحل وتفكيري البسيط. قد يبدو أن الحياة لم تنصفه، لكن هذا ليس إلا موقفاً مسبقاً: الحياة هي

الحياة، وحياة هذا مثل حياة ذاك، فالجميع ساعٍ إلى السعادة، لكن المشكلات تأتي من تلقاء أنفسها. كانت سعادته في الكتب، تماماً مثلما تكون سعادة غيره في الحب. مشكلته في المرض، تماماً مثلما تكون مشكلة غيره في الفقر أو في البعد عن الديار. نسير كلنا من ضفة إلى ضفة، نسير على حبال حياتنا الدقيقة، وكل نهاية من نهاياتنا معروفة. كلها متشابهة.

تذكرت أبيات حسين أفندي من موستار[1]، فرددتها بطيئاً وأحسست سعادة ما عرفتها من قبل. سمعتُ في تلك الكلمات همساً رقيقاً مسالماً فيه نفحات من حزن.

عاري الرأس، حافي القدمين
سار شاهين البهلوان على الحبل المشدود،
الحبل الذي لا يعبره من غير خوف إلا النسيم.
شاهين البهلوان لا يهاب خطراً.
توسل عون الله وعبر إلى الضفة الأخرى.
ومثله فعل الصقور الصغار، تلامذته،
عبروا من فوق الهوّة.
فوق الماءِ المتلألئ عليه ضياء الشمس،
بدوا أشبه بلآلئ ينتظمها خيط دقيق.
الوادي العميق من تحتهم،
ومن فوقهم، سموات بعيدة.
وهم على الحبل المشدود المهتز من تحتهم،
على درب الحياة الخطير.

(1) حسين أفندي من موستار: هو حسين تشاترانيا المولود في موستار. وقد كتب الشعر تحت اسم «حسامي». تحدث في واحدة من قصائده عن شاهين البهلوان الذي اجتاز وتلاميذه في سنة 1669 نهر نيرتفا في موستار على حبل مشدود. بقيت ستة أبيات من تلك القصيدة. لكن الأبيات الواردة في النص ليست له بل من صنع سليموفيتش في معظمها.

صورة ذلك الرجل المتوحد الجريء سائراً في درب الحياة الصعب كانت استجابة تامة لإحساس الكارثة الذي كان عندي. لو كنت في مزاج مختلف فلعلي أحزن لعجزي ولأني محكوم بذلك المسير الكئيب. ولكن، بدا لي سيري في تلك اللحظة كأنه مصالحة منطقية، بل حتى كأنه تمرد. لست أدري ما الخير الذي أراده حسين أفندي حقاً، لكن ما بدا لي هو أنه كان يسخر قليلاً، من نفسه ومن الآخرين.

خرج الحافظ محمد من التكية وتوقف عند السياج فوق النهر. كان وجهه حزيناً. لم ينظر إليّ. أهو متعب؟

«كيف حالك اليوم؟»

«أنا؟ لست أدري. سيئة».

كنت قادراً على الإحساس بأنه لا يحبني، لكني لم أستطع لومه. هو أيضاً سائر على الحبل المشدود بين ضفتين؛ وهو يعرف أكثر من غيره كيف يكون ذلك. بل إنه يحاول أحياناً أن يكون لطيفاً.

سألته مبتسماً ولم يفارقني مزاجي الحسن، لم يفارقني استعدادي لتفهم كل شيء، استعدادي لأن أكون شاكراً، «قل لي الحقيقة: هل كنت عالماً بما أرادته زوجة القاضي؟ وهل هذا ما جعلك ترسلني إليها؟»

«زوجة أي قاضٍ؟»

«في البلدة قاضٍ واحد فقط. وفيها زوجة قاضٍ واحد فقط. إنها شقيقة حسن».

غضب، بل كاد يبدو عليه التقزز. لم أعتد رؤيته هكذا.

«من فضلك، لا تذكر اسميهما معاً!»

«إذاً، كنت عارفاً. لكنك لم ترد أن تكون لك صلة بالأمر. أليس هذا صحيحاً؟»

«انس تلك الحثالة؛ انسها كرمى لله! أردت أن أساعدك. لهذا لم أذهب إليها. لكن، لا تذكرهما الآن».

«لماذا؟»

«ألم تعلم بالأمر؟»

«أي أمر؟»

«آخ.. إذاً، لا بد لي من إخبارك».

من صوته المضطرب، ومن الجهد الفائق الذي بذله حتى ينظر في وجهي، ومن يديه المتوترتين اللتين واصل دسهما في جيبيه العميقين ثم إخراجهما من جديد، من كل شيء فيه لم أره من قبل، من كل شيء جعله يبدو كأنه شخص آخر، ومن الذعر الذي أمسك بتلابيبي، أدركت أن ما سيقوله لي أمر مؤلم جداً.

سألته وقد أسرعت إلى غمر نفسي في المياه السوداء: «أهو شيء عن أخي؟»

«نعم».

«هل هو حي؟»

«مات! قتلوه منذ ثلاثة أيام».

ما كان قادراً على قول شيء آخر؛ وما سألته أن يضيف شيئاً.

نظرت إليه، رأيته باكياً، فمه معوجّ. كان قبيحاً قبحاً مخيفاً. أعلم أني لاحظت هذا، وأعلم أن بكاءه فاجأني. لم أبك. بل إني لم أحس ألماً أبداً. ما قاله لي توهج مثل ضوء يعمي الأبصار.. ثم حل هدوء.

كان خرير الماء مسالماً.

سمعت صوت طائر في الأشجار.

قلت في نفسي، لا بأس، انتهى الأمر كله!

أحسست راحة؛ انتهى الأمر كله!

قلت له: «إذاً، أظن أن الأمر هكذا. فوق الماء المتلألئ عليه ضياء الشمس».

ظنني الحافظ محمد قد جننت، فقال لي: «اهدأ! سأصلي من أجله وأسأل الله أن يرحم روحه».

«نعم، هذا كل ما نستطيع فعله».

ما أحسست ألماً.. أبداً. كان ذلك كأن جزءاً قد اقتطع مني، كأنه ما عاد مني: هذا كل شيء. كان غريباً جداً أن الأمر كله قد انتهى.. غير قابل للتصديق أبداً، غير ممكن أبداً.. لكنه كان أكثر إيلاماً قبل انتهائه.

أتى مصطفى أيضاً. لا بد أن الحافظ محمد قد أخبره بمصيبتي. جلب لي شيئاً في قصعة من نحاس. كان شديد التأثر، وكان أكثر خراقة من المعتاد.

قال لي محاولاً ألا يكون كلامه صياحاً: «أنت في حاجة إلى طعام لأنك لم تأكل شيئاً منذ أمس».

وضع القصعة أمامي كأنها دواء، كأنها علامة على اهتمامه. أكلت، لكني لم أدر ما أكلت. وقف الاثنان ينظران إلي، واحد إلى جانبي والآخر قبالتي، وقفا مثل حارسين واهيين في مواجهة الحزن.

ثم.. بين لقمتين.. بدأ ذلك الجزء الغائب مني يؤلمني.

توقفت عن الأكل مذهولاً ونهضت بحركة بطيئة، بطيئة جداً.

سألني الحافظ محمد: «أين أنت ذاهب؟»

«لا أدري. لا أدري أين سأذهب».

«لا تذهب إلى أي مكان. ليس الآن. ابق هنا معي».

«لا أطيق البقاء».

«اذهب إلى غرفتك. ابك إن استطعت».

«لا أستطيع البكاء».

أدركت ما حدث، أدركته شيئاً فشيئاً. فبدأ الألم يكتنفني مثل نهر هادئ. صحيح أن ذلك النهر لا يبلغ الآن إلا كاحلي، لكني فكرت قلقاً في خوفي من القنوط واليأس اللذين سيأتيان.

ثم أتتني نوبة غضب مفاجئة كأن أخي كان هناك، واقفاً أمامي، مذنباً. علا فحيح غضبي الباكي في داخلي: نلتَ ما تستحق. ما الذي تحاول فعله، وماذا تريد؟ لقد جلبت البؤس علينا، أنت، أيها الرجل الغبي!.. لماذا؟

ثم انقضى ذلك أيضاً. لم يطل أكثر من لحظة واحدة، لكنه أعاد إلي قدرتي على الحركة.

من أعالي التلال، من محلة الغجر، أتى قرع طبل مصمّ، أتى متقطعاً، ثم بدأ عويل الناي من غير توقف، أتى متواصلاً من غير انقطاع. لقد كان هذا مستمراً طيلة النهار، طيلة الليلة الماضية، إلى الأبد. هجم الجنون الرهيب في يوم القديس جورج على القصبة كأنه تمرد أو كأنه تهديد. أصغيت إلى تلك الأصوات، وارتعشت. طبل كبير يُقرع في مكان من الأماكن، صوته مثل إنذار، طبل يستدعي أولئك الذين ما عادوا موجودين، إخوتنا الموتى جميعاً، فوق الأرض وتحتها. لقد نجا أحدهم؛ وهو الآن ينادي.

كان نداؤه عبثاً.

حتى الآن، لا أفكار في داخلي ولا دموع ولا اتجاه. ما كان علي أن أذهب إلى أي مكان، لكني كنت ذاهباً إلى مكان لا أعلمه. لا بد أن يوجد بعض من أثر لأخي الميت هارون.

تدفق نهري تحت الجسر الحجري الصغير. وإلى الناحية الأخرى، كانت الأرض ميتة. لم أعبر ذلك الجسر أبداً، إلا بعينيّ. هناك حيث ينتهي البازار وتنتهي القصبة وتنتهي الحياة كلها، حيث تبدأ طريق قصيرة مفضية إلى الحصن.

لقد اجتاز أخي هذا الطريق، ولم يعد.

منذ ذلك الوقت، مضيت بأفكاري فعبرت الجسر الحجري متجهاً إلى البوابات الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط، البوابات المشقوقة في الجدران الرمادية. في تلك الزيارات المتخيلة، سرت كأنني سائر في حلمي. كانت الطريق خالية دائماً، أُخليت من أجل وصولي (وصولي الذي كان تعذيباً، حتى في أفكاري)، أخليت كي أكون قادراً على المرور من غير عائق. كانت البوابات غاية كل شيء: الطريق الآتية من لا مكان ليست مؤدية إلا إليها؛ كانت هي معنى القدر، وكانت قوس نصر أقامه الموت. رأيت البوابات في أفكاري، في أحلامي، في مخاوفي. أحسست نداءاتها القاتمة، وأحسست جوعها الذي لا يعرف شبعاً. ودائماً، كنت أستدير وأفر. كانوا يرقبون ظهري، يغرونني بالعودة، ينتظرونني. مثل ظلمة، مثل هاوية، مثل إجابة. ومن خلفهم كان سرٌّ، أو كانه لا شيء. هناك بدأت الأسئلة كلها وانتهت؛ بدأت بالنسبة إلى الأحياء، وانتهت بالنسبة إلى الموتى.

لأول مرة، كنت سائراً حقاً في شارع كوابيسي التي لا نهاية لها. أمضيت زمناً طويلاً ما كنت فيه موقناً كيف سألتقيه. والحق أنه كان خالياً مثلما تخيلت، ومثلما أملت. لكن هذا ما عادت له الآن أدنى أهمية. بل إني كنت أفضّل ألا يكون خالياً هكذا: صار كأنه مقبرة. كان الشارع يرقبني متجهماً، مظلماً، شرساً كأنه يقول لي: أراك أتيت! أثار توتري هذا الممر المفضي إلى لا شيء وقتل القدر القليل من شجاعة مؤسية، من شجاعة اسمها «اللا مبالاة». ما كنت راغباً في النظر كي أخفف اضطراب كل ما في داخلي، كي أخفف ارتجافه، لكني رأيت كل شيء، رأيت حقد الشارع المهجور، ورأيت البوابات المخيفة المفضية إلى المجهول، ورأيت أعين الحراس المختبئين في فتحة صغيرة في البوابة. لم أر تلك الأعين في أفكاري، لم أرها وقتها، عندما كان عليّ أن أذهب. لم أر غير البوابات والشارع المفضي إليها، الشارع الذي هو الحبل المشدود الماضي إلى ضفة أخرى.

سألني الحارس، «ماذا تريد؟»

«هل أتى أحدٌ إلى هذا المكان وحيداً؟»

«أنت أتيت وحيداً. ألديك أحد في الحصن؟»

«أخي. لقد حبسوه».

«وماذا تريد؟»

«أأستطيع رؤيته؟»

«تستطيع رؤيته إذا حبسوك أنت أيضاً».

«أأستطيع أن آتيه بشيء من الطعام؟»

«طبعاً. سوف أعطيه الطعام».

حاولت الرجوع بالزمن خلفاً، كأني مجنون؛ وحاولت إحياء أخي الميت. في الزمن الذي رجعت إليه، لم يكن قد قتل بعد لأني علمت منذ قليل أنه في السجن فأتيت من فوري كي أستعلم عنه. هذا سلوك بشري، أخوي. لا مبرر للخوف أو للخجل، وثمة أمل ما يزال. سوف يخلون سبيله عما قريب؛ وسوف يتلقى الطعام الذي أرسلته إليه. سوف يعلم أنه ليس وحيداً، ولا متروكاً.. دمه نفسه واقف عند البوابة. لا أبراج، ولا حراس، ولا مخاوف منعت أخاه من المجيء.. لقد جاء..

لقد جئت.. إنه يصغرني بخمس عشرة سنة. أنا من كان يهتم بأمره دائماً؛ وأنا من أتى به إلى القصبة. أنتم، يا ناس! كيف أتركه وقت الحاجة، وقت الحاجة الكبرى؟ سوف يبتهج قلبه التعس عندما يعلم أني سألت عنه. ليس له أحد غيري، فكيف لي أن أقدر، أنا أيضاً، على خذلانه؟ ولماذا؟ باسم ماذا؟ قد تنظرون كلكم إلي نظرة ريبة، وقد تغضبون، وقد تهزون رؤوسهم. لست أبالي، فأنا هنا، وأنا لن أنكر هذه الرابطة. لا رابطة عندي أقرب منها؛ فاصلبوني من أجل هذا الحب، إن شئتم صلبي.. فأنا لا أستطيع غير هذا. أتيتك، يا أخي. أنت لست وحدك.

فات الأوان. بعد كل ما جرى، وبعد كل ما لم يجر، لا أستطيع من أجله شيئاً، غير أن أصلي صلاة الجنازة آملاً أن تبلغه وأن يجد فيها عوناً له.

كانت الصلاة مُرة، مختلفة عن تلك التي كنت أؤديها من أجل الجثث في توابيتها. ما كان أحد مهتماً بصلاتي غيره وغيري.

سامحني يا أخي، سامحني أنا الخاطئ، سامحني على هذا الحب المتأخر الذي حسبته قد وُجد عندما كانت ثمة حاجة إليه، لكنه ما استيقظ إلا الآن، إلا عندما صار لا ينفع أحداً، ولا حتى أنا. وأنا ما عدت موقناً إن كان ذلك حباً أم محاولة عقيماً للعودة بالزمن إلى الخلف. ليس لك إلا أنا، إلا قبور العائلة في قريتنا. الآن، أنت وأنا ما عاد لنا من أحد. فقدتني قبل أن أفقدك؛ أو لعلك لم تفقدني. لعلك ظننتني وقفت أمام هذه البوابات المصفحة بالحديد مثلما كنتَ لتقف أمامها من أجلي! لعل أملاً ظل باقياً لديك حتى اللحظة الأخيرة، أملاً بأني سوف أساعدك. ولكن، لو لم تكن واثقاً بي هذه الثقة كلها، لوفرت على نفسك خوف الوحدة النهائية عندما يهجرنا الجميع. وإن كنت عارفاً كل شيء، فليكن الله في عوني!

سألني الرجل الواقف خلف البوابة، «بم تهمس؟»

«أتلو أدعية من أجل الموتى».

«من الأفضل أن تتلو أدعيتك من أجل الأحياء لأن عذابهم أشد».

«لقد رأيتَ الكثير، ولا بد أنك تعرف ما تكلمني عنه».

«وما همّني إن كنت عارفاً ما أتكلم عنه».

«ما عدد الناس الذين دخلوا هذه البوابة؟»

«أكبر من عدد الذين عادوا منها. لدينا مكان لهم جميعاً».

«أين؟»

«هناك، في الأعلى، في المقبرة».

«ليس هذا المزاح بالأمر الحسن، يا صديقي».

«هم يمزحون، وأنت تمزح. والآن، اذهب من هنا».

«هل يكون على المرء حقاً أن يصير فظاً إن كان في موقعك هذا؟»

«هل يكون على المرء حقاً أن يكون غبياً إن كان في موقعك أنت؟ ادخل، واعبر العتبة ـ ليست أكثر من بضعة سنتيمترات ـ وسوف تبدأ الكلام بطريقة مختلفة.. على الفور».

بضعة سنتيمترات فقط، ليست أكثر من ذلك. وعلى الفور، يصير كل شيء مختلفاً.

ينبغي أن يذهب كل إنسان لرؤية هذه السنتيمترات القليلة. ينبغي أن يراها حتى يستطيع أن يكرهها. أو.. لا، لا! ينبغي أن تظل خبيئة عن الناس. لا ينبغي أبداً أن يذهب الناس لرؤيتها قبل أن يؤخذوا إليها أخذاً حتى لا يعتادوا إخفاء أفكارهم، حتى لا يغدو كل ما يقوله الناس بغيضاً.

عدت خافضاً عيني باحثاً عن آثار أقدامه على حجارة الشارع غير المستوية حيث ما من عشب ينمو. عدت باحثاً عن المكان الذي وقف فيه آخر مرة عند جدران الحصن. ما عاد له من أثر في هذا العالم. كل ما هو باقي منه كان في داخلي.

أحسست العيون الحجرية الشرهة في فتحة البوابة، أحسستها تنظر إلى رأسي من الخلف، تخترقه، تُحرِق طريقاً لها في داخلي.

لقد كنت على حافة الموت، عند بوابات القدر، وما تعلمت شيئاً. وحدهم من يدخلوا يستطيعون تعلم شيء، لكنهم لا يستطيعون أن يحكوه.

قد يرى الناس أن يجعلوا هذا بوابة وحيدة إلى الموت، وأن يسوقونا جميعاً إليها، واحداً تلو واحد، جماعات جماعات ـ فلماذا نترك الأمر للمصادفة؟ لماذا نتركه لساعاتنا المحتومة؟ على أن هذه الفكرة المجنونة ما كانت إلا دفاعاً في مواجهة ذعر لا يوصف أطبق عليّ أنيابه، أو ما كانت غير محاولة مني لأن أضيّع مشكلاتي في بؤس عام شامل. لقد ذهبت لرؤية آخر آثار أخي المقتول، لكني كنت في جنازته، كنت ً فيها من غيره، من غير أحد معي.. لا أحد غيري. لم أرد فعل ذلك، ولم أدر ما أحاجني إلى الذهاب إلى ذلك المكان كي أتذكره.. هو الذي قد مات. قد يكون ذلك لأنه أكثر أماكن العالم حزناً ولأن الحاجة إلى تذكر الموتى تكون هناك على أشدها. لعل ذلك لأنه مكان مخيف أكثر من أي مكان آخر، لأن المرء يجد نفسه هناك مضطراً إلى التغلب على خوفه كي يتذكر أولئك الذين قتلوا. أو، لعله أبغض مكان في العالم؛ فهناك، يمكن أن تصير ذاكرة ذات المرء السابقة تجلياً مروّعاً. كنت لا أروم شيئاً من هذا، لكنه حدث. كنت غير محتاج إلى شيء من هذا، لكني ما استطعت فعل شيء غيره.

وجدت عند مدخل البازار نحو عشرة أشخاص منتظرين كأني كنت عائداً من عالم آخر. نظروا إلي من غير أن يتحركوا. كانت عيونهم هادئة، لكنها ظلت معلقة بي. كانوا عبئاً ثقيلاً عليّ. ضغطَ كثير منهم بنفسه على جبهتي، تزاحم من حولها. كدت أتعثر وأقع سبب مجيئهم. لم أدر ما جعلهم يسدون طريقي، ولا ما ينتظرون. لم أدر ما أفعل.

تنحيت عن الشارع المؤدي إلى الحصن كأنني أخطو خارجاً من الليل (عدت قادراً على سماع قرع الطبل الكبير. كان بعيداً عن سمعي، هناك، في الأعلى)، خارجاً من بين الناس المنتظرين، تحميني الشمس، ويفصلني الجسر عن ذلك المعبر إلى اللا شيء. رأيت إسحاق، الهارب؛ رأيت في قدمه فردة حذاء واحدة فقط ـ قدمه الأخرى حافية. كان وجهه قاسياً كمثل وجوه الآخرين. كانوا كلهم واحداً؛ وما كانوا مختلفين في أي شيء. رأيتهم كأنهم إسحاقات تعددت: عيون كثيرة، وسؤال وحيد. بدا لي أنني، بسبب من إسحاق، كنت قادراً على إدراك

سبب وقوفهم عند تلك الحافة، إدراك ما أرادوا أن يعثروا عليه. كانت معرفتي بهذا غامضة جداً. أحسسته بسبب منه، ولم أجرؤ على رفع عيني عن حجارة الطريق. قد يتحرك الناس ويفسحوا لي سبيلاً؛ وقد أستطيع أن أمر بهم. سوف أتظاهر بأني كنت غارقاً في أفكاري فلم أر أنهم ينتظرون شيئاً. لا يهمني إن علموا أن هذا غير صحيح؛ ولا يهمني إن ظنّوني أحاول تفادي أعينهم. ما أردت شيئاً غير ألا يكون إسحاق واحداً منهم. لو لم يكن هو من أتى بهم، لما وجدتهم هنا.

لكن جدار سيقانهم حال دون مروري فرفعت عيني إلى وجه إسحاق. كان علي أن أعرف ما أراد؛ وما كنت بقادر على تفادي ذلك. لم يكن هناك. أعرف أين كان واقفاً: كان ثالث شخص من اليسار. لكن شاباً نحيلاً نظر إليّ من ذلك الموضع. لم يفاجئه أبداً أنني توقفت أمامه.

كانت عيونهم مفتوحة على اتساعها، مصممة، منتظرة. أين هو؟ لم أره إلى يمين الشاب، ولا إلى يساره، ولا في أي مكان حتى آخر الصف. لم أستطع إحصاءهم عدداً، لكني علمت أنهم الآن ثمانية. مرت عيناي بوجوههم، وجهاً وجهاً. تحرّيت شفاههم المطبقة وحواجبهم المعقودة. نسيت أنهم أرادوا شيئاً. كنت أبحث بينهم عن إسحاق. لم يعلموا ما جعلني في حاجة إلى رؤيته ولا ما كنت أريد قوله له، لكني أسفت لأنه ليس هناك. مع هذا، رأيته. جعلتني المسافة غير واثق ـ لقد مضيت عشرين خطوة بعينين مخفوضتين؛ وكان ضياء الشمس متلألئاً على الرجال فبدوا مذهّبين في ذلك العالم الآخر؛ توهجوا كالمشاعل فزاغ نظري؛ لكن هذا ما كان مهماً. كنت مستعداً لبيع روحي حتى أراه. وأما الآخرون، فما وجدت حاجة إلى أن أقول لهم شيئاً حتى لو عرفت ما أقول.

تابعت سيري فأفسحوا لي متسعاً كي أمر. هدوء دام بضع لحظات. كنت سائراً وحدي، لكنني لم ألبث أن سمعت صوت أقدام على حجارة الطريق. شرعوا في السير خلفي. أسرعت في خطوي كي أظل متقدماً إياهم، لكنهم أسرعوا من خلفي وما ردّهم بعد المسافة بيننا. بدا لي أن عددهم كان في تزايد.

حلّ غسق ربيعي، وكانت الشوارع مزرقّة، هادئة هدوءاً مضطرباً.

دعا المؤذن إلى الصلاة فلم أسمع ولم أدر إن كان وقت الصلاة قد حان. لكن المسجد كان مفتوحاً. كانت فيه شمعة مشتعلة واحدة في حامل طويل. دخلت واتخذت مكاني بين المصلين. من غير أن ألتفت سمعت كيف كان الناس يدخلون ويجلسون من خلفي، من غير كلام، بل حتى من غير همس. لم أعهدهم أبداً هادئين هذا الهدوء كله. بدا لي أيضاً أنهم كانوا ظلوا صامتين طيلة وقت الصلاة، ظلوا واجمين. أثّر في نفسي ذلك الحفيف المتواصل خلف ظهري.

مع استمرار الصلاة، بدأت أحس أنهم كانوا غريبين، مختلفين عن أي وقت مضى، وأنهم كانوا أشد حماسة وخطورة كأنهم يتأهبون لمجيء شيء لا أعلمه. كنت عارفاً أنهم لن ينهوا صلاتهم مثلما يفعلون عادة. كلمة آمين ليست نهاية، بل بداية: كان صوت الكلمة مكتوماً، ثقيلاً، كله انتظار. لكن، انتظار ماذا؟ ما هذا الذي سيحدث؟

في الصمت، في انعدام الحركة، في تصميمهم على عدم الانصراف مع أن الصلاة انتهت، أدركت أمراً ما كنت راغباً في إدراكه. يريدون رؤيتي بعد أن علموا بهذه المأساة؛ ويريدون مني أن أريهم ما كنته في تلك اللحظة.

أنا نفسي ما كنت مدركاً ما كنته، ولا علمت نوع الإجابة التي أعطيهم إياها.

كل شيء متوقف علي.

كان في وسعي أن أنهض وأنصرف، أن أفر منهم ومن نفسي. من شأن هذا أن يكون إجابة.

كان وفي وسعي أن أطلب منهم الانصراف كي أبقى وحدي في صمت المسجد الخالي. من شأن هذا أن يكون إجابة.

لكن، لو فعلت ذلك لظل كل شيء في داخلي. وما كان لشيء منه أن يبلغ أحداً. أمام باب الحصن، كنت ما أزال خائفاً مما سيأتيني من ألم وندم، وأظنني ما أزال محترقاً بالنار، مختنقاً بالأسى، أو ذاهلاً إلى الأبد نتيجة حزن وغضب خفيين. كان عليّ أن أقول شيئاً لأولئك المنتظرين. كنت رجلاً، وقتها، على الأقل. بالنسبة إلى ذلك الرجل، كنت من غير حماية. فلتكن صلاة أخوية موجعة، صلاتي الثانية في ذلك اليوم، لكنها أول صلاة يسمعها الناس.

هل كنت خائفاً؟ لا، ما كنت خائفاً. ما كنت خائفاً من شيء.. إلا من أمر واحد: هل سأقوم جيداً بما ينبغي أن أقوم به؟ بل إنني أحسست استعداداً هادئاً لتلقي أي شيء، استعداداً مع حتمية الفعل ومع قبول عميق به، قبولٍ أقوى من الانتقام وأقوى من العدل. ما عدت قادراً على أن أكون ضد نفسي.

نهضت وأشعلت الشموع، ورحت أنقل الشعلة من شمعة إلى التي تليها؛ أردتهم أن يروني، وأردت أن أرى كل واحد منهم. أردت أن أراهم وأن يروني حتى أتذكرهم ويتذكروني.

استدرت، بطيئاً. لم ينصرف أحد. لم ينصرف أي واحد منهم. كانوا يرقبوني راكعين على ركبهم وقد أثارتهم حركاتي الصامتة والشموع المشتعلة على امتداد الجدار الأمامي مطلقة رائحة شمع ثقيلة.

«يا بني آدم!»

لم أخاطبهم هكذا من قبل.

لم أدرِ ما كنت موشكاً على قوله، وما كنت عالماً هذا قبل لحظة. جرى كل شيء من تلقاء نفسه. وجد أساي وانفعالي صوتاً.. وجدا كلماتٍ.

«يا بني آدم! لن ألقي عليكم خطبة، فأنا غير قادر حتى إن أردت. لكني أظنكم ستجدِون عليّ إن لم أحدثكم الآن عن نفسي، في هذه اللحظة، أشد اللحظات ظلمة في حياتي. ما أريد قوله الآن أكثر أهمية في نظري مما كان في أي يوم مضى؛ لكني لست أحاول كسب شيء. لا شيء إلا رؤية التعاطف في عيونكم. لم أدعكم إخوتي مع أنكم الآن إخوتي أكثر من أي وقت مضى؛ بل دعوتكم أبناء آدم متوسلاً ما هو مشترك بيننا جميعاً. نحن بشر نفكر بطريقة واحدة، عندما نكون في كرب خاصة. لقد انتظرتم وأردتم أن نكون معاً، أن ينظر الواحد منا في عين الآخر حزيناً على موت رجل بريء، أن ينظر مضطرباً لأن جريمة قد ارتُكبت. تلك الجريمة تخصكم أيضاً لأنكم تعرفون هذا: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا. لقد قتلونا جميعاً مرات لا تحصى عدداً، يا إخوتي المقتولين؛ لكن الأمر يهولنا عندما يصيبون أحبتنا».

«لعل عليّ أن أكرههم، لكني غير قادر. ليس لي قلبان، واحد للكره وواحد للحب. القلب الذي عندي لا يعرف الآن غير الحزن. صلاتي وندمي، حياتي وموتي ـ كله ملك الله خالق هذا العالم. لكن حزني ملكي وحدي».

«يقول لنا الله: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ!».

«لم أتذكر عند ذلك.. آه، يا ابن أمي. ما كانت لدي قوة تحميك من هذه المصيبة، وتحميني».

قال موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

«ما عاد أخي هارون موجوداً، ولا أستطيع إلا أن أقول: يا رب، قوّني بأخي الذي مات، بأخي الذي مات وما دُفن على سنة الله، أخي الذي لم تره أسرته ولم تقبّله قبل انطلاقه في رحلته العظيمة، الرحلة التي لا رجعة منها».

«أنا مثل قابيل الذي بعث الله إليه غراباً حفر الأرض كي يعلمه كيف يدفن جسد أخيه الذي مات. فقال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

أنا قابيل المنكود، المنكود أكثر من غراب أسود!»

«لم أنقذه عندما كان حياً؛ ولم أره بعد أن مات. الآن، ما عاد لي من أحد غير نفسي، وأنتم.. يا إلهي! يا لحزني. يا إلهي، قوّني كي لا أقنط لشدة أساي الأخوي، لشدة أساي البشري، كي لا يسمم الكره نفسي. وأذكر هنا قول نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

«نحن لا نعيش على هذه الأرض إلا يوماً، أو أقل. قوّني يا ربّ كي أسامح لأن من يسامح هو الأعلى. وأنا عالم أنني لا أستطيع أن أنسى».

«أسألكم، يا إخوتي، ألا تحملوا عليّ كلماتي هذه، ألا تحملوها عليّ إن هي آذتكم أو أحزنتكم، أو إن هي كشفت ضعفي. لا يخجلني هذا الضعف أمامكم، بل يخجلني لو أنه ما كان عندي».

«والآن، اذهبوا إلى بيوتكم واتركوني وحدي مع شقائي. صار احتماله أسهل عليّ بعد أن قاسمتكم إياه».

تركوني وحيداً، وحيداً في العالم كله، في نور الشموع القوي، في أشد الظلمات سواداً. لم أحس في داخلي أنني صرت أحسن حالاً بعد أن حمل الناس كلماتي معهم وظل حزني معي. لم يمسه نقص، بل صار أكثر سواداً لأن أملي في أن يصير أخف وقعاً قد خاب. ضربتُ الأرض بجبهتي وتلَوْتُ في غمرة يأسي آية من سورة البقرة عالماً، ويا للحسرة، أن هذا لن يجدني فتيلاً:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا. رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا. رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا. أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

لعل الله غفر لي، ولعل الله رحمني! لكنه لم يقوّني.

ضعيفاً مثلما لم أعرف ضعفاً من قبل، بدأت أبكي مثلما يبكي طفل من غير حول. في تلك اللحظة، ما كان لشيء مما علمته في حياتي كلها، أو لشيء مما فكرت فيه، أي معنى. كان الليل من خلف تلك الجدران أسود اللون، متوعداً. كان العالم مخيفاً؛ وكنت ضئيلاً، ضعيفاً. كان من الأفضل لي أن أظل على حالي، راكعاً على ركبتي وأن أسكب نفسي دمعاً، وألا أقوم بعد ذلك أبداً. كنت عالماً بأن علينا ألا نضعف أو نحزن إن كنا من المؤمنين؛ لكن علمي هذا لم يفدني شيئاً. كنت ضعيفاً وما فكرت إن كنت مؤمناً حقيقياً أو رجلاً ضائعاً في وحدة العالم الصماء.

ثم ران صمت خاوٍ. ثمة شيء ما يزال مقعقعاً في مكان في داخلي، لكنه يبتعد ويبتعد. ما أزال قادراً على سماع الصراخ، لكنه صار خافتاً. استهلكت العاصفة نفسها وهدأت من تلقاء ذاتها. لعلها هدأت بعد دموعي!

كنت متعباً. كنت كسيحاً نهض الآن واقفاً.

أطفأتُ الشموع، أزهقت أرواحها واحدة تلو أخرى من غير ذلك الإحساس المهيب الذي كان في نفسي عندما أشعلتها. لقد دمّرني حزني على أخي.. وكنت وحدي.

خفت أن أظل في الظلمة زمناً طويلاً، أن أظل فيها وحيداً.

لكني أزهقت روح الشمعة الأخيرة فلم يختف ظلي. تمايل ثقيلاً على الجدار في نصف الظلمة.

استدرت. كان حسن المنسي واقفاً بالباب حاملاً شمعة في يده.

كان واقفاً في انتظاري، صامتاً.

-٩-

﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ـ قرآن كريم

يدي الممسكة بالريشة ما تزال مرتعشة كأن ما أكتبه يحدث الآن، كأن شهراً لم ينقض منذ تلك اللحظة التي غيرت حياتي. لا أستطيع أن أقول على وجه التحديد ما مررت به، أو في أية نيران كنت أحترق (كانت النيران نيراني مثلما كانت نيران غيري)، ولا كل ما أحسست وكل ما جال في خاطري عندما ضربتني العاصفة لأن الأشياء كلها تبدو من هذه المسافة مجللة بضباب إنكاري، بضباب عدم إدراكي، كأن حمى كانت بي. لكني سأروي ـ بالترتيب، كل ما جرى لي وكل ما جرى من حولي. سأروي ما جرى في داخلي، سأرويه قدرما أستطيع، قدرما أعرف نفسي.

أتتني إجابة الضربة التي وجهتها إليهم في مساء اليوم الذي أعقب كلامي في المسجد.

ما كنت شاكاً في شيء، وما كنت مترقباً شيئاً. لكني كنت عالماً أنهم سيحوكون شباكهم القذرة من حولي.

عرّج حسن على التكية ذلك العصر. خلت أن نظرته إلي كانت مختلفة عن نظرته في الليلة الفائتة. كانت نظرة فيها احترام وقدر من عدم التصديق، كأنه فوجئ، كأنه لم يتوقع مني تمرداً. وجدت لنفسي أسباباً بعد أن وقع الأمر فعززتُ ما بنفسي من سخط وإحساس بالظلم. كنت أقول في نفسي إن أخي قد مات. إن لم أستطع إنقاذه، فأنا قادر على الحداد عليه، على الأقل. خشيت أن يلومني حسن لأني لم أفعل شيئاً آخر في وقت أبكر عندما لم يكن الأوان قد فات بعد. لكنه لم يقل شيئاً وكأنه نسي الأمر كله. حمدت فيه ذلك النسيان. كنت أكثر اهتماماً بما يفكر فيه مني بما يفعل. بدأت آراؤه تعني لي الكثير لأنه عارف كل شيء: كان قادراً على أن يوقع بي أشد الأذى.

كان ما لمسته في نظرته من دهشة غالياً علي لسبب آخر. وأظنني لم أحس قبل ذلك أبداً ما أحسسته يومها من أن أمزجتنا وقراراتنا معتمدة كثيراً على من هم حولنا. لو كان ما قلته قد صدم حسناً والحافظ محمد، ولو أنهما اعتبرا ما قلته وقاحة، لأحزنني ذلك. لكن قبولهما أراحني من ثقل الشك، فعلمت أني فعلت ما كان لا بد لي من فعله، وأن فعلي كان حسناً. لعله ما كان حكيماً؛ لكنه فعل حسن. فوجي حسن بكلامي لأنه ما كان يراني شخصاً يُحسب حسابه. لا بأس.. لقد جعلته الآن يراني شخصاً يُحسب حسابه!

مشاعر الاعتزاز هذه تسر النفوس. وهي تقينا الندامة.

ما قلته في المسجد كان حزناً، دهشة، نشيجاً مكتوماً، بل لعله كان أيضاً عويلاً مكتوماً! لكنه كله كان لي، من عندي. كان محاولة محزنة، محاولة انتقام، أو محاولة دفاع. لكني قلته فصار شيئاً آخر؛ صار شيئاً آخر على غير انتظار. ليس مهماً كيف بدأ؛ وليس مهماً كيف كان؛ فقد استحال عبئاً مشتركاً، إدانة مشتركة. وقد صار قيداً عليّ، لأنه ما عاد لي وحدي. صار قيداً بعد الكلمات التي نطقت بها. هذا ما قاله حسن أيضاً (قاله للحافظ محمد في الحديقة، وسمعته من الداخل): لم يسمع قط حزناً صادقاً مثل هذا ولا اتهامات خطيرة مثل هذه. كان، مثل غيره، ثابتاً حيث جلس، مأخوذاً بالبساطة المؤثرة في تلك الكلمات العادية وبأسى رجل كان يبكي، لكنه يتكلم أيضاً. قال: أحسست أننا مذنبون جميعاً، بائسون جميعاً.

أيكون منتظراً مني الآن نسيان كل ما وقع وكل ما قلت؟ الكلمات تقيدنا، فهي أفعال أيضاً. قيدتني كلماتي أمام الآخرين؛ وقيدتني أمام نفسي أيضاً.

لكني خرجت إلى الحديقة فوجدتهما يتكلمان في أمر آخر. أسفت لأني لم أبق موضوع تفكيرهما زمناً أطول. لكن هذا ما كان مهماً لأن ما قيل في غيابي يعني أكثر مما يعنيه ما قيل في حضوري.

قال لي الحافظ محمد عندما سرت إليهما، «نتحدث عن والد حسن».

قال هذا كأنه لم يردني أن أبدأ حديثاً آخر. قلت في نفسي (متسامحاً) إن لكل امرئ مشكلاته. أحمد الله على أن الأمر هكذا.

تكلم حسن مثلما يتكلم دائماً، فكان كلامه مازحاً، بهيجاً. كان سهلاً، سطحياً، في كل شيء.. في أفكاره، وفي مشاعره، وفي علاقته مع نفسه ومع الآخرين (نسيت ذلك ليلة ظل معي حتى الفجر، ليلة كان كله حزيناً). قال: أبي شخص غريب. لا أدري إن كانت ثمة حاجة إلى قول هذا لأن كل إنسان غريب عدا من كان من غير وجه ومن غير لون. لكن، من عساه يكون غريباً طالما أن ما من أحد لديه شيء من عنده. بكلام آخر، شخصياتهم هي ـ على وجه التحديد ـ افتقارهم إلى الشخصية. لا أستثني غيرنا، ولا أستثني منا أحداً لأننا ألفنا أنفسنا كثيراً، ألفناها حتى صار كل ما هو مختلف عنا يبدو لنا غريباً. أفلا يصح القول إذاً إننا نحن الغريبون؟ أقول إن أبي غريب لأنه يحسبني غريباً. وأقول إني غريب لأني أحسبه غريباً. وهكذا دواليك. غراباتنا لا آخر لها. ولعله حريّ بنا أيضاً أن نرى هذا، في حد ذاته، أمراً غريباً.

الاختلاف بينهما هو أن والد حسن يرى أن ابنه استجلب البؤس لنفسه بأن اتخذ هذا المسلك في الحياة. وحسن مقتنع بأن ثمة طرق كثيرة يستطيع بها الإنسان أن يستجلب البؤس لنفسه؛ لكن الطريقة الأقل احتمالاً هي أن يفعل ما يحب فعله طالما أنه ليس مخزياً له. من هنا، يتبين أن والد حسن بائس لأن ابنه راضٍ. وأما فكرة الأب عن السعادة ـ سعادته وسعادة عائلته ـ فهي تعني أن يكون حسن غير سعيد أبداً.

سأله الحافظ محمد مبتسماً، «هل رأيته بعد عودتك؟»

«حاولت. وددت أن أعدد له السبل كلها التي قد تجعل الإنسان تعساً. وددت أن أسأله عمّن تضايقه طريقتي في الحياة. أحب حياتي مثلما قد يحب إنسان حذاء مهترئاً بشعاً. قد لا يقيه ذلك الحذاء ماء المطر؛ وقد يبدو شكله غريباً أو مضحكاً، لكنه يراه مناسباً. لا يعقل أن تخلعه من قدميك وسط الشارع، فأنت لا تكون منتبهاً حتى إلى أنه في قدميك. فلماذا لا تلائمني حياتي؟ لماذا ينبغي أن تكون كابوساً».

«أأردت أن تقول له هذا؟.. لكنك لم تشأ رؤيته».

«كيف لي أن أقول له شيئاً إذا لم أره؟ أردت أن أراه أولاً، لأن هذا يأتي أولاً؛ لكن ما يأتي أولاً في نظره كان أنه غير راغب في رؤيتي. وهكذا، لم تتحقق لي أية واحدة من الرغبتين».

«هل قال لك هذا؟»

«كلمني عبر أفواه الآخرين. إنها طبيعة أبي وقد تأثرتُ كثيراً عندما سعدت بتقبيل الفم الذي قال لي هذا. كان فماً فتياً جداً، بريئاً براءة لم تتح له حتى فهم الكلمات التي نقلها إليّ».

«عليك أن تذهب مرة أخرى».

«أمن أجل الفتاة؟»

ضحك الحافظ محمد وقال له، «كما تشاء. اذهب فقط»

«كما تشاء. كم مرة ينبغي أن أذهب؟ كم مرة يكون على الابن فيها أن يذهب من غير طائل؟»

«مرة أخرى».

رمقه حسن بنظرة مرتابة. ثم سأله، «هل ذهبت لرؤية أبي؟»

«ذهبت».

«إذاً، فقد كنت هناك. لكن، لماذا؟ هل تريد إجراء مصالحة من غير معنى بين رجلين عنيدين؟»

«فليكن ما يكون. قلت له إنك ستذهب إليه اليوم. حاول أن تكلمه. مشاعر الآباء سريعة التأثر».

«آه، صحيح.. أبي تحديداً!»

تذكرت مغموماً حديثي مع المفتي. كان فيه ما يشبه هذا الحديث، وإن قليلاً، لكني كنت مرغماً عليه. إذاً، فما هذا الذي أسمعه الآن؟

فكرت محزوناً قليلاً أن من المحتمل أن تكون بين الأب وابنه مصالحة فينساني بعدها. أحسست شيئاً من الحسد.

توضأت، ثم ذهبت إلى المسجد.

كانت أمسية معتمة، غائمة، أتذكرها جيداً. رفعت رأسي ناظراً إلى السماء. فعلت هذا لأن بي عادة قروية قديمة لم تضع مني بعد مع أني لست في حاجة إليها. وكنت قادراً على أن أحس تقلبات الطقس قبل أيام من حدوثها. لكن الغيوم خدعتني هذه المرة. فاجأتني: كنت شديد الانشغال بنفسي. كنت أتمنى سحاباً وطقساً رديئاً. لعل هذا ما جعلني لا أراه آتياً. لقد كنت أرعى في نفسي أملاً مجنوناً بأن أبي لن يرحل عن القصبة في يوم مطير.

تغير النهار تغيراً غريباً. سماء الغرب ما تزال مصطبغة حمرة. أذكر أنني رأيت على خلفية السماء الحمراء أربعة فرسان في آخر الشارع. كان منظرهم جميلاً كأنهم تطريز على حرير أحمر، كأنهم مخاطون إلى السماء المتوهجة خلفهم. كانوا كأنهم أربعة مقاتلين متوحدين واقفين في ميدان فسيح قبل المعركة، يهدئون من روع جيادهم بحركات لا تكاد تبين.

عندما سرت في اتجاههم، اقتربت الجياد مني تستحثها ضربات لم أستطع رؤيتها. كانت تتقدم صفاً واحداً مغلقة الشارع الضيق من الجدار إلى الجدار.

كانوا آتين إلي.

مر بي زمن ما كنت فيه جباناً. والآن، لست أدري ما أنا. على أن الشجاعة والجبن ما كانا بقادرين على مساعدتي يومها. نظرت خلفي. البوابة بعيدة جداً ـ عشر خطوات فحسب، لكني لا أستطيع الوصول إليها. لوحت للفرسان: توقفوا! سوف تدهمونني! لكنهم ظلوا يسوطون أبدان جيادهم ويزيدون من سرعتها مقتربين مني أكثر فأكثر. اهتزت الأرض بهدير مخيف لم أسمع مثله من قبل؛ وكان الوحش ذو الرؤوس الأربعة، الوحش المستشيط غضباً، المتعطش إلى الدم، يقترب بسرعة يصعب تصديقها. حاولت الجري، أو أظنني حاولت، لكن ساقاي ما كانت بهما قوة. أحسست أنفاس الجياد على رقبتي. رعدة سرت على طول ظهري كله في انتظار الضربة التي ستأتيني: سوف أسقط، وسوف تدوسني الجياد. ضغطت بجسدي على الجدار ملتصقاً به؛ لكنهم ما يزالون قادرين على النيل مني. رأيت أفواه الجياد الأربعة فاغرة من فوقي، كبيرة، حمراء، ممتلئة زبداً ودماً، أربعة أزواج من عيون الخيل صارت فوق رأسي. أربعة وجوه بهيمية، وأربعة

أفواه بهيمية حمراء مدماة مثل أفواه الخيل. أربعة سياط سوداء؛ أربعة أفاعي تهسّ علي، تلتف من حول وجهي ورقبتي وصدري. ما أحسست ألماً؛ وما رأيت دماً. نظرت عيناي المذعورتان إلى قوائم لا عد لها وإلى رؤوس لا عد لها، رؤوس الوحوش المنهالة عليّ. لا! شيء في داخلي صرخ من غير صوت؛ شيء أشد رعباً من الخوف، أقسى من الموت. بل إني لم أفكر في الله، ولا في اسمه. ما كان لشيء من وجود إلا ذلك الهول الأحمر الدامي الذي لا يُعرف منتهاه.

ثم انصرفوا؛ لكني ظللت أراهم أمامي. ظلوا مطبوعين على قماش السماء الذي لطخه الدم، وظلوا مطبوعين فيّ، حتى تحت أجفاني، كأني كنت أنظر إلى الشمس.

لم أستطع حراكاً؛ ولم أجرؤ على الإتيان بأية حركة. خشيت أن أنهار وأسقط على حجارة الشارع. لست أدري كيف بقيت واقفاً فأنا ما كنت قادراً على الإحساس بساقيّ من تحتي.

ثم أتاني الملا يوسف قادماً من لا مكان. بدا لي مذعوراً.

«هل جُرحت؟»

«لا».

«بلى. لقد جرحت».

«لا أهمية لهذا».

كان وجهه الطويل المعافى شاحباً، وبان في عينيه حزن ودهشة. أيكون حزيناً علي؟ شاء الله أن يكون الملا يوسف أول من يراني؛ فأمامه، عليّ أن أظهر شجاعة. لست أدري سبباً لهذا، لكن، كان علي فعله. كان من الممكن أن أظهر خوفي أمام أي شخص آخر، لكن ليس أمامه.

قال بنبرة رقيقة، «فلنذهب وندخل التكية».

تبادر إلى ذهني أنني ما أزال ملتصقاً بالجدار من غير موجب.

«سأتأخر على موعد الصلاة في المسجد».

«لا تستطيع الذهاب إلى المسجد وأنت هكذا. سأذهب بدلاً منك».

«أتراني نازفاً؟»

«نعم».

بدأت السير صوب التكية. أمسك بذراعي كي يعينني.

خلصت ذراعي منه وقلت: «أستطيع تدبر أمري. اذهب إلى المسجد، فالناس منتظرون».

توقف كأنني أخجلته. رمقني بنظرة متجهمة. قال: «الزم التكية يوماً أو اثنين».

«هل رأيت ما حدث؟»

«نعم».

«لماذا هاجموني؟»

«لا أعرف».

«سوف أرفع شكوى».

«لا تفعل ذلك، يا شيخ أحمد».

«كيف لي ألا أفعل ذلك؟ لن أستطيع مواجهة نفسي».

«لا تفعلها. انس الأمر».

لم ينظر في عيني. كان يرجوني كأنه علم شيئاً.

«لماذا تقول لي هذا؟»

لم يقل شيئاً. أشاح بنظره عني. إن كان خائفاً، فهو لم يدر ما يقول. وإن كان عارفاً أمراً، فهو لم يرد قول شيء عنه. وإن جال في خاطره أن الأمر ليس من شأنه، فقد ندم على القليل الذي قاله. يا ربي! ماذا صنعنا من هذا الرجل؟

كان هذا هو السبب في أني أخفيت خوفي وضعفي. كان هو السبب في أني أردت الذهاب إلى المسجد حاملاً دمي. كان هو السبب في قولي إني سأرفع شكوى. أردت أن أظل منتصب القامة أمام هذا الشاب؛ فلكل منا علاقة غريبة بالآخر. إنه الآن مشفق علي.. أول مرة. وقد كنت أظنه يكرهني.

نظرت كيف عاد اللون سريعاً إلى وجنتيه، قلت له: «اذهب، اذهب الآن».

لو جننت لشدة الخوف الذي أحدثته هذه الواقعة في نفسي لكان هذا طبيعياً أكثر. لكنني اجتزت تلك اللحظة الأولى سليماً وبقيت محتفظاً بكل شيء في داخلي. نجحت في إزاحتها عني، في كبتها، في حبسها.. في الوقت الحاضر.

حادثة فظيعة.. قالت هذا ذاكرة ساذجة بداخلي، لكني كنت غير قادر على جعل أي شيء مما هو فيّ ينتقل إلى حيز الحياة. وكنت أيضاً فخوراً بأني أخفيت خوفي. ظل في نفسي إحساس سارٌّ بالشجاعة. ليست فكرة مؤكدة تماماً، لكنها كافية لأن أرجئ كل شيء.

بينما كان مصطفى والحافظ محمد يخلعان عني ثيابي ويغسلانني، مصدومين، مذعورين. حاولت عبثاً منع ذراعي وساقي من الارتعاش مع أني بقيت محتفظاً بقدر من القوة كافٍ كي لا أحس خجلاً أو خوفاً. كان ذلك كأن جمرات محتضرة توهجت بضع مرات، وكأن الخوف والهدير الفظيع سوف تدب فيهما الحياة فجأة. لكني أفلحت في تحويل كل شيء عائداً به إلى تلك اللحظة عندما كان الأمر فيها ما يزال جارياً، وكان الأذى لم يصبني بعد. انتهى الأمر.. قلت هذا في نفسي.. لم يحدث ما من شأنه أن يزعجني كثيراً. فقط، ليت الأمر لا يزداد سوءاً؛ ليته ينتهي بهذا. أصغيت إلى كلامهما غير المترابط، أصغيت مهتماً إلى أسئلة مصطفى عما جرى. يسأل لأنه لم يفهم شيئاً. أصغيت إلى زفرات الحافظ محمد المصعوقة تتخللها كلمات تشجيع خرقاء وكلمات حادة موجهة إلى مصطفى وتهديدات موجهة إلى مجهول، إلى شيء غير محدد كان يدعوه «هُم». كانت احتجاجاته المتلعثمة تعزز في نفسي إحساساً متردداً بالغضب إزاء ما نزل بي من إهانة. وعندما عاد الملا يوسف من المسجد ووقف بالباب صامتاً، تنامت رغبتي في فعل شيء، وازدادت قوة. لم أتأخر في الاستفادة من ذلك إذ أفزعتني رغبة أخرى، رغبة في ألا أفعل شيئاً. كتبت شكوى موجهة إلى ملا الوالي، وطلبت من يوسف أن ينسخها.

اضجعت، لكن النوم جفاني. شغلني أمر الشكوى. ما تزال معي؛ وما أزال غير واثق مما أفعله بها: أرسلها أم أمزقها. إن مزقتها سوف ينتهي كل شيء هنا. لكن كل ما كان خبيئاً سيعود إلى الحياة وستشتعل النار المحتضرة، ستشتعل من جديد. سأعود إلى سماع وقع الحوافر الذي يجعل الدم يتجمد في العروق. وإذا أرسلت الشكوى فسوف أحفظ اقتناعي بأني قادر على الدفاع عن نفسي، وبأن لي حقاً في أن أوجه الاتهامات. كنت قادراً على تصديق هذا.

الظاهر أنني ما كدت أستسلم للنوم إلا وأيقظني وقع خطوات صاخب وضوء شموع في غرفتي. رأيت رجلاً ذا وجه مسطح. الرجل الذي حمل إلي وعيد المتسلم. كانت الشمعة في يد رجل آخر لم أعرفه.

سألتهما مذعوراً بعد أن انتزعاني من نومي انتزاعاً، «ماذا تريدان؟» فاجأتني وقاحتهما.

لم يتعجل إعطائي إجابة. قذفني بنظرة ازدراء فضولي مثلما فعل الليلة الفائتة. كانت نظرته ودوداً، ماكرة، كأن بيننا نكتة تقرّبنا وتمنحنا فرصة لأن نكون مرحين من غير قول شيء. كان الرجل الآخر حاملاً الشمعة فوق فراشي كأني خليلة أحدهم.

قال الرجل بنبرة مرحة، «لم يرد الإصغاء إلي؛ لكني حذّرته».

أخذ الشمعة من صاحبه وراح يتفحص الغرفة ويعبث بكتبي. ظننته سيقذف بها في أرجاء الغرفة من غير أن يبالي، لكنه اعتنى بإعادة كل كتاب إلى مكانه.

سألته وقد تزاحم في نفسي انزعاج وتوق إلى إجابة، «عم تبحث؟ من سمح لكما بالدخول؟ كيف تجرؤان على دخول التكية؟»

كان صوتي خافتاً جداً، غير واثقٍ أبداً.

نظر إلي كأنه لا يصدق ما سمعه مني. لم يجبني بشيء.

وجد الشكوى فقرأها وهز رأسه.

سألني مشدوهاً، «ماذا ستفعل بهذه؟». ثم أجاب عن سؤاله بنفسه، «الشأن شأنك».

وبعدها، وضع الشكوى في جيبه.

عندما اعترضت مرة أخرى وقلت له إني سأرفع إلى المفتي شكوى في شأن مجيئه، نظر إلي نظرة ازدراء ولوح بيده كأن مجادلة شخص ساذج مثلي تضجره.

كرره القول، «الشأن شأنك. انهض وارتد ملابسك».

ظننت أني لم أسمعه جيداً، «هل قلت لي أن أرتدي ملابسي؟»

«قلت هذا. إن أحببت، تستطيع الذهاب هكذا، مثلما أنت. عليك أن تسرع. لا تكن سبباً في أية مشكلة تصيبك أو تصيبني».

«لا بأس، سأذهب. لكن ثمة من سيدفع ثمن هذا».

«هذا أفضل. ثمة دائماً من يدفع الثمن».

«أين تأخذانني؟»

«آه! أين نأخذك!؟»

«وماذا أقول للدراويش عندما أعود؟»

«لن تقول لهم شيئاً. سوف تعود على الفور، أو لن تعود أبداً».

ما كانت هذه نكتة، بل إجابة صائبة في شأن النتائج الممكنة.

دخل الحافظ محمد الغرفة مضطرباً. كان كل ما فيه أبيض اللون ـ وجهه وقميصه وجارباه. كان أشبه بجثة نهضت من قبرها. كان عاجزاً عن الكلام. قد يكون هذا فألاً سيئاً. توقعت أن يفعل شيئاً مع علمي أنها فكرة بعيدة عن العقل.

أشرت إلى الرجلين المنتظرين بصبر نافذ وقلت، «لقد أتيا كي يأخذاني. آمل أن أعود عما قريب».

«من هما؟ من أنتما؟»

قال الرجل مستعجلاً إياي، «تحرك! من أنت؟! أي حمقى لدينا في هذا العالم! نستطيع أن نأخذك أنت أيضاً، عندها تعرف من نحن».

صاحت الجثة على غير انتظار.. كان مذهولاً تماماً «خذاني! خذانا جميعاً! إن كان مذنباً في شيء، فنحن جميعاً مذنبون».

قال الشرطي كمن يقرر أمراً واقعاً: «غبي! لا تستعجل الأمر، فقد نعود من أجلك أيضاً».

«من يباهي بالعنف..»

لم ينه الكلمات التي يمكن أن تودي به. قاطعه سعال أتى في وقته. ما كان ممكناً أن تداهمه نوبة سعال أكثر نفعاً من هذه. لقد هزته هزاً وكأن دمه موشكاً على الاندفاع خارجاً من حلقه. قلت في نفسي إن شدة انفعاله هي السبب في ذلك. ما كنت آسفاً عليه، فهو باقٍ هنا. وقفت أرقب كيف يهتز ويتلوى. وقفت أرقبه وحيداً، خائفاً من ذلك الرحيل غير المرغوب فيه، ذلك الرحيل في الليل. لكني لم أشأ إظهار شيء من خوفي.

مضيت إليه كي أساعده، لكن الشرطي أوقفني.

قال بنبرة هادئة، «رجل مسكين». كان ما قاله أشبه بلوم، أو باحتقار. أشار لي بيده أن أخرج من الغرفة.

كان رجل ثالث في انتظارنا أمام التكية. ساروا من أمامي ومن خلفي.

كنت محصوراً بينهم لا أكاد أقوى على التنفس. وكان ظلامٌ. لا قمر ولا نجوم. ليل لا نور فيه أبداً، ولا حياة. لا شيء غير نباح الكلاب في أفنية البيوت يجيب نباحاً بعيداً آتياً من التلال القريبة من السماء. تجاوزت الساعة منتصف الليل، وكانت الأرواح محوّمة في العالم. الناس الذين ما يزالون أحراراً نائمون يحلمون أحلاماً جميلة في الظلمة. البيوت غارقة في عتمتها، ومثلها القصبة والعالم كله. إنها ساعة تصفية الحسابات، ساعة الأفعال الآثمة. ما من أصوات بشرية؛ وما من وجوه بشرية غير تلك الظلال الثلاثة التي تخفر ظلي. ما من شيء: وحده انفعالي الناري كان حياً في ذلك الهباء المظلم.

من وقت إلى آخر يتلامع ضياء خجول، هنا أو هناك، لأن ثمة شخص مريض، أو لأن ذعري أيقظ في قلب الليل طفلاً، أو لأن حفيفاً مشؤوماً أيقظه. هالني التفكير في تلك الحياة الوادعة فدفعتها بعيداً عني كي لا أرى نفسي سائراً في الظلمة صوب قدر مجهول. كنت ذاهباً إلى مكان من الأماكن، ذاهباً من غير هدف، ذاهباً إلى لا مكان، أو بدا لي أني كنت ذاهباً. بدأت أفقد إحساسي بالواقع كأني لست في هذا العالم، كأني لست مستيقظاً. كان هذا لأن من حولي ظلمة، لأن من حولي ظلالاً لا شكل لها، ولأني غير مقتنع بأن هذا أنا، بأن هذا يمكن أن يكون أنا. كان هذا شخصاً آخر عرفته فرحت أرقبه: لعله مشدوه، أو لعله مذعور! أم لعلي ضللت السبيل! لم أدر أين أنا. كنت في مكان من الأماكن، في وقت من الأوقات، سائراً في دروب مقدّرة لي. ما كنت في ذلك المكان قبل ذلك أبداً، وما كنت قادراً على تركه؛ لكن واحداً من الناس سيشعل شمعة في تلك اللحظة ويناديني أن آتي إلى حيث الأمان. لكن أحداً لم يشعل شمعة، ولم يرشدني صوت مرجوٌّ إلى الوجهة الصحيحة. ظل الليل على حاله مثلما ظل ذلك المكان الغريب وظل عدم تصديقي. كان كل شيء حلماً بشعاً. ولسوف أستيقظ وأتنفس الصعداء.

لماذا لا يصرخ الناس عندما يقادون إلى موتهم؟ لماذا لا يجعلون أصواتهم مسموعة، ولماذا لا يصيحون طالبين العون. لماذا لا يجرون؟ صحيح أن ما من أحد لديهم ينادونه، وما من مكان يجرون إليه، وما من أحد يتوسلون إليه: الآخرون نيام جميعاً، وبيوتهم مقفلة. لست أطلب هذا من أجلي، فأنا غير محكوم بالموت. سوف يخلون سبيلي؛ وسوف يعيدوني عما قريب. سوف أعود وحيداً سائراً في دروب أعرفها، لا في هذه الدروب الغريبة، المخيفة. لن أصغ بعد الآن أبداً إلى عواء الكلاب، إلى عوائها اليائس إزاء الموت وإزاء الخراب. سوف أغلق الباب وأسدّ أذني بالشمع كي لا أسمع شيئاً. هل سمع هذا كل من أخذوه؟ أيكون هذا العواء آخر ودعاء صافح أسماعهم. لماذا لم يصرخوا؟ لماذا لم يجروا؟ لو علمت ما ينتظرني لصرخت، لجريت. سوف تنفتح النوافذ كلها؛ وسوف تنفتح الأبواب كلها.

آه.. لا! لن تنفتح. لن ينفتح باب؛ ولن تنفتح نافذة. لهذا لا يجري أحد أبداً؛ كلهم عارف بالأمر. لعل لديهم أملاً باقياً! الأمل قوّاد الموت. قاتلٌ أكثر خطورة من الحقد. وهو خدّاع: يعرف كيف يستميلك ويفوز بك، كيف يهدئك ويهدهدك حتى تنام، ويهمس في أذنك بما تود سماعه فيسير بك حتى المقصلة. لم يهرب إلا إسحاق. لقد أخذوه تلك الليلة مثلما يأخذونني الآن. لا.. لقد كانوا أكثر عدداً، فهو أمر آخر، هو أكثر مني أهمية. أنا لست مهماً لأحد. وأنا واثق من أنه لم يصغ إلى أصوات الكلاب النابحة؛ لم يحسب أنه كان حالماً وأنه سيستيقظ. كان عارفاً أين يأخذونه؛ وما كان لديه أمل في البقاء حياً. لم يخادع نفسه مثلما يخادع الآخرون أنفسهم. قرر أن يجري. اتخذ قراره من تأخير. كانت تلك فكرته الأولى والأخيرة. لهذا كان يخطو خفيفاً، خائفاً من أن تجري أفكاره على هواها ـ كانت أفكاراً قوية جداً ـ وكان ينظر في العتمة من غير انقطاع. كان ضوء القمر خدّاعاً، معادياً، لكنه بحث عن ظل يختبئ فيه، بحث عن أشد الظلال كثافة. كان اتخاذه قرار الفعل مفاجئاً: اتخذه عندما بدا له أنهم غير منتبهين، عندما رأى أنه لن يحظى بفرصة أخرى. كُنتُه لحظة واحدة، لحظة واحدة قصيرة فقط، كنت أنا هو، مستعداً للاندفاع، مستعداً للجري. كانوا من خلفي، وإلى جانبي؛ وكنا متقاربين أكثر مما يتقارب الأصدقاء أو الإخوة. الآن، ستتقطع الروابط بيننا.

سيكون بيننا انقسام عنيف مؤلم. هم لا شيء من غيري. وسوف يعانون بعد هذا الفراق ويجري حل كل شيء في فسحات من الزمن صغيرة، غير محسوسة.. بل إننا لن نكون منتبهين إليها. لن نكون عالمين إلا لحظة وثبتي. ثم تكرر الأمر، وتكرر. كان كل ظل أقل كثافة مما ينبغي، وكل خطوة أكثر قصراً مما ينبغي، وكل مكان اختباء أكثر انكشافاً مما ينبغي! لا جدوى! فأين عساي أستطيع الهرب؟

تلاشت قواي إزاء الفكرة نفسها فلم أحاول شيئاً. لم أحاول شيئاً لأني لم أتخذ قراراً، لأن اتخاذ القرار ليس من شيمتي. إنه من شيمة إسحاق. لكن هذا كان يحدث لي أنا؛ وكان أدنى من الواقع، أو لعله كان أكثر منه: استحالة كانت تحدث حقاً، لست أدري كيف.

كانوا يأخذوني من ظلمة إلى ظلمة. ما كان ثمة أماكن أو ظلال لأني ما كنت قادراً على رؤية شيء، ولأني كنت منشغلاً بنفسي، منشغلاً برؤى جردتني من إحساسي بأي شيء كان من المحتمل أن ألحظه لو كانت الحال غير هذه. تغيرت الظلمة. علمت هذا لأننا نتحرك ولأن الزمن يمر مع أني ما كنت مدركاً مروره آنذاك.

التقوا أحداً في مكانٍ من الأماكن فتهامسوا بشيء، ثم صرت من جديد محصوراً بين أشخاصٍ آخرين. لقد صرت شيئاً ثميناً لا يجوز أن يضيع. ما عدت عارفاً من يسير معي، لكن هذا ما كان مهماً أبداً. كانوا كلهم متشابهين؛ كانوا كلهم ظلالاً؛ كانوا كلهم خارجين في هذه المهمة الليلة من أجلي، وكانت ممكنة الاستعاضة عنهم بغيرهم. وأما أنا فما كان ممكناً أن يستعاض عني بأي شخص آخر.

عندما اصطدمت جبهتي بإطار باب منخفض، أدركت أننا قد وصلنا. أنا من وصل؛ وأما هم فسوف يعودون أدراجهم. سوف تحل الجدران محلهم.

صحت بالباب المصفح بالحديد، «أعطني ضوءاً!» صحت به بعد أن صرت داخله وصرت غير قادر على تصديق أن هذه الظلمة يمكن أن تكون موجودة في أي مكان في العالم.

كانت هذه آخر بقية من عاداتي في الخارج، آخر كلمة باقية عندي. لم يسمعها أحد، أو لم يرد أحد سماعها، أو لم يستطع أحد فهمها. لعلها بدت كأنها هذيان.

اختفى وقع خطواتهم في شيء أظنه كان ممراً. أغلب الظن أن هذا سجن. وأغلب الظن أن هذا أنا. أهذا أنا؟ نعم، للأسف، هذا أنا. لم تضع أفكاري في غشاوة مثل غشاوة الحلم؛ ولم أهوّم مبتعداً عني كي أرى نفسي من بعيد كأني أنظر إلى شخص آخر. كنت واعياً، صاحياً؛ وكان كل شيء واضحاً لي وضوحاً مؤلماً. لا ريب في الأمر أبداً.

لم أفارق الباب زمناً طويلاً، ولم أفارق رائحة الحديد الصدئ. كان هذا المكان الذي خطوت فيه أول خطوة في الظلمة المقدّرة لي. عرفتها منذ بضع لحظات، فصارت الآن أقل خطورة. ثم بدأت أسير في المكان، أفتشه، معمياً، متكلاً على أطراف أصابعي، متحسساً ظلمة ثقيلة في كل مكان، ظلمة الجدران غير المستوية كأني في قعر بئر. كانت الظلمة من تحتي أيضاً، أحسستها من تحت قدمي اللتين التصقتا بشيء بشع، لزج. من غير أن أعثر على شيء وجدت نفسي عائداً إلى الباب من جديد إلى رائحة الحديد الواخزة. بدت تلك الرائحة أرحم من نتانة الظلمة.

خواء أكيد، وعزلة تحيط بها الجدران. لم أر هناك إلا القليل القليل. لم أدر إن كنت في حاجة إلى ما عرفته من قبل. لا شيء مما يخصني صالح هنا. لا عيني، ولا كفاي، ولا قدماي، وتجاربي، ولا عقلي. كنت كأني عدت إلى زمن الكائنات الحية الأولى التي تحدث عنها الحافظ محمد.

حياتي ومساعيّ كلها كانت من أجل هذه المساحة الضيقة من ظلمة ومن أجل هذا العماء المطلق!

كان مسكني الجديد هذا صغيراً، لكنه كافٍ لأن أستلقي فيه.. لو كان جافاً. تجولت في ذلك القبر فوجدت عند واحد من الجدران حجراً وقفت عنده لكني لم أسمح لنفسي بالجلوس. ما أزال قادراً على اتخاذ قرارات. كنت كأني واقف في انتظار أن ينفتح الباب وأن يأتي أحدهم فيخلي سبيلي: هيا، اخرج من هنا! لعل الآخرون جميعاً كانوا مترددين في الجلوس وسط الظلمة والطين معلقين آمالهم على أمر من الأمور، منتظرين، لا يتخلون عن انتظارهم إلا بعد أن يفقدوا الأمل. لكن هذا لا يستغرق زمناً طويلاً. سرعان ما جلست بدوري، جلست على الحجر ـ كان ذلك تحولاً ـ حاولت ألا أتكئ على الجدار. لكني لم ألبث أن اتكأت

وأحسست الظلمة تتسلل إلي بطيئاً وتدخلني. من الممكن أن يبدأ ذلك التحلل الصامت إلى ماء وإلى لا شيء؛ فما من أمر آخر أفعله.

لم أدر إن كانت جروحي قد أوجعتني قبل ذلك؛ لم أدر إن كانت قد أوجعتني قبل أن أحس بها وجعاً، أو أنها انثنت وخضعت أمام أمور أكثر أهمية. الآن، جعلت نفسها حاضرة، محسوسة، إما لأن أوان إيلامها قد حان أو لأن دمي تمرد على نسياني وعاد يذكرني بوجوده. قبلت هذا العون المفاجئ، قبلته من غير وعي، وبدأت أدعك الجروح بأصابعي محاولاً توزيع الألم، محاولاً تسويته كي لا يظل كتلة متجمعة في مكان واحد. ضغطت على الجروح كي لا تنزف، وأحسست دمي دبقاً على يدي. لقد غسلوا جروحي في التكية الليلة السابقة، غسولها بمنقوع البابونج ومسحوها بالقطن؛ وأما الآن، فقد صرت أدعك لحمي الممزق بما اجتمع على يدي من وسخ الجدران.. وما كنت مبالياً. لم أفكر فيما سوف يحدث. لم أفكر إلا بما كان يحدث وقتها. كان الألم شديداً؛ بدأ يحرقني في الظلمة. كانت تلك تجربتي الوحيدة؛ وكان جسدي يعيدني إلى الواقع. أنا في حاجة إلى هذا الألم فهو جزء من عيشي ذاتي. هو أمر أستطيع فهمه، أمر يشبه الألم الذي يحسه المرء في العالم الخارجي. كان دفاعاً في مواجهة الظلمة وفي مواجهة بحثي العقيم عن أية إجابة. كان عقبة حالت بيني وبين تذكر أخي. قد يظهر لي هارون على هذا الجدار الأسود، جدار قبري؛ قد يظهر حاملاً سؤالاً لا أستطيع الإجابة عنه.

غفوت مغطياً بكف يدي واحداً من جروحي كأني أحاول منعه من الاختفاء. غفوت جالساً على الحجر، مستنداً إلى الجدار الرطب. ثم استيقظت على الجرح يحرقني من جديد، يحرقني تحت يدي التي كأنها عشٌ له. عشت جرحي، فآلمني. وددت أن أسأله، كيف كان نومك؟ إذاً، ما كنت وحيداً!

فرحت عندما اكتشفت فتحة صغيرة في واحد من الجدران، تحت السقف المقبب. كشف حِدادي هذه الفتحة. ومع أن ضوء النهار ظل رغبة وإحساساً غامضاً، فقد صارت الظلمة غير تامة؛ ما عادت تامة. لقد انبلج الصبح في العالم الخارجي وألقى علي ضوءاً شحيحاً مع أن ليلي ظل متواصلاً. حدقت في تلك البقعة الرمادية الداكنة من فوقي، وتشجعت كأني أنظر إلى أجمل فجر وردي فوق

السفوح الفسيحة في طفولتي. ضياء الفجر، والنهار - إنهما موجودان حتى إن لم يكن وجودهما إلا لمحات منهما.. لم يختف كل شيء. عميت عيناي عندما تحولتا عن ذلك الضوء الشحيح. من جديد، صارت الظلمة مطبقة في زنزانتي.

لم أدرك إلا بعد أن اعتدت الظلمة أن العينين تظلان ضروريتين في هذا الليل السرمدي. نظرت من حولي، لكني لم أر شيئاً غير ما رأته أصابعي من قبل.

انفتحت النافذة الصغيرة التي بالباب، انفتحت مطلقاً صوت صرير حاداً. لم يأت منها هواء، ولا نور. نظر أحدهم من الظلمة الأخرى. نهضت إلى النافذة فنظر الواحد منا إلى الآخر عن كثب. كان وجهه ملتحياً لا ملامح فيه. لم أر فيه شيئاً، لا عينين ولا فماً.

سألته: «ماذا تريد؟ ومن أنت؟». خشيت ألا يكون قادراً على الإجابة.

«جمال».

«أين أتوا بي. ما هذا المكان؟»

«نعطيك طعاماً مرة واحدة في اليوم. مرة واحدة فقط. في الصباح».

كان صوته خشناً، معتماً.

«هل سأل عني أحد؟»

«هل تريد أن تأكل؟»

بدا لي كل ما من حولي وسخاً، لزجاً، جعلتني فكرة الأكل أحس غثياناً.

«لا أريد أن آكل».

«هكذا يكون الجميع، أول يوم. ثم يصيرون راغبين في الأكل. لا تنادني بعد أن أذهب».

«هل سأل أحد عني؟»

«لا، لا أحد».

«سوف يأتي أصدقائي كي يسألوا عني. تعال وأخبرني عندما يأتون».

«من أنت؟ ما اسمك؟»

«أنا درويش. شيخ التكية. اسمي أحمد نور الدين».

أغلق النافذة الصغيرة، ثم لم يلبث أن فتحها مجدداً، «هل تعرف دعاءً؟ هل تستطيع أن تكتب لي تعويذة؟.. تعويذة من أجل ألم المفاصل؟»

«لا».

«أمر مؤسف. إنه يقتلني».

«المكان رطب هنا، سوف يصيبنا المرض جميعاً».

«أنت أمرك سهل. سوف يخلون سبيلك. أو.. يقتلونك. أما أنا، فباق هنا إلى الأبد. باقٍ هكذا».

«ألديك حصير أو لوح خشبي؟ لا أستطيع الاستلقاء على الأرض».

«سوف تعتاد الأمر، ليس عندي شيء».

الدرويش أحمد نور الدين (نور الدين!)، شيخ التكية. لقد نسيته. ما كان لي اسم طيلة الليل، وما كان لي لقب. تذكرته، واستعدته إلى الحياة أمام هذا الرجل. أحمد نور الدين، الإمام العالم، أساس تكيته وسقفها، فخر القصبة، سيد العالم. لكنه الآن صار يطلب حصيراً أو لوحاً خشبياً، يطلب من جمال الخفاش، حتى لا يضطر إلى الاستلقاء على الأرض الموحلة! كان في انتظار أن يخنقوه ويُسجّوه في الطين ميتاً فرفض أن يستلقي فيه حياً.

من الأفضل أن أكون بلا اسم، أن أكون مع جروحي وألمي، مع النسيان، مع جروحي وآمالي في انتظار الصبح، لكن ذلك الصبح الميت، الصبح الذي من غير فجر، أيقظ أحمد نور الدين وخنق أمله ودفع آلام جسده وجروحه إلى حيز اللا وجود. صار هذا كله غير مهم إزاء تهديد أكثر شدة وخطورة، تهديد يتصاعد منطلقاً من داخلي، يتصاعد كي يدمرني.

حاولت منع نفسي من الجنون.. أي شيء إلا هذا! ما إن يبدأ الجنون حتى لا يعود أي شيء قادراً على إيقافه. سوف يحرق كل ما في داخلي ويدمره. لن يبقى مني غير الخراب. أمر أفظع حتى من الموت. لكني كنت قادراً على الإحساس به- بالجنون- يتحرك، يتلوّى. ما كان عندي شيء يمكن أن تتمسك به أفكاري كي تبقى. تلفتُّ حائراً، باحثاً عن شيء. لقد كان هنا حتى اليوم السابق، حتى اللحظة السابقة. أين هو؟ كنت أبحث، لكن عبثاً. ما كان لدي ما أتمسك به؛ وكنت أغرق في الطين. لا أهمية لهذا فالأمر عبث كله، يا شيخ أحمد نور الدين!

لكن الموجة التي نبعت في داخلي توقفت.. لم تكبر. دُهشت. كنت في انتظارها: صمت.

نهضت واقفاً، متمسكاً بالجدران، مستنداً بكفيّ على تلك الرطوبة اللزجة. أردت أن أقف. كان عندي أمل باقٍ. سوف يأتون بحثاً عني. لم يبدأ النهار إلا منذ قليل. لن تقتلني لحظة ضعف؛ بل كان أمراً حسناً أنها جعلتني خجلاً من نفسي.

وقد انتظرت، وانتظرت محافظاً على شعلة الأمل حية مع انقضاء الساعات الطويلة. وجدت في ألمي وجروحي الملتهبة راحة لنفسي. أصخت السمع فعلّي ألتقط وقع خطوات، وبقيت منتظراً أن ينفتح الباب، أن يبلغني صوت. ثم أتى الليل. علمت لأني ما عدت في حاجة إلى عيني. نمت في الوحل اللزج النتن، نمت مستنفداً، ثم استيقظت فما كانت عندي رغبة في الجلوس على الحجر. أتى الصباح، وأكلت ما جلبه جمال من طعام، ثم عدت إلى الانتظار. مرت الأيام، وتتابعت أوقات الفجر العاتمة واحداً تلو آخر، وما عدت عالماً إن كنت أنتظر شيئاً.

بعد ذلك، عندما فرغت من قواي كلها وجعلني تعب الانتظار في دوار تام، بعد أن أنهكتني الرطوبة التي امتصتها عظامي وأصابتني حمى أدفأت جسدي وأخرجتني من القبر حيناً من الزمن.. عندها، كلّمت أخي هارون.

صرنا الآن متساويين، يا أخي هارون. قلت له هذا، وكان ما يزال صامتاً. ما رأيت منه غير عينيه، بعيدتين، صارمتين، ضائعتين في الظلمة. تبعتهما، وضعتهما أمامي، أو مضيت خلفهما. نحن الآن متساويان. كلانا بائس. إن كنتَ آثماً، فما من إثم الآن. أعرف كم كنتَ وحيداً، وكم انتظرت أن تسمع من أحد شيئاً. وقفت عند البّاب وأصختَ السمع علّك تلتقط أصواتاً أو كلمات أو وقع خطوات. ظننت أنهم سيفعلون بك أمراً، مرة بعد مرة بعد مرة. لقد تُركنا وحيدين، تركنا كلانا، ولم يأت أحد. لا سأل عني أحد، ولا تذكرني أحد. صارت دربي الآن خالية من غير أثر من ذكرى. أتمنى لو أني لم أرها أبداً. أنت انتظرتني؛ وأنا انتظرت صديقي حسن. لم ننتظر وقتاً كافياً. ما من أحد ينتظر وقتاً كافياً. دائماً، في آخر المطاف، يظل كل امرئ وحده. نحن متساويان، نحن تعسان، نحن بشريان، يا أخي هارون.

أقسم بالزمان الذي هو مبتدأ كل شيء ومنتهى كل شيء، أقسم أن كل إنسان يعاني الخسارة دائماً.

سألت جمال بفعل العادة، «هل أتى أحد؟». ما عدت آملاً في أي شيء.

«لا. لا أحد».

تمنيت أن يكون عندي أمل فما أحد بقادر على العيش من غير رجاء. لكن، ما كانت عندي قوة من أجل الأمل. هجرت موقع الحراسة عند الباب وجلست في مكان من الأماكن. جلست هادئاً، مهزوماً، صامتاً أكثر فأكثر. رحت أفقد حس الحياة؛ والحدود بين الأحلام والواقع راحت تختفي. ما أحلم به وقع فعلاً.. كنت أسير في دروب طفولتي وشبابي، أسير حراً. لكني لم أسر أبداً في شوارع القصبة كأن تلك الشوارع قادرة على أخذي إلى السجن، حتى في أحلامي. عشت مع أشخاص عرفتهم منذ أمد بعيد. كان هذا أمراً لطيفاً لأني ما أستيقظت أبداً. ما كنت أعلم شيئاً عن أن يكون المرء مستيقظاً. كان جمال السجان حلماً أيضاً مثلما كانت الظلمة من حولي، مثلما كانت الجدران الرطبة. حتى عندما أستيقظ، لا أجد أنني أعاني كثيراً: لا بد للمرء من قوة كي يعاني!

صار واضحاً لي كيف يموت الناس. رأيت أن هذا ليس شديد الصعوبة، ولا حتى صعباً. إنه لا شيء. كل ما في الأمر أن المرء يبدأ العيش أقل، ثم أقل، يصير موجوداً أقل، ثم أقل. يفكر ويحس أقل ثم أقل. يجف مجرى الحياة الغني ولا يبقى غير خيط دقيق من وعي مضطرب، ثم يصير الخيط أكثر دقة، ويصير أقل أهمية أو معنى. ثم لا يحدث شيء، ولا يوجد شيء. ما من شيء. ولا أهمية لشيء.. كله سواء.

وعندما قال جمال شيئاً عبر النافذة التي في الباب (قاله في لحظة من اللحظات من ذلك الذبول من غير زمن، فالزمن منقطع قبل أن يفلح في جعل نفسه ديمومة) لم أستطع فهم ما قاله على الفور مع علمي أنه كان مهماً. ثم استيقظت وأدركت الأمر: أتتني هدايا من أصدقائي.

«أي أصدقاء؟»

«لست أدري. إنهما شخصان. خذها».

علمت، وما كان علي حتى أن أسأل، علمت أنهم سيأتون. علمت هذا منذ زمن بعيد. صحيح أن انتظاري طال كثيراً، لكني علمت.

تشبثت أصابعي بالباب كي أستطيع النهوض. ما كنت جالساً هناك من غير سبب.

«أتقول إنهما اثنان؟»

«اثنان. سلما الحارس ما أتيا به».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ماذا قالا؟»

«لست أدري».

«قل له أن يسأل كي يعرف منهما».

وددت أن أسمع أسمين أعرفهما. حسن وهارون. لا، حسن وإسحاق.

أخذت منه الطعام ـ كان بلحاً وكرزاً ـ عندما أتيت إلى هذا المكان كان ما جلباه لي حبيبات خضراء صغيرة، كان أزهاراً وردية. تمنيت مرةً أن يسري في عروقي دمها الذي لا لون له حتى أُزهر من غير ألم، حتى أزهر كل ربيع مثلما كانت مزهرة آنذاك. لقد وقع لي هذا مرة؛ وعندما استعادته أفكاري في هذا المكان، تمنيت أن أستطيع العودة.

خشيت أن تسقط الصرّة من كفي. كانت يداي غير ثابتتين، مجنونتين، طَرِبَتين، ضعيفتين؛ شدّتا على ذلك البرهان على أنني لست ميتاً، وشدّتاه وثيقاً إلى صدري. كنت عالماً أنهم سيأتون. لقد علمت هذا! خفضت رأسي واستنشقت العبير النضر، عبير أول الصيف؛ استنشقته شرهاً، متمنياً المزيد والمزيد، لن تلبث الظلمة أن تتسلل إلى شذا الكرز الأحمر الشفيف. لمست جلود الثمرات الغضة الطرية، لمستها بأصابع متسخة. سوف تذبل وتشيخ بعد لحظة، بعد ساعة. لا أهمية لهذا. لا أهمية لهذا. تلك كانت علامة. رسالة من العالم الذي في الخارج. ما كنت وحيدي؛ وثمة أمل. ما ذرفت دمعة عندما حسبت أن النهاية باتت قريبة. أما الآن، فقد سالت دموعي من غير توقف، سالت من نبعيّ عينيّ اللتين عادت إليهما حياتهما. لا بد أن دموعي تركت أثرها على ما كسا وجهي من طين. فليسل دمعي؛ لقد نهضت من بين الأموات. كانت تلك العلامة على أنني لست منسياً

كافية لأن تعود إلي قوتي الضائعة. كان جسدي ضعيفاً، لكن هذا ما كان مهماً لأني أحسست دفئاً يسري في نفسي. لم أفكر في الموت، وما عدت غير مبالٍ بشيء. حدث هذا في اللحظة الأخيرة، حدث كي يحول بيني وبين الانحدار الذي بدأت أنزلق إليه، حتى يحول بيني وبين الموت. والواقع أنني بدأت أموت. (أدركت، مثلما أدركت مرات كثيرة أخرى، أن الروح كثيراً ما تفلح في شد أزر الجسد؛ لكن الجسد لا يستطيع أبداً أن يشد من أزر الروح: يتعثر ويضل السبيل إن ظل وحده).

عدت منتظراً من جديد.

قلت: لقد تذكروني، يا هارون.

ثم فكرت في حسن. ثم فكرت في إسحاق.

سوف يثيران عصياناً ويحررانني.

سوف يبتكران معاً ممرات خفية كي يهرّبانني إلى الخارج.

سوف يتحولان إلى هواء، إلى عصفورين، إلى روحين؛ وسوف يصيران خفيين.. لكنهما سيأتيان.

لا بد من معجزة لحدوث هذا. لكنهما آتيان.

سوف يدمر زلزال هذه الجدران العتيقة؛ وسوف يكونان في انتظاري كي يقوداني إلى حيث النجاة.

سوف يكون حسن وإسحاق أول من يفتح الباب.. بصرف النظر عمن يأتي، وبصرف النظر عما يقع.

ما كانت في رأسي فكرة عادية واحدة. كانت الأفكار كلها متجاوزة ما هو عادي وما هو مألوف. أجهدت أذني كي أسمع زئير خلاصي الفرح. انتظرت سماع الهدير كأنه انتقام لأمور كنت أكتمها ـخشيةًـ في داخلي كلما أحسست أدنى أثر لها. لا يمكن أن تكون لهذا الانتظار كله نهاية عادية. لعل ذلك كان بسبب من القبر الذي حبست فيه، بسبب من قرب الموت، بسبب من الرائحة النتنة التي اكتنفتني.. لعله بسبب من تلك الممرات العميقة والبوابات القاسية التي لا تنفتح أمام كلمة أو رجاء.. لعل ذلك كان بسبب من الذعر الذي حل بي،

ذلك الذعر الذي قد يلغيه ذعر آخر، ذعر أكبر منه. انتظرت يوم الحساب، وكنت واثقاً من أنه آتٍ. لقد أعلنه لي أولئك الاثنان.

تلقيت هدايا جديدة في اليوم التالي. بدأ الزمن يتحرك من جديد، غير منقطع. ومن جديد، أتى من أجلي صديقان، من غير اسمين. لكني علمت من هما وانتظرت الزلزال.

«ماذا لو وقع زلزال، أو حريق، أو تمرد؟» طرحت هذا السؤال على جمال وحرت عندما لم يفهمه. أو، لعله فهمه.

قال لي، «أنت درويش. هل تعرف: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ؟»

«هل كنا نفكر في الأمر نفسه؟»

«أعرفها».

«تعال إليّ. تكلم».

«لا».

«مؤسف. أنت لست رجلاً صالحاً».

«لماذا تريد سماعها؟»

«لأنها تعجبني. أحب الاستماع إليها».

«وكيف علمت بها؟»

«من سجين. السجين الذي كان قبلك. رجل صالح».

«هذه آية من القرآن. هي من سورة الواقعة».

«إذا وقعت الواقعة..»

«لا ترفع صوتك هكذا. اقترب مني».

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ. إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا. وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾.

في تلك الظلمة الرمادية، مستنداً بذقني إلى حافة الإطار الحديدي الحادة، استطعت تمييز وجهه الذي لا شكل له ضمن تلك النافذة المستطيلة. كان شديد القرب من عيني. أصغى إلى ما تلوته عليه دهشاً؛ وظهر في وجهه اهتمام لم أستطع فهمه.

«هذه ليست هي».

«لعل ما تبغيه موجود في سورة العنكبوت».

«لست أدري. هذا غير مهم. ما هي الأزواج الثلاثة؟»

«الزوج الأول هو المقرّبون السعداء سعادة متساوية. هم مقدمون على الناس جميعاً، يسبقونهم كلهم. هم مقربون من الله، يسكنون جنات النعيم. هذا هو الزوج الأول، وسوف يأتي بعده غيره. يجلسون على سُرر مذهّبة متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأسٍ من ماء زلال. هم لا يصدعون من شرابهم ولا تتعب أجسادهم. هم ينتقون من الفاكهة ما يحبون ومن لحم الطير ما يشتهون ومن حور العين كأنهن لؤلؤ مكنون. هذا جزاء عملهم الصالح. لن يسمعوا لغواً ولا كلاماً آثماً. لا يسمعون إلا: سلاماً سلاماً».

«وأصحاب اليمين سعداء مثلهم. يجلسون تحت أشجار وارفة لا شوك فيها، تحت أشجار تتدلى ثمارها من فوقهم. يجلسون في ظلال ممتدة عند ماء عذب جارٍ. الفاكهة من حولهم كثيرة مثلما يحبون؛ وهم متكئين على أسرّة مرفوعة».

«جميل.. هم أيضاً سعداء».

كان همسه حائراً، مذهولاً، ممتلئاً توقاً.

«وكم يكونون بائسين أولئك الذين أصابهم بلاء عظيم! مكانهم في النار وفي ماء يغلي، تحت ظل دخان كثيف أسود، لا بارد وكريم. يأكلون من شجر من زقّوم، ويشربون ماء يغلي. يشربون مثلما يشرب جمل اشتد عليه الظمأ. قُدّر عليهم هذا العذاب فقدرة الله عظيمة، وما يشاء الله يكون».

«لكن، لماذا؟ هل هم آثمون في أمر من الأمور؟»

«لا يعلم هذا إلا الله، يا جمال».

«وهل من مزيد؟»

«يقول التعسون للمقربين: مهلاً، دعونا نأخذ من نوركم قليلاً! فيجيبونهم: ارجعوا وابحثوا عن النور في أنفسكم. عندها، ينتصب جدار بين هؤلاء وأولئك، جدار تكون الرحمة داخله والعذاب خارجه. يصرخ من في الخارج: ألكم نكن معكم؟»

«آه، يا لطف الله! أمِنْ جديد؟ من غير نور!»

ظل صامتاً برهة بعد ذلك. كان ذهنه الحائر يحاول التفكير. أنفاسه ثقيلة.

«وأنا؟ أنا، أين أكون؟»

«لست أدري».

«أأكون من أصحاب اليمين؟».

«ربما».

«جنات تجري من تحتها الأنهار.. هذا ما قاله ذلك الرجل. قاله من قبلك، حدثني عن الشمس. فأين أكون؟ هذا جزاء العمل الصالح. فهل لي عمل صالح؟ عمل صالح! أنا هنا منذ خمسة عشر عاماً.. هنا. وهناك شمس وأنهار وفاكهة. إنها جزاء العمل الصالح».

«ماذا حلّ بذلك الرجل؟»

«مات. كان رجلاً صالحاً، وكان هادئاً. وكان يكلمني. مثلما قلت لك. قال لي إن هذا سيكون جزائي. أنا والصالحين جميعاً. قلت له إن ذلك جزاء حسن: شمس وماء وصفاء. أمر حسن من أجل آلام المفاصل أيضاً، من أجل آلام مفاصلي».

«وكيف مات؟»

«مات بطيئاً. لم تشأ روحه أن تموت، أن ترحل. قاوم الموت. وأنا أيضاً كنت هناك. نعم. ساعدتهم».

«بماذا ساعدتهم؟»

«مات خنقاً».

«إذاً، ساعدتهم في خنقه».

«لقد قاوم».

«ألم تشفق عليه؟»

«أشفق! حدثَني بأمور كثيرة. حدثني عن الشمس».

«ما اسمه؟ هل كان اسمه هارون؟»

«لست أدري».

«ماذا فعل؟»

«لست أدري».

«اذهب، يا جمال. لعل هذا يكون من نصيبي أيضاً».

«إلى الجانب الآخر من الجدار».

«بالتأكيد، يا جمال».

سألني إن كنت راغباً في الانتقال إلى زنزانة أخرى. ليست شديدة الظلمة، وليست شديدة الرطوبة مثل زنزانتي.

«لا أهمية للأمر يا جمال».

«هل ستتلو علي تلك الآيات من جديد؟.. إذا وقعت الواقعة.. ذلك فقط. المكان مظلم هنا أيضاً؛ مكان سيئ. خمسة عشر عاماً. ليس هذا عدلاً. وهناك.. أيضاً».

«اذهب، يا جمال».

ظلت جمله الكسيحة تترنح من حولي. ظلت زمناً طويلاً تترنح متزاحمة، مشوهة، مبتورة. بدا كأنها غير قادرة على البقاء معاً، لكن أجزاءها الضائعة ورؤوسها المقطوعة ظلت بأعجوبة متشبثة بعضها ببعض، وظلت معبرة عن رغائب بشرية.

ومن جديد، بدأت أفقد حواسي.

فتح باب زنزانتي مرة أخرى، فتحه بعد ذلك، بعد يوم، أو بعد زمن أطول كثيراً، أو لعله لم يفتحه أبداً. فاجأني شعوران متضادان تضاداً تاماً: خوفي من أنهم سيخنقونني وأملي في أنهم سوف يخلون سبيلي. هاجمني الاثنان معاً كأنهما مخلوقان مفزعان، نافذا الصبر، مخلوقان يتقافزان ويحاول كل منهما أن يسبق الآخر في الوصول إلي. أو لعل المسافة بينهما كانت صغيرة جداً فلم أستطع فصل واحدهما عن الآخر. أظنني نبذت الفكرة الأولى من فوري لأن جمال كان وحده. أتت الفرحة على الفور: إنه الخلاص! مهما يكن ذلك الذي سيحدث، فما من حاجة به إلى سبب لحدوثه. إن كانوا يقتلون الناس من غير دليل على إثمهم، فلعلهم أيضاً يخلون سبيلهم من غير تفسير.

لكن الأمر ما كان هذا ولا ذاك. قال لي إنه سيأخذني إلى زنزانة أخرى.

وافقت من غير بهجة.

دخلت قبر شخص غيري. الآن، صار قبري أيضاً. وقفت عند الباب كي أعتاد المكان.

«بست!»

بدا لي غريباً هذا التحذير الآتي من نصف الظلمة. لكن حمامة رفرفت في تلك اللحظة خارجة من النافذة الضيقة. رأيتها عندما طارت مبتعدة.

قال لي الرجل الذي حاول تحذيري حتى لا أفزع الحمامة «لك الآن أن ترفع صوتك مثلما تشاء».

«لم أدرِ بوجود الحمامة. أتراها تعود؟»

«هي ليست مجنونة. لا تأتي إلا مصادفة».

«أنا آسف. هل تحب الحمائم؟»

«لا. لكن، عندما تكون هنا، فقد تحب حتى الخفافيش».

«زنزانتي ما كان فيها شيء، ولا حتى خفافيش. لعل هذا لأنها شديدة الرطوبة!».

«لا خفافيش هنا. لا تطيق الخفافيش البشر. أمسكت واحداً منها ذات مرة عندما أتى مصادفة كأنه أخطأ الطريق. أردت أن أربطه بخيط أنسله من سترتي، لكن الفكرة أفزعتني. اجلس حيثما شئت. لا فرق إن جلست هنا أو هناك».

«أعرف هذا».

«كم مضى عليك في السجن؟»

«زمن طويل».

«لعلهم نسوا أمرك».

«ماذا تعني بأنهم نسوا أمري؟»

«مثلما قلت لك.. نسوا أمرك. قال لي هذا رجل كان هنا. قبضوا عليه في مكان من الأماكن في كراپينا، ثم ظلوا أياماً وأسابيع ينقلونه من مكان إلى مكان من سجن إلى سجن إلى أن أتوا به إلى هذا المكان. ثم نسوا أمره هنا. ظل جالساً

هنا شهوراً، وراح يذبل ويذوي. لم يستدعه أحد، ولم يسأله أحد شيئاً، ولم يفكر فيه أحد. هكذا كان الأمر. آمل ألا يحدث لك هذا».

«وصلتني رسالة من أصدقائي. يعرفون مكاني».

«هذا أسوأ. اكتشفت أسرة ذلك الرجل مكان وجوده، وأتت؛ لكنه بعث إليهم يخبرهم ألا يبحثوا عنه. على الأقل، كان حياً! لكن، لو تذكرته السلطات، فمن الممكن أن يصيبه شيء. الحقيقة أنهم أتوا ذات ليلة وأخذوه. يبدو أنهم أرسلوه إلى المنفى».

كان صوته مفعماً سخرية كأنه أراد أن يخيفني. لكن تلك القصة كانت شديدة الغرابة.

سألته مستغرباً موقفه، مستغرباً ما كان يرمي إليه، «لماذا تكلمني هكذا؟». حسبت أن الناس هنا في كآبة، في أقصى حدود الكآبة؛ وحسبت أن لديهم جميعاً رغبة في أن يؤذوا أحداً.

ضحك الرجل. ضحك حقاً. كان هذا مفاجئاً جداً فظننته مجنوناً. لكن ضحكته كانت طبيعية تماماً، ضحكة فيها بهجة.. كأنه في بيته. لعل هذا ما جعلني أظنه مجنوناً.

«لماذا أكلمك هكذا؟ هذا هو مفتاح الصبر كي تكون مستعداً لأي شيء. هذا المكان هكذا. إذا جرت الأمور بأفضل مما تتوقع، فالحمد لله لأنك تكون قد سبقت غيرك».

«كيف تستطيع أن تنظر إلى كل شيء هذه النظرة السوداء؟»

«إن لم تفكر تفكيراً أسود، فمن الممكن أن تصير الأمور أكثر سواداً. ما من شيء متوقف عليك. لا يفيدك أن تكون شجاعاً، ولا جباناً، لا أن تشتم ولا أن تبكي. ما من شيء قادر على مساعدتك. لذا، اجلس وانتظر نصيبك الذي تعرف منذ الآن أنه نصيب أسود لأنك هنا. سأقول لك كيف أفكر: إن كنت غير آثم، فالذنب ذنبهم. وإن كنت آثماً، فالذنب ذنبك. إن كنت بريئاً فقد أصابك حظ عاثر كأنك وقعت في دوامة عميقة. وإن كنت غير بريء، فقد كسبت هذا بعملك.. ولا شيء أكثر من ذلك».

«الأمور بسيطة جداً في نظرك!».

«ليست بسيطة هذه البساطة كلها. على المرء أن يألفها أولاً.. ثم تصير بسيطة. أترى؟ أظنني بريء. وأنا واثق من أنك ترى نفسك بريئاً أيضاً. على أن هذا ليس صحيحاً لأن من المستحيل ألا تكون قد أتيت إثماً لا بد لك من التكفير عنه؛ حتى إن كنت قد أثمت مرة واحدة في حياتك كلها. لقد نجوت وقتها من العقاب. وأنت الآن غير مذنب في شيء. بطبيعة الحال، يبدو لك أنه ينبغي إخلاء سبيلك. لكن، كيف لهم أن يخلوا سبيلك؟ أنصت، وحاول أن تفكر مثلما يفكرون. إن لم أكن مذنباً فقد أخطأوا بأن حبسوا رجلاً بريئاً. إن أطلقوني، فهم إذاً يقرون بغلطتهم؛ وهذا ليس أمراً سهلاً، ولا هو مفيد. لا يستطيع ذو عقل مطالبتهم بأن يعملوا ضد أنفسهم. من شأن تلك المطالبة أن تكون سخيفة، غير واقعية. إذاً، لا بد أن أكون مذنباً؛ فكيف لهم أن يخلوا سبيلي إن كنت مذنباً؟ هل تفهمني؟ لا يجوز لنا أن نقسو كثيراً في الحكم عليهم. يرى كل إنسان الأمور من وجهة نظره. نحسب أن ما من مشكلة في أن يفعلوا ذلك؛ وإذا فعلوه فهو يثير قلقنا. عليك أن تقبل بأن هذا غير متّسق».

«وإذا نسوا أمرك، فمن الملام عندها؟»

كان ذلك الاحتمال مراً كمرارة السم: ينسون أمرك، وتخيّم الظلمة من حولك. ولا يعلم أحد حتى بوجودك. يخال الناس أنك قد مت أو أنك ارتحلت إلى مكان من الأماكن في العالم. يخالون أنك حيث تحب أن تكون.. ويخالون أنك في أحسن حال. بل ومن الممكن أيضاً أن يحسدوك على ذلك. وأنت تنتظر من غير آخر. أنت لست مذنباً في شيء، لكن ذنبك مستمر. هم لا يعاقبونك، لكن عقوبتك تتطاول من غير انقطاع. تطاول مخيف بأشد مما قد يكون مخيفاً لو أفصح عنه.

«من المذنب؟ إنه النسيان! هذا أمر بشري يحدث أحياناً. إذاً، إن فكرت في الأمر حقاً، فلن تجد أن ثمة من أخطأ في حقك، أو أساء إليك. هذا نصيبك. أو أنك، أنت نفسك، مذنب لأنك لست مذنباً. لو كنت مذنباً لما نسوا أمرك. نسيانهم إياك إقرار ببراءتك».

لقد كان مازحاً. لم أدرك هذا إلا لحظتها. أي إنسان يمزح هكذا. سوف يرمي بي في لجة القنوط. كان من الأفضل لي أن أبقى وحدي.

قلت لائماً «هذه نكتة رديئة يا صديقي».

«إن كانت رديئة، فهي ليست نكتة. لا يمكن أن تكون النكتة رديئة».

عرفته عند ذلك. صرت عاجزاً عن التنفس. صرخت، أو ظننت أنني صرخت. ينبغي.. كان لا بد لي.. ما كان ينبغي أن ألتقيه هنا!

إنه إسحاق!

إسحاق، موضوع تفكيري الدائم، ألمع ذكرياتي، تطلعي الغامض إلى ذاتي غير المتحققة، غير الملباة، نور بعيد في ظلمتي، سندي البشري، مفتاح أسرار الذي سعيت إليه زمناً طويلاً، إحساس باحتمالات تتجاوز المعلوم، إقرار بالمستحيل، حلم ما كان إدراكه ممكناً، ولا رفضه. إسحاق.. إعجاب بجرأة مجنونة نسيناها لأننا حسبنا أننا ما عدنا محتاجين إليها.

لقد قبضوا على بطل قصصي الخيالية ـ القصص الحقيقية الوحيدة ـ الذي كان خليقةَ خيال محض، الذي كان في ذكرى باقية من ضعف لا يعرفه إلا من كبروا. كان أحلاماً بشرية محطمة. وهم كانوا.. كانوا أقوى من قصص الخيال.

هو أيضاً مؤمن بقصص الخيال. لقد قال لي إنهم لم يمسكوا به أبداً.

صرخت، «إسحاق!». وكنت كأني أحاول أن أنادي شخصاً ضاع مني.

فوجئ الرجل وسألني، «من تنادي؟»

«أناديك أنت. أدعوك إسحاق».

«أنا لست إسحاق».

«غير مهم. إنه الاسم الذي أطلقته عليك. كيف تركتهم يمسكون بك؟»

«لقد خُلق الإنسان كي يمسك أحد به.. عاجلاً أو آجلاً».

«ما كان تفكيرك هكذا من قبل».

«ما كنت سجيناً من قبل. وقتها والآن: الرجل الذي كان وقتها والرجل الموجود الآن، هذان رجلان مختلفان».

«هل أراك تستسلم لهم حقاً، يا إسحاق؟»

«لست أستسلم لهم. لقد سُلّمت إليهم. أمر خارج إرادتي. ليس هذا ما أردت، لكن هذا ما حصل. أعنتهم لأنني موجود. لو لم أكن موجوداً، لما استطاعوا أن يفعلوا بي شيئاً».

«أهذا هو السبب الوحيد.. أنك موجود؟»

«إنه السبب والشرط. تلك فرصة.. دائماً. فرصة لك، وفرصة لهم. نادراً ما تظل الفرصة من غير أن يستغلها أحد سواء أكنت هنا أم كنت هناك. الأمر الوحيد الذي أجهله هو كم يطول الذنب. هل يظل مستمراً في العالم الآخر؟»

«إن لم ترتكب إثماً، فأنت غير مذنب. والله يعوّضك عما يصيبك من ظلم هنا».

«أنت تستعجل الإجابة. فكر في الأمر. هل أتت السلطة من الله؟ إن لم تكن آتية من الله، فمن أين لها الحق في أن تحكم علينا؟ وإن كانت آتية من الله فكيف لها أن تخطئ؟ إن لم تكن من الله، فسوف ندمرها؛ وإن كانت من الله، فسوف نطيعها. إن لم تكن آتية من الله، فما الذي يُلزمنا بأن نتحمل ظلمها؟ وإذا كانت من الله، فهل ثمة غاية سامية لهذه المظالم أو لهذه العقوبات؟ إن لم تكن آتية من الله، فقد وقع ظلمٌ عليك وعليّ وعلينا جميعاً؛ ومن جديد، نصير مذنبين لأننا قبلناه. أجبني الآن. لكن، لا تعطني إجابة الدراويش، الإجابة التي تقول إن السلطة آتية من الله، لكن يحدث أحياناً أن يمارسها بشر طالحون. لا تقل لي إن الله سيشوي الطغاة بنار الجحيم لأن هذا لن يجعلنا نعرف أكثر مما نعرف الآن. القرآن يقول هذا أيضاً: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ». هذا كلام الله. ما يريده الله أهم مني ومنك. إذاً، فهل هم طغاة؟ أم نحن الطغاة الذين ستشوينا نار الجحيم؟ ثم، هل يسوموننا العسف، أم يدافعون عن أنفسهم؟ أن تدير شؤونك يعني أن تحكم؛ والحكم سلطة؛ والسلطة ظلم من أجل العدل. الفوضى أسوأ من هذا: إنها اضطراب وظلم وعنف شاملان؛ ذعر عام. أجبني الآن».

بقيت صامتاً.

«لا تستطيع أن تجيبني؟! أنا في دهشة من أمرك. أنتم، معشر الدراويش، غير قادرين على تفسير أي شيء؛ لكنكم مستعدون للإجابة عن أي سؤال».

«أنت مستعد مسبقاً لأن تخالفني مهما يكن ما قد أقول. يصعب أن يتفق شخصان يفكران بطريقتين مختلفتين».

«إن كان الشخصان مفكران، فلا صعوبة في تفاهمهما».

بدأ يضحك من جديد. ما كانت في ذلك الضحك أية إساءة لأنه كان يضحك من نفسه بقدر ما كان يضحك مني؛ لكنني استخدمته سبباً لإنهاء الحديث، ذلك الحديث الذي ما كنت أحس نفسي آمناً فيه. هذه أول مرة أجد نفسي فيها حائراً أمام سؤال يبدو واضحاً. كانت حججه عشوائية، سطحية، بل مازحة أيضاً، لكن هذا لم يجعل إجابتي أكثر سهولة. لا أقول هذا لأنني كنت من غير إجابة، بل لأنه استطاع أن يجعل أية إجابة غير وافية. لم يترك غير أرض قاحلة من أجل أية بذور قد أستطيع وضعها فيها. نقض مسبقاً كل ما قد أستطيع قوله. ثبتني أرضاً، وقادني إلى خواءٍ حيث أحاط بي فصار أي رأي يمكن أن أطرحه مجرداً من قيمته، مجرداً نتيجة سخريته. غلبني بأن فرض عليّ منطقه وأرغمني على التفكير في الممكنات كلها تفكيراً جاداً.

قال لي فبدا لي قوله استحساناً، «أنت صادق. ذكي وصادق. لا تود الإجابة بكلمات فارغة؛ وليست لديك أية كلمات حقيقية. لقد وضعتُ الإجابات على لسانك».

«ما فعلتَ هذا إلا كي تستطيع إظهار أنني مخطئ. كنت تسخر مني».

«ما أردت شيئاً غير الكلام؛ وما كانت لي غاية أبداً. لكن المشكلة هي أنك لا تجرؤ على التفكير في أي شيء. أنت خائف، لا تدري أين يمكن أن تأخذك أفكارك. كل ما في داخلك مشوش، مضطرب. تفضل إبقاء عينيك مغمضتين والتزام الدرب العتيقة. لست أدري ما جعلهم يأتون بك إلى هذا المكان. وهذا لا يعنيني. لكنك لا تستطيع قبول ما لدي من تفسير للإثم البشري. تظن الأمر مزاحاً. قد يكون مزاحاً؛ لكن من المحتمل أن يستطيع المرء استخلاص فكرة فلسفية جميلة ليست أسوأ من أية فكرة من أفكارك.. لكن لها، على أقل تقدير

فائدة عملية فهي قادرة على إقامة مصالحة بيننا وبين كل ما يمكن أن يصيبنا. في نفسك مرارة لأنك ترى نفسك غير مذنب في شيء. أمر مؤسف! إذا لم يخلوا سبيلك، فسوف تموت عما قريب؛ ستموت كمداً، وسيكون كل شيء على ما يرام. لكن، ماذا يحدث إذا أخلوا سبيلك؟ ستكون هذه أغرب مصيبة أسمع بها. ما هو موجود في الأعلى يخصك مثلما يخصهم، لكنهم استبعدوك. فهل تصير خارجاً عن القانون؟ هل تصير كارهاً لهم؟ هل تنسى؟ أسأل لأني لا أعلم أيهما أكثر صعوبة. كل شيء ممكن، لكني غير قادر على رؤية حل. إن صرت خارجاً عن القانون، فسوف ترتكب عنفاً: إذاً، كيف لك أن تكون غاضباً منهم؟ إن صرت كارهاً لهم، فسوف تسممك أفكارك الشريرة إلا إذا عملت ضدهم وضد نفسك.. لأنك مثلهم.. وسوف يمسكون بك من جديد. من الممكن أيضاً أن تقتل نفسك. وأما إذا نسيت، فقد تجد طريقة تختلق بها شيئاً من العوض وتحسَب نفسك كريماً. لكنهم سيرونك جباناً منافقاً، ولن يصدقوك. ستكون مستبعداً مهما فعلت؛ وهذا ما لا تستطيع قبوله. سيكون الحل الممكن الوحيد على النحو التالي: ليته لم يقع شيء من هذا كله!»

هتفت مذهولاً: «هذه هي أفكاري نفسها! بل هي أسوأ منها.. لأن ذلك وحده مستحيل».

إسحاق، شخص آخر، مختلف، لكنه نفسه الذي كان يومها. كان كل شيء مختلفاً، لكنه مثلما كان. إسحاق الذي لا يجيب، بل يطرح أسئلة؛ إسحاق الذي يطرح أسئلة كي ينشئ أحجيات؛ إسحاق الذي ينشئ أحجيات كي يسخر منها. أنت مخاتِل. اذهب! هذا ما كان ممكناً أن يقوله لي مثلما قاله لي ذات مرة. هذا ما كان ممكناً أن يقوله لولا أنه سخف كبير لأني غير قادر على الذهاب. هو قادر. إن قرر الذهاب، فسوف يذهب. ستقع معجزة، وسيختفي. سوف يبحثون عنه، لكن عبثاً. لأن الجدران لن تكون قادرة على الإمساك به، ولن يستطيع الحراس استبقاءه، ولن يكون أحد قادراً على فعل شيء له. مخاتل.. مثله مثل أفكاره. سيرحل من غير إجابة مع أن الإجابة عنده، لكنه لا يقولها. يتركني على الدوام متشظياً غير قادر على أن أسوّي في نفسي شيئاً مما أعرفه. ليس مهماً إن علمت

في وقت لاحق ما كان ينبغي أن أقول، فأنا لم أستطع إجابته. ما كنت قادراً على إجابته في ما مضى لأني صدقته أكثر مما أصدق نفسي. ما كان للأمر أهمية لأني ما كنت قادراً على تصديق نفسي إلا إن كان معي، ولأني كنت أخشى أن يدحض كل رأي عندي إن سمعه. لهذا لم أقل شيئاً. لكني كنت عاجزاً عن البقاء على آرائي إذا لم أدافع عنها في مواجهته. لم أجرؤ على هذا. كانت تفكيره مختلفاً عن تفكيري: تنعطف أفكاره في اتجاهات لا أتوقعها: أفكار عفوية وقحة لا تحترم ما أحترم. يتفحص كل أمر تفحصاً حراً؛ وأنا أتردد أمام أمورٍ كثيرة. يهدم، لكنه لا يبني؛ يشير إلى ما يُنكِر، ولا يفصح عما يقبل. والإنكار مقنع لأنه لا يقيّد نفسه بهدف ولا بحاجز. إنه ساع إلى لا شيء، مدافع عن لا شيء. الدفاع عن أمر من الأمور أصعب من مهاجمتِه لأن كل ما يصير واقعاً لا ينجو من البلى والتآكل دائماً، ولا ينجو من الحيود عن فكرته الأولى.

قلت محاولاً الدفاع عن نفسي: «الحياة في نزول دائم. لا بد من جهد لتفادي هذا».

«الفكرة تجرّ الحياة صوب الأسفل لأنها تبدأ مناقضةَ نفسها. ثم تنشأ فكرة جديدة، فكرة مضادة تظل حسنة إلى أن تبدأ تحولها إلى واقع. ما هو كائن ليس حسناً، فالحسن هو المرغوب. عندما يتوصل الناس إلى فكرة جميلة، فعليهم أن يحفظوها تحت الزجاج كي لا تتسخ».

«يعني هذا أن ما من سبيل إلى وضع العالم على مسار سليم! فكل شيء أخطاء ومحاولات لا تنتهي».

لم يُحِرْ جواباً. كانت الفكرة التي نطق بها غريبة، غريبة أول الأمر. ثم لم أبال بعد ذلك.

«هذا هو العالم أيضاً. نحن تحت الأرض. إن حاولنا إصلاح الأمر فسوف نجعله يسوء».

ثم بدأ الهراء. بدا لي أنني انتبهت إلى هذا، لكنني لم أستطع هرباً. كان في ذلك العدم مسرة غير مسؤولة، مسرة العوم من غير جهد ولا هدف. ورقة من شجرة تعوم في تيار خليّ البال. تفكير غير منضبط ولا مثقل بشيء. لعبة خطيرة، جميلة،

لكنها من غير غاية. تحويم من غير خوف. نزوة لا تندم عليها، وضرورة سارة لا سبيل إلى تفاديها، مثل التنفس، مثل جريان الدم.

سألته من غير اهتمام «سيصير الأمر أكثر سوءاً.. لمن؟»

«لنا. لهم. سوف يحبس واحدنا الآخر. وسوف نعتاد الأمر. يتحول كل منا إلى خلد، إلى خفاش، إلى عقرب».

«بل إننا لن نخرج. سنصل إلى محبة الصمت، إلى محبة الظلمة».

«لن نخرج. سنظل هنا إلى الأبد. لا نستطيع العيش من غير الأبد».

«لن ينسى واحدنا الآخر».

«سنحبس خصومنا هناك، في الأعلى. سوف نحرمهم من العيش تحت الأرض، وسوف ننسى أمرهم».

«وعندما يُخرَجون من الجحيم، سيلقى بهم في نهر الحياة».

«سيكونون تعساء في الأعلى، وسوف يتوسلون: أعطونا شيئاً من الظلمة. لقد كنا وإياكم معاً!»

«وسوف نقول لهم: اعثروا على الظلمة بأنفسكم. اخلقوها بأنفسكم!».

«ما أشد تعاستهم آنذاك! سوف يتوسلون. أطلقونا! دعونا ننزل. وسوف نقول لهم: الذنب ذنبكم. فأنتم لم تصدقونا».

«الذنب ذنبكم، فلتبقوا في الأعلى».

«من وقت إلى الآخر، سأصعد إلى أعلى، إلى الأرض».

«أنت عاصٍ دائماً».

«ستكون درويشاً/خلداً. وسوف تحرص كل الحرص على ألا تبدأ الإبصار أبداً، على ألا نخرج من عالمنا المظلم».

«سوف نحمي عالمنا وندافع عنه».

«لا أريد أن أكون خلداً».

«تظهر لنا مخالب، وأوبار، ويصير لكل منا خطم».

«لا أريد أن أكون خلداً. اذهب عني».

كنت جاثماً على الأرض. مسنداً جبهتي إلى الجدار الخشن الرطب من غير قدرة على الإتيان بأية حركة.

أحدهم كان واقفاً من فوقي.

ساعدني في النهوض على قدمي. قال لي: «سوف يخلى سبيلك، أصدقاؤك في انتظارك».

ذكّرت نفسي بأن عليّ أن أفرح ـ فكرة نائية عجفاء ـ لكني عجزت حتى عن محاولة ذلك. لم أحس أية حاجة إلى ها الفَرَج.

سألت جمال: «أين إسحاق؟ كان هنا».

«لا تشغل بالك بالآخرين».

«كان هنا قبل لحظة واحدة».

رجل لا أعرفه كان منتظراً في الممر. من أتوا بي إلى هذا المكان ثلاثة. لكني صرت الآن غير مهم.

قال لي: «فلنذهب».

سرنا في الظلمة صامتين. وكنت أصطدم بالجدران، لكن الرجل يمسكني فلا أسقط. سرنا. سأهرب في أفكاري ولن أعود إلا بعد زمن طويل، أعود كي أتساءل، من في انتظاري؟ لكني لم أبال بهذا. سأتساءل مستغرباً: هل فرّ إسحاق؟ لكني لم أبال بهذا. ثم خرجنا بخطوات غير مستقرة، خرجنا من العتمة إلى عتمة أخرى أخف وطأة. أدركت أن الوقت ليل، ليل عابر: جميل كل ما هو غير أبدي: الليل والمطر ومطر الصيف أيضاً. وددت أن أفتح ذراعي على اتساعهما كي أغسل عني ما علق بي من أوحال تحت الأرض، كي أخمد النار التي في داخلي. لكن ذراعاي ظلتا مسبلتين من غير حول، عاجزتين.

القسم الثاني

-١٠-

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ - قرآن كريم

منذ زمن بعيد، تكلم طفل على خوفه. كان ما قاله الطفل أشبه بأغنية صغيرة:

في علّية البيت

شعاع شمس يصيبك في رأسك،

وريح تصفق النوافذ،

وفأر ينظر إليك من الزاوية.

كان عمره ست سنين. وكانت عيناه الزرقاوان الفرحتان ترقبان الجنود معجبتين، وترقباني، أنا الدرويش المحارب الشاب. كنا رفاقاً، أصدقاء. لم أدر إن كان ذلك الطفل قد أحب في حياته كلها شخصاً مثلما أحبني فقد كنت ألقاه فرحاً دائماً ولا أسلك معه مسلك شخص أكبر منه سناً.

وكان صيفٌ؛ وكان المطر والطقس الحار في تناوب مستمر. أقمنا في خيام في سهل كله بعوض وضفادع لا تكف عن النقيق. كنا على مسيرة ساعة من نهر سافا، على مقربة من مبنى كان في ما مضى خاناً. الآن، يعيش الصبي في ذلك المكان مع أمه وجدته نصف العمياء.

كنا مقيمين هناك منذ ثلاثة شهور، منذ الربيع. ومن وقت إلى وقت، نهاجم العدو الذي كان في الخنادق عند ضفة النهر. خسرنا رجالاً كثيراً، أول الأمر، فبقينا حيث كنا لعلمنا أننا لا نستطيع أن نفعل بهم شيئاً بما لدينا من قوة محدودة. كانت بقية جنودنا مقيدة في ميادين معارك أخرى لا يعلمها إلا الله، ميادين في أرجاء الدولة الواسعة. إذاً، كنا وكان عدونا عالقين في ذلك المكان؛ وكان كل منا عقبة في وجه الآخر.

استمرت تلك الحالة المرهقة. ليالٍ حارة رطبة؛ وتنفس السهل الهادئ في ضوء القمر، كأنه البحر. في المستنقعات غير المرئية ضفادع لا تحصى عدداً تفصلنا أصواتها الثاقبة عن بقية العالم وتغمرنا بطنين مخيف لا يهدأ إلا عند مطلع الفجر الضبابي عندما تنداح من فوقنا أبخرة بيضاء رمادية مثل التي كانت عند بدء الخليقة. كانت دقة مواقيت تلك التغيرات أصعب الأمور احتمالاً.. عدم تغيرها.

ثم يأتي الصباح، ويصير الضباب وردياً. تبدأ أحلى ساعات النهار إذ لا بعوض فيها، ولا حر رطب، ولا عذاب الليل الذي نمضيه نصف مستيقظين. في ذلك الوقت، نغط في نوم عميق كأننا في بئر.

يزداد الأمر سوءاً كلما أمطرت السماء، يضيق الأفق من حولنا فنجثو على الأرض معاً ولا نقول شيئاً. يعذبنا البرد كأن الشتاء قد حل. نظل صامتين، أو نتكلم في لا شيء، أو نغني. نصير سريعي الهياج، خطيرين كالذئاب. يتسرب ماء المطر من خيامنا ويقطر علينا مطراً رمادياً. تتغلغل المياه تحت المراتب التي ننام عليها. تستحيل الأرض من حولنا سبخة لا سبيل إلى السير فيها، ونصير عالقين في مصيدة بؤسنا.. كعهدنا دائماً.

يلعب الجنود النرد ويشربون تحت مظلات صنعوها من بطانياتهم، ويتشاجرون، ويتقاتلون. كانت حياتنا حياة الكلاب، لكني عشتها غير مُظهرٍ شيئاً غير الهدوء، غير مُظهرٍ أنها قاسية عليّ. أجلس ساكناً حتى عندما يغرقني ماء المطر، حتى عندما تصير خيمتنا أشبه بمصحة المجانين، أشبه بقفص فيه وحوش هائجة. كنت أرغم نفسي على احتمال ذلك البغض كله وذلك القبح كله من غير أن أنبس ببنت شفة. كنت شاباً، وحسبت أن ذلك جزءٌ من التضحية، لكني كنت مدركاً أنه أمر بغيض. كنت قروياً، وكنت طالب علم. كنت أنتفض مجفلاً كلما سمعت شتيمة أو كلمة نابية. لكني لم ألبث أن فهمت أن الجنود يستخدمون تلك الكلمات دائماً مع أن فيها ما لا يليق قوله. وأما عندما يكون عندهم رغبة حقيقية في السباب، عندما يودون التلفظ بكلمات فاحشة، عندما يريدون ذلك ويستمتعون به، فقد كان الأمر غير محتمل حقاً. كانوا يفعلون هذا بغضب هادئ،

بصفاقة مستمتعة، فيصمت الواحد منهم لحظة ويصغي إصغاءً مستفزاً إلى كل صدى من أصداء الكلمات التي جمعها معاً جمعاً غير طبيعي. وكنت قادراً على البكاء لشدة قنوطي. مكتبة سُر مَن قرأ

سمعت أموراً عن الحياة والناس لم أعرفها قبل ذلك. أصغي إلى بعضها إصغاء فضولياً، ويدهشني بعضها الآخر، ويفاجئني. هكذا اكتسبت خبرتي وفقدت سذاجتي من غير أن أكف عن أسفي عليها.

كنت أجلس مع الجنود إلى أن يداهمني الغثيان، لكني لا أسمح لنفسي بالانصراف قبل أن أهدأ، قبل أن تتبلد حواسي وأنساق بعيداً مع أفكاري فأقبل كل شيء معتبراً إياه ضرورة، ضرورة اسمها الحياة، ضرورة ليست جميلة على الدوام. ما كنت أحاول إعادتهم إلى الرشد إلا نادراً. سخروا مني بضع مرات، وكانت سخريتهم قاسية (لأنني ما كنت مختلفاً عنهم في شيء إلا من حيث أنني طالب علم. ما كانت لدي رتبة تحميني). لم ألبث أن كففت عن التدخل في ما يفعلون، من أجلي ومن أجلهم. اقتصرت على الصلاة التي كانت جزءاً من واجباتي العسكرية، مثلها مثل المسير أو نوبات الحراسة. في ذلك الحين، صعقتني فكرة غريبة محبطة، فكرة أن الإنسان الذي يسبق الآخرين من الناحية الروحية يجد نفسه في موقف صعب إلا إن حماه مركزه والخوف الذي يثيره المركز في قلوب الآخرين. يصير ذلك الشخص وحيداً، ويفضل العزلة: معاييره غير معايير الآخرين، معايير لا قيمة لها في أنظارهم، لكنها تجعله مختلفاً عنهم.

لذا، كنت أبقى معظم الأوقات وحيداً مع كتابي، أو مع أفكاري. لم أنجح في العثور بينهم على شخص واحد أرغب في أن يكون صديقاً لي. كنت أراهم جمعاً واحداً، كثرة غريبة قاسية قوية، بل عجيبة أيضاً. لا شأن أبداً لأي واحد منهم إن نظرت إليهم أفراداً. ما كنت مزدرياً لهم عندما اعتبرتهم جماعة لا أفراداً؛ بل إني أحببت ذلك المخلوق الذي له مئة رأس: مخلوق قاسٍ، قوي؛ لكني لم أستطع قبولهم أفراداً. حبي ـ أو هو شيء أقل من ذلك ـ كان متجهاً إليهم جميعاً، لا إلى أي فرد منهم.. وكان هذا كافياً لي.

كنت يوماً في السهل، وكنت جالساً على بقية متعفنة من جذع شجرة وسط أعشاب يبلغ ارتفاعها ركبتي. كنت جالساً وحدي وقد أصمّت سمعي أصوات الجنادب تحت الشمس الحارة (ثمة على الدوام ما يصر أو ينق أو يغني، في ذلك السهل)، مضطرباً لما سمعته من واحد من الجنود عن امرأة في الخان. وقتها، رأيت الصبي متوقفاً وسط الأعشاب التي كادت تبلغ عنقه. كلمني واثقاً بي. كان يعرفني، وكنت أعرفه.

كنت أفضّل لو لم يعثر علي. خشيت أن يقرأ في عيني ما سمعته عن أمه.

كانت القصة التي رواها الجنود غير بعيدة عن التصديق. فتلك هي المرأة الشابة الوحيدة القريبة من هذا المكان. لا تكاد العين تستطيع رؤية أقرب قرية عند أواخر ذلك السهل. لكني كنت عالماً أنهم يذهبون أيضاً إلى ذلك المكان، في الليل خاصة. يذهب أكثرهم من أجل المرأة. ما من إنسان أكثر تهوراً واستهتاراً من جندي يعرف أنه يمكن أن يقتل في أية لحظة لكنه لا يود التفكير في الموت، بل لا يود التفكير في أي شيء.. جندي يترك من خلفه آثار ما به من أسى. والنساء لطيفات مع الجنود لأن فيهن ذلك الإشفاق القديم الذي يستحضره الجنود دائماً، ولأن الحياء قد فارقهن فصرن يتتبعن الجنود في تجوالهم النائي. لا تنمو براعم العشب حيث يمر الجنود، لكن أطفالاً يولدون. لكني وجدت صعوبة في تصديق ذلك الكلام على أم الصبي. أجد صعوبة في تصديق ذلك الكلام على أية امرأة، لا على امرأة بعينها فحسب. كنت قد مضيت شوطاً بعيداً في تعميماتي على العالم فبدأت أفقد إدراكي إياه.

امرأة قصيرة القامة، بادية الضعف. ما تزال شابة ولا تستلفت الانتباه على الفور. لكن نظرتها المتحفظة وحركاتها الهادئة وما توحي بها هيئتها من ثقة لا تترك رجلاً يمر بها من غيرما اكتراث. عندها، من الممكن أن يكتشف عينيها اللتين لا شرود في نظرتهما، وفمها الجميل الذي هو ساخر قليلاً، متمرد قليلاً، وتناسق حركاتها الذي لا يستطيعه إلا جسد رشيق معافى. كانت شُجاعة في مصارعة مشقات حياتها. ترمّلت، لكنها قررت إبقاء الخان مفتوحاً، وزراعة الأرض من حوله، تلك الأرض التي كانت الحرب تخرّبها شيئاً بعد شيء، فصارت

كأنها مقبرة، كأنها أرض يباب. لم ترحل، بل ظلت تحمي ممتلكاتها وتحاول تحويل مصيبتها إلى مزية. تبيع الجنود طعاماً وشراباً، وتسمح لهم بأن يقامروا في الخان، وتستحلب منهم ما يتلقون من أجر هزيل، وتعطيهم ما ليس لديهم. حاولتْ جهدها أن تبقي ابنها بعيداً عن البيت وبعيداً عن الجنود. لكنها ما كانت قادرة على ذلك دائماً. حدثتها في الأمر فأجابتني بصوت هادئ، «أنا أعمل من أجله. ستكون الحياة قاسية عليه إن بدأ من غير شيء». وقد صرت الآن عالماً أنها صارت تضاجع الجنود. لعلها كانت مضطرة إلى ذلك، ولعلها لم تستطع دفعهم عنها. لعلها قبلت الأمر مرة فصاروا يلحون عليها إلى أن اعتادت الأمر.. لست أدري. كنت غير راغب في سؤال أحد عن هذا الأمر. لكن ما سمعته أزعجني وأقلقني. قلقت على الصبي. أتراه يعلم بالأمر؟ أتراه سيكتشفه يوماً؟ قلقت بسبب من نفسي أيضاً. كنت معجباً بشجاعتها إلى أن سمعت. لكني رحت بعد ذلك أفكر مثلما يفكر أي شاب آخر مع أن ذلك التفكير يجعلني أخجل من نفسي. الآن، صارت هي الماء المتدفق من غير قيد، الطعام الذي يعرض نفسه.. وهي في متناول اليد. ما عاد يحميها شيء غير خجلي؛ وكنت عالماً أن الخجل ليس عقبة كبيرة جداً. هذا ما جعلني أصير أكثر ارتباطاً بالصبي كي أحميه وكي أحمي نفسي.

تركته يقودني في دروبه الطفولية. كنا نتكلم لغة كلغة الأطفال، ونفكر مثلما يفكر الأطفال. كنت سعيداً عندما نجحت في هذا نجاحاً كبيراً لأني أحسست معه اغتناء. صنعنا مزمارين من القصب فأمتعنا صوتهما الصادح الحاد عندما ننفخ الهواء من أفواهنا في القصبة الخضراء. قطعنا غصناً من شجرة جار الماء ونحتناه إلى أن أفرغناه من لبه الرطب كي نصنع فيه تجويفاً ممتلئاً أصواتاً خفية. صنعنا من أزهار المستنقعات الصفراء والزرقاء أكاليل كي يأخذها إلى أمه. لكني أقنعته بعد ذلك بأن نستخدم تلك الأكاليل في تزيين أغصان الحور. أقنعته بهذا حتى لا أفكر في أمور تجعلني خجِلاً من نفسي.

سألني، «هل ستنمو الأزهار وتتبرعم على الأغصان؟»

قلت، «قد تنمو». بل إني اقتنعت قليلاً بإمكانية أن تحيا الأزهار من جديد على الشجرة الرمادية.

سألني مرة، «أين الشمس؟»

«خلف الغيوم».

«أهي هناك دائماً؟ حتى عندما يصير الجو غائماً؟»

«دائماً».

«هل نستطيع رؤيتها إذا تسلقنا شجرة الحور إلى قمتها؟»

«لا».

«وإذا صعدنا إلى أعلى المئذنة؟»

«لا. الغيوم أعلى من المآذن».

«وإذا أحدثنا فتحة في الغيوم؟»

حقاً، لماذا لا يُحدِث الناس فتحة في الغيوم من أجل الأولاد الذين يحبون الشمس.

وعندما تمطر، نجلس في واحدة من غرف بيته الفسيح. كان يأخذني أيضاً إلى العلية. والواقع أن رأسي اصطدمت بواحدة من عوارض السقف هناك. حكى لي قصصه الجميلة عن المركب الكبير، الكبير، الكبير مثل بيته؛ مركب يسافر في النهر. حدثني عن حمامته المفضلة التي ترفرف فوق سريره في الليالي الرطبة عندما يكون نائماً، وكذلك عن جدته العاجزة لكنها تعرف كل ما في العالم من قصصه الخيالية.

«هل تعرف أيضاً قصة العصفور الذهبي؟»

«تعرف قصة العصفور الذهبي».

«ما هو العصفور الذهبي؟»

سألني معلمي الصغير مستغرباً، «ألا تعرف؟ إنه عصفور مصنوع من الذهب. ليس العثور عليه سهلاً».

بعد ذلك، كففت عن الإكثار من ذهابي إلى البيت. ما كانت أفكاري طاهرة. كنت أجد صعوبة في تكلم لغته عندما أكون في البيت. عندما أذهب إليه، لا يكون سلوكي طبيعياً. نجلس في المطبخ. تدخل أمه وتخرج. تبتسم لنا، للطفلين

الجالسين. وكنت أخفي عيني ولا أرغب في طعام أو شراب. أرفض الطعام والشراب عندما تقدمهما. أردت أن أكون مختلفاً عن الآخرين، لأني كنت مثلهم.

قال الصبي لي، «ابق معنا. لماذا ينبغي أن تخرج في المطر؟»

ضحكت المرأة عندما رأت احمرار وجهي.

وذات صباح، وقت انبلاج الفجر، هاجمنا العدو وطردنا من خيامنا. فوجئنا، فكانت مقاومتنا ضعيفة. لم نفلح إلا في جمع أسلحتنا والقليل من أهم حوائجنا، ثم فررنا في السهل ونحن لا نزال في ملابسنا الداخلية البيضاء. ممتلكات الجنود الهزيلة ملء أذرعنا. لم نتوقف إلا عندما صارت الشمس في كبد السماء، عندما ما عاد خلفنا من يطاردنا. احتل العدو مواقعنا من حول الخان. حفروا خنادقهم هناك وكانوا في انتظارنا كل مرة، غير هيّابين.

لم نفلح في دفعهم وإعادتهم إلى ضفة النهر إلا بعد سبعة أيام من ذلك. عدنا إلى احتلال مواقعنا حول الخان.

ثم ظهر اثنان من جنودنا خارجين من البيت. كانا في الخان عندما فاجأنا الهجوم؛ أو لعلهما فرّا إليه كي يختبئا فيه. أمضيا الأيام المخيفة السبعة مختبئين هناك في حين كان جنود العدو يدخلون الخان ويتجولون من حوله. كانت المرأة تطعم الجنديين.

كنا شاكرين لها إلى أن قالا لنا إنها ضاجعت جنود الأعداء أيضاً.

ران الصمت علينا.

طلبتُ من قادتنا أن يؤخذ الصبي والجدة العمياء بعربة إلى قرية مجاورة.

سأل الصبي، «وأمي؟»

«ستأتي في ما بعد».

أطلقوا النار عليها لحظة صارت العربة نقطة صغيرة متحركة في السهل الفسيح.

لا بد أن الصبي اكتشف ما حل بأمه فصارت أغنيته الصغيرة عن علية البيت أكثر مرارة.

تذكرت الصبي وخوفه عندما جلست في غرفتي، وعادت بي أفكاري إلى أيام طفولتي.

أنا أيضاً، كانت لي عليّة في بيتي. كنت أجلس على سرج قديم متروك هناك، أجلس وحيداً في ذلك العالم، في عالم الأشياء التي ما عادت مفيدة ففقدت أشكالها الأصلية وصارت تتخذ أشكالاً جديدة تتغير بحسب أوقات اليوم وبحسب تقلبات مزاجي. تتغير مع تغير ظلال الضوء التي تحوّلها وفق ما يكون في نفسي من حزن أو فرح. أنطلق راكباً السرج كي ألاقي رغبتي في حدوث أمر، أمرٌ من رؤى طفولتي الضبابية التي كانت متغيرة من غيرما إيقاع أو سبب، تغيرات ليست من الواقع مثلها مثل الأشياء في تلك العلية نصف المظلمة.

ساهمت علية البيت في تكويني مثلما ساهم ما لا عدّ له من الأماكن والأحوال والحوادث والناس. تطورتُ عبر آلاف التغيرات؛ وكان يبدو لي دائماً أن ذاتي القديمة كلها تختفي مع كل تغير جديد فتضيع في ضباب الزمن الذي انقضى وصار الآن من غير أهمية. لكني كنت أعثر مرة بعد مرة، وعلى غير توقع، على آثار من كل ما قد كان؛ أعثر عليها كأنها لقى غير مكتشفة، كأنها طبقات من أحافير ذاتي. صحيح أنها كانت قديمة، وصحيح أنها ما كانت جميلة، لكنها تصير غالية علي، وتصير جميلة. ذلك الجزء مني، الجزء المعاد اكتشافه الذي كان أكثر من ذكرى، كان جزءاً حلواً عائداً من مسافات زمنية بعيدة جداً تصل بيني وبينه. هذا ما جعل له وجوداً مضاعفاً: هو جزء من شخصيتي الحالية، وهو ذكرى. صار ذلك كأنه الحاضر، وكأنه بداية.

في تلك العلية حيث كنت أتعلم أموراً عن نفسي، حيث كنت ألتمس الوحدة والملاذ من الأبعاد الفسيحة في موطني (مع أنني أحببتها أكثر مما أحببت أمي نفسها)، كنت كثير التفكير في العصفور الذهبي في قصص جدتي. ما هو ذلك العصفور الذهبي. لم أدر عنه شيئاً، لكني أصغي إلى صوت المطر المتساقط على سقف بيتنا الخشبي وإلى اصطفاق المصاريع المفتوحة تحت وقع الريح وأتخيل رؤية آلاف الأعين تنظر إلي من الزوايا، فأتخيل عثوري على عصفوري الذهبي مثلما يعثر البطل في قصص جدتي المتلألئة على عصفوره فأعلم أن السعادة قد تحققت بطريقة غريبة لا قدرة عندي على شرحها.

نسيت أمر العصفور بعد ذلك؛ نسيت عصفوري الذي تكوّن في ذهني أيام ما كانت لي خبرة في الحياة. أتت الحياة فبددت ما كان في عمري الغض من أحلام يقظة سمحت بها مخيلة نارية لا يعوقها شيء، مخيلة منطلقة في حرية أمنيات لا آخر لها. لكن العصفور كان يظهر لي من جديد، يظهر كلما ساءت حالي.. كأنه يسخر مني.

في قديم الزمان، كان ثمة صبي في بيت أبيه المشرف على النهر، صبي يحلم أحلاماً مذهّبة لأنه لا يعلم عن الحياة شيئاً.

وكان ثمة صبي آخر، في الخان، في السهل، صبي يفكر في العصفور الذهبي. قتلوا أمه ـ كانت آثمة ـ واقتادوه إلى العالم معهم.

كنا أربعة أخوة يلتمس كل منهم عصفور سعادته الذهبي. مات واحد في الحرب. ومات واحد بداء السل. وقتل واحد في الحصن. وأنا.. أنا ما عدت باحثاً عن عصفوري.

أين هي عصافير أحلام البشر الذهبية؟ وكم يكون على الإنسان أن يجتاز بحاراً كثيرة وجبالاً وعرة كي يصل إليها؟ أتكون هذه الرغبة العميقة الناجمة عن لاعقلانية طفولية رغبةً لا تظهر إلا على صورة علامة مطرزة على مناديل أو على أغلفة كتب مراكشية لا فائدة منها؟

حاولت قراءة كتاب أبي الفرج الأصفهاني؛ أرغمت نفسي على ذلك من غير أن أحس رغبة كبيرة في القراءة، من غير أن تكون عندي حاجة داخلية إليها. وددت أن أسمع آراء شخص آخر، لا آرائي.

فتحت الكتاب، وبدأت قراءة مقطع انتقيته من غير أن أنتقيه. وقعت على حكاية عن الإسكندر الأكبر. تقول الحكاية إن الإمبراطور تلقى هدية، وكانت الهدية أطباقاً عجيبة من زجاج. أعجبته الهدية كثيراً، لكنه حطم تلك الأطباق كلها، سألوه، «لماذا حطمتها؟ أليست جميلة؟». أجابهم، «حطمتها لأنها جميلة لا لشيء آخر. جمالها يجعل من الصعب عليّ أن أخسرها. لكنها سوف تتكسر مع مرور الزمن، طبقاً بعد طبق. وسوف أحزن عليها كل مرة أكثر مما حزنت الآن».

كانت الحكاية ساذجة، لكنها أدهشتني. كان الدرس مراً: على المرء أن ينبذ كل ما قد يحبه يوماً لأنه لا منجى من الفقد والخيبة. علينا أن ننبذ الحب حتى لا نخسره. علينا أن نزهد في الحب حتى لا نخسره. علينا أن نحطم حبنا حتى لا يحطمه غيرها. علينا أن نزهد في كل صلة لأننا سوف نأسف عليها يوماً من الأيام.

هذه الفكرة فيها يأس قاسٍ. لا نستطيع تحطيم كل ما نحب؛ فثمة دائماً إمكانية لأن يحطمه الآخرون قبلنا.

لماذا يعتبرون الكتب ذكية مع أنها مُرّة؟

ما كان لحكمة أي إنسان أن تسعفني. فضلت العودة إلى بداياتي. عدت إليها من غير جهد، ومن غير أن أُكره نفسي على ذلك. ما كنت باحثاً عن أي شيء: كانت الذكرى تبحث عن نفسها، ثم تجد نفسها من غير عون مني.

أمطرت أياماً من غير انقطاع؛ وكان المطر يقرع سقف التكية العتيق قرعاً شديد كأن به غلٌّ عليه. كان الأفق مظلماً، غير بائن. وفي العلية من فوقي وقع أقدام لا أراها تسير جيئة وذهاباً. شعاع ضوء يصيب رأسك، وريح تصفق مصاريع النوافذ، وفأر يسترق النظر من الزاوية. طفولة ترقبني من الظلمة، ترقبني بعينين محزونتين.

نجحت لحظةً في أن أفكر مثلما يفكر ذلك الطفل المتوحد البعيد، في الإحساس مثلما يحس والخوف مثلما يخاف. كان كل شيء سراً جميلاً؛ وما كان لكل شيء إلا دوامٌ في المستقبل أو دوامٌ من غير نهاية. انعكاسات حية تلف كل شيء؛ وسعادة عميقة، أو حزن عميق. ما كانت هذه حوادثُ وقعت، بل أحوالاً من مزاج متغير: تأتي أحياناً من تلقاء أنفسها، مثل النسيم، مثل شفق هادئ، مثل تلألؤ لا تميزه العين، مثل سُكرٍ. أو، لعل صوراً متقطعة تراءت لي، وجوهٌ تظهر في الظلمة لحظة، أو أقل من لحظة، وضحكة شخص في صباح مشمس، وانعكاس ضياء القمر على صفحة نهر هادئ، وشجرة كثيرة العقد عند منعطف الطريق. ما كنت أدري، بل ما كنت أحس تلك الدقائق من حياتي الأولى موجودةً في نفسي، وما علمت سبب بقائها ذلك الزمن الطويل. أمن الجائز أنها بقيت لأن

لها معنى كبيراً كان عندي (هذا سبب بقائها مزروعة في ذاكرتي)، لكنها لم تلبث أن أزيحت جانباً مثلما تزاح ألعابٌ قديمة؟ كنت ناسياً ذاتي السابقة التي غرقت بعيداً في الزمن؛ لكن شظاياها المتكسرة وبقايا حطامها عامت الآن إلى السطح.

وكانت حالي مثل حالها: متشظياً، مكوّناً كلي من قطع مفككة، من انعكاسات ووميض. كنت كلّي مكوناً من حوادث وأسباب مجهولة وغاية وُجدت يوماً، لكنها وُضعت جانباً. والآن، ما عدت عارفاً ما أنا في ذلك الهباء المشوّش.

صرت أشبه بالسائر في نومه.

استويت في الليل جالساً.. من غير حراك.. شمعتان مشتعلتان في هذه الناحية من الغرفة، وفي تلك، موقدتان كي تبددا الظلمة. هادئاً، رائقاً كالليل من الحولي، كالعالم وقت الليل، جلست أرقب زجاج النافذة الأسود الفاصل بين الظلمة وبيني وأرقب الجدران الرمادية الفاصلة بين كل شيء وبيني. لم أجرؤ على النظر إلى أي شيء آخر وكأن الجدران لن تلبث أن تنشقّ وتنهار إن انقطع انتباهي لحظة قصيرة واحدة. من غير أن أنهض من فراشي، ومن غير أن أزيح عني غطائي، بقيت مكاني حتى تظل الغرفة كلها أمامي وأصغيت إلى المطر المتواصل، إلى خرير الماء في المزراب الخشبي الفائض به، إلى هديل الحمائم الغافي وحفيف قوائمها على الأرض. بدت تلك الأصوات الصامتة كلها جزءاً من الليل الذي لن ينقضي، وبدت جزءاً من عالم ليس حياً.

ما عدت باحثاً عن أسباب، عن مجموع، عن متصلات لا تَقطُّع فيها.

وفي آخر كل ما كنت أحاول تحديده أو ربطه أو إعطاءه معنى، كان ثمة ليل طويل أسود ومياه لا تنفكّ تعلو وتعلو.

وقد كان معي ذلك الصبي من السهل، كان معي أيضاً، كان مثل علامة مؤلمة.

كنت قد عثرت عليه في وقت لاحق وأخذته إلى المدرسة الدينية، ثم إلى التكية. كاد الواحد منا لا يعرف الآخر: تغيرت روحي كثيراً جداً، وتغيرت روحه كثيراً جداً.

ماتت جدته فصار في العالم وحيداً. عمل راعياً في القرية التي تركوه فيها: يتيمٌ ماتت أمه في الحرب، لكن خصالها المشكوك فيها ظلت في ذاكرته. عبءٌ أسود ظل جاثماً على روحه.

كان أشبه بزهرة مائية نُقلت إلى الجبال، أو بجندب اقتلع الأطفال جناحيه. كان أشبه بصبي من السهل انتزع منه الناس خلوّه من الهموم. كان كل شيء له.. الوجه والجسد والصوت.. لكنه ما كان هو.

لم أنس يوماً كيف جلس قبالتي، جلس على صخرة، جلس هامداً، أبكم، نائياً من غير أثر من بهجة العصافير التي كانت مشعة منه ذات يوم، جلس قبالتي حتى من غير حزن، من غير شيء. كان محطماً. قلت له: ستكون معي، وسأعتني بك. ستذهب إلى المدرسة! لكني وددت أن أصيح به: اضحك، اجر خلف الفراشات، تكلم مع الحمائم المرفرفة فوق أحلامك. لكنه كفّ عن الكلام على أي شيء.

والآن، بينما تمطر السماء ويتشبث الفراغ الذي انفتح أمامي بطفولتي تشبث رجل غريق، يتشبث بكتبي وأشباحي، يدخل الصبي غرفتي من غير صوت. بل كنت أضبطه أحياناً أمام الباب، أضبطه عندما أحس كأن الصمت قد تغير.

يقف عند الجدار من غير كلام.

«اجلس، يا ملا يوسف».

«لا مشكلة عندي».

«ماذا تريد؟»

«أتحب أن أنسخ لك شيئاً؟»

«لا».

يبقى في الغرفة قليلاً بعد ذلك. ما كنا عارفين كيف نتكلم. لو تكلمنا لكان الكلام مربكاً لنا. يخرج من غير أية كلمة.

لست أدري حقاً ما كان ذاك الذي نشأ بيننا، ولا أية روابط كانت تجمعنا معاً، ولا أية توترات مؤلمة تباعد بيننا. لقد أحببته يوماً، وأحبني؛ لكنه ينظر إلي الآن وأنظر إليه، بعينين لا حياة فيهما. كان السهل ما جمع بيننا، ما ربطَنا، قبل المأساة. ربطتنا البهجة التي كانت مشعة كالشمس في ذاك الزمان. وعلى الدوام، كان الواحد منا تذكرة دائمة للآخر بأن البهجة لا يمكن أن تدوم زمناً طويلاً جداً.

ما كان يكلمني أبداً عن طفولته والسهل والخان؛ لكنه ينظر إلي فأحسب أنني أرى في عينيه ذكرى موت أمه. صرت كأني صرت مرتبطاً بأشد ذكرياته ألماً، مرتبطاً ارتباطاً لا فكاك منه. لعله نسي ما وقع حقاً وظنني مذنباً في الأمر مثلي مثل غيري لأني ما كنت مختلفاً عن الآخرين. حاولت مرة أن أشرح له الأمر، لكنه قاطعني مذعوراً: «أعلم».

ما كان ليقبل السماح لأحد بأن يقترب من الجزء المحرم منه، أو بتعكير ذلك النظام المظلم الذي خلقه في نفسه. هذا ما جعلنا نتباعد أكثر فأكثر ويحمل كل منا إزاء الآخر امتعاضاً خفياً: نتيجة شكه وضغينته ومصيبته، ونتيجة إحساسي أنه جاحد لي.

صالَحَ حسنٌ والدَه. حدثنا مازحاً كيف استطاع أن يستميل نصيراً، وحماةً، وطفلاً مدللاً، مجتمعين كلهم في رجل واحد. كان مبتهجاً إلى أقصى حد. اتفق مع والده على تحويل حصتيهما من الأرض إلى وقف حتى يترحم الناس عليهما ويحفظوا ذكرهما، وحتى يستفيد منه الفقراء وأبناء السبيل. ظل طيلة النهار يجري هنا وهناك متابعاً كل ما هو متصل بالعقد والوثائق القانونية، باحثاً عن الرجل المناسب لرعاية الوقف: رجل يكون شريفاً، ذكياً، بارعاً.. إن كان لرجل من هذا النوع وجود! قال حسن هذا ضاحكاً. لست على يقين من أنه كان أكثر سعادة بالمصالحة مع أبيه أم بتمكنه من جعل الأرض تفلت من بين يدي صهره القاضي عيني أفندي. قال فرحاً، «إن لم ينفطر قلبه، فهو مصنوع من حجر».

اشترى نسخة القرآن التي كان الملا يوسف منكباً على إنجازها. اشتراها كي يقدمها إلى أبيه هدية. لم يرد يوسف أن يتقاضى مالاً، لكن حجج حسن كانت مقنعة.

«لا يتخلى المرء عن عمل سنة كاملة من غير مقابل».

«وماذا أفعل بالمال؟»

«قدمه إلى من يكون في حاجة إليه».

أعجبته كثيراً تلك النسخة: «إنه فنان، يا شيخ أحمد؛ لكنك تظل صامتاً وتخفيه عن الأعين فلعلك تخشى أن يأخذه منك أصدقاؤك. إنه يذكرني بالشيخ الشهير، المُبرِّد.[1] بل قد يكون عمله أكثر جمالاً. إنه أوفر عاطفة وأكثر صدقاً. هل سمعت بالمبرّد، يا ملا يوسف».

«لا».

«صار رجلاً ثرياً، وصار محط احترام، لأن لديه هذه الموهبة التي لديك. لكن أحداً في القصبة لم يسمع بك. لم يسمع بك حتى من يأتون إلى التكية. الناس هنا يرحلون بمواهبهم إلى القسطنطينية أو إلى مصر، ثم يعود إلينا آخرون بقصص عنهم. نحن لا نحسن عمل أي شيء، أو لا يهمنا الأمر، أو أننا غير واثقين من أنفسنا».

قلت، «المجدُ متواضع في هذا المكان، مهما يكن السبب في ذلك». أجبته بهذا رافضاً أن أستسلم أمام توبيخه المضمر «أردت إرساله إلى القسطنطينية، لكنه لم يقبل».

صار الشاب مضطرباً مثلما اضطرب أول مرة؛ لكنه صار أقل جزعاً.

قال بصوت خافت «أفعل هذا من أجل نفسي. ولا أتساءل حتى إن كان جيداً أم غير جيد».

ضحك حسن وقال: «إن كان كلامك صادقاً، فعليّ أن أقف تكريماً لك».

تابعت عيناه الشاب يسير مبتعداً، مضطرباً بعد هذا الثناء.

«ما يزال في هذا العالم رجال حساسون، خجولون، يا صديقي. ألا ترى هذا غريباً؟»

«سيكون أولئك موجودين، دائماً».

«الحمد لله. ما أكثر الذين ما عادوا عارفين حتى هاتين الكلمتين. علينا أن نحافظ على من هم مثله كما نحافظ على البذار». قال هذا ثم أضاف من غير توقع «يبدو لي أنك لست مهتماً به كثيراً».

---

(1) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الملقب بالمبرِّد، ولد بالبصرة سنة 210 هجري. اشتهر بحسن خطه، وصار إماماً في النحو وعلوم اللغة.

«إنه صامت، مغلق».

«خجول، هادئ، مغلق. فليكن الله في عونه!».

«لماذا؟»

«تجارة الدراويش غريبة. أنتم تبيعون الكلمات فيشتريها الناس بحكم الخوف أو بحكم الاعتياد. لكنه لا يريد هذا، أو أنه لا يعرف كيف يبيع الكلمات. بل إنه لا يعرف كيف يبيع الصمت، أو الموهبة. وهو غير مهتم بالنجاح. إذاً، فبأي شيء يهتم؟»

لا فائدة! يصعب كثيراً إيقاف حسن عندما يثير شخص من الأشخاص فضوله. وأكثر الأحيان، لا يكون لذلك الفضول أي سبب، أو أن سببه لا يهم أحد غيره.

«لماذا تسأل عنه كثيراً؟»

«لست أسأل عنه. نحن نتكلم فحسب».

«لديك قدرة غريبة على الإحساس بالناس التعساء».

«هل هو تعس؟»

قلت له ما أعرفه كله، أو كله تقريباً. حدثته عن السهل والصبي وأمه؛ وأثناء كلامي، صار واضحاً لي، أكثر فأكثر، أن هذا الشاب كان ضحية.. مثلما كنت. لست أدري مَن منا كانت معاناته من معاناة الآخر. بدأ حياته في وقت مبكر جداً. وبدأت حياتي قرب منتهاها. لم أقل هذا، لكن نفسي أحست أني مبالغ في الإشفاق لما أصابه: إني أتكلم على نفسي أيضاً، أخلق نسخة أخرى مني.

استمع حسن إلي مشيحاً بوجهه ولم يقاطعني. كان مستثاراً، لكنه استطاع إدراك لب الأمر.

قال لي، «يبدو لي أنك لم تفهمه إلا الآن. إنه في حاجة إلى عون».

«لا يريد عوناً من أحد. ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه. لا يثق بأحد».

«لقد حظي بحب موثوق. وكان وقتها طفلاً».

«وقد أحببته. أنا من جاء به إلى هذا المكان».

«لست أتهمك. نحن كلنا هكذا. نخفي حبنا ونخنقه. مؤسف! أسفي عليك وأسفي عليه».

أدركت ما كان دائراً في ذهنه: في وسعه الآن أن يحمل مكان أخي، لكن لا يستطيع أحد أن يحمل مكان أخي.

أنا لم أساعد يوسفاً! وأنا، من ساعدني؟

كان كلامي كله على نفسي، لكنه لم يسمع مني غير اسم الصبي. نحّيت نفسي جانباً من خلال حديثي عنه. أكان هذا لأن يوسف فتي؟ أم كان لأني قوي، معتز بنفسي؟ لا يشفق أحدٌ على الأقوياء!

«والآن؟ كيف هو الآن؟ هل تظلان صامتين عن كل شيء؟»

«التعساء شديدو الحساسية. قد يجرح أحدنا الآخر».

ما كان مجدياً الكلام في أمر يصعب شرحه، في أنني أحب ذكريات السهل، لكني أمقت ابتعاد يوسف عني وصمته الواجم الذي قتل كل أمل عندي. لقد بالغت في تبسيط تلك العلاقة المعقدة فلم أقل غير جزء من الحقيقة، لم أقل غير أننا نصير غريبين (لست أدري كيف)، لكن الرابطة بيننا تظل قوية لأن الإنسان لا يجد سهولة في السير مبتعداً عمن ساعده. يحاول أن يحافظ على ذكرى حلوة عن نفسه. كنا، يوسف وأنا، أشبه بقريبين؛ وكانت خلافاتنا أشبه بمشكلات عائلية لأنها محاطة بالحب دائماً.

قال حسن مع ضحكة أطلقَها، «في وسعك أيضاً أن تكره عائلتك».

لم يفاجئني. لقد طال جِدّه أكثر مما يحتمل.

أجبته مازحاً، «لم نبلغ ذلك بعد».

منذ ذلك الوقت، صارا يتقابلان أكثر مما مضى. يأتيه حسن إلى التكية أو يدعوه إلى بيته. يتجولان هنا وهناك متابعين أعمال حسن، ويكتبان عقوداً، ويسوّيان حسابات كثيرة. وفي المساء يخرجان في نزهات عند ضفة النهر. تغير الملا يوسف تغيراً واضحاً: كنت مدركاً أن أسلوب حسن المباشر الصادق محوّم من حوله كأنه ضباب. ما يزال الملا يوسف متخذاً مظهر الشخص المطيع الذي لا يوحي وجهه بأي تعبير لأن هذا ما يستعين به كي يفصل نفسه عن الآخرين، لكنه

ما عاد مكتئباً ولا صعباً. بدا لي أن ذلك الصبي البعيد قد بدأ يعود إلى الحياة وإن تكن عودة بطيئة.. ما يزال مختبئاً في الظلال.

يحل به اضطراب إن لم يأت حسن. ينظر إليه باسماً عندما يظهر آخر الأمر، ويبهجه هدوؤه وكلماته الودود. ما عاد يترك المكان أبداً مثلما كان يفعل من قبل. يبدأ الكلام بيني وبين حسن فلا يفارقنا. يظل معنا كأنه كاد ينسى ما ينبغي إظهاره من احترام. كان مستفيداً من هذا الحق الذي منحته إياه هذه الصداقة الجديدة. وكان حسن راضياً بإخلاصه الصامت، راضياً بالبهجة التي يلقاه الصبي بها.

ثم تغير كل شيء. تغيرٌ سريع جداً، مفاجئ جداً. كف حسن عن المجيء إلى التكية. وكف عن دعوة يوسف إليه. ما عاد الواحد منهما يرى الآخر.

سألته دهشاً، «ماذا جرى لحسن؟»

قال متوتراً، «لست أدري».

«منذ متى لم يأت إلى التكية؟»

«خمسة أيام حتى الآن».

بدا لي مكتئباً. من جديد، صار تعبير وجهه غير آمن، واكتست سيماؤه ظلالاً عميقة كانت قد بدأت تنجلي عنه.

«لماذا لا تذهب لرؤيته؟»

خفض رأسه، وأجاب بصعوبة، «ذهبت، لم يسمحوا لي بالدخول».

أنا أيضاً، صرت لا أكاد أفلح في رؤية حسن.

المرأة قصيرة القامة التي تنظر إلى الجميع نظرة شاردة وتبتسم لذكرياتها (أو لتطلعاتها) ابتسامة هادئة، وتضع وردة في شعرها، وتتجمل وتتعطر (لا بد أن زوجها يحسبها تفعل هذا كله من أجله. يسعده هذا)، أدخلتني وجلة وطلبت مني القول إني وجدت الباب مفتوحاً. أيكون اعتذارها لأنها نسيت أن تقفل الباب أهون من اعتذارها لأنها أدخلتني؟ قالت إنهم لم يخرجوا منذ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ؛ قالتها من غير لوم. في نظرها، كان العالم جميلاً.

وجدته على شرفته الفسيحة جالساً مع أصدقائه. كانوا يرمون النرد.

فوضى تعم المكان العابق برائحة دخان التبغ المعلق مثل الضباب في نصف الظلمة لأن الستائر كانت مسدلة. كان الوقت صباحاً، لكن الشموع ما تزال مشتعلة. رأيت وجوههم شاحبة، مستنفدة. كؤوس وأطباق منثورة من حولهم. أكداس من المال.

كان تعبير وجه حسن جامداً، غير ودي، بل يكاد يكون حاقداً.

نظر إلي كأنه فوجئ بوجودي. لم يُظهر لطفاً على الإطلاق. أسفت لأنني أتيت.

«أردت أن أكلمك».

«أنا منشغل الآن».

كان في يده نرد من العاج فرماه على السجادة. ذهنه منشغل باللعبة.

«اجلس إن أحببت».

«لا وقت لدي».

«بم أردت أن تكلمني؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ليس الأمر مهماً. يمكن أن ينتظر».

انصرفت. أحسست في هذا إهانة؛ وكنت في دهشة. من يكون هذا الرجل؟ أيكون ثرثاراً فارغاً؟ شمساً ربيعية؟ ضعيفاً غلبته الرذيلة؟

كنت في مزاج رديء إذ أرهقتني فكرة أن ما من بشر خيّرين دائماً. إنه يلقي كلمات جميلة، ثم ينساها على الفور!

لكنه خرج من الغرفة لحظة بلوغي آخر الممر.

كانت تلك أول مرة أراه قذر الوجه، مهملاً نفسه. كان كأنه شخص آخر. عيناه غير رائقتين، بل كابيتين، غائرتين، مرهقتين لكثرة الشرب وقلة النوم. رفرفت عيناه عندما صار في النور.

تبادلنا النظرات، ولم يبتسم أحد منا.

قال مكفهر الوجه، «سامحني. أتيتني في توقيت سيئ».

«أرى هذا».

«ليس سيئاً أن تعرف كل شيء عني».

«لم أرك منذ أيام. أحببت معرفة ماذا بك».

«لدي عمل قبيح لا بد لي من متابعته.. غير هذا».

«أتيت أيضاً بسبب يوسف. هل حدث شيء؟ أتى باحثاً عنك، لكنك لم تسمح له بالدخول».

«لا أكون دائماً في مزاج مناسب للحديث».

«لقد اعتاد أن يكون معك. أتى كي يحبك».

«كي يحبني! هذا كثير جداً. وأما أنه اعتادني، فهذا لا شيء. وأنا لست ملوماً في هذا، ولا في ذاك».

«أنت مددت إليه يدك وأخرجته من وحدته، ثم تركته. لماذا؟»

«لست قادراً على ربط نفسي بأي شخص طيلة حياتي. هذا أيضاً من سوء حظي. أحاول دائماً، لكني لا أنجح. ما الغريب في هذا؟»

«أود معرفة السبب».

«السبب موجود داخلي».

«إذاً.. لا شيء. سامحني».

«قلت لي إنك أحببته. هل أنت واثق من هذا؟»

«لست أدري».

«إذاً، فأنت لم تحبه. لماذا أتيت به إذا كنت غير راغب في إيوائه؟»

«لقد آويته».

«لم تفعل شيئاً غير قيامك بواجبك. وقد انتظرت منه عرفاناً. لكنه عزل نفسه أكثر فأكثر، وعزز كرهه».

«كرهه! إزاء من؟»

«إزاء الجميع. بل ربما إزاءك أنت أيضاً».

«ولماذا يكرهني؟»

«سألته وقد صعقني ذلك الاحتمال.. مع أني فكرت فيه من قبل».

«كان عليك أن تجعله صديقاً لك، أو أن تبعده عنك. وأما في حالكما هذه، فأنتما متشابكان مثل حيتين ابتلعت كل واحدة ذيل الأخرى فما عادتا قادرتين على الانفصال».

«كان أملي أن تفعل ما لم أفعله».

«وأنا مثلك: أحب أن يفعل هذا شخص غيري. هذا ما يحبه أي إنسان آخر. إذاً، فنحن لا نفعل شيئاً. أهذا كل ما لديك؟ إنهم في انتظاري».

فاحت منه رائحة الكحول والتبغ. كان في مزاج سيئ، وكان نكداً مستعداً للمجادلة، مُنفّراً.

«هل قال لك يوسف هذا كله؟»

استدار وذهب من غير كلمة.

كان أمراً حسناً أنني رأيته على هذا النحو.

كان حسن غير متسق. شخصاً لا يستقر على حال. كان لا يعلم ما يريد، أو كان عالماً لكنه غير قادر. نواياه حسنة، لكنه لا يطاق. كان يحاول، لكنه لا ينجح. ولعل سوء طالعه كامن حقاً في تلك البدايات التي لا أمل فيها، في بنائه جسوراً ثم لا يعبرها. كأنه نزلت به لعنةُ رغبةٍ لا تفارقه أبداً ولا تجد لها إشباعاً. يبحث دائماً، يبحث متحمساً، ثم يقلع عن الأمر خاوي الوفاض. كأنه شخص تشده الأفكار وينفّره الناس. كان هذا أمراً غريباً، وكان مشكلة، لا لأنه يبدأ الأمر ثم يقلع عنه بل لأنه يحاول من جديد، يحاول دائماً. يعني هذا أن المشكلة كامنة فيه، لا في الآخرين.

لكني ظللت أفتش عن سبب يتجاوزه، عن سبب أبعد منه.

كان هو الملوم في إبعاد يوسف عنه. لكني سألت نفسي، وكان سؤالاً غير منطقي أبداً: لماذا؟ لم أدرك أني كنت أحوّل المسؤولية عنه وألقيها على غيره.

حاولت فهم ما جعل حماسة حسن تتضاءل سريعاً. ماذا فعل يوسف؟ رجوت أن يخبرني حسن، لكنه لم يفعل شيئاً غير اتهام نفسه. سجلت هذا الاتهام الذاتي في حسابه، لكني ظللت أتساءل: ماذا فعل يوسف؟

سألت نفسي وسألته من أجل نفسي. عذبني الغموض كأنه ظلمة. صار الأمر هاجساً عندي. عزوته، مثلما أعزو كل أمر آخر، إلى سوء طالعي الذي اكتنفني كلي وصار طعامي وهوائي، صار لبّ حياتي وجوهرها. كان علي أن أجد حلاً: كل شيء معتمد على ذلك. لذا، رحت أصارع الأمر محموماً، وأعيد النظر في كل إنسان

وكل حادثة وكل كلمة، كل ما له صلة بي وبأخي الذي مات. هل يمكن لأي شيء يحدث بين الناس أن يبقى لغزاً مستغلقاً؟

أرغمني تباعدهما على العودة خلفاً.

تكرر كل شيء مرة بعد مرة، تكرر في ذاكرتي؛ وكان ذلك كله مألوفاً عندي. لكني واصلت التفتيش في كل ما استقر في عقلي، رحت أفتش فيه ثم أفتش فيه، إلى أن صارت هذه المشقّة المؤلمة تنتج صلات غير متوقعة ولمحات غامضة تشير إلى حل. في لحظاتي الأكثر عقلاً، كان يبدو لي أن ما من غاية لهذه العلاقات المتبادلة، المتشابكة، المرهقة، وأني لن أستطيع أن أفوز بشيء من بحثي عن المعاني الخفية في أقل الإشارات أهمية في كلمات هذا الإنسان أو ذاك. لكني لم أستطع ترك الأمر. وهبته نفسي كأني أقدمها إلى القدر هبة. عندما أجمع الأجزاء كلها معاً سأكتشف ما توصلت إليه. بدا هذا شيئاً مثل المقامرة: كان عديم الرجاء مثلها، وكان حماسياً مثلها. ما كنت أتوقع كسباً أكيداً، لكن للترقب سحره أيضاً! شجعتني شذرات الذهب التي لم أنقطع عن اكتشافها ودفعتني إلى البحث عن عرق الذهب الخبيء.

لكن، لعل هذا كان أيضاً دفاعاً في مواجهة الخوف الذي قد يطبق علي. ما كان الخوف بعيداً عني، بل ظل متراقصاً من حولي كأنه حلقة من لهيب. كنت أحاول حماية نفسي متظاهراً بأنني أفعل شيئاً، بأنني أدافع عن نفسي، وبأنني لست من غير أمل. ما كان سهلاً عليّ أن أُحيي في داخلي أشخاصاً التقيتهم ذات مرة، وأن أستحثهم على قول كلماتهم المألوفة من جديد. لكني أفلحت في تلك اللحظات الشبحية، في ذلك الطنين والهمس والتشوش، أفلحت في الربط بين الإشارات ربطاً غير معقول أحياناً، أفلحت في وضع يدي على فكرة واحدة مثلما يضع الملاح يده على الدفة ويقبض عليها حتى لا تجرفه أمواج العاصفة عن مركبه.

عندما أحل العقد كلها، وعندما أتخذ القرار بنفسي، سأعلم أن كان سقوطي في التيار الموحل مصادفة أم أن له أسباباً وفاعلين.

في عالمي المعزول، عالم حدوده صوت المطر الذي لا ينقطع وهديل الحمائم ولون الأيام الغائمة الرمادي أو سواد الليل الدامس، جلس الشهود في غرفتي.

كانوا مرتبكين أول الأمر، قلقين مثلما كنت، لكني أفلحت رويداً رويداً في أن أفرض عليهم نوعاً من الترتيب فأفردتهم واحد فواحد مثلما يكون في استجواب. قسمتهم إلى نوعين اثنين: مهمين، وغير مهمين. كان غير المهمين أولئك الذين رأيت ذنبهم واضحاً أمامي. وكان المهمون من لم يبوحوا بكل ما يعرفون.

بعد فراغي من إعادة إنشاء ما استطعت إعادة إنشائه من خلال أحاديث بيني وبين ظلالهم وكلماتهم، وجدت ضرورياً أن أتحقق من شكوكي ومما أنبأني به حدسي، أمر لا أستطيع فعله مع الظلال والكلمات التي لا تتغير أبداً. خرجت إلى البشر الأحياء باحثاً عن حل اللغز.

ما كان علي إلا أن أنتظر حيناً من الزمن كي يغيب كل شيء ويسقط في النسيان. لحسن حظي أن الناس ينسون سريعاً ما لا يهمهم، ما لا يشغل أذهانهم. حاولت إقناع الجميع بأني نسيت مثلهم، وبأني نسيت ما مضى، وبأني صرت خائفاً أو منسحباً إلى أمان الصلاة. وكان لكل منهم أن يصدق ما يريد.

دعوت الملا يوسف. وفي استجوابات ليلية متوحدة، جعلته أيضاً يكرر كل ما قال من قبل، وكل ما فعل. كنت متوتراً لأن الحديث كان مهماً. اعترفت بأني أثمت في حق الله وفي حق العالم لأن سلوكي في مصيبتي كان منافياً للعقل، كان غير خليق أبداً بموقعي. لقد أعمى الحزن ناظري، وأعماه الحب، وكان هذا عذري الوحيد. لقد نسيت أن الله أراد للأمر أن يكون مثلما كان وأنه أنزل عقابه بأخي، أو بي، أو بكلينا جزاء آثامنا المجهولة. كان عقاباً بيد غيره، لكن المشيئة مشيئته.

أصغى إلي منتبهاً من غير ذلك الحذر الذي يحمي به نفسه في الأحوال العادية. لم أدر إن كان هذا نتيجة هدوء كلامي ورقة صوتي أو كان لأن ذكرى مصيبته قد بدأت تؤلمه. صار ينظر إلي من غير تحفظ أو حرج. مع هذا، كان مضطرباً، بل شبه منزعج.

سألني كأنه يزجرني، «أية آثام؟»

«سنعرف هذا يوم الحساب».

«يوم الحساب بعيد؛ فماذا نفعل إلى أن يأتي؟»

«سوف ننتظر».

«وهل اليد التي عاقبنا الله بها آثمة؟»

فاجأني سؤاله. لم يحدث من قبل أن كلمني بهذه الحدة أو طرح علي سؤالاً بهذا القدر من الغضب. قاطع اعترافي وراح يتكلم من تلقاء نفسه. كان مفكراً في الجنود الذين قتلوا أمه بسبب من خطاياها الغريبة، وقتلوه من غير أن يأتي إثماً. كان يستعجل، هو نفسه، الوصول إلى ما أردت.

قلت بصوت هادئ، «لست أدري، يا بني! لا أعلم شيئاً غير أن كل واحد منا سيقف بين يدي الله ويعترف بكل ما فعل. أعلم أن البشر ليسوا آثمين جميعاً؛ لكني أعني من هم آثمون حقاً».

«لست أسأل من أجل من أتوا شراً، بل من أجل من وقع الشر عليهم».

«أنت تسأل من أجل نفسك. أنت واحد ممن وقع الشر عليهم. هذا هو السبب في أنني لا أدري ما أقول لك. سأغضبك إن قلت إنهم غير آثمين. ثم إن قول هذا غير صحيح. وإن قلت إنهم آثمون، فسوف أذكي ما لديك من ضغينة».

«أية ضغينة؟ من تراني أحمل عليه ضغينة؟»

«لست أدري. ربما أنا».

كان جالساً عند النافذة. وكانت عيناه ناظرتين إلى يديه المضمومتين معاً. من خلفه، كان نهار رمادي وسماء غائمة، نهار وسماء يشبهانه. عندما سمع مني الكلمات التي قالها حسن، التفت إلي فجأة ورشقني بنظرة حائرة، دهِشة، فظة.. نظرة فيها كره حقيقي. ثم أشاح بوجهه عني وقال بصوت يكاد يكون هامساً، «أنا لا أكرهك».

قلت، «الحمد لله». قلتها مسارعاً إلى تهدئته، خائفاً أن يذهب مثلما فعل من قبل. «الحمد لله. عليّ أن أكسب ثقتك من جديد، إن كانت قد ولّت. وأما إذا كانت ما تزال موجودة، فهذا أفضل كثيراً. أقدّر الصداقات الجديدة لأنها تمنحنا حباً لا نستطيع مواصلة العيش من غيره، لكن في الصداقات القديمة ما يتجاوز الحب لأنها أجزاء من ذواتنا. لقد كبرنا معاً، أنا وأنت؛ كبرنا مثلما تكبر نبتتان. إن افترقنا، فالضرر واقع علي وعليك. جذورنا متشابكة مثل تشابك أغصاننا.

مع هذا، لا يسعنا غير أن ننمو في أجمة ذكريات واحدة يعيش فيها كلٌّ منا حياته. كان ممكناً أن نصير متقاربين كثيراً. وأنا آسف الآن، آسف على كل ما فوّتناه. لماذا لم نتكلم؟ يعلم كل منا أننا كنا نفكر في ما وقع؛ ونحن غير قادرين أبداً على نسيانه. ألوم نفسي أكثر مما ألومك. أنا أكبر منك سناً، وأوسع تجربة. ليس لي من عذر غير معرفتي أن حبي إياك لم يتغير أبداً. أبقاني انفصالك على مبعدة منك. لقد احتفظت بمصيبتك لنفسك كأنك تغار عليها. احتفظت بها مثلما تظل قردة حاملة صغيرها الذي مات، حاملة إياه إلى صدرها. على المرء أن يدفن الموتى من أجل نفسه. وقد كنتُ الشخص الوحيد القادر على مساعدتك على فعل هذا. لماذا لم تسألني يوماً عن أمك؟ أنا الوحيد الذي يعرف عنها. لا تجفل؛ ولا تنغلق على نفسك. لن تسمع مني ما يؤذيك أو يجرحك. لقد أحببتكما معاً».

«هل أحببتها؟» كان صوته عكراً، أجشاً، متوعداً.

«لا تخش شيئاً! أحببتها مثلما أحب أختاً».

«لماذا أختاً؟ كانت بغياً!»

أفزعني تعبير وجهه. لم أر فيه ذلك التعبير من قبل. كان حاداً، لا رحمة فيه، مستعداً لكل شيء. لكني كنت مدركاً أن فظاظته وتعذيبه نفسه ناتجين عن الحزن الذي أحياه في نفسه هذا الحديث الأول بيننا عن أمه. فاجأتني تلك الضراوة التي فتح بها جروحه. أيكون عذابه كبيراً حقاً، كبيراً إلى هذا الحد؟

قلت محاولاً تهدئته، «أنت قاسٍ لأنك بائس. كانت أمك امرأة صالحة. ما كانت آثمة، بل ضحية إثم».

«إذاً، لماذا قتلوها؟»

«لأنهم كانوا حمقى».

ظل ينظر إلى الأرض، ولم يقل شيئاً. كنت عارفاً مقدار قسوة الأمر عليه، لكني لم أستطع منع نفسي من الارتعاد عندما أحسست هول عذابه. سألني ناظراً إلي نظرة كُره، وكان ذلك أمله الأخير في أن أعجز عن الدفاع عن نفسي.

«وأنت، ماذا فعلت؟»

«توسلت إليهم ألا يقتلوها، لكن عبثاً. وقد أخذتك إلى قرية أخرى، أخذتك بعيداً كي لا ترى. اختبأتُ بعد ذلك وبكيت، بكيت وحدي متقززاً من أولئك الرجال، مشفقاً عليهم أيضاً، لأنهم ظلوا طيلة النهار غير قادرين على تبادل النظرات بينهم لخجلهم من أنفسهم، لخجلهم مما فعلوه».

«يومٌ واحد ليس زمناً طويلاً جداً. من.. كيف قتلوها؟»

«لست أدري. لم أستطع النظر، ولم أحب أن أسألهم».

«ماذا قالوا عنها بعد ذلك؟»

«لا شيء. ما أسهل أن ينسى الناس ما لا يستطيعون الاعتزاز به».

«وأنت؟»

«تركتهم بعد وقت قصير. كان ما فعلوه عاراً. وقد ظللت زمناً طويلاً مشفقاً عليك وعليها، عليك خاصة. كنا صديقين. ما كان لي صديق أفضل منك في حياتي كلها».

أغمض عينيه وترنح كأنه موشك على فقدان الوعي. قال بصوت خافت من غير أن ينظر إلي، «أأستطيع الذهاب؟»

«هل أنت مريض؟»

«لا، لست مريضاً».

وضعت يدي على جبهته.. بذلت جهداً حتى قمت بتلك الحركة العادية جداً، وكدت أعجز عن إتمامها لأنني أحسست كفي تحترق حتى قبل أن تمسه. عندما مسست جلده، لم يكد يستطيع منع نفسه من إبعاد رأسه. كان توتره شديداً كأن يدي سكين.

قلت له، «اذهب. أضنينا أنفسنا بهذا الحديث. علينا أن نألفه».

نهض وخرج متعثر الخطا.

أمرت مصطفى أن يعطيه عسلاً، وأن يرسله كي يسير في الخارج. حاولت إقناعه بأن يبدأ نسخة جديدة من القرآن. عرضت عليه أن أطلب من أجله ذهباً وحبراً أحمر. لكنه رفض. صار أكثر غرابة، وأكثر غرابة، وصار أكثر انغلاقاً من قبل. كان ذلك كأن اهتمامي قد صار عبئاً كبيراً عليه.

قال لي الحافظ محمد: «أنت نبالغ في تدليله».

قالها كأنه يلومني، لكن رؤية أنه كان مرتاحاً للأمر ما كانت صعبة أبداً. يؤثر لطف الآخرين في نفسه مع أنه، هو نفسه، لم يرغب يوماً في أن يهتم بأي إنسان. في نظره، كان اللطف أمراً مثل شروق الشمس: كان أمراً ينظر إليه المرء فحسب.

قلت مدافعاً عن نفسي، «يبدو مضنى النفس. ثمة أمر يحدث عنده».

«صحيح، يبدو مضنى، فلعله عاشق؟»

«عاشق؟»

«لماذا يفاجئك هذا؟ إنه في مقتبل العمر. سيكون من الأفضل أن يتزوج ويترك التكية».

«ومن يتزوج؟ أيتزوج الفتاة التي عشقها؟»

«لا. أليس في هذه القصبة فتيات كثيرات؟»

«أرى أنك تعرف شيئاً، فلماذا تتركني أخمن الأمر تخميناً؟»

«الحقيقة أنني لا أعرف الكثير».

«قل لي ما تعرفه».

«قد لا يكون من حقي أن أقول. وقد يكون ما لدي ظناً فحسب».

لم أشأ مواصلة الضغط عليه. كنت عارفاً أنه مخطئ، لكني كنت عارفاً أيضاً أنه سيقول لي ما عنده. كان تردده الظاهري سخفاً، فهو من بدأ ذلك الحديث حتى يقول لي شيئاً. يعلم الله وحده ما رآه وما تخيله لشدة سذاجته. لم أتوقع الكثير مما أراد قوله، مهما يكن.

لكن الأمر بدا غريباً لي عندما أخبرني. قال إنه ذهب إلى والد حسن فرأى الملا يوسف أمام باب بيت القاضي. كان واقفاً هناك، متردداً، ناظراً إلى النوافذ. سار متجهاً إلى الباب، ثم توقف، ثم ابتعد عن البيت بخطوات بطيئة ناظراً إلى الخلف. لقد أراد شيئاً. لقد توقع شيئاً. كان باحثاً عن أحدهم. وعندما التقيا، لم يسأله الحافظ محمد عن ذلك، لكن الشاب قال إنه كان في نزهة فبلغ هذا المكان مصادفة. ما قاله جعل الحافظ محمد في شك وقلق لأنه لم يبلغ ذلك المكان مصادفة، ولأنه لم يكن خارجاً في نزهة. يفضل الحافظ محمد ألا يكون السبب مثلما ظن. هذا ما جعله يلزم الصمت حتى الآن.

سألته من غيرما اضطراب لأنني وجدت نفسي أمام حل اللغز، «ما الذي حسبته جارياً عنده؟»

«الحقيقة أن ذكر الأمر يخجلني. لكن سلوكه كان غريباً. وقد كذب عليّ كي يلتمس عذراً لنفسه. يعني هذا أنه مذنب في شيء. ظننته واقعاً في الحب».

«في حب من؟ أتكون شقيقة حسن؟»

«هل رأيت؟ حتى أنت تفكر مثلما فكرت. إن كان هذا غير صحيح، فيعاقبني الرب على أفكاري الآثمة».

قلت واجماً، «ربما. تحدث للناس أمور كثيرة جداً».

«ينبغي أن يكلمه أحداً. سوف يواصل تعذيب نفسه من غير نهاية».

«هل تظن هذا؟»

نظر إلي مستغرباً من غير أن يفهم سؤالي، من غير أن يحس ما فيه من ضغينة، ثم قال إنه حزين على الشاب لأن ذلك الحب اليائس سوف يأكل قلبه مثلما يفعل الصدأ، ولأن الأمر كله سيكون عاراً عليه وعلينا. سيكون عاراً أمام العالم وأمامها هي لأنها امرأة متزوجة شريفة. وأما هو، الحافظ محمد، فسوف يدعو الله أن يجعل الفتى يحيد عن تلك الدرب وأن يعفو عنه لأنه آثم.. آثم إن كان قد أخطأ رؤية الأمر فراودته أفكار سيئة.

صار الرجل كئيباً بعد أن قال كل شيء. ندم على ما قال. لكن التزامه الصمت كان كفيلاً بتدميره.

ليت ما قاله هذا الرجل كان صحيحاً!.. هذا الرجل الذي رأى الإثم حيث لا إثم أبداً. لكن، لعل ثمة إثم! فلماذا يكون هذا مستحيلاً؟

تبنيت تلك الفكرة القبيحة وطورتها في لحظة واحدة. منحتها أجنحة، ورحت أكتشف الاحتمالات الرائعة الكامنة فيها. تذكرت يديها الجميلتين وكيف تعانق واحدتهما الأخرى من غير انقطاع، كيف تنطبقان معاً مشتاقتين. تذكرت عينيها الباردتين المشعتين قوة لا تفصحان عنها.. مثل مياه عميقة. تذكرت ذلك التيه الهادئ الذي تنتقم به من أمر من الأمور. لكنني تذكرت أيضاً كل ما كان قد وقع. وتذكرت أن أخي هارون كان مقتولاً عندما طالبتني بأن أخون حسناً. ما كان

ممكناً أن تعلم بأمر أخي؛ ولعلها لم تسمع باسمه أبداً؛ لكني نسيت ذلك وتذكرتها امرأة قاسية مثلها مثل زوجها القاضي. كانا في نظري عقربين متعطشين إلى الدم؛ وما كان قلبي بقادر على أن يتمنى لهما خيراً. إذاً، فقد علا صوت الكره في نفسي: ليت ذلك يكون صحيحاً! في لحظة من لحظات ضعفي، رأيتها تخضع أمام شباب يوسف، ورأيت القاضي مخزياً أمام ذلك العدل العتيق، عدل الخطيئة.

لكني سارعت إلى قمع تلك الفكرة. علمت أنها مخجلة وأن من المهين لي أن أتمنى ثأراً تافهاً كهذا. لكنها كشفت لي عن أمر أشد أهمية: كشفت لي عن ضعفهم وخوفهم. يلد الضعف والخوف غرائز واطئة! وفي أفكاري، تركت تلك المعركة لغيري واستمتعت سراً بهزيمتهما.. لو لحظة واحدة فقط. لكن، أي نوع من الهزيمة هذا؟ وأي نوع من العوض إن هو قورن بخسارتي؟

أحسست عاراً وذعراً. قلت في نفسي: لا! قلتها مصمماً: لا أريد هذا! مهما يكن ما أقرره، فعلي أن أفعله بنفسي، أن أفعله وحدي. وسواء إن عفوت أم استوفيت حقي. هكذا يكون مسلكي مستقيماً.

دعوت الملا يوسف مرة أخرى؛ دعوته إلي بعد كلامي مع الحافظ محمد. وعندما أتى، كنت أتفحص هدية حسن، أتفحص كتاب أبي الفرج الأصفهاني في غلافه المراكشي ذي الطيور الذهبية الأربعة، «هل رأيت هذا؟ إنه هدية من حسن».

«ما أجمله!»

مرت أصابعه على الجلد وعلى أجنحة الطيور الذهبية الممتدة. على غير انتظار، طرأ تحول على الملا يوسف وراح ينظر إلى الحروف الرائعة، إلى الكلمات المزينة. أفلح هذا الجمال الذي أثاره إثارة غريبة في تهدئة ما كان به من توتر عندما دخل الغرفة. كنت مدركاً أنني سأفوز بمزية مهمة إن تركته منتظراً. كنت مدركاً أنه خائف، أنه يتخيل ما سيكون بيننا من حديث، أنه يبحث محموماً في خزائن خطاياه، لكل منا خطاياه. لكني رفضت الاستفادة مما يستطيع خوفه أن يمنحني إياه. فضلت أن أكسب ثقته.

قلت له إنني أردت استئناف الحديث الذي كان بيننا لأنه ما يزال حزيناً. هذه أسوأ حالٍ يمكن أن يقع فيها أي واحد منا (أعرف هذا من نفسي): عندما لا نستطيع أن نحزم أمرنا ونظل في قبضة العذاب، بل لا نستطيع أحياناً أن نحدد ما يعذبنا فتهزنا كل نفحة ريح، تقتلعنا. أحب أن أساعده إلى أقصى ما أستطيع، إلى أقصى ما يقبله. وأنا أفعل هذا من أجله، لكن من أجل نفسي أيضاً، لعلي كنت في نظره آثماً! لقد أهملت واجب تقريبه مني كي أعيد إليه إحساسه بالأمان. لقد فقدت أخي؛ وهو قادر على أن يحل محله. ما أردت منه إخباري شيئاً عما هو جارٍ فيه: لكل امرئ حق في أن يحتفظ بأفكار لنفسه، مهما تكن؛ وليس من السهل أن ينطق المرء بها. وكثيراً ما ندور من حول أنفسنا مثل دوارة الريح ونكون غير واثقين من موضعنا. تصيبنا قلة الأمان بالجنون. نتذبذب بين القنوط وتمني راحة البال؛ ولا نعرف أيهما لنا. يصعب التوقف عند هذه أو عند تلك، يصعب أن يتبنى المرء جانباً من الجانبين. لكن هذا ما يكون علينا فعله. فأي قرار، إلا ما قد يضطرب له ضميرنا، أفضل من ذلك الإحساس بالضياع، الإحساس الذي يشيعه في نفوسنا عدم اتخاذ القرار. على أن القرار لا يجوز أن يكون متعجلاً، فعلينا أن نكتفي بمساعدته في التطور والظهور إلى أن يأتي وقته. والأصدقاء قادرون على تهوين ألم اتخاذ القرار؛ لكنهم لا يستطيعون أكثر من هذا، لا يستطيعون أبداً إزالة ذلك الألم. مع هذا، نحن في حاجة إلى أصدقاء مثلما تحتاج المرأة إلى قابلةٍ عندما تلد. ثمة أمر آخر أعلمه من تجربتي. عندما كنت في أسوأ أحوالي وحسبت أن ما من طريق أمامي غير أن أقتل نفسي، أرسل الله إلي حسناً كي يُنهضني ويمنحني شجاعة. عطفه ولطفه (بل أستطيع القول أيضاً، حبه) أعادا إلي ثقتي بنفسي وبالحياة. قد تبدو علامات ذلك العطف صغيرة جداً، لكن قيمتها عندي أكبر من أي شيء. توقفَ دوراني المجنون من حول نفسي، وخبا ذعري. أحسست نسيم اللطف البشري الدافئ يذيب الجليد الذي حاصرني. أدعو الله أن يسامحني هو نفسه، الملا يوسف، على أن تلك الذكرى الغالية ما تزال تثيرني؛ لكن ما من إنسان آخر أنعم علي برحمة أكبر على امتداد حياتي كلها. كنت وحيداً، هجرني الجميع؛ وكنت متروكاً في الصمت الفارغ، صمت مصيبتي، متروكاً كي يقع عليّ الظلم حتى منتهاه. كنت على شفير الشك في كل ما أنا مؤمن به لأن كل شيء كان

يتهاوى من حولي فيدفنني تحته. لكنك ترى الأمر، ترى كيف أن معرفة أن في العالم رجلاً صالحاً، رجلاً صالحاً واحداً، كانت كافية لأن تصالحني مع كل ما عداه. قد يبدو إضفائي هذه الأهمية كلها على صنيعِه أمراً غريباً لأن هذا ينبغي أن يكون مسلكنا جميعاً؛ لكني في غاية الامتنان له. على أني رأيت أن ذلك الصنيع ليس بالأمر الشائع أبداً، وأن صنيعه يجعله متميزاً عن بقية الناس. ثم إني كنت آثماً في حقه فصار صنيعه أغلى عندي.

رفع الملا يوسف رأسه.

نعم، لقد كنت آثماً. لقد فعلت له أمراً سيئاً، أمراً سيئاً جداً. لا أهمية الآن لطبيعة ذلك الأمر، ولا لسببه. كنت قادراً على إيجاد سبب، بل ربما كنت قادراً على إيجاد تبرير، لكن ذلك ما كان مهماً. كنت في حاجة إلى صداقته، في حاجة إليها مثل حاجتي إلى الهواء؛ لكني كنت مستعداً لخسارتها لأني لم أستطع إخفاء تلك الكذبة عنه. أردت أن يسامحني، لكنه فعل أكثر من ذلك: منحني حباً أكبر.

سألني الملا يوسف، سألني بعد عناء، «هل آذيتَه في شيء؟»

«لقد خنته».

«وماذا لو بدأ يزدريك؟ أو يرفضك؟ ماذا لو أذاع نبأ خيانتك؟»

«سأظل على احترامي له، حتى إن فعل ذلك. لقد علمني، مرة بعد مرة، أن الكرم الحقيقي لا يعرف المساومة. أعانني عوناً مضاعفاً فكان اغتناؤه بكرمه مضاعفاً. قلت لحسن إن أمثاله نعمة حقيقية، نعمة أرسلها الله إلينا؛ وكنت مؤمناً بهذا حقاً. لديه حس غريب يمكّنه من اكتشاف من يكون في حاجة إلى عون، فيعرض العون عليه كأنه دواء له. إنه ساحر، لأنه بشري. ثم إنه لا يترك من يساعدهم أبداً، فهو وفيٌّ أكثر من أخ. أجمل ما فيه أن حبه لا يطالبك بأن تكتسبه اكتساباً. لو اكتسبته لما تلقيته أبداً، أو لأضعته منذ أمد بعيد. يرعى حبه بنفسه، ويهبه من غير بحث عن سبب غير الحاجة التي يحسها، ولا عن عوض غير رضاه وسعادة الآخرين. لقد قبلتُ المبدأ الأخلاقي الذي منحني إياه: من يُعطِ يُعطَ! ما عدت ضعيفاً لأن حبه قد شفاني ومكنني من مساعدة شخص آخر. جعلني حبه قادراً على الحب؛ وسوف أهبك الحب، يا ملا يوسف.. إن كان فيه نفع لك».

ابتسمت ابتسامة دافئة، صامتة، فعلّي أستطيع تذكر كل ما أردت قوله له وكل ما بدا لي مهماً. وقد وجدت في هذا شيئاً من مشقة لأن فكرة أتتني: لا يندفع حسن في هذا التفسير المطول كله! لكن لكل امرئ طريقته؛ ثم إن مهمتي كانت أكثر صعوبة.

كان الملا يوسف أكثر انغلاقاً مما كان وقت حديثنا الأول، وأقل رغبة في الكلام، لكنه كان أيضاً أقل اضطراباً. كان جالساً أمامي، راكعاً على ركبتيه، متوتراً، محموماً؛ وكان يبذل جهداً مستمراً لإرخاء التشنج في أصابعه التي انغرست في فخذيه. راح يغمض عينيه المشتعلتين ويفتحهما غير قادر على ضبطهما. كان يرفعهما صوبي متألماً. لم يستطع إخفاء أن كلماتي الهادئة كانت تصخب في وعيه كأنها عواصف. في لحظة من اللحظات، عندما ظننته موشكاً على الانفجار باكياً، وددت أن أخلي سبيله حتى لا أعذبه ولا أعذب نفسي. لكني أرغمت نفسي على إنهاء ما بدأت. مصيري ومصيره يتقرران الآن.

قلت إن صداقة حسن نعمة. وقلت إن كل شيء بيننا قد بدأ بها فقادني إلى تأملات وقرارات أنقذتني. ما كان لدي شيء من بيت طفولتي، شيء من بيت أمي، غير منديل مطرزةٌ عليه أربعة طيور ذهبية. وقد حفظتُ ذلك المنديل في صندوق. جعلهم حسن يضعون تلك الطيور على غلاف الكتاب ففرحت روحي مثلما يفرح طفل، مثلما يفرح مخبول. ثم أدركت ما كان أهم من أي أمر آخر. فهل يتذكر؟ لقد سألته مرة عن الطائر الذهبي الذي يعني السعادة. وقد فهمت الآن: كان الطائر صداقة، حباً لشخص آخر. كل ما عداه يمكن أن يخدعنا؛ وأما هو فلا يستطيع خداعاً. كل أمر آخر يستطيع أن يتفلت منا ويتركنا من غير شيء، لكنه لا يستطيع ذلك لأنه معتمد علينا.

لم أستطع أن أقول له: كن صديقي. لكني استطعت القول: سأكون صديقك. ما كان لدي أقربُ منه إلي، أقرب من يوسف. سيكون كأنه ابن لي، الابن الذي ما كان لي. سوف يكون كأنه أخ، كأنه الأخ الذي ضاع مني. وسوف أكون له كل شيء أراده لكنه ما كان لديه. كنا الآن متساويين: جعلَنا الأشرار في تعاسة. فلماذا لا نستطيع أن يحمي واحدنا الآخر ويريحه؟ قد يكون الأمر أسهل عليّ لأن ذلك

الصبي في السهل كان في قلبي دائماً، حتى عندما حجبت مصيبتي كل أمر آخر. وقد أملت ألا يكون الأمر صعباً عليه: سأكون صبوراً، وسأنتظر صداقته التي (كنت مدركاً هذا تمام الإدراك) سيحسها نحوي يوماً، سيحييها.

هل انثنى على نفسه؟ هل أنّ ألماً؟ هل كتم صرخة بعد أن بلغت شفتيه؟

لا أمل.. ولا نجاة لنا.. أنت يا من ليس مكتوباً لك أن تكون صديقي!

هذا ما جعلني قادراً على إخباره (واصلت كلامي من غير رحمة) حتى بما ما كان ممكناً أن أقوله لولا حرصي عليه. لو كان الأمر غير ذلك لقلت ما قلت بطريقة أخرى، بنوايا مختلفة، ولكانت غايتي صون سمعة تكيتنا. وأما في واقع الأمر، فقد كان ممكناً أن يكون هذا حديثاً ودياً بيننا، أن يكون حديثاً لا يهم أحد غيره وغيري. لن يكون سهلاً علي أن أتكلم في الأمر؛ ولن يكون سهلاً عليه أن يصغي لما أقول. لكن، إذا بقينا صامتين، فهذا أسوأ شيء.

قال لي نعم؛ وكان لا يكاد يقوى على التنفس. كان مذعوراً، قلقاً، مترقباً، مصعوقاً لما سمعه حتى الآن وغير عارف إن كنت سأسمعه المزيد لأن انتباهه إليّ أنبأني بأنه في انتظار المزيد، طيلة الوقت، في انتظار شيء أكثر أهمية، أكثر أهمية من أي شيء آخر: السبب الحقيقي الكامن من خلف هذا الحديث بيننا. أعطيته إياه من غير أن أكشف عنه: أردت أن يكشف السببُ عن نفسه بنفسه.

قلت له: لست أسأله أين يذهب وأين لا يذهب، فقد اكتشفت الأمر مصادفة. يؤسفني أنني اكتشفت الأمر.. إن كان ما أخشاه صحيحاً. (بدا لي كأن عينيه موشكتين على السقوط من محجريهما. نظر إلي كأنه ينظر إلى ثعبان؛ وكان مسحوراً. كان يستعجل كلماتي، لكنه كان في ذعر منها). عم كان باحثاً أمام بيت القاضي؟ لماذا يشحب لونه الآن؟ لماذا يرتعش؟ لعل من الأفضل إنهاء هذا الحديث إن كان يزعجه كثيراً؛ لكن هذا هو السبب.. هذاهو السبب نفسه الذي يجعلني راغباً في مواصلة كلامي، فالظاهر لي أن هذا ليس أمراً قليل الأهمية. كنت عارفاً عنه الكثير. وقد عرفت، أو استطعت أن أتخيل ما كان جارياً له. صحيحٌ أن الأمر كله مخزٍ، لكن قلقه هذا شهادةٌ على أن ضميره ما يزال قوياً، دليل على أنه يوبخه.

خفض الشاب رأسه أكثر فأكثر. انثنى تحت ثقل الخوف الذي، أناخ عليه بكلكله.. كأن ظهره قد انكسر.

بدأ محاولة واهية لتكرار قصته، قصة أنه انتهى إلى ذلك المكان مصادفة، لكني لوحت بيدي مُزيحاً ما قاله، رافضاً حتى أن أتكلم في الأمر.

انتظر متقطع الأنفاس. وأنا انتظرت مثله، ولم أكد أتنفس. حتى لحظتي الأخيرة، لم أدرِ إن كنت سأقول الأمر الوحيد الذي كانت له أهمية، الأمر الذي كنت مستعداً من أجله لأن أحرقه حياً حتى أجعله يعترف به. كان ذلك الاتهام يصيح صياحاً في داخلي، يصيح مجنوناً، ملطخاً بالدماء، لكني ضغطت على شفتي وبذلت أقصى الجهد كي أحبسه. إن استولى عليه ذعرٌ خالص جعله ينكر كل شيء، فسوف أظل متروكاً في الظلام. هكذا ضغطت عليه، دفعته حتى أقصى حدوده، سقته إلى الجنون. كنت أتوقع أن يكشر عن أسنانه ويبدأ العواء، أن يمزقني إرباً حتى يرى ما كان خبيئاً في قلبي.

كان هذا تعزيزاً لشكوكي. لكن، ما من برهان حتى هذه اللحظة!

كان علي الآن أن أهوّن الأمر، أن أجعل كل شيء يبدو سُخفاً. إن بان في وجهه ارتياح، إذاً فأنا على الطريق الصحيح: هو آثم.

غالبتُ العذاب الذي في داخلي، وغالبت غليان دمي الذي أصمّني، كررت على مسامعه فرضية الحافظ محمد الساذجة، فرضية أنه قد يكون واقعاً في هوى شقيقة حسن. كان هذا مؤسفاً لأن قلبه المتعطش إلى الحب سيظل متروكاً أسود اللون، مسحوقاً تحت وطأة هذه الرغبة الخاطئة اليائسة. سوف يُنهي هذا أمره ويُغرّبه عن الناس، بل قد يغربه حتى عني. وليس له أن يحمل هذا الأمر عليّ لأني أحدّثه مثلما قد أحدث أخي، أخي الذي ما عاد قادراً على الاستفادة من مشورتي. لذا، رجوت أن يفهم سبب بكائي، أن يفهم الآن، أو لاحقاً، عندما يكون الشطر الأكبر من حياته قد صار خلفه، عندما لا يكون عنده ما يفكر فيه غير الخسائر، عندما لا يفعل شيئاً غير القتال بغية المحافظة على حب أولئك الأصدقاء الذين ما يزالون لديه.

بكيت حقاً، ذرفت دموع الحزن والغضب، وكنت مضطرباً مثلي مثل ذلك الشاب الحائر. ليس علينا إلا أن ننهي هذا الحديث الفظيع بعناق بيننا. لكنني ما كنت قادراً على الذهاب إلى ذلك الحد. ولو أقدم على ذلك، فأخشى أنني كنت سأخنقه لأني صرت عارفاً كل شيء.

صرت عارفاً كل شيء. عندما خرجت من غابة الظنون التي كانت مثل ألف سكين مشهرة في وجهي، سكاكين سوف تأتي واحدةٌ منها بالموت كي يتوقف هذا، عندما أخذت بيده إلى أرض لا سكاكين فيها وحللت العقد الكثيرة التي قيدته بها من غيرما رحمة، عندما حررته من ذعره الحيواني بأن حذرته تحذيراً لطيفاً، انفتحتْ من فوقه سماء صافية، انفتحت على غير انتظار، سماء لا وعيد فيها، فتألق وجهه المعذب.. مفاجأة جامحة، وفرحة مجنونة لأن حياته قد أُنقذت.

نظرت إليه نظرة كره وقلت في نفسي: غبي! يظن أنه أفلت من الفخ.

لكن، عند ذلك، حدث أمر لم أتوقعه، أمر لم أنتظر حدوثه. لم تستبدَّ به فرحة الخلاص إلا لحظة واحدة. لم تدُم الفرحة إلا برهة قصيرة جداً لم تلبث بعدها أن فقدت قوتها الأولى وما كان فيها من نضارة. ففي اللحظة نفسها تقريباً، فاجأتْهُ فكرة أخرى جعلت وجهه يخلو من كل علامة من علامات الحياة: صار ثقيلاً، وبان فيه أسى يائس.

لماذا؟ هل أخجله فرحه الغامر؟ هل أفقدته تلك البهجة المفاجئة توازنه؟ هل كان آسفاً عليّ لشدة سذاجتي، سذاجتي الطفولية؟ أم أنه تذكر كم يمكن أن يكون هذا الإنكار خطيراً؟ انحنى بحركة بطيئة، بل بحركة بطيئة كل البطء، بحركة فاجأني بطؤها، انحنى حتى مس الأرض كأنه يسجد أمامي، كأنه يسقط أمامي. كاد لا يقوى على إسناد نفسه بذراعيه. بدا لي أنهما لن تستطيعا حمله. ثم نهض واقفاً كأنه نائم. خرج من الغرفة كأنه في سُبات. خرج من الغرفة في ضياع تام.

لقد كنت قاسياً عليه؛ وكنت قاسياً على نفسي أيضاً. لكن، ما كان عندي أي خيار غير هذا. أردت أن أعلم. يعيش حسن بين أشخاص مختلفين، يعيش في عالم غير عالمي حيث يتكشف كل شيء له من غيرما جهد. أما أنا، فلا يقول لي أحد شيئاً. كان علي أن أقلب روحي وباطن يوسف رأساً على عقب حتى أعثر على

الحقيقة. كانت تلك الرحلة طويلة. تعلمت فيها شيئاً بعد شيء، نتفة بعد نتفة. استغرقني الأمر زمناً طويلاً إلى أن اكتشفت ما يقوله رجلان عاديان، ما يقولانه همساً أثناء لقاء قصير على قارعة الشارع. صعقني إدراكٌ تبادرَ إلى ذهني لحظتها: كم أنا منقطع عن الناس، وكم أنا وحيد! لكني نحّيت ذلك جانباً. سوف أفكر فيه لاحقاً عندما ينجلي كل شيء.

توقف المطر، ثم أعقبه طقس مشمس دافئ. حدث ذلك الانتقال من غير انتقال، تقريباً. خرجت وسرت في الشارع، سرت مع النهر زمناً طويلاً. كنت أرقب الضباب الرقيق متصاعداً من أرض اكتست عشباً يانعاً. توقفت عيناي عند السماء الصافية الفسيحة. هي السماء نفسها التي من فوق السهل ومن فوق قريتي. ما أحسست رغبة في الرحيل، فما عاد من وجود لزئير الماء المتوعد مرتفعاً في الظلمة. ذهب عني عجزي. وها أنا الآن هنا. قلت هذا كأني أكلم شخصاً أُكِنّ له بغضاً؛ وكنت عالماً أن ثمة خطراً يتهددني كامناً في تلك الحقيقة نفسها، حقيقة أنني حي. أحسست حاجة إلى الحركة، إلى فعل أمر محدد، أمر ذي جدوى.

صار لي هدف أسعى إليه.

خرجت بين الناس، خرجت هادئاً، صامتاً، متسلحاً بالصبر. تلقيت ممتناً كل ما قد يقدمونه إلي: اللوم، والسخرية، والأخبار.

ما كنت أتصرف على غير هدى. حتى إذا وقع لي أن تحسست طريقي تحسساً وتجولت في أماكن مقفرة، فقد كنت أعثر دائماً على الوجهة التي أبغي. كانت علاماتي الهادية مثابرتي وكلماتٌ أسمعها من شخص آخر، وتلميحات، وابتهاج بمصيبتي أو دهشة لما اعتراني من تغير. وقد صرت واثقاً بنفسي أكثر فأكثر في مسار بحثي عن حل اللغز، وصرت أَغنى وأفقر بفعل ما جنيت، بفعل صَدَقات أتتني في كلمات الآخرين وبفعل ما أتاني في كلمات غيرهم من كره أو إشفاق.

تحدثت مع الحارس الليلي، ومع كارا زيم، ومع الحراس، والدراويش، وطلبة العلم. تحدثت مع بشر بهم مرارة واستياء وشك، مع رجال لا يعلم الواحد منهم إلا قليلاً، لكنهم إن وُضعوا معاً، يعلمون كل شيء. جعلتهم يرون مني وجهاً لطيفاً،

وجه رجل لا يروم ثأراً ولا عدلاً بل يحاول استعادة روابطه التي تقطعت، روابطه بالعالم من حوله، يحاول أن يعثر على سلام نفسه في حب الله، ذلك الحب الذي يبقى حتى عندما نفقد كل ما عداه. كان كثير منهم مرتاباً؛ وكان كثير منهم قاسياً، غير متروٍّ، لكنني بقيت متواضعاً حتى عندما كانوا يكيلون لي الشتائم. حاولت، خافض الرأس، أن أتبين أصغر نتفة من الحقيقة في تغيرات أصواتهم، في لعناتهم، في بهجتهم، في شفقتهم الزائفة أو الحقيقية، بل حتى في كرههم الذي فاجأني أكثر مما فاجأني البغض. وكنت أتذكر كل شيء.

بعد إكمالي تلك الرحلة المؤلمة المضنية، ومعرفتي حتى ما كان غير مفيد لي، ماتت سذاجتي.. ماتت لشدة خجلي من نفسي.

هكذا تعلمت الدرس الأخير وبلغت نهاية المطاف. ما كنت أتوقع حدوثه ينبغي أن يحدث. لكن شيئاً ما عاد يحدث أبداً، وما عدت أتوقع شيئاً. لقد هُزمت؛ وكان هذا كل ما استطعت إنجازه. وبين الناس، بقيت قصة لطيفة عن درويش خفيف العقل كان يحدثهم أحاديث هادئة عن حياتهم وحياته ويدعوهم إلى الحب والغفران مثلما كان قد غفر، درويش كان يواسيهم أيضاً، ويواسي نفسه، بكلام على الله والإيمان والعالم الآخر الذي هو أكثر من هذا العالم جمالاً وأبقى.

عندما عدت من زيارة عبد الله أفندي، شيخ تكية سنان (لقد زرته أيضاً: اتضح أن لدى كل منا شك في الآخر، وأن كلاً منا كان مخطئاً؛ لكن الله وحده يعلم ما استجلبه عليّ من شرٍّ بسبب من ذلك الشك الفارغ، وكم استجلبت عليه من شر)، رأيت الملا يوسف في الحديقة واقفاً عند النهر. أجفل عندما فتحت البوابة ودخلت. نظر إلي مضطرباً، نظر بعينين فيهما شيء سقيم.

كان مدركاً أين أذهب وما كنت باحثاً عنه.

لم يُلق أيٌّ منا التحية على الآخر. ذهبت إلى غرفتي فبدت لي باردة، مظلمة. لقد تخيلت أنها ستكون أشبه بصالة فسيحة مضيئة عندما تأتي الساعة، لكنها لم تعد حتى مثلما كانت من قبل. صدّتني بما فيها من كآبة. نسيتُها ونسيَتني بينما كنت أبحث عن حل اللغز. لقد فقدت عطفها عليّ، وما ظفرتُ بشيء في في أماكن أخرى.

وقفت عند النافذة، وكنت حائراً. وقفت أرقب النهار المتألق بضياء الشمس. هذا كل ما كنت قادراً على فعله، مع أنه من غير معنى.. كنت مدركاً هذا.

انفتح الباب فعلمت من أتاني. ما قلت له شيئاً، وما قال لي شيئاً. أظنني سمعت صوت أنفاسه الثقيل عند الباب.

دام ذلك الصمت المرهق زمناً طويلاً. ظل طيلة الوقت واقفاً خلفي مثل أفكاري السوداء. كنت عالماً أنه سيأتي. سيأتي هكذا، سيأتي من غير دعوة. كنت في انتظار هذه اللحظة منذ زمن بعيد. لكني ما أردت منه الآن غير أن يذهب. الآن، ما أردت منه شيئاً غير أن يذهب. لكنه ظلّ وما ذهب.

كان أول من تكلم، وكان صوته رقيقاً، واضحاً، «أعلم أين كنت تذهب. وأعلم ما كنت باحثاً عنه».

«إذاً، فماذا تريد؟»

«أنت ما كنتَ باحثاً من غير هدف. احكمْ علي، أو سامحني.. إن استطعت».

«اذهب، يا ملا يوسف».

«هل تكرهني؟»

«اذهب».

«قد يكون احتمالي الأمر أكثر سهولة إن كرهتني».

«أعلمُ هذا. ستحس أن لك أيضاً حقٌّ في الكره».

«لا تعاقبني بالصمت. ابصق علي، أو اعفُ عني. هذا ليس هيّناً علي».

«لا أستطيع فعل هذا، ولا ذاك».

«فلماذا كلمتني عن الصداقة؟ منذ ذلك الوقت، كنت عالماً كل شيء».

«ظننتك فعلت ذلك مصادفة. أو لأنك خفت».

«لا تطردني».

ما كان ذلك رجاءً متواضعاً، بل مطالبة. كان أشبه بشجاعة اليأس. ثم لم يلبث أن التزمَ الصمت إذ ثبّطتْ برودتي عزيمته. اتجه صوب الباب، لكنه توقف واستدار صوبي. بدا متحفزاً، مبتهجاً تقريباً.

«أريد أن تعرف أنك عذبتني كثيراً عندما تكلمت على صداقتنا. كنت مدركاً أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً، لكني أردته أن يكون. تمنيت حدوث معجزة. لكن المعجزات لا تحدث. صار الأمر الآن أكثر سهولة».

«اذهب يا يوسف».

«هل لي أن أقبل يدك؟»

«اذهب، من فضلك. أريد أن أكون وحدي».

«لا بأس. أنا ذاهب».

مضيت إلى النافذة وحدقت في الشمس الغاربة غير عارفٍ ما أنا ناظر إليه. لم أسمعه عندما خرج؛ ولا سمعت صوت إغلاق الباب. لقد عاد هادئاً، متواضعاً، مسروراً بأن الأمر قد انتهى هكذا. لقد تركت الجرذ يفلت من المصيدة ولم أحس إزاءه عطفاً ولا ازدراءً.

جالت عيناي فوق التلال في القصبة، جالتا على زجاج النافذة المتألق تحت أشعة الشمس الغاربة.

لا بأس.. هكذا هو الأمر. ثم ماذا؟ لا شيء الآن! غسق، ثم ليل، ثم فجر، ثم نهار، ثم غسق، ثم ليل. لا شيء.

كنت عالماً أن هذا ليس من الذكاء في شيء، لكن الأمر كله صار عندي سواء. بل إني نظرت إلى نفسي نظرة فيها قدر من السخرية كأني أنظر إلى غيري: لو استمر بحثي ولم ينقطع، لكان ذلك أفضل: عندها، سيكون لي هدف باقٍ أمامي.

ثم دخل الحافظ محمد غرفتي، أو لعل من الأصح القول إنه اندفع إلى غرفتي مستثاراً، مذعوراً. كان كأنه فقدَ صوابه. قلت في نفسي إنه لا تنقصه في تلك اللحظة إلا نوبة سعال عنيفة مثلما يحدث كلما استثير: عندها، سيكون عليّ أن أحل بنفسي لغز وجههِ المذعور. لكنه استطاع توفير سعاله إلى ما بعد وأفلح، بعد لأيٍ، في القول إن الملا يوسف قد شنق نفسه في غرفته. أنزله مصطفى قبل قليل، وفكّ الحبل عن رقبته.

نزلنا إلى الطابق السفلي.

كان ممدداً على الفراش، وجهه أزرق محمر. وعيناه مغمضتان. حشرجة في أنفاسه.

كان مصطفى جاثماً إلى جواره؛ وكان يحاول إعطاءه ماءً كي يشرب، فتح شفتيه المطبقتين إطباقاً محكماً مستخدماً ملعقة، ثم مستخدماً أصابع يده اليسرى الثخينة. أشار لنا بإيماءة من رأسه بأن نخرج من الغرفة، فأطعناه وذهبنا إلى الحديقة.

قال الحافظ محمد: «يا للشاب التعس».

«إنه حي».

«الحمد لله، الحمد لله. لكن، لماذا فعل هذا؟ أيكون الحب هو السبب؟»

«ليس الحب».

«خرج من غرفتك منذ قليل. فيم كنتما تتكلمان؟»

«لقد خان أخي هارون. كانا صديقين، ثم خانه. وقد اعترف بنفسه».

«ولماذا يخون أخاك؟»

«كان جاسوساً لدى القاضي».

«آه.. يا إله العرش!».

لو صفعتُ ذلك الرجل العجوز الصادق الذي يغذي صدقَه بقلة تجربته، لو صفعته على وجهه بدلاً من إغناء خبرته بتلك القذارة، لكان الأمر أهون عليه.

تشبثت يده الواهنة بمسند المقعد. ثم جلس وراح يبكي بكاءً خافت الصوت.

لعل هذا أفضل شيء! لعل البكاء كان أعقل ما يستطيع المرء فعله!

-11-

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ...﴾

- قرآن كريم

ازداد قلقي واضطرابي وتمدّدا رجوعاً في الزمن: فكرت كيف كنت محاصراً منذ زمن طويل، وكيف كانت عيون الآخرين تترصّد كل حركة من حركاتي، تنتظر أن تكون واحدة منها غير صحيحة. وما كنت منتبهاً إلى شيء. كنت سائراً في نومي، مطمئناً إلى أن شؤوني لا تعني أحداً غيري وغير ضميري. كان ابني الروحي يراقبني بناء على أوامر شخص آخر ولا يترك لي سوى اقتناع فارغ بأن لي شيئاً من الحرية. كنت أسيراً منذ سنين؛ ولا يعلم إلا الله عدد تلك العيون أو أصحابها. فكرت في الماضي فرأيت نفسي ذليلاً، مقيداً لأني قد فقدت حتى ذلك الحيز الحر الذي تخيلت أنه لي.. قبل وقوع مصيبتي. لقد أخذوه مني، وما عاد الرجوع إلى الذكريات بذي جدوى. بدأت مصيبتي قبل زمن طويل من إدراكي إياها. فمن ذا الذي ما كان يراقبني. ومن ذا الذي ما كان يصغي إلى ما أقول؟ وما عدد من تلقوا مالاً كي يراقبوني، أو راقبوني متطوعين، وتتبعوا حركاتي وسجلوا أفعالي فجعلوا مني شاهداً ضد نفسي؟ صارت أعدادهم مخيفة. لقد مضيت في حياتي من غير مخاوف أو شكوك، وسرت مثلما يسير مجنون على حافة هاوية. الآن، حتى الطريق الآمنة صارت تبدو كأنها هاوية أمامي.

استحالت القصبة أذناً وعيناً عملاقتين تلتقطان كل نفس وكل خطوة. فقدت ما كنت أعرفه من يسر وثقة ألتقي الناس بهما. إن ابتسمت، أبدو مثل من يحاول التملق؛ وإن بدأت حديثاً، أبدو مثل من يحاول إخفاء أمر من الأمور؛ وإن ذكرت الله وعدله، أبدو مثل معتوه.

بل إني لم أدر حتى ما أستطيع فعله بصديقي الملا يوسف. أقولها بمرارة: صديقي! لكني أظن الأمر يكون أسوأ مما هو الآن لو كنا صديقين حقاً. هكذا كان الأمر، فأنا لا أخسر شيئاً من ناحيته. أعلم أني سأكون أكثر قدرة على تنمية إحساسي الجرح إن استطعت القول شاكياً: انظروا ما فعله بي صديقي! لكني لم أرد ذلك. لو فعلت هذا لكان اتهاماً مني لرجل واحد ولخُفض كل شيء إلى سوية مشكلة بينه وبيني: جرحتني خيانة صديق فنسيت أمر الجميع. لكني دفعته بعيداً عني ووضعته مع البقية فضاعفت كلاً من إثمه وخسارتي. فعلت هذا من غير وعي مني. فعلته من رغبة غامضة في أن يكون الأمر أعظم ضخامة، مثل ألمي، مثل سعيي إلى الانتصاف لنفسي. أقول: ألمي؛ لكني ما أحسست ألماً. أقول: سعيي إلى الانتصاف لنفسي، لكني ما فعلت شيئاً. كان لي عند الناس دَين عظيم، لكني ما طلبت منهم شيئاً.

لاقاني الملا يوسف بخوف بائن في عينيه الغائرتين. ابتسمت له ابتسامة متعَبة، لكن ما بداخلي كان أسود اللون كله. لكن (بعض الأحيان فقط)، كان يبدو لي أنني قادر على خنقه وهو نائم أو وهو جالس ضائع في أفكاره. وكنت أود أحياناً أن أبعده عني، أن أرسل إلى تكية أخرى، إلى بلدة أخرى. لكني لم أفعل شيئاً.

تأثر حسن والحافظ محمد بشهامتي وصفحي. ومن المفاجئ أنني سررت لاستحسانهما صفحاً ما كان حاضراً في نفسي. هذا لأني ما سامحت وما نسيت.

هذا ما أدى إلى عودة حسنٍ إليّ، فضلاً عن رضاي الذي لا أجد له تفسيراً بما أكسبتني إياه صداقته، فكأن ذلك الرضا كان نوعاً من تألق داخلي، تألق غريب يكاد يكون غير معقول. لكني قبلت ذلك مثلما أقبل هدية، وتمنيت أن يستمر من غير انقطاع.

«كان ذكاءً منك أن تتركه وشأنه». قال لي هذا وما كان يعني الرحمة، بل المنفعة.

ومن حين إلى آخر، كان استحسانه يبدو لي فظاً: «لو تخلصت منه، فسيأتي غيره. هذا الرجل أقل خطورة لأنك تعرف من هو».

«ما عاد لأحد أن يكون خطيراً عليّ بعد الآن. سأدعه وشأنه وأتركه يعيش بأفضل ما يستطيع. لست قادراً حتى على كرهه. بل إني مشفق عليه».

«وأنا مشفق عليه أيضاً. ليس مفهوماً لي كيف يستطيع واحد من الناس أن يعيش على المصيبة فقط، على مصيبته ومصيبة الآخرين. يتذكر مصيبته ويُحضّر المصائب من أجل الآخرين. لا بد أن الملا يوسف يعرف كيف يكون الجحيم».

«لماذا لم تخبرني بالأمر عندما اكتشفته؟»

«ما كان لهذا أن يحول دون شيء مما حدث. كان كل ما حدث قد حدث. أردت أن أتركك تبحث عن الأمر، وأن تعتاد الفكرة. لا يعلم إلا الله ما كان ممكناً أن تقدم على فعله لو اكتشفت الأمر من غير أن تكون مستعداً له».

«حسبتُ أني سأفعل شيئاً عندما أكتشف الرجل الذي ارتكب تلك الفعلة. لكني غير قادر على فعل شيء».

قال لي بنبرة جادة، «أنت تفعل الكثير».

«لست أفعل شيئاً، لست أفعل شيئاً غير ترك الزمن يمضي. لقد فقدت رشدي، وما عدت أجد متعة في أي أمر أفعله».

«عليك ألا تفكر هكذا. افعل شيئاً، ولا تستسلم».

«ماذا؟»

«اذهب في رحلة، اذهب إلى أي مكان، إلى موطنك، إلى يوخوفاتس. غيّر المشهد أمامك، والناس، والسماء. لقد آن أوان الحصاد. شمّر عن ساعديك واتخذ مكانك بين الحاصدين. اعمل حتى يتصبب منك العرق. أرهق نفسك».

«موطني صار الآن مكاناً حزيناً».

«إذاً، تعال معي. أنا أستعد الآن كي أنطلق إلى سافا. سننام في خانات كلها براغيث، أو تحت أشجار الزان. سنجتاز نصف البوسنة، ونذهب إلى النمسا إن أحببت».

ضحكت وقلت: «تظن أن الجميع يحب الرحيل مثلما تحبه. بل تظن أيضاً أنه دواء شافٍ».

لقد مسسته في المكان الصحيح. بدأت أوتاره تدندن. دبت فيه حماسةٌ وقال لي: «ينبغي أن يؤمر كل إنسان بالسفر من حين إلى حين. أو حتى أكثر من هذا: لا يجوز السماح لأي إنسان بأن يبقى في مكان واحد أكثر مما ينبغي له أن يبقى. ليس الإنسان شجرة؛ وبقاؤه مستقراً في مكان واحد مصيبة حقيقية. هذا كفيل باستنزاف جرأته وتحطيم ثقته بنفسه. عندما يستقر الإنسان في مكان من الأماكن، فهو يوافق على شروطه كلها مهما تكن، حتى ما يكون منها كريهاً، ويستجلب الذعر لنفسه بأن يفكر فيما ينتظره من مجهول. يبدو التغيير في نظره أشبه بالهجر، أشبه بخسارة استثمار: سوف يحتل محله شخص آخر، وسوف يكون عليه أن يبدأ من جديد. تشبُّثُ المرء بمكانه علامة على أنه قد بدأ يشيخ لأن الإنسان يظل شاباً طالما لم يسكن قلبه خوف البدايات الجديدة. إن بقي في مكان واحد فعليه أن يقبل كل ما فيه، أو أن يبادر إلى الفعل. يحفظ حريته إن هو ارتحل. يصير مستعداً لتغيير الأماكن والشروط المفروضة عليه. كيف يستطيع الرحيل، وإلى أين؟ لا تبتسم فأنا أدرك أن ما من مكان نرحل إليه. لكننا نستطيع السفر أحياناً كي نخلق في نفوسنا وهم الحرية. نتظاهر بالرحيل، ونتظاهر بالتغيير، لكننا نعود من جديد، نعود وقد هدأت أنفسنا وواسانا ذلك الخداع».

ما كنت قادراً على معرفة متى تنقلب كلماته إلى سخرية. أيكون ممن يخشون أي توكيد قاطع، أم أنه ليس مؤمناً بأي شيء قاطع؟

«لماذا تظل في ترحال دائم؟ ألكي تحفظ وهم الحرية؟ أويعني هذا أن الحرية لا وجود لها؟»

«هي موجودة، وغير موجودة. أمضي في دوائر فأبتعد ثم أعود. أنا حر ومقيد معاً».

«إذاً، أأذهب أم أبقى؟ لأن من الواضح أن لا أهمية للأمر. إن كنتُ مقيداً، فأنا غير حر. وإن كانت غاية الرحلة أن أعود، فلماذا أرحل؟»

«لكن هذا هو بيت القصيد. أن تعود. أن تتوق إلى مكان آخر وأن ترحل ثم تصل من جديد إلى المكان الذي منه بدأت. لو لم يكن المكان هو الذي يرهقك، لما أردت مكاناً آخر، ولا عالماً آخر؛ ولن يكون لديك أي مكان تفارقه لأنك لن

تكون في أي مكان. وأيضاً، أنت لا تكون في أي مكان إن كان مكانك مكاناً وحيداً لك. وذلك لأنك ـ في هذه الحالة ـ لا تفكر فيه ولا تتوق إليه ولا تحبه. هذا غير حسن أبداً. لا بد لك من التفكير في شيء، من التوق إلى شيء، من محبة شيء. لذا، استعد للسفر. اترك التكية للحافظ محمد. تخلص منهم واتركهم يتخلصون منك. ثم استعد للوصول على صهوة حصان هادئ إلى بوابات مملكة جديدة وقد تقرحت إليتك».

«لا أظن هذا يبدو فوزاً».

«القروح قروح، أيها الدرويش العجوز».

«لكن موضعها غير ملائم، ألا ترى ذلك؟»

«هو موضع مثله مثل غيره. لا تستطيع الجلوس على رأسك فقد يجد بعض الناس ذلك أمراً غريباً. وسيبدو في الأمر نوعاً من التمرد. إذاً، هل اتفقنا؟»

«اتفقنا، لن أذهب إلى أي مكان».

«فليكن الله في عوني. أنت مثل فتاة متقلبة الأهواء لا تستطيع أبداً أن تعرف كيف تتصرف معها. لا بأس، أيها الملتحي، أيتها الفتاة متقلبة الأهواء. الظاهر أنك باقٍ على إصرارك على عدم اتخاذ قرار. وأما إذا غيرت رأيك، إذا أضجرك الاستقرار مع فكرة واحدة فصرت كالمستقر مع الشيطان، تعال إليّ. تعرف أين تجدني».

كنت غير راغب في الذهاب إلى أي مكان خارج القصبة. وودت الرحيل في ما مضى. وودت التجول في دروب مجهولة. لكن تلك كانت أحلاماً فارغة، رغبة خائرة في التحرر، فكرة عن أمرٍ لا يمكن أن يكون.

ما عادت عندي تلك الفكرة. قيدني هذا المكان بالمصيبة التي حلت بي. ثبتني هنا كأنه رمح اخترقني. ليس باقياً لدي غير أفكار قليلة وحركات قليلة وفرص قليلة. أجلس في الحديقة، في الشمس، أو في غرفتي أقرأ في كتاب، أو أسير على ضفة النهر عالماً أنني أتصرف بحكم العادة، من غيرما حماسة، من غيرما استمتاع بأي أمر أفعله وبأي أمر لا أفعله. لكني صرت، أكثر فأكثر، أضبط نفسي متلبساً بالارتياح في دفء الشمس، في قراءاتي، في تأملاتي في مياه النهر. صارت الحياة عادية. بل صارت أيضاً جميلة، وادعة. بدا لي أنني أنسى

حقاً؛ وعم الهدوء نفسي. ولكن، على غير انتظار، من غيرما سبب ظاهر، ومن غير أن تكون عندي أية أفكار قد تستدعي ذلك، تخترقني طعنة نارية مفاجئة كأنها ألم خفي يعذبني، كأنها تشنج. «ما هذا؟» أسأل نفسي وأتظاهر بأني فوجئت خشية الإقرار بمعرفتي ذلك الاضطراب الذي لا أريده، ثم أدفنه بأية توافه تكون في متناول يدي أو في متناول أفكاري.

لكني كنت أتوقع أمراً.

كنت في مزاج غير واضح، غير مستقر، كأني رجل لا هو مريض ولا هو معافى، رجل يقلقه ظهور أعراض مرضه واختفاؤها أكثر مما يقلقه استمرارها من غير انقطاع.

أخرجني الكرهُ من تلك الحال المؤلمة. أحياني الكره وثبّتني إذ توهج ذات يوم، توهج في لحظة واحدة. أقول إنه توهج لأنه كان حتى ذلك الوقت خبيئاً مثل جمرة مدفونة. اندلعت ألسنته في كل اتجاه، شديدة القوة، فأحرقت قلبي نارها. لا بد أن تلك النار كامنة في داخلي منذ زمن طويل. كنت أسير حاملاً إياها كأنها شرارة، كأنها حية سامة، كأنها ورم لم يبدأ انتشاره إلا عندها. لم أدر كيف ظل الكره مختبئاً إلى أن أتت تلك اللحظة، ولم أدر سبباً لهجوعه والتزامه الصمت، ولا حتى لظهوره في أحوال ما كانت أكثر مواتاة له من أحوال سبقتها. نضج كرهي في الصمت مثلما ينضج أي شعور آخر، ثم وُلد قوياً شديد العزم بعد أن طال انتظاره.

المفاجئ في الأمر أني وجدت التفكير في ظهوره هذا الظهور غير المتوقع أبداً أمراً لطيفاً، لكني أحسسته في نفسي قبل ذلك وتظاهرت بأني ما استطعت تمييزه. خشيت أن يزداد قوة، لكني ازددت قوة الآن من خلاله إذ حملته أمامي كأني حاملٌ ترساً، كأني حاملٌ سلاحاً أو مشعلاً، وسكرت به مثلما يسكر الناس بالحب. ظننت أني عرفت ما هو، لكن كل ما كان عندي حتى تلك اللحظة، كل ما ظننته كرهاً، ما كان أكثر من ظله الفارغ، ما كان أكثر من توقعي ظهوره. هذا الإحساس الذي طغى علي صار حياً في داخلي كأنه قوة مخيفة مظلمة.

سأروي كيف حدث ذلك، سأرويه بطيئاً، من غير استعجال. والحق أنه حدث مثلما يقع زلزال.

-١٢-

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ...﴾ - قرآن كريم

ذهبت مع حسن إلى الصائغ حجّي سنان الدين يوسف. بات يجرّني معه أينما ذهب؛ فحتى في ذلك الوقت، كنت عارفاً أننا صديقان وأني أحب أن أكون معه. ما عادت هذه حاجة إلى حماية، بل حاجة إلى قرب بشري من غير أية منفعة أخرى. صادفنا علي خوجا في سوق الحدادين، وكان مرتدياً ملابس قديمة بالية مع حذاء مهترئ وقبعة لبّادية بشعة على رأسه. لا أحب لقاء هذا الرجل، فعادة ما يكون لقاؤه مزعجاً. يختبئ خلف جنون مصطنع كي يستطيع قول كل ما يعنّ على باله. وهو فظ عندما يفعل هذا.

وجه سؤاله إلى حسن من غير أن ينظر إليه: «هل توافق على حديث لا نفع لك منه؟»

«نعم. في أي أمر نتحدث؟»

«نتحدث في لا شيء».

«يعني هذا أن نتحدث عن الناس».

«أنت تعرف كل شيء. هذا لأنه ما من شيء يهمك. طلبت اليوم يد أختك».

«ممن طلبت يدها؟»

«من والدها، القاضي».

«القاضي ليس والدها».

«إذاً، فهي عمتها».

«لا بأس. ماذا قلت لعمتها؟»

«قلت له: أعطني إياها كي تكون زوجتي. خسارة أن يضيع جمالها وشبابها من غير سبب. لن تتزوج أبداً إن بقيت معك مثلما هي الآن. وسوف آخذ منكم

مهرها، سآخذه معها لأنه ليس لكم. أتعهد بأن آخذ عنكم ألف سنة مما ستمضونه في جهنم كي يصير الأمر أكثر سهولة عليكم. قال لي: دعني وشأني، اذهب في سبيلك. أجبته: أنا ذاهب في سبيلي، فلماذا لا تتركها تفعل مثلي؟ هل تكرهها هذا الكره حقاً؟ ظننت أنك، دوناً عن الناس جميعاً، لا تكرهها. وأنت، أين أنت ذاهب؟»

«إلى الصائغ حجي سنان الدين يوسف».

«اذهب! أنا لست ذاهباً معك. لا أعلم كيف هو».

«ألا تعلم كيف هو حجي سنان الدين؟»

«لا، لا أعلم. إنه لا يفكر إلا في السجناء. يأخذ لهم طعاماً كل يوم جمعة. سيحل به الفقر بسببهم. يعطيهم كل شيء».

«هل هذا أمر سيئ؟»

«وماذا يفعل إذا لم يبقَ سجناء؟ لن يكون مسروراً. السجناء هوايته مثلما يكون الصيد أو الشرب هواية غيره. لكن، هل يجوز لأحد أن يجعل من مصائب البشر هواية له؟ قد يكون هذا جائزاً.. فأنا لم أفكر أبداً في هذا الأمر».

«أيكون أمراً قبيحاً جداً أن يعتاد المرء العمل الصالح؟»

«أينبغي أن يصير العمل الصالح عادة؟ إنه أمر يحدث، مثله مثل الحب. وعندما يحدث ينبغي أن يظل خبيئاً حتى نستطيع الاحتفاظ به.. تماماً مثلما تفعل أنت».

«ماذا أفعل؟»

«أنت تأخذ إلى حجي سنان الدين صدقات من أجل السجناء، لكنك تخفي الأمر. لقد وقع لك حبهم، لكن إظهار حبك يخجلك. هذا ما يجعلك تذهب إليه وحيداً».

«لست وحيداً. ألا تعرف الشيخ نور الدين؟»

«كيف أستطيع ألا أعرف الشيخ نور الدين؟ أين هو؟»

«إنه هنا، معي».

«معك؟ لست أراه. لماذا لا يقول شيئاً حتى أستطيع سماع صوته، على الأقل».

أجبته، «أنت غير راغب في رؤيتي، لكني لا أعرف سبباً لذلك. هل أنت غاضب مني؟»

قال علي خوجا محاولاً العثور عليّ إلى جانب حسن، لكن من غير جدوى، «هل رأيت؟ هو ليس هنا. لا أثر له. الشيخ نور الدين غير موجود».

تركنا من غير وداع.

ابتسم حسن ابتسامة مرتبكة. لا شك في أنه ارتبك بسببي.

«إنه قاسٍ على الناس».

«قاسٍ وحقود».

«رجل غريب».

«لماذا لم يرد رؤيتي».

«فعل هذا لأنه قال كلاماً ذا معنى. أراد أن يفعل شيئاً غبياً كي يموه الأمر».

لا، ذلك ما كان غباء، ولا تغابياً. لقد أراد شيئاً، اعتزم شيئاً. قال لا وجود للشيخ نور الدين. لعله قال ذلك لأني ما عدت مثلما كنت! أو لعله قاله لأني لم أردّ الضربة التي أصابتني!.. أو لأني لم أفعل ما ينبغي على الرجال فعله. لذا، فأنا غير موجود.

سألت حسناً: «ما رأيك فيه؟»

لم أبين له كم جرحني علي خوجا عندما لم يرد رؤيتي؛ ولم يتبادر إلى ذهني أن عدم نسياني إياه يكشفني. من حسن حظي أن حسناً أراد أن يعوضني عن الأمر لكنه فعل ذلك بطريقة غريبة. أدركت هذا لأنه راح يسرف في استخدام الكلمات، ولأنه كان يتكلم جاداً.

أجابني: «لست أدري! إنه منصف، صادق. لكنه يذهب إلى حدود قصوى. يقول إن هذا ناتج عن حماسته، وعن رذائله. لا يكتفي بالدفاع عن العدل، بل يحمله ويهاجم به أيضاً. ففي نظره، صار العدل سلاحاً، لا هدفاً. لعله غير مدرك أنه صار صوت بشرٍ كثيرين ممن يلزمون الصمت، فهو مستمتعٌ بالجرأة على فعل

ما لا يفعلون، بفعل ما لا يجرؤون عليه، مستمتعٌ بأن يأتيهم بكلماتهم التي لا يجهرون بها. يعتبرونه نسخة مشوهة من حاجتهم إلى الكلام، نسخةٌ ما كان ممكناً أن توجد إن هم جرؤوا على تلبية حاجتهم تلك. هو شخص طبيعي لا سبيل إلى تفاديه لأن له جذوراً هنا. وهو منفلت من عقاله، متطرف، لأنه وحده. هذا ما يجعله فظاً. هذا ما يجعله يبلغ حدوداً قصوى. لقد أقنع نفسه بأنه صار ضمير البلدة؛ وهو يدفع بفقره ثمن تلك المسرة. لعله يأتي أحياناً بشيء من النضارة، مثلما تفعل الريح، لكني لا أظنه يقدم إلى الصدق خدمة جليلة، ولا إلى العدل. ففي وجوده، يبدو الصدق والعدل مشوهين. يصيران أشبه بالثأر والرضا القاسي، لا بحاجة سامية يجدر بالناس أن يتطلعوا إليها ويجدر بهم أن يروموا تحقيقها. لقد صار عدو نفسه وصار ضد كل ما أراد. بل لعله تحذير أيضاً! لكنه ليس قدوة. إذا تصرفنا جميعاً وفكرنا مثلما يتصرف ويفكر، وإذا جهر كل منا بما يراه من نقائص لدى الآخرين، وكان فظاً في كلامه.. إذا هجم الواحد منا على كل من لا يعجبه، وإذا طالبنا الناس بأن يعيشوا مثلما نراه حسناً لهم، فسوف يصير العالم كله أكثر جنوناً مما هو الآن. القسوة باسم اللطف مخيفة، فهي تقيد أيدينا وأرجلنا؛ هي تقتلنا نفاقاً. القسوة القائمة على القوة أفضل منها لأننا ـ على أقل تقدير ـ نكون قادرين على كرهها. من هنا، أرانا نعزل أنفسنا قانعين بالمحافظة على أملنا».

لم أتساءل إن كان ما قاله حسن صحيحاً أو صادقاً. كنت عارفاً أنه في صفي، وأنه يحميني من هجمة ظالمة: كان قادراً على معرفة ما يزعجني؛ وكان قادراً على تهدئتي عن طريق السخرية أو الشدة أو دحض ما أقول (من غير استخدام أي أمر آخر) مثلما يحاول الآن تهدئتي بهذه التأملات المسهبة المكيفة تكييفاً رائعاً كي تلائم أذني. كان أثر كلامه مقنعاً لأنه ما كان إشفاقاً، ولأنه ترك لي الحق في إكمال الفكرة وفي الدفاع عن نفسي. مُهرجٌ خبيث! هكذا فكرت غاضباً في علي خوجا. كلب ضال، مسعور! يضع نفسه فوق العالم كله ويبصق على الجميع، على الصالحين وعلى الطالحين، على الآثمين وعلى الضحايا. ما الذي يستطيع رؤيته فيّ كي يحكم علي هكذا؟.. كي لا يراني؟

على أن غضبي ما كان طويل العمر، وما كان غضباً جاداً. لم ألبث أن نسيت أمر علي خوجا، لكن دفء كلمات حسن اللطيفة ظل باقياً في نفسي. بل إني ما عدت أفكر في ما قال لي: كنت عارفاً أنه كلام لطيف، وأنني راضٍ. لقد مد يده إلي من جديد، ودافع عني. كان هذا أهم كثيراً من النزوات الغبية عند ذلك الوغد الشرير علي خوجا.

بينما كان حسن يقصّ على حجي سنان الدين يوسف ما جرى في ذلك اللقاء، كنت مفكراً في أنه رجل صالح حريص على الآخرين، وفي أن الحظ أسعدني كثيراً بأن أعثر عليه. ضحك الاثنان. كانت ضحكة حجي سنان الدين ناعمة، لكن ضحكة حسن كانت عالية الصوت بانت معها أسنانه اللؤلؤية المستقيمة. تحدثا من غير أن يحاولا الظهور بمظهر الجد أو الذكاء، تحدثا منطلقين مثل الأطفال، مثل صديقين يستمتع كل منهما بصحبة الآخر.

بالغ حسن في تشويه ما قاله علي خوجا. قال إن علي خوجا لم يرد المجيء معنا لأنه يخشى حجي سنان الدين. رعاية السجناء مسرّة عند حجي سنان الدين، مثلها مثل الصيد، مثلها مثل القمار، مثلها مثل الحب. سيكون عالمٌ خالٍ من السجناء حزيناً في نظر حجي سنان الدين. فعلام يعتاش لطفه آنذاك؟ لا يستطيع العيش من غيرهم. وإذا اختفوا فسوف يصير تعساً، ضائعاً. سوف يتوسل إلى السلطات قائلاً: لا تدمروني، ضعوا أحداً في السجن. ماذا أفعل من غير سجناء. إن لم يكن في السجن أحد فسوف يقترح أن يعتقلوا أصدقاءه كي يتمكن من رعايتهم. ستكون هذه أفضل طريقة يبرهن بها على حبه إياهم.

«آمل ألا تتأخر، أنت أيضاً، عن إسداء هذا الجميل إلي». قال العجوز هذا ضاحكاً، مسايراً نكتة حسن، غير مهتم بما قال علي خوجا عنه. سرعان ما غيّر وجهة الحديث إلى حسن. سأله: «وماذا قال عنك؟ هل قال إنك قادر على الخير أم على الشر؟ يبدو لي أن هذا ما قاله، أليس كذلك؟»

«رجل مجنون من غير منفعة شخصية. لا أكون صالحاً إلا عندما أصير غير مسؤول. كأني ملاك خاطئ، عذراء فاسدة الخلق، مجرم شريف».

«بل أنت آثمٌ ذو عقل نبيل؛ هادئ سريع الغضب، عاقل عنيد. ذلك كله معاً. يصعب التعامل معك أيضاً».

«لا أظنك تقدَرني حق قدري».

قال العجوز مبتسماً ابتسامة عريضة: «لا، لا أقدرك حق قدرك». لكن عينيه قالتا، لا، لست أقدرك، بل أحبك.

كان كل ما في ذلك المتجر الصغير مرتباً هادئاً يسر النفس. نضارةٌ متصاعدة من الأرضية الخشبية التي ما تزال رطبة لأنها غُسلت قبل قليل. اندفع دفء الصيف الهادئ داخلاً عبر الإطار الحجري من حول الباب المفتوح. كان في وسع المرء أن يسمع نقر مطرقة خفيف كأنه في لعبة من ألعاب الأطفال، أو كأنه في حلم. ومن أمام عيني، كان شبه الظلمة في المتجر الحجري مائلاً إلى الاخضرار في ظل قمم أشجار كثيفة في الشارع وكأن ذلك انعكاس رائق على صفحة مياه عميقة. أحسست نفسي مرتاحاً، آمناً. بينما كان حسن يتكلم على علي خوجا، علمت أنه لن يقول عني شيئاً فلم يقلقني احتمال خيانةٍ أو زلة لسان. كانت السكينة تحل عليّ مثلما يحل غبار الطلع على الأرض، مثلما يحل ندى الصيف: سكينة هانئة لأني جالس مع هذين الرجلين. كانا شجرتين ظليلتين، نبعين صافيين. لعل الأمر كان خداعاً، أو أن ذكرياتي كانت تتحول إلى روائح، لكن ما بدا لي هو أني أشم حقاً عبيراً رقيقاً، أشم نضارة منبعثة منهما. لست أدري عبير أي شيء كان، عبير الصنوبر أم عشب الغابات أم نسيم الربيع أم صباح العيد أم عبير شيء نقي، شيء غالٍ.

لم أعهد منذ أمد بعيد ذلك النوع من السكينة الهادئة التي بثّها ذلك الاثنان في نفسي.

صفاؤهما اللامع، وصداقتهما من غير ادعاء أو كلمات منمقة، بهجتهما في كل ما يعرفه واحدهما عن الآخر، هذه أيضاً جعلتني أبتسم مثلهما (ابتسامة غير ذكية تماماً) ويستيقظ في نفسي خيرٌ مرجوٌّ هاجعٌ مثلما نحس عندما نرقب الأطفال. صرت شفافاً، خفيفاً من غير أي أثرٍ باقٍ من ذلك العبء الخبيث الذي ظل ضاغطاً عليّ حيناً طويلاً من الزمن.

«فلنزوّجك كي تستقر!». قالها العجوز برقة، مع شيء من العتب. كان واضحاً أنها ليست المرة الأولى التي يقول له فيها هذا الكلام.. «هيا، أيها الرجل الشرير!».

«ما يزال الوقت مبكراً بالنسبة إلي، يا حجي. بل إني لم أبلغ الخمسين بعد. لدي طرقات سفر كثيرة أمامي».

«ألم تشبع سفراً، أيها المتشرد؟! أبناؤنا يقفون معنا عندما نكون أقوياء، ثم يتركونا عندما نصير في حاجة إليهم».

«دع الأبناء وشأنهم. دعهم يمضون في سبيلهم!».

«هذا ما أفعله، أيها المتشرد! ألا يحق لي أن أكون آسفاً؟»

اختفت ابتسامتي بعد ذلك. كنت عالماً أن ابنه يعيش في القسطنطينية. لعل هذا ما جعله يبدأ رعاية المسجونين كي ينسى أساه لعجزه عن رؤية ابنه منذ سنين كثيرة جداً. لعل هذا ما قرّبه من حسن: يذكّره بابنه!

التفت إلي حسن وقال مقرّعاً العجوز تقريعاً مازحاً: «انظر إلى هذا الرجل! إنه حزين لأن ابنه أنهى الدراسة ولا يريد أن يجلس في هذا المكان كي يشتغل على ذهبٍ يملكه أشخاص آخرون. هو حزين لأن ابنه يعيش في القسطنطينية لا في هذه القصبة النائمة. حزين لأنه يكتب إليه رسائل ناطقة بالاحترام ولا يطلب منه مالاً كي يبدده في القمار أو كي ينفقه على النساء. قل له، يا شيخ نور الدين.. قل له ألا يظل مصراً على حماقته هذه».

اختفت مشاعري الرقيقة اختفاء مفاجئاً. كان ممكناً أن تذكّرني إجابة حجي سنان الدين بأبي وأخي، أن يذكرني ما كان ممكناً أن يجيب به بأن السعادة في عالم آخر موضع شبهة، وبأن الحب أهم من كل شيء، وبأن الدفء موجود بين أولئك الذين هم مستعدون لأن يهبوك دمهم. لقد كلمني حسن أول مرة منذ بداية هذا الحديث، كلمني من غير سبب، كلمني بدافع من اللياقة كي لا أظل متروكاً وحدي.. ذكرني هذا بأني فائض عن الحاجة هناك، وبأن هذين الاثنين مكتفٍ كل منهما بالآخر.

قبل لحظة من ذلك، كنت واثقاً من أن حسناً لن يشير إلى ما أنزله علي خوجا بيّ من ظلم. كنت عارفاً أنه سيحميني. لكني أدركت الآن أنه لا مكان لي في

حديثهما. جعلتني انتباهه المتأخر إلى وجودي معهما أصحو من غفلتي فأفسد كل شيء.

وجدت مشقة في تجريد نفسي من المسرة التي ملأتني، من تلك الذكرى الجميلة التي أفضل الاحتفاظ بها؛ لكني ما استطعت كبت شكوكي. كان قد كرر كلمات علي خوجا التي قالها عنه وعن حجي سنان الدين وجعلها تبدو أسوأ حتى مما كانت في حقيقة الأمر. لكنه أغفل ذكر الكلمات التي قيلت في حقي! هل كان هذا بدافع من اللياقة فقط؟

لماذا لم يقل شيئاً؟ ومم أراد أن يحميني إن كان يظن حقاً أن ما قيل ليس إلا كلمات غبية؟ لم يحسبها كلمات غبية؛ وهذا ما جعله يصمت عنها. كان مدركاً تماما الإدراك ما جعل علي خوجا غير راغب في رؤيتي. ما عدت موجوداً بالنسبة إلى علي خوجا، ولا بالنسبة إلى القصبة. لقد قال عني: لا أثر له هنا. ما عاد موجوداً. الشيخ نور الدين ما عاد موجوداً. كرامته البشرية ماتت. وما بقي منه شيء غير غلاف فارغ، غلاف الرجل الذي كانه.

إن كان حسن لا يفكر هكذا، فلماذا لم يستطع جعل الأمر موضوعاً لمزاحه مثلما جعل كل أمر آخر؟

أم.. لعله أراد حماية حساسيتي الشديدة! إن كان هذا صحيحاً، فهو يعني أني مختلف عن غيري. وهذا مؤلم أيضاً.

بينما رحت أحاول تحرير نفسي من الحلقة المحكمة الضاغطة على قلبي غير منتبهٍ إلى ما يقوله الاثنان اللذان معي، رأيت رجلاً ماراً في الشارع فتغيرت أفكاري كلها تغيراً مفاجئاً بسبب من ذلك الرجل. نسيت ازدراء علي خوجا وصمت حسن غير المفسَّر، صمته عن كل شيء. لقد مر إسحاق الهارب بالمتجر! كل ما رأيته كان له، هيأته، مشيته، خطواته المتوازنة، انتصابه الواثق، جرأته غير الهيّابة!

قلت شيئاً حتى أعتذر عن ذهابي المفاجئ، ثم جريت في الشارع.

لكني فقدت أثره؛ ما كان إسحاق هناك. انعطفت في شارع آخر باحثاً عنه. كيف دخل القصبة؟ كيف يسير في وضح النهار غير متنكر ولا مستعجل؟ كيف جرؤ على هذا؟ وماذا أراد؟

مر وجهه أمام عيني فرأيته من ظلمة المتجر، رأيته ساطعاً، واضحاً مثلما كان ليلة لقائنا في حديقة التكية. كان هو؛ صرت واثقاً من الأمر أكثر فأكثر. تعرفت على ملامحه كلها، الآن، عندما استعدتها في ذاكرتي: إنه إسحاق. بدأت السير خلفه من غير أن أتساءل عما يجعلني في حاجة إليه، أو عما يجعل رؤيتي إياه مهمة. مؤسف أن الناس لا يتركون خلفهم رائحة تميزهم مثلما يفعل الظربان! مؤسف أن أعيننا غير قادرة على أن تبصر ما وراء الجدران عندما تتفلّت رغائبنا من أيدينا. وددت أن أصيح باسمه، لكنه من غير اسم. لماذا ظهرت هنا، يا إسحاق؟ لم أدر إن كان هذا جيداً، أم غير جيد. لكنه كان محتوماً. لقد قال لي: سآتي ذات يوم؛ وهكذا أتى. اليوم هو ذلك اليوم. عادت الحياة إلي من جديد، عادت إلي كُلّي. عاد الأمل وعاد الكرب مثلما كانا من قبل. ظننته مات، وظننته قد تحلل. ظننته غار عميقاً في داخلي وصار بعيداً عن متناولي؛ لكنه ما مات وما غار. يا إسحاق.. أين أنت؟ هل أنت فكرة؟ هل أنت بذرة اضطرابي أم ثمرته؟ لقد رأيته تلك الليلة، في الحديقة؛ وقد رأيته قبل قليل. رأيته في الشارع. ما كان شبحاً. لكني عجزت عن العثور عليه.

عدت إلى المتجر مهزوماً.

نظر حسن في اتجاهي، لكنه لم يسأل شيئاً.

«ظننت أني رأيت شخصاً أعرفه».

من حسن حظي أنهما لم يستطيعا رؤية اضطرابي. كان واضحاً أنهما أنهيا كل ما بينهما من شؤون بينما كنت باحثاً عن إسحاق. عادا الآن إلى مواصلة حديثهما، حديث آخر بنبرة مختلفة وبكلمات مختلفة. لم أبال بهذا لأن صداقتهما صارت بغيضة في نظري. بدت لي كأنها شيء من قلة النضج، أو كأنها كذبة جميلة. وأما ما كان جارياً معي، فهو حقيقي. إنه أكثر أهمية، أكثر خطورة.

أغلقت نفسي عن العالم من جديد، ونما العشب فغطى الدرب المفضية إلى الناس، أخفاها في لحظة واحدة. فكرت في علي خوجا وفي إسحاق وفي نفسي. كنت منزعجاً، مغموماً.

ما كان الأمر مهماً عندي، لكني عدت إلى سماع حديثهما من غيرِ أن أفهم منه شيئاً.

قال حسن كأنه يرفض شيئاً: «لا، لن أفعل. لا وقت عندي لفعل هذا، ولا رغبة».

«ظننتك شجاعاً؟»

«متى قلت لك إني شجاع؟ لا جدوى من محاولة استفزازي. لا أريد أن أتورط في هذا. ومن الأفضل لك أيضاً ألا تتورط فيه».

قال العجوز بنبرة هادئة: «مزاج حار، ورأس يابسة.. شخص مستحيل».

لكن ذلك ما عاد حياً.

هكذا أفضل.. قلتها في نفسي خائر القلب مبرراً في لا وعيي انفصالي عنهما. هكذا أفضل، لا كلمات حلوة، ولا ابتسامات فارغة، ولا خداع. يكون كل شيء جميلاً عندما لا نطلب شيئاً؛ ومن الخطير أن نختبر أصدقاءنا. الناس مخلصون لأنفسهم فقط.

إذاً، فقد رحت أُلقي بالوحل على الآخرين وأُنفّس عن اضطرابي من غيرما مسرة أو ضغينة. بينما كنت كذلك، بدأ المتجر يظلم أكثر فأكثر، والظلال الزرقاء استحالت سواداً.

التفتُّ، كان المتسلم واقفاً بالباب الحجري.

قال له حجي سنان الدين من غير أن ينهض من جلسته: «ادخل».

نهض حسن بحركة بطيئة، نهض من غيرما استعجال، وأشار إليه بأن يجلس.

تنحيت جانباً. تنحيت من غير سبب على الإطلاق ففضحت قلقي. رأيته عن كثب، فكانت تلك أول مرة منذ موت هارون. لم أدر يومها كيف ستكون تلك المقابلة، ولم أدر الآن كيف ستكون. وقفت أرقبه غير مرتاح، أحوّل عيني من حسن إليه، من حجي سنان الدين إليه، من يدي إليه. كنت مضطرباً مذعوراً، لا منه، بل من نفسي، لأني لم أدر ما سيقع، لم أدر إن كانت ذاتي الجريحة سترمي بي عليه في أسوأ لحظة وبأسوأ الطرق، أو إن كان خوفي سيجعلني أبتسم له ابتسامة خضوع على الرغم من كل ما أحسست، ابتسامةً سأزدري نفسي بسببها طيلة ما

بقي من عمري. بدأت أفقد زمام نفسي. أحسست تقلصاً في أمعائي، وأحسست اندفاع الدم المؤلم في قلبي. أخذت علبة التبغ التي قدمها إلي حسن، ورفعت غطاءها قليلاً، ثم بدأت أجمع شعيرات التبغ الصفراء الرقيقة فتتساقط من بين أصابعي المرتعشة، تتساقط في حضني. أخذ حسن العلبة وملأ غليون التشيبوك ثم ناولني إياه. دخنت، وابتلعت الدخان الحاد، ابتلعته أول مرة في حياتي. أمسكتُ يدي بيدي الأخرى، حبستها وبقيت منتظراً أن يقول لي شيئاً، أن ينظر إلي. انتظرت وسال مني العرق غزيراً.

لم يلبِّ المتسلم دعوتهما إلى الجلوس. قال للحجي سنان الدين إن فكرة التعريج عليه كانت بنت اللحظة.. كان ماراً من هنا فتذكر أنه يريد أن يسأله عن أمر من الأمور. هدأ اندفاع الدم في عروقي، وصار تنفسي أكثر سهولة. رحت ألقي عليه نظرات مختَلسة. حسبته قد صار أكثر تجهماً مما كان، بل حتى أكثر قبحاً؛ لكني لم أدر إن كان قد تبادر إلى ذهني فيما مضى أنه متجهم أو قبيح.

قال إن هذا الأمر لا يعنيه، لكنه سمع أن حجي سنان الدين لن يدفع الـ»سفري. إمدادية»، أي ضريبة الحرب التي قررها أمرٌ سلطاني. وقد سمع أيضاً أن ثمة آخرين غير راغبين في الدفع. إذا تأخر رجال محترمون من أمثال حجي سنان الدين عن أداء الواجب، فماذا لنا أن ننتظر من الآخرين، من المبذرين ومن المعسرين الذين لا يبالون بالسلطنة ولا بالدين، بل هم مستعدون لترك كل شيء يصير خراباً إن ظلت قروشهم آمنة في خزائنهم؟ تمنى المتسلم أن يكون الأمر مصادفة، وأن يكون حجي سنان الدين قد نسي أداء الضريبة أو أهمل ذلك، وأن يسارع إلى أدائها في أقرب وقت ممكن، أو على الفور، وذلك حتى لا تنشأ مشكلات لا لزوم لها لأن أحداً لن يستفيد من ذلك.

أجابه حجي سنان الدين بصوت هادئ من غير خوف أو تحدٍّ بعد أن انتظر صابراً إلى أن قال المتسلم كل ما أراد قوله، «ما كانت تلك مصادفة. ما كانت تلك مصادفة. وأنا لم أنس أداء الضريبة، ولم أهمل أداءها. لست أريد دفع ما ليس مترتباً عليّ دفعه. التمرد الذي بوزافينا[1]°!.. هذا ليس حرباً. فلماذا يكون علينا

(1) بوزافينا: منطقة في شمال شرق البوسنة على ضفاف نهر سافا.

أن ندفع ضريبة الحرب؟ المرسوم السلطاني الذي أشرت إليه غير سارٍ في هذه الحالة. علينا أن ننتظر رد الباب العالي على الالتماس الذي أرسله الشطر الأكبر من الشخصيات البارزة هنا. ثم إن الجميع يفكر بالطريقة نفسها، وما من أحد متأثر بغيره. إذا جاء قرار سلطاني قاضٍ بجباية هذه الضريبة، فسوف ندفع من غير تأخير».

«ما يود حجي سنان الدين آغا قوله هو أن من الأفضل لنا جميعاً أن نطيع مشيئة السلطان. إذا دفعنا الآن، فسوف يكون هذا تصرفاً مبنياً على إرادتنا الحرة، خلافاً للقانون. الإرادة الحرة ومخالفة القانون يخلقان الشقاق والفوضى». قال حسن هذا متدخلاً في الحديث. تقدم فصار بين الرجلين. كان وجهه جاداً وذراعاه معقودتان على صدره. كان جاهزاً، بكل أدب، لأن يشرح للمتسلم تفاصيل الأمر كلها، إن لم يفهم.

لكن المتسلم ما كان من محبي المزاح، وما كان شخصاً يمكن أن يعترض طريقه هذا التدخل ظاهرُ السذاجة. من غير أن يظهر نفاذ صبر إزاء هذه المقاطعة، ومن غير أن يظهر غضباً إزاء هذه السخرية الواضحة التي كادت تبلغ حد الازدراء (لا يحتاج أي شخص في موقعه إلى التماس أسباب للغضب أو نفاذ الصبر)، نظر إلى حسن بعينيه الثقيلتين الجامدتين اللتين لا تستطيع زوجته نفسها القول إنهما لطيفتان، ثم التفت إلى حجي سنان الدين. قال له، «كيفما أردتم الأمر، فهذا لا يهمني. لكني أظن أن الدفع يكون أدنى تكلفة، بعض الأحيان».

«لا يهمني أن يكون أدنى تكلفة. ما يهمني أن يكون الأمر منصفاً».

«قد يكون الإنصاف باهظ التكلفة».

«الظلم باهظ التكلفة أيضاً».

تبادل الاثنان نظرة طويلة. ما كنت قادراً على رؤية تعبير وجه المتسلم لكني عرفت كيف هو. ابتسم له العجوز ابتسامة لطيفة نابعة من قلب طيب.

استدار المتسلم وخرج من المتجر.

أردت الخروج في أسرع وقت ممكن لأن الهواء الذي تنفسه سيخنقني؛ وسيدفعني إلى الجنون ما سيقوله هذان الاثنان ساخرين منه.

لكن هذين الاثنين يفاجئاني دائماً.

قال العجوز من غير حتى أن ينظر إلى المتسلم أثناء خروجه: «هل غيرت رأيك؟»

«لا».

«حسن لا يتراجع عن كلامه أبداً.. تماماً مثل السلطان. الظاهر أنني عاجز اليوم عن إنجاز أي أمر».

ضحك وكأن رفض حسن أسعده. قال كأنه ينهي الحديث بينهما «متى ستأتي مجدداً؟ لقد بدأت أكره التزاماتي والتزامات الآخرين أيضاً. تبعدني الالتزامات عن أصدقائي».

ولا كلمة واحدة عن المتسلم!.. كأنه ما كان في المتجر، بل كأن من دخل المكان كان متسولاً يطلب صدقة! لقد نسيا أمره، نسياه على الفور، نسياه لحظة اجتاز الباب.

حيرني الأمر. أي كبرياء هذا، لطيف، ذكي، نبيل.. يرفض كل ما يزدريه، بل يرفضه رفضاً تاماً! كم سنة ينبغي أن تنقضي، بل كم جيلاً، حتى يظهر رجل يعرف كيف يكبت رغبته في السخرية وفي التشفي وفي اللوم؟ لم ألاحظ أنهما يفعلان ذلك قصداً، أو أنهما يكبحان جماح نفسيهما. كان هذا كأنهما يمحوان الرجل، لا أكثر. وكانا كأنهما أهاناني، تقريباً. هل يمكن تجاهل هذا الرجل بهذه الطريقة؟ يستحق أكثر من هذا. يستحق أن يفكرا فيه. رجل يستحيل نسيانه، يستحيل محوه.

سألت حسناً عندما صرنا في الشارع، «كيف لم يقل أي منكما شيئاً عن المستلم بعد خروجه؟»

«ماذا كان ممكناً أن نقول عنه؟»

«لقد هدد حجي سنان الدين وأهانه».

«إنه قادر على تدميرك، لكنه لا يستطيع إهانتك. عليك أن تحذَرَه مثلما تحذر النار، مثلما تحذر أي خطر محتمل. هذا كل ما في الأمر».

«أنت تتكلم هذا لأنه لم يفعل لك شيئاً».

«ربما. وأنت.. كنت مضطرباً. هل أصابك الذعر؟ لقد أوقعت التبغ».

«ما كنت خائفاً».

نظر إلي؛ أظن أن نبرة صوتي فاجأته.

«ما كنت مذعوراً. لكني تذكرت كل شيء».

لقد تذكرت كل شيء. يعلم الله كم مرة تذكرت؛ لكن هذه المرة كانت مختلفة عن كل مرة قبلها. اضطربت عندما دخل؛ وعندما تكلم مع حجي سنان الدين، كنت غير قادر على ترتيب أفكاري أو على إيقاف أية فكرة منها. اندفعت الأفكار في دماغي، واختلطت وتضاربت وتقلبت وتدافعت، ومعها ذكريات محرقة وألم وغضب وجرح. استمر هذا إلى أن رشقني بتلك النظرة الباردة المركزة المثقلة بالترفع والازدراء: نظرة غير نظرته إليهما. ثم التقت أعيننا لحظة وجيزة مثل التقاء سكينين مشحوذين.. عندها، أظن أن الخوف قد استولى علي. كان الخوف قد ظهر قبل ذلك، ثم غمرني سريعاً مثلما يفيض نهرٌ من فوق ضفتيه فيبتلعهما.

مرت بي لحظات صعبة من قبل. في دخيلة نفسي، كنت في صدام مع أفكار متضاربة، وكنت أحاول تهدئة اندفاعات متعجلة بأن أناقشها مناقشة حذرة. لكني لم أدر، حتى تلك اللحظة، أني قد صرت ميدانَ معركة جارية بين رغبات متضادة كثيرة جداً. جماعات من رغبات غير متوقعة اندفعت كلها وحاولت أن تتفجر خارجةً فلم يكبتها شيء غير خوفي وجبني. صاح غضبي المجنون، لقد قتلتَ أخي وأهنتني ودمرتني. لكني علمت في الوقت نفسه أن رؤيته إياي مع هذين الشخصين تحديداً ليست أمراً حسناً، فهما يزدريانه ويقاومانه. وجدت نفسي، مصادفة ومن غير إرادة مني، في الناحية الأخرى. وجدت نفسي ضده؛ لكني كنت أفضل ألا يعلم هذا.

بدا لي أن هذا الخوف نفسه كان حاسماً. لقد أزاحه جانباً خجلي من نفسي، أسوأ وأخطر أنواع الخجل هي التي تلدُ شجاعةً. هدأ ما بيّ من كرب، وتراجع الاندفاع المجنون، وما عادت الأفكار تندفع اندفاعاً عاصفاً كأنها طيور محومة فوق حريق. كنت مدركاً فكرة واحدة فقط: بدأ صمتٌ مهدئ، صمت تغني الملائكة فيه. ملائكة الشر. مبتهجة.

كانت تلك اللحظة البهيجة في تحولي.

بعد ذلك، وكأن هذه النار الجديدة المنبعثة من داخلي قد أنارتني، صرت أنظر إلى رقبته الثخينة وكتفيه المحدودبتين قليلاً وجسده البدين. ما عدت مبالياً إن استدار صوبي؛ وما عدت مبالياً إن نظر إلي مبتسماً أو مزدرياً. ما عدت مبالياً لأنه صار لي. صرت في حاجة إليه: ربطت نفسي به، ربطتها بالكُره.

همست بكل مشاعري محوّلاً عيني عنه.. أكرهك! قلتها في نفسي وأنا أرقبه. أكره، أكره! كانت تلك الكلمتان كافتين بالنسبة إلي. وما كنت قادراً على الاكتفاء من تكرارهما. كان ذلك بهجة، بهجة طازجة فتية، بهجة وارفة مؤلمة مثلما يؤلم التوق إلى الحب. إنه هو ـ قلت هذا في نفسي ـ ولم أتركه يبتعد عني كثيراً. لم أسمح لنفسي أن أفقده: هو.. مثلما يفكر المرء في فتاة محبوبة. أتركه يبتعد أحياناً مثلما يترك الصياد طريدته تبتعد عنه كي يتتبع مسارها ثم يقترب منها مجدداً حتى تصير في مرمى عينيه. هدأ واستقر كل ما كان مفككاً، مضطرباً، مختلطاً في نفسي، كل ما كان باحثاً عن مخرج، عن مُتنفَسٍ، عن حل، هدأ واستجمع قواه التي كانت في زيادة مطردة.

لقد عثر قلبي على شيء يتمسك به: أكرهه!.. كنت أهمس لنفسي محموماً وأنا سائر في الشارع. أكرهه! كنت أفكر في هذا وأتلو كل دعاء أعرفه. أكرهه! كنت أقول هذا، بل أكاد أقوله مسموعاً كلما دخلت التكية.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي، كان كرهي مستيقظاً، رافعاً رأسه كأنه حية متكورة على نفسها في تلافيف دماغي.

لن نفترق بعد الآن. استولى الأمر علي، واستوليت عليه. اكتسبت الحياة معنى.

سررت أول الأمر بهذه الحال المحوّمة، الحالمة بعض الشيء، حالٍ تشبه أول لحظات الحمى. ما كنت في حاجة إلا إلى ذلك الحب الأسود المخيف. كان حباً يكاد يشبه السعادة.

صرت أكثر غنى، أكثر وضوحاً، أكثر كرماً، أفضل حالاً، بل صرت أذكى من ذي قبل. عاد العالم المتفكك فاستقر في مكانه، وأصلحتُ علاقتي بكل شيء،

أصلحتها من جديد. حررت نفسي من ذلك الذعر المظلم، ذعر انعدام معنى الحياة. صرت قادراً على تبيّن النظام المرغوب ماثلاً أمامي.

عودي إليّ يا ذكريات الطفولة العاطفية. عُد إليّ يا عجزي اللزج. عد، يا ذعر السخف والفشل. ما عدت ذلك الخروف المسلوخ الملقى به في أجمة شائكة. ما عادت أفكاري تتلمس طريقها في الظلام تلمساً أعمى. صار قلبي مرجلاً حاراً يغلي في جوفه سائل مُسكر.

صرت أنظر إلى كل شيء مباشرة، أنظر في عينيه، هادئاً، غير مراوغ، غير هيّاب. صرت أذهب إلى كل مكان قد يقع أن أرى المتسلم فيه، أو أن أرى أعلى عمامته، على الأقل. صرت أنتظر القاضي في الطريق وأسير خلفه ناظراً إلى ظهره المحدودب الضيق، ثم أسير وحدي، بطيئاً وقد استنفدتني حماستي الدفينة. إن كانت للكره رائحة، فأظنني كنت أترك رائحة دم من خلفي. لو كان له لون، لكانت آثار أقدامي سوداء. لو كان قابلاً للاشتعال، لانبعث اللهيب من كل فتحة في جسدي.

علمتُ كيف وُلد الكره، ثم كبُر وصار أقوى فما عاد إلى حاجة إلى سبب؛ ما عاد في حاجة إلى سبب أبداً. صار سببَ نفسه، وصار غاية نفسه. لكني ما أردت له أن ينسى أصوله كي لا يفقد قوته وحرارته أو يهمل أمر أولئك الذين كان مديناً لهم بكل شيء. إن حدث هذا، فسوف يصير كرهي كرهَ الجميع. عليه أن يظل وفياً لهم.

ذهبت مجدداً إلى عبد الله أفندي، شيخ التكية البيرمية، وسألته أن يساعدني في العثور على قبر أخي. قلت متواضعاً إني قصدته لأني لا أجرؤ على الذهاب بنفسي وسؤال من يمتلكون سلطة إظهار الرأفة أو عدم إظهارها. سوف يرفضون طلبي. عندها، ستكون الأبواب كلها قد أُغلقت في وجهي. لهذا، كان لا بد لي من إرسال آخرين بدلاً مني؛ ولسوف أرعى آمالي إلى أن أبلغ ما أريد. أتيت إليه أولاً لأن لي ثقة بصلاحه؛ وسوف أختبئ من خلف سمعته لأن سمعتي ما عادت عطرة. يعلم الله وحده أنّ هذا ما كان نتيجة خطأ ارتكبته. سأكون معترفاً بجميله لأنني أريد أن أدفن أخي مثلما أمرنا الله كي تهدأ روحه.

لم يرفض طلبي. ولكن، بدا له أن مصيبتي قد جعلتني أقل علماً. قال لي «لقد هدأت روحه. ما عادت الآن روحَ بشريّ فانٍ. انتقلت روحه إلى عالم آخر حيث لا حزن ولا اضطراب ولا كره».

«لكن روحي ما تزال بشرية».

«هل تفعل هذا من أجل نفسك؟»

«أفعله من أجل نفسي أيضاً».

«هل أنت حزين أو كاره؟ احذر الكره حتى لا تأثم في حق نفسك وفي حق الآخرين. واحذر شدة الحزن حتى لا تأثم في حق الله».

«أحزنُ بقدر ما يحزن البشر. وأنا محترس من الإثم، يا شيخ عبد الله. أنا متكل على الله؛ ومتكل عليك».

كنت مضطراً إلى الإصغاء هادئاً إلى ما يقول، وإلى إظهار اعتمادي عليه حتى أفوز بعطفه. من الممكن حتى أن يصير الناس كراماً علينا عندما يخالون أنفسهم أسمى منا.

ما كانت لدي قوة كافية لأن يصير لي حق في نفاذ الصبر. وما كنت ضعيفاً إلى حد يكون لي معه سبب لأن أستشيط غضباً. كنت أستفيد من الآخرين تاركاً إياهم يرون أنفسهم أكثر سمواً. فلماذا أكون قليل العقل إن كان لديّ ما يثبتني ويهديني؟ لقد ساعدَني: سمحوا لي بدخول الحصن والبحث عن القبر. ذهب حسن معي. أخذنا معنا خدماً ومجارف وتابوتاً فارغاً.

أخذنا إلى مقبرة الحصن حارس، أو خادم، أو حفار قبور: تصعب معرفة ما كانه ذلك الرجل الصامت الذي لم يألف الكلام ولم يألف النظر في عيون الناس. كان فيه فضول وجِلٌ وخضوع غاضب كأنه دائم التمزق بين الرغبة في مساعدتنا وبين الرغبة في طردنا من ذلك المكان.

أومأ برأسه صوب أرض خالية فوق الحصن. قال: «ها هي». كانت في تلك الأرض مساحات من تربة عارية وقبور تشبه جروحاً غائرة نمت عليها أعشاب وأشواك.

«هل تعرف مكان القبر؟»

رمقنا بنظرة ماكرة وما قال شيئاً. كان ممكناً لتلك النظرة أن تعني: «بالطبع! أنا من دفنه!». وكان ممكناً أن تعني: «كيف لي أن أعرف هذا؟ انظر كثرة القبور هنا من غير أسماء ولا علامات».

سار بين القبور المبعثرة من غير انتظام. كانت قبوراً محفورة على عجل من غير احترام للموتى، كأنها حُفرٌ لخزن البطاطس في الشتاء. كان يقف فوق واحد من القبور وينظر لحظة إلى الأرض الغائرة، ثم يهز رأسه ويقول: «هذا نقولا. قاطع طريق»، أو «إنه بكر، ابن ماشاس».

وكان يلزم الصمت فوق قبور أخرى.

«أين هارون؟»

«هنا».

سرت وحيداً بين تلك الحفر الممتلئة، سرت باحثاً عن أخي الذي مات. قد ينبئني انفعالي بمكان قبره، أو ينبئني حزني.. قد تنبئني إشارة. قد ينبهني جيشانُ دمي، أو دموعي، أو رعدة تسري في جسدي، أو صوت غريب.. فلعلنا لا نكون دائماً أسرى حواسنا الخمس وحدها! ألا يستطيع سر اللحم والدم أن ينطق ويقول؟

ناديت من غير صوت «يا هارون!» وانتظرت الإجابة من داخل نفسي. لكني ما تلقيت إجابة ولا إشارة، لا شيء أبداً، لا انفعال، ولا حتى حزن. كنت كأني من صلصال؛ وظل اللغز أبكماً. لم يأتني شيء غير أسى مر، أو سلامٌ ما كان سلامي، أو معنى بعيد، معنى أكثر أهمية من كل ما يعرفه الأحياء.

سرت وحيداً بين القبور فنسيت كرهي.

عدت إلى نفسي عندما انضممت إلى الرجال من جديد. كانوا واقفين فوق واحدة من الحفر، حفرة مثلها مثل بقية الحفر كلها.

سأله حسن: «أهذا هو؟ هل أنت واثق من هذا؟»

«كلها سواء عندي. خذ ما تريد. لكن، هذا هو».

«كيف عرفت؟»

«أعرف. لقد دُفن في قبر قديم».

بالفعل، وجد الخدم عظام شخصين، مجموعتين من العظام وضعوا واحدة منها في التابوت وغطوها بالكفن ثم سرنا نازلين ذلك المنحدر.

رُفاتَ من أخذتُ؟ تساءلت في نفسي مذعوراً. قاتل، مجرم، ضحية؟ هذه العظام التي أقلقنا راحتها، عظام من؟ موتى كثيرون في هذا المكان؛ وهارون ليس الوحيد الذي دُفن في قبر شخص آخر!

سرنا خلف الخدم الذين حملوا التابوت على أكتافهم وفيه عظام واحد من الناس من تحت القماش الأخضر.

مسّ حسن مرفقي كأنه يوقظني من النوم.

قال لي: «اهدأ».

«لماذا؟»

«شكل وجهك غريب جداً».

«أهو حزين؟»

«ليته كان حزيناً».

«منذ لحظات فقط، في المقبرة، انتظرت عبثاً أن تأتيني إشارة تدلني على موضع قبر هارون».

«أنت تطلب من نفسك الكثير. يكفيك أنك حزين عليه».

لم أفهم حتى الآن ما أراد حسن قوله؛ لكني لم أجرؤ على سؤاله. خشيت أن يدرك ما كان جارياً في داخلي. لم يحاول إعادتي إلى الحزن من غير سبب.

كان الناس يقتربون منا عند البازار وفي الشوارع. بدأت أحس مزيداً ومزيداً من الأقدام السائرة خلفنا. صار وقع خطاهم أعلى صوتاً؛ وصار ذلك الحاجز البشري أكثر كثافة. ما توقعت ظهورهم بهذه الأعداد كلها. لقد فعلت هذا من أجل نفسي، لا من أجلهم؛ لكن ما كان لي بدأ يؤخذ مني ويصير لهم. لم ألتفت كي أنظر إليهم، لكني أحسست في غمرة انفعالي أن الجمع يحملني معه، ويسير بي مثلما تفعل موجة. كبرت مع هذا الحشد وصرت أكثر قوة، أكثر أهمية. كان كأنه أنا، كأنه ذاتي وقد كبرت، تضخمت. كانوا حزانى، ناقمين، كارهين.. بحضورهم الصامت.

كانت هذه الجنازة تبريراً لكرهي؛ وكانت تبرئة له.

قال لي حسن شيئاً؛ قاله بصوت خافت.

«ماذا قلت؟»

«لا تتكلم. لا تقل شيئاً عند القبر».

هززت رأسي. لن أتكلم. كان الأمر مختلفاً آنذاك، في المسجد. لقد تبعوني وساروا خلفي عندما عدت من بوابات الموت؛ وما عرفنا ـ لا أنا ولا هم ـ ما كان منتظراً أن يقع. صرنا الآن عارفين. ما كانوا يتوقعون أن يسمعوا كلماتٍ مني، أو أن يسمعوا إدانة: نضج فيهم شيء لا أعلمه، وصاروا عارفين كل شيء. كان أمراً حسناً أنني فعلت هذا. لن ندفن هذا الذي كان رجلاً كي نؤكد على براءته، بل سنفعل أكثر من هذا: سوف نبذر عظامه في الأرض فتكون تذكاراً للعدل. وسوف ينمو منها أي شيء، أي شيء تقرره مشيئة الله.

هكذا صار كرهي أشد وأكثر عمقاً. صار أكثر نبلاً.

وضع الخدم التابوت أمام المسجد؛ وضعوه على الدكة ومن فوقه قماش أخضر. توضأت، ثم وقفت أمام النعش وبدأت أصلي. ثم سألت، لا بدافع من واجب مثلما فعلت دائماً من قبل، بل متحدياً، منتصراً:

«أخبروني، أيها الناس، أي رجل كان هذا الميت؟»

أجابني مئة صوت: «رجل صالح».

«هل تسامحونه وتعفون عن أخطائه كلها؟»

«نسامحه».

«هل تشهدون له أمام الله؟»

«نشهد له».

ما من شهادة من أجل إنسان ميت قبل رحلته الأبدية كانت أشد من هذه الشهادة صدقاً أو تحدياً. كان ممكناً أن أعيد عليهم السؤال عشر مرات فيجيبون كل مرة بصوت أعلى فأعلى. كان ممكناً أن تصير أصواتهم صراخاً مهدداً، عنيفاً، مزبداً.

ثم حملوا الجثة التي ماتت منذ عهد بعيد، حملوها على أكتافهم وصاروا ينقلون النعش من كتف إلى كتف قائمين بواجب الميت، قائمين بواجبه كُرمى للعمل الصالح وكرمى للغضب.

دفنّاه عند جدار التكية حيث يبدأ الشارع الذاهب إلى القصبة. دفناه هناك حتى يكون بيني وبين الناس، حتى يكون درعاً وتحذيراً.

لم أنس أن المسلمين كانوا، في وقت من الأوقات، يدفنون الموتى في قبور جماعية كي يكونوا متساوين في الموت أيضاً. بدأ الفصل بينهم عندما صاروا غير متساوين في الحياة. وأنا أيضاً، وضعت أخي وحده حتى لا يختلط ببقية البشر. مات لأنه قاوم؛ فلأدعه يقاوم في موته!

من بعد ذلك سار الناس مبتعدين بعد أن حمل كل واحد منهم حفنة تراب ورماها في القبر. ثم بقيت وحدي. ركعت عند كومة التراب التي صارت مستَقراً أبدياً، صارت ذكرى من هارون.

همست مخاطباً ذلك المستَقر المصنوع من تراب، تلك الرابية الحارسة «يا هارون! هارون، يا أخي! صرنا الآن أكثر من شقيقين، فأنت من ولدني مثلما أنا الآن. ولدتني كي أتذكر؛ وقد وُلدتَ من خلالي واصطُفيتَ كي تصير علامة هنا. سوف تلاقيني في الصباح وفي المساء، كل يوم. وسوف أفكر فيك أكثر مما فكرت عندما كنت حياً. فلينس الجميع لأن ذاكرة البشر قصيرة. أنا لن أنسى. لن أنساك ولن أنساهم. أقسم بهذا العالم وبالعالم الآخر، يا أخي هارون.

كان علي خوجا منتظراً إياي في الشارع. وقف منتظراً إياي احتراماً منه لحديثي مع ظل الرجل الذي مات. كنت أفضل ألا ألتقيه الآن خاصة، فأنا حزين مضطرب بعد الجنازة. لكني ما استطعت تفادي اللقاء. شاء حُسنُ حظي أن يكون الرجل جاداً، وأن يكون طيباً على الرغم من غرابته الدائمة. عزّاني ودعا لي بالصبر؛ دعا بالصبر لي وللناس، بالصبر على الخسارة التي كانت خسارة للجميع مع أنها كانت كسباً لأن الموتى يمكن أن يكونوا أكثر فائدة من الأحياء. نحن في حاجة إليهم هكذا، بتلك الطريقة: لا يشيخون، ولا يتقاتلون، وما من آراء عندهم فهم يوافقون صامتين على أن يكونوا تعبيراً عن قلقنا ومخاوفنا، ولن تبدر منهم أية خيانة إلى أن يتم استدعاؤهم تحت راية أخرى.

سألته «هل تستطيع رؤيتي الآن؟ هل تعرفني؟»

«أراك وأعرف من أنت. من الذي لا يعرف الشيخ نور الدين؟»

إنه لا يزدريني الآن. ما عدت بالنسبة إليه هواءً فحسب.

أية آمال يعلقها عليّ الآن بعد أن أقرّ بأنّي موجود؟ دفع حسن والصائغ سنان الدين مالاً من أجل تشييد نصب تذكاري من الحجر فوق القبر، فضلاً عن سياج معدني جميل من حوله.

كنت في طريق العودة بعد صلاة العشاء في أول يوم جمعة بعد الجنازة فرأيت شمعة مضيئة في الظلام فوق قبر هارون. رأيت شخصاً واقفاً على مقربة منها. اقتربت فعرفته: إنه الملا يوسف. كان يصلي.

«هل أنت من أشعل هذه الشمعة؟»

«لا. كانت هنا قبل مجيئي».

يدا واحد من الناس وضعتا الشمعة هناك وأشعلتاها من أجل ذكرى أخي القتيل.. من أجل راحة نفسه.

منذ ذلك اليوم، صارت تظهر كل مساء جمعة شموع موقدة فوق ذلك الضريح.

أتوقف في الظلمة وأنظر إلى تلك الأنوار الصغيرة المرتعشة، أنظر إليها مبتهجاً. كانت تثير تأثري أول الأمر، لكني صرت الآن فخوراً بها. ها هو أخي السابق؛ وها هي روحه الطاهرة مشعة بنورها عبر تلك الشموع. ها هو ظله يستحث بشراً غرباء كي يوقدوا هذه النيران الصغيرة الرقيقة إحياءً لذكراه.

صار محبوبَ القصبة بعد موته. وأما في حياته، فما كان أحد من الناس يعرفه، إلا قليلاً.

كان عندي ذكرى دامية. وفي حياته، ما كان إلا أخي.

-١٣-

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ـ قرآن كريم

وفائي لأخي الميت أعاد إليّ صداقة حسن. لعل غايةً خفية كانت من خلف كلماته وأفعاله، رغبةً في منعي من مواصلة السير في درب ظن أني اتخذتها! أو لعلي مخطئ في هذا! ولعل شدة حساسيتي رأت ما لا وجود له! لكن، ومهما يكن ذلك، فما كان عندي أي شك في صداقته.

وما كان ممكناً أن يكون عنده شك في صداقتي. بدأت أحبه. علمت هذا لأني صرت غير قادر على الاستغناء عنه، ولأني ما عدت ألومه على أي شيء مما يفعل أو يقول، ولأن كل ما هو متصل به صار مهماً عندي. لعل الحب هو الأمر الوحيد في العالم الذي لا حاجة به إلى تفسير ولا لزوم لاكتشاف أسبابه! لكني سأحاول فعل ذلك حتى إن كانت الغاية من ذلك مقتصرة على تكرار ذكر اسم الرجل الذي أدخل إلى حياتي هذا القدر كله من السعادة.

ربطت نفسي به (كلمة جيدة: ربطت! مثلما يربطون سفينة إلى صخرة عندما تهب عاصفة) لأنه وُلد كي يكون صديق الناس، ولأنه اختارني من بين الناس جميعاً. في مرات كثيرة متكررة، أحس فرحاً وبهجة لأن لدي هذا الصديق، هذا الرجل الذي كان يبدو عليه الانفلات من كل قيد، الذي كان يبدو عليه ازدراء كل شيء.

لطالما فكرت في أن الصديق شخص في حاجة إلى شخص آخر يلجأ إليه، نصف يبحث عن نصفه الآخر: شخص غير واثق، فاتر الهمة، مضجر بالضرورة (وإن يكن عزيزاً غالياً) لأن صحبته تصير شيئاً بائتاً، فاقداً نضارته، مثلما يحس المرء زوجته. لكن حسناً كان شخصاً مكتملاً، نضراً دائماً، متجدداً دائماً، ذكياً،

جريئاً، دائب الحركة، واثقاً في كل أمر يفعله. ما كنت قادراً على أن أضيف إليه شيئاً أو أن أُنقص منه شيئاً. كان هو نفسه، بي ومن غيري؛ وما كان محتاجاً إلي. مع هذا، ما أحسست نفسي أقل منه. سألته مرة كيف خصّني بصداقته دوناً عن الناس جميعاً. قال لي إن الصداقة ليست اختياراً بل هي شيء يحدث ولا يعلم سببه أحد.. مثلها مثل الحب. ثم إني لم أختصك بشيء، بل اختصصت نفسي. أحترم الرجل الذي يظل شهماً، حتى في المصيبة.

كنت ممتناً له على هذا القول؛ وكنت موقناً من أنه صحيح.

لكن صداقته كانت ثمينة أيضاً نتيجة الكره الذي لم يفتأ يتنامى في داخلي. لست أدري.. أنا واثقٌ من أنه كان قادراً على العيش وحده، لكن العيش هكذا أفضل. كان جانبٌ مني أسود اللون، والجانب الآخر أبيض. هكذا كنت، هكذا كنت منقسماً، لكني بقيت وحدة واحدة تامة.

الحب والكره الذين في نفسي ما امتزجا قط ولا أزعج أيٌّ منهما رفيقه. ما كان أي منهما قادراً على قتل الآخر. وما كنت قادراً على الاستمرار من غير الاثنين معاً.

دخلتُ حياة حسن بحق الصداقة، ولأنه تركني أدخلها. لكن، إن كنت قد رجوت ـ أو خشيت ـ أن يصير كل ما فيه واضحاً لي، مألوفاً عندي، فقد كنت مخطئاً. لا لأنه يمكن أن يُخفي عن شيئاً، بل لأنه بئر عميقة تلفها الظلال، بئر لا تسهل رؤية قعرها. لا أقول هذا لأنه يصح عليه وحده، بل لأن تلك هي حال الناس عامة: نصير على معرفة بهم فنجد أنهم لا يُسبر لهم غور.. كلهم.

أخذ والدَه إلى بيته. غسل جسده بعناية كانت غريبة بعض الشيء، غسله مبتهجاً، خليّ البال، كأنه ما كان شديد القلق جراء مرض العجوز ووهنه. عامله كأنه سليم معافى. حكى له عن كل شيء، عن البازار والناس وشؤون العمل والزيجات، بل حتى عن الفتيات اللواتي تصرن أجمل مظهراً مع كل سنة تمر، وربما كان السبب الوحيد في ذلك هو أنه يكبر، لكن، إن كان هذا صحيحاً، فمن المؤسف ألا يكون أبوه قادراً على رؤيتهن لأنهن صرن في نظره أشبه بحوريات الجنة. تظاهر العجوز بالتجهم والعبوس، لكن رضاه كان واضحاً. لقد سئم بقاءَه

متروكاً وحده مع مرضه، سئم الاستعداد للموت. قال غاضباً، ولعله كان ساعتها مفكراً في البيت المظلم الضخم الذي ظل راقداً فيه زمناً طويلاً: «أمام الأطفال وكبار السن، لا يقول الناس إلا أموراً غبية! وحدهُ ابني العنيد هذا يعاملني مثلما يعامَل الرجال؟ هذا لأنه لا يحترمني، والحمد لله».

ضحك حسن وأجابه بطريقته نفسها كأن أمامه صديق من أصدقائه أو رجل معافى. قال له، «منذ متى تراني لا أحترمك؟»

«أنت على هذه الحال منذ زمن طويل».

«أتعني أنني هكذا منذ تركت القسطنطينية وأتيت؟ منذ أن صرت متشرداً وتاجر مواشٍ؟ أنت تظلمني، يا أبي! أنا رجل بسيط الشأن، عادي العقل، متواضع القدرات. لا يمكن أن يسمع الأطفال في المدارس شيئاً عني».

«أنت أقدر من كثيرين ممن يحتلون مناصب رفيعة».

«هذا ليس صعباً، يا أبي! أغبياء كثر يحتلون المناصب الرفيعة. ثم، ماذا أفعل بمنصب من تلك المناصب؟ وماذا يستفيد المنصب مني؟ أنا راضٍ هكذا. لكن، دعنا من هذا الحديث. لم نفلح يوماً في الوصول به إلى نهايته. دعني أسألك نصيحة. أنا مضطراً إلى التعامل مع رجل مزعج، غشاش، غبي، كاذب، جلف. ينظر إلي متعالياً؛ وأستطيع القول إنه يزدريني. يكاد يتوقع مني أن أقبّل نعاله. لا يكفيه بقائي صامتاً عن غبائه وكذبه، بل يغضب مني لأني لا أقول له إنه ذكي صادق. أسوأ من هذا كله، اقتناعه فعلاً بأنه ذكي، وبأنه صادق. قل لي، من فضلك، ماذا أفعل؟»

«ولماذا تسألني؟ قل له أن يذهب إلى الجحيم. هذا ما ينبغي أن تفعله».

قال حسن ضاحكاً «يا أبي.. قلت له أن يذهب إلى الجحيم. قلت له هذا عندما كنت في القسطنطينية. ثم أتيت كي أصير تاجر ماشية هنا».

كان كل منهما يحب الآخر ويُظهرُ له عاطفة غريبة متقلبة.. لكن ذلك كان حباً رقيقاً حقاً كأنهما أرادا تعويض الزمن الذي فرقّهما فيه عنادهما الشديد.

طالب العجوز ابنه بأن يتزوج (سخر حسن منه قائلاً: «لا أستطيع الزواج إلى أن تتزوج أنت»). وطالبه بأن يترك تجارة الماشية وتلك الأسفار الطويلة. طالبه

بألا يتركه. بل إنه حاول خداعه أيضاً فزعم أنه في مرضٍ شديد وأن ساعته الأخيرة قد تأتي عما قريب، وأن مواجهة الموت ستكون أهون عليه إذا كان لحمه ودمه إلى جانبه لأن روحه ستفارق الجسد من غير صعوبة. أجابه حسن، «من يدري من منا يرحل أولاً؟». لكنه وافق على التضحية التي يقتضيها الحب. بطبيعة الحال، وافق من غير حماسة.. فيما يتصل بالسفر خصوصاً. كان الوقت خريفاً، موسم السفر؛ وكان قد ألف السفر مثلما تألفه اللقالق. طارت أسراب السنونو مرتحلة صوب الجنوب. سرعان ما يظهر الإوز البري محلقاً في الأعالي، طائراً في مساراته؛ وسوف ينظر حسن إلى السماء، إلى تشكيلات الطيور تلك، ويتخيل المسرات الغريبة في تجواله. لقد حرمه هذا الحبُّ حبَّه الآخر.

شهد البيت تغيرات مهمة. صار فضيل، معاون حسن ذو البنية المتينة، زوج زينة الجميلة ذات العينين السوداوين (عشيقة المعاون الشاب)، ممرضَ العجوز المخلص. اتضح أن يديه الضخمتين قادرتان على أداء أرق الحركات وعلى بذل أحسن اهتمام. صار حسن يترك مبالغ مالية صغيرة في غرفة والده لأنه يعرف ذلك الرجل، ولأنه خشي أن يضعف تفانيه.

أنهى حسن علاقة الحب الخطيرة. أنهاها نهاية حاسمة. انهارت قوتها الظاهرية بسهولة بعيدة كل البعد عما كان متوقعاً. سقطت حصونها القوية أمام المال، أما خائن الحب الأبدي.

ما إنَ تعافى والد حسن إلى حد جعله يرى الموت غير شديد القرب منه حتى تراجع عن موافقته على التنازل عن أرضه كلها لصالح الوقف. لكن الوقف ظل كبيراً على الرغم من ذلك. وكان على حسن وأبيه أن يعثرا على من يساعد القيّم على ذلك الوقف (وافق كاتب في المحكمة، صادق ذو عقل منطقي، على أن يصير قيّماً على الوقف: عصفور في اليد أفضل من عصفورين على شجرة القاضي!، عندها، صار واضحاً لي كيف علم حسن بنبأ هارون وما أصابه). دعا حسن معاونَه الأصغر سناً إلى غرفته وعرض عليه تلك الوظيفة المحترمة ذات الدخل الجيد شريطة ألا يأتي إلى بيته بعد ذلك أبداً، إلا إذا أتى في حاجةٍ كي يراه وحده، وشريطة ألا يلتقي زينة بعد ذلك أبداً.. إلا إذا صادفها في طريقه من غير

كلام بينهما. إذا وافق وحفظ هذا العهد، فهو قادر على الاستفادة من الفرصة المعروضة عليه. وأما إذا وافق، ثم نكث في عهده، فسيكون عليه أن يسارع إلى البحث عن عمل آخر.

كان حسن متأهباً لأن يواجه مقاومة وتذمراً. بل إنه فكر حتى في التراخي قليلاً، وفي أن يدع كل شيء جارياً على حاله لأنه ما كان مسروراً بأن يضع الشاب أمام ذلك الخيار العسير. لكن الشاب وافق على العرض موافقة فورية. كان سريع التصرف، عارفاً مصلحته. تقزز حسن لمسلكه.

ثم دعا حسن المرأة كي يشرح لها الأمر. لكن الشاب أخبرها بنفسه وقال لها إنهما ـ للأسف ـ ما عادا قادرين على أن يرى أحدهما الآخر: سوف يرحل خلف قدره.. ولديها قدرُها هنا! قال لها إنه يتمنى ألا تكون لها ذكريات حزينة عنه لأنه لن يحتفظ من عيشه في هذا البيت إلا بذكريات حلوة. ثم إن.. هذه هي مشيئة الله!

قال حسن في نفسه متقززاً: لا يجوز أن تغفل العين عنه.

ظلت زينة واقفة عند الباب، صامتة. وبان شحوبٌ في وجهها الأسمر. ارتعشت شفتها السفلى مثلما ترتعش شفة طفل حزين. وظلت ذراعاها العاجزتان متدليتين عند فخذيها الممتلئتين؛ ظلتا متدليتين بين طيات سروالها الفضفاض.

ظلت على حالها حتى بعد أن خرج الشاب من الغرفة. كانت ما تزال واقفة تلك الوقفة نفسها عندما أتى حسن ووضع في رقبتها طوقاً من لآلئ أمه. قال لها، «كي تعتني بأبي عناية أفضل». لم يشأ أن يكون ذلك تعويضاً صريحاً عما أصابها من حزن.. ثم إن هذا سيحولُ دون أن يشك زوجها في شيء.

ظلت أسبوعين كاملين تسير في البيت والفناء حاملة طوق اللؤلؤ في عنقها.. تتنهد وتنتظر وترقب السماء والباب. ثم كفت عن التنهد وعادت ضاحكة من جديد. لقد تجاوزت الأمر.. أو لعلها أخفته في نفسها.

عاش حزنُ زوجها أطول مما عاش حزنها. ظل زمناً طويلاً بعد رحيل الشاب يقول متحسراً «من غيره، صار المكان هنا فارغاً حقاً. لقد نسيَنا، ذلك الجاحد!»

كان حسن غير راضٍ عنهما، وعن نفسه. فعل كل ما يلزم حتى تجري الأمور هكذا؛ لكنه كان كأنه يفضل أن يتخذ الأمر مجرى مختلفاً. قال لي ضاحكاً «انظر: لقد تدخلت كي أحل هذه العقدة. لكن، ماذا أنجزت؟ أثرتُ الأنانية في نفس الشاب، وجعلت المرأة حزينة، حرة من أي قيد. علّقتُ هذه المرأة المفعمةَ مرارةً بزوجها كأنني أضع في عنقه طوقاً؛ وأقنعت نفسي من جديد بأن تصرفي يكون خاطئاً كلما فعلت أمراً بعد تخطيط! اللعنة على هذا! ما من شيء أسوأ من أن تفعل الخير عامداً؛ ولا شيء أغبى من إنسان يريد أن تجري الأمور على هواه».

«إذاً، فأي شيء عساه لا يكون سيئاً أو غبياً؟»

«لست أدري».

رجل غريب.. غريب لكنه غالٍ علي. كنت أراه غامضاً بعض الشيء، لكنه غامض في نظر نفسه أيضاً لأنه يكتشف ذاته من غير انقطاع، ولأنه دائم السعي إليها. على أنه لا يجد صعوبة في ذلك، ولا يحس فيه ضيقاً مثلما يحس غيره لأنه يظل منفتحاً كأنه طفل، ويظل متمتعاً بما يتيحه الشك المتعالي من يسر، ذلك الشك الذي لا يوفر حتى ذاته.

كان يحب الكلام؛ وكان يحسنه. جذور كلماته عميقة في الأرض، وغصونها ممتدة صوب السماء. صارت كلماته حاجة عندي، وصارت مسرّة. لا أدري كيف كانت تفعمني فرحة. لا أكاد أتذكر من قصصه إلا القليل؛ لكن تلك القصص كانت تسكرني بشيء جميل، لامع، غير معتاد: قصص عن الحياة، لكنها أجمل من الحياة.

«أنا ثرثار لا سبيل إلى إصلاحي. أحب الكلام. لا يهمني أي كلام يكون، ولا يهمني موضوعه». (أدوّن الآن عبارات قالها ذات ليلة؛ أدوّنها من غير انتقاء. تلك الليلة، كانت القصبة غافية في الظلام).

الكلام صلةٌ بين الناس؛ بل لعلها صلة وحيدة بينهم. علّمني هذا جندي عجوز بعد أن أُسرنا معاً، وأُلقي بنا في السجن معاً. كنا مقيدين بالسلاسل إلى حلقة واحدة في الجدار.

سألني الجندي، «أنتكلم أم نصمت؟»

«أيهما أفضل؟»

«من الأفضل أن نتكلم. إن تكلمنا فسيكون من الأسهل علينا أن نتعفن في هذه الزنزانة. سيكون من الأسهل أن تموت».

«إذاً، فالأمران سيان».

«لا بأس.. ليس الأمران سيّان، كما ترى. سنحسب أننا نفعل شيئاً، وأن ثمة ما يحدث. سنكره نفسينا أقل من ذي قبل، وما ينبغي أن يكون، سيكون. على أية حال، ليس الأمر بيدنا. ذات يوم، تواجه جنديان من جيشين متحاربين في الغابة؛ فماذا يستطيعان أن يفعلا؟ شرعا في فعل ما يحسنان فعله، في ممارسة مهنتهما. تبادلا إطلاق النار من بندقيتهما، وجرح كل منهما الآخر. استل كل منهما سيفه وغرسه في الآخر. ظلا يتقاتلان طيلة الصباح إلى أن انكسر السيفان. وعندما لم يبق معهما غير سكينين، قال واحد للآخر: انتظر! فلنسترح قليلاً! صار الوقت ظهراً، كما ترى. نحن بشريين. لسنا ذئبين. انظر.. اجلس هنا، وسأجلس هنا. أنت مقاتل جيد. لقد استنفدت قواي كلها».

«وأنت فعلت بي مثلما فعلت بك».

«هل تؤلمك جراحك؟».

«تؤلمني».

«جراحي تؤلمني أيضاً. ضع عليها قليلاً من التبغ كي يتوقف النزيف».

«الطحالب مفيدة أيضاً».

«وهكذا جلس الاثنان معاً وتكلما في كل شيء. تكلما على أسرتيهما، وعلى أطفالهما، وعلى حياتهما الشاقة. كان كل ما لديهما متماثلاً؛ ما من اختلاف بين هذا وذاك. فهم كل منهما الآخر، وتقاربت نفساهما. ثم نهضا واقفين وقال كل منهما للآخر راضياً: اسمع، كان هذا كلاماً حسناً مثلماً ينبغي أن يكون الكلام بين الرجال. ألا ترى؟ لقد نسينا جروحنا! والآن، فلننه ما بدأناه! ثم استل كل منهما سكينه وغرسها في جسد الآخر».

«... ذلك الرجل، رفيقي في زنزانة السجن، كان رجلاً مرحاً حلو الطبع. جعلتني حكايته الساخرة أضحك كثيراً. أضحكني، ومنحني شجاعة. لعل شخصاً

غيره كان يمكن أن يقول إن الجنديين في الغابة قد افترقا صديقين. لن تكون هذه كذبة معيبة.. حتى إن جرى الأمر على ذلك النحو. وأما في قصته، فقد كانت النهاية المرة صادقة. أظنني رأيتها صادقة لأني خشيت أن تُصوّر الجنديين بأفضل مما هما في الحقيقة. لكن، من جديد (لم أستطع أبداً أن أشرح هذه النتيجة لنفسي شرحاً مقنعاً)، لعل ذلك كان ـعلى وجه التحديدـ لأن نهاية القصة كانت صادقة صدقاً قاسياً جداً فتركتني مع فكرة طفولية في رأسي، مع أمل معاند في أن يفلح الجنديان، على الرغم من كل شيء، في أن يتصالحا. إن لم يتصالح هذا الجنديان فقد يتصالح جنديان غيرهما لأن هذا كاد يحدث.. حتى في هذه القصة. مع أن الكلام ما كان مهماً عند زميلي الجندي، فقد كان يتكلم حتى لا يظل وحيداً. لقد رأى من العالم ما يكفيه، وخَبِرَ كل شيء تقريباً. كان عارفاً كيف يجعل قصصه جذابة، حية، حميمة؛ وكان يستمتع بها. لقد بدد خشيتي من أن يكون وجودي في السجن معه أصعب من بقائي وحيداً. صرت أستيقظ في الليل وأنصت إلى صوت تنفسه.

«كنت أسأله: هل أنت نائم؟ إن لم تكن نائماً، فاحكِ لي شيئاً».

«ماذا نفعل عندما ينفد ما لدينا من قصص؟»

«نحكيها من جديد. نحكيها بترتيب مختلف.. بترتيب معكوس».

«وعندما تنتهي القصص بترتيبها المعكوس؟»

«عندها نموت».

«نموت راضيين مثلما مات ذلك الجنديان».

«نموت راضيين مثل غبيين قاما بواجبهما».

قال لي: «في نفسك مرارة لاذعة». قالها من غير لوم.

«ألست مثلي؟»

«لا. لماذا أكون مثلك؟ ألا ترى؟ ذهبت إلى الحرب بإرادتي. يعني هذا أنني قبلت الجرح والأسر والقتل. ما أصابني أهون تلك الأمور كلها. فلماذا أحس مرارة؟»

«ما إن ينساب صوته الخفيض حتى يصير الليل أقل فراغاً. بنى جسراً بيننا، جسراً من خيوط العنكبوت. جسراً من كلمات. كانت الكلمات ترفرف من فوقنا راسمة قنطرة الجسر. كانت تعلو وتهبط مثلما يعلو ماء النهر ويهبط. كان نبعاً، وكنت فماً. نُسج سرٌّ بيننا؛ وذلك الجنون الحلو الذي يسمونه كلاماً حقق أعجوبة: جذعان يمتان راقدان جنباً إلى جنب استيقظا فجأة ودبت فيهما الحياة. ما كانا مقطوعين. عندما بادلونا بأسرى الأعداء، افترقنا من غير أسف. سوف يعثر دائماً إلى بشر يستمعون إليه لأنه في حاجة إلى بشر يستمعون إليه. أنا أيضاً، بدأت أجدهم، صار الناس أكثر قرباً مني.. من خلال الأحاديث. ليس جميع الناس، بالطبع. بعض البشر أصمّ إزاء كلمات الآخرين. هؤلاء مصيبة لأنفسهم ولكل أحد غيرهم. لكن على المرء أن يحاول دائماً. سوف تسألني: لماذا؟ لا لسبب! هكذا، يصير الصمت أقل، ويصير الفراغ أقل. منذ لحظة البداية عندما خرجت إلى التجارة، سمعت عن امرأة في فيشغراد. أرملة واحد من مالكي الأراضي. ما كان لديها غير ابنها. شابٌّ في العشرين. لك أن تتخيل كم أحبت ابنها. كان ابنها الوحيد؛ وكانت حياتها كلها ماثلة فيه. فقدت الأم عقلها عندما مات الابن في الحرب. لم تصدق ذلك أول الأمر. ثم حبست نفسها في غرفتها وقصرت طعامها على الخبز الأسود وشرابها على الماء. صارت تنام على الأرض العارية، وتضع كل ليلة حجراً ثقيلاً أسوداً فوق صدرها. تمنت الموت، لكنها ما كانت لديها قوة كافية لأن تقتل نفسها. ثم إن الموت رفض أن يزورها؛ رفض كأنه أراد نكايةً بها. عاشت كذلك عشرين عاماً مقتاتة على الخبز الأسود والماء.. وذلك الحجر الثقيل على صدرها. صارت جلداً وعظماً؛ وصار جوفها رمادياً، ثم أسوداً، ثم تصلب وقسا مثلما تقسو قشرة ثمرة عتيقة. لو شنقت نفسها من السقف لما صار مظهرها أسوأ من ذلك، لكنها ظلت حية. صدمتني فكرة وضعها ذلك الحجر الأسود على صدرها كل ليلة. جعلني هذا أفهم كم كانت معاناتها كبيرة. كان الحجر ما قادني إليها. بيتها كبير، فيه طابق علوي؛ لكنه مهمل لم يعرف طلاءً منذ زمن بعيد. كانت المزرعة من حول ذلك البيت كبيرة المساحة؛ وكانت أرضاً معتنى بها جيداً. في البيت امرأة واحدة عجوز خدمت الأرملة سنوات طويلة، ثم ضعفت قواها بدورها. قالت لي إنه ما من أحد يساعدهما. الأرض كبيرة؛ والمشرف على

المزرعة يهتم بكل شيء. لكن الأرملة لا تقبل تسوية حسابها معه. لا تريد أن تأخذ مالاً. لذا، كان الرجل يُبقي المال لنفسه ولا يعطيهما إلا ما يقيم أودهما. لكن الله لا يريد أن يأخذها وينهي عذابها. كذبتُ على الأرملة وقلت لها إن واحداً من أصدقائي (مات أيضاً) حدثني عن ابنها وإن هذا سبب قدومي إليها لأراها فقد أحسستُ أني عرفت ابنها أيضاً. كذبت لأن ذلك كان منفذي الوحيد إلى جعلها تكلمني. تكلمني عن ابنها بالطبع. لقد ظلت صامتة سنوات طويلة. ظلت منتظرة موتها سنوات طويلة ولم تفكر طيلة تلك السنوات إلا فيه. كانت تسمم نفسها بعذابها. الآن، صارت قادرة على أن تكلمني عنه. جعلتها تبدأ الكلام. نسيت ما قلته لها أول الأمر (الكذب مخاطرة كبيرة) فقُدتُ كلمتها عنه كأني عرفته حقاً. لكن، ما كان ممكناً أن أخطئ مهما قلت. لم تنتبه إلى حقيقة أني كنت طفلاً صغيراً عندما مات. بل لعلها حسبت أن ابنها كان أصغر مني لأنه ظل كما هو في ذاكرتها ولم يتغير. قلت لها إنه كان وسيماً، ذكياً، لطيف الطبع، كريماً مع الجميع؛ وكان يحنو عليها. قلت لها إنه كان متميزاً، حتى بين الآلاف. أسمعتُها ما تفكر فيه فما كان ممكناً أن أبالغ، مهما قلت. مدائحي كلها كانت ضعيفة، غير كافية لتلك الأم. كلمتني بصوت خافت أجش، لكن كل كلمة من كلماتها كانت تفارق شفتيها كأنها قبلة، كأنها قبلة عَطّرها الحب وداعبها واحتضنها ولفّها بقطن ناعم استمدته من ذكرياتها القديمة. كنت جديداً عليها، شخصاً غريباً عنها؛ وكان الأمر يستحق أن تخبرني كل شيء عن ابنها، أن تعوض عن صمتها العنيد. لكنها أرادت في لا وعيها أن تشرح لي ما جعلها تحزن عليه هذا الحزن كله ثم تكفَّ عن حزنها عند كلامها عليه لأنها تراه ساعتها في أحسن أحواله، تراه حياً. أظن أن تلك كانت أولَ مرة تنجح في فعل هذا. تكون وحدها، أو مع شخص تعرفه، فلا تستطيع أكثر من إحياء ظله.. عارفة أنه قد مات. لكنها نسيت موته الآن وحجبتْ في نفسها كل شيء عدا ذلك الزمن البعيد عندما الذي ما كانت فيه مصيبة وما كان فيه حزن. علمت أن هذا لن يطول كثيراً، وأنها ستصل إلى فكرة الموت. ظللت منتظراً أن تظللها سحابة الموت السوداء. سأرى تلك السحابة في إظلام وجهها! مع هذا، عادت تلك المرأة إلى الحياة. عادت لحظةً، على الأقل. بعد ذلك، صرت أزورها كلما مررت بتلك الناحية ذاهباً في سفر من أسفاري، أو عائداً.

وكانت المرأة تعثر في ذاكرتها على صور أكثر فأكثر. صار ابنها أصغر فأصغر، ازداد شباباً، وظل حياً على الدوام. كانت تنقله عائدة به في الماضي، مبتعدة به عن الساعة السوداء التي أنهت حياته. كانت تنتظر لحظة بعثه مثلما تُنتظر وليمة، أو مثلما يُنتظر العيد. كانت تنتظري أياماً. تطلب تدفئة غرفة الضيوف إن كان الوقت شتاء؛ تدفئ الغرفة أول مرة بعد تلك السنين الطويلة. تحرص على إعداد الطعام، الطعام الذي لا تأكله؛ وتُعدّ لي فراشاً أكله العث تمدّ فوقه ملاءة مصفرة، تمدها من أجلي إن وافقتُ على البقاء عندها بضعة أيام أخرى، إن وافقت على تمديد أمد عُطلتها من حزنها. لم تغير حياتها كثيراً إذ واصلت اكتفاءها بالخبز الأسود والماء، وواصلت نومها على الأرض الخشبية العارية واضعة ذلك الحجر الأسود على صدرها. لكن فكرة الموت لم تبق وحدها محتلة عينيها. أقنعتها بأن تطالب مدير المزرعة بالمال المحفوظ عنده كي تنشئ به مدرسة لأطفال القرية، فاقتنعت، وكذلك كي تعينهم بالطعام والملبس.. فهذا ما كان ابنها ليفعله، من غير شك. بُنيت المدرسة، وجيء بخوجا، وقُدمت المعونة إلى القرويين الفقراء كي لا يذهب أطفالهم إلى المدرسة جائعين في ثياب مهلهلة. عملت المرأة عملاً صالحاً فخففت عنها حزنها وهوّنت على نفسها عذابها».

قلت ساخراً من حكاية حسن: «إذاً، فقد انتهى كل شيء على ما يرام، وكان الجميع سعداء مثلما نسمع في القصص الخيالية».

بدا لي أن هذه الحكاية، والحكمة منها، كانت من أجلي.. كي تكون عبرة لي: أظنني كان منتظراً مني أن أجمع الأطفال من حولي، وأن أعلمهم كيف يحيون حياة سعيدة. بدا لي ذلك سذاجة لم أعرفها فيه؛ بدا نقيضاً لكل ما علمته عنه. لكنه كان طالباً نجيباً من طلبة مدرسة ذلك الجندي العجوز في الزنزانة.

ابتسم. ما كانت ابتسامته منتصرة تماماً، لكنها ما كانت واهية أيضاً:

«الحقيقة.. لم ينته كل شيء نهاية حسنة حقاً. رحب أهل القرية بالمساعدة المقدمة إلى أطفالهم. راحوا يشربون، فشربوا مال الأرملة، ثم مالهم. أيضاً، أحست زوجاتهم بالأمر لأن أيدي القرويين السكارى صارت أثقل وقعاً وأسرع إلى الضرب. لذا، لعنت نساءُ القرية الأرملة. لعنها رجال القرية أيضاً لأنها انتزعت

الأطفال من الماشية ومن العمل في الحقول. قلّ ذهاب الأطفال إلى المدرسة؛ وما كان جيداً ذلك المعلم الذي فيها. من هنا، لم يكد الأطفال يتعلمون شيئاً. وكانوا ينسون ما تعلموه بعد سنة أو سنتين. صار كل من في القرية يتساءل: أية مدرسة هذه، تتعب فيها كثيراً، ثم تنسى كل شيء بعد سنة واحدة! عاشت الأرملة عشرين سنة منتظرة موتها. ثم ماتت في الربيع بعد ثلاث سنين من لقائنا. ماتت في انتظاري، في الريح والجليد. لكني تأخرت عليها لأن أعمالي تعثرت فطالت رحلتي أكثر مما كان مخططاً لها أن تطول».

«إذاً، فقد انتهى كل شيء نهاية سيئة!»

«لا. لماذا تقول هذا؟ ماتت المرأة منتظرةً صديق ابنها. ماتت مفعمة كلمات جميلة، تواقة إلى الحديث عن حب حياتها. كان الموت بعيداً عن تفكيرها. وقد انتهى القرويون إلى حيث كانوا من قبل، من غير شراب ومن غير معونة، لأن ورثة الأرملة اقتسموا الأرض فيما بينهم. ظلت للأرملة ذكرى طيبة في القرية؛ وضاع كل شيء آخر في النسيان. ظلت أيضاً حكاية: في يوم من الأيام، عاشت في هذا البيت امرأة طيبة غريبة الطباع. بالطبع، لم يستفد أحد من هذا، لكنها قصة لطيفة».

أثارت تلك القصة اضطرابي: قصة قاسية، غير معتادة، مثلها مثل الحياة. قصة خدّاعة، مخاتلة، مثلها مثل الحياة. أثار اضطرابي أيضاً قبول حسن المتعالي، أو رفضه الهادئ، ما في الحياة من تخبط مؤلم لا بد للإنسان من التكيف معه إن أراد تفادي الجنون.

ضحكتُ كي أخفف أية مرارة محتملة وأي ارتباك في وقع الحكمة التي أرادها من القصة. قلت له: «اثبت على أمر، كرمى لله! حدد من أنت. اعثر لنفسك على أرض صلبة. أنت غير متأكد من أي أمر تفعله».

«أنت على حق. أنا لست متأكداً من أشياء كثيرة. أهذا أمر سيئ؟»

«ليس أمراً حسناً».

«إذاً، هو ليس حسناً، وهو ليس سيئاً أيضاً. أن تكون متأكداً أمر حسن، هل يمكن أن يكون سيئاً؟»

«لست أفهمك».

«ألديك أمر أنت متأكد منه تماماً؟»

«أنا متأكد من أن الله موجود».

«لكنك ترى أن من لا يؤمنون بالله متأكدون أيضاً. لعل من الأفضل لو أنهم ما كانوا متأكدين».

«صحيح، لكن، ماذا ينتج عن هذا؟»

«لا شيء».

لكني ندمت على سؤالي لأني لم أنتبه إلى الفخ الذي نصبه لي بمنطقه الماكر الخداع. أية فكرة ذكية خطيرة! لقد قادني إليها هازلاً.

كان متمكناً من عدم يقينه!

لم أنزعج لأنه كان هكذا. ما عاد أي شيء فيه يزعجني. صرت أحبه حباً شديداً جعلني أقبل أنه محق حتى عندما نختلف في الرأي. كان غالياً عندي حتى عندما أراه مخطئاً.

أي يوم أمضيه من غيره يبدو لي فارغاً، طويلاً. نضجتُ في ظله نضجاً هادئاً، آمناً.

كان والده منتظِراً ـ من غير خوف ـ أن يصيبه أمر أو بليّة. صار حبه الذي عاد إلى الحياة هاجساً عنده.

عندي وعنده، كان حسن أهم شخص في العالم.

ولهذا حزنت عندما سمعت أنه مرتحل بعيداً.

ذهبت إلى بيته. لم أره منذ يوم كامل وليلة كاملة. وجدته يلعب طاولة الزهر مع والده جالساً إلى جوار سريره.

كان العجوز غاضباً؛ وكان يقذف النرد فوق تلك المثلثات السوداء والبيضاء.

«أوف! اللعنة عليك! انظروا كيف يتدحرج! يا فضلي..» خاطب الخادم متذمراً.. «يبدو أن حظي سيئ».

«هل نفخت على النرد، يا آغا؟»

«نفخت، لكني لم أستفد شيئاً. هل زينة هنا؟ ليتها تضع النردين بين ثدييها؛ ليتها تضعهما قليلاً».

«هذا معيب، يا أبي!»

«ما عدت قادراً على أي أمر معيب! أهو معيب يا فضلي؟»

«لا، يا آغا. لا سمح الله».

«أبي، من الأفضل أن تدعك النردين بكمّ الدرويش».

«حقاً! هل تمانع في هذا، يا أحمد أفندي؟ سيكون مفيداً، بعون الله».

ضحك حسن وقال لي: «يسعدني أنك أتيت».

«لم أرك منذ يوم أمس».

قال العجوز بِرماً متجهماً: «ألا تستطيعان تأجيل هذا الحديث إلى أن أفوز. حظي الآن في تحسن!»

«لقد شفي أبي».

«هل تعني القول إنك تراني في مزاج سيئ؟»

وقد فاز حقاً. كان متعَباً؛ وكانت ابتسامته ملء وجهه. كان كأنه طفل.. مثل حسن.

قال لي حسن مبتسماً لوالده مثل من أقدم على فعلة غير مستحبة، «أنا راحل.. إلى دوبروفنيك».

«لماذا تذهب إليها؟»

«أنا ذاهب في عمل. أصدقائي ذاهبون أيضاً. يعني هذا أننا سنذهب معاً».

«المرأة الكاثوليكية ذاهبة، لذا، هو ذاهب أيضاً. وأما كلامه على أن له عمل هناك، فقد اختلقه اختلاقاً».

«لست أختلق هذا».

«بل تختلقه. لو كنت ذاهباً من أجل العمل، لاستطعت إقناعك بألا تذهب. لكنني لا أستطيع إقناعك بسببها هي. هي أكثر أهمية عندك».

«أبي يتخيل أموراً غريبة».

«هل أتخيل؟ صحيح أني صرت عجوزاً، لكني لم أنس شيئاً. وإذا كنتُ غير قادر على فهم بعض الأمور، فهذه مسألة أخرى».

«أثمة حقاً ما لا تستطيع فهمه؟»

«ثمة أمور لا أفهمها».

كان العجوز يخاطبني كأنه حانق من حسن.

«ثمة أمور لا أفهمها. لا أستطيع فهم ما يجعله يذهب في رحلة مع المرأة والرجل معاً. فمَن الغبي هنا؟ ابني أم الرجل الكاثوليكي؟»

قال حسن ضاحكاً من غير أن يستاء على الإطلاق، «أم الاثنان؟ الظاهر أنك لا تعترف بالصداقة».

«الصداقة! مع النساء! يا ولدي البالغ ثلاثين عاماً.. أين عشت حتى الآن؟ اللوطيون وحدهم يمكن أن يصادقوا النساء».

أدليت في هذا الحديث بدلوي، فلم أظفر بغير أن جعلت حسناً يضحك من جديد عندما قلت، «لعله صديق زوجها».

«أحمد أفندي.. لا نستطيع لومك على ما قلت، فأنت لا تعرف هذه الأمور. عند أولئك الناس، يقبَل الزوج أصدقاءَ زوجته، يقبَلهم دائماً، لكن العكس لا يحدث دائماً. أبي، سوف تصيبك نوبة ربو».

«لسوء حظك، لن تصيبني نوبة ربو. الجو صافٍ اليوم، والهواء منعش. لا تستطيع أن تخيفني بهذا. لقد قلت له: إن كنت غير مبالٍ بها، فلا تضيع وقتك. وإن كانت لا تريدك، فابحث عن غيرها. إن كنت تحبها، وكانت تحبك، فخذها من زوجها».

«كل شيء بسيط عند أبي».

«لماذا يذهب معهما؟ بحق الرب.. ماذا سيفعل معهما؟ من يدري؟ لا أعلم شيئاً غير أنه سيأخذ معه رجالاً مسلحين حتى لا يقع صديقاه ضحية قطاع الطرق. لكن، ألا يمكن لقطاع الطرق أن يهاجموه؟ يقول عني إني أرى كل شيء بسيطاً! أنت من ترى الأمور بسيطة، يا ولدي الضال: أنت لا تفقه شيئاً».

«أصحيح ما قلته الآن يا أبي؟ منذ قديم الزمان، ما يزال الأبناء أقل فهماً من آبائهم، جيلاً بعد جيل. لذا، كان ينبغي أن يختفي الفهم اختفاء تاماً. لحسن حظنا، يحظى الأبناء بالفهم عندما يصيرون آباء».

«وهل ستحظى بالفهم يوماً؟»

«أبي.. الأبناء مزعجون».

«لا تعبث معي فأنا أعرف هذا. كم سيطول غيابك؟»

«خمسة عشر يوماً، أو نحو ذلك».

«لماذا تغيب هذه المدة الطويلة كلها، يا ولدي التعس؟ خمسة عشر يوماً، هل تعرف كم تطول؟»

«قد أغيب أكثر من ذلك».

«لا بأس، اذهب. إذا كنت لا تبالي، فلست أبالي بدوري. قد تزور قبري بعد خمسة عشر يوماً. ليس مهماً، اذهب».

«قلت لي إنك صرت أحسن حالاً».

«في سني هذه، يقف الأحسن والأسوأ جنباً إلى جنب ويتبادلان مكانيهما مثل تبدل الليل والنهار. الشمعة نفسها تتوهج بضوء أقوى عندما تبلغ آخرها».

«هل يعني هذا أنك تريد بقائي هنا؟»

«بقاؤك؟ أولاً، أنت كاذب. ثانياً، سأدفع ثمناً غالياً إن بقيتَ معي. فات الأوان الآن، اذهب. لا تُطل غيبتك أكثر مما قلت. خمسة عشر يوماً. هذا كثير علي، وكافٍ لك. خذ معك رجالاً أكثر. سوف أدفع أجرهم. سأكون مرتاحاً إذا علمت أنك في أمان».

«سيأتي الشيخ أحمد كي يزورك أثناء غيابي».

«هذا الرجل الطيب العاقل أكبر نعمة أتتك من الله. لكن، لا يضره شيئاً أن يستريح منك قليلاً. لن نقول عنك كلمة واحدة طيلة خمسة عشر يوماً».

وقد أمضينا خمسة عشر يوماً كاملة لا نتحدث إلا عنه.

ترك رحيله في نفس كل منا إحساساً بالفراغ. كنا نعوض عن غيابه بذكر اسمه. وكان الأمر أكثر مشقة على العجوز لأنه يحزن كل يوم على خسارة ابنه الذي عاد إليه من جديد، ابنه الذي طرد عنه تفكيره في الموت. كان تذمره الكثير حباً، حباً مشبوباً نكداً؛ لكنه كان أيضاً ابتعاداً عن الظل القاتم المقترب. طائرٌ أسود كان محوّماً فوقه. أدركَ الأمر الآن؛ وكان جَزِعاً. هل كان ممكناً قبل ذلك أن يحسّ تحسناً.. من غير حب؟

وأنا أيضاً كنت آسفاً لرحيله لأنه عوّدني أن يكون هنا ولأني كنت في حاجة حقيقية إليه.. الآن.

في تلك الآونة، كانت حياتي منقسمة بين ما قد وقع وبين ما كان موشكاً على الوقوع، أي كل ما كان مجهولاً عندي. كنت في حالة انتظار. كنت منتظراً مثلما ينتظر صياد ويظل متأهباً، صابراً؛ لكني ما كنت واثقاً إن كان ثمة شخص غيري كامناً في انتظاري، من أنني لن أصير طريدة بدوري. وجود الصديق على مقربة مني يعينني في تهدئة ارتجافي إزاء صوت الخطوات الصامتة الذي يرسله إليّ القدر. هالني إحساسي بأن ثمة ظلمة وغموضاً من خلف كل ما لا أستطيع رؤيته، غموضاً لن يلبث أن يتكشّف لي. لكني كنت أيضاً أعيش حبوراً هادئاً لأن ما كنت منتظراً إياه سوف يحدث، ولأني قد اصطُفيت كي أنفذ مشيئةً أقوى من مشيئتي. على أنني ما كنت أداة في يد غيري، ما كنت حجراً، ما كنت شجرة. كنت رجلاً؛ وكنت بعض الأحيان أخشى أن تكون روحي أضعف من رغائبي، أو أن يكبر كرهي المتورم فيمزقني إرباً مثلما تمزق بذرة ناضجة غشاءها الذي تكبر فيه. لو كان حسن هنا، لصرت قادراً على الانتظار في هدوء. لو كان حسن هنا، لكنت قادراً على أن أنضج نضجاً هادئاً إلى أن يأتي الفعل.. كي تصير راية الإيمان الخضراء مرفوعة فوق القصبة، لا أن تصير كفناً يلفّني.

انتظرنا عودة الرجل الوحيد الذي يهمنا أمره. لم يُخفِ علي آغا أنه كان مضطرباً. بدأ يوبخ ابنه. كان واضحاً أن نبله الهجومي لم يرتخِ، لكن هذه الرقة المخبأة من غير مهارة لم تلبث أن انقلبت نواحاً عديم الحول.

«إلى الجحيم به وبتلك المرأة الدلماسية! يهمه أمرها أكثر مما يهمه أمر أبيه. ليتها كانت مليحة! ليست أكثر من جلد وعظم! لكن، فليكن ما يريد، فلتجرّه خلفها في العالم الواسع كله، فتجره خلف تلك العينين الماكرتين، عينيها.. إن كان غبياً ذلك الغباء كله. خمسة عشر يوماً.. يا ولدي التعس! قد تأتي عواصف ماطرة؛ وقد يداهمهم طقس بارد، وقد يهاجمهم قطاع طرق. لا جدوى من الكلام مع معتوه. ما عليك، أيها الأب إلا أن تجلس هناك، في زاويتك، متكئاً على الجدار كأنك غليون قديم، وأن تنتظر. فليكف قلبك عن الخفقان بضع لحظات كلما انفتح الباب أو كلما صعد أحدهم درجات السلم بسرعة زائدة قليلاً. استيقظ من نومك مجفلاً، استيقظ على أحلام سوداء وإحساس سيئ. حتى إن بقيتُ حياً، فسوف يكلفني هذا سنة كاملة من عمري. لقد وعدني بألا يذهب إلى أي مكان. وعدني لكنه لم يستطع أن يحفظ وعده. أَنجبْ ابناً كي يصير شقاءً لك، كي تجعلَ كل أمر صعباً عليك. آه، سامحني يا ربي، سامحني لأني أقول كلاماً فارغاً!»

اقترح فضلي أن يدعو أصدقاء العجوز حتى يلعبوا طاولة الزهر معاً، أو يتجاذبوا أطراف الحديث. أراد أن يُخرج الفرس إلى الفناء، تحت النافذة؛ وسأل علي آغا إن كان يحب أن يرسله إلى الجبال كي يأتيه بماء من النبع لأن ماء النبع ينقّي الدم ويقويه. رفض العجوز كل شيء ولم يرد غير أن يضع وسائده على الأريكة عند النافذة كي ينظر إلى البوابة من غير انقطاع وكأن هذا يمكن أن يبكّر في رجوع حسن. أو لعل هذا يجعل من الأسهل عليه أن يتخيل عودته.

كيف استطاع قضاء كل تلك السنين من غير ابنه؟ تساءلت في نفسي وقد فاجأني هذا الحب وهذا الحزن بعد الفراق. تذكرت تفسير حسن الغريب القائل إن ذلك النزاع العنيد بينهما هو نفسه ما كان تبريراً لذلك الحب، وهو ما جعله على ما هو عليه. لو كان حباً موجوداً دائماً، لاستهلك نفسه وتراخى. ولو ما كان موضع تمنٍّ أبداً، لذوى واضمحل. لم يؤثر هذا الحب في نفسي، أول الأمر. كانت مشاعري باردة إزاءه، بل إنه لم يعجبني. ماذا تريد، أيها العجوز؟ كنت أطرح هذا السؤال حانقاً، أطرحه في نفسي. أيكون على العالم كله أن يرى حبك هذا؟ وهل يكون إظهاره مثلما تفعل أمراً شديد الصعوبة؟ أن يزفر المرء ويئن أسهل من أن

يلزم الصمت. فما حبك، على أية حال؟ رقّةٌ خَرِفة، وخوفٌ من الموت، ورغبة في بقاء ذريتك، وأنانية تعتاش على قوة شخص آخر، على سلطة الدم الأبوية. ثم، لماذا؟ من أجل مسرة طغيانك التافه وتوسلك العاجز من أجل ذراعي ابنك بعد أن لم يبق لك غيرهما.

ولكن، ما من سبيل أمامي في محاولة الدفاع عن نفسي مستنجداً بالترفع أو بالهجوم. أذهلني ذلك الحب. كنت أضبط نفسي مفكراً في أبي، محاولاً تقريبه من نفسي. هل كان ممكناً لي أن أنتظر كلماته انتظاراً فرحاً، أن ينتابني قلق في شأن صحته، أن أترك كل ما هو غالٍ عليّ من أجله؟ أبي!.. همست بهذا محاولاً أن أعتاد دوري، أن أبعد عن نفسي آلام الحياة كلها، أن أستحث حاجتي إلى الحب.. أبي، بابا! لكني لم أستطع العثور على أية كلمات أخرى. ما كانت بيننا أية مشاعر رقيقة. بل لعلي صرت مثقلاً بسبب من هذا: الارتباط بالآخر هو الجانب المشرق في طبيعة الإنسان. أظنني لم أحتضن صداقة حسن بهذا التوق كله إلا كي أشبع تلك الحاجة البشرية، تلك الحاجة التي هي أقوى حتى من العقل.

تلقّاني العجوز مرتاباً أول الأمر. حاول أن يبدأ أحاديث صغيرة بيننا، لكنه اختنق بالكلمات التي لا ضرورة لها. كان غير قادر على الكذب. فوجئت عندما رأيت كم كان حسن شبيهاً به.. ليس مختلفاً عنه إلا بأنه أكثر منه صقلاً وطراوة ولباقة.

قال لي، «أنت رجل غريب. أنت لا تكثر الكلام. أنت كتوم».

سارعت إلى القول إنها قد تكون سمة أصيلة في شخصيتي لكنها تطورت ونمت بحكم كوني واحداً من الدراويش. إن بدوت غريباً، فقد يكون هذا ثمرة كل ما وقع لي.

«أنت تختبئ خلف الكلمات. لا أستطيع رؤية ما في داخلك. لقد نزلت بك مصائب كثيرة. ما كان ممكناً أن يصيبك أشد مما أصابك، لكني ما سمعت منك كلمة إدانة أو حزن مع أنك كنت تحدثني عن أخيك».

«يشقّ علي كثيراً أن أتكلم فيما جرى. لا أستطيع الكلام في هذا إلا مع شخص يكون كأنه أخ لي».

«هل وجدت هذا الشخص؟»

«نعم».

«آسف.. فأنا لا أسألك عن هذا من أجل نفسي».

«أعلم. أنا وأنت مرتبطان به. ارتباطك به أقوى لأنه صلة دم وأبوّة. الصداقة هي ما يربطني به، وهي أقوى من كل ما يستطيع الإنسان أن يحسه من غير إثم».

لو وجدت ضرورة، لكنت قادراً على خداعه من غير أية مشقة لأن ذكر اسم ابنه يهدهد مكره وحذره الشديد، ينيمهما. لكني ما كنت في حاجة إلى هذا لأني قلت ما أفكر فيه حقاً. وأما كلماتي المهيبة، فقد قلتها من أجل العجوز، قلتها حتى ألطف الأمر عليه وأهدئ مخاوفه من الناس الذين يخفون ما بأنفسهم.

كان يحاول فهمي من أجل ابنه؛ وقد قبلني بسبب ابنه أيضاً. كان لدهائه وثقته جذر واحد.

جعلنا غياب حسن نبدأ اختراع قصة خيالية عنه. في قديم الزمان، كان هناك أمير..

المفاجئ أن حسناً نفسه كان، أكثر الأوقات، يتكلم على إخفاقاته، يتكلم عليها ضاحكاً، من غير أسف على ما كان. لكن طريقته في التفكير تجعل هزائمه وإخفاقاته تبدو غير خطيرة، ولا مقنعة. بل إن سحر صدقه الذي لا يتكلف فيه أية مشقة كان يحوّلها إلى انتصارات لا يحب مناقشتها ولا يعيرها كبير اهتمام. حاولت بعد ذلك أن أميز بين الواقع والقصة الخيالية؛ لكني لم أكد أستطع تحرير نفسي من تلك الحالة السحرية التي يقع لنا كثيراً أن نحبس أنفسنا فيها متمنين أن يظهر لنا أبطالنا.

وأما بحسب ما لم يكن قصة خيالية، فقد كان يبدو أن ما من شيء غير عادي في حسن. بعد مروره بمرحلة الحماسة الدينية الشديدة في المدرسة، عندما كان ما يزال شاباً يدرس فلسفة ابن سينا الطبيعية النقدية مع مفكر فقير ذي عقل حر ممن يكثر أمثاله في الشرق، مفكر يحدث كثيراً أن يشير إليه بمزيج من الحب والترفع، دخل الحياة حاملاً ذلك العبء الذي يحمله أكثرنا: مثال العظماء نصب عينيه، ورغبة في السير على خطاهم، لكن من غير أية معرفة بالبشر الصغار، أي بالبشر

الوحيدين الذين نلتقيهم. يتخلص البعض سريعاً من تلك النماذج المثالية التي لا لزوم لها، ويتخلص البعض الآخر منها تخلصاً بطيئاً، لكن ثمة من لا يتخلص منها أبداً. لم يستطع حسن التكيف. كان مفرط الحساسية إزاء كل ما هو متصل بنفسه وبموطنه، وكان مقتنعاً بالقيم البشرية التي حسب أنه سيراها في كل مكان. وجد نفسه في مدينة السلطان الثرية الزاخرة بصلات وعلاقات معقدة بين البشر، صلات عديمة الرحمة بالضرورة مثلها مثل الصلات بين القروش في أجواف البحار.. صلات ذات تهذيب زائف ونعومة منافقة متشابكة مثل تشابك خيوط شبكة العنكبوت: وقع صدق ذلك الشاب غير المجرب في دائرة مفرغة حقيقية. حاول شق طريقه في براري القسطنطينية تلك مستخدماً نظراته العتيقة وإيمانه الساذج بالصدق فكان مثل رجل يمضي خالي اليدين إلى معركة مع قراصنة مخضرمين مسلحين حتى أسنانهم. دخل حسن ذلك العرين حاملاً صفاءه وصدقه وما اكتسبه من معرفة، دخله بخطى واثقة ثقة الجاهل. لكنه ما كان غبياً فلم يتأخر في إدراك أنه سائر على جمر. ما كان في مستطاعه أن يقبل كل شيء، ولا أن يظل من غير أن ينتبه إليه أحد، ولا أن ينصرف. لكنه رفض قسوة القسطنطينية (كان إنساناً غير عادي، كشأنه دائماً)، وبدأ يفكر في القصبة أكثر فأكثر ويقيم تضاداً بين حياتها الوادعة وبين ذلك الهرج والمرج. كانوا يسخرون منه ومن منطقته النائية المتخلفة. وكان يسألهم مستغرباً، «ماذا تقولون؟ على مسيرة ساعات من هنا، ثمة مناطق متخلفة إلى حد لا تستطيعون معه أن تصدقوا أعينكم. هنا، في فنائكم الخلفي، غير بعيد عما في بيزنطة من ثراء وجمال مجلوبين من أرجاء الدولة كلها، يعيش إخوتكم أنفسهم مثلما يعيش المتسولون. لكننا غير منتمين إلى أحد، فنحن دائماً على جبهة من الجبهات؛ نحن دائماً منذورون لهذا أو ذاك. إذاً، أيكون مفاجئاً أن نبقى فقراء؟ نحاول منذ قرون أن نعثر على أنفسنا، أن نعرف أنفسنا. سرعان ما نصير غير قادرين على أن نعلم من نحن؛ بل إنّا بدأنا منذ الآن ننسى حتى أننا ساعين إلى أي شيء. يسبغ علينا الآخرون شرف السير تحت راياتهم لأن ما من راية عندنا، ما من راية لنا. يحاولون إغرائنا والتقرب إلينا عندما يجدون أنفسهم في حاجة إلينا. ثم ينبذوننا عندما تنتفي تلك الحاجة. أشد بقاع الأرض حزناً، وأكثر شعوب العالم تعاسة. نحن نفقد هويتنا، لكننا لا

نستطيع اكتساب هوية غيرها، لا نستطيع اكتساب هوية غريبة عنا. قُطعنا عن جذورنا، لكنا لم نصبح جزءاً من أي شيء آخر. بقينا غرباء عن الجميع، عن بني جلدتنا وعن أولئك الذين لا يريدون ضمنا إليهم وتبنينا وجعلنا جزءاً منهم. ونحن نعيش في معبر بين عالمين، على الحدود بين الشعوب، كأننا عثرة في طريق الجميع. وعلى الدوام، نجد من يرانا ملومين في أمر من الأمور. تتكسر موجات التاريخ علينا مثلما تتكسر موجات البحر على جرف. ضقنا ذرعاً بأصحاب السلطة، وجعلنا من بلوانا فضيلة: صرنا ذوي عقول نبيلة نكاية بالجميع. وأنتم قساة متحجرة قلوبكم لأن نزواتكم تجعلكم هكذا. إذاً، من المتخلف فينا؟»

كرهه البعض، وازدراه البعض، وتجنبه البعض. كان إحساسه بالوحدة في ازدياد، ومثله توقه إلى موطنه. وذات يوم، ضرب واحداً من أبناء بلاده لأنه كان يحكي نكاتاً عن البوسنيين. خرج إلى الشارع محزوناً، خجلاً من سلوك ذلك الرجل ومن سلوكه. عندها، سمع في سوق من الأسواق امرأة من دوبروفنك وزوجها، كانا يتكلمان لغته. ما كان لأية لغة من لغات البشر أن تقع ذلك الوقع الجميل في أذنه؛ وما كان واحد من بني بشر أكثر سحراً من تلك المرأة النحيلة ذات المظهر النبيل وذلك التاجر الممتلئ من دوبروفنك.

كانت شهور قد انقضت منذ أن فعل حسن أي شيء. وكان تبطّله وتجوله من غير هدف في أرجاء المدينة الكبيرة قد أضنيا روحه. لكن والده ظل على سخائه، وظل يرسل إليه المال فخوراً بوظيفة ابنه لدى السلطنة. يذهب التاجر من دوبروفنك كي يتابع أعماله، ويرافق حسن زوجته إلى أجمل الأماكن في القسطنطينية ويصغي إلى أجمل شفتين تنطقان بأجمل لغة فينسى مشكلاته السخيفة. الظاهر أن المرأة بدورها ما حاولت تجنبه. ما كان أشد ما جذب هذه المرأة الرقيقة من دوبروفنك، المرأة التي تلقت تعليمها في دير الفرانسيسكان في دوبروفنك إلى البوسني الشاب مظهره المليح أو أدبه أو تعليمه، بل تلك الصفات كلها مجتمعة في شخص من البوسنة. كانت تحسب أهل تلك المناطق النائية أجلافاً، مجانين، متوحشين، متصلبين؛ وتظن أن لديهم شجاعة يندر أن يسعى إليها ذو عقل، فضلاً عن اعتزاز سخيف بما يقدمون خدمات وفية إلى من هم ليسوا أصدقاء لهم. لكن

هذا الشاب ما كان جلفاً ولا متوحشاً ولا جاهلاً. ما كان سلوكه بأقل مما يكون لدى أي أرستقراطي من دوبروفنك: محدّث ممتع، ورفيق مفيد يسره وجوده معها (هذا ما كان قمة خصاله كلها)، فضلاً عن كونه متعففاً إلى حد أثار في نفسها شكوكاً تجعلها تتفحص نفسها في المرآة كلما عادت إلى البيت. ما كان الحب موضوع تفكيرها أبداً. كل ما في الأمر أنها قد اعتادت اهتمام الرجال وتغزلهم بها. انتظرت حدوث ذلك، وكان انتظارها مضطرباً، قلقاً، لكنها فوجئت عندما لم تر شيئاً فبدأت تنظر إليه بمزيد من الاهتمام. كان حسن في أول شبابه، وكان صادقاً شريفاً لا يحسن شيئاً من ذلاقة اللسان التي لا تُلزمه بشيء ولا تلزمها بشيء، وما كان يفكر في الحب أيضاً. كان ما يحسه من بهجة في لقائهما كافياً له. لكن الحب فكر فيه: سرعان ما صار واقعاً في هواها. كتم الأمر في نفسه عندما اكتشفه، كتمه عنها محاولاً ألا يفضح نفسه حتى لو بنظرة واحدة. لكن المرأة أدركت الأمر على الفور، أدركته لحظة رأت لهيب العاطفة ظاهراً في عينيه (كان عليها الإقرار بأن عينيه جميلتان) فراحت تحمي نفسها بأن تعزز الصداقة بينهما وتتصرف كأنها أخت له، تتصرف من غير حرج. غرق حسن في حبها أكثر فأكثر، أو ارتفع على أمواجه الحب أعلى فأعلى. ليس لهذا أن يفاجئ أحداً لأن المرأة كان جميلة (أقول هذا عرضاً لأن هذا غير مهم في وجود الحب). كانت حلوة رقيقة (لا أهمية لهذا في وجود الحب)، وكانت أول مخلوق يطرد عنه اضطرابه العكر ويقنعه بأن ثمة أموراً لا يستطيع شاب أن ينساها من غير عقاب.

ساعد حسن ومعه شابٌّ من البوسنة، هو ابن الصائغ سنان الدين، تاجر دوبروفنك في الفراغ سريعاً من المهمة التي جاء من أجلها ألا وهي الحصول على إذن وامتيازات كي يتاجر مع البوسنة. كسب صداقة الرجل، لكن هذا قصّر أمد بقائهما. كان سعيداً لأنه فاز بثقة الرجل، تلك الثقة التي بدت كأنها عفو عن إثم حبه؛ لكن قرب رحيلهما أحزنه لأنه سيتركه أشد غمّاً مما كان قبل لقائهما. هل كان تاجر دوبروفنك قد وثق بحسن، أم سعى إلى أن يغلّ يديه بما أظهره من ثقة (فهو خبير بأحوال الناس)، أم كانت ثقته بزوجته كبيرة إلى ذلك الحد، أم أنه كان قاصر المخيلة، أم أنه لم يبال بالأمر؟.. يصعب القول.. فقد كان هذا كله

غير مهم في حبهما الساذج. أقول: ساذج؛ وأقول: حب؛ لأنه كان حباً، ولأنه كان ساذجاً أيضاً. لعله ذُعرَ، أو تشجع لقرب رحيل ماريا (هكذا كان اسمها: مريم)، لكنه قال لها إنه يحبها. قال حسن ما لا يمكن أن يفكر في قوله رجل عاقل ذو خبرة. قال ذلك لسذاجته أو لما رآه من شحوب في وجهها مع أنها لم تسمع منه شيئاً لم تعلمه من قبل سماعه. قال إنه آسف بسبب زوجها؛ فزوجها صديقه، وقد تكون في هذا إساءة إليها أيضاً فهي امرأة فاضلة؛ لكنه مضطر إلى أن يقول لها هذا فهو لا يعلم ما سيحدث له بعد سفرها. هكذا، اضطرت المرأة إلى إرغام نفسها على الاختباء من خلف زوجها وفضيلتها فأعادته إلى موقعه الذي لا ضرر فيه: صديق الأسرة. والظاهر أنها وقعت في حبه في تلك اللحظة ـ بأعجوبة، كأن سذاجة حسن هزمت تعففها. لكن تلك الفكرة الكاثوليكية الفرنسيسكانية عن الوفاء الزوجي، وخوف ماريا العميق من الخطيئة، دفنا حبها في أعمق أعماق قلبها فاضطرته بدوره إلى أن يحذر قسرها على البوح بذلك الحب. لكنه كان في فرحة غامرة لأنه أدرك وجوده. راح يخبرها بكل شيء عن نفسه كاشفاً لها ما لم يكشفه لأحد غيرها. اقترحت عليه أن يسافر معهما بالسفينة إلى البوسنة فيصحبهما في طريقهما إلى دوبروفنك لأن ما من شيء يحمله على البقاء في القسطنطينية. أراد أن تجعل كلاً منهما يرى أنها لا تخشاه ولا تخشى نفسها. قالت له إن هذا سيكون نوعاً من «la route des écoliers». ولما لا يتكلم الفرنسية، فقد شرحت له أن المقصود بهذه العبارة تلك الطريق المتعرجة التي يسلكها الأطفال في طريقة العودة إلى البيت من المدرسة: طريق أكثر طولاً، لكنها أكثر أماناً. بل إنها حاولت أن تحمي نفسها باللغة الفرنسية لأنها أحست بهجته بمعرفتها تلك اللغة الغريبة المخلوقة للنساء. نسيت أنه سيكون مسروراً بكلامها حتى لو تكلمت لغة الغجر. نسيت أيضاً أن إسعاده أسلوب ضعيف في حماية نفسها. كانت الأوقات التي أمضياها معاً على القارب أقل مما تمناه حسن، لأن الزوج لم يستطع الصمود أمام البحر الهائج فأمضى الشطر الأكبر من زمن الرحلة مستلقياً في فراشه يعاني ويتقيأ. رأى حسن ذلك كله. شمّ الرائحة الواخزة الثقيلة التي جعلت تهوية الكابينة ساعات طويلة أمراً لا بد منه. ما إن تصير الكابينة نظيفة مهوّاة حتى تتسخ وتفوح الرائحة فيها من جديد. كان الرجل المسكين

مصفراً مزرقاً كأنه يعاني سكرات الموت. «لعله سيموت» فكر حسن في هذا مذعوراً، آملاً، لكنه لم يلبث أن ندم على تفكيره القاسي. باستعدادها الغريب للتضحية والمعاناة، كانت ماريا تمضي الشطر الأكبر من وقتها مع زوجها فتنظف الكابينة وتهوّيها وتواسي الرجل، وتمسك يده، وتسند رأسه كلما أراد التقيؤ؛ لكن هذا لم يُجدِه فتيلاً ولم يُنقِص معاناته، تماماً مثلما لم يفلح ذلك المشهد القبيح في زيادة ما لديها من حب لزوجها. وعندما يغفو، تخرج إلى سطح السفينة حيث ينتظرها حسن نافذ الصبر كي يرى قامتها الرشيقة المتمايلة؛ لكنها تحصي الدقائق جزعة إلى أن يناديها الواجب فتعود إلى الكابينة النتنة حيث تفكر (وقد أثرت تضحيتها في نفسها) في الهواء النقي وفي الصوت الرقيق الذي يكلمها في الحب. ما كانا يتكلمان على حبهما، بل على حب الآخرين. وكان الأمران سيان. أسمعته قصائد حب أوروبية، وأسمعها قصائد حب شرقية، وكان الأمران سيان. لم يسبق لأي منهما أن استخدم هذا القدر كله من كلمات الآخرين، لكنها كانت كلمات اخترعاها بنفسيهما. يحتميان من الريح خلف كابينة القبطان، أو خلف صناديق وحزم كثيرة فوق سطح السفينة، ويحميان نفسيهما بقصائد الشعر أيضاً. عندها، وجد الشعر تبريراً تاماً له مهما يكن ما قيل عنه قبلهما. وعندما صارت المرأة مدركة خطيئتها، عندما أحست أن كل شيء صار جميلاً أكثر مما ينبغي أن يصير، كانت تعود فتعاقب نفسها بزوجها وبتضحيتها. يهمس لها الشاب «ماريا» مستفيداً من سماحها له بأن يناديها باسمها، سماح بدا له نعمة كبيرة.. «ألن تخرجي هذا المساء؟».

«لا، يا صديقي العزيز. الإكثار من الشعر ليس حسناً إذا جاء دفعة واحدة، فمن الممكن أن يصير مرهقاً. ثم إن الريح باردة. لن أسامح نفسي أبداً إن أصابك زكام».

«ماريا». يقولها الشاب مبهور الأنفاس.. «ماريا».

«ماذا، يا صديقي العزيز؟»

«أيعني هذا أنني لن أراك حتى الغد».

تركته يمسك يدها وراحت تصغي إلى اصطفاق أمواج البحر وإلى نبض دمه. لعلها أرادت أن تنسى أمره! لكنها لم تلبث أن استيقظت، «تعال إلى كابينتنا».

ذهب معها ودخل الكابينة، دخل كي يخنقه جوها النتن وحدودها الضيقة، كي يرقب حائراً تفاني ماريا في رعاية زوجها. خشي أن يؤدي ذلك إلى إصابته بدوار البحر مثله. مكتبة سُر مَن قرأ

مع اقترابهم من دوبروفنك، في ليلة الإبحار الأخيرة، شدت على يده (حاول استبقاء كفها في كفه فلم ينجح) وقالت، «سوف أتذكر هذه الرحلة دائماً».

لعلها لن تنساها بسبب حسن وبسبب الشعر، أو بسبب زوجها وكثرة تقيؤه!

حلّ ضيفاً عزيزاً على بيتهما في دوبروفنك إذ زارهما مرتين أمضاهما بين عمات وخالات وأقارب ومعارف وأصدقاء. وفي المرتين، ما كان يطيق انتظار فرصة الهرب من أولئك الغرباء الذين قد لا يلاحظون زيه الشرقي إن رأوه في الشارع لكنهم ينظرون إليه في صالون السيد لوك والمدام ماريا فيرونه أعجوبة. رأوه أعجوبة كأن ثمة أمر غير لائق في زيارتيه، فجعله ذلك في حال مضطربة، غير طبيعية. وعندما واجهته برودة في اهتمام ماريا جعلتها تبدو كأنها غير مبالية، أو بعيدة، أو جعلت ابتساماتها له تبدو متصنعة، صار واضحاً أن بيتها هو المكان الذي يستطيع فيه أن يرى كم هي المسافة الحقيقة الفاصلة بينهما. هناك، في بيتها، كانا غريبين يقف كل شيء بينهما طيلة الوقت، بل منذ البداية. العادات والتقاليد هناك، وكيف يتكلم الناس وكيف يصمتون، وما رآه كل منهما في الآخر من قبل، حتى من غير أن يعرف كل منهما الآخر.. ذلك كله خلق شرخاً بينهما. بات موقناً أن ماريا تكون في هذه المدينة محمية، مسوّرة ببيوت المدينة وجدرانها وكنائسها ورائحة بحرها، وكذلك بناسها. لكن هذا الجانب من ذاتها ما كان هو نفسه في أي مكان آخر. كان هو من تُحمى منه، بل ربما منه وحده. وأيضاً، ربما كان هو محمياً منها. ذلك أنه بات يرتعش عندما يفكر في العيش في هذا المكان الرائع، وحده أو معها، فيتسلل إلى روحه حزن ما عرفه من قبل. أسعده أن يستأذنها في الرحيل عندما صادف قافلة تجارية موشكة على الذهاب إلى البوسنة منطلقة

من تابور في بلوتشه.[1]* كان ما يزال سعيداً عندما أبصر الثلوج على جبل إيفان، وأبصر ضباب البوسنة، وأحس رياح جبل إغمان القارسة.[2]** امتلأ حبوراً عندما دخل القصبة المحصورة بين الجبال، وقبّل وجنات أبناء جلدته. بدت له القصبة أصغر حجماً؛ لكنه بيته بدا كأنه قد كبر. قالت له أخته متأدبة إن من المؤسف أن يظل بيت أمهما خالياً. خشيت أن ينتقل ويسكن في بيت أبيه لأنه أكثر اتساعاً. على الفور، وقعت مواجهة بينه وبين أبيه؛ ولعل السبب الأول لها هو أن العجوز أحس خيانة وعاراً شخصيين لأنه كان يتكلم بين الناس على أمجاد ابنه ونجاحاته في استنابول كي يغيظ صهره القاضي الذي لم يستطع أن يطيقه. اعتبر أهل القصبة عودة حسن فشلاً لأن ما من عاقل يعود من القسطنطينية إلى القصبة ويهجر وظيفة سلطانية رفيعة إلا إذا وجد نفسه مضطراً إلى ذلك. تزوج حسن. تزوج بسبب ماريا، بسبب ذكرياته، بسبب الغرف الفارغة في بيت أمه، وكذلك بسبب من إلحاح الآخرين. ما كاد يطيق قضاء أكثر من شتاء واحد مع زوجته: امرأة غبية جشعة ثرثارة. حرر نفسه منها ومن عائلتها فأعطاهم الأرض الواقعة على مقربة من القرية وفوقها مبلغ من المال تظاهر بأنه يقرضهم إياه. ثم راح يضحك. ما كان موطنه أرض الأحلام؛ وما كان أبناء موطنه ملائكة. ما عاد قادراً على تغييرهم كي يصيروا أحسن حالاً، أو أسوأ حالاً. كانوا يتناقلون نمائم عنه، ويرتابون فيه، ويحاولون استفزازه. سرقه أهل زوجته من غير حياء إذ استغلوا رغبته في التخلص منها في أسرع وقت ممكن. ظل زمناً طويلاً حديث البلدة كلها؛ وكان الناس يرحبون به لأنه يبدد ضجرهم. كان يتذكر كيف كان يتكلم في القسطنطينية على كرامة أهل موطنه وعزّتهم، فضحك كثيراً، ضحك من نفسه منهم. ولحسن حظه، كان يضحك منهم بينه وبين نفسه لأنه لم يحمل شيئاً على أحد، ولم يتذمر. كان يعتبر كل ما يصيبه أشبه بنكتة قاسية. وكان يقول إن بقية الناس أسوأ حتى من هؤلاء. بدا لي أنه كان بهذا يدافع عن حماسته الأولى أكثر من دفاعه عن الحقيقة.

---

(1) بلوتشه: ضاحية في شرق مدينة دوبروفنك، خارج أسوارها، وتابور مبنى من القرن السادس عشر كان يجري حجر المسافرين إلى تلك المدينة مدة ستة أسابيع قبل دخولها.

(2) يشكل جبل إيفان الحدود الطبيعية بين البوسنة والهرسك. ويقع جبل إغمان إلى الغرب من مدينة سراييفو.

ثم بدأ يعود إلى حب أهل القصبة بعد سنتين أو ثلاث سنين. ألفَهم وألفوه، وبدأ يقدّرهم بطريقته الخاصة: يزدريهم، لكن من غير ضغينة، ويحترم الحياة كما هي أكثر من احترامه ما أراد لها أن تكون. قال لي مرة، «إنهم أذكياء»؛ قالها بمزيج من التهكم والجد، ذلك المزيج الذي يحيرني دائماً. «أخذوا كسلهم من الشرق وحياتهم الحلوة من الغرب. ليسوا في عجلة من أمرهم لأن الحياة نفسها ليست في عجلة من أمرها. لا تهمهم رؤية ما سيأتي به الغد، فالمكتوب مكتوب، وسوف يقع؛ ثم إن الأمر غير متوقف عليهم. لا يجتمعون معاً إلا حين يواجهون مشقة. من هنا، لا يحبون أكثر الأحيان أن يكونوا معاً. لا يكادون يولون أحداً ثقتهم، لكن من السهل خداعهم بكلمات حلوة. لا يبدون أبطالاً، لكن من الصعب كثيراً أن يخيفهم الوعيد. يظلون زمناً طويلاً من غيرما انتباه إلى أي شيء، ولا يبالون بما هو جارٍ من حولهم، ثم يصيرون مهتمين بكل شيء من غير سابق إنذار، ويعبثون بكل شيء، ويقلبون كل شيء رأساً على عقب. ثم يغفون من جديد ولا يعودون راغبين في تذكر أي شيء مما جرى. يخافون التغيير لأنه يأتيهم بالمصائب أكثر الأحيان. ومن السهل أن يغضبوا من واحد من الناس حتى إذا فعل خيراً لهم. بشر عجيبون! يتكلمون عليك خلف ظهرك ويحبونك. يقبلون وجنتيك ويكرهونك. يسخرون من أفعالك النبيلة ويتذكرونها على مر الأجيال. يعيشون على الضغينة وعلى الكرم، ولا تعلم أبداً أيهما سيسود، أو متى. أشرار، أخيار، لطيفون، قساة، كسالى، صخّابون، منفتحون، منغلقون.. هم هذه الأمور كلها، وكل أمر آخر بينها. وفوق هذا كله، هم ناسي وأنا واحد منهم، مثل النهر وقطرة الماء. كل ما أقوله عنهم يمكن أن أقوله عن نفسي».

وجد ألف سبب لانتقادهم، لكنه ظل يحبهم. ظل يحبهم ويوبخهم. بدأ يخرج في قوافل تجارية صوب الشرق وصوب الغرب. وكان جزء من هذا ناجماً عن سخطه فقد أراد إظهار احتقاره المناصب التي تقلدها بعد أن أغضبه لوم أشخاص بارزين في القصبة؛ ولعل السبب الأهم في أسفاره هو رغبته في أن يحظى باستراحة من القصبة وأهلها حتى لا يكرههم، وحتى يشتاقون إليه من جديد. بهذه الطريقة، يستطيع أن يرى أموراً رديئة في بلاد أخرى أيضاً. إنه ذلك الدوران الدائم من حول

نقطة واحدة على الأرض، نقطة ثابتة تمنح تلك الحركة معناها وتجعلها رحيلاً وعودة، لا تجوالاً فحسب. كان يجد في هذا حرية ـ حقيقية أو متخيلة، فالأمر كله سواء في آخر المطاف. قال لي، «من غير تلك النقطة التي تكون مربوطاً إليها، لن يعجبك أي مكان آخر، ولن يبقى لديك مكان تذهب إليه لأنك تكون في لا مكان».

هذه الفكرة من أفكار حسن ما كانت واضحة لي تمام الوضوح، هذا الارتباط المحتوم والسعي إلى التحرر، هذه الضرورة في أن تحب من أجل نفسك وفي أن تكون محتاجاً إلى فهم الآخرين. هل كان هذا نوعاً من مصالحة غاضبة مع محيطه الصغير وإشباعاً لرغبة في محيط أكبر؟ أم كان تغيراً في المعايير حتى لا تصير معاييره واحدةً لا يعرف غيرها؟ أو، لعل هذا كان هروباً محدوداً بائساً، ثم عودة أكثر بؤساً. وجدت صعوبة في فهم الأمر لأن عندي طريقة تفكير مختلفة: ثمة عالمٌ مع إيمان قويم، وعالم من غيره. وأما الاختلافات الأخرى فهي أقل أهمية؛ ولسوف أعثر على مكاني حيثما يمكن أن تنشأ حاجة إليّ.

في الربيع الذي أعقب عودة حسن من القسطنطينية، أتى السيد لوك إلى القصبة مع زوجته، مع المرأة التي من دوبروفنك؛ وبدأ كل شيء من جديد: بدأ بحيوية جديدة وبقيود جديدة.

ما كانت القصبة مناسبة لحبهما. فحيثما وُجدا، يكون واحداً منهما دخيلاً. حتى إن كانا قد اخترقا الحواجز بين الحي اللاتيني والقصبة المسلمة، فقد ظلت الحواجز بينهما قائمة. لا بد أن المرأة ما عادت قادرة على مخادعة نفسها والقول إن ما بينهما صداقة فقط. لكنها لم تسمح لنفسها بأي أمر غير النظرات والكلمات الرقيقة.. أو هذا ما كان ظاهراً، على الأقل. وأظنها كانت تذهب إلى الاعتراف في الكنيسة فتقرُّ نادمة بأفكارها الآثمة عن الحب بينها وبين حسن. يذهب حسن في أسفاره، ثم يعود مثقلاً بالرغبة التي نمت فيه أثناء شهور غيابه الطويلة. أيكون هذا الحب الغريب هو ما منح تجواله معناه؟ أيكون هذا مبعث إحساسه بأنه محكوم بمكان واحد مرتبط به، وبأن عليه أن يسعى دائماً إلى تحرير نفسه؟

ما كان هذا إلا جزءاً من حقيقة حسن. ما سمعته، وما علمته، وما فهمته، وما استنتجه، وما جمعته في كلٍّ غامض الملامح. قصة مرهقة عن رجل من غير موطن حقيقي أو بلد حقيقي، من غير حب حقيقي، من غير أفكار حقيقية؛ قصة عن رجل جعل عدم يقينه بمساره في الحياة قدراً بشرياً من غير تذمر أو شكوى من أنه كذلك. لعل في هذه المصالحة قدرٌ من الشجاعة والسكينة المبهجة، لكنها كانت فشلاً.

كان هذا الإدراك كبير القيمة عندي فقد رأيت أنه ليس أقوى مني.

لكني كنت مسحوراً وقتها. فضلت أن أخترع قصصاً خيالية عن صديقي العظيم: كان يا ما كان؛ كان ثمة بطل كشف بعقله ومعرفته كل ما في استانبول من مدرسين. لو أراد، لكان قادراً على أن يصير ملا القسطنطينية أو أن يصير وزير السلطان. لكنه كان عاشقاً حريَّتَه فسمح للسانه أن ينطق من غير قيد معبراً عن أفكاره. لا مدح أحداً، ولا كذب، ولا تكلم فيما لا يعرف، وظل على الدوام قليل الكلام على أفعاله من غير أن يخشى الأقوياء وأصحاب النفوذ. أحب الفلاسفة والشعراء والمنعزلين والرجال الأخيار والنساء الجميلات. ترك القسطنطينية مع امرأة منهن، وذهب إلى دوبروفنك، ثم لحقت به إلى القصبة. كان يزدري المال والمناصب الرفيعة والنفوذ؛ وكان قليل الاكتراث بالخطر إذ يبحث عنه في طرق مظلمة وفي جبال مقفرة. إن قرر شيئاً، فهو يفعل ما أراد، ثم يسمع الناس كلهم بأفعاله.

مضحك حقاً كيف يفلح إدخال تعديلات صغيرة، وتجاوزٌ عن بعض التفاصيل، وإغفالٌ للأسباب، وتغييرٌ طفيف في الوقائع الحقيقية، في أن يحوّل الهزائم إلى انتصارات، في أن يحول الفشل إلى بطولة.

لكن علي الاعتراف بأن حسناً ما كانت له أية مساهمة في اختلاق هذه القصة الخيالية. كان في حاجة إليها لكنه ما احتلق منها شيئاً. نود دائماً تصديق أن ثمة أشخاص قادرين على اجتراح مآثر عجيبة. وبمعنى من المعاني، كان حسن هكذا؛ كان قادراً على اجتراح تلك المآثر، على الأقل من حيث أسلوبه في التعامل مع كل ما يقع له. يعوض عن خسائره بابتسامة، ويخلق ثراءه الداخلي الخاص به. كان مؤمناً بأن الحياة غير مقتصرة على الانتصارات والهزائم لأن فيها أيضاً

تنفس ونظر وإصغاء وحب وكلمات وصداقات وحياة عادية؛ وهذا معتمد علينا في أكثره، لا على غيرنا.

نعم، لا بأس.. هذا كله موجود. أظنه موجوداً على الرغم من كل شيء. لكن القصة كلها سخيفة إلى حد كبير تبدو معه كأنها نابعة من تفكير طفل. ازداد اضطراب علي آغا كثيراً قبل ثلاثة أيام من عودة حسن، فصار غير قادر على الكلام ولعب الطاولة، غير قادر على الأكل والنوم.

كان يسأل من غير انقطاع، «هل من أنباء عن قطاع الطرق؟» ثم يرسلني مع فضلي كي نسأل أهل القوافل في الخانات. نأتيه بأخبار طيبة، لكنه يرفض تصديقها، أو يفسرها تبعاً لمخاوفه: «إن كانت هجماتهم متوقفة منذ بعض الوقت، فهذا أسوأ. تزداد جرأتهم. ما من أحد يلاحقهم؛ وقد يهاجمون الطريق في أي وقت». وعلى نحو مفاجئ، يأمر خادمه ـ من غير أن يلتفت إلى ابنته، زوجة القاضي، التي دخلت الغرفة لأنه منشغل بما هو أكثر أهمية منها ـ ويقول له، «يا فضلي! اجمع عشرة رجال مسلحين، وخذ خيولاً، واخرج كي تلاقيه. انتظره في تريبينيه[1]*».

«سوف يغضبه هذا، يا آغا».

«فليغضب! جد لنفسك سبباً يبرر وجودك هناك. اذهب واشتر تيناً، أو افعل ما تشاء. لكن لا تعد من غيره. إليك بعض المال. لا توفر شيئاً. أرهق الخيول إن اضطررت إلى إرهاقها، لكن عليك أن تصل من غير تأخير».

«وماذا عنك أنت، يا آغا؟»

«سأكون في انتظارك. هذا ما سأفعله. لا أريد سماع أية أسئلة. تحرك!».

سألته ابنته، «ألديك مال كافٍ أم أعطيك مالاً؟»

«لا. لدي ما يكفي. اجلسي».

جلست على الأريكة عند قدمي أبيها.

أردت أن أنصرف مع الخادم، لكن العجوز استوقفني كأنه لم يرد البقاء وحيداً مع ابنته. سألني: «أين أنت ذاهب؟»

«سأذهب إلى التكية».

---

(1) تريبينيه: مدينة واقعة شرق الهرسك على مبعدة نحو ثلاثين كيلو متراً من ساحل دوبروفنك.

«تستطيع التكية تدبر أمرها من غيرك. إن كنت مريضاً مثلي، فسوف ترى أن كل شيء يستطيع أن يتدبر أمره من غيرك».

قالت المرأة بنبرة هادئة، من غير ابتسام: «لكن ثمة أمور لا نستطيع الاستغناء عنها حتى في مرضنا». كانت كأنها تؤنبه بهذا التلميح إلى حسن.

«وما يدهشك في هذا؟ هل ترينني قد متُّ وصرت قادراً على الاستغناء عن كل شيء؟»

«لا، لم تمت.. لا قدر الله! لا يدهشني شيء».

أحسست قدراً من عدم الراحة، بسببها. ما أزال أتذكر ذلك الحديث وتلك الخطة الغادرة بيني وبينها. أشحت بوجهي عنها حتى لا تتلاقى عيوننا. كانت جميلة، هادئة، واثقة، مثلما كانت يوم حديثنا في بيتها، ذلك الحديث الذي ما استطعت نسيانه ولا استطعت نزعه من ذاكرتي. كانت مثلما أراها في ذكرياتي التي لا تنفكّ تأتيني رغماً عن إرادتي.

أشحت بوجهي، لكني ظللت أراها. تألق شيء في داخلي، وأحسست نفسي مضطرباً. لقد ملأتْ الغرفة كلها وما عاد فيها غيرها. صار كل ما في الغرفة مثيراً بطريقة غريبة. لقد وقع الإثم بيني وبينها واشتركنا معاً في حمل سر.. شيء يشبه الزنا.

ولكن، كيف تستطيع أن تكون هادئة هكذا؟

سألتْ أباها مبدية اهتماماً، «ألست في حاجة إلى شيء؟ أليس صعباً عليك أن تكون وحيداً؟»

«بقيت وحيداً زمناً طويلاً جداً، وقد ألفت الوحدة».

«ألم يستطع حسن تأجيل رحلته؟»

«أنا من أرسله في تلك الرحلة. أرسلته في عمل».

ابتسمتْ لسماع تلك الكذبة. قالت، «يسعدني أنه مع أصدقاء. يصير الأمر أكثر سهولة على المرء عندما لا يكون وحيداً. سوف يساعدونه ويساعدهم. لم أعلم برحيله إلا اليوم فأسرعت إليك كي أطمئن عليك».

«كان في وسعك أن تأتي حتى قبل ذهاب حسن».

«لم أفارق الفراش إلا منذ فترة بسيطة».

«لماذا كنت طريحة الفراش؟»

«يا ربي! هل أنا مطالبة بقول كل شيء؟ الظاهر أنك ستصير جَداً».

لمعت أسنانها اللؤلؤية عندما ابتسمت: لا اضطراب ظهر عليها ولا خجل.

اتكأ العجوز على مرفقه ونظر إليها مذهولاً، مضطرباً قليلاً، أو.. هذا ما بدا لي.

«أأنت حبلى؟»

«يبدو هذا».

«أأنت حبلى، أم أن الأمر يبدو هكذا فحسب؟»

«بل حبلى».

«آه.. أهنئك! ».

قامت إليه وقبلت يده، ثم عادت إلى مكانها وجلست عند قدمي العجوز.

«آمل هذا من أجلك أنت أيضاً. أنا واثقة من أنك تحب أن يكون لديك حفيد».

ظل العجوز ينظر إليها كأنه لم يصدق ما قالته. أو لعل النبأ أثاره إلى حد جعله غير قادر على رفع ناظريه عنها.

قال بصوت خفيض معترفاً بضعفه، «أحب أن يكون لي حفيد. آه، كم أحب هذا!»

«وماذا عن حسن؟ هل سيتزوج؟»

«لا أظن هذا».

«أمر مؤسف. أنت تفضل أن يأتيك حفيد من ابنك على أن يأتيك حفيد من ابنتك».

ضحكت كأنها قالت تلك الجملة مازحة، مع أنها امرأة لا تنطق كلمة واحدة من غير سبب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«يا ابنتي، أريد أن يكون لي حفيد. حفيد منه، حفيد منك، لا أهمية لهذا. إن أتى حفيدي من ابنتي، أكون أكثر يقيناً من أنه من دمي؛ فلا مجال للخطأ. لقد بدأت أخشى ألا أعيش إلى أن أرى لي حفيداً».

«دعوت الله ألا يتركني من غير ولد. وهكذا، استجيب دعائي. الحمد لله».

بالطبع!.. الدعاء مفيد جداً في هذا الأمر!

أصغيت إلى حديثهما وصعقني تمهلها البارد. فاجأني كيف اختبأت قسوتها من خلف وجهها الجميل المسالم؛ وكنت مسروراً بثقتها التي تكاد تكون رجولية. ليس فيها شيء من حسن أو من علي آغا. وليس فيهما شيء منها. فهل فشل دم أبيهما في أن يظهر فيها، أن أنه لم يعطها إلا ما لم يستطع إظهاره فيه وفي ابنه؟ أم لعلها كانت تثأر لنفسها من حياة فارغة، من افتقار إلى الحب، من موت أحلام صباها؟ صارت قاسية لأن آمالها قد خابت؛ وراحت الآن تسوّي حساباتها مع العالم كله، تسوّيها هادئة من غير أسف أو ندم، من غير شفقة. كم كانت نظرتها إليّ هادئة.. كأني غير موجود هنا، وكأن ذلك الحديث المخزي في البيت القديم ما دار بيننا. إما أنها تزدريني إلى حد جعلها تنسى كل شيء، أو أنها باتت امرأة لا تعرف معنى الخجل. أنا ما سامحتها على مقتل أخي؛ وما كنت أعرف كيف أتعامل معها في نفسي، فهي الشخص الوحيد الذي لم أضعه في هذا الجانب أو ذاك، بين أصدقائي القلائل أو بين أعدائي المكروهين. لعل هذا كان نتيجة إصرارها العنيد في ألا تفكر إلا في نفسها، نتيجة أنها لا تقيم وزناً لأحد غيرها. كانت امرأة تعيش من أجل ذاتها؛ بل ربما من غير إدراك منها لأنها لا تقيم اعتباراً لأحد ولا تراعي أحداً. مثل الماء، مثل السحاب، مثل عاصفة. لكن، لعل السبب أيضاً كامن في جمالها. لست أشكو ضعفاً إزاء النساء، لكن لها وجهاً يصعب على المرء أن ينساه.

ظل العجوز ينظر إلى الباب بعد ذهابها، ظل زمناً طويلاً ينظر إليه. ثم التفت صوبي.

قال كأنه غارق في أفكاره، «حبلى. حبلى. ماذا تقول في هذا؟»

«ماذا يمكن أن يكون عندي من قول؟»

«ماذا يمكن أن يكون عندك من قول؟! ألا تستطيع أن تهنئني؟ لكن، لا تهنئني الآن فقد فات أوان ذلك. لم تهنئني، وهذا يعني أنك لا تصدقها. مهلاً.. لست أفهم الأمر أيضاً. ظل صهري المحترم سنوات طويلة غير قادر على أن يضع بذرته فيها. وأنا واثق من أن تقدم السن به لم يجعله أكثر خصوبة. الأمل والدعاء لا يجديان فتيلاً في هذه الأمور. إلا إذا.. إلا إذا كان شخصٌ أكثر فتوة - وليسامحني الله - قد قفز من فوق السور! لا يهمني الأمر؛ ولا فارق عندي. بل إني أفضّل أن يكون الأمر هكذا كي لا يستمر نسل القاضي العفن. لكن من الصعب كثيراً على كل من يعرفها أن يصدق أمراً من هذا النوع. لا يمكن أن تستسلم لأحد. هي شديدة الاعتداد بنفسها؛ وهذا ما يجعل الأمر خطيراً جداً.. إلا إذا كانت قد قتلت الرجل بعد ذلك. لم نسمع بمقتل أحد! إذاً، فلماذا أتت لتقول لي هذا؟ إلا أن الأمر غير قابل لأن يُخفى فسوف نعلم إن كانت حبلى أم غير حبلى. كانت واثقة من أن كلامها سيسعدني. فهل بدوت سعيداً؟»

«لست أدري. أنت لم تُهدِها شيئاً».

«إذاً.. ألا ترى؟ لا أنا أهديتها، ولا أنت هنّأتني. ألا يعني هذا أن ثمة أمراً في غير مكانه؟»

«لا بد أن الأمر قد أثارك كثيراً جداً فأنساك كل ما عداه».

«لم يثرني الأمر. لكن، لو صدقتُها لما نسيت أن أهديها. أثارت قلقي بأكثر مما جعلتني سعيداً، لست أفهم هذا».

«لماذا أثارت قلقك؟»

«تريد مني أمراً، لكني لا أعلمه».

عندما جئت إليه بعد صلاة العصر في اليوم التالي، استقبلني العجوز بنشاط غير مسبوق، ببهجة متكلفة. قدم إلي تفاحاً وعنباً مما أرسلته إليه ابنته. قال: «سألتْني عما أحب أن تعدّه لي فأرسلت إليها هدية، عقداً من قطع نقود ذهبية».

«أمر جيد أنك فعلت هذا».

«كنت مرتبكاً يوم أمس. أمضيت الليلة الماضية من غير نوم. فكرت وفكرت. ما الذي يمكن أن يجعلها تكذب علي؟ وماذا تستفيد من ذلك؟ إن كان هذا

من أجل الأرض، فهي عالمة أنها ستحصل على جزء منها. وأنا لا أستطيع أن آخذ الأرض معي عندما أموت. أو لعل صهري البائس، ذلك القاضي، قد أفلح أخيراً قبل أن يلفظ أنفاسه ويموت مثلما تموت شمعة وأقدم على الفعلة الشريفة الوحيدة في حياته كلها. أو لعل الله أراد هذا وسخّر له وسيلة من عنده! الحمد لله كيفما كان الأمر. لكني صدقت أن النبأ صحيح. لا أستطيع العثور على سبب يجعلها تكذب».

«ولا أنا».

«ولا أنت؟! إذاً، أنت ترى ما أراه! ما يزال ممكناً خداعي لأن في قلبي حباً أبوياً. لكنك لا تعاني هذا الضعف».

لقد صدق الأمر لأنه أراد تصديقه. ولسوف يعاني حسن قدراً غير قليل من المشكلات نتيجة سعادة أبيه، أو ما يحسه الآن، مهما يكن هذا الذي يحسه.

اعتزمت البقاء مع علي آغا فترة أطول. أثار اضطرابه النبأ الذي سمعه من ابنته (النبأ الذي لم أصدقه، لكني لم أقل له هذا). وأيضاً، كان مضطرباً نتيجة قرب عودة حسن. يخفق قلبي كلما تذكرت أنه عائد. لكن الملا يوسف جاء واستدعاني إلى التكية: الميرالاي[1]" عثمان بيك في انتظاري هناك. كان ماراً بالمنطقة مع جنوده فأحب أن يمضي ليلته عندنا.

استمع العجوز إلى ذلك مهتماً. سألني: «أهو عثمان بيك الشهير؟ هل أنت على معرفة به؟»

«سمعت باسمه، لا أكثر».

«إن لم يكن لديكم متسع كافٍ هناك، وإذا قبل الميرالاي عثمان بيك هذا، فادعه باسمي كي يأتي إلى بيتي. ثمة متسع هنا، وعندنا مكان له ولمرافقيه. سيكون شرفاً لنا إن حلَّ في هذا البيت ضيفاً «.

لقد أظهر كرمه المعتاد، لكنه عبر عن نفسه بأسلوب متجهم قديم الطراز. كان لديه ضعف إزاء المشاهير. هذا ما جعله يغضب لأن حسن كان غير مهتم بأن يصير واحداً منهم.

---

(1) الميرالاي: رتبة عسكرية عثمانية تقابل رتبة عقيد.

ثم لم يلبث أن غير رأيه «لكني أظن من الأفضل أن يظل في التكية. لقد ذهب فضلي لملاقاة حسن. وزينة منشغلة بي، فهي من ترعاني هنا. لن أستطيع استقباله استقبالاً لائقاً».

علمت ما جعله يغير رأيه. كان ذلك بسبب حسن.

حاولت طمأنته، «لا أظنه يأتي. يذهب مسؤولو السلطنة إلى التكية عندما يريدون ألا يسيئوا إلى أحد.. أو عندما لا يثقون بأحد».

«أين عسكر جنوده؟»

«لست أدري».

«لا تقل له شيئاً. بل إني أظن حسناً لن يعجبه الأمر إذا علم بأن الميرالاي بات ليلته في بيتنا. أنا لا يعجبني الأمر أيضاً..» أضاف هذا متفقاً مع ابنه بكل رحابة صدر.. «إذا رأيت في أنك في حاجة إلى فراش أو طعام أو أطباق، فأعلمني بهذا».

«هل يستطيع بعض دراويش التكية أن يباتوا هنا.. إن لزم الأمر؟»

«تستطيعون القدوم جميعاً».

التقيت في الطريق الصائغ يوسف سنان الدين. كان ذاهباً لرؤية علي آغا، مثلما يفعل كل مساء. رأيته واقفاً عند ناصية الشارع كأنه مُصغٍ إلى شيء. رآني، فسرت صوبه.

بدا لي شارداً شروداً غريباً عندما قال: «لديك ضيف من المشاهير».

«سمعت بهذا قبل قليل».

«اسأله عن مشاعره. لقد اكتسب شهرته في ميادين القتال ضد أعداء السلطنة؛ وهو الآن ذاهب لقتل أهلنا. إنه ذاهب إلى بوسافينا. ما أرذل التقدم في السن! ليته مات في وقته!»

«لا أستطيع سؤاله عن هذا، يا سنان الدين آغا».

«أعلم أنك لا تستطيع. وأنا أيضاً، لا أستطيع. لكن من الصعب ألا يفكر المرء في هذا». توقف عند البوابة وبدا لي أنه يحاول أن يسمع شيئاً.

أرسلت الحافظ محمد والملا يوسف لقضاء الليلة في بيت علي آغا. أخذت غرفة الحافظ محمد وقدمت غرفتي إلى عثمان بيك. وضعنا الحراس في غرفة الملا يوسف.

فوجئت عندما رأيت كم كان الميرالاي عجوزاً، متعباً، صموتاً، أبيض اللحية. لكنه ما كان فظاً مثلما توقعت. اعتذر لأن قدومه أزعجني، لكنه لا يعرف في القصبة أحداً، فبدا له أن من الأنسب أن يأتي إلى التكية. صحيح أن نزوله في التكية يناسبه تماماً، لكنه لا يناسبنا، بكل تأكيد! إلا أنه عبر عن أمله في أن نكون قد ألفنا استقبال ضيوف غير منتظرين؛ ثم إنه لن يقيم عندنا إلا تلك الليلة قبل أن يتابع رحلته في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. كان في وسعه أن يمضي الليلة مع جنوده في الفلاة. لكنه صار كبير السن، وصار من الأفضل له أن يمضي الليل تحت سقف. فكر في الذهاب إلى صائغ القصبة حجي سنان الدين لأن ابنه من أصدقائه، لكنه لم يدر من قد يسرّه ذلك ومن قد يسوؤه. من هنا، فضل أن يأتي إلينا مع أن لديه أنباء يود إيصالها إلى حجي سنان الدين، أنباء عن ابنه: قبيل انطلاق الميرالاي من استانبول قادماً إلى هنا، تم تعيين ابن حجي سنان الدين سلحداراً[1]* سلطانياً. فهل أستطيع أن أزف إليه هذا النبأ؟ قد يسعده سماعه.

قلت شبه مصعوق: «بالطبع، سيكون سعيداً! لم يحدث من قبل أن بلغ واحد من أهل القصبة هذه المنزلة الرفيعة».

لكن الضابط العجوز كان قد استنفد ما لديه من كلمات ومن قدرة على التركيز فظل صامتاً، مرهقاً، من غير ابتسامة على وجهه. كان تواقاً إلى البقاء وحيداً كي ينام.

ذهبت إلى غرفتي ووقفت عند النافذة؛ وقفت مستيقظاً، منزعجاً إلى أقصى حد.

السلحدار السلطاني.. واحد من أوسع الناس نفوذاً في السلطنة كلها!

(1) سلحدار: واحد من أصحاب المناصب الكبيرة لدى الباب العالي، مسؤول عن تسليح الجيش (أصل الكلمة واضح: دار السلاح).

لم أدر سبباً لما أحسسته من إثارة بعد سماع هذا النبأ. لو سمعته في ما مضى، لما باليت به. كان ممكناً أن يفاجئني حُسنُ حظه، أو أن يسعدني. بل ربما كان ممكناً أيضاً أن أشفق عليه. لكن سماعي هذا النبأ الآن كان أشبه بالسم. قلت في نفسي إن هذا جيد له.. جيد له. لقد بلغ لحظة يستطيع عندها أن يستدّ من أعدائه. من المؤكد أن لديه أعداء. وهم الآن خائفون في انتظار أن تصيبهم يده التي صارت ثقيلة كثقل الرصاص، صارت ثقيلة بين عشية وضحاها؛ وسوف تهوي عليهم تلك اليد الحبلى بموت كثير منهم. بدا ذلك أمراً مستحيلاً كأنه حلم، كأنه وهم؛ بدا أمراً حَسناً إلى درجة تكاد تجعله يقول: يا ربي، أية سعادة هذه؟ سعادة يصعب تصورها.. سعادة أن يصير المرء قادراً على الفعل. محزن هو الإنسان عندما يكون وحيداً مع أفكاره التي لا طائل منها، مع أمانيه التي تعلو حتى تداني النجوم؟ عجزُه ذُلٌّ له. لن ينام السلحدار مصطفى ليلته هذا، تماماً مثلما لم أنم ليلتي: كل ما في داخله مستثار لهذه السعادة التي لم يألفها بعد. ومن تحته استانبول الغارقة كلها في ضياء القمر، الهادئة، استانبول ذات السقوف الذهبية. فمن غيرَه أيضاً لم ينم هذه الليلة، لم ينم بسببه؟ يعرفهم جميعاً، يعرفهم عن ظهر قلب، يعرفهم أكثر مما يعرف بني جلدته. يسألني صابراً، يسألني بصوت خافت، «كيف حالك؟ ما إحساسك الليلة؟». لم يعلُ به القدر من أجلهم؛ لم يعل به كي يعاقبهم أو يلقي الذعر في قلوبهم. لديه أمور أخرى أكثر أهمية منهم؛ لكنه ليس قادراً على ترك أولئك الرجال وشأنهم. وذلك أن تلك الأمور المهمة نفسها، تلك الأمور تحديداً، تجعله غير قادر على ترك أولئك الرجال وشأنهم. آه.. وأيضاً لأن في قلبه كره لهم، بكل تأكيد. مستحيل ألا يحس ذلك الكره. مستحيل ألا يكون قد أخفاه في ذاته، حمله كأنه ضباب أو كأنه سم جارٍ في دمه. مستحيل ألا يكون قد انتظر هذه الليلة مثلما ينتظر ليلة مقدسة كي يرد إليهم شرورهم كلها، كي يرد إليهم ما كان فيه من عجز.

تلك الليلة، كان في نفسي وجهان. كنت عالم مقدار بهجة السلحدار الجديد، بل إني أحسست نصره كأنه نصر لي. لكنني حالي ساءت أيضاً لأن رغباتي ما كانت إلا هواء ونوراً، ما كانت إلا نوراً متألقاً، مشتعلاً في داخلي فقط، نوراً يريحني ويعذبني.

تمنيت أن أصيح في الليل: لماذا هو دوناً عن الناس جميعاً؟ أهو من اشتدت به الحاجة إلى الاقتصاص أكثر مما اشتدت عند غيره؟ أتكون أمنياتي أقل شأناً من أمنياته؟ فأي شيطان أبيعه روحي التعسة حتى يُشرقَ علي حظ مثل حظه؟

لكني كنت أعذب نفسي من غير جدوى. القدر أصمّ أمام الحسرات، أعمى عندما يختار أدواته.

لو ما كان الوقت ليلاً لذهبت إلى الصائغ سنان الدين، لذهبت حاملاً إليه هذا النبأ عن ابنه. ما يزال غير عارف شيئاً، وما يزال الأمر بعيد عنه. ظل النبأ معي كأنه شيء ثمين أحفظه وأتمتع به مع أنه ليس لي. إن ذهبت الآن وأيقظته من نومه لن يزعجني الأمر ولن يزعجه، بل سيكون شاكراً لأنني أيقظته. ولسوف ينسى ما قاله على الميرالاي ويسرع إليه كي يشكره. لم أذهب. بل أظنني ما كنت قادراً على الذهاب لأن عند الباب حراس ساهرون. لن يسرني أن يوقفوني، أو أن يجعلوني أعود أدراجي. قد يبدو الأمر مريباً؛ وقد يكون خطيراً عليّ. لم أشأ الذهاب إلى غرفة الميرالاي كي أطلب إذنه. إن ذهبت إليه، فسوف يفاجئه الأمر: هل هي مسألة مهمة عاجلة جداً؟!

حقاً. لماذا أراها مهمة هكذا؟

صرت مستثاراً لشدة حسدي، لشدة كرهي، ولأني عشت في داخلي سعادة شخص غيري. ما من سبب آخر لأن الأمر كله ليس من شأني. وما كنت في عجلة من أمري كي أحمل النبأ إلى من يهمه سماعه. بقيت في التكية.

ما كان لي أن أرى، حتى في أحلامي، كم كان ذلك القرار الذي لا أهمية له قراراً مهماً.

لو ذهبت إلى حجي سنان الدين وأخبرته بما سمعت، فقط كي أسعد قلبه، أو كي نسهر الليل كله معاً، لاتخذتْ حياتي مجرى مختلفاً تمام الاختلاف. لست أقول إنها ستكون حياة أفضل، أو حياة أسوأ، لكنها ستكون مختلفة، مختلفة بكل تأكيد.

كانت القصبة رازحة تحت ثقل نومها كأنها تحترق احتراقاً بطيئاً في ضوء قمر الخريف. لا صوت فيها، لا صوت فيها أبداً: مات الناس جميعاً، ورفرفت الطيور مبتعدة، وجف مجرى النهر، واحترقت الحياة كلها، احترقت حتى استنفدت نفسها. لكن الطنين كان مستمراً في مكان آخر، في مكان بعيد، في مكان تقع فيه أمور يتمناها الناس. وهنا، من حولنا ظلمة وفراغ. ماذا كان علينا أن نفعل كي نترك خواء تلك الليلة الطويلة؟ يا رب! يا ربي! لماذا لم تبقني أعمى؟ لماذا لم تدعني مرتاحاً في ذلك العمى الهادئ المظلم؟ ولماذا تمسكني الآن مُقعداً في مصيدة العجز وانعدام الحول؟ حرِّرني، أو أخمد شعاع النور في داخلي، شعاع النور الذي لا جدوى منه. أطلقني! أطلقني كيفما شئت إطلاقي، فكله عندي سواء.

كان حظي حسناً فلم أفقد عقلي مع أن دعائي كان أشبه بالهذيان. ضعفي لم يدم طويلاً؛ وقبل شروق الشمس، بدأ الفجر في ذاتي. خبت ظلمتي رويداً رويداً، وبدأت فكرة واحدة تتشكل غامضةً، غير أكيدة، نائية، لكنها لا تنفك تقترب وتتضح وتصير أكثر جلاء إلى أن أنارتني كأنها شمس الصباح. أهي فكرة؟ لا، ما كانت فكرة! بل هي تجلٍّ من عند الله.

ما كان قلقي من غير أساس. كانت علّته مغروسة في داخلي مع أني ما فهمتها بعد وما أحطت بها. لكن البذرة بدأت تنمو.

أسرع أيها الزمن لأن لحظتي قد جاءت! هي لحظتي الوحيدة لأن غداً قد يكون متأخراً جداً.

وقع حوافر خيل تردد في الشارع منذ أول الفجر. خرج الميرالاي من غرفته، خرج على الفور كأنه ما غمض له جفن أبداً. وقد خرجت مثلما خرج. في ضياء الفجر الخافت، بدا لي عجوزاً أعمى بأجفانه المنتفخة، الرمادية، المرهقة. ترى، كيف أمضى ليلته؟

قال لي «سامحني لأني دخنت في الغرفة. دخنت كثيراً. لم أستطع نوماً. أنت لم تنم أيضاً. سمعت خطواتك طيلة الليل».

«لو دعوتني لتحدثنا».

«للأسف».

قالها بصوت ميت. لم أدر إن كان آسفاً لأننا لم نتحدث أم لأن أي حديث كان مضيعة للوقت.

رفعه جنديان حتى اعتلى صهوة حصانه. قاده في الشارع الخالي منحنياً فوق سرجه.

في طريق عودتي من المسجد رأيت الملا يوسف أمام المخبز. كان يكلم الحارس الليلي وواحداً من العمال فيه. سارع إلى الكلام معي موضحاً إلى أنه لم يذهب إلى المسجد لأنه صلى الفجر مع علي آغا والحافظ محمد. ثم استوقفه هذان الرجلان وأخبراه أن عدداً من متمردي بوسافينا قد فر من الحصن الليلة الفائتة.

اندفع الحراس في الطرقات. لا بد أن المتسلم ما عرف نوماً تلك الليلة، وما نام القاضي أيضاً. ما أكثر من أمضوا هذه الليلة من غير نوم! كان كل منا في مكان مختلف، لكن القدر حاك خيطاً قوياً بيننا. لقد اعتنى بكل شيء وأعطاني الآن الحل النهائي. وقد كنت منتظراً، عارفاً أنه سيأتي. ارتعشت ركبتاي عندما أبصرته قادماً، وآلمتني أحشائي. توهج عقلي أحمرَ كالنار. لكني لن أفلت ما قد صار الآن في يدي.

وقفنا عند قبر هارون. نظرت إلى شاهدة القبر وإلى قطرات الشمع المتجمدة عليها. قطرات تركتها شمعات قد احترقت. تلوتُ أدعية من أجل روحه.

بدوره، رفع الملا يوسف كفيه هامساً بالدعاء.

«كثيراً ما أراك تدعو عند هذا القبر. هل تفعل هذا من أجلك أنت أم من أجل الآخرين؟ إن كنت تدعو له ولنفسك، فهذا يعني أنك لم تفسد كلك».

«ليتني أنسى ولو خسرت كل شيء».

«لقد ارتكبت إثماً عظيماً في حقه وفي حقي. بل إن إثمك في حقي أكبر من إثمك في حقه لأني بقيت حياً كي أتذكر وأتألم. هل تدرك هذا؟»

«أدركه».

كان صوته متعباً، غائراً في موضع عميقاً في حلقه.

«هل تعلم شيئاً عن ليالي الأرق، عن الظلمة التي دفعتني إلى جوفها؟ دفعتَني إلى التفكير في طريقة أدمرك بها وأدمر معك ما في نفسك من شر. دفعتني إلى التساؤل إن كان علي أن أسلمك إلى القانون الذي يحكم حياتنا، نحن الدراويش، أو أن أخنقك بيدي هاتين».

«لو فعلت هذا، لكنت محقاً، يا شيخ أحمد».

«لو علمتُ الحق لفعلته. لكني ما علمته. تركت كل شيء لله، ولك أنت. لكني كنت عالماً أيضاً أن ثمة آخرين أكثر منك إثماً. لقد كنت بيدقاً في أيديهم، فخاً يصطادون به الحمقى. أسفت عليك.. ولعلك أسفت علينا أيضاً!».

«لقد أسفت، يا شيخ أحمد. يشهد الله على أني أسفت، وما أزال آسفاً».

«لماذا؟»

«كانت تلك أول مرة يعاني فيها أحد الناس تلك المعاناة كلها نتيجة طاعتي أوامرهم. أول مرة أعلم بها».

«تقول إنك آسف. أهذا كلام فحسب؟»

«ليس كلاماً فحسب. ظننتك ماضٍ إلى قتلي. انتظرت ليالٍ طويلة، انتظرت مصغياً إلى وقع خطواتك واثقاً من أن كرهك سوف يسوقك إلى غرفتي. لو أتيت لما رفعت إصبعاً كي أدافع عن نفسي. أقسم لك بالله على أني ما كنت لأفتح فمي كي أنادي أحداً».

«لو طلبت منك أمراً، وقتها، فكيف يكون ردك؟»

«لو طلبت مني أمراً لفعلته.. أي شيء».

«والآن؟»

«الآن أيضاً».

«إذاً، سوف أسألك: هل تفعل كل ما أطلبه منك، كل شيء؟ فكر قبل الإجابة. إن كنت لن تفعل ما أطلبه منك، فاذهب في سبيلك، اذهب آمناً لأنني لن أفعل شيئاً، ولن ألومك. وأما إذا وافقت، فعليك ألا تسألني عن أي شيء، ولا يجوز أن يعرف بالأمر أحد، أنا وأنت فقط، والله الذي أرشدني إلى الطريق».

«سأفعل ما تريد».

«أنت تجيبني أسرع مما ينبغي. لم تفكر في الأمر. قد لا يكون سهلاً».

«فكرت فيه منذ زمن طويل».

«قد أطلب منك قتل أحدهم».

نظر إلي مذعوراً فقد كان غير مستعد لسماع هذا. فاجأه قولي. لقد خرجت الكلمات من فمه أسرع مما ينبغي لها. ذاكرتُه وذلك القبر جعله مطيعاً، قال لي: كل شيء. لكن لديه حدوداً. صار الآن غير قادر على التراجع عن الأمر.

«فليكن هكذا.. إن كان ضرورياً».

«ما تزال قادراً على التراجع، أريد الكثير. بعد الآن، لا عودة أبداً».

«غير مهم. أنا موافق. ما يستطيع ضميرك أن يقدم عليه، يقبله ضميري أيضاً».

«حسناً، أقسِمْ أمام هذا القبر الذي حفرته بيديك. قل، فليُنزل بي الله أشد عذاب إن نطقت بكلمة أمام إنسان».

كرر ما قلت. كرره جاداً، وقوراً، كأنه يتلو دعاءً: «انتبه، يا ملا يوسف! إن قلت أي شيء، الآن أو فيما بعد، وإذا قصّرت عن فعل ما أطلبه منه، إذا خنتني، فلن يعود شيء قادراً على إنقاذك. سأكون مرغماً على حماية نفسي».

«لن تكون مرغماً على حماية نفسك من أي شيء. ماذا تريد أن أفعل؟»

«اذهب إلى القاضي. اذهب الآن».

«لم أعد أذهب إلى القاضي. لا بأس، سوف أذهب».

«لقد ساعد حجي يوسف سنان الدين متمردي بوسافينا في الهرب من الحصن».

اتسعت عينا الشاب الزرقاوان، اتسعتا دهشة وخوفاً.

لو طلبت منه أن يقتل أحداً، لما فوجئ أكثر مما فوجئ الآن.

«هل تفهم ما أقول؟»

«فهمت».

«إن سألك عمن قال لك هذا، قل أنك سمعته مصادفة، سمعته من غرباء في الخان، أو همس لك به أحدهم في الظلمة فلم تتبين وجهه. اختلق شيئاً، وإياك

أن تأتي على ذكري. قل لهم ألا يأتوا على ذكرك أنت أيضاً. سيكون ذلك الإثم الذي تعطيهم إياه كافياً لهم».

«سوف يقتلونه».

«قلت لك ألا تطرح أية أسئلة. لن يقتلوه. سأعتني بألا يصيبه شيء. حجي سنان الدين صديقي».

لم يبد شديد الذكاء بعد ما علا وجهه من تعبير حيرة تامة. حاول عبثاً أن يفهم شيئاً مما سمعه.

«اذهب».

ظل واقفاً مكانه.

سألني: «ثم؟ وبعد ذلك؟»

«لا شيء. عد إلى التكية. ليس مطلوباً منك فعل أي أمر آخر. احرص على ألا يراك أحد عند القاضي».

انصرف كأنه أعمى. انصرف غير عارفٍ ما يحمله، غير عارف الغاية التي يخدمها.

لقد أطلقت عليهم سهمهم. ولا بد أن يصيب السهم أحداً.

أوراق صفراء ذابلة تتساقط من الأشجار. هي الأوراق نفسها التي مسستها الربيع الماضي متمنياً أن يسري نسغها في عروقي، متمنياً أن أصير من غير حس، مثل النبات، وأن أذبل كل خريف ثم أزهر كل ربيع. لكني أرى أن الأمر اتخذ مجرى مختلفاً فقد ذبلتُ في الربيع وها أنا الآن أُزهر في الخريف.

بدأ الأمر، يا أخي هارون. أتت الساعة بعد طول انتظار.

-١٤-

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ - قرآن كريم

كان في وسعي أن أنظر إلى الساعة وأن أعلم على وجه التحديد: الآن، صار الملا يوسف عند القاضي. الآن، صار الحراس أمام متجر حجي سنان الدين. الآن، انتهى الأمر كله. أدخلت في حسابي العادات التي اكتسبوها وإحساسهم بالأمن، ورغبتهم في الانتقام. من هنا، علمت أني ما رميت هذا الطعم إليهم عبثاً. تؤدي العادات المكتسبة إلى تكرار الأفعال. ويؤدي الإحساس بالأمن إلى أن يغيب عن المرء حسه السليم. وتؤدي الرغبة في الانتقام إلى قرارات متسرعة. إن لم يفعلوا شيئاً، فهذا يعني أنني أستطيع توقع نهاية العالم.

لكني فوجئت عندما رأيت البازار هادئاً تماماً: طنين كلمات متفرقة كالذي يكون كل يوم، ووقع حوافر الجياد، ورنين الساعات، وصيحات تعلو فوق ذلك كله. يعمل الناس ويتكلمون وقد خدّرهم الاعتياد.

حتى الحمائم كانت تخطر هادئة فوق حجارة الشوارع.

لن أفلح في تحريك شيء من هذا. فماذا جرى؟ أين أخطأت؟ هل بالغت في ما توقعته من هؤلاء الناس؟ هل يظلون صامتين مثلما ظلوا عندما سجنوني؟ هل ارتكبت غلطة عندما حاولت اصطيادهم بهذه الطريقة؟ هل ضعف إدراكهم العام؟ هل أخذوا حجي سنان الدين من بيته فما سمع الناس بالأمر بعد، أم هم غير مبالين؟ لكن ذلك كان مستحيلاً، أنا شخص مختلف لأن جماعة الدراويش تتركنا لمصيرنا عندما تصيبنا مصيبة، فكل واحد منا جزء قليل الأهمية من كلٍّ كبير، جزء يصير عاجزاً عندما يُترك وحيداً. لكن اسم حجي سنان الدين مرادف للبازار نفسه. إن أصابه شيء، فسوف يحس كل شخص أن الخطر يتهدده أيضاً.

إنهم كلٌّ واحد، كل شخص فيه مهم في حد ذاته. إذا حام الخطر فوق واحد منهم، فهو يحوم حولهم جميعاً، كأنه سحابة.

أم أني استعجلت كثيراً إذ اندفعت خلف حسابات خاطئة ناجمة عن فراغ صبري؟

أم أن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه؟

أم أن الملا يوسف قد خدعني؟

أم أن العالم كله انقلب رأساً على عقب؟ سرت في الشارع بطيئاً بين واجهات المتاجر الناتئة. صرت مصغياً إلى طنين الحياة الهادئ الذي ما كان احتماله صعباً عليّ في يوم من الأيام مثلما أراه الآن صعباً.

كنت مبتهجاً منذ لحظات فقط؛ وكنت واثقاً. كنت ممسكاً دفة الحوادث، وظننت نفسي قد صرت فوقهم. بدا لي الناس أصغر حجماً، وبدت لي الأشياء أصغر حجماً. أحسست كأني محلق من فوقهم جميعاً. أحسست ذلك أول مرة في حياتي، فما وجدت غرابة في ذلك الإحساس بالتفوق ـ وبعد حين، صرت لا أكاد أكون منتبهاً إليه. كان منبعثاً مني كأنه رائحة، كأنه قوة، كأنه حق في شيء ما كنت حتى معتزاً به لأنه غير منفصل عني، لأنه جزء مني أو خصلة من خصالي. لكن كل شيء بدا لي الآن غريباً، نائياً. ما عاد الناس تحتي، وما عادت الحياة تحتي، بل من حولي، محيطة بي، مغلقة مثل جدار، مثل شارع مسدود. لست أدري إن كانت في الحياة انتصارات؛ لكن فيها هزائم، بكل تأكيد.

لم أستطع تحديد كم دامت تلك الكآبة الداخلية، ولم أدر إن كنت قد لاحظت التغير على الفور، لحظة حدوثه أو أن حواسي نبهتني عندما بدأ كل شيء يبدو غريباً.

سمعت الصمت أول الأمر. ففي الحي المحيط بي، ماتت الأصوات موتاً مفاجئاً. الطرق والنقر توقف كله ثم بدأ ذلك السكون ينتشر أكثر فأكثر. كان كأنه دهشة، أو كأنه غصة في الحلق. استمر هذا لحظة فقط فعلمت ما حدث مهما كان ذلك غريباً أو مخيفاً: كأن دم جسد عملاق قد توقف عن الجريان توقفاً مفاجئاً.

تنفست الصعداء. لم أخطئ، يا هارون! كلفني الأمر جهداً كبيراً، لكني فهمت الناس، فهمتهم بعد لأي.

عندها، عادت الأصوات، لكنها عادت مختلفة عن ذي قبل، مختلفة عما كانته من قبل، مختلفة عما كانته في كل يوم آخر، عادت مكتومة، خطيرة. كانت أول الأمر كأنها زفرة عميقة، ثم صارت زمجرة مكتومة. سمعت فيها خوفاً وغضباً ودهشة. سمعت رعداً ثقيلاً كذاك الذي يكون قبل العاصفة، قبل نهاية العالم. سمعت كل ما كنت راغباً في سماعه.

عاد إلي إحساسي بالثقة وباليسر.

سرت خلف أصحاب المتاجر في البازار، سرت مختلطاً بهم وأحسست حرارة أجساهم وروائحها الحادة (كانت تلك رائحة دهشة مفاجئة وغضب لم يعرف بعد طريقاً له. في المعارك، تكون روائح الرجال حلوة، واخزة، كرائحة الدم). أصغيت إلى أسئلتهم التي لا تكاد الأذن تميزها، أسئلة كأنها تعاويذ، كأنها همس مجنون، كأنها خرير مياه عميقة، أو كأنها زمجرة آتية من تحت الأرض. ما كانت للكلمات نفسها أهمية، بل لفحيحها الحاد مثل فحيح الأفاعي، للأصوات الثقيلة، العميقة، غير الطبيعية، تلك الأصوات التي حولتهم إلى شيء خطير ما عهدته فيهم من قبل، حولتهم إلى شيء ما كانوا قادرين حتى على تذكره.

سرنا عبر البازار، سرنا في اتجاه واحد رافعين رؤوسنا صوب شيء لا نعرفه، مترقبين، شققنا طريقنا كتفاً إلى كتف. سرنا معاً متزاحمين لكن من غير أن يرى الواحد منا غيره؛ سرنا دافعين الضعفاء بعيداً عنا. وقد كان عددنا في ازدياد. كان كل واحد منا غير متميز بذاته إذ تحولنا إلى كثرة واحدة ذبنا جميعاً في خوفها وفي قوتها. وجدت صعوبة في مقاومة حاجة قوية غريبة تدفعني إلى أن أصير شظية غاضبة من غير عقل. سمعت زمجرتي وانتابني دوار لترقب خطر محيق بي، أنا أيضاً. بدأت استعادة إحساسي بالتفوق كي أقي نفسي ذلك الانسياق خلف تلك الحاجة القديمة، حاجة المرء إلى الاندفاع مجنوناً مع قبيلته التي استشعرت خطراً.

كان متجر حجي سنان الدين مفتوحاً على مصراعيه، وكان خالياً.

سرنا في شارع ثانٍ، ثم في ثالث، ثم توقفنا في شارع كازازي[1]" أمام حشد مجتمع هناك. جهدت حتى أشق طريقي بين الناس.

وسط الشارع، في المساحة الخالية بين الناس الذين توقفوا وأولئك الذين كانوا يتباعدون كي يفسحوا طريقاً، رأيت حراساً يقودون حجي سنان الدين.

شققت طريقي بين الناس، سرت إلى الأمام حتى تجاوزت من كانوا في المقدمة، أولئك الذين توقفوا هناك خائفين. ما عدت قادراً على أن أبقى واحداً من جمع: حان الوقت، حان وقتي.

خرجت إلى المساحة الخالية، خرجت مستثاراً، مدركاً أن مئة عين متقدة ترقبني. سرت صوب الحراس.

صحت بهم، «توقفوا!»

أغلق الجمع الشارع.

توقف الحراس ونظروا إلي نظرة دهشة. نظر حجي سنان الدين إلي أيضاً. كان وجهه هادئاً، حسبت أنه ابتسم لي، مثلما يبتسم صديق لصديق. أو لعلي تمنيت أن يكون ابتسم إلي في غمرة حماسي لكي يشجعني. لقد كنت مستثاراً حقاً بسبب الناس، وبسببه هو واقفاً بين الحراس، وبسبب أهمية ما كنت فيه.. بسبب من كرهتُهم، بسبب كل ما أمضيت الأبد كله منتظراً إياه.

في الصمت الذي كنت توقعته لكنه ظل يتكسر علي مثلما تتكسر موجة من ماء يغلي، أشهر الحراس بنادقهم وصوبوها إلى جمهرة الناس. سألني خامسهم الذي كان شخصاً غير مسلح لم أعرفه: «ماذا تريد؟»

وقفنا متواجهين مثلما يقف مصارعان.

«أين تأخذونه؟»

«وما شأنك أنت؟»

«أنا الشيخ أحمد نور الدين، واحد من عباد الله، واحد من أصدقاء هذا الرجل الخيّر الذي تسوقونه الآن. أين تأخذونه؟ أسألكم باسم أولئك الناس الذين يعرفونه جميعاً، أسألكم باسم الصداقة التي تربطني به، أسألكم باسمه هو لأنه

(1) كازازي: شارع حائكي الحرير في بازار سراييفو.

صار الآن غير قادر على الدفاع عن نفسه: إن كنتم قد سمعتم كلاماً في حقه، فهو كذب. نحن نضمنه كلنا، ونشهد كلنا بأنه أشرف رجل في القصبة. إن حبستموه، فمن ذا الذي يستحق أن يبقى حراً؟»

أجابني الرجل متوعداً: «أنت رجل ناضج. لا يصحّ أن أُملي عليك سلوكك. لكن من الأفضل لك ألا تتورط في هذا الأمر».

خاطبني حجي سنان الدين بصوت أدهشني هدوؤه: «اذهب، يا شيخ أحمد. أشكرك على كلماتك. وأنتم، أيها الناس الطيبون، اذهبوا إلى بيوتكم. هذه غلطة؛ وأنا واثق من أنها ستُصحح».

هذا ما ظنوه جميعاً: غلطة! ولكن، ما من أغلاط.. ثمة فقط أمور لا نعلمها.

تفرق جمع البشر؛ وقاد الحراس حجي سنان الدين؛ ذهبوا به. وقفت أرقبهم من حيث كنت. هكذا أخذوني، أنا أيضاً؛ وهكذا أخذوا هارون. لكن أحداً لم يخرج كي يقول كلمة طيبة عني، ولا عنه. لقد تكلمت، وكنت عارفاً أنني متفوق عليهم، أعلى منهم. ما كنت أعاني إحساساً بالذنب في حبس رجل صالح لأن شيئاً من هذا لا يمكن أن يكون له أي معنى لو كان حجي سنان الدين غير ذلك. ما كان لشيء من هذا أن يخدم أية غاية. حتى إذا قتلوه، فسوف يكون هذا في خدمة هدف أكبر وأسمى من حياة رجل واحد أو موته. سأفعل من أجله كل ما أستطيع فعله؛ وسوف تقرر إرادة الله ما سيكون. لحسن الحظ، لم يحدث الأمر الوحيد الذي يمكن أن يكون من غير أي معنى: أن يخلوا سبيله على الفور.

سار الناس في إثر حجي سنان الدين وحراسه. ولما انعطف آخر واحد منهم عند زاوية الشارع، رأيت الملا يوسف واقفاً أمام واحد من المتاجر الخالية. لم أناده، لكنه أتى إلي، أتى كأنه واقعٌ تحت سحر، وكان الذعر بادياً في عينيه الجبانتين. مم هو خائف؟ بدا لي أن عينيه وأفكاره كفت عن متابعة حجي سنان الدين وتوقفت حيث كنت واقفاً. عينان مذعورتان، متجمدتان، غير متجرئتين على تركي.

«هل كنت هنا طيلة الوقت؟».

«نعم».

«لماذا تنظر إلي هكذا؟ هل أنت خائف؟ ماذا جرى؟»

بذل جهداً كي يبتسم، لكن ابتسامته كانت متشنجة. وجهه الذي بدأ يفقد نضارته صار متجمداً من جديد، صار متجمداً في ذلك التعبير المذعور الذي حاول إخفاءه من غير أن ينجح في ذلك.

سرت في الشارع، فسار خلفي كأنه ظلي.

سألته من جديد، سألته بصوت خافت من غير التفات إليه: «لماذا أنت خائف؟ ما وقع ليس أمراً غير متوقع، أليس كذلك؟»

أسرعتْ خطاه حتى تلحق بي، حتى لا تفوته كلمة واحدة مما أقول. لهذا أسرع، لا لأنه يحبني.

«فعلت كل شيء مثلما قلت لي. ووعدتك ووفيت بوعدي».

«وهل أنت الآن آسف؟»

«لا، لست آسفاً. فعلتُ ما أُمرت بفعله؟ وقد رأيت ذلك بنفسك».

«إذاً، ما الأمر؟»

التفتُّ صوبه. أظنني التفت بأسرع مما ينبغي إذ فاجأني ما كان في صوته وفي كلماته المتأتأة من وجل وتردد. وكنت غاضباً من نفسي لأني اهتممت بالأمر، ولأني سألته. لكني أردت معرفة ما إذا كان قد وقع أمر يخشى أن يخبرني به؛ فمن شأن أية غلطة الآن، أية غلطة مهما تكن، أن تكون خطيرة. لكنه أجفل عندما نظرت إليه على نحو مفاجئ (لعله أجفل بسبب حركتي غير المتوقعة أو بسبب ما لمسه في صوتي من وعيد). توقف رغماً عنه كأنه يحاول أن يتفادى ضربة، أو كأن الخوف جمّد حركته. استحال وجهه قناعاً من ذعر. عندها، علمت: إنه خائف مني! أقنعني بهذا فمه المفتوح الذي ما كانت عضلاته المتيبسة قادرة على أن تعطيه شكلاً أو حركة. علمت هذا عندما رأيت جسده المتشنج الذي فضح أمر نفسه في لحظة واحدة عندما ضُبط غير منتبه، عندما ضُبط مذعوراً. دام هذا لحظة قصيرة فقط، قصيرة جداً، ثم سمحت عروقُه المتقلصة بأن يتابع الدم المحبوس فيها جريانه فاستعاد فمه شكله المعتاد وبدأت الدائرتان الزرقاوان الصغيرتان وسط عينيه تتحركان من جديد.

«أأنت خائف مني؟»

«لا. لماذا أخاف منك؟»

ثورة غضب بدأت تجتاحني. وما كنت قادراً على فعل شيء كي أوقفها.

«كنتَ ترسل الناس إلى حتفهم، لكن أحشاءك الآن تتلوى لأنك رأيت كيف أستطيع أن أكون خطيراً أيضاً. لا طاقة لي على احتمال خوفك هذا، فهو درب مفضية إلى الخيانة. انتبه! سألتك فوافقت. ما عدت قادراً على التراجع، ما عدت قادراً على التراجع قبل أن أرسلك بعيداً عن هذا المكان».

انفجاري غير المتوقع هذا كان كأنه ناشئاً عن حاجتي إلى التخفف من أثقالي، إلى التنفيس عن غضبي بعد ساعات طويلة من التوتر. في ما مضى، كان تعقلي وحذري لا يسمحان لهذا الوحل المظلم بالتدفق خارجاً مني، لا يسمحان له بهذا التدفق العنيف. من الممكن ألا يكون تصرفي هذا حكيماً، ولا حذراً، حتى في تلك اللحظة؛ لكني رحت أجلد الشاب بكلمات حبلَتْ بها نفسي منذ زمن طويل، بكلمات أحسستها تتدفق من عروقي من غير أن يستطيع شيء إيقافها. أفعمني هذا بهجة لا أظنني كنت قادراً على توقع شيء منها. عندما ضعفت أول موجة من موجات ذلك التدفق، عندما رأيت في وجه الشاب ما كان لانفجار الكره والاحتقار الصريحين هذا من أثر مدهش، تبادر إلى ذهني أن خوفه هذا يمكن أن يكون مفيداً: من الممكن أن يربطه بي بأقوى مما قد يستطيعه الحب.

دهشته بأن يرى أمامه رجلاً مختلفاً تمام الاختلاف عن الشيخ نور الدين الذي عرفه في ما مضى، منحتني مسرة أيضاً. لقد أعانني هذا الشاب في قتل الرجل الهادئ اللطيف الذي كنته، الرجل الذي كان مؤمناً بعالم لا وجود له. هذا الرجل الحاضر أمامه الآن مولود من الألم وليس باقياً فيه من الرجل القديم غير وجهه.

ظنّني أستوفي ثأري. لكني ما كنت مبالياً بهذا. كنت الرجل الوحيد الذي علم أن هذا الشيخ نور الدين الجديد كان شديد الشبه بالدرويش الشاب الذي اجتاز النهر سباحة حاملاً سيفه العاري بين أسنانه كي يهاجم الأعداء، أعداء الإيمان: كان شبيهاً بذلك الدرويش المجنون الهائج الذي هو مختلف عن درويش اليوم

لأنه كان من غير مكر ومن غير حكمة لأننا لا نُعطى المكر والحكمة إلا بفعل حياة شاقة.

أتمنى لك سلاماً أبدياً، أنت أيها الشاب الغر الذي كان منذ عهد بعيد، أيها الشاب الذي كان متقداً لهيباً نقياً ورغبة في التضحية.

أتمنى لك سلاماً أبدياً، أنت أيها الشيخ نور الدين، الشيخ المحترم النبيل الذي كان مؤمناً بقدرة اللطف واللين، وبكلمة الله.

أُشعل شمعة لكل منكما، أنتما الباقيان في ذاكرتي وفي قلبي، أنتما يا من كنتما لطيفين، ساذجين. الآن، سوف يتابع عملكما من ظل حاملاً اسمكما، يتابعه من غير أن ينكر منكما شيئاً غير سذاجتكما.

حتى تلك اللحظة، كان الزمن بحراً يفيض بطيئاً بين شطآن الدوام العظيمة. لكنه صار الآن تياراً جارفاً، تيار نهر يحمل اللحظات بعيداً من غير عودة. ما كنت قادراً على أفقد لحظة واحدة منها؛ فكل لحظة كان ثمة احتمال مختلف مربوطٌ إليها. كنت أخشى التفكير هكذا من قبل؛ وكان ممكناً أن يسوقني إلى الجنون زئيرٌ عنيف وحركة لا تتوقف. لكني صرت الآن مرغماً على اللحاق بهذا كله. لقد عقدت العزم على فعل هذا الأمر لأنه ما كان لدي وقت أضيعه. لكني لم أتصرف مندفعاً على غير هدى. لقد حسبت كل لحظة ستظهر لي من بين طيات ظلمة المستقبل مثلما حسبت الفعل الذي سأجعل المستقبل يحبل به كي يحدث ما أردت أن يحدث عندما يصير كل شيء متصلاً ضمن سلسلة واحدة، سلسلة منم أسباب ونتائج.

كنت عارفاً ما سيقوله لي علي آغا عندما يسمع بالأمر. مع هذا، ذهبت إليه أولاً. لكنه كان قد سمع بكل ما جرى. لقد سبقتني القصة إليه. أصغيت إلى ما كنت متوقعاً سماعه في اليوم التالي، أو بعد الظهر؛ لكن ما سمعته كان ألذ مما انتظرت. رفع جسده قليلاً في فراشه، مصفّر اللون، نحيلاً كأنه شبح. شتم وتوعد وأقسم. كان عليّ أن أقول لهم مثل قوله، أن أسب أمهاتهم ـ مع أن مما لا يمكن إنكاره هو أن هذا غير صحيح من جانبي لأن لي مركزي ورتبتي. بصرف النظر

عن هذا، تصرفت مثلما يتصرف الرجال؛ وكان ذلك مما يحسب لي لأني قلت لهم ما ينبغي أن يقوله رجل شريف عن رجل شريف آخر!

وقفت منتظراً إياه أن يفرغ من كلامه. سوف يزداد انزعاجه. وهم قادرون على جعلنا كلنا نزداد انزعاجاً قدرما يريدون. فكرت كم كان الجميع قلقاً على حجي سنان الدين، وكم كان الجميع في غضب وسخط في حين لم يحزن أحد منهم ولم يغضب عندما أخذوني. لم يقل أحد ما ينبغي أن يقوله أي رجل شريف عن رجل شريف آخر. فمن منا يكون غير شريف؟ أنا أم هم؟ لكن، لعله حريّ بالمرء ألا يتكلم على الشرف لأن كل إنسان يرى غاياته شريفة. وأنا ما كنت منتمياً إليهم، ما كنت واحداً منهم: ما كنت منتمياً إلى أحد. كان علي أن أفعل كل شيء بنفسي. بنفسي مثلما كان الأمر من قبل؛ لكنهم سيصيرون الآن جيشي، ولن أكون مديناً لهم بأي شيء. ما كنت منتمياً إليهم، وما كنت مهتماً بهم. لقد أرسلت واحداً منهم إلى حتفه. ولسوف يحاولون الآن إنقاذه غير مدركين أنهم يعملون من أجلي. يعملون من أجل العدل أيضاً، من أجل الحق، لأن الله في صفي. وهم أيضاً سيكونون في صفي من غير أن يدروا.

كان من واجبي أن أفعل هذا (قلتها للعجوز مقللاً من شأن ما فعلت). وسوف يكون من واجبي أن أفعل ما يتجاوز هذا. إن لم ندافع عن العدل فلن يكون في العالم عدل أبداً. لست أريد مواجهة السلطات، لكني سأكون مستحقاً غضب الله وعقابه إن أحجمت عن الكلام ضد أعداء الإيمان؛ وأعداء الإيمان هم كل من يهدم أسسه. إن لم نوقفهم عند حدهم، فسوف يكون خوفنا منهم تشجيعاً لهم، وسوف يقدمون على ارتكاب آثام وشرور أخرى، أكثر فأكثر، ولن يكون لديهم احترام لنا ولا لشرع الله. لكن هل يجوز لنا أن نسمح بحدوث هذا؟ هل نجرؤ على التسامح مع هذا؟

قال علي آغا: لست أعلم الكثير عن أعداء الإيمان؛ لكننا لا نستطيع السماح باضطهاد الخيّرين. غلطتنا أننا تركنا مجرمين وفاشلين من كل نوع يقودوننا ويدفعون بنا هنا وهناك. كففنا عن الاهتمام بأمرهم لأننا نزدريهم فتشجعوا ونسوا من يكونون. لكن، فليكن ما يكون: ما كنا لنستيقظ لو كانوا أكثر ذكاء. أمرَني

ناسياً مقتضيات اللباقة كلها مثلما ينساها أي رجل آخر تمنحه ثروته الحق في التصرف بغيره من الناس «أرسل في طلب القاضي».

كنت قد خشيت أن يقول لي هذا، وتهيأت له مسبقاً لأني لا أعلم ما قد يفعله القاضي. سيكون أمراً حسناً إن رفض القاضي أن يأتي. لأن هذا سيثير غضب كل من العجوز وأصحاب المتاجر في البازار. وأما إذا وافق على المجيء، إذا تمكن العجوز من إخافته، أو إذا رشاه كي يخلي سبيل حجي سنان الدين، فسوف يصل كل شيء إلى نهاية بائسة، حتى قبل أن يبدأ. هذا ما دفعني إلى معارضة ما أراد لأن ثمة فرصة، وإن تكن صغيرة، لأن ينتهي بي الأمر إلى أن أبدو سخيفاً. إن حدث هذا، فلن يكون باقياً أمامي غير أن أنتظر يائساً أن تسنح فرصة أخرى.

سألته بصوت هادئ، وكنت واثقاً من حجتي «فيم يلزمك القاضي؟ سلامته الشخصية أهم عنده مما قد تعرضه عليه أو تهدده به. إذا أطلق سراح حجي سنان الدين فسوف يكون كمن يتهم نفسه بنفسه».

«ماذا تريد؟ أتريد أن ننتظر وقوع معجزة؟ أم نريد أن نصلي وندعو؟».

«علينا أن نبعث إلى القسطنطينية خطاباً، إلى مصطفى، ابن حجي سنان الدين، ونقول له أن يفعل ما يستطيع فعله كي ينقذ والده».

«سيكون الأوان قد فات عندما يصله ذلك الخطاب. علينا أن نخرجه قبل ذلك».

«فلنفعل الأمرين معاً. إن لم نستطع إنقاذه، علينا ألا نتركهم يفتلون من العقاب».

رمقني بنظرة قلقة كأن احتمال هلاك صديقه قد صعقه.

قال: «رجل شريف مثله لا يمكن أبداً أن يأتي إثماً. إذاً، ماذا يمكن أن يقع له؟»

«هذا ما ظننته عندما أخذوا أخي. أنت تعرف ما وقع له بعد ذلك».

«بحق الرب.. ذلك أمر مختلف».

«ما المختلف بين الأمرين، يا علي آغا؟ هل تعني أن حجي سنان الدين ليس شخصاً عديم الشأن، مثل أخي، وأن له من يقف مدافعاً عنه؟ أهذا ما تريد قوله؟

قد يكون ما تقول صحيحاً، لكن القاضي والمتسلم يعرفان هذا، فلماذا حبساه؟ هل حبساه كي يطلقا سراحه عندما تهددهما؟ كرمى لله، لا تكن ساذجاً».

«ماذا تريد؟ أتريد أن تنتقم؟»

«أريد إيقاف الشر».

قال: «لا بأس. فلنقم بالأمرين معاً. من سيكتب الرسالة؟»

«لقد كتبتها. نستطيع أن نضع خاتمك عليها، إن أردت. ونحن في حاجة إلى من يوصلها في أسرع وقت ممكن. لا بد أيضاً من دفع المال من أجل ذلك. وأنا ليس لدي مال».

«أنا سأدفع. أعطني الرسالة».

«لا، ستظل معي».

«أرى أنك لا ثقة لك بأحد! لعلك محق بهذا».

كانت محطة البريد مكاناً غريباً. أتذكر منها رائحة الخيول وروثها وأشخاصاً غريبين يأتون من لا مكان ويذهبون إلى لا مكان. أتذكر النظرات الغائبة في عيون المسافرين الخاوية، أولئك الذين يرسلون أفكارهم كي تسبقهم كأنها حراس يتقدمونهم أو يجرجرونها من خلفهم كأنها أمتعة لهم. ضائعون كأنهم منفيون.

لكن المفاجأة كانت في أنهم نظروا إلي جميعاً. نظروا إلي نظرة عجب وريبة.

سألني موظف البريد: «هل هي رسالة مهمة؟»

«لست أدري».

«ما المبلغ الذي أرسله علي آغا؟»

جعلته يرى المال.

«تبدو رسالة مهمة. هل تريد أن أتفق لك مع الشخص الذي سيحملها؟»

«علي إخباره بمن ينبغي أن يستلم الرسالة».

«مثلما تريد».

أتى بالمراسل إلى الغرفة، ثم خرج. كان المراسل في عجلة من أمره. قال لي: «رسالة من غير اسم! ستكون تكلفتها أكثر من هذا المبلغ».

نظر إلي بعينيه الصغيرتين الوقحتين. كانت الريح قد جعلت وجهه خشناً، وكذلك الشمس والمطر. كان في تعبير ذلك الرجل شيء من غير رحمة.. رجل يجري بحصانه في طرق بعيدة حاملاً رسائل عن حظوظ أشخاص آخرين، وعن مصائبهم، يحملها غير مبالٍ بدموعهم ولا بسعادتهم.

«لست من يدفع المال. أتيت كي أسلم هذه الرسالة نيابة عن غيري».

«لا تهتم. سأستلم المبلغ كله الآن، ثم أستلم البخشيش عندما أعود».

«نصفه الآن ونصفه عندما تعود. وسوف تتلقى البخشيش من الرجل الذي تأخذ الرسالة إليه».

«هذا ليس مضموناً أبداً. إن كانت في الرسالة أنباء طيبة، فهم سعداء إلى حد يجعلهم ينسون إعطائي مالاً. وإن كانت في الرسالة أنباء سيئة، فهم يغضبون وينسون أمري أيضاً».

«من تأخذ الرسالة إليه يشغل منصباً رفيعاً».

«هذا أسوأ. يظن الناس من أمثاله أن خدمتهم تشرفنا. أريد المبلغ كله منذ الآن».

«الظاهر أنك تحاول ابتزازي، يا صديقي».

كانت الرسالة في يده؛ وكان كأنه يروزها كي يعرف ثقلها.

«لعلي أبتزك! ما المبلغ الذي تظن أنني سأتلقاه إذا أوصلتها إلى شخص آخر؟».

«شخص آخر؟ من يكون؟»

«المتسلم، على سبيل المثال».

تجمدت فوراً. أحسست كيف تفصد عرقي تحت قميصي. لا يستطيع أحد أن يتنبأ بكل شيء؛ فنحن متكلون على الحظ أكثر من اتكالنا على تفكيرنا. لقد كانت حساباتي واستعداداتي كلها عبثاً ـ من الممكن أن يدمرني جشع المراسل.. منذ البداية. لم يتأخر في إدراك قلة خبرتي؛ وما كان عندي ما يمكنني من جعل الخوف يدب في قلبه.

كانت أول فكرة تتبادر إلى ذهني هي أن آخذ الرسالة منه بأي ثمن: بدأت يداي ترتعشان، وكانتا جاهزتين لأن تطبقا على عنق المراسل، أسعفني الحظ فنجحت في استعادة سيطرتي على نفسي. بل إني ابتسمت له وقلت بصوت هادئ: «افعل ما شئت، لست أدري شيئاً عما في هذه الرسالة، ولا علم لي إن كان فيها ما يجعل الأمر ذا قيمة بالنسبة إليه».

«سأفكر في الأمر».

«اصغ إلي، يا صديقي. قد تكون مازحاً؛ لكني صرت غير واثق بك. أعطني الرسالة».

«أتقول إنني مازح؟ ليس هذا مزاحاً. أردت أن أرى إن كان في الرسالة شيء خطير، كي أكون عارفاً ما أحمله. صرت الآن عارفاً: الرسالة خطيرة. لقد قلت لي هذا بنفسك».

«ماذا قلت لك؟»

«قلت لي كل شيء. رأيت كيف تجمدت عندما ذكرت المتسلم. أنت تعرف محتوى الرسالة، تعرفه جيداً. ها هي، خذها. ثمة مراسل آخر ينطلق بعد خمسة أيام، وسوف يكون عليك أن تدفع له أكثر».

أعطيته ما أراد من مال، وأعطيته اسم السلحدار. أحسست انفراجاً عندما فكرت في شدة غباء ذلك المزاح، مزاح بحياتينا معاً.

غادرت المكان مرهقاً، شبه مستنفد نتيجة الفكرة المخيفة، فكرة أنه ما كان ينبغي لي أن أتركه حياً وفي حوزته تلك الرسالة الخطيرة. لكني أعدت إليه الرسالة عندما رأيت أنه ما كان يفعل شيئاً غير محاولة لعبة خبيثة معي، لعبة كي يبتز مني مالاً أكثر.

مع هذا، تعجلت في إعادة الرسالة إليه، وتعجلت تحرير نفسي من الضغط الذي في داخلي. استولت عليّ الشكوك لحظة خروجي إلى الشارع. فهل اعترفت بذنبي طائعاً وتسببت في دماري؟ هل تركت دليلاً ضدي بين يدي المراسل غير الموثوقتين؟ فكرت من قبل في أنني سأفعل كل شيء بنفسي وكان ذلك تفكيراً غبياً فكيف يستطيع أي إنسان أن يفعل كل شيء بنفسه؟

فكرت مرتين في استعادة الرسالة منه، لكني انثنيت على عقبيّ من غير أي تصميم حقيقي على ترك تلك اللعبة. مع هذا، وفي المرة الثالثة عندما دفعني خوفي إلى ذلك، خرجت إلى فناء محطة البريد باحثاً عن المراسل كي أوقف كل شيء، كي أمزق تلك الورقة التي تدينني. لكن المراسل ما كان هناك. لقد ذهب إلى البازار. سألت فما علم أحد سبب ذهابه.

ما عدت الآن قادراً على شيء إلا الانتظار. سرت في شوارع الحي، سرت قلقاً، خائفاً، غاضباً من نفسي، غير عارف إن كان علي أن أواصل سيري الغبي في دوائر أو أن أذهب وأختبئ. كنت غير واثق من نفسي إلى حد جعلني أحس أني صرت مثل طفل مذعور. قلت لائماً نفسي «ما كان علي فعل هذا»؛ لكني لم أعلم أين أخطأت.. فأين أخطأت على وجه التحديد؟ أكان علي ألا أحاول شيئاً؟ أم أن أمتنع عن إرسال تلك الورقة؟ عدم فعل أي شيء يعني التخلي عن كل شيء: أتصالح مع نفسي، ولا أرسل الرسالة، ولا أفعل شيئاً. لكن ذلك ما كان ما أردت، بل ما فعلت. إذاً، أين أخطأت؟ أم لعلي كنت شديد التوتر إلى حد جعلني أُغفل إدخال مصادفات الحظ في حساباتي مع أنها أمر حاسم في الحياة؟ لعل المشكلة كانت في اعتمادي المحتوم على أشخاص كثيرين لا أستطيع أن أكون واثقاً بأيٍّ منهم!

بعد ذلك ـ ربما لشدة إرهاقي ـ أحسست أنني هدأت واستسلمت للانتظار. ما عاد أي شيء معتمداً علي؛ وما عدت بقادر على تغيير شيء. الله وحده من يقرر ما سوف يحصل. لكن تفكيري ما كان صحيحاً. ما عادت للأمر أهمية الآن، لكن تفكيري ما كان صحيحاً. لم أفكر أبداً في المراسل. كان غير مهم أبداً، فكيف يستطيع الآن أن يدمرني؟ لكن، من عساه يستطيع التفكير في كل ما في الحياة من مراسلين؟

حاولت قبل الظهر أن أبحث عنه مرة أخرى من غير أن أعرف ما جعلني أفعل ذلك. انقضى وقت طويل، وقت كافٍ لأن يفعل المراسل ما أراد فعله. لكني لم أستطع العثور عليه. لقد انطلق في رحلته الطويلة.

إن كان قد أعطاهم الرسالة، فسرعان ما ينتهي كل شيء. لا مهرب أمامي.

ما كانت لدي قدرة على الانتظار. أرهقتني تلك الساعتان من عدم اليقين. خرجت متجهاً إلى مقر المتسلم كي أخلص نفسي من هذا الكابوس. أحسست انفراجاً لحظة عقدت العزم على فعل ذلك. ستكون النهاية هي نفسها سواء أوجدوني أم سلمتهم نفسي. لكن كل شيء كان مختلفاً لأني ذاهب بنفسي إلى ملاقاة العاقبة. عادت إلي شجاعتي، وتحسن مزاجي لأني استطعت تغيير اللعبة وقبضت على زمام المبادرة. قد تبدو مواجهة الخطر بهذه الطريقة تفاهة، وقد تبدو نوعاً من مخادعة الذات. ولكن، تلك هي الفكرة. أن أتحرك، لا أن أنتظر. أن أكون لاعباً، لا ضحية. لعل هذا هو جوهر الشجاعة! أويعقل أني كنت في حاجة إلى تلك السنين كلها حتى أكتشف هذا السر؟

أعلمت الحراس بهويتي، وطلبت رؤية المتسلم. ينبغي أن يقولوا له اسمي وصفتي، لا «بالباب واحد من الدراويش». كان هذا مهماً.

إن وافق على رؤيتي ففي وسعي أن أحكي له أموراً كثيرة. في وسعي أن أطلب الرحمة لصديقي حجي سنان الدين. في وسعي أيضاً أن أشرح له ما جعلني أطلب من الحراس أن يتركوه. في وسعي تحذيره من الهياج الذي عم البازار. أمور كثيرة جداً أستطيع قولها من غير أن تلزمني بشيء أبداً، لكنها ستكون تعبيراً عن حسن نيتي.

ما كنت هادئاً تمام الهدوء، لكني أدركت أن هذا أفضل من أي شيء آخر أستطيع على فعله: لست أحاول الاختباء أو الهرب. أتيت بمحض إرادتي كي أكلمه. أتيت بنية حسنة وضمير نظيف.

إن كان قد رأى الرسالة، فسوف يأخذوني إليه من غير تأخير؛ وسوف يتضح كل شيء في أسرع وقت. حتى إن كان قد رآها، فما يزال ثمة أمل. الرسالة من علي آغا؛ وأنا لم أفعل شيئاً غير كتابتها. لقد جئت إلى المتسلم كي أقول له هذا.

أثناء انتظاري مفكراً في كل ما قد يسألني تبادر إلى ذهني أني سأكون مضطراً إلى فعل أمور كثيرة غير حسنة ـ فضلاً عن هذا الانتظار المزعج وعن الحديث الذي كله أنصاف حقائق، بل حتى أكاذيب. قد أجد نفسي مرغماً على فعل أشياء

من شأنها أن تخجلني في حياتي العادية؛ لكني سأفعلها من أجل العدل الذي هو أكثر أهمية حتى من آثامنا الصغيرة كلها.

لكني ما أزال قادراً على إيقاف نفسي.. إن كانت تلك مشيئة الله.

همست في نفسي، يا الله. نظرت إلى السماء الرمادية فوق القصبة، السماء الثقيلة بغيوم مثلجة. يا الله.. هل ما أفعله خير؟ إن لم يكن خيراً، فحطم عزيمتي، أضعف إرادتي، اجعلني غير واثق. أعطني إشارة. أرسل نفحة ريح تضطرب لها أغصان الأشجار. لن يكون ذلك معجزة في هذا الطقس الخريفي. وسوف أقلع عن الأمر كله مهما تكن كبيرة رغبتي في فعله.

لم تضطرب أغصان الأشجار عند النهر. ظلت ساكنة، صامتة، باردة كأن الأشجار معلقة من قممها، معلقة من السماء الغائمة. ذكرتني بأشجار الحور في بيتي فوق نهر أكبر من هذا النهر وأجمل منه، تحت سماء أكبر من هذه السماء وأجمل منها. ما كانت هذه فرصة لأن أغوص في ذكرياتي لأن الذكريات أتتني كأنها ومضة خاطفة، كأنها زفرة. ثم اختفت. وما بقي غير النهار الرمادي أمامي والغيوم الثقيلة فوق رأسي وشيء في داخلي كأنه كتلة طين لزجة.

هل يظهر لي طيف إسحاق؟ هذا هو وقته.

عاد الحارس. لا يستطيع المتسلم رؤيتي.

«هل قلت له من أنا؟ ألم تنس أن تقول له اسمي؟»

«اسمك أحمد نور الدين. وأنت شيخ التكية. يقول لك المتسلم إن مشاغله كثيرة ولا وقت لديه الآن. تعال مجدداً في وقت آخر».

إذاً، لا يعلم المتسلم بأمر الرسالة.

انقشعت الظلال كلها؛ انقشعت فجأة: نسيت أشجار الحور والنهار الرمادي، ونسيت أحزاني وذكرياتي. لقد كنت محقاً: ما كان لي أن أنتظر شيئاً. كان علي أن أخرج كي ألاقي كل شيء. إن كان المرء ليس غبياً ولا جباناً، فهو أيضاً غير عاجز.

كانت خادمة القاضي واقفة في فناء بيت علي آغا مرتدية أحسن ملابسها. قالت لي زينة إن زوجة القاضي مع علي آغا. ذهبتْ إليها مرتين كي تحضرها إليه. طلب علي آغا أن تأتي ابنته في أسرع وقت. ولم تدر زينة سبب ذلك.

توقفت عند أسفل السلم. عنده تماماً. في الأعلى، عبر الباب المفتوح، سمعت حديثاً. ما كنت لأصغي إلى حديثهما لو أن الأمر لم يفاجئني ولو أنني ما كنت مضطراً إلى معرفة موضوعه. كان العجوز يطلب من ابنته أن تجعل القاضي يأتي إليه. وكان شديد الإصرار على ذلك.

سمعت صوته محشرجاً، «الأمر مهم. لقد فعل أمراً غبياً.. هو، أو شخص غيره. لكنه سيكون ملوماً أيضاً، سيكون مسؤولاً. قولي له أن يأتي، أو قولي له أن يخلي سبيل الرجل. هكذا أستطيع أن أرتاح قليلاً».

«أنا لا أتدخل في أموره. عمله لا يهمني. لا يهمني الآن تحديداً. وسيكون من الأفضل أن تمتنع عن التدخل، أنت أيضاً».

«أتظنين أني أحب أن أتدخل؟ لا أحب هذا. وأنا غير قادر عليه. أنا عجوز ضعيف مريض. كيف لي أن أهتم بغيري؟ ولكن، لا بد لي من هذا، فهو ما يتوقعه مني الجميع».

أكان هذا صوت علي آغا، صوته الباكي، الضعيف، صوته الذي يقطر إشفاقاً على نفسه؟ أهذه كلماته؟ يا إلهي القادر على كل شيء.. ألم أتعلم بعد شيئاً عن الناس؟ ألم أفهمهم بعد؟»

«لست مضطراً إلى هذا، بل أنت راغب فيه. لقد اعتدت أن يصغي الناس إلى ما تقول. وأنت تحب هذا».

«لا أحبه. وما عدت راغباً فيه. ما عادت لي قوة على أي شيء. بل ما عادت عندي قوة لأن أعترف بهذا أمام أي إنسان. ساعديني وقولي له أن يخلي سبيله من أجلي. فليخلِ سبيله حتى لا يقال عني إنني نسيت صديقي، مع أني نسيته. هذه الأنفاس القليلة الباقية عندي هي من أجلك أنت، ومن أجل حسن. كيف أستطيع أن أقول لهم هذا؟»

«لا بأس، يا أبي. نتابع الكلام في هذا الأمر. لسنا في جهتين مختلفتين من العالم».

«الأمر ملح. الأمر ملح جداً».

«سآتي غداً».

«بكّري في المجيء كي تنقلي إلي ما يقول. الليل مناسب للكلام».

ما هذا؟ ظهر أول صدع حيث ظننت أن الصخرة شديدة الصلابة. أحسست احتقاراً إزاء هذا الضعف الّذي أخفاه عني، وأحسست خجلاً كأني ضبطته يأتي أمراً مشيناً.

عدت إلى مدخل البيت كي يبدو الأمر كأني وصلت الآن.

رفعت يدها كي تسدل الحجاب على وجهها، لكنها غيرت رأيها عندما عرفتني، عندما رأتني. سألتها عن حال أبيها، فأجابتني إجابة سريعة وأرادت أن تتابع سيرها. أردت أن أستوقفها، وما كنت خجلاً منها مثلما كنت من قبل.

«كلمتان فقط، إن لم تكوني في عجلة من أمرك».

«أنا في عجلة من أمري».

«بدأنا هذا الربيع حديثاً، علينا أن ننهيه. أخي ميت، بالطبع، لكني ما أزال حياً».

«دعني أمر».

«أنا صديق والدك. أنا صديق حميم له».

«وما شأني؟»

«سوف أساعدك في الحصول على ما تريدين كي لا ينساك والدك عندما يكون على فراش الموت. لكن عليك أن تقنعي القاضي بإخلاء سبيل حجي سنان الدين. من غير هذا، لا تنتظري شيئاً، ولا تأملي في شيء. إني أعرض عليك اتفاقاً. وأنت أكبر الرابحين».

«أتعرض علي اتفاقاً؟ أتعرضه علي أنا؟»

«نعم. لا تستعجلي صرف النظر عما أقول».

ظل من الكره، أو من الازدراء، عبر سريعاً عيني المرأة المتألقتين. لقد أهنتها، لكن هذا ما أردت. الآن، لن يطلق القاضي سراح حجي سنان الدين، حتى إن كان قد اعتزم ذلك.

هذه الفظاظة معها ما كانت سهلة عليّ. وقد صدمني غضبها كأنه ضربة سوط. سأكون في حاجة ماسة إلى رحمة الله إن تفضلت علي وصارت عدواً لي.

دخلت غرفة علي آغا وقد غلب تفكيري في البرق الذي رأيته في عيني المرأة تفكيري في جمالها. أين كانت أفكارها المغلقة ذاهبة؟ أكانت أشد حرارة من أن تستطيع البقاء على حالها؟ وكيف تكون نتيجة صمتها المترفع، المزدري؟ كان ممكناً أن تصير زوجة جيدة وأماً جيدة. لكن، بما أنها لم تصر كذلك، فما هي؟

«هل أرسلت الرسالة؟»

نظرت إلى العجوز وكنت شارد الذهن، كنت ما أزال معمياً بعد ما رأيته من ازدراء تلك المرأة.

«هل أتت ابنتك؟»

«تأتي ابنتي كل يوم. يقلقها أنني لا آكل إلا قليلاً. هل كلمتها؟».

«وهل تكلم ابنتك أحداً؟»

«هذا ما أظنه. ألا تعجبك؟»

«توسلت إليها من أجل حجي سنان الدين. طلبت منها إقناع القاضي بأن يخلي سبيله».

«وماذا قالت لك؟»

«لا شيء».

«بعض الأحيان، تكون ابنتي غريبة. كيف تحس نفسك الآن، تبدو لي في أحسن حال».

«أحس أني في صحة جيدة.. عفوك يا رب.. قد أجد نفسي عما قريب راغباً في أن يُزج بأصدقائي في السجن كل يوم».

كان صوته قوياً، واثقاً! ألم أسمع، منذ لحظات فقط، صوتاً مختلفاً عن هذا، صوتاً خائفاً، مذعوراً؟

أية لعبة تلك التي يلعبها؟ ومع من. مع نفسه، أم مع الآخرين؟ أم هو يلعبها مع نفسه من أجل الآخرين؟ وما هو؟ أهو حزمة من عادات؟ أهو صورة زائفة؟ ذكرى تطاول عهدها؟ أكان ما ينتظره الآخرون منه أكثر أهمية عنده من عجزه وانعدام حوله؟ كان الأمران موجودين فيه، ومن الممكن أن يصيرا حاسمين. كبرياؤه القديم يحدو به إلى التدخل، لكن ما صارت عليه اليوم حاله يمانع في

ذلك. يدعوه تعب قرب موته إلى إغماض عينيه، لكنه يوهم الناس بماضي قوته، بظلها. أتكون نهاية كل إنسان هكذا؟.. يقاتل ذاته السابقة؟

ومن عساه يخرج منتصراً؟

جلست عند قدميه وقلت «لقد ابتزني المراسل. صار وقحاً عندما رأى أن الرسالة من غير اسم».

«لماذا لم تقل له أن.. إنني آسف. كان عليك أن تعطيه المال. إن أعطيته مالاً، فسوف يلين على الفور».

«أصابني شيء من الذعر. وهذا ما جعلني أتساءل إن كان من حقي أن أثقل عليك بهذه المشكلة، وأن أقنعك بالتدخل فيها».

«لست أفهم ما تقول».

بدا في صوته فراغ صبر.. كأنه أحس إهانة «في وسعك أن تقنع غبياً، أو طفلاً جاهلاً. لكنك لا تستطيع إقناعي. أنت لم تذكر لي شيئاً غير الرسالة. وقد قلت لك إن علينا أن نفعل المزيد. أم أن ذاكرتي تخونني؟ ثم، بماذا أثقلت علي؟ أنا غير قادر على النهوض، لكني ما أزال قادراً على الكلام. لا يستطيع أحد تخليصي من قلقي على صديقي. هذه مسألة ضمير».

«قد يكون الأمر خطيراً».

«لا شيء يستطيع أن يكون خطيراً عليّ.. ليس بعد الآن. وإن شئت، فكل شيء خطير. الموت مختبئ خلف الباب، في انتظاري. عندما أفعل شيئاً، لا أفكر فيه. هذا لا يهمني. أنا حي».

تكلم واثقاً من نفسه؛ وبدا كلامه مقنعاً. بدا ما قاله مقنعاً مثلما بدا ما كان يقوله قبل قليل. رجلان مختلفان؛ لكن واحداً منهما ينبغي أن يكون أكثر شبهاً به، أقرب إلى أفكاره ورغائبه.

على أية حال، هذا لا يهمني. سوف أطمئنه إلى ما أنا محتاج إليه؛ وسوف أثق به. قلت له مادحاً، «يسرني سماعك تقول هذا. أحترم الناس الشجعان، النبلاء».

«ينبغي أن تحترمهم.. إذا استطعت العثور عليهم. إلا أن العجائز ليسوا شجعاناً ولا نبلاء. وأنا أيضاً، لست هذا ولا ذاك. قد أكون ماكراً فحسب. يأتي هذا مع تقدم السن. ماذا يستطيعون أن يفعلوا بي وأنا هكذا؟ هل يحسبون رجلاً صارت إحدى قدميه في القبر، أم يقتلوه؟ الناس أغبياء: ينقذون حياة عجوز لا نفع فيه، لكنهم يدمرون شاباً ما تزال حياته كلها أمامه. لهذا السبب، سوف آخذ كل شيء على عاتقي، كل شيء. وسوف أستغل هذه المزية لأن المرء لا يصادفها إلا مرة واحدة في حياته كلها».

ضحك، وراح يسعل.

«هذا شرير، أليس كذلك؟ أن يكون المرء بطلاً من غير خطر. أمر شرير ومضحك معاً».

لم أدر إن كان ذلك مضحكاً؛ وما كنت واثقاً من أنهم سيعفّون عنه. لكن، فليكن الأمر مثلما تريد، أيها العجوز. سأحزن عليك إن هلكت، لكني سأكون أشد حزناً إن فشل مسعاي. بعد الآن، ما عاد أي منا مهماً.

فاجأني أنه لم يسألني - حتى تلك اللحظة، لم يسألني ولا مرة - عن سبب حجز حجي سنان الدين؛ ولم يسألني إن كان مذنباً في شيء. قلت له إني سمعت أنه متورط (لست أدري كيف) في هرب متمردي بوسافينا من الحصن؛ وسمعت أن اعتقاله كان بداية حملة ضد الأعيان بسبب تزايد رفضهم الخضوع لما يقرره السلطان والوالي. مناسبةُ الحملة هي الامتناع عن دفع ضريبة الحرب. من المنتظر أن يؤدي توجيه ضربة إليهم إلى نشر الخوف بين الناس بعد التمرد في بوسافينا وكراايينا، وذلك حتى لا يكون سوء أفعالهم مثالاً يقتدي به غيرهم. قلت له إن الأمر ينبغي أن يكون هكذا. فلهذا السبب نفسه، وبغية الحيلولة دون مزيد من الاضطرابات وتجنب ما لا يمكن لأي عاقل أن يتمناه، لا بد من إبعاد أولئك الذين يبذرون بذور السخط والشقاق، أولئك الذين يضطهدون الناس تحت ستار القانون، أولئك الذين يمكن أن يقود سوء أفعالهم الآخرين إلى أعمال مخجلة دامية. إن كان في مصيبة حجي سنان الدين ما يساهم في إبعادهم من بيننا، فلن يكون مصابه من غير جدوى، ولن تكون مخاوفنا من غير جدوى.

لوح بيده كأنه يسقط احتمال أن يكون حجي سنان الدين قد أقدم على فعل شيء خاطئ؛ فإما أن يكون قد اعتبر ذلك أمراً لا خطر فيه، وإما أنه لم يصدق الأمر. وأما عن الحملة فقد قال إن المسألة ـ دائماً ـ مسألة خوف بشري وهذا أمر يمكن فهمه دائماً لأن الأمور لا تتحسن أبداً، بل تسوء فحسب. أو.. لعل الأمر يبدو لنا هكذا لأن ما هو كائن يظل على الدوام أصعب مما كان من قبل، ولأن الديون المسددة أهون دائماً من الديون ما تزال معلقة فوق رؤوسنا. لم يصدق أن أحداً قد سمع بتلك الحملة: إن كانوا قد اعتزموا ذلك حقاً، فلن يبوحوا به أبداً. وإن كانوا قد باحوا به، فهم غير جادين في ذلك. يحاولون إخافة الناس، لا أكثر. وأما فيما يخص السلطات، فإن التعامل معها صعب دائماً لأن أهل السلطة يحاولون إرغامنا على ما لا نريد. فماذا يحدث إن هم اختفوا؟ خلال حياته الطويلة، أزيح مالا يستطيع إحصاء عدده من القضاة والمتسلمين والقائمو مقامات، أو نُقلوا، أو قُتلوا. فهل تغير شيء بعد ذلك؟ لم يتغير الكثير. لكن الناس ما يزالون مصدقين أن الأمور يمكن أن تكون مختلفة، ما يزالون يتمنون التغيير. يحلمون بحكام صالحين.. لكن، من هم أولئك الحكام الصالحون؟ من ناحيته، يحلم بحكام مرتشين فأولئك هم أكثر من يحب لأن ثمة طريق توصله إليهم. الحكام الشرفاء أسوأ الحكام جميعاً، فهم ليسوا محتاجين إلى شيء. وليست لديهم نقاط الضعف البشرية ولا يعرفون غير شرع سام لا يكاد يستطيع عامة البشر فهمه. لا يفوقهم أحد في القدرة على ارتكاب الشرور والآثام. يخلقون كرهاً كافياً لأن يبقى مئات السنين. وماذا عن الذين عندنا؟ هم لا شيء. هم تافهون في كل شيء. وهم غير قادرين على أن يكونوا أشراراً ولا أخياراً. معتدلون في قسوتهم، مثلما هم معتدلون في تورعهم. يكرهون القصبة، لكنهم يخشونها. هذا ما يجعلهم حقودين، ما يجعلهم ينتقمون كلما استطاعوا انتقاماً، أو كلما ظنوا أنهم يستطيعون انتقاماً. يكونون مرعبين إن صارت لديهم جرأة على فعل ما يريدون؛ لكنهم يخشون دائماً أن يقعوا في خطأ. ومن الممكن أن يقعوا في الخطأ سواء ألانوا أم تشددوا. التهديد أنجع وسيلة في التعامل معهم إن هددهم المرء بهدوء ولم يكشف لهم عن كل شيء؛ وذلك أنهم غير قادرين على الاعتماد على جهدهم. إنهم دائمو الاتكال على الحظ وعلى واحد من الناس في موقع أعلى من

مواقعهم. من الممكن دائماً أن ينتهي أمرهم إلى أن يصيروا فَرْق عملة في صفقات يبرمها غيرهم. وعلى وجه الإجمال، هم ليسوا أكثر من صعاليك بائسين. هذا ما يجعلهم شيئاً خطيراً جداً. هو لا يريد غير مساعدة حجي سنان الدين. ولا يهمه أبداً إن بقي أولئك في السلطة أو أُلقي بهم في الجحيم.

أستطيع القول إن آراءه كانت مختلفة عن آرائي. لكن، لا معنى لمجادلته إن لم يقف في طريقي.

طلب أن يمضي الملا يوسف الليلة في بيته. ليس عنده أحد من خدمه.

خفض الشاب عينيه كي يخفي فرحته؛ خفضهما عندما قلت له أن يمضي الليلة هناك.

أمسية ضبابية. غيوم ثقيلة ساكنة. صمت فوق القصبة.

أمضى الناس نهارهم كله متوقعين أن يحدث أمر؛ أمضوه مصيخين أسماعهم، فاتحين أعينهم على اتساعها، منشغلين انشغالاً تاماً عن شؤونهم وأحاديثهم المعتادة. هدوء شديد بعد ما شهده الصبح من إثارة واضطراب؛ هدوء شديد الوطأة وكأن جيشين متقاتلين قد انسحبا، كل إلى معسكره، في انتظار الليل أو في انتظار الصباح كي تبدأ المعركة من جديد. ذلك الصمت نفسه، ذلك السكون، ذلك الميدان الخالي من المتقاتلين، من غير صيحة أو لعنة أو خطر، أنشأ توتراً لا ينفك يزداد ويزداد. ستحل النهاية عندما ينفجر كل شيء. كانوا يتبادلون النظرات، يرقبون العابرين، يرقبون الشارع، وينتظرون. أي شيء يمكن أن يكون إشارة. رحت أرقب الشارع أيضاً. لم يبدأ الأمر بعد. لكنني انتظرت، انتظرنا؛ انتظرنا فلسوف يقع أمر.. عما قريب. كانت أساسات القصبة القديمة تتحطم. أنين الريح في المرتفعات لا يكاد يُسمع صوته. العالم كله يتصدع.

عصافير تزقزق وتطير مندفعة في السماء السوداء. وكان البشر صامتين. آلمني دمي لطول الانتظار.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ - قرآن كريم

جفاني النوم زمناً طويلاً في تلك الليلة. وعندما نمت، صرت أغفو قليلاً وأصحو قليلاً وأتابع الفكرة نفسها في النوم وفي الصحو. بت غير قادر على الفصل بين هاتين الحالين؛ وكنت مقتنعاً بأني لم أنم لحظة وبأني سأظل الليل كله ساهراً مثلما كنت، مرتدياً نصف ملابسي حتى لا تدركني الحوادث وأنا غير مستعد لها.

ما كنت قادراً على التفكير الواضح المتّسق. ولعل ذلك كان نتيجة نومي المتقطع الذي شوش نظام أفكاري وأفسد تسلسلها، أو نتيجة نفاذ الصبر الذي ساقني إلى محاولة الوصول في أسرع وقت ممكن إلى ما هو أكثر أهمية. من غير انقطاع، كنت أتخيل مواجهاتي مع أولئك الرجال الثلاثة، والقاضي أولهم.

بطيئاً، من غيرما استعجال، تابعت كل تعبير من تعابير المفاجأة والخوف والأمل، ورحت أطيل تلك اللحظات إلى أقصى ما أستطيع، تلك اللحظات الحلوة عندما يتمزق كل شيء وينهار: لقد اقتُلع الجذر، لكن ما من أحد منهم كان منتبهاً إلى ذلك تمام الانتباه. حتى تلك اللحظة، لم يحسوا أنفسهم ضائعين أو متصاغرين. ما يزالون يعيشون طبقاً لما ألفوه ودرجوا عليه في ما مضى. خوفهم.. هو ما كان جميلاً. لا سبيل أبداً إلى تخفيف وقع سقوطهم. في عيونهم خوف ولايقين، وفيها شعاع أمل، وفيها اضطراب. بل حتى أحسن من ذلك كله (أعدتهم إلى اللعبة، وجعلتهم يبدؤون من جديد): انتهى كل شيء، انتهى أمرهم، لكنهم ما علموا هذا وما كانوا بقادرين على تصديقه. ظلوا واقفين بقاماتهم المنتصبة؛ ظلوا واثقين، مغرورين مثلما كانت حالهم يومها، مثلما كانت حالهم دائماً.. ما كنت أحب أن أراهم مدمرين. ذَوى كرهي، لكن أفكاري -حتى من غير إرادة مني،

من غير أن تطيعني- مضت إلى أبعد مما أردت. في الكره، كما في الحب، لا بد للإنسان من بشر أحياء.

أخرجني من غفلتي النائمة صوت إطلاق نار ثقيل في مكان في القصبة. هل بدأ الأمر؟

ما تزال الليلة المظلمة مستمرة في سيرها البطيء. أشعلت شمعة ونظرت إلى ساعة الحائط. سرعان ما يأتي الفجر.

أكملت ارتداء ملابسي، ثم خرجت إلى الممر.

كان الحافظ محمد واقفاً بباب غرفته وعلى كتفيه سترة قصيرة من الفرو. ألم ينم الليل؟

«سمعتك ترتدي ملابسك. أين تذهب في هذا الوقت المبكر؟»

«ما سبب إطلاق النار؟»

«هذه ليست أول مرة يطلقون النار فيها. فلماذا أنت مهتم بالأمر؟»

«أوليس من أجل حجي سنان الدين؟»

«لماذا يطلقون النار من أجل حجي سنان الدين؟»

«لا أدري».

«لا تخرج، سنعلم الأمر في الصباح».

«سأعود سريعاً».

«في الخارج ظلمة، وخطر. في الخارج أناس من كل نوع. عفوك يا رب.. هل كان لمصيبة حجي سنان الدين أثر كبير عليك؟ قد تهلك أيضاً نتيجة اهتمامك وحسن نيتك».

«يجب أن أرى».

«ماذا تتوقع؟»

سرت ملتزماً الأسيجة والجدران. أختبئ في الظلمة كلما جرى جنود على مقربة مني. أُعاني منذ خروجي من السجن ذعراً غير منطقي إزاء أية خطوات سريعة أو جري مستثار. صرت خائفاً من كل ما يحدث فجأة. الآن، أردت أن أعرف ما يجري. أردت أن أذهب إلى هناك، حتى أرى، حتى أشارك.

حتى أشارك في ماذا؟

حقاً.. ماذا توقعت؟ ماذا كنت راجياً؟

آمالي كلها متعلقة بالرسالة التي أخذها المراسل إلى السلحدار في القسطنطينية. إذا لم يصل فرمان القتل قريباً، أو على الأقل رسالة فيها أمر بعزل المذنبين، فقد خلا العالم إذاً من الشرف أو خلا من حب الأبناء آباءهم. لكن ذلك ما كان مستحِقاً أن أفكر فيه لأن قيمة الحياة، في تلك الحالة، ستكون أقل من قرش من نحاس.

لكن، حتى إذا ما عاد في العالم شيء من ذلك، فقد كنت واثقاً بما لدى أهل النفوذ والسلطان من كبرياء متغطرس. وهذا لا يمكن أن يخيب أبداً. هل يقبل خيلاء سلحدار السلطان أن يسمح لهذه الحثالة التافهة في القصبة بأن تجر والده من سجن إلى سجن؟ سوف يقف في وجه هذا العار حتى إذا اضطر إلى مواجهة من هو أقوى منه. وأما المتنفذون هنا، فسوف يدفعون الثمن غالياً، وسيكون ذلك جحيماً عليهم من غير أي شك. لا بد أن طباعه ليست ملائكية؛ ولا بد أن يده ليست خفيفة أبداً.. أولم ينجح في الارتقاء إلى هذا المنصب الرفيع؟

سوف يهتم بكل شيء، من أجلي، بدلاً مني. وما علي إلا الانتظار. هذا أفضل لي، وأكثر أماناً. لكن، ما من سبيل إلى تفادي أصحاب المتاجر في البازار. ففور اختياري حجي سنان الدين طعماً، صرت متورطاً في الأمر أيضاً. قد يخربون كل شيء؛ ولكن، ماذا كان في وسعي أن أفعل غير هذا؟ إذا أخلوا سبيل حجي سنان الدين أبكر مما ينبغي، من غير أذى، ومن غير ضجة، فسوف يذهب مسعاي أدراج الريح؛ سيكون عبثاً في عبث. مع هذا، توقعت منهم أن يفعلوا أكثر مما فعلوه، أن يكونوا أكثر جداً في الأمر. لم أدر ما انتظرته منهم. لعل رسولهم قد ذهب إلى الوالي حاملاً شكواهم. ومن الممكن أن يعطوا بعض الأنذال والجنود السابقين مالاً كي يحرروا السجين. قد يحرضون الإنكشارية على عزل أصحاب السلطة هنا. لا يكاد أحد يعرف أساليبهم، لكني أملت ألا يمر الأمر مروراً هادئاً. لا بد أن يسمع به أكبر عدد ممكن من الناس. أردت الانتقام، أردت الانتصاف لما أصابني. وما أردت أن يحدث شيء من غيري.

التقيت الحارس الليلي عند الجسر الحجري.

«أين أراك ذاهباً في هذه الساعة المبكرة، يا شيخ أحمد؟»

«أخطأتُ قراءة الساعة».

«يا إلهي! أترى كيف هي الحياة؟ من يستطيعون النوم لا ينامون؛ ومن يكونون في حاجة دائمة إلى النوم محكوم عليهم أن يتجولوا طيلة الليلة».

«ماذا يجري؟»

«أمور كثيرة! يقع أمر جديد كل ليلة. ولكن، ما من أحد يخبرني شيئاً. لذا، لا أدري».

«كان أحدهم يطلق النار في مكان من الأماكن».

«لحسن الحظ، ما كان ذلك في منطقتي».

«ألا تستطيع أن تسأل عن الأمر؟»

«هذا ليس من شأني».

«سوف أعطيك مالاً».

«أنت لم تعطني مالاً حتى من أجل ما كان أكثر أهمية بالنسبة إليك. أم.. لعل هذا الأمر أكثر أهمية! انتظر! لا تغضب! سأقول لك من غير مقابل. سألت الحارس الليلي في المنطقة المجاورة. قال لي إنه لا يعلم شيئاً. إن كان لا يعلم شيئاً، فهذا يعني أن ما من شيء قد وقع. ليس عندي من أسأله غير ذلك الرجل».

بدأت الأنوار تظهر في النوافذ. كانت البيوت تفتح عيونها.

بعد انبلاج الفجر، أتاني الملا يوسف بنبأين اثنين: نبأ عن عودة حسن في وقت سابق في تلك الليلة بعد أن ظل مرتحلاً طيلة الليلة؛ ونبأ أكثر غرابة مفاده أن متاجر البازار كلها مغلقة.

كان هذا صحيحاً. رأيت متاجر البازار مقفلة، مصاريعها مغلقة، وأقفال على أبوابها. لا يكون البازار خالياً هكذا حتى في أكثر الأيام قدسية.

رأيت خياطاً شاباً ـ كان وافداً جديداً على البازار ـ يغلق مصاريع متجره الخشبية مستعجلاً، ملقياً من حوله نظرات خائفة.

«لماذا أرى المتاجر مغلقة كلها؟»

«لا أدري. أتيت في وقت مبكر. وكنت منهمكاً في عملي ورأيت أن المتاجر كلها لم تفتح أبوابها».

تفقد الرجل قفل الباب، ووضع المفتاح في جيبه، كأنه يخبئه. ثم سار في الشارع بخطى سريعة.

أتى تاجران. كانا سائرين من غيرما استعجال، مثلما يسير الخفراء. وقفا يرقبان الخياط الماضي في سبيله.

سألتهما، «ألم تقولا له إن البازار سيكون مغلقاً؟»

«من الذي يخبر من؟»

«هل يعني هذا أنكم لم تتفقوا على الأمر؟»

تبادلا نظرات كلها دهشة، «ولماذا نتفق فيما بيننا؟»

«إذاً، لماذا أغلقتما متجريكما؟»

أجاب واحد منهما، «قلت في نفسي: لماذا لا أترك المتجر اليوم مقفلاً؟ أظن أن الآخرين فكروا مثلما فكرت».

«لكن، لماذا؟»

«لماذا؟ وما أدرانا لماذا؟»

«هل يعني هذا حقاً أنكم لستم متفقين على الأمر؟»

«ماذا بك، يا أفندي؟ كيف يمكن للبازار كله أن يتفق على أمر؟»

«لكن، ألا تريان أن كل شيء مغلق؟»

«هذا صحيح. هذا هو ـ بالضبط ـ سبب الإغلاق».

«ما هو؟»

«لأن ما من اتفاق بيننا».

«عظيم. إذاً، ليس السبب ما جرى يوم أمس!»

«نعم.. هذا أيضاً بسبب ما جرى يوم أمس».

«أم لعله بسبب إطلاق النار هذا الصباح؟»

«نعم، بسبب إطلاق النار».

«أم لعل أمراً آخر هو السبب؟»

«نعم، السبب أمر آخر».

«ماذا يجري في القصبة؟»

«لا ندري. هذا ما جعلنا نترك المتاجر مقفلة».

نظرا إلى ما خلفي، نظرا جادين، نائيين، قلقين، مخاتلين.

«وماذا يحدث الآن؟»

«لا شيء.. بعون الله».

«وإذا حدث شيء؟»

«لا بأس.. هكذا هو الأمر: لقد أغلقنا متاجرنا».

هل يبدو منطقنا، نحن الدراويش، لأصحاب المتاجر غير مفهوم مثلما يبدو منطقهم لنا.

لست أقول إنهما كانا غير صادقين أو مبالغين في حذرهما. لقد استشعرا خطراً داهماً: عندما يحدث هذا، تكون لكل امرئ لغته الخاصة به.

أخبرت حسناً بهذا الحديث. لقد خلق هذان التاجران انطباعاً عجيباً في نفسي إذ صارا شخصين غريبين، بين عشية وضحاها، نتيجة ما قد بدأ. ألا ينبغي أن يصيرا أقرب إليّ؟ طرحت هذا السؤال على حسن لكني طرحته بطريقة مختلفة: ألا ينبغي أن يصير تفكيرنا متقارباً لأننا، أنا وهو، مضطربين للأمر نفسه، لأمر واحد؟

كان حسن يرتدي ملابسه في غرفته، لقد استحم مرتين حتى الآن. قال لي إنه متعب لأنه كان في عجلة من أمرهم بسبب أبيه. كان صديقه من دوبروفنك مستنفد القوى، ومن المؤكد أنه سينام يومين وليلتين. لم يبد لي حسن متعباً، بل شارد الذهن. اختفاء الهدوء من تعابير وجهه جعله يبدو حالماً، منفصلاً. كان ينيره من الداخل شيء مثل نور القمر، سعادة سخيفة، شيء ليس ذكياً جداً أعماه عن العالم من حوله. أجابني: نعم، بالطبع. لكن الظاهر أنه لم يفهم سؤالي أبداً مثلما لم أفهم التاجرين.

«أنت لم تعد حقاً إلى القصبة. لم تعد بعد». قلت له هذا حائراً بعض الشيء، مستمتعاً قليلاً بما يبدو عليه من شرود. «ماذا؟ آه، نعم! أنا هنا. وقد علمت ما يجري هنا. أبي مريض جداً، وحجي سنان الدين في السجن، والميرالاي عثمان بيك ذاهب لذبح المتمردين في بوسافينا. أثمة أمر آخر؟»

ابتسم لي مسروراً كأن تلك الأشياء داعية إلى البهجة أكثر من كل ما سمعه في حياته حتى الآن.

«كيف يمكن أن يكون علي آغا مريضاً جداً؟»

«كان في حالٍ حسنة ليلة أمس».

«لقد أحزنه اعتقال حجي سنان الدين».

«أحزننا جميعاً. لقد خفنا وقلقنا عليه».

«لماذا؟ سوف يخلون سبيله. لقد تم العثور على رجال يحبون المال. تخيل.. أولئك الناس موجودون حقاً!»

بالنسبة إليه، لا وجود أبداً لأية أمور خطيرة ذلك الصباح. ضحك، وقال لي، «كان يرعى السجناء طيلة حياته إلى أن صار واحداً منهم. أمر غريب، أليس كذلك؟ أن يصير المرء موضوعاً لشغفه».

«نحن حزينون كثيراً عليه».

كان هذا لوماً. أردت إبعاده عن أفكاره الغريبة، لكنه ما كان ليترك شيئاً يزعجه أو يشغل باله.

«وأنا حزين عليه أيضاً. أترى كيف أنفق حياته كلها ملتمساً ثواب الله بأن يعمل خيراً من أجل الآخرين؟ لكن الآخرين يعملون الآن خيراً من أجله. لعل هذا يكون ثوابه!»

كنت مدركاً أنه لا يحب إظهار مشاعر رقيقة؛ لكن هذا بالغ القسوة. لعل ما طلبته منه كان أكثر مما ينبغي. هو اليوم غير قادر على التفكير إلا في سعادته.

«كيف كانت إقامتك في دوبروفنك؟»

«جيدة. ما يزال الصيف مقيماً فيها».

عجبت لأنه ليس ربيعاً.

انفتحت بوابة الفناء فاقترب حسن من النافذة.

دخل الخادم فضلي قادماً من الشارع وأشار إليه بأن ينزل.

سألني حسن، «هل تستطيع البقاء مع أبي؟»

«ليس لدي وقت كثير».

«ابق معه قليلاً فقط. سأعود عما قريب».

وجدت علي آغا مثلما تركته الليلة السابقة؛ بل كان أكثر نشاطاً.

سألني، «أين ذهب حسن؟»

«لا أدري. قال إنه سيعود عما قريب».

سألني عما يجري في القصبة، وفوجئ عندما سمع أن البازار مغلق. سألني أيضاً أن أقنع ابنه بالبقاء في البيت، من أجله. لا يدري أحد ما يقع عندما يكون المرء مريضاً.

«لماذا قلت لحسن إنك صرت أسوأ حالاً؟»

«هذا صحيح. أحس أني صرت أسوأ حالاً».

«منذ متى؟ الليلة الماضية، كنت في حالٍ حسنة كعهدك دائماً. أوشكت أن أقول له هذا، لكني لم أجد فرصة لقوله».

«أليس لديك شيئاً أفضل من هذا تتكلم فيه؟ أحسست أنني تحسنت، لكني أحس أني صرت أسوأ حالاً. وأنا أحب أن يبقى حسن إلى جانبي. ما الغريب في هذا؟»

«لا شيء. الحقيقة أنك راغب في إبقاء حسن إلى جوار فراشك إلى أن ينتهي الأمر كله، أليس كذلك؟»

«هذا أفضل له، تعرف إنه متعجل. سيفعل ما لا تستطيع توقعه. اذهب وانظر إن كان قد عاد».

عندها صار كل شيء واضح لي ـ سلوكه الغريب، ونواحه أمام ابنته، ومطالبته بأن يخلي القاضي سبيل السجين، وسوء حالته هذا الصباح؛ كان هذا كله بسبب حسن لأنه يريد أن يقيه الخطر وأن يمنعه من الإقدام على فعل متهور. هذا ما جعله يربط ابنه إلى مرضه، وهذا ما دفعه إلى أن يلعب تلك اللعبة الغريبة التي لم

أستطع فهمها. أراد أن ينقذ حجي سنان الدين حتى لا يفعل حسن ذلك بنفسه. أضفى عليه حبه خوفاً ودهاء وسعة مخيلة.

حاولت تهدئته. قلت له، «لا تقلق على حسن. لن يقدم على أي أمر متهور».

«لم لا؟»

«إنه لا يفكر إلا في تلك المرأة من دوبروفنك. القبّرات تغني في قلبه. أكاد أستطيع سماع زقزقتها».

«أتظنني لا أستطيع سماعها؟ هذا ما يخيفني، يا صديقي».

«ماذا؟»

«تلك القبّرات هي السبب في أنه قد يقدم على أمر غبي. في تلك اللحظات، يصير الرجال جميعاً خيّرين ويشفقون على الآخرين».

«صحيح، يحسون شفقة، لكنهم لا يفعلون شيئاً. الحب أناني. ماذا بك، يا درويش؟ ماذا تعرفِ عن الحب؟ أنا مستعد لأن أكسر رقبتي من أجل ابني. هل هذه أنانية؟»

أردت أن أسأل العجوز ـ لا بد لي من سؤاله في لحظة من اللحظات ـ عما هو مستعد لفعله من أجل ابنه، عما هو مستعد للتخلي عنه من أجله؛ وماذا سيصير حبه إن هلك ابنه يوماً. سيصير أعمق كره سمعت به في حياتي كلها.

كان هذا الحب هو الأمر الوحيد الموجود في حياته. هو ولا شيء آخر. حتى على فراش موته، حتى عندما يلفظ آخر أنفاسه، سيظل هذا الحب معبوده. لعله هو أيضاً ما يقيم أودَه، يبقيه حياً. لعل هذا هو مكر التقدم في السن، المكر العميق المعقد، خوف الموت وقد صار حباً كي تستطيع آخر البراعم أن تزهر في قلبه الشائخ. حب الابن من أجمة مزهرة لا حاجة بك إلى تسميدها كي تنتعش وتزدهر؛ وحب الأب ليس إلا واحدة من تلك الأزهار الكثيرة. بل قد يكون عقبة، إزعاجاً يفرضه الواجب. على أنه مرساة العجوز الوحيدة.

أقول ربما.. لأني لا أدري.

كانت القصبة هادئة كأنها قد بدأت تموت، قد بدأ يتباطأ تنفسها، قد صار عيشها واهياً أكثر فأكثر. جلست في فناء المسجد على حجر قرب النافورة في حين كان الناس ماضين في البازار وفي الشوارع أفراداً أو جماعات. يتكلمون كأنهم نائمون، مستغرقون، لا يكادون يدركون شيئاً، مستاءين لأمر من الأمور، شاعرين بالخيانة وبالخواء. يسيرون وينتظرون مرور الزمن، أو ينتظرون الزمن الذي سيأتي، يجللون بدورانهم الناعس وشبكة خطاهم الكثيفة.

سألتهم، «ماذا يجري؟»

لم يسمعني أحد.

أيكون اعتقال حجي سنان الدين قد أحزنهم إلى هذا الحد؟ أية روابط غريبة تشدهم معاً؟ وفي أية دائرة مغلقة يعيشون؟ في أية دائرة لا أعرفها ولا أستطيع دخولها؟ ماذا أصابهم؟ ليسوا غاضبين، بل ليسوا حتى محبطين: يبدون فقط كأنهم صاروا منفصلين عن كل شيء. صاروا كأنهم يرقبون القصبة والعالم بنوع من فضول ميت، ناعس لكنه متواصل؛ وكانوا في انتظار. لقد فقدوا ملامحهم واكتسبوا ملامح جديدة، ملامح مشتركة، موحدة، لا تمايز بينها.

كان علي أن أفعل شيئاً إذ بدا لي أن الجرثومة في تنام وإن تكن غير مرئية. لكن الزمن كان فارغاً، وكان يفصلني عن نفسي ويفصلنيً عنهم مع أني ما كنت أدري أين انتمائي.

كنت كأني ضللت طريقي إلى منطقة لا أعرفها، بين بشر لا أعرفهم.

خبأت عنهم عينيّ ورحت أنظر إلى مجرى الماء الضيق الذي يصطدم بالحجارة فيتناثر رذاذاً من قطيرات متزاحمة لا لون لها لأن الشمس محتجبة: حسبت أن نفسي ستهدأ بفعل ما يظل حياً من تلقاء ذاته، يظل حياً إلى الأبد، لكن قلقي كان في تنام.

ثم رأيتهم يتوقفونً ويصغون إلى أمر ما استطعت سماعه، ثم يسيرون معاً في اتجاه واحد.

سألت واحد منهم، «أين أنتم ذاهبون؟»

«في ذلك الاتجاه».

«لماذا؟»

«الجميع سائرون هكذا».

أتانا صياح من ناحية مسجد كورشوملي.[1]*

دبت الحياة في الناس وتسارعت خطواتهم.

كانت الشوارع غاصة بالناس. لم أستطع رؤية أي شيء. ولم أستطع سماع ما كان جارياً. حاولت شق طريقي بينهم فوجدت نفسي منساقاً مع الحشد الغوغائي المندفع كأني واقع في دوّامة. كان الحشد يدفعني ويجذبني أماماً وخلفاً، من جدار إلى جدار، رافضاً أن يتركني لنفسي حتى لو لحظة واحدة. كان كأنه يضمني ضماً وثيق في عناق حارٍ، مضطرب، وثيق، مزعج. كان هذا بشعاً، وكان سخيفاً، وكأن الشيطان نفسه حرص على إيقاعي بين مئات العروق في أرجل البشر وأذرعهم فيفصلني بهذه الطريقة عن كل شيء كان جارياً هناك. كنت مضغوطاً بينهم؛ وكنت قادراً على دفعهم مثلما يدفعونني، وعلى الصياح والتهديد والوعيد، لكني ما كنت قادراً على اتخاذ قرارات. صرت مشبوكاً بهم على نحو لا رجعة فيه، وصرت واحداً من كثرة.. قوة غاشمة مخيفة صارت ضائعة في الحشد.

ثم وقع أمر غريب: نسيت كم كان حالي مستحيلاً، كم كان غير مقبول؛ وعلى امتداد لحظات بأسرها راحت جذوري والجمرات الملتهبة في ذاكرتي تعيدني إليهم، تجعلني صنواً لهم. ما عدت أسيراً بينهم. ما عدت أحس إهانة لأنني أُدفع أماماً وخلفاً، وما عادت رائحة الأجساد المتعرقة مزعجة لي. نسيت أن علي أن أشق طريقي بينهم، أن أذهب إلى مكان من الأماكن، أن أذهب إلى المكان الصحيح، أن أقرر أمراً. كان هذا هو مكاني الصحيح، وكنت مثلي مثلهم، تثيرني كثرة عددنا، ويثيرني الصياح، وتثيرني قوتنا المشتركة. كنت سائراً مع الآخرين كتفاً كتف. رفعت ذراعي وتوعدت شخصاً غير موجوداً هناك. تحررت من الخوف كله، وكنت مقتنعاً بأن أوان دفع ثمن الآثام كلها قد حان، حتى تلك

---

(1) كورشوملي: (من الكلمة التركية كورسون التي تعني «رصاص») هي صفة للمباني ذات السقوف المكسوة بالرصاص. كان اسم أكبر مدرسة دينية في سراييفو (بنيت بين سنتي 1537 و1538) كورشوملية؛ لكن المدينة ما كان فيها مسجد يحمل هذا الاسم.

الآثام القديمة الجارية مع الدم. وقد صحت، ورفعت صوتي مثل الآخرين، بماذا كنت أصيح؟ لست أدري. أظنني قلت: الموت لهم! هذا ما ظننت. أم أنني أضفت إلى أصواتهم صوتي الذي من غير معنى، كأنه صرخة، كأنه وعيد، حتى أجعل الصوت أقوى لأني كنت واحداً منهم، جزءاً منهم. لكن، لا! كنت أنا نفسي، لكن بمئة صوت، بمئة ذراع، بمئة رأس. تأكّلتني ألفُ مشكلة كانت تخص الجميع، لكنها تخصني أيضاً. هدر صوتي: آآآآآآ! وفي تفكيري: الثأر! في تفكيري: الدم! في تفكيري: النهاية! نهاية ماذا؟ آه، نهاية كل ما هو خاطئ، كل ما هو غير بشري. علمت هذا حتى من غير تفكير فيه. سموات متألقة راحت تنفتح أمامي.

ثم انتبهت إلى نفسي من جديد. انتزعت نفسي من جذرنا المشترك، وعدت قادراً على الإحساس بعرق الناس، بمرافق أذرعهم، وكنت غاضباً لأنهم يصرخون ولأني لا أستطيع الخروج من بينهم. صحت بهم، «دعوني أمرّ!». كرهتهم، صرت أسيراً بينهم، صرت فاقداً قوتي، صرت غريباً عنهم، غريباً عنهم تماماً.

ثم سمعت ما كانوا يصيحون به، ما كانوا يشكون منه، سمعت من كانوا يهددون ويتوعدون. لم يأت أحد على ذكر حجي سنان الدين، ولم يتذكره أحد ولا حتى مصادفة. كانوا يذكرون ما يهمهم، ما يهمهم فحسب، ما يقلقهم فحسب. وكان ثمة أمور كثيرة تثير قلقهم وغضبهم: نقص المواد، وغلاء الأسعار، والخوف، والظلم كبيرُه وصغيره، والوعود الفارغة، والسنوات الضائعة، والآمال المخذولة، والليالي الثقيلة، والشيخوخة قبل أوانها، ومشاعر الحب الصغيرة، ومشاعر الكره الكبيرة، وعدم اليقين، والإذلال، وذلك البؤس كله الذي يدعونه الحياة، الذي هو الحياة نفسها.

كان الكثير من تلك القاذورات في تراكم مستمر؛ وقد جمعوها وراحوا يصيحون بها معبرين عن سخطهم، كأنهم ينادون في السوق، كأنهم يعرضون ما لديهم من ثروات، يعرضونها حانقين. كانوا يقدمونها كأنها هدايا ـ من يريدها يستطيع أن يأخذها ـ أو كانوا يعرضون مبادلتها، لقاء كرهٍ أو لقاء دم.

في لحظة صمت قصيرة بين صيحتين كأنها لحظة بين طلقتين في ميدان معركة، كانوا يحكون بكلمات قليلة، يحكون بأنفاس متقطعة، كيف قُتل حارس في موقعه ـ لا بسكين، ولا بسلاح ناري ـ وكيف ظل واقفاً مكانه، ميتاً، وكيف وُلد في «حي القرنفل» طفل بعين واحدة في جبهته. كانوا في حاجة إلى أمر منذر بالسوء كي يحوم من فوق غضبهم هذا.

صار الوضع لا يطاق. صار أكثر حرارة وأكثر حرارة، أشد كثافة وأشد كثافة، أعظم جنوناً وأعظم جنوناً، وكان الجمع يتجاذبني، وكان الجمع يدور من حولي كأنه تيار جارٍ. ما كنت إلا شذرة، نثرة؛ وكانوا يجعلونني أدور في دوامات كأنها زوابع صغيرة. غرست مرفقيّ في أضلاع واحد منهم، وصحت، وصاح الآخرون. دست على واحد منهم فزمجر التيار المندفع. ترنحت.. سوف أسقط تحت الأقدام بدوري، تمسكت برقبة واحد منهم مثلما يتمسك غريق. الآن، اندفعتْ المياه في اتجاه آخر: سوف نغرق جميعاً. اندفع التيار مزمجراً في شارع آخر، وانهار السد. صار تنفسي أكثر سهولة. اندفعت من خلف الآخرين. حاولت إيقافهم، حاولت تهدئتهم. طغى علي الخوف لأنهم ما عادوا مدركين أين يجرون، وما يريدون. كانوا حجارة في انهيار جبلي؛ كانوا تياراً عاصفاً.

كان إطلاق النار مسموعاً أمام مقر المتسلم.

«ما هذا؟»

«الحراس يطلقون النار».

وما توقف أحد.

بلغت المكان وقد تقطعت أنفاسي فرأيت شاباً ممدداً على حجارة الشارع، ميتاً. بقع دم على قميصه القطني الخفيف. بضعة رجال واقفون في دائرة من حوله، وواحد لم أستطع رؤية وجهه كان راكعاً إلى جواره. كان يحاول أن يرفع رأسه.

اقتحم الجمع المقر، وكان ممكناً سماع أصوات انقلاب الأشياء وتحطمها. المتسلم وحراسه ما كانوا هناك. لقد فرّوا.

مضيت إلى الرجل الراكع فوق الشاب المدمى. أسفت لرؤيتهما في ملابس ريفية.

«هل مات؟»

كان مسنداً رأس الشاب بيده اليسرى مثلما يسند المرء رأس طفل صغير؛ وكان ينظر مذعوراً في وجهه الأبيض كأنه ملاءة من قطن. كان ينظر فيه منتظراً أن يستعيد تورده، متوقعاً أن يرتعش فمه، متوقعاً أن يعود كل شيء مثلما كان قبل بضع دقائق.

كان الاثنان في سن الشباب.

«أهو شقيقك؟»

قال الرجل مضطرباً، «جئنا إلى السوق..» وأومأ إلينا بعينيه اللتين ما عادتا تعرفان استقراراً، اللتين ما تزالان منتظرتين في الماضي لأنه لا يجرؤ على مقاربة هذه اللحظة.. «كي نشتري ملحاً».

«اتركه راقداً على الأرض».

«... ومسامير أيضاً. نحن نبني بيتاً».

«دعه راقداً على الأرض. لقد مات».

«... وكنت أقول له: أتينا من غير جدوى فالمتاجر مغلقة، وكان يقول لي.. مسّ الوجه الميت بأصابعه، مسه مساً رقيقاً بأصابع الحرّاثين، ثم راح يناديه بصوت خفيض، «شفكي! شفكي!»

سيغضب أبوكما لأنكما تأخرتما كثيراً. وسوف يوبخك لأنك لن تكون عائداً معه. انهض، يا شفكي! استيقظ! شفكي، أين أنت؟

هارون، أين أنت؟

أين أنتم، جميعاً، أيها الإخوة الضائعون، المقتولون؟ لماذا يفصلون بيننا حين نكون منفصلين من غير شيء؟ أتراهم يفعلون هذا كي ندرك الأمر؟ كي ندرك انفصالنا؟ أم كي نبدأ الكره إن كنا لا نعلم كيف نحب؟

«لقد قتلوا أخاك. أتريد أن ندفنه هنا؟»

كان الآن يدفئ وجنته بيده كلها.

«خذه معك. اتركه يحظى بجنازة لائقة، على الأقل».

حمل الجثة، وسار مبتعداً، حمل الجثة مثلما يحمل طفلاً، مثلما يحمل منديلاً مطوياً، مثلما يحمل حزمة قمح. سار بخطى واسعة على حجارة في شارع البازار المرصوف.. عادة اكتسبها من حراثة الحقول. ما يزال مستمراً في النظر إلى وجه أخيه بأمل مجنون.

سرت أمام جثة الشاب، وتلوت أدعيتي بصوت مسموع.

سمعت الناس يصيحون، وكانوا كثراً. لم يهدأ غضبهم.

تنحيت جانباً عند زاوية الشارع، أمام المحكمة، تنحيت كي يستطيع الجميع رؤية القتيل محمولاً بين ذراعي الشاب.

وقفوا في نصف دائرة من حوله، وقفوا يرقبونه صامتين.

تلوت أدعيتي، وتركتهم قاصداً المسجد.

من خلفي، من خلفنا، كان ثمة عواء، تحطم زجاج، أصوات ضربات مرتفعة.

ما استدرت وما التفتّ.

التقيت الحافظ محمد عند المسجد وسألته أن يهتم بالشقيقين، الميت والحي. تابعت سيري في الشارع.

«أين أنت ذاهب؟»

لوحت بيدي مسقطاً سؤاله. الحق أنني كنت لا أدري.

«كان حسن يبحث عنك».

وكأن ذلك الاسم غمرني نوراً. أرهقني الزمن الذي أمضيته من غيره. في ذلك اليوم، ثم في تلك اللحظة عينها، كنت محتاجاً إليه أكثر من أي وقت مضى. لكني سأنتظر أطول قليلاً.

سرت صاعداً في الشارع كي أحس أنني أتسلق وأعلوا، كي أرهق نفسي بذلك الجهد. أردت الانسحاب. كنت متوتراً منذ الصباح، وكنت مشاركاً في كل لحظة تمر.

تركت الزمن يستمر من غيري. في وسعه أن ينتهي وحده كيفما أراد أن ينتهي.

كنت في حاجة إلى الابتعاد عن البازار، الآن، في هذه اللحظة، إلى أن أذهب بعيداً كأنني مبتعد عن حريق.. حتى لا أكون آثماً، وحتى لا أكون شاهداً.

كنت أحاول فصل نفسي عن ذلك كله.

كنا في آخر الخريف. أشجار الخوخ سوداء، من غير أوراق، وذرى الجبال الصخرية يلفها ضباب. الريح مُعولة في المساحات الفاصلة بين بيوت الحي.

قلت لنفسي: سوف يهطل ثلج عما قريب.

وما كان الأمر يهمني.

حاولت السير مثلما يسير شخص ذاهب في نزهة.

قلت في نفسي إني لم آت إلى هذا المكان منذ زمن طويل.

وما كنت مبالياً.

رأيت: بضعة أطفال يلعبون تيبكات. قلت في نفسي، أمر غريب! أطفال يلعبون تيبكات.

وكما ترون، كنت مبالياً بهذا.

كان الأطفال يلعبون. وأما في الأسفل، فقد كان آباءهم ماضون في ثورة مخزية.

نظرت: في الوادي، كانت القصبة هادئة، ساكنة. الناس يمرون في الشوارع صغاراً، غير متعجلين، بريئين. من تلك المسافة، من الأعلى، كانوا مثل الأطفال، لكنهم ما كانوا أطفالاً. لم أر وجوههم مجنونة هذا الجنون كله، وعيونهم قاسية هذه القسوة كلها، لم أر ذلك من قبل. ما كنت قادراً على معرفتهم لأن عيونهم محمرّة وأسنانهم بارزة. كانوا وجوههم مثل الأقنعة المشوهة التي يضعها الكفار في عيد الميلاد. كان هذا عيدهم الرهيب.

ما أردت التفكير فيهم، وما أردت التفكير في أي شيء. كان الزمن جارياً، وكان الزمن يهتم بكل شيء من غيري. ما كنت قادراً على إيقافه، ولا على استعجاله. كان الزمن يقطر مثل ماء المطر قطرة بعد قطرة.

احتميت تحت حافة سقف واحد من مساجد الحي المتهالكة. وقفت عند جداره.

وتفرق الأطفال.

خوجة عجوز أبيض اللحية محدودب من فوق عصا في يده المرتعشة جاء مقترباً من المسجد، خطواته بطيئة، غير حقيقي في ذلك الصمت، وحيداً من غير مؤمن واحد خلفه. كانوا جميعاً هناك، في الأسفل، في القصبة. لكنه ما كان مبالياً بهذا. رأت شيخوخته أموراً أكثر أهمية. أذّن للصلاة أمام المسجد. لكن هذا كان من غير طائل؛ كان نداء يكاد يكون غير مسموع، نداء موجهاً لمن ليس هناك.

وكان معنى هذا أن الوقت قد صار ظهراً.

كنت واقفاً على قدمي منذ الصباح الباكر. بدأت أحس إنهاكاً كأن إدراكي مرور الزمن قد بدأ ينيخ علي بثقله.

كنت مستنداً إلى جدار المسجد، ونظرت أمامي، نظرت في المطر الذي لا ينفك يشتد ويشتد، المطر الذي يفصلني عن العالم. أصغيت إلى تمتمات الخوجة الضعيفة في صلاته. كان ذلك صوتاً آتياً من عالم آخر، صوتاً حزيناً حد اليأس، وحيداً وحدة تامة. وكان أسوأ من ذلك أنني سمعته لأنه أيضاً كان يحدثني عن وحدتي. ما كنت قادراً على مساعدته فثمة جدار بيني وبينه. هو أيضاً، ما كان قادراً على مساعدتي.

وحيد. وحيد. وحيد.

وحيد مثل شخص تحوم من حوله الشبهات.

لكن، لماذا أكون آثماً؟ ما الذي كان في مقدوري فعله كي أمنع حدوث أي شيء؟ ما كان أحد قادراً على إيقافهم في ذلك الصباح. لقد جاء وقتهم. وقتهم المقدّر من أجل الإثم، جاء مثلما يجيء طور من أطوار القمر. جاء أقوى من إرادتي، بل جاء أقوى من إرادتهم. كان يمكن أن أحاول إقناعهم أو ثنيهم، لكن هذا ما كان ليجدي شيئاً.

ماذا يجري في الأسفل. أو.. ماذا جرى؟ لم أدر؛ ولم أبال. ريح بُذرت، وجاء الآن وقت حصاد العاصفة.

هل كانت ثمة حاجة حقيقية إلى حدوث أي شيء؟ لا بد أن الأمور قد هدأت الآن. ذهبوا إلى بيوتهم، ذهبوا جميعاً، ذهبوا محبطين خجلين من أنفسهم؛

ولسوف يحملون إلى زوجاتهم قدراً من حنق وبغض ما يزال باقياً فيهم. كنت أحاول فصل نفسي من غير سبب، أحاول عبثاً أن أحوّل انتباهي المشوش صوب الخريف، صوب أشجار الخوخ التي فقدت أوراقها، صوب قمم الجبال الصخرية، صوب الثلج الذي بات وشيكاً. كان ذلك كله من غير طائل، لأن أفكاري كانت في الأسفل، في القصبة. لعل شيئاً لن يحدث، ولعل ما أقدمت عليه لن تكون له أية عاقبة.

لكن، إن كنت أحسست قلقاً، بل حتى خجلاً لأنني جعلت الحشد الغاضب يرى جثة الشاب القتيل. فأنا لم أوطِن نفسي على احتمال أن ما من شيء قد حدث. لقد أردت حدوثه وقبلت أمام الله أن أحمل نصيبي من الإثم.

كانت هذه المعضلة مؤلمة، لكنها منحتني الرضا أيضاً. ضميري كان حياً حتى عندما كانوا موضع اتهام.

يكون الدرويش قاسياً مثل صقر، حساساً مثل امرأة عانس. هذا ما قاله حسن يوماً، وكان ساخراً كعادته. لعله كان محقاً لأن إحساسي بالغثيان لم يفارقني.

بينما كانت ظلال قاتمة ومنيرة تعبر من فوقي فأُنكر الإثم الذي ما أردت إعطاءه اسماً، ظهر خمسة فرسان في الشارع، مقتربين بخبب سريع، مرتدين معاطف المطر الطويلة وبنادقهم مربوطة إلى سروجهم.

عرفت فيهم المتسلم ورجاله.

عرفني المتسلم أيضاً فأوقف جواده ونظر إلي نظرة فيها مزيج من المفاجأة والغلّ.

ذُعرت أول الأمر لأني لم أتوقع هذا اللقاء، ولأن المكان معزول. لا يقدر أحد على مساعدتي؛ بل حتى لن يراني إن وقع لي أي شيء. وقد كان ذلك اليوم يوم وقائع السوء.

لا بد أنه فوجئ مفاجأة كبيرة إذ رآني في مكان لا يمكن أبداً أن يتخيل أن يعثر علي فيه. أيراني قدره المحتوم، أم طريدة سنحت له؟ كنت هدفاً مغرياً في وقفتي هناك ملتصقاً بجدار المسجد الأبيض.

أدهشني أن خوفي انجلى عني سريعاً. نظرت إليه مباشرة؛ وكان في نظرتي عداء واضح. كنت عالماً كل شيء، وتذكرت كل شيء من جديد كأنه حدث منذ لحظة واحدة فقط. بل إني لم أتذكر: كانت الذكرى حاضرة في داخلي كأنها عقبة غريزية، كأنها شيء من ذلك القرف الذي لا يفكر المرء فيه. نظرت أيضاً إلى مرافقيه الأربعة: هم الذين هاجموني في الشارع الضيق المؤدي إلى التكية، هاجموني في ذلك الوقت الذي شهد بداية كل شيء. لم أدر ما أستطيع فعله إن أتوا إلي مثلما أتوا إلي من قبل؛ لكن تلك العيون كلها الموجهة إليّ مثلما توجه البنادق لم تفلح في إخافتي هذه المرة. كرهي المدّخر في نفسي منحني قوة.. كالنبيذ.

إن كان اختيار المتسلم قد وقع عليّ، فسوف أكون كبش الفداء بعد لحظة واحدة. لن يحدث هذا إلا إذا علم كم سيندم على هذه الفرصة إن هو ضيّعها.

«سنتقابل من جديد، يا درويش!»

قلت في نفسي: بعون الله. لكني لم أنطق شيئاً. ما كنت قادراً على التفوه بشيء غير كلمات قاسية، كلمات إن تفوهت بها فلن أقابله بعد الآن أبداً، ولن أقابل غيره.

أداروا خيولهم وتابعوا خببهم فتجاوزوا المسجد.

إنهم فارون من القصبة!

لو سنحت لي وقت لخرجت الشارع ونظرت إلى المتسلم يختفي في البعيد ولعنته واستمتعت بتخيل اللحظة التي ستجمعنا من جديد. لكن، ما كنت قادراً على تضييع لحظة واحدة لأن انتظاري قد بلغ النهاية. هرب المتسلم. إذاً، فقد وقع ما أردت. لم أبذر البذور عبثاً!

اختفى إحساسي بالعار، واختفى ندمي، واختفت خراقتي. ليس لدي ما أخجل منه أو أندم عليه. وفي وسعي الآن أن أفخر بنفسي. في وسعي الآن أن أكون سعيداً لأني لم أتخذ جانب الشر. لقد أصدر الله حكمه فنفّذه الناس: كرهي ما كان كرهي فحسب، وما كنت وحدي. ما كانت لدي شكوك. صرت فرحاً، مبتهجاً، مثلما يصير كل مؤمن يعلم أنه مع الله.

نزلت إلى القصبة مسرعاً وقابلت في الطريق شخصاً عابراً كان مضطرباً اضطراباً غريباً كأنه ظل هنا مصادفة بعد الاندفاعة المجنونة التي أشعلت تلك الشوارع ناراً.

لم أجد أحداً في البازار. ولم أجد أحداً أمام المحكمة. كان الباب مفتوحاً، محطماً وقد تكسرت النوافذ كلها وتناثرت الأوراق على امتداد الجدران.

رأيت علي خوجا جاثياً على الأرض يجمع السجلات والأوراق والأحكام وما لا يحصى عدده من أوراق تراكمت كأنها شهادات على الآثام وعلى القسوة. يسجل الناس كل ما يفعلون. ولعلهم لا يعتبرون أنفسهم قساة!

انحنيت وبدأت أتصفح تلك الوثائق. الجريمة التي تحتل صدارة اهتمامي كانت موثقة هنا.

«عم تبحث؟»

«أود رؤية ما كتبوه عن أخي».

«لماذا؟ ألكي تجد لكرهك مبرراً؟ سوف أحرق هذه الأوراق كلها. أنتم جميعاً مثل الذئاب. سوف تبحث في هذه القمامة حتى تجدو أسباباً لجرائم جديدة».

«إن أردت إهانتي فهذا سهل. ليس عليك إلا أن تتكلم من غير اعتبار لأي شيء».

«لست أحاول إهانتك. ولست أفعل شيئاً غير قول أمور لا تسر.. لأن نفسي قد غثيت».

«لماذا؟»

«ارحمني، واذهب عني. لقد سئمت الناس. اتركني وحدي».

لقد تركت وحده، وكان ذلك أعقل الأمور. كان أقوى منا جميعاً لأنه محتمٍ بجنونه.

دخلت دار المحكمة. المكان خالٍ، لا أحد فيه، تماماً مثلما كان عندما دخلته من أجل أخي. وجدت فيه أيضاً ذلك الصمت الذي يجعل أذنيك تطنّان طنيناً مثل همهمة خفيضة حادة. وكان في المكان أيضاً ذلك القلق المضطرب نفسه نتيجة ظلال بشرية غير مرئية مختبئة في كل زاوية وركن. إلا أن هواء المكان المكتوم

قد تغير لأن الريح صارت تندفع حرة عبر النوافذ المتكسرة والباب المفتوح على مصراعيه.

سمعت صوت حديث خافتاً آتياً من جهة غرفة القاضي.. معه أحد هناك.

خطوت في مبنى المحكمة المستباح وتوقفت عند عتبة باب ما عاد لها باب. توقفت ذاهلاً. رأيت القاضي ملقى على الأرض، ميتاً.

ما قال لي أحد هذا، لكني علمت أنه ميت. لقد علمت هذا حتى قبل أن أبلغ المكان. بل علمت منذ أن كنت منتظراً عند جدار المسجد في ذلك الحي المرتفع. هذا ما جعلني أذهب إلى آخر القصبة: حتى يقع الأمر وأنا لست هنا.

أشخاص كثيرون كانوا واقفين وسط الغرفة. رأيتهم ينظرون إلى القاضي مشفقين عليه. ما كنت واثقاً من أنني منتمٍ إلى جماعتهم المحزونة.

دخلت الغرفة وتوقفت عند الجثة. انحنيت وأزحت الرداء الملقى فوق رأسه.

وجهه أصفر اللون كعهده دائماً، لكن جبهته كانت مزرقة، وكانت مدماة. فاجأتني رؤية أجفانه مسدلة ورؤية أن وجهه كان خالياً من أي تعبير. كان مختفياً عن الجميع مثلما كان في حياته. ما أحسست كرهاً ولا بهجة. قلت في نفسي، «وغد. لقد أتيت إثماً كبيراً في حقي. سامحك الله. إن شاء!».

لقد فصله الموت عني. حتى الذكريات البشعة باتت غير قادرة على إبقائه هنا. لكن هذا كل ما استطعت التفكير فيه، لا أسف، ولا ذكرى، ولا صفح. ما عاد جوداً.. هذا كل شيء.

لم أشأ أن أقبله قبلة الوداع بحسب عادتنا. من شأن هذا أن يكون نفاقاً لا موجب له: يعلم أولئك الرجال ما فعله بي.

تلوت صلاة الميت؛ وكانت كل ما أستطيع فعله.

عندها، سمعت وقع خطوات فالتفت خلفي. كانت زوجة القاضي آتية صوب الجثة.

تنحيت كي أفسح لها طريقاً، من غير حقد، بل حتى من غير فضول. لقد كرهته في حياته؛ وخليق بي أن أجد الأمر غريباً إن حزن أحد عليه. كان أمراً

كريهاً أن تحزن عليه زوجته وهو راقد هكذا، أن تحزن عليه لمقتضى اللياقة، لمقتضى التقاليد.

رفعت حجابها غير ملقية إلينا بالاً، وركعت فوق الجثة. نظرت إليه زمناً طويلاً، من غير أن تأتي بأية حركة، ومن غير أية زفرة أو كلمة. ثم انحنت فوقه وقبلت كتفه وجبهته. بعد أن مسحت وجهه جيداً بمنديلها الحريري، أبقت يدها على وجنته الصفراء. كانت أصابعها مرتعشة.

أهي حزينة عليه حقاً؟ لقد توقعت منها مظهر الحزن، مظهر الاستياء الشديد، بل حتى توقعت دموعاً، لكني ما توقعت أبداً رؤية أصابع مرتعشة فوق وجه الجثة. صعقتني رقتها في مسح دمه، كأنه طفل.. مسح رقيق كي لا تؤذيه أو تسبب له أي ألم.

اقتربت منها عندما نهضت واقفة.

«هل تريدين أخذه إلى البيت فوراً؟»

أدارت وجهها صوبي بحركة مفاجئة كأني ضربتها. لم أتذكر إلا بعد ذلك غير أني رأيت في عينيها كحلاً، ورأيت الدموع ملؤهما. أكان سماعها بالأمر أخف وقعاً عليها من رؤيته؟ لكني لم أنتبه وقتها إلى هذا الأمر لأنني فوجئت بتلك النظرة التي دفعتني بها بعيداً عنها، النظرة التي لسعتني، طعنتني. كانت نظرة عداء مهلك.

حيرني كل من ذلك التهديد وذلك الحزن غير المتوقع. لعله ما كان ميتاً هكذا في بيتهما الخاوي! ولعل الأمر لن يكون هكذا إلا الآن! أشفقت عليها وأشفقت على نفسي من غير أن أدري لهذا سبباً.. من غير سبب حقيقي. أحسست نفسي خاوياً، وحيداً، مثلها تماماً. لعل هذا كان نتيجة التعب الذي حلّ عليّ مثلما يحلّ الغسق.

تذكرت بعدها أنها بدت جميلة، بدت حتى أكثر جمالاً مما رأيتها في تلك الأمسية في بيتها الكبيرة.. بسبب عينيها اللتين تلمع الدموع فيهما، وبسبب تعبير نظرتها عن ذلك الكره المطلق. ظهرت إحدى يديها، يد حزينة منسية، من بين طيّات شادورها، ثم توقفت في لحظة هربها وقد أجفلت لذلك الصمت.

أحسست رغبة في وضع جبهتي تحت تلك اليد الباحثة عن شيء ما، وفي إغماض عيني ونسيان تعبي واليوم الحاضر. أحسست رغبة في السلم معها، وفي السلم مع العالم.

كنت ما أزال في قبضة ذلك المزاج الكئيب عندما خرجت إلى الشارع، إلى النهار الرمادي المطير الذي شابته ندفات ثلج رطبة؛ وكانت مطبقة على أنفاسي كتلة غيوم سوداء غطت العالم كله.

عصفت الريح عبري؛ وكنت كهفاً خاوياً.

كيف لقلب خالٍ أن يُشفى، يا إسحاق، أيها الطيف الذي يستدعيه عجزي مرة بعد مرة؟

سرت على غير هدى، وتوقفت زمناً طويلاً أمام الخان أرقب القوافل التي وصلت قبل قليل؛ ولم أدر إن كان الارتحال حسناً أم رديئاً. توقفت عند قبر هارون وما كان عندي شيء أقوله له، ولا حتى كيف هو إحساس المرء بأنه منتصر.

كان علي أن أدخل التكية وأن أمضي بعض الوقت وحدي. أن أستعيد قواي. لكني لم أستطع حتى أن أعقد العزم على فعل هذا.

ثم وجدني الملا يوسف فاختفى تعبي وخمولي. كان ذلك كأن ضباباً قد ارتفع من الأرض. ما كنت قد فكرت فيه مع أن الجزء الأكثر أهمية من عملي ما يزال أمامي. وقد ظهر لي الآن كأنه طفا على سطح الماء، كأنه تذكير مزعج بنفسه.

قال لي إن حسناً يبحث عني وإنه يريد أن أذهب إلى بيت حجي سنان الدين.

لقد نسيت حجي سنان الدين أيضاً، هل يعقل أنه قد صار في بيته الآن؟

حكى لي بعبارات مقتضبة ـ حكى لأنني سألت، لا أنه كان راغباً في أن يقول لي شيئاً ـ كيف اكتشف حسن صباح اليوم أن المتسلم قد أرسل حجي سنان الدين تحت حراسة مشددة إلى حصن فراندوك[1]* الذي يصعب أن يعود من يذهب إليه. انطلق حسن في ذلك الاتجاه ومعه رجاله. لكن إرهاقهم جيادهم كان من

---

(1) فرندوك: بلدة وحصن وسط البوسنة على مسافة نحو تسعين كيلومتراً إلى الشمال من سراييفو. استخدم الحصن سجناً للسياسيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

غير طائل لو أن النهر لم يفض ويكتسح جسراً أمام الحصن. هكذا استطاعوا اللحاق بالحراس واختطاف حجي سنان الدين. خبؤوه في بعض القرى، ثم بعثوا من يأتي به فور سماعهم بما جرى.

لو سمعت هذه القصة في ظروف مختلفة، لو سمعتها من فم غير هذا الفم، لكان اهتمام بها أكبر. لكنني نظرت إلى الشاب مرتاباً. بدا لي بارداً، متحفظاً. كلمني متردداً كأنني غير معني بشيء مما يقول.

قلت له في غمرة غضب كان ضبطُه أمامه صعباً، «لا تعجبني طريقتك في النظر إلي. لا تعجبني طريقتك في الكلام إلي».

«كيف أنظر؟ وكيف أتكلم؟»

«أنت تبقي نفسك بعيداً، وأنت تبقيني بعيداً. من المستحسن أن تنسى ما علمت».

«لقد نسيته. وهو ليس من شأني».

«ليس من شأنك! بل هو من شأنك؛ لكن عليك أن تنساه. لا يكون شيء مما أفعله لي وحدي».

فاجأتني إجابته ودفعتني إلى العودة إلى التسلح بالحذر والحزم اللذين فارقاني منذ حين.

قال على غير انتظار: «دعني أرحل عن التكية». ما كان هذا طلباً بل أمراً.. «طالما ظللت تنظر إلي، فسوف أذكرك من غير انقطاع بأنني قد أخوتك».

«ستذكرني أيضاً بالألم الذي سببته لي».

«هذا أسوأ. دعني أرحل. فلينس كل منا الآخر. دعنا نحرر أنفسنا من الخوف».

«هل أنت خائف مني؟»

«نعم. مثلما أنت خائف مني».

«لا أستطيع تركك تذهب نحن مربوطان بسلسلة واحدة».

«سوف تدمر حياتينا، حياتك وحياتي».

«ادخل التكية».

«لا يستطيع أحد أن يعيش هكذا. أسير في أعقابك، وتسير في أعقابي، كالموت. لماذا لم تتركني أموت؟»

«ادخل التكية».

دخل التكية. دخلها مغموماً.

-١٦-

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ - قرآن كريم

ثلج ومطر وضباب وغيوم واطئة. كانت نذر الشتاء متوعدة منذ وقت. ولسوف يأتي شتاء من غير آخر. شتاء يطول حتى عيد القديس جورج. فكرت كيف أن معاناة المفتي قد بدأت منذ الآن.. يعاني مقدماً. سيمضي ستة شهور في قلق وانتظار، سيتجمد ستة شهور. لم أستطع فهم ما جعله ممتنعاً عن ترك هذا المكان. أمرت بتزويده بحطب الزان والسنديان، وبأن يعاد بناء المواقد والمداخن عنده كي تكون تدفئة الغرف من الخارج ممكنة، من الممر، ليل نهار. وأمرت بحرق أغصان العرعر وجذور الرثم في غرف بيته.

وبدوري، صرت أخشى البرد، في غرفتي وفي غرفة الحافظ محمد، موقدان مصنوعان من طين وحجارة حمراء وزرقاء تفرقع فيهما النار فرقعة تسر النفس. استأجرت خادماً جديداً. صار مصطفى غير قادر على أداء مهامه، وصار منذ الآن عدوانياً يصعب احتماله - يغمغم ويزمجر كأنه دب عجوز. ما عدت قادراً على احتمال غرفة باردة مثلما كنت من قبل، خاصة عندما أعود من دار المحكمة مبتلاً، مرتجفاً، ممتلئاً رطوبة كأنني خرقة.

تغيرت في حياتي أمور كثيرة، لكني بقيت على عاداتي القديمة. سمحت لنفسي بعدد من أسباب الراحة، لكنه عدد صغير جداً؛ وسمحت لنفسي بقدر أكبر من البساطة في تعاملي مع الناس ربما لأني لست في خطر ولأن مركز القاضي منحني إحساساً ساراً بالأمان. منحني أيضاً قدرة أكبر، قدرة ما كنت أريدها. لكني كنت قادراً على رؤيتها حتى في نظرة الحافظ محمد عندما أذهب إلى غرفته في المساء كي أسأله عنه حاله وأرى إن كان في حاجة إلى أي شيء.

لم تترك لي مهام القاضي وقتاً طويلاً من أجل أي أمر آخر؛ وقد انقضى زمن طويل منذ أن نظرت في هذه الكتابة آخر مرة. لكني تذكرتها ذات مساء فقرأت بضع صفحات منها وكدت أشك في ذاكرتي. أيعقل أن أكون قد كتبت هذا حقاً وأن أكون قد فكرت هكذا حقاً؟ كان ترددي وضعف عزيمتي أكثر ما فاجأني. أيعقل حقاً أن أكون قد شككت هذا الشك كله في عدالة السماء؟

دهشت أول الأمر عندما عرض علي عدد من أعيان البلدة أن يعطوني رتبة قاضٍ. ما رغبت في هذه الرتبة يوماً، وما أردتها لنفسي. كان من الممكن حتى أن أرفضها في ظروف مختلفة، لكنها بدت لي في ذلك الوقت خلاصاً لي. وذلك أني أحسست نفسي متعباً، مستنفداً بعد كل ما جرى في البازار؛ وكان هذا إحساساً مفاجئاً. وما كان ساراً لي إدراكي أنني واقع في مصيدة: ما كنت واقعاً فيها وحدي، وما كنت واقعاً فيها منذ الأمس فقط. البشر ضعفاء كثيراً؛ وهم في حاجة إلى حماية.

المفاجئ في الأمر أنني ألفت موقعي الجديد، ألفته سريعاً وكأن حلماً من أحلامي طال انتظاره ثم تحقق. لعل هذا هو العصفور الذهبي في قصص الخيال! ولعلي كنت منتظراً في مكان من الأماكن داخلي، منتظراً سراً هذا الإعراب عن الثقة.. لعلي كنت منتظراً إياه منذ وقت طويل، منذ الأزل! إذا كنت لم أسمح لهذا الطموح الغامض بأن يظهر، فلأني خشيت الخيبة إن لم يتحقق. خبأته في مكان خفي مظلم في روحي مثلما خبأت رغباتي الخطيرة الأخرى كلها.

لقد علوت بنفسي فوق الخوف وفوق ما هو معتاد؛ لكني ما عدت دهشاً لهذا. فمن عساه يرى نفسه غير مستحق سعادته.

وقفت في الليلة الأولى عند النافذة ونظرت إلى القصبة مثلما تخيلت أن السلحدار كان ينظر إليها. أصغيت إلى اندفاع دمي المستثار ونظرت إلى ظلي الضخم في الوادي. ومن الأسفل، بشر ضئيلون مشرئبة عيونهم إلي.

كنت سعيداً، لكني ما كنت ساذجاً. أدرك أن حوادث كثيرة قد ساعدتني وأن تلك الحوادث قد تتالت مثلما تتالى حبات خرز منظومة في خيط، تتالت بعد الحادثة الأولى التي كانت سبباً في كل شيء، المصيبة التي حاقت بأخي هارون. الحقيقة أنها ما كانت حوادث، ما كانت كذلك على وجه التحديد: لقد وهبتني

تلك الضربة قوة ودفعتني إلى الحركة. قضت إرادة الله بأن تتخذ الأمور تلك الوجهة؛ لكنه ما كان لينعم علي بهذا لو أني دسست يدي تحت حزامي وبقيت جالساً في مكاني. وقد اختاروني ولم يختاروا غيري لأني كنت بطلاً من ناحية وضحية من ناحية أخرى، رجلاً من الناس ليس له كبير شأن في أي أمر، لكن له شأناً في كل أمر مع قدر من الاعتدال مقبول عند الناس وعند أعيان البلدة. ثم إن ما كانت له أهمية واضحة هو يقينهم من قدرتهم على التحكم بي من غير عناء حتى يفعلوا كل ما يشاؤون.

قال لي حسن، «تظن من جديد أنك ستكون قادراً على أن تفعل ما تريد بالضبط».

«يظن كل إنسان أنه أذكى من غيره لأنه واثق من كونه الشخص الوحيد الذي هو ليس غبياً. لكن هذا التفكير غباء حقيقي. إذاً، كلنا أغبياء».

لم أحس استياءً لأن عبارته الجافة أكدت لي أن ثمة ما يضايقه. لم أعلم ما يضايقه، لكني رجوت أن يمر وينجلي. سيكون أن يستمر أكثر مما ينبغي لأن هذا ليس مستحسناً من أجله، ولا من أجلي. كنت في حاجة إليه سليماً، غير مضطرب، غير واقع في قبضة أفكار مرة. وأنا أيضاً أحبه عندما يكون هكذا.. سأحبه كيفما كان، خاصة بعد أن صرت صنواً له. لكن خفّته كانت أغلى شيء عندي. كان حسن تجسيداً للامبالاة، ريحاً حرة، سماءً صافية. كان كل ما لم أكنه؛ لكن هذا ما يزعجني. كان هو الرجل الوحيد الذي لا يحترم موقعي، الرجل الوحيد الذي يشتاق إلى ما كنته من قبل. وقد حاولت ما أمكنني أن أكون أكثر قرباً من الصورة التي رآها. بل إني صدقت أحياناً أنني كنت كذلك. حاولت العثور عليه بعد رؤيتي القاضي القتيل، فهو من لا غنى لي عنه، هو وحده. وحده من أردت رؤيته. هو الشخص الوحيد القادر على أن يبعد عني خوفي الغريب. صرت متعلقاً به، من جديد، إلى الأبد. ولسوف أعيده إليّ كلما كان ذلك ضرورياً. لم أدر لذلك سبباً واضحاً.. ربما لأنه لا يخشى الحياة. منحني مركزي الجديد أماناً؛ لكن من شأنه أيضاً أن يفرض علي وحدة. كلما ازداد العلو، ازداد الخواء. لهذا أردت المحافظة على صداقته. سوف يكون حسن جيشي، وسوف يكون مأواي الدافئ.

سرعان ما صارت تلك الحاجة أشد قوة.

بدأت عملي في هذا الموقع الصعب معتبراً إياه درعي وسلاحي في المعركة التي كنت مرغماً عليها. لكن الزمن لم يطل قبل أن أضطر إلى الدفاع عن نفسي. صحيح أن ما من صاعقة حتى الآن، لكن صوت رعد مشؤوم صار منذ الآن مسموعاً.

بعد وصول الأمر السلطاني الذي كافأني به السلحدار مصطفى على ما قدمته من عون فثبتني في منصبي الجديد، قررت ألا أستشير أحداً غير ضميري في كل ما أفعل. وعلى الفور، أحسست من حولي ريحاً باردة. صمتٌ مفاجئ أصاب من وضعوني بهذا المنصب عندما رأوا أني لن ألين أمامهم. لكن شائعات تقول إني مذنب في مقتل القاضي السابق بدأت تصير مسموعة أكثر فأكثر. حاولت العثور على من يبثونها، لكني كنت كمن يحاول أن يقبض على الريح. أيكون واحد من الناس قد قال هذا ظاناً أن الحساب لن يطال أحداً؟ أم أنهم علموا بالأمر من قبل لكنهم لم يجدوا حاجة إليه إلا الآن؟ لعلهم ما كانوا ليختاروني لو كنت من غير أي مأخذ يمكن استخدامه ضدي!

وما علمت أيضاً إن كنت سألين أمامهم، فأنا عنيد، وأنا كنت واثقاً من أن لي في الأعلى من يحميني. ثم إني ما كنت موقناً من أنهم ما يزالون مستعدين للموافقة على أي نوع من أنواع المساومة. بدأ كل واحد منا يحاول تصيّد الآخر.

ثم إن المتسلم كان مصدر قلق عندي - بل المتسلمان معاً، السابق والحالي. استقر المتسلم السابق في قريته، وراح يهددني ويبعث بالرسائل إلى القسطنطينية. وأما المتسلم الحالي الذي شغل هذا المنصب من قبل، فقد أدرك كم هو منصب غير مستقر فراح يتساهل في كل شيء ويمتنع عن لوم كل من قد يكون قادراً على أذيته بأية طريقة من الطرق. اكتشفت أيضاً أنه حرص على جعل سابقه يعلم أن عليه أن يختبئ قبل أن يرسل الجنود متظاهراً بالبحث عنه. لم يلمه أحد على ذلك.

صرت أتفادى أهل البلدة. أتفاداهم لأني أزدريهم، لكن دافعي الأكبر إلى تجنبهم كان ما بقي واضحاً في ذهني من عظم ما في نفوسهم من شر وغضب مدمر. ما عدت عارفاً كيف أتكلم مع أولئك الناس لأني ما عدت عارفاً حقيقتهم.

ومن ناحيتهم، أحسوا كم كنت غير محب لهم فصارت عيونهم تنظر إلي نظرات ميتة كأني شيء من الأشياء.

ذهبت لرؤية المفتي. كان كل شيء مثلما كان من قبل عندما زرته محاولاً إنقاذ أخي، عندما جعلت نفسي غبياً أمامه. لكني لم أر الآن ضرورة تلزمني بأن أقلل من شأن نفسي.. ليس كثيراً، على الأقل. سألني: أي متسلم؟ وأي قاضٍ؟ وراح يحدثني عن الشيخ الأكبر في القسطنطينية كأنه لا يعرف في العالم كله رجلاً غيره. وقد استطاع استحضار أخي هارون من ذاكرته كأنه لم يُقِم صلة بيني وبينه إلا الآن، أو كأنه يمازحني بأقصى حد من القسوة. سألني إن كانوا قد أخلوا سبيله من الحصن. وكان مالك ينظر إليه كأنه مستودع الحكمة. صرفني آخر الأمر بتلويحة من يده الصفراء، بتلويحة نافذة الصبر، فكففت عن زيارة ذلك الوغد الذي لو لم يكن مفتياً لكان واحداً من المعتوهين الذين نراهم سائرين بين الناس. أشاع مالك بين الناس أن المفتي لا يطيقني، فصدقه الجميع لأنهم أرادوا تصديق هذا.

كان عزمي مستقراً على أن أرفض تلقي أجر عن عملي، لكني اضطررت إلى التخلي عن تلك الفكرة اللطيفة. أحطت نفسي بأشخاص موثوقين حتى لا أتلمس طريقي في الظلام تلمساً، لكنهم كانوا يزعجونني مرة بعد مرة بإسماعي شائعات قبيحة سمعوها أو اختلقوها بأنفسهم. يفعل الجميع هذا. ويعرف الواحد منا كل شيء عن كل شخص آخر، أو يظن أنه يعرف. صرت أعطي كارا زيم مالاً كي ينقل إلي ما يسمعه في مقر المفتي. يعلم الله وحده مَنْ مِن الناس الذين حولي ينقل إلى الآخرين ما يسمعه هنا!

وحده الملا يوسف الذي أبقيته معي لخطه الجميل، ولدواعي الحذر أيضاً، ظل صامتاً يتابع عمله بكل هدوء. كنت مقتنعاً بأنه مخلص لي لخوفه مني؛ لكني كنت أراقبه أيضاً.

عشت كأنني في حمى.

بدأت أمراً كان قبيحاً إلى حد غير قليل، مع أن من الممكن فهمه؛ وكانت سهولة فعله في تراجع مستمر: بحثاً عن حُماة لي، بدأت تحرير رسائل إلى معاوني الوزير، وإلى الوزير نفسه، وإلى سلحدار السلطان؛ وبدأت أرسل إليهم الهدايا والشكاوى. كانت الهدايا مفيدة، وكانت الشكاوى مزعجة. علمت هذا لكني ما استطعت فعل شيء آخر.. كنت كأني أضيّع الحس السليم. رحت أنذرهم بأن علينا قطع الطريق على الكفر؛ ودعوت إلى إنفاذ الإيمان السلطاني؛ وناديتهم مطالباً إياهم بألا يتركوني وحيداً في هذا المكان الذي له أهمية كبيرة في الدولة. ومهما يكن من شدة إحساسي بضرر هذه النداءات كلها التي ما كنت قادراً على دعمها بتحالفات ولا بأصدقاء أقوى مني ولا بمنافع ملموسة (بل إني اكتشفت أيضاً كم كنت عاجزاً، وكم كنت وحيداً)، صرت أحس رضا عجيباً عندما أطلقها في العالم وأنتظر حلاً. كنت مثل قائد عسكري محاصَر ما عاد لديه جنود فراح يطلق نداءات الاستغاثة وينتظر وصول التعزيزات.

أيكون علي أيضاً الإقرار بأن شيئاً من هذا كله لم يجدني نفعاً؟

ما كان لذلك كله من أثر غير إهلاك المتسلم السابق عندما طلبت بوضع حد لمخالفة القوانين فأتى دفتردار[1]* الوالي واستدعى ذلك المتسلم كي يكلمه ثم أرسله تحت الحراسة إلى ترافنيك حيث قُتل خنقاً.

حمّلوني وزر موته. ومقابل ذلك، ألزمني الوالي بطاعته، تلك الطاعة التي ظلوا هنا زمناً طويلاً ينكرونها عليه. قبلت ذلك كي أنقذ نفسي.

فكرت في التراجع وترك كل شيء. لكني أدركت أن الأوان قد فات. سوف يدمرونني لحظة أتنحى عن هذا الموقع.

(أعلم أنني أسرد هذا كله سرداً مضطرباً بالغ السرعة. وأعلم أنني أتجاوز عن أمور كثيرة. لكني لا أستطيع شيئاً غير هذا. أطبق عليّ كل شيء من حولي مثلما تطبق أنشوطة، وليس لدي وقت ولا صبر للدقة والبطء في الكتابة. لم أستعجل هكذا عندما كنت هادئاً؛ لكني صرت الآن مندفعاً، وصرت أحاول تكثيف كل شيء كأن حريقاً يحاصرني. بل صرت غير مدرك ما يجعلني أكتب. لا بد أني

---

(1) دفتردار: منصب في الدولة العثمانية يتولى شاغله الرقابة المالية في الولاية.

صرت مثل رجل وحيد محتضر يحاول بأظافره المدماة أن يحفر على صخرة أثراً يدل عليه).

وقد واصل حسن ابتعاده عني، كان يبتعد أكثر فأكثر. ظننت أول الأمر أن الملا يوسف قد أخبره بما كان من أمر حجي سنان الدين؛ لكنني لم ألبث أن اقتنعت أن السبب كان مختلفاً تمام الاختلاف. بل إن ابتعاده ما كان حتى بسبب تلك السيدة التي من دوبروفنك: لقد فرّتْ من قسوة الشتاء عندنا؛ وكان حسن عارفاً أن مجيء الربيع سيعيدها إلى القصبة.

كان من سوء حظه وحظي أنه ذهب كي يجلب بعض أقربائه من القاطنين في محيط توزلا[(1)]** ممن عانوا كثيراً أثناء التمرد مثلما عانى غيرهم. كان الميرالاي عثمان بيك قد أدى عمله على أحسن وجه: قتل الناس، وأحرق بيوتهم، وطردهم من أرضهم، وأرسلهم إلى المنفى، وجعلهم يمضون الشتاء في بؤس عظيم. أتى حسن بأقربائه من النساء والأطفال وأسكنهم في بيته. ثم صار بعدها رجلاً مختلفاً تماماً، رجلاً صعباً، مرهقاً، مضجراً. صار يتكلم على حياة الناس التي اقتلعت من جذورها، وعلى الأطلال المحترقة والجثث التي لم تجد من يدفنها. يتكلم خاصة على أطفال بقوا عند بيوتهم التي انتزعت أحشاؤها، جائعين، مهزوزين، في عيونهم خوف مقيم بعد كل ما رأته.

اختفت سطحيته العابثة التي لا تبالي بشيء، واختفى طبعه الهادئ المترفع وتألقه المرح. اختفت قدرته على بناء الجسور بكلمات بهيجة حلوة. ما عاد يفعل شيئاً غير الكلام المضطرب على المأساة في بوسافينا؛ وقد كان هذا الكلام شاقاً عليه إذ خلا من مرحه السابق وصار جاداً، مضطرباً.

كان يدعو الضحايا أغبياء بوسنيين، انتحاريين، أولئك الضحايا الذين صاروا راقدين تحت التربة السوداء في بوسافينا أو جرجروا أنفسهم على طرق طويلة إلى منافيهم. كان يقول إن حماستنا خطيرة جداً مثلها مثل قلة فهمنا. كيف كانوا يفكرون، إن كانوا يفكرون أصلاً؟ هل ظنوا أنهم قادرون على الصمود أمام جيوش السلطنة التي لا تلزمها حماسة ولا شجاعة لأنها مسلحة جيداً، ولأنها لا تعرف

---

(1) توزلا: مدينة في شمال شرق البوسنة.

رحمة؟ أم هل انتظروا أن يُتركوا وشأنهم، وكأن من الممكن أن يتغاضى إنسان عن الشرارة حتى تصير حريقاً؟ هل يعقل أن يتركها تكبر وتحرق البيت كله مهما يكن البيت متداعياً؟ ألم نكتف بعد مما بنا من عزم مجنون، مما بنا من بطولة لا تخلّف شيئاً غير الخراب؟ هل يجرؤ الآباء على تقرير مصير أطفالهم فيحكمون عليهم بالمعاناة والجوع وبفقر لا ينتهي وبخوف حتى من ظلهم وبجبن يلازمهم أجيالاً وبمجد التضحية المُعدَم؟

أو كان يتكلم كلاماً مختلفاً تماماً فيقول إن ما من شيء أكثر إهانة للمرء من معارفه الجبناء ومن التفكير السليم التافه. نحن خاضعون كثيراً لإرادة غيرنا، لإرادة تتجاوز إرادتنا وتتعالى عليها حتى لكأن هذا صار قدراً لنا. يحاول أحسن الناس، في أحسن أوقاتهم، أن يفروا من حال الضعف والاتكال على الغير. رفضُ الإقرار بالضعف نصرٌ في حد ذاته؛ وهو فتحٌ لا يلبث أن يصير، في يوم من الأيام، أكثر بقاء وأوسع مدى فلا يعود محاولةً بل بدايةً؛ لا يعود تحدياً بل احتراماً للذات.

استمعت إليه منتظراً أن يُخرج هذا كله، أن يخرج ما بنفسه لأني علمت أن حماسته لا تدوم طويلاً، وأن مرارته لا تدوم طويلاً. عاطفة مجنونة واحدة ظلت على حالها دائماً، إنها حبه تلك المرأة من دوبروفنك، لكن ذلك الحب كان عصياً على التفسير إلى حد بدا معه أنه حاجةٌ إلى الحب أكثر من كونه حباً في ذاته. لم يحاول أبداً أن يبلغ مقدراته كلها، أن يحدد من هو، أن يعرّف نفسه: جرب كل شيء ولم ينه شيئاً فترك نفسه يصير فشلاً مستمراً. ولسوف يفشل في لطفه أيضاً.

أخذني مرة لرؤية جميل المقعَد الذي يجره أطفاله في عربة فيأخذونه من مكان إلى مكان. كان لديه محل للخياطة يدخله متأرجحاً على عكازين، جاراً ساقيه الذاويتين، الضعيفتين. يكون جالساً في مكانه، فيدهش الجميعَ بقوته وجماله، بوجهه الذكوري وابتسامته الدافئة وكتفيه العريضتين وذراعيه القويتين وبنيته التي تشبه بنية مصارع. لكنه ينهض فيختفي جماله كله عندما يتمايل على عكازيه قاصداً عربته: شخص مقعد لا يملك المرء غير أن يشفق عليه عندما يراه. كان هو من أقعد نفسه بنفسه. سكر سكراً شديداً فراح يطعن فخذيه بسكين حادة إلى أن

أتلف ما فيهما من عضلات وأوتار. وهو ما يزال حتى الآن يشرب فيستل سكينه ويغرسها في بقايا ساقيه الميتتين من غير أن يسمح لأحد بالاقتراب منه. ثم إن أحداً لا يستطيع كبح جماحه لأن ذراعيه ما تزال فيهما قوة يصعب تصديقها. قال لي حسن: «جميل صورة حقيقية للبوسنة. قوة كبيرة على ساقين مشوهتين. هو جلاد نفسه. وفرةٌ من غير اتجاه أو معنى».

«فماذا نكون إذاً؟ أنكون مجانين؟ أنكون بائسين؟»

«نحن أكثر الشعوب على وجه الأرض تعقيداً. لم يمازح التاريخ أحداً مثل ما مازحنا. فحتى يوم أمس، كنا ما نريد اليوم نسيانه. لكننا لم نصِرْ أي شيء آخر. توقفنا في منتصف الطريق، توقفنا حائرين. ما عاد لدينا مكان نذهب إليه. انتُزعنا من جذورنا، ثم لم نصبح جزءاً من أي شيء آخر. وكأننا رافد حوّل الفيضان مجراه عن النهر الأم فما عاد له مصب، وما عاد فيه تيار جارٍ: هو أصغر من أن يكون بحيرة، وأكبر من أن تشربه الأرض. لدينا إحساس غامض بالعار نتيجة أصولنا، وإحساس بالذنب لأننا ارتددنا عما كنا. لا نريد أن ننظر خلفنا، وليس لدينا ما ننظر إليه أمامنا. هذا ما يجعلنا نريد استيقاف الزمن فنحن نخاف كل ما يمكن أن يأتي. يزدرينا كلٌّ من بني جلدتنا والوافدون علينا فندافع عن أنفسنا بكبريائنا وكرهنا. أردنا أن ننقذ أنفسنا، لكننا ضائعون تماماً، ضائعون إلى حد ما عدنا نعرف معه حتى من نحن. مأساتنا أننا صرنا نحب رافدنا الراكد ولا نريد مفارقته. إلا أن لكل أمر ثمناً، حتى لهذا الحب الذي عندنا. أهي مصادفة أن نكون ذوي قلوب رقيقة جداً، لكننا قساة جداً؟.. عاطفيون كثيراً، لكن قلوبنا جافية؟.. مرحون، لكننا مكتئبون؟.. مستعدون دائماً لأن ندهش الآخرين وندهش أنفسنا؟ أهي مصادفة أننا نختبئ خلف الحب الذي هو يقيننا الوحيد في حالة عدم التحديد هذه؟ وهل نحن نترك الحياة تمر بنا من غير سبب؟ أندمر أنفسنا من غير سبب بطريقة مختلفة عن طريقة جميل الخياط، لكن النتيجة تظل هي نفسها؟ لماذا نفعل هذا؟ لأننا لسنا غير مبالين. وإذا كنا غير مبالين، فهذا يعني أننا صادقون. إذا كنا صادقين فلنسمع ذلك كله من أجل جنوننا!».

كانت النتيجة التي خلص إليها غير متوقعة بقدر ما كانت تلك التأملات غريبة كلها. لكنها كانت نتيجة مقنعة لأنها قادرة على تفسير كل ما يمكن أن يفعله إنسان وكل ما لا يمكن أن يفعله. ما كنت أعاني ذلك المرض الوطني التاريخي لأني كنت مرتبطاً بإيمان يعتمد حقائق أبدية وكنت متصلاً باتساع العالم كله. كانت نظرته ضيقة، لكني ما أحببت مجادلته لأن لدي مشاغل أهم من هذا، ولأنه صديقي، وكذلك لأنني اعتبرت آراءه هرطوقية، لكنها غير ضارة لأنها تنقض نفسها بنفسها. بل إن ثمة أموراً كانت مفسَّرة عندي انطلاقاً من ألمه المتخيَّل هذا، ألمه الذي كان نوعاً من تفسير شعري لفشله، أو كان كأنه عذر يلتمسه طفل كبير ذكي يدرك أنه يفسد حياته من غير توقف. كان حسن رجلاً ثرياً، لكنه شريف، فما الذي يستطيع فعله غير هذا؟ ما كان لديه احترام لثرائه لأنه لم يكسبه بنفسه، لكنه ما كان راغباً في حرمان نفسه منه. ولهذا السبب، رتّب حياته على نحو لا يناسبه أبداً وراح يتخيل هذه الأكاذيب الصغيرة المسلية التي يستطيع تهدئة ضميره بها.

وقد كنت مخطئاً في هذا مثلما كنت مخطئاً في أمور كثيرة أخرى متصلة بحسن.

أقول من جديد إن زمناً طويلاً قد انقضى منذ أن كتبت هنا شيئاً. لقد صارت الحياة متعبة.

بقدر ما صارت الحياة متعبة أكثر، بقدر ما زاد تفكيري بأخت حسن. تذكرت نظرتها الغريبة واليد التي وشت حركتُها بحزنها. لم تدعني أدخل بيتها عندما ذهبت كي أدحض الشائعات القبيحة التي تناولتني. كتبت إليها بعد ذلك رسالة قلت لها فيها إني أود خطبتها، إن وافقت. رفضت من غير تفسير لرفضها. علمت أنها كانت حبلى وأن حزنها على قاضيها كان حقيقياً. كنت أظنها تراه بعينيّ، لكن من الواضح أنها وجدت فيه شيئاً غير ما وجده غيرها. أم لعله كان رقيقاً معها بقدر ما كان قاسياً مع كل من عداها؛ ولعل ذلك كان الجانبَ الوحيد الذي عرفته من شخصيته. سوف ينقضي حزن ترمّلها، لكني بكّرت في مفاتحتها بأمر الخطبة، بكّرت أكثر مما ينبغي. أمر مؤسف. كان من شأن زواجي منها أن يصد

عني الاتهامات بأكثر مما يستطيعه أي أمر آخر. وكان من شأنه أن يدخلني عائلة بارزة فيصير هذا حماية لي. لكن من الواضح أن عيني أفندي كان ما يزال قادراً على أن يعترض سبيلي، حتى وهو في قبره.

فقد صديقي العزيز صوابه، فقده تماماً. فسرت هذا بحقيقة أن كل ما يستطيع أن يدخل عقل الإنسان يمكن أن يصير سماً. في حقيقة الأمر، هذا ليس تفسيراً، ليس تفسيراً على الإطلاق؛ لكن، ما من تفسير غيره. ذهب بضع مرات إلى بوسافينا غير مفكر إلا فيما يجري هناك. سمعت أنه سيشتري قسماً من الأرض التي صودرت من المتمردين في تلك النواحي. سألت والده إن كان هذا صحيحاً فأجابني العجوز بابتسامة ماكرة. قال: «هذا صحيح. سوف نشتري الأرض. هذه صفقة حسنة لأن الثمن سيكون رخيصاً».

«هل لديك مال لهذا؟»

«لدي المال».

«إذاً، فلماذا تقترضه؟»

«أنت تعلم كل شيء. أردت أن شراء قسم كبير منها. لهذا أقترض مالاً. لم أحظ طيلة حياتي بصفقة حسنة مثل هذه الصفقة».

«هل تقول إنك ستشتري أرض أولئك الفقراء؟»

«نعم».

ضحك مبتهجاً كأنه طفل. سوف يعيد إليه هذا صحته. لقد فقد صوابه أيضاً؛ فقده لأنه يحب ابنه كثيراً. أسباب مختلفة، لكن النتائج هي نفسها. سوف يدمر الاثنان نفسيهما.

ضحكت بدوري، وكنت مبتهجاً مثلما كان، مبتهجاً أكثر مما كنت منذ زمن بعيد. قلت له، «سوف يشفيك هذا من أمراضك كلها».

«بدأت أحس أنني أشفى».

«ستصير معافى، وستصير فقيراً. أهذه هي السعادة؟»

«سأكون معافى ولن يكون عندي ما آكله. لست أدري إن كانت هذه سعادة أم لا».

«من سيطعمك؟ ابنك أم ابنتك؟ من الممكن أيضاً أن أرسل إليك طعاماً من التكية. يستطيع المرء أن يعيش هكذا».

«سأقف في الصف أمام مطبخ الفقراء».

ضحكنا مثل مجنونين. ضحكنا كأن هذا كان أفضل نكتة: كأنه كان أمراً ذكياً، نافعاً. ضحكنا لأن رجلاً كان يدمر نفسه.

سألني. «إذاً، أنت تعرف، أيها الثعلب العجوز. فكيف علمت بالأمر؟ ولماذا تظن أن هذه الصفقة غير جيدة؟».

«عرفت. كيف لكما، أنتما الاثنان، أن تفعلا أي شيء ذكي؟ خاصة إن كان ابنك هو من أقنعك به؟ هذا ليس ذكياً، لكنه جيد».

«أنت محق. ابني هو من أقنعني. إذاً، فالأمر ذكي وجيد معاً. لو كان لك ابن لعلمت هذا».

«لو كان لي ابن، لعلمت كيف تصنع الفرحة من الخسارة».

«وهل هذا قليل؟»

«لا».

كنت واثقاً من أنهما لن يصيرا معدمين إن اشتريا أرضاً مصادرة كي يسكنا الفقراء فيها، الفقراء الذين أُخرجوا من ديارهم. سوف يتغلب ما عند علي آغا من حس سليم على حماسته وحماسة ابنه معاً، لكن الضرر سيكون كبيراً لأن حسناً سيحرص، ما إن يبدأ، على أن يقوم بأكبر عدد ممكن من الحماقات. كان يفعل كل شيء من وحي لحظته، يفعل كل شيء باندفاع لا يدوم طويلاً. هو الآن واثق من أن هذا هو الأمر الوحيد الذي ينبغي أن يقوم به. لكنه لن يلبث أن يتعب، ولن يلبث أن يمل، وسوف يحدث هذا سريعاً بعد أن ورّط والده وورط نفسه في الديون.

ما امتلكت شيئاً في حياتي، ومارغبت قط في أن أمتلك شيئاً، لكن دمي الريفي ظل محتفظاً بتلك الخشية من التهور في الإنفاق. فهذا ما يؤدي بالمرء إلى طريق مسدودة. بدا لي هذا أشبه بالسُّكر.. أشبه بأن يفقد المرء اعتداله؛ بدا أشبه بالحماسة المفرطة وبأن يكون دم المرء حاراً فيصير إيقافه صعباً. بدا هذا أشبه بحماسة من غير عقل. بحماسة لا تنظر في العواقب.. مثل جميل الخياط الذي

دمر نفسه بنفسه. ومع ذلك، وبكل ما كان عقلي عاجزاً عن قبوله، أحسست وفرة من سكينة وأحسست أن ثمة سبباً لفرحة عميقة، أحسست أن ثمة سبباً خفياً لا يكاد يبين. هذا لأن الأمر كان سخفاً، لأنه كان مضحكاً، لأنه كان يذكرني بنكتة تقول: فلنفعل أمراً غير مألوف! كان صعباً أن أستطيع العثور على ما يفسر هذا كله.

كنت واثقاً من أنهما سيعودان إلى رشديهما، لكن بعد أن ينتهي الأمر كله. سوف يريان كم يكون الكرم باهظ التكلفة. لكن كل شيء سينتهي نهاية حسنة جداً فلا يترك لهما فرصة للندم. سوف يعميهما اعتزازهما بما يلقيانه من مديح واستحسان من بشر لم يكلفهم الأمر قرشاً.

صرت مدركاً أكثر فأكثر ما تنطوي عليه مهمة أن يكون المرء في موقع سلطة من صعوبة ومن تعقيد. صار وقتي يضيع في أمور مرهقة، في الدفاع عن نفسي وفي مهاجمة الآخرين، في فعل كل ما يلزمني فعله حتى أحافظ على نفسي.. بث الخوف في قلوب الآخرين، والحرص على إدامته. أحسست أن سلطتي تزداد وتزداد، وتزداد معها تلك الصعوبات لأني ما عدت محتاجاً إلى تلطيف ضرباتي. لكني كنت أفكر في وجه حسن بكآبة غريبة وحسد يصعب تفسيره؛ أفكر في البهجة التي يرفض بها العون، وفي الأمل الذي يبثه في قلوب الناس. ما كان هذا أمراً شديد الخطورة؛ لكن، ومن جديد، بدا لي أنني ضيّعت فرصة.

ثم وقعت بضعة حوادث مهمة.

(لو كنت أكثر خمولاً، مثلما كنت في وقت من الأوقات، لأحسست حاجة إلى التفكير أن حسن وأباه يشبهان الآخرين، لأحسست رغبة في التفكير هكذا. لكنهما اكتسبا أهمية لما خلقاه من مخاوف وقلق عند غيرهما. من هنا، لا تكون الحوادث مهمة في حد ذاتها، بل لأننا مهتمون بها، مهتمون بها اهتماماً يُفردها ويميزها عن غيرها. أو.. شيء من هذا القبيل. ثمة مسرة أكيدة في هذا التفكير المتأني البطيء، وكأننا فوق الأشياء، كأننا أعلى منها. لكني صرت الآن غارقاً فيها وما عدت قادراً إلا على تسجيلها).

جاء يوم إقامة المزاد على الأراضي المصادرة في بوسافينا فواجه حسن عقبة غير متوقعة. أعلن منادي البلدة أن ممثل الوزير سيشتري الأرض كلها. ما كان ذلك إلا أمراً بألا يدخل أحد ذلك المزاد. لكن الأمر كان عقبة في ذهني فقط، لا في ذهن حسن. تجاهل رغبة الوزير واشترى بضع قطع من الأرض في حين أخذ ممثل الوزير بقية الأراضي المطروحة للبيع، أي أكثر تلك الأراضي. وفوق هذا، ترك حسن مالاً من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه من البيوت وشراء طعام للأسر التي ستسكنها. عاد إلى القصبة راضياً.

سألته: «لماذا رأيت أن عليك مناطحة الوزير؟» قلت هذا مازحاً لقلة اقتناعي بأن الوزير سيظل طويلاً في منصبه.. «ألا تخشى أحداً؟»

كان العجوز هو الذي أجابني. كان سائراً في الغرفة واضعاً على كتفيه معطفاً ذا حاشية من الفراء.. «يخشى الله قليلاً؛ ولا يخشى السلطان أبداً، ولا يخشى الوزير إلا بقدر ما يخشى حصاني البني».

سألني حسن متفادياً ضربتي: «ولماذا أخاف؟ أنت معي. آمل أن تحميني».

«من الأفضل ألا تكون في حاجة إلى حماية أحد».

قال العجوز ضاحكاً: «لا يمكن أبداً أن تحصل من درويش على إجابة مباشرة».

قال حسن جاداً، «إنه محق. من الأفضل ألا أكون محتاجاً إلى حماية أحد. ينبغي أن أكون درع نفسي. ليس من الصواب أن أثقل صديقاً لي بمشكلات صنعتها بنفسي. إذا كان المرء غير قادر على السباحة، فعليه ألا يقفز في الماء آملاً أن يأتي واحد من الناس ويخرجه منه».

«لكن ذلك الواحد من الناس لن يكون صديقاً إذا لم يفعل ذلك. أنت تفهم الصداقة حرية، وأنا أفهمها التزاماً. صديقي مثلي. إذا حميته، فأنا أحمي نفسي. هل أنا محتاج حقاً إلى قول هذا؟»

«لا. أبي يطيل هذا الحديث من غير داعٍ حتى لا يجد نفسه مضطراً إلى قول ما فعله بي. هل تعلم أنه أخفى الذهب عني؟ أخفى ألف دوكات! وجدت المال عندما عدت؛ وجدته في صندوق مقفل».

«أنا من أخبرك بأمر المال!».

«أخبرتني به بعد أن عثرت عليه بنفسي».

«ولماذا أخفي المال؟ وعمن أخفيه؟ المال مالك فافعل به ما تشاء. لن آخذه معي إلى القبر».

فليبارك الله عظامه! ما يزال عقل العجوز عاملاً!

«وحتى إذا كنت قد خبأت المال.. هل هذا أمر سيئ حقاً؟ لكني لم أخبئه، بل نسيته. هل يكون هذا أمراً غريباً أو غير متوقع من عقلي العجوز؟»

من عدم إصراره، ومن الابتسامة التي ظهرت على وجهه وهو يستمع إلى الدفاع الساذج الذي قدمه العجوز، ومن غير حتى أن يحاول جعله يقدم تفسيراً أكثر إقناعاً، ومن روح التسامح المبتهج المتبادلة بينهما، تلك الروح التي حلاّ بها هذا الخلاف الظاهري، كنت قادراً على القول إن حسناً ما كان غير راضٍ عما انتهى إليه كل شيء. أنجزا العمل الخيّر الذي أراداه، وما يزال لديهما قدر من المال. وما عاد في هذا البيت أقرباء يزعجونهما.

لكن هذا غير مهم لأن الآخرين ما كان ممكناً أن يفعلوا ما فعلاه، ولا حتى ما يدانيه. هذا الكرم الذي لعله كان نابعاً من إحساس بالشفقة، كان أقرب إلي وأكثر ألفة. كان أكثر بشرية؛ وكانت له حدود أستطيع إدراكها. لم يفزعني لأني لم أر فيه طبيعة انتحارية؛ وما كانت فيه مبالغة تجعله يسوؤني. فالسخاء غير المسؤول أشبه بإسراف الطفل الذي يعطي كل ما لديه لأنه لا يدرك من قيمته شيئاً.

زارني بيري فويفوده في التكية ثاني أيام عيد الفطر. إنه الرجل الذي يتابع حركات المشتبه فيهم، أي الناس جميعاً، في نظره. سلمني رسالة من شخص اسمه لوك من دوبروفنك. إنه صديق حسن؛ وكانت الرسالة موجهة إلى مجلس أعيان دوبروفنك، لكنها وجدت عند تجار من دوبروفنك غادروا القصبة ذلك الصباح مع أحمال من السلع التجارية.

«لماذا أخذت هذه الرسالة؟»

«اقرأها وسوف ترى السبب».

«أهي مهمة؟»

«اقرأها وسوف ترى إن كانت مهمة».

«من هم أولئك التجار؟»

«لقد رحلوا. اقرأها، وستعرف إن كان عليهم أن يرحلوا».

الشيطان نفسه هو من علق ذلك الرجل في رقبتي.. رجل، أحمق، عنيد، لا يرتشي ولا يضع ثقته في أحد. لا مشكلة لديه في مراقبة أمه ذاتها إن شك فيها. أغرقني بالتقارير من غير أن يفهم شيئاً، لكن مع اتهام كل إنسان بكل شيء. وكان يتذكر تلك التقارير ويعود إلي كي يسألني كيف تم التعامل مع كل واحد منها. كان لدي من المتاعب أكثر مما يكفيني، لكن نصفها كان آتياً منه وحده. وقد بدأت أعتبره نوعاً من أنواع العقاب الإلهي وأفكر في أن كل إنسان ينبغي أن تكون لديه نسخته من بيري فويفوده. على أن نسختي كانت الأسوأ على الإطلاق. بل إني شككت في أن تكون من خلف إلحاقه بي غاية خبيثة: كي يراقبني (ما كان ممكناً أن يختاروا من هو أفضل منه)؛ شخص ليس رجلاً لأحد فهو لا يخدم إلا غباءه. كان هذا كافياً لأن يدفعني إلى الغضب ثلاث مرات كل يوم. لكني ما كنت لأستطيع معه شيئاً. حاولت أول الأمر أن أعيده إلى صوابه، لكن عبثاً. نفضت يدي من الأمر بعد ذلك. كان لا يكاد يصغي إلى ما أقول، بل يشمخ برأسه غروراً وترفعاً، أو تصيبه دهشة صادقة إذ يشك في استقامتي وعقلي، ثم يمضي في تعذيبي بضميره اليقظ الذي لا أستطيع احتماله. كان الحل الوحيد الباقي أمامي أن أخنقه عندما يصل بي الأمر إلى فقدان سيطرتي على غضبي، أو أن أفر من غير أن ألوي على شيء إن فاض بي الكيل وما عدت قادراً على احتماله. أسوأ ما في الأمر هو أنك قادر على إيجاد ألف مبرر لأن تعتبره معتوهاً؛ لكنك لن تجد سبباً واحداً يسمح لك بالقول إنه غير مستقيم. تغلي عدالةٌ وحشية في داخله ورغبة جارفة في معاقبة الناس جميعاً لأي سبب كان. لا يكتفي مهما بالغتُ في الشدة. اتهمني الناس بالقسوة، لكنه كان يلومني لشدة تساهلي. وكان أعدائي متفقين مع هذا الجانب ومع ذاك.

قال لي إن قطاع الطرق قد هاجموا تجار دوبروفنك عند سفح الجبل. وقبل أن يتمكنوا من صدهم، أفلت واحد من خيولهم وجرى مبتعداً عائداً في اتجاه القصبة حيث تجول في بعض القرى. بحث تجار دوبروفنك عنه، لكنه لم يعثروا عليه، فرحلوا من غيره لأنهم استعجلوا عبور الجبال قبل حلول الظلام. علم بيري فويفوده بأمر الجواد فوجده على الفور وجعل القرويين يعيدون كل ما أخذوه منه (أنا واثق من أنهم كانوا مستعدين لإعطائه كل شيء، حتى ممتلكاتهم الخاصة، لا ممتلكات غيرهم فحسب). هكذا عثر على الرسالة وأخذها إلى الصراف سلمون كي يقرأها له لأنه لا يعرف الأبجدية اللاتينية.

بدأت رأسي تدور بعد سماع تلك القصة الطويلة وتسلسل حوادثها الذي يصعب فهمه، قصة لا يمكن أن يوليها إنسان عاقل أي اهتمام، لكن بيري فويفوده وصل بها إلى ختامها مطارداً ظلالاً وأشباحاً فانتهى به الأمر إلى اكتشاف أن الرسالة كانت تقريراً كتبه جاسوس.

وقف أمامي، وانتظر. قرأت الرسالة فعلمت منها ما كنت أعلمه قبل قراءتها من أن الأجانب يكتبون عما يرون ويسمعون في أرضنا. يعرف الجميع هذا، ويفعله الجميع، لكن الدهشة تعتريهم عندما يُضبط واحد من الناس متلبساً بهذا الفعل. قرأت الرسالة فتنفست الصعداء: ليس فيها شيء عن حسن يمكن أن يلقي عليه ظلاً من شك؛ وليس فيها عني شيء يمكن أن يؤذيني. كان الوزير وأسلوب إدارته الأرض معظم ما كتبه تاجر دوبروفنك في تلك الرسالة. صحيح أن أجزاء مما كتبه كانت صحيحة، لكن قراءتها لا تسر أحداً. («إدارة فوضوية أتلفت الأرض وأفقدتها قواها.. عليكم أن تروا مبلغ حماقتهم، أولئك المتسلمون والقائمو مقامات. سوف تفاجئكم رؤية كيف استطاع أولئك الرجال أن يحوزوا سلطتهم مع أنهم ليسوا حتى من صفوة المجتمع.. شبكة جواسيس مؤلفة من موظفين ومخبرين سريين منتشرة في كل مكان كأنهم ينشرونها في بلاد الغرب. لقد فرض الوزير حالة من انعدام القانون وجعل نفسه كأنه سلطان، فصار كل من لا يستجيب إلى ما يطلبه عدواً له.. وعلى وجه العموم، يعين الوزير الموظفين وينقلهم ويعزلهم ويحكم الأرض طبقاً لما تمليه عليه نزواته؛ ثم إنه أعلن مرات

كثيرة أنه جاهل بالقوانين.. يبغضه المسلمون والمسيحيون على حد سواء. لكن الحكومة غير قادرة على تخليص نفسها منه بسهولة لأنه جمع خلال السنين السبع الماضية قدراً كبيراً من المال الذي صار يستخدمه في القسطنطينية كي يعزز به مركزه. عائلته كلها مشتركة معه.. يركب الوزير ظهر الشعب بعون من هذه العصابة الغادرة القاسية التي لا تعرف الأخلاق، فلا يجرؤ أحد على أن ينطق بكلمة واحدة.. وبطبيعة الحال، أدى هذا النظام القائم على الرعب والقمع إلى جعل البوسنة كأنها العضو الميت في الدولة لأن ما من أحد عاد قادراً على تصديق جاره، وما عاد الابن يصدق أبيه، وما عاد الأب يصدق ابنه، فالجميع في خشية من رجال عثمان السود، وما من أحد أسعد حالاً ممن لا تقع عليه أنظارهم). تطرقت الرسالة أيضاً إلى شراء الأراضي المصادرة في بوسافينا، فضلاً عن الثمن الزهيد الذي دُفع فيها، وعن أسماء أصدقاء حاشية الوزير وأسماء عشيقاتهم وكل ما أخذوه أو صادروه أو استولوا عليه. ما كان ذلك الرجل الكاثوليكي المقيم في البوسنة مصماً أذنيه ولا مغمضاً عينيه!».

قلت: «فظيع!» قلت هذا لأن بيري فويفوده كان منتظراً ردة فعلي بكل اهتمام.

«ينبغي اعتقاله».

« اعتقال شخص أجنبي ليس أمراً سهلاً».

«هل يستطيع الأجنبي أن يفعل كل ما يريد؟»

«لا. سوف أشاور المفتي».

«شاوره. لكن من الضروري اعتقال الرجل قبل ذلك».

«ربما. سأرى».

خرج بيري فويفوده، لكنه كان غير راضٍ أبداً.

ما هذه الفوضى؟! لو لم يكن يدس أنفه حيث لا ينبغي له أن يدسه، لما كنت مضطراً - على الأقل - إلى القلق في شأن هذا الأمر. لا علمت به، ولا كان مما يهمني. لكنني علمت الآن، ولا بد لي من الاهتمام بما علمت. لكن من الممكن أن أخطئ، مهما فعلت، وما كان ضميري الذي أعتمد عليه كثيراً جداً بقادر على مساعدتي في شيء. هذه واحدة من تلك اللحظات التي تجعل شعر الرجل يشيب.

لن يحتمل المفتي مناقشة أمور العمل في العيد. ليست به رغبة في مناقشتها في أي وقت؛ لكن رأيه ما كان مهماً عندي، بل اسمه.

لم أجد المتسلم في بيته. قيل لي إنه ذهب إلى البازار. وجدته في مقره. في العيد! يعني هذا أنه علم كل شيء.

قال من غير أي تردد، «ينبغي اعتقاله».

«وإذا كنا مخطئين؟»

«عندها نعتذر».

فاجأني تصميمه، فهذا أمر غير مألوف أبداً. سيكون من الأفضل ألا أفعل ما أشار به عليّ لأنه لا يريد لي خيراً .. هذا أمر أعرفه. وأما إذا أطعته، فلن تكون المسؤولية واقعة علي وحدي.

«يبدو أن هذا أفضل شيء».

وافقته، لكني ما كنت مقتنعاً.

حررني بيري فويفوده من ذلك القلق، لكن أثقلني بقلق غيره. أتى كي يقول لنا (شاعراً بالمرارة لما حدث، راضياً لأن شكوكه قد تأكدت) أن تاجر دوبروفنك قد فر من القصبة بعون من حسن. ذهبا سيراً على الأقدام إلى الحقول القريبة حيث كان رجال حسن في انتظار التاجر مع خيولهم. وعاد حسن وحيداً.

هز المتسلم رأسه وقال: «أمر مؤسف».

كان كل ما فيه ناطقاً بقلقه: صوته وكتفاه المتهدلتان ويده التي تداعب لحيته.. كل شيء عدا ابتسامة صغيرة لا تكاد تُرى على شفتيه الرقيقتين. سيكون أمراً غريباً إن لم يبلغ الوالي بأنه كان مع اعتقال الرجل، لكنه لسوء الحظ ليس من يتخذ القرارات.

وكان بيري فويفوده يبرئ نفسه من الذنب ويوجه الاتهامات، «قلت إن من الواجب اعتقاله».

كرر المتسلم: «مؤسف».. قالها كأنه يغرس ظفره في جبهتي.

وقد كنت عارفاً أن هذا مؤسف جداً. ما عاد تاجر دوبروفنك مذنباً في شيء لأنه رحل. المذنبون هم الباقون هنا. كان حسن مذنباً. وأنا كنت مذنباً لأني صديقه، ولأني تركت التاجر يفر. كنت مذنباً نتيجة أفعال الآخرين، نتيجة ولاءاتهم وحماقاتهم. كنت مذنباً أمام الوالي، فهو من يحميني.

أرسلنا في طلب حسن على الفور. وقد خشيت أن يأتينا مترفعاً، حاد الطبع، أن يأتينا مستشعراً إهانة لأننا نستجوبه. لم أستطع إخطاره وإقناعه بضرورة توخي الحيطة لأن التهور لن يكون مفيداً له. كان أملي معقوداً على أن يفهم موقفنا، ثم هدأت تماماً وارتحت عندما سمعت إجابته. قال إن الأمر صحيح، فتاجر دوبروفنك قد عاد إلى دياره. كان في عجلة من أمره. أتاه نبأ يقول إن أمه موشكة على الموت. أعاره رجاله وخيوله لأن محطة البريد ما كان فيها خيول جاهزة للسفر. رافقه إلى الحقول مثلما يرافق أصدقاءه دائماً. تحدثا بأمور عادية، بل عادية جداً إلى حد يجعله لا يستطيع تذكرها. على أنه سيحاول التذكر إن كان الأمر ضرورياً حقاً. لكنه لا يفهم كيف يمكن أن تكون لتلك الأحاديث أية أهمية. لم يخبره صديقه شيئاً عن أي تقرير (قال له المتسلم موضحاً: «تقرير تجسس»). يرى أن الأمر غريب جداً لأن الرجل كان مهتماً بالتجارة وحدها وما كان مهتماً بأي شيء آخر. قال حسن إن الرجل أقنعه بأن يرسل قوافل السلع إلى دوبروفنك بدلاً من سبليت وترييسته(1)، إن عاد إلى إرسال القوافل. لم يسافر مع بقية تجار دوبروفنك لأنه لم يتلق نبأ مرض أمه إلا بعد انطلاقهم (يسهل التحقق من هذا: الرجل الذي أتاه بالرسالة ما يزال في الخان. وقد حزم أمتعته ورحل ولم يأخذ معه غير أهم حوائجه).

عندما جعلناه يرى التقرير، قرأه كله ثم هز رأسه معبراً عن دهشته لأن يكون صديقه قد كتبه. بطبيعة الحال، هو لا يستطيع قول شيء لأنهما لم يتكاتبا أبداً؛ وهو لا يستطيع الجزم بأن الرسالة مكتوبة بخط يده. لكن من الممكن أن يعرف المرء أفكار شخص آخر؛ وهو لا يرى أفكار صديقه هنا. وأما إذا كان هو صاحب

---

(1) يبليت: مدينة كرواتية واقعة على ساحل بحر الأدرياتيك. ترييسته: مدينة في أقصى شمال شرق إيطاليا واقعة على ساحل الأدرياتيك.

هذه الكتابة حقاً ـ كل شيء يشير إلى هذا ـ فإن لذلك الرجل وجهان لكنه لم يظهر لحسن إلا وجهاً واحداً منهما. ضحك عندما قرأت التقرير وقال إن من المؤسف أن يظهر بمظهر الغبي إن نتج عن هذه الرسالة أي سوء. من حسن الحظ، ما من سوء يمكن أن ينتج عنها لأن ما هو مكتوب فيها يمكن أن يكتبه أي شخص عن أرض أي شخص آخر، ولأن أموراً من هذا القبيل ما عادت مثار دهشة أحد. ليس في موقع يسمح له بأن ينصحنا بشيء، وليس هذا من عادته، لكنه لا يرى أي سبب لإشعال حريق إن لم تكن هناك حاجة إليه، ولا يرى سبباً للاهتمام بإطفاء حريق عندما يكون قد انطفأ من تلقاء ذاته. لقد تم تفادي الفضيحة والإهانة لأن الفضيحة ليست ما وقع (وليست ما لم يقع) بل هي ما يجري تناقله بين الناس. وأما الآن، فما من شيء باقٍ غير بضع نوايا خائبة. إذاً، فلا إهانة في الأمر أيضاً، إلا إذا كنا نبحث عن إهانة. بالتالي، من الممكن استخلاص بعض الخير من هذا كله. لا، هو لا يقر هذا السلوك ولا يتغاضى عنه ـ مع أنه كف منذ زمن بعيد عن اعتبار الناس ملائكة؛ لكنه غير راغب في قول أي شيء عن صديقه لأن هذا ليس مستحسناً. وهو غير راغب في التماس العذر له لأن هذا ما عادت له أية فائدة. يستطيع الكلام على نفسه فقط: صحيح أنه ليس مذنباً في شيء، لكنه مستعد للتعبير عن أسفه، أمامنا وأمام الوزير، لأنه كان على صلة بهذا الأمر الغبي الذي أقلقنا أكثر مما يستحق.

أصغيت إليه مهتماً بما يقول. ساورني شك في أنه لم يدر سبباً لفرار التاجر؛ لكنه أعطى انطباعاً موحياً بأن ضميره نظيف. لا بد أنه كان نظيفاً لأنه غير مهتم بالرسالة ولا بسمعة الوزير. كانت لديه إجابة هادئة مقنعة عن كل سؤال. أظنني الوحيد الذي أحس بشيء من نبرة مترفعة فيما قال لأني تابعت كل كلمة من كلماته بكل انتباه وكنت سعيداً بنجاحه في إبعاد الشكوك عن نفسه. ومن جديد، أدركت كم كنت معنياً به وكم سيكون مؤلماً لي وقوعه في أية مشكلة. ما كنت لأسمح بأن يجعله أحد محل انتقام؛ لكني سررت لأنه برأ نفسه. قارنت هذا بما كان من المحتمل أن أضطر إلى فعله.

ما كنت شديد الاكتراث بموقفي أمام الوزير: هو في حاجة إلي.

أبلغني الملا يوسف بعد صلاة الجمعة بأن دفتردار الوالي ينتظرني في دار المحكمة. عجباً.. ما الذي أتى به إلينا في هذا الطقس الرديء؟

عرّجت على مقر المتسلم. قالوا لي إنه عاد إلى بيته قبل قليل لأن حمى أصابته. أدركت نوع تلك الحمى التي كانت تنقذه من كل ما لا يسره. لكن معرفتي هذه لم تجعلني أحس نفسي أحسن حالاً.

كان الدفتردار مهذباً إذ نقل إلي تحيات الوالي، ثم قال إنه يود أن يبادر فوراً إلى الانكباب على المهمة التي استدعت هذه الزيارة. قال إنه يأمل في ألا يطول الأمر. كان متعباً من سفرته الطويلة على الحصان فأحب أن يستحم ويحظى بقسط من الاستراحة حالما يكون ذلك ممكناً.

«هل المسألة ملحة فعلاً؟»

«يمكن القول إنها كذلك. ينتظر مني أن أبلغ الوالي اليوم بما أنجزته».

قال لي كل شيء من غير تأخير ومن غير تردد؛ وأكد منذ البداية على أن تلك الرسالة قد ساءت الوالي كثيراً وأغضبته (كان هذا تنبيهاً موجهاً إليَ كي أدرك خطورة الأمر كله). قال إن الوالي في ضيق مني أيضاً لأني تركت تاجر دوبروفنك يفر عندما كنت قادراً على الحيلولة دون فراره. (قيلت هذه الكلمات هنا منذ زمن طويل، وكان واضحاً أنها عادت الآن إلى مسقط رأسها!). لقد كتب إلى مجلس الأعيان في دوبروفنك مطالباً بمعاقبة الرجل على أكاذيبه وعلى الإهانات التي وجهها إليه فكانت بالتالي موجهة إلى الأرض التي يحكمها بمشيئة السلطان. إذا لم يلق المذنب العقوبة المناسبة، وإذا لم يتم إبلاغ الوالي بتلك العقوبة ومعها اعتذار لائق، فسوف يضطر إلى قطع الصلات التجارية مع دوبروفنك لأن من شأن ذلك أن يعني أن ما من صداقة بين الجانبين وأن ما من رغبة لدى دوبروفنك في الحفاظ على العلاقات الطيبة التي هي مفيدة للطرفين معاً، لكنها مفيدة لهم أكثر من فائدتها لنا. وهو أيضاً آسف لأن حسن ضيافتنا (لا نرفض أحداً إن كانت نواياه سليمة) قد كوفئ باختلاقات بغيضة تناولت الوالي نفسه وعدداً من أطيب الناس سمعة في الولاية. يبين هذا مقدار ما في قلب التاجر المذكور من كره ومن بغض للحقيقة. إذا اتخذوا الموقف المناسب، وإذا بقيت العلاقات بيننا سليمة

ـ هذا ما يتمناه الوالي من كله قلبه، وهذا بالتأكيد ما يريده الأعيان المحترمون في دوبروفنك ـ ففي وسعهم أن يرسلوا إلينا صديقاً حقيقياً، صديقاً لنا ولهم ـ من المؤكد أن أولئك الأصدقاء موجودون لأن العلاقة بيننا لم تبدأ يوم أمس ـ رجلاً حسن الخلق يحترم العادات ويحترم حكام الأرض التي تستضيفه فلا يبصق على حسن استقبالنا ولا يتصرف تصرفات مشينة تسيء إليه وإلى الجمهورية التي أرسلته، ولا يخالط أسافل الناس الذين هم موجودون في كل مكان، وموجودون هنا أيضاً، أولئك الذين لا يريدون الخير لأنفسهم ولا للأرض التي تحملهم، أولئك الذين اشترى التاجر المذكور خدماتهم على نحو مشين يعرفه الأعيان الموقرون.

«لا بد أنك علمت من الذي يلمح الوزير إليه؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لم أعلم».

«بل علمت».

كان رجلاً ممتلئاً، ناعماً، مدوراً، ملتفاً برداء حريري واسع. كان أشبه بامرأة عجوز.. أشبه بكل من يحومون حول أهل السلطة من سنين.

«يريد الوالي أن تعتقله».

«لماذا يُعتقل؟ لقد أثبت براءته. هو ليس مذنباً في شيء».

«هل رأيت؟ عرفتَ الذي أتكلم عنه».

صحيح، عرفته، بل عرفت كل شيء لحظة سماعي بوصوله. علمت أنكم تريدون رأسه، لكني لن أسمح لكم بأخذه. قد أتخلى لكم عن أي شخص آخر، لكنكم لن تنالوا منه.

قلت للدفتردار أن رغبات الوزير المعظم كانت على الدوام أوامر بالنسبة إلي. ألم أفعل كل ما طلبه مني؟ لكني أرجوه الآن أن يتخلى عن هذه الفكرة كرمى لسمعة الوزير نفسه، وكرمى للعدل. حسن موضع محبة الجميع، موضع تقدير الجميع، ولن يكون الناس مسرورين إن اعتقلناه، خصوصاً بعد علمهم أنه ليس مذنباً. إن لم يكن الوالي قد أبلغ بهذا، فسوف أذهب إليه كي أشرح له كل شيء وأطلب عطفه.

«لقد أحيط علماً بكل شيء».

«إذاً، لماذا يطالب بهذا؟»

«أليس تاجر دوبروفنك مذنباً؟ يعني هذا أن حسناً مذنب أيضاً. بل لعله مذنب أكثر منه. لا يُستغرب من شخص أجنبي أن يكون عدواً لهذه الأرض، لكن ليس مقبولاً أن يكون العدو واحداً منا. هذا أمر غير طبيعي».

تمنيت لو أن لدي جرأة كافية لأن أسأل: هل الوزير وهذه الأرض شيء واحد؟ لكن على المرء أن يبتلع حججه المنطقية عندما يكلم أهل السلطة وعليه أن يقبل أسلوبهم في التفكير. يعني هذا أنه مهزوم مسبقاً.

بقيت مصراً على أن حسناً ليس عدواً، وعلى أنه ليس مذنباً، لكن من غير فائدة. رفض الدفتردار أن يسمع شيئاً من هذا وقال إننا كنا عمياً حين صدقنا قصته الوقحة.

«ألم يقل إن تاجر دوبروفنك لم يستطع الحصول على جياد جاهزة في محطة البريد؟ حقيقة الأمر هي أنهما لم يذهبا إليها؟»

«من قال هذا، أهول المتسلم؟»

«لا أهمية لمن قال هذا. فالأمر صحيح. وقد تأكدنا منه. ليس هذا فقط، بل إن في قصته أكاذيب أخرى. هل كلمت الرجل الذي جلب لصديقه تلك الرسالة من دوبروفنك. لا، لم تكلمه. لقد كذب حسن؛ وهو مذنب. لذلك فإن اعتقاله أمر ينبغي تنفيذه. وأما عن السبب الذي جعل الوالي راغباً في أن تنفذه أنت، فهو أنه لا يريد أن يقول أحد عنه إنه يلجأ إلى العنف.. فالأمر ليس عنفاً، وهو غير راغب في التدخل في شؤونكم. على كل امرئ أن يرعى شؤونه بنفسه، كلٌّ بحسب ضميره».

«بحسب أي ضمير؟ حسن أعز أصدقائي. بل هو صديقي الوحيد».

«هذا أفضل كثيراً. فسوف يرى الجميع أنها ليست مسألة انتقام بل مسألة عدل».

«أرجوك وأرجو الوزير أن أُعفى من هذا الأمر. إذا وافقت، فسوف يعني هذا أنني أفعل شيئاً رهيباً».

«سوف تفعل شيئاً ذكياً. وذلك أن الوالي يتساءل كيف اكتشفوا الأمر كله بهذه السرعة».

هكذا، بدأت يده الضعيفة تشد الخناق على عنقي.

«هل تريد القول إن الوالي يشك في أمري؟»

«أريد القول إن من الأفضل ألا يكون للقاضي أصدقاء أبداً. ولا حتى صديق واحد. هذا لأن البشر يخطئون».

«وإذا كان لديه صديق؟»

«عندها، يكون عليه أن يختار: إما الصديق وإما العدل».

«لا أريد أن أرتكب إثماً في حق العدل، ولا في حق صديقي. هو ليس مذنباً. وأنا غير قادر على هذا».

«الشأن شأنك. الوزير لا يجبرك على فعل شيء. ولكن..»

فهمت هذه الـ»ولكن».

طارت كلمته من حولي كأنها طائر أسود وأحاطتني بحلقة من نصال مسددة إلي. فهمت هذا، لكني قلت في نفسي مصمماً: لن أدعكم تنالون من صديقي. لكن هذه الجرأة لم تأتني بأي انفراج. اشتد الظل من حولي فصار أكثر سواداً.

قال وهو يرتعش ويدعك يديه معاً كي يدفئهما، «ولكن، أظنك تعرف كم لديك هنا من أشخاص لا يحبونك، وتعرف كم شكوى أرسلت إلى القسطنطينية. كلها تطالب برأسك. احتجز الوزير القسم الأكبر من تلك الشكاوى. إنه من يدافع عنك. لولا حمايته لدمرك الكره الذي يضمره الآخرون لك، لدمرك منذ أمد بعيد. إن لم تعلم هذا، فأنت غبي. وإن كنت عالماً، فكيف لك أن تكون على هذا القدر من الجهل؟ لماذا يحميك الوزير؟ ألجمال عينيك؟ لا. يحميك لأنه ظن أنه يستطيع أن يعتمد عليك. وأما إذا رأى أن هذا غير ممكن، فلماذا يواصل حمايتك؟ السلطة ليست مصنوعة من صداقات، بل من تحالفات. وبالمناسبة، أستغرب أنك قاسٍ على الجميع، لكنك لطيف مع أعداء الوالي فقط. الوالي يعتبر أصدقاء أعدائه أعداء له. إذا وُجهت إهانة الوالي وإلى هذه الأرض، ثم لم تشأ أن تدافع عنهما، فهذا يعني أنك تنتقل إلى الجهة الأخرى».

ناولني ورقة وقال لي، «اقرأ هذا».

كنت لا أكاد أتبين الكلمات، ولا أكاد أفهم معناها، لكني قرأت في الورقة رسالة من نائب ملا القسطنطينية يسأل الوالي فيها عن سبب دفاعه العنيد عن القاضي أحمد نور الدين الذي حرض على التمرد في البازار وتسبب، انطلاقاً من كره شخصي، في مقتل القاضي السابق الذي كان عالماً جليلاً. وقد أكد على اتهامه كل من أرملة القاضي وشهادات الشهود. كما أن ثمة اتهامات أخرى وجهها إليه عدد من أعيان البلدة ممن ساءهم تفرد أحمد نور الدين بالرأي ورغبته في حيازته السلطة كلها لنفسه، وهذا إثم في حق الشريعة وفي حق الإرادة السلطانية العليا بألا تكون السلطة (التي يستمدها السلطان من الله ويحيلها إلى عامليه) مرتكزة بين يدي شخص واحد لأن هذا مؤدٍّ إلى الظلم والطغيان. وأما إذا لم يكن ذلك صحيحاً، وإذا كان لدى الوالي رأي آخر وأسباب أخرى، فإن عليه أن يتصل بنائب الملا كي يعلم كيف يتصرف تبعاً لذلك.

صعقتني الرسالة.

كنت عالماً بأن ثمة دسائس وشكاوى، لكني أرى الدليل أول مرة بعيني. كان ذلك كأن سهماً قد أطلق علي ولم يخطئني إلا قليلاً. وقد خفت.

«فماذا تقول؟»

ماذا أستطيع أن أقول؟ بقيت صامتاً. وما كان صمتي تحدياً.

«هل ستحرر أمر اعتقاله؟»

آه، يا الله، ساعدني يا الله! لا أستطيع كتابة الأمر ولا أستطيع رفضه. من الأفضل لي أن أموت.

«هل ستحرر الأمر؟»

ما الذي يحاولون إرغامي على فعله؟ الحكم على صديق، على المخلوق الوحيد الذي يحبني حباً لا يعرف الشبع. فماذا أكون عندها؟ رجل لا قيمة له، رجل يشمئز من نفسه، رجل هو أكثر التعساء وحدة في هذا العالم. لقد حفظ عليّ كلَّ ما هو بشري عندي. سأقتل نفسي إن أسلمته إليهم. يا الله، لا تجعلني أفعل هذا! هذا قاسٍ علي كثيراً.

قلت للرجل الذي لا يعرف رحمة، «لا تجعلني أفعل هذا! هذا قاسٍ علي كثيراً».

«ألن تحرر الأمر؟»

«لا. لا أستطيع هذا».

«مثلما تريد. لقد قرأت الرسالة».

«قرأتها وعلمت ما ينبغي أن أتوقعه. لكن، افهمني، أيها الرجل الطيب! أيعقل أن تطلب مني قتل أبي أو أخي؟ هو عندي أكثر من أب وأكثر من أخ. وهو يعني لي أكثر مما تعنيه نفسي. أتمسك به تمسكي بمرساة. من غيره، سيصير العالم عندي كهفاً مظلماً. هو كل ما لدي؛ ولن أتخلى عنه. افعلوا بي ما شئتم، فلن أخونه. لأني لا أريد إخماد آخر شعاع ضوء في نفسي. سأموت، لكني لن أتخلى عن نفسي».

قال الدفتردار ساخراً مني: «هذا جميل، لكنه ليس ذكياً».

«إن كان لك صديق فستعلم أنه جميل وذكي معاً».

للأسف، لم أقل هذا ولم أقل ما يشبهه. فيما بعد، فكرت كم سيكون هذا مشرفاً لو أني قلته.

لكن كل شيء اتخذ مجرى مختلفاً تماماً.

سألني الدفتردار: «هل ستحرر أمر الاعتقال؟»

نظرت إلى الرسالة، نظرت إلى الخطر الماثل أمامي وقلت: «أنا مضطر إلى تحريره».

«لست مضطراً إلى تحريره. افعل ما يمليه عليك ضميرك».

أوه.. دع ضميري وشأنه. سأفعل ما يمليه علي خوفي، ما يمليه عليٍ ذعري، وسأودع أفكاري الحلوة عن نفسي. سأكون مثلما ينبغي أن أكون: نذلاً. خزاهم الله فقد جعلوني أصير ذلك الشيء الذي كنت في قرف دائم منه.

لكني لم أفكر هكذا في ذلك الوقت. أحسست نفسي بائساً. وأحسست أن أمراً رهيباً يحدث، أمراً غير بشري، بل غير بشري إلى حد جعلني غير قادر على استيعابه. إلا أن هذا ظل مكتوماً أيضاً، ظل محجوباً من خلف الذعر الذي

اجتاحني كأنه دوار، من خلف غليان دمي الذي خنقني بحرارة ملتهبة. أردت أن أخرج، أن أستنشق هواء نقياً، أن أفر من اللهيب الأسود، لكني أدركت أنه لا بد من تقرير كل شيء على الفور، في تلك اللحظة نفسها؛ أدركت أني إن فعلت فسوف أخلص نفسي من ذلك كله. سوف أتسلق جبلاً، أتسلق أعلى قمة، وسوف أظل هناك حتى المساء.. وحيداً. لن أفكر. سوف أتنفس. أتنفس.

كانت في صوته دهشة عندما قال الدفتردار، «يداك مرتعشتان، هل أنت حزين حقاً؟»

أحسست غثياناً في معدتي، وأردت أن أتقيأ.

«إن كنت حزيناً هكذا، فلماذا وضعت توقيعك على أمر اعتقاله؟»

أردت أن أرد على تلك السخرية، أن أقول شيئاً، ولم أدر ما أردت القول، لكني بقيت صامتاً، خافضاً رأسي، بقيت كذلك زمناً طويلاً إلى أن انتبهت وبدأت أقول متأتئاً: «لا أستطيع البقاء هنا بعد الآن. لا بد لي من الذهاب إلى مكان آخر، إلى أي مكان. لا أريد إلا أن أبتعد».

«لماذا؟»

«بسبب الناس، بسبب كل شيء».

قال الدفتردار بصوت هادئ وبازدراء عميق: «أنت لا نفع منك أبداً!». حسبت أنني لا أعلم السبب، وكنت غير قادر على التساؤل عن سبب ازدرائه. بل إن ذلك لم يؤلمني. لكني تابعت تكرار تلك الكلمات القبيحة، تابعت تكرارها في نفسي كأنها دعاء، لكن من غير أن أفهم معناها الحقيقي. ما كان حياً في داخلي غير إحساس بالهلاك التام، بأنني انتهيت، إحساس كالذي يكون لدى الطريدة قبل اصطيادها. انطبق كل شيء من حولي، وما عاد أمامي من مخرج. لكن ذلك لم يكن كأنه من غير أثر: كنت خائفاً.

«من يذهب لإحضار حسن؟»

«بيري فويفوده».

«فليأخذه إلى الحصن».

خرجت إلى الممر فصادفت الملا يوسف. كان عائداً إلى غرفته.

تجمدت عيناه عندما نظر إلي، تجمدتا لحظة فقط، لحظة واحدة فقط، ففهمت الأمر. لقد كان يسترق السمع إلى حديثنا. وقد علم. إن خرج، فسوف ينقل النبأ إلى حسن. كان هو من أخبره بأمر التاجر. كيف لم يتبادر هذا إلى ذهني.

«لا تخرج. سوف أكون في حاجة إليك».

أطرق برأسه ثم دخل غرفته. انتظرنا، انتظرنا صامتين. أغفى الدفتردار على الأريكة. لكنه كان يفتح عينيه عند كل صوت فيرتفع جفناه الثقيلان سريعاً.

عندما عاد بيري فويفوده، علمت أن كل شيء قد انتهى. لم أجرؤ على سؤال الدفتردار عما سيقع لحسن. ما عاد لي حق في ذلك. وما عادت بي قوة من أجل هذه المراءاة.

صرت وحدي. لكن، أين عساني أستطيع الذهاب؟

لم أسمع صوتاً عندما دخل الملا يوسف غرفتي. كانت خطواته صامتة. وقف عند الباب ونظر إلي بكل هدوء. رأيت أول مرة أنه غير مضطرب أمامي.. لأننا صرنا الآن صنوين.

هو الشخص الوحيد الذي بقي لي. كنت أكرهه، وأجده منفَراً، وأخشاه. مع هذا، أردت في تلك اللحظة أن يأتي إلي كي نكون صامتين معاً. أو أردت أن يخبرني شيئاً، أو أن أخبره شيئاً.. أي شيء. أردت، على الأقل، أن يضع يده على ركبتي. أردته أن ينظر إلي نظرة مختلفة لا مثلما كان ينظر إلي. بل حتى أردته أن يلومني. ولكن، لا، ما كان له حق في ذلك. الفكرة وحدها كانت كافية لأن أحس إزاءها مقاومة، بل حتى غضباً؛ وكنت عارفاً أنني سأقبل منه كلمة رقيقة، أو لا شيء. كنت على شفير التحول إلى رجل محطم أو إلى وحش.

«قلت إنك ستحتاج إلي».

«ليس الآن».

«أأستطيع الذهاب؟»

«هل علمت ما حدث؟»

«نعم».

«لست ملوماً في هذا. لقد أرغموني وهددوني».

ظل صامتاً.

«ما كان أمامي أي خيار. وضعوا السكين على عنقي».

ظل صامتاً، معادياً تماماً، ولم يتركني أقترب منه.

«لماذا لا تقول شيئاً. هل تريد التعبير عن سخطك؟ ليس لك حق في هذا.. ليس أنت».

«سيكون من الخير أن تترك القصبة، يا شيخ أحمد. أمر مخيف أن ينبذك الناس. أعرف هذا حق المعرفة».

لا.. لا يجوز أن يكلمني هكذا. كان هذا أسوأ من اللوم. كان هذا نصيحة باردة من بعيد، غبطة مزدرية. مع ذلك، ظل قلبي الثقيل كأنه يتوقع شيئاً، أي شيء، سواء أكان إهانة أو كلاماً يواسيني، لأن هذا سيعيد الحياة إلى قلبي. بل لعل الإهانة كانت أفضل لأن المواساة كفيلة بأن تجهز على القليل الباقي من قواي.

قلت: «أنت لا نفع فيك أبداً»؛ وكدت أختنق عندما كررت هذه الكلمات التي أصابتني منذ قليل فجرحتني كثيراً.. «تماماً لأنك تعرف جيداً أني ظننت الكلام بيننا سيكون مختلفاً. أنت لست شديد الذكاء لأنك اخترت لانتقامك توقيتاً سيئاً. لا.. لن ينبذني الناس. قد ينظرون إلي خائفين، لكنهم لن يزدروني. وأنت أيضاً لن تزدريني. كن واثقاً من ذلك. لقد أرغموني على التضحية بصديقي، فلماذا أبالي بما يراه غيره؟»

«هذا لن يجعل الأمر أكثر سهولة عليك، يا شيخ أحمد».

«قد لا يجعل الأمر أكثر سهولة. لكنه لن يجعله أكثر سهولة على أي إنسان آخر. سوف أتذكر أنك ملوم أيضاً في معاناته».

«إن كان توبيخي يريحك ويخفف الثقل عن قلبك، فعليك به!»

«لو لم يفر التاجر، لكان حسن الآن جالساً آمناً في بيته. لم يأت منجّم كي يخبر التاجر بما سيقع له».

«علم التاجر أن الرسالة قد سرقت. فهل يكون في حاجة إلى أي شيء بعد ذلك؟»

«أنت من يعلم هذا».

«هل تسألني، أم تتهمني؟ يبدو أن الأمر يكون أشد صعوبة على من يبقى هنا».

«أنت لم تبق هنا، بل أرغمت على البقاء. والآن، اخرج».

خرج من غير أن يلتفت خلفه.

لا فائدة من هذا. تأتي المصائب مثلما تأتي الغربان، أفواجاً.

صباح اليوم التالي، بقينا نائمين إلى ما بعد صلاة الفجر، الدفتردار وأنا. ظل الدفتردار نائماً لأن رحلته كانت طويلة ولأنه أنجز مهمته على أحسن وجه. وطال نومي صباحاً لأنني أرقت طيلة الليل ولم يأتني النوم إلا قبيل الفجر. لكني كنت أول من سمع الخبر المخيف؛ وكان هذا هو الحق لأنه خبر يهمني أكثر مما يهم أي شخص غيري. وكان حقاً أيضاً أن أسمعه من بيري فويفوده: كان خبراً كريهاً مثله مثل حامله.

لم أفهم أول الأمر ما قاله لي لأنه كلام غريب غير متوقع. وبعد ذلك، ظل يبدو غريباً، لكني فهمته.

قال الرجل الكريه، «لقد نفذنا أوامرك. فوجئ البزدار قليلاً، لكني قلت له إن ذلك ليس من شأنه. مهمته أن يطيع الأوامر، مثلي تماماً».

«أية أوامر؟»

«أوامرك.. في قضية حسن».

«ماذا تقول؟ هل تكلمني عما وقع يوم أمس؟»

«لا. أتكلم على ما جرى ليلة أمس».

«وماذا جرى ليلة أمس؟»

«جئنا بحسن وسلَمناه إلى الحراس».

«أي حراس؟»

«لا أدري. حراس، كي يأخذوه إلى ترافنيك».

«هل أعطاك الدفتردار ذلك الأمر؟

«لا. أنت من أعطاني ذلك الأمر».

«انتظر لحظة. إن كنتَ ثملاً، فعليك أن تذهب وتنام إلى أن يزول هذا عنك. وإذا لم تكن..»

«أنا لا أشرب أبداً، يا قاضي أفندي. أنا لست ثملاً، ولست في حاجة إلى النوم».

«لو كنت كذلك، لكان أفضل لي ولك. هل رأيت بنفسك أن الأمر كان مني؟ من جلبه؟»

«بالطبع رأيت! كان مكتوباً بخط يدك، كان مختوماً بخاتمك. جلبه الملا يوسف».

جلست، ما عادت ساقاي بقادرتين على حملي، وأصغيت إلى قصة حلوة، قصة عن صفاقة الآخرين، وعن بلواي.

أيقظه الملا يوسف بعد منتصف الليل وأعطاه أمراً موجهاً إلى بزدار الحصن: أن يسلّم السجين حسن إلى الحراس في حضور بيري فويفوده. سوف يرافقهم الملا يوسف كي يأخذوا السجين إلى ترافنيك. كان مكتوباً في الأمر أيضاً أن يدي السجين المذكور لا يجوز أن يفك وثاقهما، وأن عليهم أن يخرجوا به من القصبة قبل مطلع الفجر. ظل الحراس على صهوات جيادهم عند باب الحصن. ودخل الملا يوسف مع بيري فويفوده كي يوقظا البزدار ويسلمانه الأمر. تأفف البزدار وتذمر قائلاً إنه ما كان ليرسل السجين إلى الزنزانات السفلى لو علم بالأمر في وقت أبكر. لهذا، صار على الجميع أن ينتظروا قليلاً، وصار عليه أن يمضي ليلته من غير نوم. ما عاد عارفاً متى يكون الوقت ليلاً ومتى يكون نهاراً. لكن بيري فويفوده أجابه بما ذكره لي قبل قليل من أن عملهما مقتصر على تنفيذ الأوامر. ثم بدأ الملا يوسف يتذمر من أن هذه وظيفة البزدار، لا وظيفته، لكنه مضطر إلى فعل أمور لا يريد فعلها ولأن الوالي طلب إنجازه الأمر كله قبل الفجر من غير أن يسمع أحد شيئاً عن رحيل حسن لأن الناس هنا مجانين مثلما رأينا في الآونة الأخيرة، وسيكون من الأفضل إن أُنجز كل شيء بهدوء ومن غير أن ينتبه إليه أحد. أضاف بعد ذلك إلى أنه طلب مني أن أرسل بيري فويفوده مع حسن والحراس لأنه، من ناحيته، لم يعتد ركوب الخيل، وسوف تتقرح ساقاه قبل أن يبلغوا ترافنيك، لكني قلت له إني لا أستطيع أبداً إلى أن أستغني عن بيري فويفوده لأنني في حاجة إليه هنا ولأنه ذراعي اليمنى. كان بيري فويفوده شديد الامتنان عندما سمع هذا. (لا

تقل أبداً إنك التقيت أغبى رجل في العالم، من الممكن دائماً أن يوجد من يفوقه غباء!). عندما أتوا بحسن موثق اليدين، طلبوا منهم أن يفكوا وثاقه وسألهم أين يأخذونه. دعاهم بومات ليل جبانة متذمراً من أنهم أيقظوه من أجمل نوم. لكن الملا يوسف شرح له بهدوء أنهم ينفذون الأوامر، لا أكثر، فسأله حسن متى سيكبر أخيراً ويبدأ التفكير بعقله، لا بحسب الأوامر.. قال له إن الوقت قد حان وإنه ما عاد صغيراً. أم أنه يريد السير على خطا بيري فويفوده؟ كان حسن غير محبذ لذلك أبداً لأن الملا يوسف لن يبلغ سوية بيري فويفوده، ولن يصير إلا بيري فويفوده صغيراً. لم يفهم بيري فويفوده ما قاله حسن، لكن ظن أن فيه إهانة. بعد ذلك، شكر حسن البزدار على حسن الضيافة والصمت التام الذي كان محيطاً به.. أعجبته تلك الليلة كثيراً؛ وإعراباً عن عرفانه، تمنى للبزدار مثلها. قطع بيري فويفوده مجرى تلك الثرثرة وأمرهم بأن ينطلقوا. قال له حسن: «أنت محق. إن لديك عملاً كثيراً؛ ومن المؤسف أن تضيع وقتك هنا». وعندما أبصر الحراس سألهم: «ماذا أفعل الآن، أيها الآغوات والأفندية، ماذا أفعل كي أترك عندكم ذكرى طيبة عني؟ هل أركب حصاناً أم أتبعكم سائراً على قدمي؟»

أجابه حارس متين البنية: «كف عن الثرثرة!» ثم رفع إلى صهوة الحصان وأوثق ساقيه بحبل.

صاح حسن عندما تحركوا: «تحياتي لصديقي القاضي».

ثم انطلقوا في خبب سريع.

«كيف علمت؟»

«الآن، لا أهمية لما علمت. يبدو لي أن الأمر لم يتضح لك بعد».

«ما الذي لم يتضح لي؟»

«أنهم هربوا. وأنك أعنتهم في الهرب».

«لكني رأيت أمرك».

«لم أعط أية أوامر. الملا يوسف هو الذي كتب الأمر».

«وماذا عن الحراس؟ لقد قيدوه، ربطوه إلى الحصان».

«أظنهم فكوا وثاقه في أول شارع انعطفوا إليه. من الواضح أنهم رجاله».

«لست أعلم إن كانوا رجاله أم لم يكونوا، لكني أعلم أن الأمر كان مكتوباً بخط يدك. كان عليه خاتمك. ليس هذا أول أمر أتلقاه منك. أعرف كل حرف من حروفك. لا يمكن أن يكون غيرك قد كتب هذا الأمر».

«أقول لك، يا غبي. إنني لم أدر شيئاً. سمعت كل هذا منك فقط».

«آه، لا.. هذا غير صحيح، كنت على علم بكل شيء. أنت من خطط لهذا. أنت من كتب الأمر. من أجل صديقك. لكن، لماذا تريد أن تهلكني؟ لماذا أنا؟ ألم تستطع العثور على شخص غيري؟ أقدم خدماتي المخلصة الصادقة منذ عشرين سنة، لكني صرت الآن كبش فداء. ولسوف يؤكد الملا يوسف ذلك كله».

«الملا يوسف لن يعود أبداً».

«هل رأيت؟ أنت تعرف!».

ما كان مجدياً أن أقول شيئاً؛ فبقدر ما يعنيه الأمر، كنت المذنب الوحيد.

دخل الدفتردار وهو يدعك وجهه الممتلئ بمنديل من حرير. كان محمر اللون لشدة إثارته، لكنه كلمني بصوت ناعم اتخذ مظهر الهدوء.

قال لي: «ماذا، يا درويش؟ هل بدأت تسخر منا علناً؟ لا بأس. هذا جيد. لقد قمت بنقلتك وجاء الآن دور غيرك كي يقوم بنقلته. ولكن، قل لي، على أي شيء كنت متكلاً؟ أم أن الأمر ما عاد مهماً بالنسبة إليك؟»

«فوجئت، مثلك تماماً؟»

«ما هذا؟ أمرك وخاتمك».

«كاتبي هو من حرر الأمر.. الملا يوسف».

«قل لي، لماذا يفعل كاتبك هذا؟ هل هو على صلة بحسن؟ أم هو صديقه.. مثلك؟»

«لا أدري».

تدخل بيري فويفوده: «ليس صديقه. الملا يوسف رجل القاضي. يطيعه في كل أمر».

«لست ذكياً، يا أحمد نور الدين. من الذي تحاول استغباءه بهذه اللعبة الجريئة؟».

«لو أني وضعت اسمي على ذلك الأمر لكان ذلك غباء حقيقياً. أو.. لما كنت هنا. ألستَ قادراً على رؤية هذا؟»

«ظننتنا ثلة من الأغبياء؟ وظننت أننا سنصدق قصتك الخيالية هذه».

«سأقسم على القرآن».

«أنا واثق من أنك ستقسم على القرآن. لكن الأمر لا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً. حسن صديقك. هو أقرب أصدقائك ـ بل صديقك الوحيد ـ أنت قلت لي هذا بنفسك. وقد رأيتُ يوم أمس كم كنت مهتماً بأمره. ثم إن كاتبك ليس عنده أي سبب شخصي يدفعه إلى تحرير السجين. كان يطيع أوامرك، لا أكثر. فهو رجلك الموثوق. أنت تلقي باللوم كله عليه لأنه فر بدوره. لا بأس. إن عُرضت عليك هذه القضية، فماذا يكون حكمك؟»

«إن كنت أعرف الرجل، مثلما تعرفني، فسوف أصدق ما يقول».

«يا للحجة المقنعة!».

قال بيري فويفوده: «أنا أيضاً قلت له هذا: لقد كتبت كل شيء بنفسك، من أجل صديقك».

«اخرس أنت! لقد وضعوك حيث أرادوا وضعك تماماً، مثلما يضعون عرقاً من الحبق في عروة السترة. استخدموك زينةً في هذا الأمر كله. سوف يفرح الوالي بهذا كثيراً!».

وهكذا، وجدت نفسي في موقف غريب: كلما حاولت تبرئة نفسي كلما نقُصَ تصديقهم قصتي إلى أن صارت غير مقنعة حتى في نظري. صار الناس الآن يربطون بين اسمي وبين الصداقة والإخلاص؛ يربطه بعضهم ساخطاً، ويربطه بعضهم الآخر محبذاً. كنت أفضّل أن آخذ ناحية من الاثنتين، وأترك الأخرى، لكن الظاهر أنهما تأتيان معاً. من بين الصورتين، صرت أقبل الصورة السائغة أكثر من أختها. كاد الحافظ محمد يقبل يدي؛ ودعاني علي خوجا «رجلٌ لا يخشى أن يكون رجلاً»؛ وصار أهل البلدة يرمقونني بنظرات الاحترام؛ وصار أشخاص غرباء يتركون لي هدايا عند مصطفى. كما أن علي آغا، والد حسن، بعث إلي بشكر خاص عن طريق حجي سنان الدين. ما كنت قادراً على رفض هذا

الإعجاب الهادئ. وهذا ما جعلني أعتاد الفكرة أكثر فأكثر وأتقبل احترام الناس من غير أن أقول شيئاً، أتقبله مكافأة لي على أعظم خيانة ارتكبتها في حياتي. أتكون الصداقة حقاً في منجى من ريبة الناس إلى هذا الحد؟ أم أنهم تأثروا لأن الصداقة ليست بالأمر الشائع كثيراً؟ كان هذا أشبه بنكتة قبيحة: فعلت أموراً كثيرة في حياتي كي أكسب احترام الناس، أموراً كان بعضها لطيفاً، وبعضها مفيداً، لكن الاحترام أتاني نتيجة فعل مخزٍ صار الجميع يراه نبيلاً. كنت عارفاً أنني لا أستحق شيئاً من احترامهم، لكن الأمر لاءمني، وصار يؤلمني تفكيري بعض الأحيان، في أنه كان علي حقاً أن أتصرف بتلك الطريقة. بطبيعة الحال، ما كان ليختلف أي شيء، إلا في داخلي. مع ذلك، كان الأمر هكذا أفضل (ليس جيداً، بل أفضل) لأن الناس صاروا يحترمونني وكأني أقدمت على ذلك الفعل. وكنت من ناحيتي واثقاً من تبرئة نفسي من الاتهامات لعلمي بأني لم أفعل شيئاً. لكن رسالة من حسن والملا يوسف وصلت إلى المفتي قادمة من مكان قريب من الحدود الغربية. كانت الرسالة تبرئني وتحكي القصة كلها، لكن الناس اعتقدوا اعتقاداً جازماً أنني كنت متفقاً معهما (فلماذا يدافعان عني إن كنت قد أسأت إليهما). وأنا، اعتبرتُ تلك الرسالة دليلاً أستطيع استخدامه لإقناع أي كان ببراءتي. وصار عندي الآن أمل في أنني أستطيع العثور على ما يكفي من أشخاص يشهدون لصالحي إن بلغ الأمر حد التحقيق معي.

لكن الأمر لم يبلغ حد التحقيق. تم ترتيب كل شيء في غيابي مع أن الجزء الأخير منه ما كان ممكناً إنجازه إلا بمشاركة مني.

أتى كارا زيم، قبيل المساء، باحثاً عني. وقد كان مضطرباً، مضطرباً من أجل نفسه، لا من أجلي. أظنه ما كان ليأتي لولا أن موعد دفعي راتبه الشهري قد حان، فهو يأتيني - كل شهر - بالأنباء التي يراها مهمة. وقد رأى الآن ما أتى به مهم؛ وكان في هذه المرة محقاً.

طلب أولاً زيادة المبلغ لأن عليه أن يعطي خادم المفتي مالاً. علم كل شيء من خلال ذلك الخادم.

«هل هو أمر مهم جداً؟»

«الحقيقة، أظنه مهماً. هل علمت أن المراسل وصل من القسطنطينية صباح اليوم؟»

«علمت. لكني لم أعلم السبب».

«أنت هو السبب».

«أنا هو السبب!»

«أقسمْ لي على أنك لن تبوح بأمر. ضع يدك على القرآن. ضعها هكذا. سوف يحبسونك الليلة».

«هل أتى المراسل بأية أوامر؟»

«هذا ما يبدو. أتى بفرمان القتل».

«يعني هذا أنهم سيخنقونني في الحصن».

«سيخنقونك في الحصن».

«وما الذي أستطيع فعله؟ إنه القدر».

«أتستطيع الفرار؟»

«إلى أين أفر؟»

«لا أدري. كانت هذه فكرة فحسب. أليس لديك أحد يساعدك، مثلما ساعدت حسن؟»

«لم أساعده».

«الآن، يستوي الأمران بالنسبة إليك. لقد ساعدته.. دع الأمر يبقى هكذا. لقد ساعدته. لا تهدم بنفسك الصرح الذي صار لك».

«أشكرك لأنك أتيت. أنت تضع نفسك في الخطر من أجلي».

«وما الذي أستطيع فعله، يا شيخ أحمد، غير هذا؟ دفعني الفقر إلى هذا. ينبغي أن تعلم أنني آسف عليك. لقد ساعدتني كثيراً. عدت إلى الحياة بفضلك. نذكرك كثيراً في حديثنا، أنا وزوجتي. والآن، سنذكرك أكثر. ألا تود أن نتبادل قبلة وداعٍ أخرى، يا شيخ أحمد؟ كنا ذات مرة في ميدان معركة واحد. تركوني مشوهاً، وتركوك قطعة واحدة.. لكن، كما ترى، شاء القدر أن تذهب قبلي».

«فلنتبادل قبلة وداع أخرى، يا كارا زيم. اذكرني بالخير. الآن، وفيما بعد».

خرج دامع العينين؛ وبقيت في غرفتي المعتمة كعتمة الغسق. بقيت مصعوقاً بما قد سمعت.

ما كنت قادراً على الشك فيما سمعت، فهو صحيح بكل تأكيد. كنت أحاول عبثاً أن أخدع نفسي بآمال مجنونة. ما كان ممكناً أن ينتهي الأمر نهاية مختلفة. لقد فتح الوالي بوابة السد؛ ولسوف يحملني التيار ويذهب بي.

رحت أكرر عاجزاً: الموت؛ النهاية. لم أفهم هاتين الكلمتين فهماً تاماً مثلما فهمتهما فيما مضى عندما كنت في زنزانة الحصن، عندما انتظرت الموت غير مكترث به. الآن، يبدو ذلك شديد البعد عني، غير قابل للفهم، مع أني أعلم كل شيء. الموت، النهاية. وعلى حين غرّة، كأن الظلمة التي تتهددني قد فتحت عيني، فاجأني ذعر ألا أعود موجوداً، فاجأني ذعر ذلك العدم. ذلك هو الموت إذاً، تلك هي النهاية إذاً! لقاء أخير مع أعظم أقدارنا هولاً.

لا، أبداً! أريد أن أعيش! مهما حدث، أريد أن أعيش! حتى لو عشت على ساق واحدة أو عشت على حافة هاوية إلى أن يأتيني الموت.. لكني أريد أن أعيش! ينبغي أن أعيش! سوف أقاتل. سوف أعضهم بأسناني. سوف أجري إلى أن يتسلخ جلد قدمي. سوف أعثر على من يساعدني. سوف أضع على عنق أحدهم سكيناً وأرغمه على أن يساعدني! لقد ساعدت غيري! حتى إذا كنت لم أساعد غيري، فهذا غير مهم. سوف أجري مبتعداً عن النهاية، مبتعداً عن الموت.

سرت صوب الباب عاقد العزم، متسلحاً بتلك القوة النابعة من الخوف ومن الرغبة من الحياة. بكل هدوء، بكل هدوء حتى لا يفضحني استعجالي ولا تفضحني نظرة متوترة. سرعان ما يحل الليل. ستخبئني الظلمة. سأجري بأسرع مما تجري كلاب الصيد، سأجري من غير صوت مثلما تطير بومة. سأكون في أعماق غابة من الغابات عندما يلاقيني الفجر. سأكون في منطقة نائية. علي فقط ألا أتنفس تنفساً صاخباً كأنني قد بدأت الجري فعلاً. علي ألا أترك قلبي ينبض مجنوناً هكذا. سوف يفضح أمري، كأنه جرس.

لكني تهاويت فجأة. اختفت شجاعتي، واختفى معها أملي، وقوتي. كان ذلك كله عبثاً في عبث.

رأيت بيري فويفوده واقفاً أمام دار المحكمة. رأيت ثلاثة حراس مسلحين سائرين في الشارع. علمت أنهم آتون من أجلي.

سرت صوب التكية.

لم أستدر كي أنظر إلى دار المحكمة. لعل هذه آخر مرة أكون فيها هنا؛ لكنني ما أحسست شيئاً. ما كنت راغباً في التفكير في أي شيء، وما كنت قادراً على التفكير. كنت خاوياً كأن داخلي قد صار مقلوباً؛ كأنني صرت كلي مقلوباً بطناً لظهر.

اقترب مني فتى في الشارع، عند الجسر. قال لي، «عفواً. أردت دخول دار المحكمة، لكنهم لم يسمحوا لي برؤيتك. أنا من ديفيتاك».

ضحك الفتى عندما قال ذلك، ثم فسر ضحكته من غير تأخير «لا تغضب لضحكي. أنا أضحك دائماً، عندما أتوتر خصوصاً».

«هل أنت متوتر الآن؟»

«في الحقيقة.. نعم. كنت أكرر ما سوف أقوله لك، أكرره منذ ساعة كاملة».

«وهل قلته لي؟»

«نسيت كل شيء».

ثم ضحك من جديد. لم يبد لي متوتراً أبداً.

من ديفيتاك! أمي من ديفيتاك. وقد أمضيت نصف طفولتي في تلك القرية. كانت من حولنا تلك التلال نفسها، وقد نظرنا إلى ذلك النهر نفسه، إلى أشجار الحور نفسها عند ضفته.

هل جلبت لي عيناه الضاحكتان موطني كي أراه مرة أخرى قبل نهايتي؟

ماذا يريد؟ هل ترك قريته مثلما تركتها ذات يوم؟ هل كان باحثاً عن دروب في الحياة أوسع من تلك التي في ديفيتاك؟ أم أن القدر يمازحني كي يذّكرني عن طريقه بكل شيء.. قبل رحلتي الكبرى؟ أم هو علامة، علامة فرج أرسلها إلي الله؟

لماذا يظهر الآن هذا الصبي القروي الذي هو أقرب إلي مما يظن؟ لماذا الآن، لا في أي وقت آخر؟ أهو آتٍ كي يحل محلي في هذا العالم؟

كان بيري فويفوده والحراس سائرين من خلفنا. كانوا يتريثون عند كل منعطف. لن يتركوا لي إلا سبيلاً واحداً.

«أين ستنام الليلة؟»

«لا مكان عندي».

«فلنذهب إلى التكية».

«هل هؤلاء رجالك؟»

«نعم، لا تعرهم أي اهتمام».

«مم يحمونك؟»

«هذه عادة، فحسب».

«هل أنت أهم رجل في القصبة؟»

«لا».

دخلنا التكية، وجلس الصبي على سجادة في غرفتي. ضوء الشمعة الواهي يتراقص على قسمات وجهه النحيل؛ ومن خلفه ظله الضخم على الأرض وعلى الجدار. جلست أرقبه وهو يطحن طعام التكية البسيط بفكيه القويين الناتئين. لعله كان غير منتبه إلى ما يأكله لأنه يتساءل في نفسه كيف سينتهي هذا اللقاء بيننا. لكنه ما كان قلقاً، ولا قليل الثقة بنفسه. وأما أنا، فكنت هذا وذاك.. في ذلك الوقت. أتذكر وجبتي الأولى هنا. لم أستطع تناول أكثر من ثلاث لقمات؛ وقد كدت أختنق بها.

كنا مختلفين، لكننا متماثلين. كان كأنه أنا، مختلفاً عني، مصنوعاً من مادة أخرى، يبدأ السير على الطريق نفسها من جديد.

لعله من الأفضل أن أبدأ كل شيء من جديد؛ لكن الأسى يزيد ما يحيط بي ظلمة.

«لا بد أنك راغب في البقاء في القصبة».

«كيف عرفت؟»

«ألا تخشى المدينة؟»

«لماذا أخشاها؟»

«الأمر ليس سهلاً هنا».

«فهل هو سهل عندنا، يا أحمد أفندي؟»

«وهل تتوقع الكثير؟»

«نصف حُسن طالعك سيكون كافياً لي. فهل هذا كثير؟»

«أتمنى لك أكثر».

أطلق ضحكة مرحة، «أدعو أن يستجيب الله إلى ما تقول. كانت البداية حسنة. ما توقعت، حتى في أحلامي، أن تستقبلني هذا الاستقبال».

«أتيتَ في وقت مناسب».

«أتيتُ في وقت مناسب لي».

ربما. لماذا ينبغي أن تكون هذه الدرب هي نفسها بالنسبة إلى الجميع؟

جلست أرقبه مهتماً، بل ربما حتى بشيء من الرقة. جلس أرقبه كأني أرقب نفسي مثلما كنت في يوم من الأيام، مثلما كنت فتياً جداً، فتياً إلى حد لا أستطيع الآن استيعابه، من غير خبرة، من غير أشواك في قلبي، من غير خوف من الحياة. ما كدت أستطيع منع نفسي من إمساك يده النحيلة القاسية الواثقة واستعادة الماضي بعينين مغمضتين. مرة واحدة فقط، مرة أخرى، حتى إن استمر هذا برهة وجيزة.

رأى الفتى في نظرتي حزناً لا علاقة له به. سألني وقد حرره اهتمامي غير المتوقع.

«تنظر إلي نظرة غريبة كأنك عرفتني».

«إنني أتذكر الفتى الذي جاء إلى القصبة منذ عهد بعيد».

«ماذا جرى له؟»

«كبر وشاخ».

«فلنأمل في أن يكون هذا أسوأ ما أصابه».

«هل أنت متعب؟»

«لماذا تسألني؟»

«أحب أن نتكلم».

«نستطيع الكلام، بالطبع.. طوال الليل، إن أردت».

«من أبوك؟»

«أمين بوشناق».

«يعني هذا أن بيننا قرابة، بل هي أيضاً قرابة لصيقة».

«نعم، نحن قريبان».

«فلماذا لم تقل لي هذا؟»

«كنت في انتظار أن تسألني».

«كم عمرك؟»

«عشرون عاماً».

«لم تبلغ العشرين».

«تسعة عشر عاماً، تقريباً».

كانت الإثارة تخنقني. تحدثنا عنه، وعن الخوجا العجوز، وعن أناس أعرفهم، وكنت أدور حول الأمر الوحيد الذي يهمني حقاً. لا لأنني أردت أن أعرف - أردت الكلام فحسب، وأردت أن أمس كل شيء من جديد فقد أرسله القدر إلي في هذه الليلة من بين الليالي كلها، أرسله إلي كي أغرق نفسي في أفكار عما كان حقيقة واقعة مرة واحدة فقط وما عاد الآن أكثر من ظل بعيد. لكن هذا كل ما لدي. الباقي ليس لي. الباقي ذعر.

«كيف حال أبي وأمي؟»

«هما بخير. كان ممكناً أن يكونا أسوأ حالاً. كان موت هارون ضربة شديدة لهما. كان ضربة لنا جميعاً. لكنهما صارا الآن أكثر هدوءاً مع أن المرارة ما تزال في نفسيهما. يهتمان بما عليهما إنجازه، ثم يجلسان وينظران إلى النار. أمر محزن».

ثم ضحك، كانت ضحكته رنانة، فرحة.

«سامحني. ضحكت رغماً عني مع أني مكتئب. إذاً، ما يزالا حيين. يساعدهما الناس عندما يستطيعون. وما يزال عندهما بعض مما أرسلته إليهما».

«ماذا أرسلت إليهما؟»

«أرسلت مالاً، أرسلت خمسين بياستر. هذه ثروة حقيقية عندنا. وهما لا يحتاجان الكثير. يأكلان مثل عصفورين، ويحافظان على ما لديهما. ليس هذا أسوأ ما في الأمر».

من أرسل إليهما خمسين بياستر؟ حسن! بالتأكيد! إنه حسن. إنها ليلة الرقة التي لا ضرورة لها، ليلة البشارات الطيبة.. قبل أسوأ الأمور طراً. لم تزرني هذه الليلة منذ زمن بعيد، ولن تزورني بعد الآن أبداً.

لماذا أتردد في الذهاب إلى النهاية؟ ما من رقة أبداً بعد اليوم. ما من شيء غير ما هو محتوم.

«وأبوك وأمك، كيف حالهما؟ كيف حال أمين؟»

«إنهما في صحة جيدة، والحمد لله. لكنهما يعيشان حياة ضنك. إما أن يفيض النهر، أو أن تحرق الشمس الحادة كل شيء. لكن أبي حلو الطبع؛ وهذا يجعل كل شيء أسهل احتمالاً. يقول إن من سوء طالع المرء أن يكون فقيراً، لكن من سوء الطالع أكثر أن يحزن لفقره. يقول إن الفقر مصيبة، لكن حزن المرء لفقره مصيبة أخرى. على هذا النحو تظل مصيبة واحدة أهون احتمالاً».

«وأمك، ماذا عنها؟ هل علمتْ أنك آتٍ إلي؟»

«نعم، بالطبع علمت. يقول أبي: إن لديه من المشاغل ما يكفيه. يعنيكَ أنت. لكن أمي تجيبه: لن يقطع رأسه.. تعنيني أنا!».

«هل صارت عجوزاً؟»

«لا».

«كانت جميلة».

«هل تتذكرها حقاً؟»

«أتذكرها».

«ما تزال جميلة».

«كنت وقتها عائداً من الجيش، كان هذا منذ عشرين عاماً».

«وكنتَ جريحاً».

«من أخبرك هذا؟»

«أمي أخبرتني».

«صحيح. الليلة، أتذكر كل شيء. كان عمري يومها عشرين سنة، أو أكثر قليلاً. عدت من الحرب، من الأسر، وفي جسدي ندوب المعركة الأخيرة التي لم تشف بعد.. كادت تشفى، أو ما تزال طرية. عدت معتزاً ببطولتي، آسفاً لأن ثمة ما بقي غير واضح لي، حتى بعد كل شيء. لعل ذلك بسبب ذكرى أستعيدها مرة بعد مرة، بسبب فداحة تضحياتنا التي علت بنا حتى السماء فصار صعباً علينا بعدها أن نمشي على الأرض، أن نمشي فارغين، اعتياديين».

لكن يوماً واحداً يظل متميزاً عن غيره من الأيام.

«كنت أرى تلك الصورة في منامي عندما قررنا صبيحة ذات يوم، وكنا عارفين أننا محاصرون وأن ما من مخرج أمامنا. قررنا أن نموت مثلما ينبغي أن يموت جنود الله تعالى. كنا خمسين شخصاً في فسحة وسط الغابة، فوق سهل خريفي كئيب تعلوه سحب دخان منبعثة من نيران الأعداء. أطاعوني جميعاً؛ وكنت واثقاً من أنهم فكروا مثلما فكرت. تيممنا بالرمل والتراب لأننا كنا من غير ماء. أذّنت فيهم داعياً إلى الصلاة، أذنت ولم أخفض صوتي. صلينا الفجر. خلعنا ما علينا من ملابس حتى بقينا بقمصاننا البيضاء حتى تسهل علينا الحركة. أشهرنا سيوفنا وخرجنا من الغابة لحظة انبلاج الفجر في السهل. لست أدري كيف كان مظهرنا.. بائساً أم مرعباً: لم أفكر في هذا، ولم أحس شيئاً غير نارٍ في قلبي وقوةٍ لا حد لها في جسدي. فيما بعد، كنت أظن نفسي قادراً على رؤية ذلك الصف من شباب بقمصانهم البيض وعضلاتهم العارية وسيوفهم اللامعة في ضياء الفجر سائرين كتفاً إلى كتف، سائرين في السهل. تلك كانت أطهر لحظة في حياتي، أعظم نكران للذات، إشراقة نور فاتنة، وصمت مهيب ما كنت أستطيع فيه سماع شيء غير خطواتي.. على مسافة أميال. فوجئ كارا زيم عندما قلت له هذا. ظن نفسه الوحيد الذي يعرف كيف يحس المحارب (لا أشتهي الآن شيئاً مثلما أشتهي ذلك الإحساس؛ لكنه لا يمكن أن يعود إلي). كانوا يخشوننا؛ وظلوا زمناً طويلاً يحاولون تفادينا. انتظروا زمناً طويلاً كي ينصبوا لنا كميناً. كان عددهم أكبر من عددنا كثيراً؛ وقد بكت أمهات كثيرات بعد المجزرة التي أعقبت

ذلك.. أمهاتهم وأمهاتنا. كنت أولهم؛ وكنت أول من سقط: حصدوني وطعنوني وضربوني.. لم يضربوني على الفور، لم يضربوني سريعاً. ظللت وقتاً طويلاً حاملاً أمامي سيفي المدمى أطعن وأقطع كل ما ليس في قميص أبيض. لكن القمصان البيضاء تناقصت، وتناقصت. صارت القمصان البيضاء حمراء بلون الدم مثل قميصي. وكانت السماء من فوقنا ملاءة حمراء بلون الدم، والأرض من تحتنا بساطاً أحمر بلون الدم. كنا نرى ذلك اللون أحمر، نتنفس ذلك اللون الأحمر، نصيح ذلك اللون الأحمر. وبعدها، استحال كل شيء سواداً، استحال سلاماً. وعندما صحوت، ما كان ثمة من مزيد.. إلا ذكرى في داخلي. كنت أغمض عيني وأعيش تلك اللحظة العظيمة من جديد غير راغب في معرفة أي شيء عن الهزيمة، عن الجراح، عن ذبح الرجال الرائعين، غير راغب في تصديق أن عشرة منا قد استسلموا من غير قتال. أُنكرُ ما كان.. كان قبيحاً. أحاول محموماً أن أحافظ على صورة تخيلتها، على صورة تضحياتنا العظيمة بكل ما كان فيها من نار ولهيب؛ أحاول ألا أتركها تخبو. وبعد ذلك بكيت، بكيت عندما اختفى الوهم. عدت في الربيع إلى موطني، عدت من الأسر، عدت سائراً على طرق موحلة من غير سيفي ومن غير قوتي، من غير بهجتي ومن غير ذاتي التي كانت. كنت متمسكاً بالذكرى فحسب، كأنها تعويذة؛ لكن الذكرى نفسها صارت ضعيفة، فقدت لونها وطراوتها، فقدت حيويتها وما كان لها من معنى. تابعت سيري صامتاً خائضاً في وحل السهول الكئيبة. أمضي الليالي في صمت، في أكواخ القرى وخاناتها. سرت صامتاً تحت أمطار الربيع أخمن اتجاهي تخميناً مثلما يفعل حيوان. سرت تدفعني رغبة في أن أموت في موطني، بين الناس الذين وهبوني الحياة».

رويت للفتى بكلمات عادية بسيطة كيف كانت الحال عندما عدت إلى القرية ذلك الربيع منذ عشرين عاماً. قصصت عليه ذلك من غير سبب. قصصته من أجل نفسي، كأنني أكلم نفسي، لأن الأمر لا يعنيه. لكني ما كنت لولاه قادراً على قول ما قلت. ما كنت لأستطيع أن أكلم نفسي. لو لم يكن معي، لفكرت في الغد.

كان يرقبني دهشاً، جاداً.

قال: «لو كنت سعيداً معافى، فهل تعود إلى القرية؟»

«عندما يضيع كل شيء يلتمس الإنسان الملجأ كأنه يلتمس رحم أمه».

«وبعد ذلك؟»

«وبعد ذلك ينسى. يكون مدفوعاً بقلقه واضطرابه. ويود أن يعود مثلما كان، أو مثلما لم يكن. يفر هارباً من قسمته ويبحث عن قسمة أخرى».

«إذاً، فهو سعيد لأنه دائم الظن بأن قسمته في مكان آخر».

«ربما».

«التماعات الضوء في ميدان المعركة! لم أفهم هذا. لماذا تكون اللحظة أطهر لحظة في حياة المرء؟»

«لأن الإنسان ينسى نفسه».

«ماذا يستفيد من هذا؟ وماذا يمكن أن يستفيد منه غيره؟»

ما كان مدركاً شيئاً من حماستنا. لست أدري إن كان هذا حسناً أم غير حسن.

سألني: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«ألم تخبرك أمك؟»

«قالت لي إنك كنت حزيناً».

صحيح.. كنت حزيناً؛ وقد علمت أمه هذا، علمته حتى قبل أن تراني. كانوا قد سمعوا أنني مت. أنني سقطت في المعركة. فكان ظهوري مثل العودة من الموت، أو كان أسوأ من هذا.. كان كأنني ذاهب إلى الموت لشدة الأسى، لذلك السكون البليد، لذلك البؤس، لتلك الظلمة، ولذعري من أنني غير عالم بما قد وقع. لقد كنت في مكان من الأماكن، وقد كانت التماعات الضوء وانعكاسات اللون الأحمر تؤلمني لأنها تظهر لي من الظلمة مثلما يصيب الإنسان في مرضه. انهار شيء.. هناك حيث كنت، وهنا حيث كان ينبغي أن أكون. انهار وانجرف بعيداً مثلما يجرف التيار ضفة رملية وقت فيضان النهر. لم أدر كيف أفلحت في العوم إلى السطح، ولم أدر لذلك سبباً.

حاولت أمي أن تشفيني بالتمائم والرقى، وألقت بقطعة رصاص في فنجان ماء وضعته فوق رأسي لأنني كنت أبقى صامتاً في يقظتي وأصرخ في نومي. كتبوا لي حجاباً، فلعل سحراً أصابني. أخذوني إلى المسجد فصلوا ودعوا لي سائلين الله

والناس دواءً من أجلي؛ ثم ازداد ذعرهم عندما وافقت على كل شيء لأني ما كنت مبالياً بشيء.

«هل أخبرتك أمك شيئاً آخر؟»

«نعم. قالت لي إنك كنت تغازلها، وكانت تغازلك. يضحك أبي دائماً عندما نتكلم في هذا. يقول إنكما سعيدان، أنت وهو. هو سعيد لأن الناس جميعاً حسبوك ميتاً، وأنت سعيد لأنك تمت. لو لم تسمع أمي خبر موتك لما رضيت به زوجاً. وأما مثلما جرى، فقد ظل الجميع في أحسن حال، وصرتم سعداء، ثلاثتكم».

كان يعرف الكثير، لكن ليس كل شيء. لقد انتظرتْ، حتى بعد أن سمعت. وكانت ستظل منتظرة.. يعلم الله كم كانت ستنتظر. هي لم تتزوج، بل زوّجوها. زوّجوها قبل أيام معدودة من وصولي. لو كان نومي أقل، لو سرت الليالي أيضاً، لو لم أكن مستنفد القوى، لو كانت السهول أصغر والتلال أخفض، لوصلت في الوقت المناسب؛ ولما تزوجتْ من أمين. لو أني لم أترك القرية!.. ما كان لشيء من هذه الأشياء المؤلمة أن يكون، لا موت هارون، ولا ليلتي الأخيرة هذه. لكن، لعل ذلك كله كان سيحدث لأنه لا بد دائماً من ليلة أخيرة، ولا بد دائماً من وجود أمر مؤلم.

كان راغباً في معرفة المزيد.

«عندما تزوجتْ أمي، هل كان ذلك صعباً عليك؟»

«نعم».

«ألهذا كنت حزيناً؟»

«لهذا أيضاً ولأني كنت جريحاً، مستنفد القوى؛ ولأن رفاقي ماتوا».

«وبعد ذلك؟»

«لا شيء. ينسى الإنسان ويتجاوز كل شيء».

ماذا أرادني أن أقول له؟ أأقول إني لم أنس ولم أتجاوز الأمر؟ أأقول إني لم أبال بالأمر؟ كان تعبير وجهه متوتراً عندما نظر إلي. ظل فيه شيء غير راضٍ. كان

ضحكه مصطنعاً كأنه يحاول إخفاء فكرة. أتكون هذه غيرةُ الابن على شرف أمه الذي لا يريد أن يشك فيه؟ لكن أمراً كان يبقيه مضطرباً.

«أتحب أمك كثيراً؟»

«بالطبع».

«ألديك إخوة أو أخوات؟»

«لا».

«هل تأتون على ذكري كثيراً؟»

«نعم. أمي وأنا. أبي يسمعنا ويضحك».

«إرسالك إليّ، فكرة من كانت؟»

«فكرة أمي. وأبي وافق عليها».

«ماذا قالت لك؟»

«قالت: إن لم يساعدك أحمد أفندي، فلن يساعدك أحد».

«وافق أبوك على ذلك. وأنت؟»

«وأنا وافقت على ذلك. ألا ترى أنني أتيت؟»

«لكنك لست سعيداً بالأمر».

احمر وجهه. اتقدت ناراً وجنتاه اللتان لوحتهما الشمس. قال لي ضاحكاً: «الحقيقة أنني فوجئت. لماذا أنت؟ لماذا ليس أي شخص آخر؟».

«لأننا قريبان».

«هذا ما قالته لي أمي».

«لقد قلت لأمين، عندما يكبر ابنك أرسله إليه. سوف أهتم به وأرعاه. ينبغي أن أكون قادراً على هذا».

كذبت! كذبت حتى تهدأ نفسه. كان حساساً أكثر مما ظننت. بدا له أمراً غير لائق أن يطلب والداه مني أن أفعل هذا. كان يرى في الأمر بعض الغرابة.

لكني لم أر فيه غرابة. إذاً.. ها أنا أكتشف الآن، عند نهاية كل شيء، أكتشف أنها لم تنسني. لم أدر إن كنت فرحاً بهذا.. لأن هذا حزين. كانت تأتي كثيراً على ذكري. هذا يعني أنها كانت تفكر فيّ. وقد ائتمنتني على ابنها الوحيد، كي

أساعده، كي لا يظل قروياً فقيراً. كانت تحبه، بكل تأكيد؛ كانت تحبه بما يكفي لأن توافق على تركه يذهب، فقط حتى تخرجه من القرية، مما فيها من تراب وقلة أمان. ولعلي أكون أيضاً ملوماً في أن أولئك الناس يرسلون أولادهم إلى القصبة. شهرتي تدفعهم إلى فعل هذا.

أيتها المرأة الجميلة، ستندمين على هذا، ستندمين عندما تسمعين.

لست أدري كيف صار مظهرها الآن، لكني أتذكر منها جمالها. أتذكر منها تعبير الأسى في وجهها. ذلك التعبير الذي لم أره بعدها قط. ذلك التعبير الذي ما استطعت نسيانه زمناً طويلاً بعدها، لأني كنت سبب ذلك الأسى. بسبب تلك المرأة، المرأة الوحيدة التي أحببت، لم أتزوج أبداً. بسببها هي، هي التي خسرتها. بسببها هي، هي التي أُخذت مني، صرت قاسياً وصرت أكثر انغلاقاً إزاء الجميع: أتذكر إحساسي أنني سُلبت ما هو لي، وأنني لا أريد أن أعطي غيرها ما لم أستطع أن أعطيها. لعلي كنت بهذا أثأر من نفسي، ومن الناس، أثأر من غير إرادة مني ومن غير وعي. جرحني غيابها. ثم نسيت، نسيت حقاً، لكن الأوان قد فات. يؤسفني أني لم أعطِ غيرها ما بنفسي من رقة لم أنفقها، لم أعط أبي وأمي، ولم أعط أخي، ولم أعط امرأة أخرى. لكن، أظنني أقول هذا الآن من غير سبب؛ أظنني أسوّي حساباتي. وذلك أني تركتها؛ أنا أيضاً تركتها كي أذهب إلى الحرب، تركتها من غير أسف، ثم لم أندم إلا بعد فوات الأوان، بعد أن صرت غير قادر على تغيير أي شيء.

صباح اليوم الثالث بعد عودتي إلى القرية، خرجت أتجول بعيداً عن بيتنا بعد أن أرهقني قلق أبي وأمي، بعد أن أرهقني فرط عنايتهما، فانتهى بي الأمر إلى هضبة مشرفة على القرية والغابة والنهر، هضبة صخرية يباب لا شيء فوقها غير نسور تطير راسمة دوائر في السماء. مسست بكف يدي شاهدة قبر ضخم هي الشيء الوحيد المنتصب بين تلك الأرض اليباب وبين السماء. شاهدة قبر صقلها مر القرون ولم يكتشفها أحد قبلي. حاولت جهدي أن أسمع من ذلك الحجر صوتاً، أو من ذلك القبر، وكأن من تحتهما اختبأ سر الحياة والموت. جلست على حافة الجرف، فوق الصخور وفوق الغابات الممتدة من غير نهاية، وأصغيت

إلى هسيس الريح الجبلية، ذلك الصوت الذي يشبه هسيس الأفاعي، وكنت في يبابين اثنين، الوحدة واللا وجود كمثل حال تلك الجثة العتيقة تحت شاهدة القبر. صحت بها، «أنت!»، صحت بعيداً، صحت في خواء الزمن فتدحرج صوتي على الصخور المسننة. صوت يعاني الوحدة، وريح تعاني الوحدة.

ثم نزلت إلى الغابة وضربت جبيني بلحاء الأشجار، مزقت ركبتيّ على جذورها ذات العقد، وقفت بين أذرع الأجمات المفتوحة، عانقت أشجار الزان، وضحكت. سقطت أرضاً وضحكت، ونهضت ثم ضحكت. صحت مخاطباً الجثة البعيدة التي تعيش في وحدتها، «أنت!»، الجثة التي أرادت أن تكون في الأعالي حتى وهي محبوسة في قبر. «أنت!» صحت بهذا وضحكت، وجريت هارباً.

درت من حول القرية كي لا أراها. نزلت إلى النهر. ما من وحدة هناك. أتيت بالوحدة معي، من الأعلى، أتيت بها من بعيد، مضيت على ضفة النهر المستوية، وسرت في الماء الضحل، وصرت أدخل الماء وأخرج منه كأني في سكر، سرت مفتوناً بالخرير الناعم، خرير تيار الماء السريع. وقفت في الماء يغمرني حتى الركبتين وتخيلت نفسي أغرق في دوامة، أغرق أعمق فأعمق: أغرق أعمق فأعمق، وبلغ الماء ذقني، بلغ شفتي، غمرني وصار فوق رأسي. أمواج التيار من فوقي، ومن حولي صمت ضارب إلى الخضرة، وأعشاب تتهادى في الماء وتلتف على ساقيّ. وكنت أتهادى مثلها، مثل نصل من أنصال العشب. أسماك صغيرة سبحت داخلة فمي، خارجة من أذني. سرطانات النهر أطبقت مخالبها على أصابع قدمي. سمكة ضخمة بطيئة الحركة مست ساقي. سلام. عدم اكتراث. «أنتِ!». صحت صامتاً وجلست في الأخدود الذي بين الدرب والنهر، بين الحياة والموت.

ما كان من حولي أحد. وما مرت نفسٌ بذلك الوادي الصغير بين القريتين. كان الجميع في الحقول، أو في أعمالهم من حول بيوتهم. وكان في هذه الوحدة ألمٌ سارّ؛ جعلتني حزيناً، لكني ما كنت مستعداً لمبادلتها بأي شيء. فاحت الأرض برائحة رطوبة الربيع الدافئة. حطت اليمائم على أشجار الحور، وكانت الحمائم تستحم في الماء الضحل، تنظف ريشاتها، وتنثر من حولها قطرات ماء صغيرة حمراء وخضراء. جرس بقرة يرن متكاسلاً في مكان في البعيد. مكان مألوف،

وألوان مألوفة، وأصوات مألوفة. نظرت من حولي: هذا كله لي. شممت الهواء: إنه لي. أصغيت: هذا لي أيضاً.

وكان لي أيضاً ما هو خاوٍ، ما هو ليس هناك.

لقد تقت إلى الذهاب إلى ذلك المكان. كنت أتشمم الريح مثلما يفعل ذئب؛ وقد وجدتْ رغائبي وجهة لها؛ وها أنا هنا. لقد أتيت. الأعجوبة التي كنت أتمناها ما عثرت عليها، لكن هذا كان جميلاً، كان حسناً، وكان هادئاً، كان هادئاً مثل هدوء النوم. وكان هادئاً مثل هدوء النقاهة.

مررت بيدي على العشب الناعم النابت حديثاً. عشب طري مثل جلد طفل. ونسيت الأرض التي تستيقظ من نومها.

عندما كنت مسرعاً في عودتي من الجيش، كنت أفكر في موطني، في بيت أهلي، وفيها.. بعض الأحيان.

وأما ساعتها، فما كنت مفكراً إلا فيها.

همست في نفسي: لو انتظرتِني لكان ذلك أفضل، لكان أكثر سهولة علي. لم أدر سبباً، لكنه سيكون أكثر سهولة علي. لعلكِ كنت أهم عندي من موطني ومن بيت أهلي.. الآن، بعد أن ضعتِ مني. ليتك ما وُجدتِ! لو لم توجدي لكان هذا أسهل، لكان هذا أفضل. من غيرك، ستؤلمني المسافة والأرض الغريبة، ستؤلمني أكثر، وستؤلمني الطرق الخاوية والأحلام الغريبة التي تراودني حتى في يقظتي، الأحلام التي لا أستطيع طردها عني من غيرك.

ما كنت آسفاً: ما كان الأمر بذي بال. لكني ناديت ظلها، وجهها الغائب كي أقول وداعاً، كي أقولها مرة أخيرة، كي أتركها من جديد.

وقد أفلحت في استحضارها، في خلقها من تلك الأجمات الخضر، من انعكاسات الماء، من ضياء الشمس.

كانت واقفة، بعيدة، كلها ظلال. إن هبت نفحة ريح، فستختفي.

تمنيت ذلك، وخفته.

قلت: «علمت أنك ستأتين». ثم قلت على الفور، من غير توقف «لقد فات الأوان وما بقي شيء منك إلا في أفكاري. وليكن ما من شيء باقياً، حتى ذلك».

وقلت مودعاً: «الله معك! لن أتركك تسكنينني كأنك شبح. سوف تكونين دائماً واقفة بين هذه التلال، مثل القمر، مثل النهر، مثل مؤذن فوق مئذنته، مثل تجلٍّ ساطع. لقد ملأتِ هذا المكان، ملأته بنفسك مثل تمتلئ المرآة بك؛ ملأتِه عطراً مثلما يمتلئ فراشك بعطرك. سأمضي في العالم. لن تكوني هناك، ولن تكوني في ذلك المكان الآخر، ولا حتى صورتك ستكون فيه لأنها لن تكون في داخلي.

سألتني: «لماذا تضع رأسك بين يديك؟ هل أنت حزين؟»

قلت إني سأمضي وأسدلت أجفاني كأنها قناع عليهما، كأنها بوابة. أغمضت عيني حتى أستبقي صورتها المتفلتة مني. سأرحل حتى لا أكون مضطراً إلى النظر إليك. سأرحل حتى لا أفكر في خذلانك.

«أتعلم كيف كان شعوري؟ أتعلم كيف أشعر الآن؟»

سأرحل حتى لا أكرهك، حتى لا أبقى مبالياً. لقد بعثرت صورتك على الطرق البعيدة: آمل أن تحملها الريح وتطير بها، وأن تغسلها الأمطار فتزيلها. ولسوف يمحوها ألمي من قلبي.

«لماذا رحلت الخريف الماضي؟ لا يجوز أن يرحل الإنسان عندما يكون عنده سبب داعٍ إلى البقاء».

«كنت مضطراً».

«لقد تركتني. عمّ كنت تبحث في العالم؟ لقد عدت حزيناً. أهذا كل ما حققت؟»

«أنا حزين لأنني جريح، لأنني متعب، لأن رفاقي قد ماتوا».

«أنت حزين بسببي أيضاً».

«أنا حزين بسببك أيضاً، لكني لم أشأ أن أقول لك هذا. ارتحلت أياماً وأسابيع كي أراك. كنت أستلقي في الأماسي وأنام تحت شجرة في الغابة. أنام جائعاً، متورم الساقين، متجمداً تحت المطر الجليدي؛ وكنت أنسى كل شيء إذ أكلمك. سرت في طرق لا آخر لها، وقد ذُعرت لكثرة تلك الطرق هناك وللمسافات

المهولة في هذا العالم. لو لم أكن ممسكاً يدك بيدي، سائراً إلى جانبك، لو لم أحس وركك عند وركي متمنياً ألا تستوي الطريق، ألا أغمض عيني، حتى تكوني أقرب إلي، وحتى تكوني أكثر وضوحاً. لماذا تبكين؟»

«زدني كلاماً عن تفكيرك فيّ».

كانت وجنتاها شاحبتين، وألقت أهدابها ظلالاً كثيفة تحت عينيها، وارتعشت ركبتاها المثنيتين على الأرض، واستقرت يداها عندهما، ومست العشب براحة كفها مثلما مسّته كفي قبل قليل.

«لماذا أتيتِ؟»

«أتريد أن نذهب في هذا العالم معاً؟ سأترك كل شيء وآتي معك».

لقد كانت زوجة رجل آخر منذ ثلاثة أيام. كانت آثار كفيّ الرجل الآخر على جسدها. قطفت شفتا الرجل الآخر الأزهار عن جلدها.

قلت لها هذا. قلته متألماً، معذَّباً.

أجابت من غير أن تفهم شيئاً، إجابة حمقاء: «ولكن، ألهذا فقط؟»

أمسكت ذراعيها كأنني رجل غريق. إنها امرأة رجل آخر. وما كنت مبالياً بهذا لأنها كانت لي، إلى الأبد. ما علمت معنى الأبد، لكني علمت تلك اللحظة وحدها، اللحظة الوحيدة التي تهمني. اللحظة التي تمحو الزمن، وتمحو الحزن. انغرست أصابعي المرتعشة فيها كأنها مسامير. لا يستطيع أحد أن يأخذها مني حية. أمسكت بها وثبّتها على الأرض بتلك القبضة البهيمية. صار النهر صامتاً؛ ولا صوت إلا تلك الأجراس في داخلي، تلك الأجراس المجهولة التي ما رنت حتى تلك اللحظة، أجراسي كلها راحت ترن كأنها تطلق إنذاراً. سوف يجتمع الناس من حولنا. ما كنت مهتماً بهم. لا وجود لهم. آه، يا حلمي! يا حلمي الذي صار ضحية!

ثم توقف رنين الأجراس، وعاد العالم مثلما كان. استعدت بصري ورأيتها قد وُلدت من جديد؛ ولدت مختنقة، بيضاء فوق العشب الذي كان أخضر اللون. استحالت حجراً من حجارة النهر البيض، ونَمَتْ في الأرض. أزهار نبتت من إبطها. تفتحت زُهيرات الثلج بين فخذيها. انداحت زغابات الحور على جلدها الرقيق فلم أدر إن كان عليّ أن أتركها تندفن تحتها أو أن أسجّيها في دوامة عميقة

أو أن أحملها معي وأضعها في ذلك القبر الحجري فوق الغابة. إن استلقيت إلى جوارها، فهل أتحول إلى عشب الربيع وأغصان الصفصاف؟

انصرفتُ من غير التفات. لم أدر إن كانت قد نادتني، ولم أتذكرها إلا غريبة مثل ذلك القبر.

«أنت!» أصيح بهذا بعض الأحيان، أصيح عبر مسافات الزمن، أصيح منادياً ذلك القبر الربيعي الأبيض. ولكن، لم يأتني أي صدى من ذلك البعد كله.

وهكذا نسيت.

وأظنني ما كنت لأتذكر الآن لو أن ابنها لم يأت هذه الليلة، هذه الليلة من بين الليالي كلها.. ولعله ابني!

أعلم مثلما يعلم كل غبي أنني أستطيع القول: لو أن ما وقع لم يقع، لكانت حياتي مختلفة. لو لم أذهب إلى تلك الحرب، لو لم أرحل عنها، لو لم أقل لهارون أن يأتي إلى القصبة. لو أن هارون لم.. هذا سخف! فماذا تكون الحياة عندها؟ لو لم أتركها، لو لم يبد الهرب لي أسهل من عصيان العالم كله، فلعل هذه الليلة ما كانت لتأتي. لكني واثق من أنني سأبدأ كره تلك المرأة ظاناً أنها اعترضت سبيل سعادتي ومنعتني من النجاح في الحياة. هذا لأني لن أعلم ما أعلمه الآن. الإنسان محكوم بلعنة: يندم على كل درب لم يسر فيها. ولكن، من يدري ما كان في انتظاري لو سرت في دروب أخرى؟

قال لي الفتى حالماً: «من حظك أنك تركت القرية».

«اذهب إلى الفراش، أنت متعب».

«أنت محظوظ».

«سوف أوقظك باكراً. أنا ذاهب في رحلة».

«هل ستكون رحلتك بعيدة؟»

«سوف يعتني بك الحافظ محمد. أتريد الإقامة في التكية؟»

«لا أدري».

وأنا أيضاً لم أدر. فليتخذ قراره بنفسه. فليجرب الأمر. لست قادراً على مساعدته. ما من أحد قادر على مساعدة أحد!

أراد أن يقبل يدي. لا بد أنهم نصحوه بهذا وأكثروا من نصحه كي يفوز برضاي ويظهر لي عرفاناً لا يحسه.

لم أتركه يقبل يدي.

خرج. خرج متعباً ـ الطريق طويلة من القرية إلى القصبة (ولعل طريق العودة من القصبة إلى القرية أطول منها) ـ وأظنه فوجئ قليلاً بأن انتهى كل شيء نهاية حسنة. لعله حزن لأنه سيبقى هنا. مر كل منا بالآخر مروراً بارداً.. كأننا غريبين.

فكرت، شبه متقزز، كيف كان يمكن أن يصير الأمر مختلفاً. كان ممكناً أن أعانقه. كان ممكناً أن يقبل كل منا الآخر على وجنتيه. كان ممكناً أن أسدي إليه نصيحة ذكية، أن أضم يديه الخشنتين بين يدي، وأن تمتلئ عيناي دموعاً، فأهمس له آسفاً «يا بني». كان ممكناً أن أحاول ـ محاولة غبية ـ أن أعثر على ملامحي في وجهه وأن أترك عنده صورة أخيرة عني، صورة تبقى في ذاكرته. كان من الأفضل حقاً أن يتذكر مني أمراً أكثر لطفاً، أكثر عقلاً.

نعم.. وقفت فوقه حاملاً شمعة بيدي. وكان مستغرقاً في نوم عميق لا يحظى به إلا من كان في مقتبل العمر، أو من كان قليل العقل. عبثاً حاولت أن أعثر في نفسي على رقة أو حنان. تواثب النور على قسمات وجهه، وكان صدره النحيل يتنفس آمناً. فمه الصارم مثل فمي، كان مبتسماً لشيء تركه لكنه ظل متصلاً به. قلت في نفسي: سوف يحتل مكاني هنا، وفي الحياة.. عظامه لعلها مثل عظامي، مثل ما كانته عظامي في وقت مضى. والحياة ماضية في سبيلها. لكن شيئاً لم يتحرك في نفسي. ظلت تلك الفكرة باردة فلم أنحن كي أقبله أو كي أمسه بيدي. لا قدرة لي على الرقة.

مع هذا، أتمنى لك حظاً طيباً، أيها الفتى!

في مكان بعيد في الظلمة، نادى الحارس الليلي معلناً منتصف الليل. آخر منتصف ليل في آخر يوم من أيام: سوف تلاقي نهايتي بدايتها.

علمت هذا، لكني دُهشت لأن كل شيء مما ينبغي أن يحدث بدا لي بعيداً جداً، وبدا غير واقعي أبداً. في موضع عميق في نفسي، لا أصدق أنه سيحدث.

أعلم أنه سيحدث، لكن في داخلي شيئاً مبتسماً يقاومه وينكره. سوف يحدث لكنه غير ممكن. لست أعلم بعد، لست أعلم ما فيه الكفاية. وما يزال في قلبي قدر كبير من الحياة. وأنا أرفض قبوله. ربما لأني أكتب هذا: لم يصبني قنوط؛ وأنا أرفض الموت.

لكني وضعت الريشة من يدي قبل حين، فلم تستطع يدي الخدرة حملها من جديد. ظلت زمناً طويلاً عاجزة عن حملها لأنها متعبة، أو لأن الإرادة تعوزها. لأن فكرة جبانة تبادرت إلى ذهني.. ما أفعله لا معنى له! وبما أني كنت من غير دفاع، كنت عاجزاً، دبت الحياة في العالم من حولي. لكن العالم صامت، وفيه ظلمة.

نهضت وذهبت إلى النافذة المفتوحة. صمت وظلمة تامان، نهائيان. لا شيء في أي مكان، ولا أحد في أي مكان. كف آخر العروق عن النبض، وانطفأت آخر ومضة ضوء. لا صوت، ولا نفَس، ولا أثر من نور.

آه، أيها العالم، أيتها الأرض اليباب، ما الذي يجعلك الآن تكون هكذا؟

عندها، في مكان غامض في ذلك الصمم، في ذلك الموت، صدح صوت صافٍ فتيٍّ واضح، ثم بدأ أغنية غريبة، أغنية حالمة ناعمة لكنها نضرة، تقاوم. أغنية كأنها أغنية طائر. ثم انتهت الأغنية فجأة مثلما بدأت. لعل الصوت قد خُنق مثلما يُخنق طائر.

لكنه ظل حياً في داخلي، وحرّكني، وأثارني، ونبهني. ذلك الصوت البشري العادي، غير المألوف، الذي لم ألاحظه من قبل، لم ألاحظه حتى الآن. لعل هذا لأنه ظهر في الصمت، ظهر آتياً من عالم آخر! لعله لأنه ما كان مذعوراً، أو لأنه كان مذعوراً، فقد كان يناديني، يتعاطف معي، يطمئنني.

بدأت أحس رقة تأخر ظهورها. أنت، يا من يغني في الظلمة المخيفة.. أسمعك. صوتك الهش أسمعه كأنه درس لي. لكن، لماذا الآن؟

أين أنت، يا إسحاق! أيها المارق.. هل وُجدت يوماً؟

أيها الطائر الذهبي.. أنت لست إلا وهماً!

وفي الغرفة المجاورة كان الحافظ محمد ساهراً. لعله علم بالأمر، فجلس منتظراً أن أدعوه إلي، أو أن أذهب إليه. لعله يريد أن يترك لي وقتاً كي أسوي حساباتي مع نفسي وكي أسأل الله الرحمة. لعله يذرف الآن دموعه الشائخة المسنّة، يذرفها على أحزان هذا العالم. يشفق على الناس جميعاً. أخفق في حبهم بطريقته، وأخفقت بطريقة أخرى. هذا ما يجعلنا وحيدين.

لكن، لعله مشفق علي أكثر من غيري، ولعله يُفردني عن هذا البؤس العام ويتقبلني كأنه آخر رجل يتقبل آخر رجل.

أأقول له: يا حافظ محمد، أنا وحيد، وحيد وحزين، فأعطني يدك وكن صديقي، قليلاً فقط! كن أبي، ابني، رجلاً عزيزاً يسعدني قربه مني! دعني أبكي على صدرك الغائر، وابك معي بدورك، ابك من أجلي، لا من أجل الناس جميعاً. ضع كفك البليلة فوق رأسي: لن يدوم الأمر طويلاً، لكني محتاج إليه. لن يدوم طويلاً، لأني بدأت أسمع أصوات الديوك الأولى.

الديوك الأولى! تلك النذر الخبيثة التي تستحث الزمن قدماً كأنها تنخسه كي تحول دون نومه، كي تستعجل مصائبنا وتُنهضها من مكامنها حتى تقف في انتظارنا وقد انتصب شعرها ذعراً. اصمتي، أيتها الديوك! توقف، أيها الزمن!

أأصرخ في الليل كي أستدعي الناس، كي ألتمس العون؟

لا جدوى. الديوك لا تعرف رحمة فهي تطلق الإنذار منذ الآن.

أنا جاثم على ركبتي، مصغ إليها. في صمت هذه الغرفة، من مكان في الجدار، من مكان في السقف، من مكان غير مرئي، أسمع تكات ساعة القدرة، أسمع خطوات القدر التي لا تلين.

الخوف يفيض. الخوف كأنه ماء يغمرني.

لا يعلم الأحياء شيئاً. علّموني، يا من ماتوا، علموني كيف أموت من غير خوف، أو من غير ذعر على الأقل. فالموت لا معنى له.. مثله مثل الحياة.

أنادي كي أُشهد الحبر، الريشة، الكلمات المنسابة من يَراعي؛
أنادي كي أُشهد الظلال المترنحة، ظلالَ المساء الغارق، الليلَ وكل ما يُحييه؛
أنادي كي أُشهد القمر عند تمامه، كي أُشهد الشمس عند مغربها؛
أنادي كي أُشهد يوم القيامة، كي أُشهد الروح التي تتهم نفسها بنفسها؛
أنادي كي أُشهد الزمان، بداية كل شيء ونهاية كل شيء، كي يشهد على أن الإنسان لَفي خُسر.

وبيده كتب حسن، حسن ابن علي آغا:

ما علمت أنه كان تعساً تلك التعاسة كلها.

سلامٌ على روحه المعذَّبة.

1966 - 1962

مكتبة
t.me/soramnqraa

ميشا سليموفيتش

الدّرويش والموت

رواية عن تحليل الذات.. عن التضحية.. عن الحياة، والدين، والمشاعر: الحب والكره، وتأثير المجتمع على شخصية دينية ملتزمة. كتبها الأديب ميشا سليموفيتش بلغة حية يشعر القارئ بمساس معانيها لوجدانه.

دراما نفسية عميقة عن "أحمد نور الدين" شيخ التكية المولاوية، والمحارب السابق والذي كان يؤمن بأن السلطة مرادفة للعدل والأمن، حتى اعتقلت السلطة أخيه وقتلته بلا تهمة واضحة.

فكان هذا بمثابة الحجر الذي سقط وتزحزح بعده جبل المبادئ الراسخ. تعامل الشيخ مع الحدث بالكراهية و النسيان حتى دخل السلطة ومارس العنف ضد أقرب الأصدقاء، وهكذا تحول من متمرد على السلطة إلى سوطٍ يجلد معارضيها، ثم تحدث المفاجآت ويندم.

telegram @soramnqraa

منشورات وسم